PHILBY

العربية السعودية

من سنوات القحط إلى بوادر الرخاء

هاري سانت جون فيلبي

« عبد الله فيلبي »

SAUDI ARABIA

مكتبة العبيكان

« الحاج عبد الله فيلبي »
هاري سانت جون بريد جر فيلبي

ولد فيلبي في عام ١٣٠٢هـ / ١٨٨٥م من أسرة إنجليزية محافظة وكان مولده في سيلان حيث كان يعمل والده بتجارة القهوة.

بعد عودته إلى إنكلترا التحق فيلبي بمدرسة وستمنستر وهناك بدت علامات نبوغه، ثم التحق بعدها بكلية ترينتي Trinity بجامعة كمبردج وتخرج فيها ١٩٠٧م بدرجة امتياز.

ثم درس فيلبي سنة أخرى في جامعة كمبردج اللغتين الفارسية والهندوستانية وذلك عقب التحاقه بقائمة الخدمة المدنية لدى حكومة الهند البريطانية، أمضى بعدها سبع سنوات في الهند وقد درس خلالها اللغة البنجابية والأوردية، وبدأ يتعلم القرآن واللغة العربية مما خوله فيما بعد ليكون ضمن البعثة المتجهة إلى البصرة في عام ١٩١٥م.

ثم كانت بعدها أول بعثة له إلى الجزيرة العربية وكان ذلك في ١٣٣٦/١/١٣هـ - ١٩١٧/١٠/٢٩م.

ثم توالت بعدها بعثاته ورحلاته وزياراته إلى الجزيرة وتوطدت علاقته بالملك عبد العزيز، وقد ساعدت رحلاته الكثيرة على تكوين كم هائل من المعلومات الجغرافية والأثرية والتاريخية عن الجزيرة العربية والتي دونها جميعها فيما بعد في كتبه التي سنعرض لها.

أعلن فيلبي إسلامه في عام ١٩٣٠م.

وكانت وفاته في بيروت في عام ١٩٦٠م، عن عمر يناهز الخامسة والسبعين.

العربية السعودية

تأليف

هاري سانت جون فيلبي

«عبدالله فيلبي»

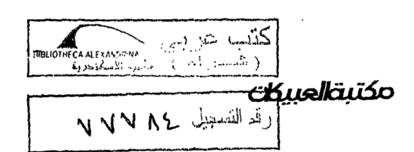
تعريب

د. عاطف فالح يوسف

مراجعة وتدقيق وتعليق

د. فهد بن عبدالله السماري — د. عمر العمري

أ. عبدالله المنيف — أ. عبدالرحمن الشقير



ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

فيلبي، هاري سانت جون

العربية السعودية/ ترجمة عاطف فالح يوسف. ـ الرياض.

٦٨٠ص، ٥ر١٦X٢٤سم

ردمك: ١-٤٤-٠-٤٠-٩٩٦٠

١- السعودية (وصف رحلات) أ- يوسف، عاطف فالح (مترجم)

ب- العنوان

ديوي ٩١٥٫٣١٠٤ ٣٠٩١ / ٢٢

ردمك: ١-٤٤-٠-٤٠-٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٣٠٩١ / ٢٢

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض ـ العليا ـ تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة.

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩


بسم الله الرحمن الرحيم

محتويات الكتاب

الإهـداء

إحياءً لذكرى

«عبد العزيز بن سـعود» أعظم

ملوك الجزيرة العربية

أواه... ها هو قد قضى نحبه، وأصاب الوجل كافة

القلوب التي شهدت جثمان ذلك الملك وهو يوارى الثرى

ستظل أمجاده من هذه اللحظة وصاعداً راسخة في

ذكرى بني البشر!

تشارلز. مر. داوتي: (الفجر في بريطانيا)

***

كلمة الناشر

يطيب لمكتبة العبيكان للنشر والتوزيع أن تقدم للقارئ الكريم سلسلة كتب فيلبي التاريخية ذات العلاقة بتاريخ وجغرافية المملكة العربية السعودية لأول مرة باللغة العربية.

ويأتي إصدار كتب فيلبي خاصة، لعدة اعتبارات أدبية، من أهمها أن فيلبي سبق له أن أقام في المملكة العربية السعودية مدة طويلة، واتصل بالملك عبدالعزيز، وقد أتاح له ذلك فرصة إشباع رغبته في الترحال والاطلاع على كثير من المناطق والمواقع الأثرية في مختلف أنحاء المملكة، وقد أفادت رحلات فيلبي وكتاباته تاريخ وجغرافية بلادنا بشكل متميز، باعتبار أنه قدم من خلال ما كتبه وصفاً حياً لكثير من المواضع الجغرافية، والمواقع الأثرية، مما نتج عنه نقل عدد كبير من أسماء المواضع في مختلف أرجاء الوطن.

ومما يميز كتب فيلبي التي سبق أن صدرت بلغتها الأصلية قبل أكثر من سبعين عاماً أنها احتوت على معلومات تاريخية وجغرافية مهمة، ومن هنا تم انتقاء مجموعة منها لترجمتها إلى اللغة العربية نظراً لأهميتها التاريخية.

كما تمتاز كتب فيلبي أيضاً بأنها تضم عدداً لا بأس به من الصور الشمسية (الفوتوغرافية) لبعض الأعلام والمدن والمعالم الجغرافية، وهذه الصور لا شك أن لها دوراً إيجابياً يعين على تصور بعض المعالم الجغرافية إضافة إلى بعض الجوانب الحضارية التي كانت سائدة تلك الفترة.

وسيلاحظ القارئ الكريم عندما يقرأ في كتب فيلبي أنه أمام موسوعة مختصرة لتاريخ المملكة العربية السعودية غطت حقبة زمنية مهمة حيث كتب فيلبي بأسلوبه

السلس الرصين عن تاريخ المملكة، وجغرافيتها، وأعلامها، وآثارها، واقتصادها، وقد كان أثناء سياقه للأحداث العامة أو ذكرياته الخاصة لا يغيب عنه -كلما سنحت له الفرصة- إبداء إعجابه بشخصية الملك عبدالعزيز -رحمه الله- وبجهاده في توحيد البلاد، ثم إعجابه بسياسته في الارتقاء ببلاده حتى صارت دولة حديثة تحظى بتقدير العالم، وهذا الإعجاب له ما يبرره وسوف يتنبه القارئ إلى بعض مواطن هذا الإعجاب والتقدير في مواضعها من كتب فيلبي التي تمت ترجمتها في هذه السلسلة.

إن مكتبة العبيكان للنشر والتوزيع لترجو أن تكون قدمت بهذا الجهد -الذي تم بإشراف لجنة علمية متخصصة- جزءاً من خدمة بلادها من خلال إحياء تاريخها. وقد حرصت المكتبة على إخراج الكتب وترجمتها إلى اللغة العربية كما جاءت في النص الإنجليزي. ومع ذلك فإن جميع الآراء والأحداث التي ذكرها المؤلف في كتبه التي تنشرها المكتبة تمثل وجهة نظر المؤلف الخاصة، ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

وفيما يخص هذا الكتاب؛ فإن المكتبة تشكر كل الذين أسهموا في مراجعة الترجمة على ملاحظاتهم القيمة، وتخص بالشكر سعادة الدكتور فهد بن عبدالله السماري أمين عام دارة الملك عبدالعزيز الذي بذل الجهد في مراجعة الكتاب.

والله ولي التوفيق،،

الناشر

مكتبة العبيكان

التمهيد

أسدل موت الملك عبد العزيز بن سعود في التاسع من نوفمبر (تشرين الثاني) من عام ١٩٥٣ الستار على فصل مشرق من فصول تاريخ العرب. وربما يأتي هذا الحدث في المرتبة الثانية من الأهمية بعد الفترة المكية التي ظهرت في القرن السابع الميلادي والتي شهدت فجر الإسلام كعنصر بارز في التطور الإنساني.

كما كان مقدر لمحمد ﷺ أن يكون رسولاً. كذلك كان للقدر دور في حياة عبدالعزيز. كان قدر الرسول محمد ﷺ أن يعيد توجه التطلعات الروحانية ليس فقط لأبناء جلدته بل لشعوب عديدة أخرى تعيش وراء حدود شبه الجزيرة العربية. أما بالنسبة لـ «عبد العزيز بن سعود» فقد كان قدره أن يقود شعبه من مجاهل الضياع إلى أرض تزخر بالخيرات والرزق الوفير، مستخدماً لذلك الغرض نفسه السلاح الروحاني ليحقق السلام والنظام في جو تسوده الفوضى، وتتنازعه الأهواء وثقافة الجاهلية القديمة.

لم يكن الملك نفسه مفتوناً بالطرق الجديدة، لكن همومه ووهن جسده ومشاق الحياة التي عانى منها، أضعفت وبشكل تدريجي من قدرته على مقاومة تيار التطورات والابتكارات التي سرعان ما جرفت كل معالم الحضارة القديمة، ومهما يخبئ المستقبل للمملكة سيظل الملك عبد العزيز - الذي أرسى أسسها - واقفاً شامخاً في التاريخ كآخر - أو ربما كأعظم - شخصية بين عدد كبير من شخصيات القادة العرب الذين تتميز سمعتهم بإنجازاتهم الشخصية التي تحققت وسط ظروف الصحراء القاسية والحالمة على حد سواء، وهذا لا يعني أن هناك سبباً يدعو لليأس من قدرات العرب في تحقيق التقدم والازدهار.

كان الملك عبد العزيز آخر (الوهابيين)[1]، وهذا الكتاب يعرض منجزاتهم وفقاً لتسلسلها الزمني والتاريخي. وها قد تبدل المناخ المادي والروحاني السائد في شبه الجزيرة العربية بشكل جذري، فلا يمكن لذلك التغيير إلا أن يكون تغييراً باقياً ومستمراً.

صُمم هذا الكتاب على أن يُنشر إبان حياة الملك عبد العزيز والذي يتم إهداؤه حالياً تخليداً لذكراه. إن «المملكة العربية السعودية» التي هي عنوان هذا الكتاب أضحت اليوم معروفة لدى كافة دول العالم، والتي اعترتها الشكوك في فترة ما بخصوص قدرة الملك عبد العزيز على حكم العرب في هذه المنطقة. وقد اقتضى موته إجراء بعض التعديلات على نص هذا الكتاب لتحقيق نهاية لقصة عظيمة دون أية محاولة لتقييم أبرز معالم فترة حكمه الطويلة أو -ولحد كبير- تقييم تطلعات النظام الجديد تحت إمرة ابنه وخليفته الأكبر «سعود» الذي يعد الحاكم الرابع[2] الذي يحمل هذا الاسم من آل سعود. وإن من المستحسن هنا أن أدرج مقدمة عن الإنجازات السعودية مع تحليل مبدئي لإسهام الملك عبدالعزيز وإنجازاته وعن المشكلات التي تركها لوريثه الأمير سعود.

المراحل الأولى للجهاد والوقوف في وجه المصاعب والأعداء الضيقي الأفق

(١) يستخدم المؤلف اسم «الوهابية» مثل الكثير من المؤلفين الغربيين وغيرهم عند الحديث عن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب.
والمصطلح الذي يقصده المؤلف هنا هو الحركة الإصلاحية التي قام بها الشيخ محمد بن عبدالوهاب وآزره فيها الإمام محمد بن سعود.
ولذلك فقد آثرنا استبدال كلمة الوهابيين والوهابية عند ورودها في ثنايا الكتاب بالدولة السعودية. (المراجعون).

(٢) يقصد المؤلف هنا: الأمير سعود بن محمد بن مقرن، والإمام سعود بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود، والإمام سعود بن فيصل بن تركي، والملك سعود بن عبدالعزيز. (المراجعون).

والتفكير، وما تلاها من مراحل التوسع الناجحة على نطاق دولي، وفترة التوحيد: تأخذ هذه الأحداث حيّزاً تاريخياً يمتد على مدى أربعين عاماً سيتم رصدها في صفحات هذا الكتاب ويمكن القول، إنه على مدى تلك الحقبة من التاريخ، لم يرتكب الملك عبد العزيز أي خطأ، وما يؤكد هذه الحقيقة شهادة السير بيرسي كوكس. وإن عدم ارتكاب أي خطأ هو - بحد ذاته - إنجاز مبهر لأي إنسان..

يمكن القول إن الملك عبدالعزيز كان في عام ١٩٤٢م في ذروة حياته السياسية وسمعته، ولكنه قبل عشر سنوات تقريباً من ذلك التاريخ اتخذ قراراً غير تقليدي الذي بدأ الآن يلقي بظلاله على المستقبل. لقد سمح الملك عبدالعزيز للأمريكيين بدخول بلاده بحثاً عن الزيت، وتم الحصول على الزيت، ولكن تطوير إنتاجه توقف بسبب نشوب الحرب العالمية الثانية. أصبحت المملكة العربية السعودية في حالة ركود وندرة في الموارد نتيجة لذلك ولتناقص أعداد الحجاج القادمين إلى مكة المكرمة في الوقت نفسه. أصبح الملك عبدالعزيز الذي قاد بلاده في الماضي بكل يسر يحصل على دخل سنوي لا يتجاوز ١٠٠ ألف جنيه، وتعوّد فيما بعد على دخل سنوي أكثر من ذلك الدخل بخمسين مرة، أصبح الآن في حالة يائسة.

وعلى مدى بقية سنوات الحرب، قدمت أمريكا وبريطانيا مساعدات مالية سخية، ورغم ذلك فإن كل الأموال كانت تتضاءل أمام بعض المصروفات الهائلة في ظل تفاوت الأولويات عند بعض المسؤولين غير المخلصين عن المصروفات. ثم بدأ النفط يتدفق بكميات قليلة لكنها مرضية، وجرف هذا التدفق على قلته حواجز كانت سائدة وأعرافًا قائمة. وفهم الملك عبد العزيز أهمية المال، لكن ذلك لا يعني أنه كان

يريد المال لإغناء ثروته الشخصية، إذ إنه لم يتخلّ أبداً عن بساطة الأخلاق التي ترعرع عليها في شبابه. فقد كان في أيام الفقر كريماً ومضيافاً، وكان إذا توافر العطاء يعطي بدون قيود، وكان يُحكم التشديد على مصادر ثروات البلاد ليرضي الطموح الذي لا ينتهي. وتمكن الملك عبدالعزيز حتى النهاية من بلوغ أرقى مستويات العظمة، سواء في حالات الغضب أو في حالات الفطنة المستشارة بفعل هذه الأحداث، وحتى على مدى طيلة سنوات عمره كان وجوده -أو حتى غيابه- بمثابة تحذير لمن تسول له نفسه أن يقوم بعمل عدائي ضده.

لم يكن هناك أي شيء يضاهي مئات ألوف الرسائل وبرقيات التعزية التي تلقاها ابنه على مدى الأسابيع التي أعقبت وفاته. . ذلك عدا ألوف كبار الشخصيات التي أتت إلى المملكة من أقاصي الأرض ومشارقها لتعرب شخصياً عن إجلالها للراحل العظيم. كانت تلك ظاهرة مؤثرة تجلت بالإعجاب والتقدير والحب لرجل ذي مزايا مميزة وبسمة إنسانية بارزة وسحر يفوق الوصف.

إنه ميت الآن ولن نرى رجالاً من أمثاله في الجزيرة العربية مرة ثانية، لن نرى رجالاً مثل الملك عبدالعزيز يصعب التنبؤ بمستقبلهم، بالرغم من انعدام أرضية حقيقية للتشاؤم.

إن مهمةَ مواجهة ومجابهة الوضع الجديد مهمة ضخمة ولا أحد يُدرك ذلك أفضل مما يُدركه الملك الجديد الذي شاطر والده مسؤولياته على مدى عشرين عاماً، حتى قبل أن يُطلب منه أن يتسلم عبء المسؤولية مدعوماً بأخيه الأمير فيصل الذي أصبح يشغل منصب ولي العهد والحاكم المأمول لهذه البلاد بعد أخيه.

بالرغم من كل التنبؤات غير المبنية على أسس سليمة، لم ترد على البال أبداً إمكانية حدوث أية مشكلات تتعلق بتوالي السلطة من شخص إلى آخر. كانت أسرة الملك المؤسس الكبيرة العدد متحدة في ولائها له لدرجة أنه لم يطرأ أي تحد للترتيبات التي سنها والتي تتعلق بمستقبل مملكته، وكان لدى الملك سعود دلائل على أن التهاني والتبريكات الرسمية التي تلقاها عند توليه الحكم، كانت مقرونة بدعاء خالص منبعث من قبل الشعب مع أطيب أمنياته له بالتوفيق، كما أن تلك التهاني جاءت من الدول العربية والمسلمة المجاورة، ومن كافة دول العالم متمنين له حكماً مديداً ومزدهراً.

ومنذ تلك اللحظة أصبح الملك ملتزماً بمهمة تتطلب جل قدراته. تركزت كافة الصلاحيات في شخصية العاهل الحاكم بسبب نظرته لمفهوم السلطة التي يجب أن تُناط بحاكم واحد، ولذلك لم يكن هناك أي احتمال بخصوص الإسناد الفعال للسلطة لأي شخص آخر، علماً بأن وزير المالية مارس إشرافاً فعلياً على الإدارات الاقتصادية والمالية في كافة أرجاء البلاد، بصفته النائب المفوض عن جلالة الملك. حدث أيضاً في مناسبات معينة أن مارس ولي العهد صلاحياته، لكن وفق دوره الدستوري كأمير متول منصب -ولي العهد- إلا أن البلاد كانت في حاجة ماسة لحكومة دستورية يمكن أن تكون في موقع يمكنها من تجاوز أية مرحلة انتقالية يمكن أن تنجم بسبب وفاة الملك أو توقف نشاطه. لكن تم إدراك هذه الحاجة في وقت متأخر جداً، وعندما تم أخيراً تشكيل الحكومة برئاسة ولي العهد جاءت وفاة الملك لتوقفها قبل أن يسنح لها الوقت أن تتبلور بشكل فعلي. تحول رئيس الوزراء ليصبح الملك وكان لابد للمشكلة الدستورية أن تنتظر حتى

تتم دراستها في وقت لاحق. . . تم ذلك في وقت كان الملك سعود فيه مشغولاً بتسلم إجراءات مهامه. كُلف الأصدقاء القدامى للملك بتوجيهات من ولي العهد الجديد بإدارة الآلية الإدارية الحكومية، وبالتالي استنباط وإدخال تحسينات عليها، كان الملك آنذاك مشغولاً في القيام بجولات مكثفة على القطاعات الحكومية ليطلع عليها بنفسه وليراه الشعب.

حققت الزيارات التي قام بها الملك إلى كل من مصر والباكستان، وكذلك اللقاء مع عاهل الأردن الملك حسين، فرصاً لجلب التزامات دولية للمملكة العربية السعودية. كما تحقق من خلالها مشاورات مع حكام البحرين والكويت وقطر واليمن، هذا وحظي حاكم سوريا المخلوع لفترة وجيزة بالترحاب بصفته لاجئاً سياسياً يقيم في الرياض، وتم أيضاً إعادة النظر في علاقات المملكة مع النظام الجديد في سوريا وفي علاقتها مع لبنان.

وأخيراً وليس آخراً كانت المملكة العربية السعودية في تلك الفترة تجري محادثات متواصلة وأحياناً لاذعة مع الحكومة البريطانية بخصوص الأزمة في منطقة البريمي. لم يألُ الملك جهداً في الاضطلاع بمسؤولياته، وكان بالفعل أكثر الأشخاص في المملكة انشغالاً بأعماله، علماً بأنه لم يبْدُ أن ضغوط العمل كانت ترهقه. وكان الشعب ينتظر بفارغ الصبر اللحظة التي يمكن فيها للملك أن يعالج مشكلات الإدارة المحلية التي كانت تتطلب جل عنايته واهتمامه.

بعد مرور أربعة أشهر فقط على اعتلائه سدة العرش، وفي السابع من شهر مارس (آذار) دشن الملك الحكومة الجديدة رسمياً وسط أبهة واحتفالات تليق بتلك المناسبة التي ألقى فيها كلمة العرش التي دلت إلى حد ما على الخطوط

العريضة لتفكير الملك ومستشاريه. أما بخصوص الإدارة المحلية للمملكة فلم يعد سراً أن البلاد لن تترك نفسها تحت رحمة وزارة المالية التي كانت على وشك أن تحل وتوزع أشلاؤها على الدوائر الأخرى بما فيها دوائر جديدة كانت ستُستحدث.

تم ترشيح اثنين من إخوة الملك ليشغلا منصب وزراء، في حين شغل الملك منصب رئيس مجلس الوزراء، وشغل ولي عهده منصب نائب رئيس مجلس الوزراء. ضمت الحكومة ـ التي بلغ عدد أعضائها عشرة أشخاص ـ ما لا يقل عن سبعة أمراء، وتضاعف فيما بعد عدد أفراد ذلك المجلس بسبب انضمام العديد من المستشارين والرسميين الحكوميين إليه، وكان لابد من مرور بعض الوقت لتتمكن أجهزة تلك الحكومة من العمل بشكل فاعل، إلا أن حل وزارة المالية كان قد أسفر عن صدور قرار رسمي بتوقيف كل المعاملات المالية بما فيها الأموال المنفقة والديون المترتبة على الدولة.

أما على صعيد السياسة الخارجية فقد دل حديث الملك على تنوع طفيف في السياسة التي كانت متبعة وحتى يومنا هذا وفق التوجيهات الحكيمة والحذرة التي كان ينهجها والده، وأكدت تلك السياسة بالتحديد على إصرار النظام الجديد على تعزيز روح العداء للكيان الإسرائيلي، وهو مبدأ تلتزم به -وعلى أقل تقدير - كافة الدول العربية، علماً بأن لكل بلد عربي موقف تجاه هذه المشكلة يختلف وبشكل طفيف عن موقف الدول الأخرى، وذلك لسبب بسيط هو أن مواقفهم تجاه إسرائيل تؤثر على مصالحهم المحدودة.

شجع التحسن الكبير الذي طرأ على العلاقات بين المملكة العربية السعودية والأردن منذ مأساة وفاة الملك عبدالله هذا الموقف الجديد، إذ كان

الملك عبدالله دائماً العقبة الرئيسة في وجه أي تجانس في المواقف بين العرب.

جاءت المساعدات المالية التي قدمها الملك سعود والأخرى التي وعد بتقديمها للأردن بغرض إقصائه عن أية محاولة لإجراء مفاوضات مع الحكومة الإسرائيلية بفعل أو تحت تأثير الضغوط البريطانية والأمريكية كنتيجة طبيعية للتحالف مع مصر بخصوص قضية القناة. وكانت تلك المساعدات في حد ذاتها بمثابة تفهم مشترك من قبل البلدين بخصوص قضية (البريمي) المثيرة للجدل مع حكومة بريطانيا. وإن نقطتي الاختلاف هاتين أصبحتا الآن في طريق التسوية والتوصل إلى اتفاق حول خطوط معينة، في حين أنه من غير المحتمل أن تفرز مشكلة المحميات البريطانية في القسم الجنوبي من المملكة العربية السعودية أية ردود فعل مفاجئة ضد السياسات الاستعمارية البريطانية من قبل الدول العربية الرئيسة. ومن الناحية الأخرى فمن المحتمل أن يسبب الموقف المصري الجديد حيال قضية دمج دول الهلال الخصيب (العراق والأردن وسوريا) كما سبب في السابق بعض التوتر في التحالف الشرعي الحالي.

وإن مجمل قضية الحياد العربي أو التعاون مع الغرب في أمور تتعلق بالدفاع أو بموضوع العداء للاتحاد السوفيتي ستطرح وبالتأكيد لدراسة جديدة في جو أكثر هدوءاً من الأجواء الحالية. إن مارد الإمبريالية البريطانية الذي لم يخرج من زجاجته بعد، إضافة إلى ضرورة إيجاد ثقل توازن للسيطرة الأمريكية الاقتصادية المهيمنة على كافة دول العالم، شجعت ألمانيا على إبداء موقف متحد اكتسبت ألمانيا من خلاله وضعية المرشد والفيلسوف والصديق للمملكة العربية السعودية،

واستمر ذلك التقارب إلى أن حدث الانفراج الدولي المفاجئ في علاقات الدول مع بعضها البعض.

كان حاضر السعودية يتقدم إلى المستقبل بسرعة لم يسبق لها مثيل ولم يستطع المؤرخون مجاراة ذلك التطور، لكن يمكن القول وبثقة تامة إن مستقبل النظام السعودي الجديد تحت قيادة جلالة الملك سعود الرابع سيعتمد كلياً على قدرته في مقارعة المشكلة الخطرة المتعلقة بالإدارة المحلية، كما تتعلق في قدرته على ضبط ظاهرة السلب والنهب في الدوائر المدنية تلك الخدمة المستلهمة من تصورات وطنية رائعة، إلا أنها فارغة في مضمونها من أي فحوى يمكن وصفه بالروح الوطنية. فقد كان من حسن الطالع أن الملك قد اتخذ قراراً من شأنه على الأقل أن يخفف من أعباء مسؤولياته الجسام، إذ جرد نفسه من كونه المسؤول الوحيد عن سلوك حكومته. كان ذلك بأن تخلى عن رئاسة مجلس الوزراء وأسندها إلى أخيه ولي العهد الأمير فيصل بن عبدالعزيز بن سعود.

لم يكن بالإمكان اتخاذ خيار أفضل من ذلك الاختيار، وأصبح الآن بإمكان المملكة العربية السعودية - وبعد زمن طويل - أن تقول بأنها تُحكم من قبل حكومة جديدة وتتمنى لها كافة دول العالم التوفيق في مهمتها الشاقة في استعادة الاستقرار والسمعة الحسنة، إذ يعود الفضل في تأسيسها إلى أعظم شخصية عربية في العصر الحديث.

وبخصوص هذا الكتاب المطروح بين يدي القراء، فقد وجهت كل جهودي - كما فعل المؤرخ العربي ابن بشر - للبحث عن الحقيقة، فلم أكتب أي شيء لم أعتقد بأنه الحقيقة، كما أرجو ممن يجد خطأً في كتابي هذا أن يصفح عن زلتي، لأن مَن يصفح عن زلة مسلم سيصفح الله عن زلاته ويغفر خطاياه.

لندن: في سبتمبر (أيلول) ١٩٥٤ هـ. سانت جون فيلبي

المقدمة

قد انقضى ربع قرن تقريباً على نشر كتابي «الجزيرة العربية» ضمن سلسلة كتب العالم الحديث من قبل الناشر «أرنيست بن» المحدودة، ولم تظهر منذ ذلك التاريخ أي محاولة جادة ولا على أي مستوى خارج حدود العالم العربي لتقييم التطور التاريخي الذي مرت به الجزيرة العربية حتى الوقت الحاضر، كما لم تقم أي محاولة في عزو تطورها إلى التاريخ المنصرم.

فقد حاولت وإلى حد ما أن أسد الفراغ من خلال كتابي «أيام عربية» الذي نشر في عام ١٩٤٨م، وكتابي الآخر بعنوان «اليوبيل الفضي العربي» الذي نشر في عام ١٩٥٢م، وقد نشرت الكتابين شركة روبيرت هيل المحدودة. لكن يمكن وبشكل عام الإقرار بأن الوقت قد حان للقيام بمسح شامل منطقي لإنجازات سلالة جلالة الملك ابن سعود منذ ما يزيد على مئتي عام وحتى وقتنا الحاضر، وإنَّ الوقت الراهن هو في الواقع موات لمثل هذه المحاولة.

إن النظام القديم آخذ في التغيير بسرعة تذهل المراقبين، فاسحاً المجال أمام إدارة جديدة لا يمكن التنبؤ بمسيرها في المستقبل. جسدت شخصية الملك عبدالعزيز سمات أجداده وآبائه، فقد كان الأعظم بين أقرانه، بل يمكن القول بأنه من أعظم العرب في كافة الأزمان باستثناء الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم -. فقد سمح لعناصر شابة أن تتولى زمام أمور البلاد بعد مضي ما يزيد على خمسين عاماً من حكم متميز سيبقى خالداً في سجلات العرب التاريخية. وبغض النظر عما يخبئه المستقبل لهذه الدولة الحديثة التي أسسها وفق الشريعة الإسلامية فإن سجل منجزاته وسمعته ستبقى محفوظة

على مدى العصور وبمأمن من أي عدوان. قبل ربع قرن مضى بدأتُ آخر فصول من كتابي «الجزيرة العربية» بعبارة: «أوشكت قصة الجزيرة العربية الحديثة على الانتهاء»، كتبت ذلك ولم يكن لديَّ يقين تامٌّ بأن التحولَ كان وشيكاً وأنه يسجل بداية حقيقية لحكومة حديثة محلية وسيُحيل كل الأحداث التي سبقت إنشاءها إلى عالم التاريخ القديم.

ومن المؤكد أنه كان من الصعب في ذلك الوقت تقدير ما تضمنته هزيمة «الإخوان» الذين ثاروا ضد قائدهم الذي يربطه معهم عهد الولاء في السبلة، وجاءت ثورتهم بدافع دفاع وهمي عن العقيدة التي كان القائد المدافع الشرعي عنها. فهل أنذر ذلك بهبوط في درجة حرارة التزمت؟ في الواقع حدث فعلاً ذلك الهبوط في السنوات التي تبعت ذلك الحدث، لكن لم يكن بالإمكان في تلك الأيام الإجابة عن هذا السؤال بالإيجاب دون معرفة مسبقة بالتطورات المترتبة عليها والتي كان من الصعب التنبؤ بها في ذلك الوقت، فلم يكن باستطاعة أي شخص أن يتكهن بها، وعلى سبيل المثال نذكر منها: بحث الأمريكيين عن النفط أو النتائج الدرامية المترتبة على مشاريعهم التي أحدثت ثورة في اقتصاد الصحراء العربية، وما كان لهتلر أن يستولي على السلطة في ألمانيا ليلوح بخطر نشوب حرب عالمية ثانية. ومع ذلك قدر لهذين العاملين اللذين بدأا بالتحرك خلال السنوات الأربع من مرحلة الحرب أن يؤديا دوراً رئيساً في توجيه منحنى الصحراء العربية نحو اتجاه ربما كانت الصحراء العربية مستعدة له لكن بشكل جزئي... ربما يعود الفضل في ذلك الاستعداد لأفواج قدمت إلى الصحراء العربية من دول أجنبية وأخرى إسلامية، على أمل أن تجد العمل في البلاد السعودية.

كانت خطى التحول سريعة بشكل يصعب استيعابها بيسر وسهولة، لكن لم يكن هناك مجال للشك في حقيقة التغيير الذي عم كافة أرجاء البلاد خلال فترة تزيد بقليل على عقدين من الزمن. بقيت مظاهر الأشكال القديمة على مدى عشر سنوات تقريباً محفوفة بشيء أكثر من الإصلاحات الشكلية، حتى غدا من المستحيل تقريباً تقفي أي أثر في الأوضاع الحالية لمظاهر التقشف، جاء ذلك التحول مع مجيء الحرب والنفط، وإلى آخر ما هنالك..

وبالطبع كان واضحاً أنه من الممكن للغليان الذي نجم مؤخراً عن التعصب الديني أن يستنفد نفسه تماماً كما حصل لغليان أسلافهم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وذلك إما لعدم توافر الوقود اللازم لإذكاء نيران ذلك الغليان كما كان عليه حال الإمبراطورية السعودية الأولى التي توسعت لدرجة أنها وصلت إلى ما وراء حدود إمكانياتها في تحقيق الانتصارات، وفقدت قواها وسط الظروف الباعثة على الاكتئاب والناجمة عن التراجع من أقاصي أطراف الحدود أمام القوى العاتية التي احتشدت ضدها من كافة الاتجاهات. وربما جاء ذلك التراجع بسبب غمر الروح البشرية -وبالتحديد البدو- في إبقاء نفسها إلى أجل غير محدد في حالة توتر شديد لغياب أزمة حقيقية أو لوجود شقاق داخلي كما حدث في القرن التاسع عشر. ومع ذلك لم يبدُ أن أيّاً من هذين العاملين أسهم في تلطيف حدة الصحوة السعودية خلال العقود الثلاثة الأولى للقرن العشرين، والتي أذكى نارها واستخدمها عن قصد قائد بارع في تسخير الرجال لغاياته من أجل إعلاء كلمة الله وإيجاد إمبراطورية داخل الحدود العملية التي أوجدتها

ظروف الفترة التي عاش فيها . . . ثم إنهاء تلك الحركة بنفس التروي والتعقل الذي ترعرعت فيه .

حدث ذلك عندما تغلبت الحمية والاندفاع على التعقل ، وأصبحت تهدد الإنجازات الفردية التي تحققت في شبابه وزهوة مجده .

إنها بالتأكيد حدود عظمته التي تجلت في كونه مستعداً في اللحظة الحاسمة من خضم أعماله لاتخاذ إجراء صارم لجعل أتباعه منضبطين (والذين هم في الحقيقة مخلصون له) .

وذلك في كافة أرجاء الدولة التي شيدها وحافظ عليها من العبث دون أن يخسر ولا حتى شبر واحد من أراضيها منذ تلك الأيام وحتى يومنا هذا .

في الواقع أثبت جدارته ونجح في المواضع التي مثل فيها سلطته ، وليس هناك من سبب يستدعي الافتراض بأن الدولة العربية التي أوجدها ستخسر أياً من أراضيها التي سيرثها من سيأتون من بعده .

ربما يكمن سرُّ نجاحه في حقيقة أنه فهم -على عكس سلفه- الطبيعة الحقيقية لشخصية البدوي السريعة الاستثارة .

كما فهم المجتمع شبه البدوي والذي قدر له أن يحكمه لفترة طويلة من الزمن .

تجدر الإشارة هنا إلى أن المتعصبين في منطقة نجد لا يطلقون على أنفسهم

اسم «الوهابيون» أي أتباع حركة محمد بن عبدالوهاب أكثر مما اعتاد أول معتنقي الإسلام في منطقة الحجاز أن يطلقوا على أنفسهم اسم المحمديين[1]، كانت هذه المصطلحات في الأصل ألقاب تهكمية يستخدمها مناهضوهم لوصف الحركات التي تنادي بوحدانية الله، لكن بعد النصر النهائي الذي حققوه، قبل الملتزمون بآراء هذه الحركات وهذه الألقاب وحملوها كشعارات فخر على صدورهم . . تماماً كما قبلت فرقة الجنوب الشهم خلال وبعد الحرب العالمية الأولى لقب «الأخساء القدامى»، وفي كلا الحالتين أطلق أتباع العقيدة الصحيحة على أنفسهم وببساطة اسم «المسلمون» كما أطلقوا على دينهم اسم «الدين الإسلامي».

وبالفعل بدأ العهد الجديد، إن تقدم الدولة الحديثة وانفتاحها على أغلب شعوب العالم شكل ذروة قصة عظيمة كانت بداياتها في الأيام الخوالي وفي عصور غابرة منذ زمن طويل: حدث ذلك عندما أصبح سعود الأول -أحد وجهاء ومالكي منطقة الدرعية في وادي حنيفة- المؤسس الذي تسمى الدولة باسمه والمنتمي إلى أول قبيلة في جزيرة العرب.

سردتُ تلك القصة بكل التفاصيل التي تمكنت من ذكرها في صفحات مجلدي الأول تحت عنوان «الجزيرة العربية»، ومن الواضح من هنا أنه يصعب حذفها كلية لكن لابد من اختصارها بطريقة أو بأخرى لنفسح المجال لمناقشة مستفيضة للأحداث والاتجاهات الحاصلة في عصرنا الحالي، والتي أخرجت الجزيرة العربية من عزلتها القديمة ووضعتها تحت الضوء على المسرح الدولي.

(١) لم يطلق المسلمون الأوائل على أنفسهم هذا اللقب وإنما أطلقه عليهم المستشرقون. (المراجعون).

أما بالنسبة لمن يرغبون بالمزيد من المعلومات عن الأيام الماضية التي عاشتها الأسرة المالكة، فإنه في الواقع لدي أمل بأنه في يوم ما في المستقبل القريب سيكون بإمكانهم إشباع فضولهم، فقد حظيت بالسعادة والتشريف بأن رأيت مخطوطتين أوليتين لكتابين رائعين قام على كتابتهما أدباء أمريكيون من الجيل الجديد، يغطي هذان الكتابان القصة الكاملة للدعوة السلفية في الجزيرة العربية منذ أيامها الأولى وحتى بروز الأسرة المالكة السعودية في عام ١٧٨١م.

فالكتاب الأول[١] يسرد قصة ظهور وسقوط الدولة السعودية، معتمداً في ذلك على كافة المصادر والمراجع الموثقة المتوافرة، ومؤلف الكتاب هو السيد (جورج رنتز)[٢] الذي يعمل في شركة أرامكوا بالظهران. أما الكتاب الثاني[٣] فهو للكاتب: بيللي وايندر -من جامعة برنستون- وفيه يسرد الكاتب القصة من حدث سقوط الدرعية في عام ١٨١٨ وحتى معركة «المليداء» الحاسمة في عام ١٨٩١م.

وفي كلا الكتابين -كما هي الحال في كتابي «الجزيرة العربية»- نجد أن قصة القرن الأول (الذي اشتمل على نشاطات الدعوة السلفية) تركز بالدرجة الأولى على أعمال مؤرخين بارزين سعوديين هما: حسين بن غنام الذي يتوقف سرده للأيام الأوائل بشكل مفاجئ عند معركة في منطقة «رنية»

---

(١) محمد بن عبدالوهاب (١٧٠٣/ ٤-١٧٩٢) وبدايات سلطة التوحيد في الصحراء العربية (بيركلي، كاليفورنيا، ٣/ ١٢/ ١٩٤٧). (المؤلف).

(٢) يُعد مسؤولاً عن السجل الشامل لأحداث عُمان والشواطئ الجنوبية لشبه الجزيرة العربية (١٩٥١م)، أعد هذا العمل من قبل قسم الأبحاث في شركة الزيت العربية الأمريكية، وهو يحتوي على كثير من المعلومات عن الأنشطة السعودية في المنطقة. (المؤلف).

(٣) تاريخ الدولة السعودية من ١٢٣٣هـ/ ١٨١٨م وحتى ١٣٠٨هـ/ ١٨٩١م. (المؤلف).

حدثت بين السعوديين وشريف مكة في عام ١٧٨٧م، بعد مضي خمس سنوات على وفاة الشيخ محمد بن عبدالوهاب. والمؤرخ الآخر هو عثمان بن بشر الذي أورد في كتابه كامل القصة واستمر في سرد أحداثها حتى عام ١٨٥١م. ولأسباب غامضة تخلى ابن بشر عن تسجيل وقائع الأحداث المعاصرة، علماً بأنه عاش حتى عام ١٨٧٣م، وبهذا القدر من السرد التاريخي ومن السرد الذي يتعلق بالتطورات التي حدثت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، يمكن القول بأن هناك فجوة في سلسلة الأحداث التاريخية التي قام المؤرخون السعوديون بتدوينها، والتي كان من الضروري استكمال النقص فيها من مصادر متنوعة بما فيها قصص وروايات المسافرين وذكريات الطاعنين في السن.

على أي حال حدث مؤخراً أن شهد عدد من المخطوطات التاريخية والمؤلفة من قبل مؤرخين سعوديين النور، وتحتوي تلك المخطوطات على معلومات إضافية قيمة. من أبرز تلك المخطوطات «عقد الدرر» للكاتب إبراهيم بن صالح بن عيسى، الذي يسرد في مجلده الأول بقية القصة، ومن النقطة التي توقف عندها ابن بشر وحتى عام ١٨٨٥م. ويبدو أن المجلد الثاني هذا بقي دون تحريف واعتُمد كمسودة لعمل آخر اسمه «عنوان السعد والمجد»، قام «عبدالرحمن بن ناصر» بجمع العملين في كتاب واحد بعد أن حذف الصفحات المعترض عليها وأحل محلها إضافات وتعديلات هامشية.

ولحسن الحظ وجدتُ أن معظم الصفحات التي تم حذفها موجودة في إحدى المخطوطات التي حصلت عليها بفضل من الأمير مساعد وهو أصغر إخوة الملك الراحل، وهذا العمل يشكل مصدراً أصيلاً مهماً للمعرفة المتعلقة

بفترة حساسة من آخر عقدين في القرن التاسع عشر سواء عُزي هذا العمل إلى «ابن عيسى» أو لم يُعزَ إليه. ويدون هذا المجلد الأحداث حتى عام ١٩٣٦م، وبذلك يربط النصر الجديد بسلسلة الأحداث التاريخية الخاصة بالتاريخ السعودي.

وهناك عمل آخر تناول نفس المرحلة الزمنية قام على إعداده «سعود بن هذلول الثنيان آل سعود» وهو من الأسرة الحاكمة، وبالتحديد من أحفاد أحفاد أحفاد سعود الأول، ومن المحتمل أن يكون هذا المؤلف قد استند في عمله الأول الخاص بالسنوات الأولى على نسخة أخرى من المجلد الثاني للمؤرخ «ابن عيسى» الذي يواصل القصة حتى عام ١٩٤٠م مع ملاحظات قليلة متقطعة تتعلق بأحداث لاحقة. هذا كما أن هناك مخطوطة بعنوان «شذى الند» للمؤرخ «مطلق بن صالح» والتي من المحتمل أن يكون قد أعدها بالاعتماد على مصادر مشابهة للمصادر المشار إليها أعلاه، وهي تتناول الفترة من عام ١٨٨٠م وحتى وفاته في عام ١٩١٧م. هذا وقام ابنه «صالح» بسرد بقية الأحداث على مدى الفترة من ١٩١٧م وحتى ١٩٤٠م.

وأخيراً يمكنني القول إن «جورج رنتز» لفت نظري إلى عمل آخر، علماً بأن الوقت كان قد فات للاستفادة من ذلك العمل في الكتابة حول تلك الفترة التاريخية، كتب ذلك المؤرخ الأمير «ضاري بن رشيد» تحت عنوان «نبذة تاريخية عن نجد» وهو مؤرخ في عام ١٩١٣م.

وتلك هي -على ما يبدو- كل المواد التاريخية المحلية والمعروف بأنها متوافرة للدارسين عن الدعوة السلفية على مدى قرنين من الجهاد سبقا ولادة المملكة العربية السعودية. من المحتمل أن تكون هناك مخطوطات أخرى

موجودة ومختبئة في أماكن من المؤكد بأنها تحتويها، لكن احتمال إحياء مثل هذه الأعمال يبدو طفيفاً. ويذكر «ابن بشر» أنه قام بدراسة لأعمال مختلفة من هذا النوع، لكن لم يتعرف أحد على أي منها حتى الآن. ويشير «ابن بشر» مع إشادة طفيفة إلى كتاب من تأليف «محمد بن علي بن سلوم الفرضي الحنبلي» وهذا الكتاب على ما يبدو قد اختفى أيضاً.

من الممكن بالطبع أن تكون أعمال من هذا النوع قد وجدت طريقها إلى بلدان معينة مثل الهند، ومصر، وتركيا وحُفظت هناك، لكن إلى أن يحين اكتشافها ونشرها يتوجب علينا أن نقنع بالأعمال المشار إليها آنفاً وننظر إليها على أنها المصادر المحلية الوحيدة المتوافرة لدينا والتي ربما تبدو على أنها تلاشت بإرادتها وليس بمقتضى أوامر أعدائها. ولا تزال أبراج الدرعية -بالرغم من أعمال التدنيس التي اقترفها الأعداء قديماً- شامخة متحدية لأعدائها، في حين لا تزال مئذنتنا الجامع الكبير الجديد في الرياض والذي تمت توسعته وتم بناؤه بالإسمنت المسلح، إضافة إلى القصر المعماري الجيد الذي يجثم على أنقاض أطلال حجارة طين القلعة التركية يقفان شامخين كرمزين يشهدان على عصر جديد وعلى أفكار جديدة.

اشتمل النظام القديم على العديد من الأمور الجيدة والعظيمة، لكن لا يسعنا إلا أن نأمل بأن يكون المستقبل جديراً بالروح المعنوية التي استلهم الماضي منها جُل زخمه.

الفصل الأول

الدرعية، المنطلق

أملاك الدرعية

لم يمض على وفاة «تيمور لنك» سوى أقل من نصف قرن، عندما عاود فاتحو الأندلس احتلالهم لإسبانيا لمدة نصف قرن آخر. . . وجاء ذلك قبل اكتشاف «كولومبوس» لأمريكا بخمسين عاماً. . . في تلك المرحلة انطلق في عام ١٤٤٦م أحد الأشخاص العاديين من القطيف أو ربما من ضواح تعرف باسم «الدرعية» في زيارة لابن عم له يدعى «ابن درع» الذي كان قد استقر منذ فترة طويلة في منطقة «منفوحة» جنوبي الرياض. كان «ابن درع» هذا زعيم الدروع على وادي حنيفة في منطقة هي الآن مجرد قرى صغيرة مهجورة في «الجزعة» وفي «حجر اليمامة»، وكان هذا الزعيم - على ما يبدو - ثرياً وله أملاك على طول وادي حنيفة تحتاج إلى عناية وتطوير. وعلى أي حال، قدّم «ابن درع» إلى زائره قطعتي «غصيبة» و «المليبيد» اللتين تقعان على مسافة اثني عشر ميلاً في أعلى الوادي الكبير[1] التي أصبحت تعرف فيما بعد باسم «الدرعية» كذكرى لاسم القرية الأم الواقعة بالقرب من الخليج والتي ترعرع فيها مؤسسوها.

لم يعرف بالتأكيد فيما إذا كان الشخص الفعلي الذي تسلم هاتين القطعتين هو «مانع المريدي» الذي كان - فعلاً - أول من بدأ المراسلة مع ابن عمه من «الجزعة»، أو كان ابنه الذي يُطلق عليه اسم «ربيعة»[2] على أي

(١) المقصود وادي حنيفة. (المراجعون).

(٢) هذا الترجيح من المؤلف كان اعتماداً فيما يبدو على بعض المخطوطات المحلية مثل ابن بشر إذ أخطأ الناسخ للمخطوطة المشهورة والمحفوظة في متحف لندن، بأن الذي قدم هو ربيعة، وقد علق على ذلك محقق نسخة تاريخ ابن بشر، الشيخ عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ وذكر أن الذي قدم هو مانع المريدي وليس ابنه ربيعة، ويؤكد هذا الذي ذهب إليه المحقق وجود أكثر من نسخة لتاريخ ابن بشر يرد فيها أن اسم القادم هو مانع المريدي وليس ربيعة. (المراجعون).

حال كان «ربيعة» نفسه هو الذي أرسى أسُس ازدهار البلدة الجديدة إذ واظب بشكل ملحوظ على تنميتها، كما أبدى توسعاً على حساب جيرانه. لكن يتشرف «ربيعة» ووالده مانع في كونهما الأجداد الأوائل لسلالة «آل سعود» والمشار إليهما في الكتب التاريخية. سيطرت تلك العائلة وبشكل ملحوظ ورائع على الساحة في الصحراء العربية على مدى المائتي عام المنصرمة التي شهدت العديد من الأحداث المتقلبة.

كان «سعود» الذي تسمى الأسرة باسمه والمؤسس الحقيقي للعائلة المالكة هو الحفيد الخامس لـ «مانع»، كما أن الملك الحالي للمملكة هو المنحدر مباشرة من سلالته مروراً بخمسة عشر جيلاً. إلى أن تمكنت تلك الأسرة من الوصول إلى الجيل السابع عشر بأعدادها التي تؤكد استمراريتها لأيام مديدة قادمة وأنه لن يطول العمر لأي منا ليدرك أيام تلك الأجيال.

ولسبب ما، لم تذكره السجلات التاريخية للجزيرة العربية، كان وادي حنيفة في منتصف القرن الخامس عشر محط أنظار العديد من الناس. كانت أملاك أصحابه في تلك الفترة تمتد على طول الوادي من منبعه في «الحيسية» مروراً بحدود منطقة الخرج، وكانت تلك الأملاك تحت سيطرة قبيلة «آل يزيد الحنفيين». ويفترض أن هذه القبيلة وهبت القطعتين (المشار إليهما سابقاً) من أملاكها إلى «ابن درع» قبل زيارة «مانع» له. وحدث أنهم باعوا في عام ١٤٤٦م أملاك «العيينة» الشاسعة إلى رجل يدعى حسن بن طوق من ملهم الذي كان الجد الأكبر لأمراء «آل معمر».

كان نجم هؤلاء الأمراء آخذاً في الصعود في سماء الجزيرة العربية إلى أن حد من صعوده وأخمده بريق قمر الدولة السعودية الذي كان آخذاً في

الظهور والبروز، وكل ما تبقى لـ «آل يزيد» من أملاكهم في وادي حنيفة كان مجرد أرض من الوادي في أعلى «غصيبة» التي تشتمل على بعض الأراضي إضافة إلى قرية الجبيلة ضمناً.

وكانت قرى «الوصيل» و«النعمية» مراكز إقامتهم، لكن لم يكن مقدراً لهم حتى الاحتفاظ بهذه الأراضي، إذ بادر «ربيعة» – مشتهياً لما لديهم من أملاك – بالقيام بأعمال ضدهم، وأسفرت تلك الأعمال عن انتصارات تحققت على أيدي ابنه «موسى» الذي قام ـ بشكل عرضي وكاد ينجح في محاولة قتله ـ ضد والده الذي تمكن منه . . . فقام «ربيعة» – الذي أصيب بعدة جروح بالغة في جسده – بالهرب إلى «العيينة» وهناك تلقى حسن الضيافة والاستقبال من «حمد بن حسن بن طوق» الذي أصبح صديقاً له.

تشتت جماعة «آل يزيد» قبل انقضاض «موسى» عليهم وأسفر ذلك الغزو عن مقتل ثمانين من أتباعهم، ومنذ ذلك الحين لم يذكر لهم أي أثر يذكر في قصة وادي حنيفة.

وهكذا ـ وعلى مدى جيلين ـ تمكن المهاجرون من منطقة القطيف في أن يصبحوا أسياد تلك المنطقة التي سبق أن مُنح لهم حق الإقامة فيها. وأقل ما يمكن أن يُقال إنهم قوم يتمتعون بغرائز – لا أقول عدوانية – بل إصلاحية تقدمية، في حين أن الأساليب العنيفة والقوية التي استخدموها لتحقيق مآربهم كانت أساليب طبيعية إذا قورنت بالمقاييس السائدة في الجزيرة العربية آنذاك.

ومع بدء القرن السادس عشر ومع تولي «إبراهيم» السلطة من والده «موسى» أصبحت هيمنة هذه الأسرة وتفوقها ظاهرة مؤثرة وفعالة في

الوادي باتجاه الجنوب حتى «الجبيلة». كانت هذه المنطقة إضافة إلى الأراضي الواقعة إلى الشمال منها، وكذلك منطقة «حريملاء» الواقعة بين منحنيات مرتفعات «طويق» تابعة لأملاك سلالة «حسن بن طوق» الحاكمة والتي كان - كما يقال - يمثلها في ذلك الوقت «معمر بن حمد» الجد الأكبر للسلالة الحاكمة في العيينة والذي تحمل الأسرة اسمه. ذلك بالرغم من أن الفراغ في كتاب «ابن بشر» يسبب لدينا بعض الشكوك حول هذه النقطة.

كانت هذه المناطق أكثر بقليل من مجرد أملاك وأراضي محلية تقع في شريط متواز على طول شواطئ الخليج العربي وضمن منطقة «الأعشى»[١] المحاذية لإمارة «أجود بن زامل الجبري العامري»[٢]. وباستثناء هاتين الحالتين لم تكن في الصحراء العربية أية تجمعات سياسية منظمة، علماً بأنه كانت توجد قرى مستقلة تماماً ومجاورة لهذين التجمعين الأكثر طموحاً. ومثال على هذه القرى ذات الإدارة الذاتية كان هناك «حَرْمَة» التي يعود تأسيسها إلى عام ١٣٦٨م و«المجمعة» التي يعود تأسيسها إلى عام ١٤٢٦م، وفي تلك الحقبة كانت الرياض ومنفوحة واليمامة مجرد مناطق أو تجمعات مهمة في التركيبة السياسية للجزيرة العربية، كما كان حال بعض تجمعات سدير. ناهيك عن مناطق «القصيم وجبل شمر» حيث تحتوي سجلات نشاطاتها المتوافرة لدينا على بعض الخلل في سرد الأحداث، علماً بأننا سنعثر على كامل الوثائق ووثائق أخرى، وفي الوقت المناسب ستدخل هذه الوثائق في ملحمة الدرعية على نمط شبيه بملحمة «هوميروس» الإغريقية.

(١) المقصود: منفوحة وما حولها، وإليها ينسب الأعشى الشاعر المشهور. (المراجعون).
(٢) أي منطقة الأحساء. (المراجعون).

وبالعودة إلى السياق الرئيسي من هذا السرد التاريخي الذي نحن معنيون به نجد أن «إبراهيم بن موسى» كان آمناً كحاكم لإمارته الصغيرة من غير تحد من قبل أية قوة أجنبية، وعاملاً باضطراد على تلبية متطلبات تطلعاته في التوسع فيما وراء شريط حدود إمارته الضيق. قام أحد أبنائه وهو «عبدالرحمن» بتأسيس وتطوير منطقة «ضرماء» إذ كان قد قدر له أن يؤدي دوراً بارزاً في الأحداث التاريخية المتلاحقة لتلك البقعة من الأرض، كما كان مقدراً له ـ عن طريق الصدفة ـ أن يعرف بشجاعة باسلة لم تجعله يتكل على أتباعه ممن يؤدون خدمات الأمن والحراسة له. أما ابنه الآخر «سيف» فهو الجد الأعلى لجماعة «أبي يحيى» التي استوطنت في «أبا الكباش» شمال الدرعية، وهي اليوم منطقة أطلال غير مكتشفة وفيها متاريس واستحكامات ذات جدران متصدعة، كما يوجد فيها أبراج حصن قديم.

أما الابن الثالث: فكان «عبد الله» وهو الجد الأعلى لجماعة «آل وطبان» وفروعها الأخرى والتي بقيت وحتى عصرنا هذا على شكل متشتت وغير لافت للنظر. لكن ابنه الرابع «مرخان» يستحق مركز الصدارة بصفته ينبوع الحكم السعودي الذي تفجر عن ابنه الأصغر «مقرن» ومن ابن مقرن «محمد» الذي يعد والد سعود الأول.

إذا كان – على ما تبدو الحالة عليه – عبد الرحمن هو الابن الأكبر بين الأبناء الأربعة، فإن هجرته واستقراره في منطقة «ضرماء» توازي تخليه عن حقوقه في منطقة الدرعية. وينطبق هذا أيضاً على سيف الذي أسس إمارته في منطقة «أبا الكباش»، التي لم تكن بعيدة عن العاصمة.

وفي تلك الفترة دخلت الأسرة في صراع وثارات وفي أعقاب تلك

المرحلة من الصراع بين الإخوة وأحفادهم استطاع ربيعة بن مرخان أن يتولى الزعامة عليهم في الدرعية.

وفي مقالة تاريخية تدوّن حقيقة أن ربيعة قام برحلة حج إلى مكة بصحبة أخيه مقرن في عام ١٦٣٠م، هناك إشارة إلى أنه كان يُطلق عليه اسم «أمير الدرعية»[1] والجدير بالذكر هنا أيضاً أنه في عام ١٦٣٠م «وبالتحديد في الثاني عشر من شهر نيسان (أبريل)» شهدت مكة المكرمة سيلاً عظيماً دمر الكعبة، الأمر الذي استوجب هدمها وإعادة بنائها. ولم يكن بالإمكان إنجاز ذلك العمل في أقل من سبع سنوات، وأجل الاحتفال المهيب بمناسبة إعادة بنائها حتى موسم حج عام ١٦٣٦م الذي وقع في شهر أيار (مايو). والجدير بالذكر أن ذلك السيل حدث أثناء إمارة الشريف «مسعود[2] بن إدريس بن الحسن بن أبي نمي».

وفي ضوء التراخي والفتور الإيماني الذي كان مخيماً عند فجر الحركة السلفية في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي، تجدر الإشارة إلى الأهمية الدينية التي التزم بها سكان الجزيرة العربية على مدى القرون الماضية. فعلى سبيل المثال تذكر إحدى الوثائق التاريخية[3] بأنه في عام ١٥٠٦م توجهت قافلة حجاج ضخمة ضمت ثلاثين ألف حاج من الأحساء إلى مكة برعاية «أجود بن زامل» رئيس تلك الإمارة.

---

(١) اعتمد المؤلف في هذا القول على ما هو مطبوع لكتاب ابن بشر، أما الإشارة في المخطوط فهي صريحة وتشير إلى أن الذي حج في عام ١٠٣٩هـ، هما مقرن وربيعة وأنهما نعتا بلقب «أميرَي» الدرعية ولم ينفرد واحد منهم بإمارتها لوحده. (المراجعون).

(٢) مسعود بن إدريس بن الحسن بن أبي نُمي، حكم من صفر ١٠٣٩هـ إلى ربيع الآخر ١٠٤٠هـ. (المراجعون).

(٣) يقصد بالوثائق التاريخية المصادر التاريخية، ويقصد هنا المؤلف كتاب «الضوء اللامع» للسخاوي حين ذكر قصة قدوم أجود بن زامل الجبري، للحج من الأحساء، وهي تقابل سنة ٩١٢هـ. (المراجعون).

كان قد مضى على موت الموحّد والداعية العالم «ابن تيمية» حوالي قرنين -وبالتحديد في عام ١٣٣٧م- إلا أن تعاليمه بقيت تتأجج في الجزيرة العربية وذلك ملحوظ في وفاة الشيخ «أحمد بن يحيى بن عطوة بن زيد» ودفنه في الجبيلة في عام ١٥٤١م. ويزودنا «ابن بشر» بقائمة من مشاهير العلماء الذين عاصروا «أجود بن زامل». وكان الشيخ أحمد قد تشرب كل تعاليمه الدينية من هؤلاء المشايخ. علاوة على ذلك، يشير «ابن بشر» أيضاً إلى موافقة السلطان «سليم» العلنية في عام ١٥١٧م على تعيين القاضي الحنبلي في القاهرة في منصب كبير القضاة بمصر، مؤكداً بأن كبير القضاة هذا ـ وكان الشيخ «أحمد النجار» وهو آخر كبير للقضاة ـ من أصل عربي صرف. . . وهو أنصاري من قبيلة بني النجار.

في هذه المرحلة من التاريخ كان الأتراك (العثمانيون) قد احتلوا مصر واستولوا على الخلافة فيها لكنهم لم يوجهوا اهتمامهم بعد إلى الجزيرة العربية، بالرغم من أنهم كانوا على أعتابها ومشارفها. قاموا في العقد الأخير من القرن السادس عشر الميلادي بغزو الأحساء واحتلالها، وظهر هناك «فاتح باشا» كأول حاكم عسكري بعد أن قمع الأتراك وأخمد سلالة «أجود بن زامل الجبري العامري العقيلي القيسي» الحاكمة وليس هناك أي سجل تاريخي يذكر اسم آخر شخصية في هذه السلالة الحاكمة كما لا توجد سجلات تاريخية تتعلق بأسماء أسلافه وصولاً إلى «أجود» نفسه كما لا توجد سجلات تتعلق بأسلاف هذا الأخير باستثناء «زامل» المفترض أن يكون والده. هذا ولا تتوافر سجلات تاريخية تتعلق بطول الفترة التي حكمت فيها هذه السلالة منطقة الأحساء. تمت تلك الأحداث في عام

١٥٩١م، أما رحلة الحجيج التالية من الأحساء والتي تتوافر لدينا معلومات عنها، فقد حدثت بعد حوالي أربعين عاماً تحت إشراف «بكر بن علي باشا» الخليفة الأول «لفاتح باشا».

كان علي باشا نفسه الشخصية التي استضافت وبحفاوة لم يسبق لها مثيل شريف مكة «محسن بن الحسين بن الحسن» إضافة إلى أبناء عمه ضاوي وعبدالمطلب، بمناسبة زيارتهم إلى منطقة الهفوف ضمن حملة في أرجاء الجزيرة العربية.

في هذه الحقبة من التاريخ كانت الحجاز مستقلة تماماً وتتمتع بحكم الأشراف الذين كانوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم حكام لهم مطلق الصلاحية في المناطق التي تقع بعيداً عن الساحل والنائية عن المدن والتي كانوا يقومون بغزوها إما لأغراض تأديبية أو لغرض إعادة ملء خزائنهم كلما أوشكت أن تنضب. ويذكر «ابن بشر»[(١)] أن أول غارة من هذا النوع حدثت في عام ١٥٧٨م عندما وصل الشريف «حسن أبي نمي» إلى الرياض على رأس جيش قوامه خمسون ألف شخص، وأمضى فيها وقتاً كبيراً يقتل وينهب، وقبل رحيله عنها عين شخصاً يدعى «محمد بن فضل» أميراً عليها نيابة عنه، كما ترك العديد من وجهاء الرياض في السجن لمدة عام. وعند انقضاء العام أطلق سراحهم على شرط أن يدفعوا له الزكاة السنوية. وبعد ثلاث سنوات قام هو نفسه بغزو منطقة نجد لكنه استهدف هذه المرة منطقة الخرج، فاحتل المناطق الرئيسة فيها كما احتل المراكز الاستراتيجية في سلسلة

---

(١) ذكر ابن بشر أنه نقله من تاريخ العصامي وأحال إليه في تاريخه «سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي»، القاهرة، المكتبة السلفية، ١٣٨٠هـ، ج٤، ص٣٦٨. (المراجعون).

التلال المحيطة بها. وقبيل رحيله ترك في هذه المناطق ممثلين عنه ليتولوا شؤون تلك المدن. وبدأ رحيله عن تلك المناطق عائداً إلى دياره عندما تلقى أخباراً مفادها أن جماعة «بني خالد» الغازية كانت تعد العدة لمهاجمته والاستيلاء على ماشيته ووسائل تنقله، لكنه ألحق بجماعة البدو هذه خسائر فادحة وهزيمة نكراء لأنه كان متأهباً لها.

حدث بعد هذه الواقعة مباشرة أن تمكن الأتراك من إخضاع جماعة بني خالد (كقبيلة من الأحساء) إلى حكمهم، وانتهى حكم «حسن بن أبي نمي» مع موته في مكة المكرمة، وخلفه على منصب أمير مكة ابنه «إدريس» الذي ناب عنه أخوه «أبو طالب» في غزو نجد في عام ١٦٠٢م. وعند تبوئه السلطة أقرن «إدريس» معه أخاه «فهيداً» وابن أخيه «محسن بن الحسين» كوصيين على العرش، وأعفي «فهيد» في وقت لاحق من ذلك المنصب في حين بقي «محسن» متعاوناً مخلصاً لعمه إلى أن توفي العم في «ياطب» الواقعة في جبل شمر، بعد أن كان قد انضم - على ما يبدو - إلى حملة الغزو التي ترأسها «أبو طالب» كما أشرنا آنفاً.

قام «محسن» الرجل القوي في الأسرة باغتصاب الإمارة، وفي عام ١٦٠٦م أغار على نجد بقوة ترأسها هو شخصياً. وكانت قرية «القصب» في شعيب العتك[١] هدفه منذ ذلك الغزو، وتمكن من الاستيلاء عليها واقترف فيها العديد من الأعمال الوحشية.

في تلك الأثناء كانت مناطق وسط الصحراء العربية لا تزال في حالة غليان يستمر بشكل مضطرب نوعاً ما ليأخذ شكل أنماط يمكن أن تستمر معهم حتى المرحلة السلفية التي ما زال أمامها وقت طويل لتظهر على السطح.

---

(١) القصب تقع في الوشم وليست من البلدان التي تقع في شعيب العتك. (المراجعون).

قام الإخوة «من آل حنيحن» «محمد» و «عبد الله» أبناء العاقر بطرد جماعة «العرينات» من قرية «البير» في منطقة «سدير»، وطوروا الحياة الزراعية هناك والتي ورثها في النهاية «حمد بن محمد» وبقيت سلالته تمتلك تلك المنطقة حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي. وفي عام ١٦٠٦م أسست أسرة «آل تميم» «الحصون» القريبة من واحة «جنوبية» في سدير وفي اتجاه مجرى الوادي مروراً بقلعة «القارة» المبنية على هضبة مرتفعة.

لم تحتل جماعة «الهزازنة» واحات «الحريق ونعام» الواقعة في جنوب الخرج إلا في أواخر عام ١٦٣٠م، وتوالى الملاك على قسم من واحات الرياض المعروفة باسم «مقرن»، وذلك إثر مقتل كبار الشخصيات من أهم أسرة في تلك الجماعة وهم أبناء «مفرج بن ناصر». وكذلك إثر قيام أحد عناصر عشيرة «آل مديرس» باغتصاب زعامة تلك القبيلة واحتكاره المشيخة لنفسه.

مات الشريف «محسن» بعد الزيارة التي قام بها إلى الأحساء في عام ١٦٢٢م بفترة قصيرة، والتي سبق أن أشرنا إليها وخلفه في الحكم ابن عمه «سعود بن إدريس» الذي سرعان ما أطيح به ليحل محله زيد بن محسن وكان هذا الأخير قد تعرض لعاصفة سياسية حين أطاح به أيضاً الشريف «نامي» في عام ١٦٣١م. إلا أن زيداً وبعد فترة قصيرة استطاع أن يسترد الإمارة منه وأن يحتفظ بها إلى أن مات في عام ١٦٦٥م.

أصبحت «نجد» الآن تستمتع بفترة راحة طويلة نسبياً بعيداً عن مطامع الأشراف، كما تحولت الاهتمامات في شؤونها لتتركز على نشاطات أمير «العيينة» «أحمد[1] بن عبد الله بن معمر» الذي كان يسعى جاهداً من أجل

(١) حمد بن عبدالله بن معمر وليس أحمد. (المراجعون).

التوسع. وفي عام ١٦٤٢م قام الأمير «حمد» بغزو منطقة «سدير» إلا أنه لم يحرز سوى انتصاراً طفيفا تجلى في الاستيلاء على قرية «أم حمار» في الطرف السفلي من واحة «الحوطة»[١]. وبعد مضي أربع سنوات جلبت له السنون نهاية غير متوقعة... فداهمته المنية وهو في طريقه للحج في منطقة «المغاسل» المعروفة اليوم باسم «مركز السيل الكبير». في العام التالي (١٦٤٧م) اغتيل ابنه كما اغتيل خلفه «ناصر» على يدي ابن أخيه «دواس بن محمد» الذي اغتصب إمارة العيينة.

كانت تلك هي المرحلة التي حدد فيها الشريف «زيد بن محسن» نشاطاته في وسط الجزيرة. حيث قام الشريف «محمد الحارث» في عام ١٦٤٦م نيابة عن الشريف «زيد» بزيارة «ثرمداء» وهناك ومن خلال لقاء تم بينه وبين أحد كبار المشايخ ويدعى الشيخ «محمد بن إسماعيل»، تمكن من طرد أي نوايا عدوانية كان من المحتمل أن يكنها في صدره. لكن في العام التالي ترأس الشريف «زيد» بنفسه حملة غزو واسعة النطاق وتوجه بها إلى «نجد». وهناك كان عليه أن يقارع أولاً منطقة «روضة سدير» التي لقي زعيمها «محمد بن ماضي بن محمد بن ثاري»، كما اقترف المنتصرون هناك العديد من الأعمال الوحشية، وبعدها توجه «زيد» جنوباً باتجاه «بنبان» مموهاً بذلك تقدمه نحو الرياض. وفي طريق عودته إلى دياره عرج على «العيينة» وأجبرهم على أن يدفعوا مبالغ طائلة من المال، كما أخذ منهم عنوة حمولة (٣٠٠) جمل من القمح.

---

(١) حوطة سدير المعروفة. (المراجعان).

وفي هذه المرحلة كانت المصائب قد حلت على منطقة العيينة. فحدث بعد عام من هذا التاريخ وقبل مضي أقل من تسعة أشهر على حكم «دواس ابن محمد» للعيينة، أن أقدم «محمد بن حمد بن عبد الله» - وهو ابن عم «دواس» - على ذبح «دواس» نفسه واستولى على حكم المنطقة ونفى عنها «مهنا» أخا المذبوح «دواس»، وشمل ذلك النفي أيضاً عناصر أخرى من ذلك الفخذ من العائلة.

لم يكن مقدراً لمحمد أن يحكم طويلاً، إذ خلفه بعد وفاته في عام ١٦٦١م ابن عمه «عبد الله بن حمد». تورط الحاكم الجديد في مشكلات مع أهل «البير» في «سدير»[١] بسبب سرقته لجمالهم في إحدى الغزوات العادية، وفي محاولة منهم للأخذ بالثأر رتبوا كمائن لقوافل العيينة المحملة بالأقمشة والبضائع الأخرى والقادمة من الشاطئ وانقضوا عليها وسلبوا حمولتها. وفي المقابل قاد «عبد الله بن حمد» حملة تأديبية وسار إلى جانبه قاضي «العيينة» قاصداً تلقين أولئك القرويين درساً لن ينسوه، ولكن لحسن حظ هؤلاء القرويين حدث أن جماعة من قوات «عبد الله» المغيرة كانت تكمن وراء جدار استعداداً للانقضاض، إلا أن ذلك الجدار انهار عليهم ومنوا بخسائر جسيمة في الأرواح، الأمر الذي حول موضوع الغزو إلى موضوع مفاوضات أدى فيها القاضي دوراً بارزاً في التوصل إلى تسوية سلمية بين الأمير «عبد الله بن حمد» والقرويين. . . يقال إن التسوية دارت حول موضوع إعادة القرويين لكافة البضائع والأملاك التي سرقوها.

---

(١) البير ليست في سدير بل في منطقة المحمل. (المراجعون).

الغريب في الأمر أنه تتوافر لدينا معلومات بسيطة جداً بخصوص التطورات التي حدثت في الدرعية خلال الفترة التي أعقبت حملة الحج التي قام بها أمير الدرعية «ربيعة» في عام ١٦٣٠م. وتتحدث المراجع التاريخية المتوافرة عن أحداث عام ١٦٥٤م، فتشير إلى قيام ابن ربيعة وخلفه «وطبان» بقتل «مرخان بن مقرن»[1] واغتصب إمارة «غصيبة». إن فترة هذه المرحلة قصيرة لكنها مهمة على الصعيد التاريخي، وعليه لعله يجاز لنا أن نعيد سير ترتيب الأحداث على الشكل التالي: من المحتمل أن يكون «وطبان» قد خلف والده في وقت ما وخلال فترة زمنية سبق أن أشرنا إليها، كما يمكن أن يكون قد واجه تحد من قبل ابن عمه «مرخان» الذي أطاح به في نهاية المطاف... ويقال إنه في عام ١٦٥٤م قام «وطبان» بقتل «مرخان» ليستعيد مكانته كزعيم للدرعية.

وتقول بعض الروايات غير الموثقة أن «وطبان» فر من الدرعية خوفاً من الثأر للقتيل، وأن القاتل يقتل ولو بعد حين واستقر به المطاف في الزبير، ومع مرور الأيام أصبح حفيده «إبراهيم بن ثاقب» أميراً عليهم، في حين تمكن ابنه «محمد» الأكثر شهرة وحنكة سياسية أن يتبوأ مركزاً سياسياً لم يستسغه الحاكم العثماني آنذاك. وفي عام ١٦٣٨م غرر به بأن يذهب إلى السرايا في البصرة وفعلاً ذهب هناك مع العديد من أقاربه وأتباعه وهناك لقي الجميع مصرعهم.

ومهما يكن الحال فإن لدينا أدلة تبرر افتراضنا بأن القتيل «مرخان بن مقرن» أو قاتله «وطبان» الذي استولى على الإمارة واختار بعد ذلك المنفى

(١) أشار ابن بشر في موقعين إلى الحادثة ومرة ذكر اسم «مرخان بن مقرن» ومرة ذكر اسم «مرخان بن ربيعة». (المراجعون).

طوعاً، لم يكن ليخلفهما في إمارة الدرعية مرخان بن وطبان، بل خلفهما «محمد بن مقرن» وهو أخو «مرخان» وهو بالتالي والد «سعود»، الذي يمكن أن يكون أول من تولى الحكم من سلالة عائلة آل سعود والتي تعود إلى سالف أجداد الملك الحالي للمملكة العربية السعودية.

وحوالي عام ١٦٥٤م وبالتحديد قبل ثلاثة قرون خلفه في رئاسة القبيلة «ناصر»، والمفترض أن يكون أكبر أبنائه وشقيقاً لسعود الذي أطلق عليه بالتأكيد في عام ١٦٧٣م اسم أمير الدرعية. وضمن سلسلة الحزازات والخلافات تم اغتيال «ناصر» وابن عمه «أحمد بن وطبان»[١] على يد والد «أحمد بن وطبان» نفسه، ومن المحتمل أن يكون ذلك الاغتيال قد تم لمساعدة «محمد بن مقرن»، وهناك ثمة سبب يدعو للاعتقاد بأن القاتل كان «مرخان ابن وطبان» الذي كان على ما يبدو في تلك الفترة قد تمكن من اغتصاب كافة أملاك المنطقة، لكن سرعان ما قام أخوه «إبراهيم» باغتياله في عام ١٦٩٠م. وحكم إبراهيم بدلاً عن أخيه حتى عام ١٦٩٤م وفي ذلك العام قام شخص يدعى «يحيى بن سلامة» باغتياله، ولا يعرف الكثير عن أصل هذا الشخص سوى أنه ابن رئيس قبيلة «الظفير» المدعو «سلامة بن سويط»[٢].

في هذه المرحلة ازدادت قصة مشاهير وأمراء الدرعية المعقدة تعقيداً. . . وإن ما زاد في تعقيدها هو أن «محمد بن مقرن» الذي دام حكمه حتى عام

(١) ناصر بن محمد وأحمد بن طبان كانا أميرَي الدرعية بالاشتراك وقتلا عام ١٠٨٤هـ. (المراجعون).

(٢) يحيى هذا الذي أشار إليه المؤلف على أنه ابن رئيس قبيلة الظفير، ليس صحيحاً وإنما اعتمد المؤلف على تشابه الاسم الأخير سلامة مع ابن شيخ قبيلة الظفير، والصحيح أن يحيى بن سلامة الذي قتل إبراهيم بن وطبان هو يحيى بن سلامة أبا زرعة وآل زرعة من بني حنيفة. (المراجعون).

١٦٥٤م لم ينته أجله إلا في عام ١٦٩٤م. وباستطاعتنا أن نفترض بأنه تنازل عن الحكم، أونفترض أنه أطيح به ليتولى أخوه «ناصر» السلطة في وقت ما قبل حلول عام ١٦٧٣م.

وبعدها عاش على مدى السنين المتقلبة التي امتدت لفترة حياة بعيدة عن الزعامة. كما يمكن القول إنه عاش حاملاً لقب أمير بصفة اسمية على مدى أربعين عاماً كان أفراد الأسرة خلالها يتبادلون الحروب بينهم. إن أقل ما يمكن أن يذكر هنا أن ابنه «سعوداً»[1] كان قد بلغ من العمر ثلاثين ربيعاً، وأن أول ظهور له على ساحة الصحراء العربية كان في عام ١٦٨٥م عندما كان برفقة «عبد الله بن معمر» أشهر أمراء «العيينة» على رأس حملة لغزو قرية «حريملاء». هذا وشارك في معركة تعرف في سنين نجد التاريخية باسم «يوم الكمين الأول» وهي التي قُتل فيها ثلاثون رجلاً من المدافعين، ولم يكن «سعود» في تلك الموقعة قد بلغ سن العشرين... ومنطقياً يمكن القول إنه ولد في عام ١٦٦٥م وهو العام الأول لكارثة القحط والمجاعة التي ألمت بالصحراء العربية.

ولنعد إلى الوراء من النقطة التي توصلنا إليها ولحوالي قرن من الزمن، لنجد أن الأتراك قد أكملوا احتلالهم لبغداد في بداية القرن السابع عشر، لكنهم وجدوا أنفسهم في عام ١٦٢٢م مضطرين لمواجهة تحدي شاه إيران «عباس الأول» الذي توجه إلى بغداد على رأس جيش عرمرم. في تلك

(١) لقد عالج هذا الخطأ محقق كتاب ابن بشر وذكر أن الذي غزا حريملاء مع ابن معمر هو محمد بن مقرن وليس ابنه سعود، وما ادعاه المؤلف في هذا الشرح والاستنتاج هو خطأ ابن بشر نفسه في كتابه حيث ذكر سعود بن محمد مكان محمد بن مقرن لذا وجد هذا الالتباس. (المراجعون).

الفترة كان السلطان التركي غاضباً على «الباشا بكر» الذي كان يشغل منصب الحاكم التركي، وكان قوياً لدرجة أنه تحدى أوامر الصدر الأعظم الصادرة بإقصائه عن منصبه. وجد «أحمد حفيظ باشا» الذي كان الصدر الأعظم قد أرسله ليحل محل «الباشا بكر» أن من الحكمة أن ينسحب عن ساحة تلك المواجهة. على أي حال كان من السهل على «شاه عباس» أن يغرر ببكر ويحمله على فتح بوابات المدينة له، وعرض عليه أن يبقيه في منصبه تحت الحماية الفارسية. كان «بكر» أول ضحية لفسوق جند الشاه الذين كانوا ينهبون ويسلبون المدينة دون رحمة أو هوادة، وكانوا يقتلون كل سُني يقع في أيديهم وخاصة العلماء، وكانوا يدمرون المساجد ويحرقون المكتبات. وتم حسب الأمور المرعية تعيين حاكم قاس على المدينة، وذهبت كافة جهود الأتراك الرامية إلى تدارك الأوضاع أدراج الرياح إلى أن تمكن السلطان «مراد» من إعادة الاستيلاء على بغداد في عام ١٦٣٨م.

وكما أشرنا آنفاً كان - في تلك الفترة - قد مضى على احتلال الأتراك (العثمانيون) لمقاطعة الأحساء حوالي نصف قرن، وبعد حوالي ثلاثين عاماً - أي في عام ١٦٦٧م - أحكم العثمانيون طوق حكمهم على الجزيرة العربية، وذلك باحتلالهم «للبصرة» جاء ذلك الاحتلال على يدي «مصطفى باشا» ونيابة عن السلطان «محمد بن إبراهيم بن أحمد».

لكن الحجاز - وبالرغم من الوصاية الاسمية لخلافة السلطان على الأماكن المقدسة - لم تلفت الاهتمام العسكري ولا السياسي لحكومة القسطنطينية. كان الشريف «زيد بن محسن» قد مات في عام ١٦٦٥م بعد

فترة حكم دامت أربعين عاماً. تولى الخلافة على الإمارة من بعده ابنه «سعد» بعد عراك مع الشريف «حمود بن عبد الله». والجدير بالذكر هنا أن «زيداً» كان قد اختار «حموداً» ودربه ليكون خلفاً له لكونه ابن عم والده ولكونه ـ على ما يبدو ـ رجلاً ذا مواهب وكفاءات، فلم يكتف «زيد» بأن زوجه ابنته بل عهد إليه أيضاً بصلاحيات إدارية واسعة، الأمر الذي لم يترك أدنى شك في أذهان الناس بأن ثمة ترتيبات كانت تُعد ليسلم «حمود» دوراً رئيساً في الوقت المناسب، لكن يبدو أن «حموداً» كان ينقصه الطموح الشخصي وبعد أول صدام له مع «سعد» قبل «حمود» ادعاءات «سعد» برحابة صدر.

عهد في عام ١٦٦٩م إلى الشريف «حمود» قيادة حملة عسكرية وتوجه بها إلى نجد، وهناك تعامل بنزاهة مع مختلف القبائل بما فيها قبائل عنزة ومطير، وبني حسين -من حرب- وكذلك مع عشائر «هتيم» في منطقة «العوازم» وهي آخر منطقة كويتية[١]. كان جل غايته أن يصل «الظفير» وهو من مناطق الحدود العراقية الكويتية وسبق له أن سرق من «بدو الصمدة» عدداً كبيراً من الجمال النفيسة. و«بدو الصمدة» هي فخذ مستقل عن جماعة «الظفير». والتقت هذه الجماعات مع جيش «حمود» الذي انضم إليه فيما بعد «سلامة بن سويط» كبير مشايخ «الظفير». وعندما رفض المهاجمون إجراء ترتيبات تتعلق بعودة الأملاك والتعويضات وفق العادات البدوية،

(١) لم يفهم المؤلف ما كان يقصده ابن بشر لأن النص كاملاً هنا منقول من ابن بشر، واعتقد أن هتيم هؤلاء في منطقة العوازم، والصحيح أن هتيم كجماعة من العوازم أو أن أصلهم واحد. (المراجعون).

حرض سلامة حموداً على الهجوم وأسر الأعداء؛ إلا أن «حموداً» لم يذعن لرأيه مما جعل سلامة يستكن إلى قبيلته والحنق يوغل في صدره معداً العدة لشن معركة ضدهم.

إن تصرف «الصمدة» المريب عرض «عدوان» وعناصر أخرى من قوات «حمود» لوطأة هجوم « الظفير »، وفي تلك المعركة قُتل أخو حمود واثنان من أبناء أخيه. انتصر رجال القبائل في تلك المعركة لكن بعد مضي وقت قصير قام الشريف «غالب بن زامل» بهجوم مضاد وأنزل في صفوف رجال القبائل خسائر جسيمة. وقد استمرت حالات العداء بين الطرفين إلى أن قام الشريف «أحمد بن زيد» بإعداد ترتيبات السلام والمصالحة.

وبعد بضع سنوات قام شريف آخر يُعرف باسم «بركات» بقيادة حملة عسكرية ضد قبيلة «حرب» التي كان يتزعمها «أحمد بن رحمة بن مضيان»، ودارت معركة قتل فيها «أحمد بن مضيان»، وعدد آخر من كبار رجال القبيلة، ذلك بالرغم من خنادق الاستحكام التي حُفرت لعرقلة خيالة الشريف «بركات». ولم تصد عنهم الخنادق أي شيء، بل على العكس كانت بمثابة قبور محفورة توارت فيها جثثهم، كما أن قوات «بركات» أعملت في أرضهم الخراب والدمار والسلب والنهب. ويذكر أنه بعد عام من تلك الواقعة (١٦٧٤م) توفي الشريف «عبد الرحمن بن أحمد بن محمد ابن عبد الرحمن الشهير بالمحجوب»، وشهد ذلك العام أيضاً وفاة الشريف «حمود» بطل معركة «الظفير»، كما توفي في ذات العام الشريف «أحمد بن محمد بن الحارث»، كان آية في العقل والذكاء وكان شرفاء عصره البارزون

يستشيرونه في كافة الأمور والقضايا. ويذكر أن «حسن باشا» سبق أن عينه أميراً على «مكة»[1] إبان المشكلات التي حدثت بين «سعد» و«حمود» حول وفاة «زيد». وتمكن المتنافسون من تصفية خلافاتهم وتنازلوا عن مواقفهم لصالح «سعد» وذلك ليتخلصوا من شخصية كانوا يعتقدون أنها ستكون مرشحة من قبل الأتراك لحكم الحجاز، والواضح أن هذه هي أول إشارة نشير فيها إلى إقدامهم على منطقة الحجاز.

من الممكن أن يكون «حسن باشا» آنذاك والياً على« ذلك الإقليم، إلا أنه على الأرجح لم يكن أكثر من قائد للحملة العسكرية التركية. ومما يزيد من تعقيد الوضع بين أشراف الحجاز هو أنه في مذكرة فيها إشارة لعام ١٦٦٧م تذكر أن ولاية مكة كانت في ذلك الحين في أيدي أسرة «آل يزيد» وهي أسرة موالية لسلالة «أبي نمي» الحاكمة، كما أن «سعداً» في تلك الفترة كان الشريف المتولي للحكم بينما كان «أحمد الحارث» في خدمته شاغلاً منصب «شريف نجد»[2].

هذه أول إشارة محددة لادعاء أشراف مكة في ممارسة حكمهم على وسط الجزيرة البعيدة عن السواحل والنائية عن المدن، علماً بأن الحالات العديدة المؤرخة بخصوص تدخلاتهم في منطقة نجد لدليل كاف على وجهات نظرهم بهذا الخصوص.

---

(١) لم يكن أحمد بن محمد بن الحارث أميراً على مكة كما ذكر المؤلف بل كان أميراً على المدينة المنورة ولمدة ستة أشهر. (المراجعون).

(٢) لم تذكر المصادر النجدية أن أحمد الحارث كان شريفاً على نجد بل الذي تذكره أنه قاد بعض الحملات ضد بادية نجد. (المراجعون).

ففي عام ١٦٧٦م قام الشريف «محمد الحارث» بغزو نجد وبمهاجمة قبيلة «الفضول» وقتل زعيمها، وفي العام نفسه خاض شريف يقال له «الحارث» معركة كبيرة ضد «الظفير» في «الظلفعة» بالقرب من «البكيرية» الواقعة في منطقة القصيم، وكانت تلك المنطقة مسرح أحداث معركة مشهورة بين العرب والأتراك في عام ١٩٠٤م.

وافقت «الظفير» التي هزمت في تلك المعركة على أن تدفع لمكة الزكاة السنوية كثمن للسلام، غير أنه من غير المحتمل أن يكون «أحمد الحارث» المشار إليه آنفاً شبيهاً لـ «أحمد بن محمد بن الحارث»، وأن «محمد الحارث» كان والده. والمعروف بالتحديد أن الوثائق التاريخية أشارت إلى «أحمد الحارث» على أنه كان شريفاً على مكة في عام ١٦٨٠م وكان وجهاء نجد يقدمون لزيارته في مواسم الحج أو في نهاية شهر كانون الثاني: ومن بين هؤلاء الوجهاء كان «محمد بن ربيعة بن وطبان» وهو من منطقة الدرعية.

حدث صدفة في العام نفسه (ولا يعرف بالتحديد في أي شهر) أن مكة شهدت مرة ثانية سيولاً جارفة وصلت بسببها المياه إلى ارتفاع قفل باب الكعبة (أي على الأقل عشرة أقدام فوق سطح الأرض). كما دمرت السيول عدة منازل، وقضت على العديد من الممتلكات في المدينة ناهيك عن غرق حوالي مئة شخص. وفي الواقع شهد المؤرخ «العصامي» حادثة السيول تلك بأم عينه، وتجدر الإشارة هنا إلى أن اسمه الكامل هو «عبد الملك بن حسين المكي الشافعي العصامي» مات في شهر كانون أول من عام ١٦٩٦م[١].

---

(١) اسمه: عبدالملك بن حسين بن عبدالملك المكي العصامي توفي في عام ١١١١هـ، الموافق ١٦٩٩م، وليس كما ذكر المؤلف أنه مات عام ١٦٩٦م ومرد هذا الخطأ هو اعتماد المؤلف على كلام ابن بشر في عنوان المجد الذي ذكر أن وفاته كانت عام ١١٠٨هـ. (المراجعون).

عند هذا القدر من السرد يتوجب علينا أن لا نغفل حدثاً آخر يتعلق بالمشكلات المتعاقبة لأشراف مكة، فلدينا سجل أحداث تاريخية يتناول عام ١٦٩١م وبالتحديد فترة الولاية الثانية للشريف «سعيد»[1] وهو ابن «سعد ابن زيد». تصادفت فترة ولايته في أثناء حياة والده «سعد»! ، لكن والده أقاله عن منصبه بعد فترة حكم له دامت أقل من ستة أشهر، واستأنف شؤون إدارة الإمارة بنفسه حتى عام ١٧٠٣م وفي ذلك العام تنازل عنها طوعاً. ويبدو أن أول مجيء لـ «سعيد» إلى السلطة اشتمل على توقف قصير في فترة ولاية الشريف «محسن بن حسين» الذي - كما أشرنا سابقاً - داهمته المنية في عام ١٦٨٨م.

من الواضح أن منطقة مكة على مدى ربع قرن شهدت الكثير من الاضطرابات السياسية إثر وفاة الشريف «زيد» الذي عاش ابنه «سعد» من بعده لمدة أربعين عاماً رافقتها عشرات السنوات كان الحكم خلالها خالياً من أي حاكم... فصلت تلك المرحلة أول فترة حكمه عن ثاني فترة له في الحكم. لكن وإن كان «سعد» طاعناً في السن خلال فترة حكمه الثانية لإمارة مكة، لكنه كان سليم الجسم موفور الصحة على نحو مكنه من قيادة حملة خلال الأشهر الأولى من عام ١٦٩٤م جاءت عاقبة لغزو نجد، علماً بأنه لم يتمكن من إنجاز الكثير من التقدم بعد منطقة «الحمادة» الواقعة في الطرف الغربي من «طويق». وخلال موسم حج هذا العام نفسه وبالتحديد في شهر تموز حدث اصطدام بينه وبين الحجاج ووقعت مجابهة عنيفة دارت في شوارع مكة، ولم يسلم منها حتى الحرم نفسه. وبلغت الفوضى ذروتها

(١) ولايته عام ١٦٩١م/ ١١٠٣هـ تعد الولاية الأولى وليست الثانية، وإنما الولاية الثانية للشريف سعيد بن سعد بن زيد كانت عام (١٧٠١م) الموافق ١١١٣هـ. عقب والده سعد بن زيد. (المراجعون).

لدرجة أن الشريف «عبد الله بن هاشم» وهو ينتمي إلى فخذ آخر من فخوذ هذه السلالة، أقدم على إجراء جذري إذ خلع «سعداً» من منصبه وتولى حكم المدينة بشكل مؤقت بمساعدة الشريف «أحمد بن غالب» الذي كان قد رجع من منفاه في اليمن ليعيش حياة هادئة وسط أملاكه بمنطقة «ركاني» الواقعة في وادي فاطمة. لكن مع نهاية العام كان «سعد» قد نجح في العودة إلى مكة وبدأ عهد حكمه لها بعد أن نفى «عبد الله بن هاشم» ومواليه وأعوانه.

وفي العام التالي كان على رأس حملة عسكرية توجه بها إلى نجد وحاصر قرية «أشيقر» وأذاق أهلها من الضيق والعسر والشدة ما حدا بالقاضي الشيخ «أحمد بن محمد القُصَيِّر» أن يصدر فتوى أجاز فيها الفطر طيلة شهر رمضان الذي تصادف مع شهر نيسان من ذلك العام، وذلك ليتمكن الفلاحون من جني محاصيلهم ووضعها في صوامع أو مخازن الحبوب.

اقترح «سعد» الذي عجز عن إرهاب رجال الوشم العنيدين أن تدار مفاوضات فيما بينهم، كما أصر أن يقوم الشيخ «أحمد» المشار إليه سابقاً وكذلك صديقه الشيخ «حسن بن عبدالله أبا حسين» بدور المفاوضين في القرية، وتمت الموافقة على هذا الاقتراح إلا أنه تم اعتقال الشيخين لدى وصولهما إلى خيمته وأودعا السجن.

حدث في الدرعية وفي ذلك الوقت من السنة أن قام سلطان بن حمد القيسي[1] (وهو من منطقة غير معروفة) باغتيال «إدريس بن وطبان» الذي - على ما يبدو - كان قد نجح في الدخول إلى حيز وجهاء الدرعية بعد

(١) الاسم الصحيح: القبس وسيتم تعديله في المتن فيما بعد في ضوء ذلك. (المراجعون).

مقتل أخيه «إبراهيم» في عام ١٦٩٤م. وتفترض بعض المصادر التاريخية أن سلطان بن حمد القبس من قبيلة «بني خالد» من منطقة الأحساء، وكان قد اغتصب الإمارة واحتفظ بها حتى عام ١٧٠٨م حيث استهدفته سكين أحد القتلة المأجورين، فخلفه في الإمارة أخوه «عبد الله» الذي انتهت بمقتله في شهر آذار من عام ١٧٠٩م فترة الخمسة عشر عاماً من السيطرة الخارجية على منطقة الدرعية. عادت الدرعية الآن إلى حظيرة السلالة الشرعية المتجسدة في شخص «موسى بن ربيعة بن وطبان». وفي هذا السياق تنقصنا معلومات عن الأحداث التي تعاقبت على هذه الأسرة على مدى العقد التالي. وكل ما هو معروف لدينا أنه في وقت ما قبل عام ١٧٢٠م تم إقالة «موسى» من منصبه ونفيه خارج الدرعية، وعليه تحولت ملكية الدرعية إلى سلالة على يدي «سعود بن محمد بن مقرن» المؤسس للسلالة الحاكمة التي تُعرف باسمه واستطاع بالرغم من عدة محن أن يحافظ على سطوة عائلته الحاكمة وقيادتها للجزيرة العربية، والتي استطاعت أن تبلغ ذروة مجدها في عصرنا هذا وعلى مدى عهد حكم طويل مجيد من قيادة الملك «عبد العزيز بن سعود».

حدث في عام ١٧٢١م خلال فترة حكم «سعود» للدرعية أن رُزق «محمد بن سعود» ولداً حمل اسم «عبد العزيز» ليكون اسمه شبيهاً لعبدالعزيز الذائع الصيت. ولم يكن مقدراً لسعود أن يرى تبرعم وتفتح زهور ذريته ولم يكن ليعلم أيضاً أن في العيينة، القرية المجاورة، يوجد طالب علم متحمس بلغ من العمر عشرين ربيعاً، وكان مقدراً له أن يؤدي دور القائد المفكر والصديق لابنه ولحفيده اللذين تمكنا في يوم من الأيام أن يصعدا إلى أوج الشهرة والمجد، مستعينين بساعديه القويتين.

وُلد محمد بن عبد الوهاب في العيينة عام ١٧٠٣م ليدرك عندما حان الوقت أن لا كرامة لرسول في موطنه.

اجتمع «سعود» في اليوم الحادي والعشرين من شهر حزيران من عام ١٧٢٥م في ليلة عيد الفطر مع والده وأعمامه وأجداده، وتقرر آنذاك أن يخلفه في حكم الدرعية «زيد بن مرخان بن وطبان» بصفته أكبر ممثلي فخذ تلك الأسرة وليس ابنه «محمداً». وكان ذلك إجراء عادياً يقتضيه نظام حق البكر في ولاية العهد وهو نظام متبع في الجزيرة العربية... وبدا ظاهرياً أن أحداً لم يستأ أو يعترض على تلك الخلافة، لكن في حقيقة الأمر كان أخو سعود المدعو «مقرناً» يعتقد بأنه كان أحق بتلك الخلافة واشتهى ذلك الشيء لنفسه، علماً بأنه أبدى اعترافاً على الصعيد الرسمي بولائه لتلك الخلافة. وفي إحدى الفرص قام مقرن بدعوة «زيد» لزيارته ليؤكد على تفهمهما للوضع، إلا أن «زيداً» الذي شم رائحة الغدر رفض الدعوة وطلب أن يضمن «محمد بن سعود» و«مقرن بن عبد الله بن مقرن» (وهو ابن أخي محمد بن سعود وابن العم اللزم لمقرن بن مقرن) أمنه وسلامته... وكان ذلك الطلب بمثابة إقرار صارخ لسمعتهما ونزاهتهما. وأعطى كلٌّ منهما كلمة العهد بالوفاء وتم اللقاء بين «زيد» و«مقرن» في مجلس «مقرن»، لكن سرعان ما اتضح أن «مقرن» كان ينوي الغدر بضيفه ودون أية ضجة أو لغط انتفض الكفيلان الضامنان وأبديا انزعاجهما لعدم نزاهة مضيفهما، وهنا هرب «مقرن» من خلال أحد النوافذ واختبأ في بيت الخلاء، وفيما بعد ألقي القبض عليه ونفذ فيه حكم الإعدام. وبقي «زيد» سيداً لموقف خيمت عليه

أحداث مأساوية ترافقت مع آلام جسام لسلالة حاكمة مقدر لها أن تكون سلالة عظيمة.

لم يعش «زيد» في تلك الفترة طويلاً، إذ تعرضت مدينة العيينة خلال العام المنصرم لوباء الكوليرا القاتل الذي فتك بها وأودى بحياة القسم الأكبر من سكانها. وكان أمير البلاد الضحية الرئيسة لهذا الوباء، فقد خلفه بعد وفاته حفيده «محمد بن حمد» الملقب بـ «خرفاش». جاء عزل مدينة العيينة بسبب الوباء (التي مازالت إلى يومنا هذا من أعظم المدن ازدهاراً في قلب الصحراء)[1]، ليثير طمع «زيد» الذي زحف إليها بعدد كبير من «آل كثير» و«سبيع». وعند وصوله إلى «عقربا» القريبة من «الجبيلة» تلقى من «خرفاش» رسالة استنكار لكن بأسلوب مؤدب، وعرض «خرفاش» على «زيد» في تلك الرسالة أن يعطيه كل ما يشاء دون أن يضعه أمام مشكلة سلب القرويين والبدو المعوزين. واقترح عليه أن يجتمعا لمناقشة تلك المسألة. سار «زيد» إلى هناك وبرفقته أربعون رجلاً بما فيهم الأمين «محمد بن سعود». وهناك قام خدم «خرفاش» الذين كانوا قد انتشروا واختبأوا في أماكن معينة، بإطلاق النار على «زيد» لحظة جلوسه على كرسيه في غرفة الاستقبال وأردوه قتيلاً. على الفور لاذ «محمد» وجماعته في غرفة مجاورة وكانوا مستعدين للقتال حتى النهاية إذا اقتضت الضرورة. رفض «محمد» طلب «خرفاش» بالخروج من الغرفة وقال بأنهم لن يخرجوا ما لم تضمن السيدة «الجوهرة» سلامتهم وعدم تحرش «خرفاش» وجماعته بهم. والجدير بالذكر

---

(١) أي في عصر المؤلف. (المراجعون).

أن السيدة «الجوهرة» المشهورة هي ابنة الأمير الراحل «عبد الله بن معمر» المشهور وعليه فهي عمة «خرفاش» وتمت الأمور على ذلك النحو وعاد «محمد بن سعود» ورجاله إلى الدرعية واستمر في حكمه لإمارة الدرعية حتى نهاية عام ١٧٢٦م أو كما يقال لبداية عام ١٧٢٧م، واستمرت إمارته للدرعية دون أي تحد حتى وافته المنية في عام ١٧٦٥م.

في أعقاب بداية حكم متقلبة ومليئة بالأحداث، تمكنت سلالة آل سعود أخيراً من إرساء قواعد حكم ثابت: ولم يعد مكان لأعمال الثأر التي أودت بحياة العديد من الأجيال السابقة. وهنا يمكن القول إنه في هذه الفترة تم التخلص من آخر شخص كان يدعي أن له الحق في الاستيلاء على الحكم، وذلك الشخص هو «موسى بن ربيعة» الذي كان «سعود» قد نفاه ليعيش في مرابع «ابن معمر»، وجاءت وفاته إثر إصابته بعيار ناري من بندقية قديمة لفظ على إثرها آخر أنفاسه.

والآن وقد وصلنا إلى النقطة التي تبدأ معها قصة المملكة العربية السعودية، يجب علينا أن نعود بخطانا لنراجع سجل منافسي آل سعود من أجل السيطرة على هذه المنطقة منذ القدم حتى وقتنا الحالي. ولعله من الملائم أن نبدأ من منطقة الحجاز حيث كان الشريف «سعد بن زيد» في السنوات الأولى من القرن الثامن عشر الميلادي أميراً على مكة. ونيابة عن «سعد» وفي عام ١٦٩٧م قام الشريف «سرور بن زيد» (الذي يقال بأنه كان أخاً لزيد أو ابن أخيه) بشن غارة شاملة على مناطق نجد. وكان هدفه بالدرجة الأولى النيل من منطقة «سدير» التي كانت تتمتع باستقلال ثابت تشوبه أعمال شغب متكررة.

ارتكبت قوات «سرور» الفظائع في قرية «الروضة» وانطلقت منها إلى منطقة «جلاجل»، وهناك تمكن «سرور» من إلقاء القبض على أمير الروضة الهارب «ماضي بن جاسر». وعلى إثر تلك الأحداث تم إقصاء ثلاث عشائر من العشائر الأربع المؤسسة لإمارة «الروضة» ونفيهم إلى منطقة «أشيقر». إلا أن عشيرتين منهم عادتا بعد عامين بكامل قوتهما: كانت إحداهما عشيرة «آل أبو راجح» التي كان «ماضي بن جاسر» من أبرز رجالها. لم تتمكن هذه العشيرة من استعادة ممتلكاتها من الروضة فحسب، بل طردت أيضاً عشيرة «آل أبو هلال» من هناك إثر معركة دارت في منطقة الداخلة التابعة لـ «فوزان ابن زامل» زعيم «التميم» والذي ساند في تلك الموقعة «ماضي بن جاسر» وفي الفترة نفسها تقريباً قررت مجموعة من الأسر في «حوطة سدير» العودة مادامت الظروف في موطنهم مواتية وتسمح بعودتهم إلى مناطقهم بعد أن كانوا قد أبعدوا عنها وارتحلوا للعيش في «العيينة». لكن عند وصول هذه الأسر إلى منطقة «العودة» استغل السكان هناك بساطتهم وانقضوا عليهم وذبحوا العديد منهم على أن تاريخ منطقة «سدير» يزخر بمثل هذه الأحداث، وإن لدينا من المعلومات التي تتعلق بالتفاصيل الدقيقة عن هذه الأحداث ما يفوق كل ما يتوافر من معلومات عن أية منطقة أخرى. ومرد ذلك هو أن معظم المؤرخين والأدباء في تلك الحقبة السعودية كانوا أصلاً من منطقة «سدير» نفسها أو من المناطق المجاورة والقريبة منها.

وبالعودة إلى نشاطات الشريف «سعد» الذي كان ـ على ما يبدو ـ حريصاً على إبقاء سيطرته على المناطق الداخلية، نجد أنه في عام ١٦٩٩م وبالتحديد

في مكة قام «سعد» باعتقال المئات من كبار شخصيات ورجال قبيلة «عنزة» وأودعهم السجن وشهدت السنتان التاليتان عقب هذه الحادثة عدة حملات تأديبية موجهة بالدرجة الأولى ضد «الظفير»، والمتميز فيها أنها شملت فئات أخرى من قبيلة «بني حسين» -من حرب-.

منيت «الظفير» في عام ١٧٠١م بخسارة جسيمة تجلت في موت زعيمها المشهور «سلامة بن مرشد بن سويط» الذي برز في أكثر من مناسبة عبر أحداث هذه القصة كعدو لأشراف مكة بكل ما في الكلمة من معنى. وفي عام ١٧٠٢م أصيبت مناطق الحجاز بمجاعة شديدة، لكن في بداية عام ١٧٠٣م تنازل الشريف «سعد بن زيد» بمحض إرادته عن الإمارة لابنه «سعيد» الذي وجد نفسه وجهاً لوجه مع مزيد من المتاعب. زادت ظروف المجاعة وغلاء الأسعار من حدة الاضطرابات وانعدام الأمن، وأصبحت الأمور خطيرة لدرجة أن «سليمان باشا» المعروف باسم «باشا جدة» والممثل المباشرة للصدر الأعظم في مناطق الحرمين الشريفين، بدأ يدرس إقالة «سعيد» وتعيين الشريف «عبد الكريم بن محمد بن يعلى» في مكانه. والجدير بالذكر أن «عبدالكريم» هو من أنساب عائلة «سعيد». على أي حال شعر «سعيد» بالأخطار المدبرة ضده فتصدى لها بأن رشح ابن أخيه «عبدالمحسن بن أحمد بن زيد» ليتولى الإمارة من بعده، إلا أن «سليمان باشا» استمر على موقفه. وبعد مضي تسعة أيام فقط على وجود «عبدالمحسن» في الإمارة قام «سليمان باشا» بإقالته وتعيين «عبد الكريم» الذي كان الأتراك قد رشحوه لذلك المنصب. حدث ذلك في الجزء الأخير

من عام ١٧٠٤م ومباشرة بعد التغيير الذي طرأ على السلطة العثمانية، إذ أطيح بالسلطان «مصطفى بن إبراهيم»[١] وعُيّن مكانه أخوه «أحمد».

تزامن تسلم الشريف «عبد الكريم» لإمارة مكة مع نفي الشريف «سعيد» ووالده «سعد بن زيد» عنها. وقد استمرت ظروف المجاعة آنذاك ولكن بمستوى أقل حدة من المستوى الذي كانت عليه سابقاً. ولم يبد النظام الجديد اهتماماً كافياً بشؤون ومصالح مناطق نجد، ويبدو أن «عبد الكريم» كان يواجه العديد من المشكلات المحلية التي استحوذت على تفكيره. إن حقيقة كونه مرشحاً من الجانب التركي نادراً ما خدمته أو عملت لصالحه. ففي عام ١٧١١م عاد الشريف سعيد من منفاه متمتعاً بدعم قوي يمكنه من الإطاحة بـ«عبد الكريم» وإقصائه عن البلاد. وعلى ما يبدو جاءت تلك الرغبة مباركة ضمنياً من قبل الجانب التركي بدليل أن السلطان أصدر في الوقت المناسب فرماناً عيّن بمقتضاه «سعيداً» والياً على إمارة مكة. وهكذا استلم «سعيد» الإمارة هناك للمرة الرابعة وبقي في حكمها دون أي إزعاجات حتى توفي في عام ١٧١٧م، وخلفه من بعده الشريف «محسن بن عبد الله»[٢] الذي غزا نجداً وهاجم عشائر «بني حسين» بالقرب من «المجمعة» في شتاء عام ١٧٢٦م/ ١٧٢٧م.

ظل وسط الجزيرة العربية حتى هذه المرحلة بعيداً عن تفكير واهتمامات الأشراف لمدة تزيد على ربع قرن، ويمكن أن يعزى ذلك ـ ولو بشكل جزئي ـ إلى تعاظم سيطرة وقبضة الأتراك على مناطق الحجاز. وكان الأشراف ـ دون

---

(١) اسم هذا السلطان هو «مصطفى الثاني» ابن محمد، وعزل عام ١١٠٦هـ/ ١٦٩٤م، وليس كما ذكر المؤلف أن اسمه مصطفى بن إبراهيم، والذي خلفه أخوه واسمه «أحمد الثالث» ابن محمد. (المراجعون).

(٢) الذي خلف الشريف سعيد هو عبدالله بن سعيد، محسن بن عبدالله هذا كان قائداً لقوات الأشراف التي غزت نجد. (المراجعون).

شك ـ منشغلين في حفظ النظام بشكل عام وفي التأكيد على سلامة طرق الحجاج من الاعتداءات التي كانت القبائل البدوية تقوم بها .

توالى الكثير من الأحداث على منطقة الحجاز أثناء البزوغ الحقيقي لفجر عصر آل سعود . ولو نجح الأتراك في فرض أنفسهم على الأماكن الإسلامية المقدسة وفقاً لالتزامات «الخليفة السلطاني» الروحية والمعنوية ، لكان الوضع في الطرف الآخر من شبه الجزيرة العربية مختلفاً تماماً بحيث لم يحظ ذلك الجزء من الجزيرة العربية إلاّ باهتمامات إمبريالية ودنيوية مادية .

علينا أن نعود أدراجنا إلى الوراء وبالتحديد إلى النقطة التي كان فيها «علي باشا» مسؤولاً عن إقليم «الأحساء» الذي كان الأتراك قد استولوا عليه بشكل جزئي . والهدف من تلك العودة هو تعقب مجريات الأحداث التي لم يُلاحظ فيها أي أثر لسيطرة الأتراك في الجزء الشرقي من الجزيرة العربية ، حيث أوجدوا محمية قوية من أبناء تلك المنطقة لتنافس «العيينة والدرعية» في السيطرة على أرجاء الجزيرة العربية . أثبتت الدرعية نفسها على أنها الحصان الأقوى بين الأحصنة المتنافسة في سباق شاق وطويل .

بعد أن قام «بكر باشا» ابن «علي باشا» عام ١٦٣٤م بالحج إلى مكة خمدت حدة الأحداث في الأحساء . كما أنه لم يكن هناك أية مؤثرات تدل على أن الاحتلال التركي للأحساء لا يمكن أن يكون إلا احتلالاً دائماً . فيما يخص شرقي الجزيرة العربية قوى موقف الأتراك بشكل ملحوظ إثر استردادهم لبغداد من براثن الحكم النازي بقيادة السلطان «مراد» في عام ١٦٣٨م . تحسن الوضع بشكل ملحوظ خلال عهد حكم السلطان «محمد ابن إبراهيم بن أحمد» إذ تمكن الأتراك من احتلال «البصرة» بقيادة «مصطفى باشا» عام ١٦٦٧م .

وبالرغم من تلك الانتصارات وصل الحكم العثماني في الأحساء بعد مضي عامين إلى نهاية عنيفة سارعت في إحداثها العشائر المحلية. وقد دام الحكم العثماني هناك أقل من ثمانية أعوام بقليل، ولم يتجدد حكمهم لتلك المنطقة إلا بعد مضي ما يزيد على قرن ونصف. والمعلوم أنه أثناء تلك الفترة تم تعيين «محمد باشا» في منصب والي الأحساء بدلاً من «علي باشا» وخلف «محمد باشا» في منصبه «عمر باشا» الذي كان آخر أربعة حكام تعاقبوا على فترة حكم الأتراك التي استمرت على مدى ثمانية وسبعين عاماً بمعدل فترة حكم لكل واحد منهم بلغت اثني عشر عاماً.

حدث خلال فترة حكم «عمر باشا» وبدعم من «مهنا الجبري» سليل أسرة «أجود بن زامل» التي كان الأتراك قد شردوها عام ١٥٩١م أن ثار «براك بن غرير» زعيم عشيرة بني خالد ضد «راشد بن مغامس آل شبيب» أمير المنتفق وقتله. جاءت ثورته تلك بدعم من قبل ابن عمه «محمد بن حسين بن عثمان»، وكان «راشد» ـ على ما يبدو ـ مجرد دمية تحكم ذلك الإقليم يحركها الحكام الأتراك كما يريدون. وبعد أن أشبع قوات راشد المسلحة قتلاً وتنكيلاً التفت «براك» إلى حامية تركية متمركزة في قلعة «الكوت» في الهفوف. . . وشن عليها هجوماً صاعقاً وقتل من قتل من الأتراك المدافعين عنها وهرب الناجون منهم خارج البلاد. وبعد مضي حوالي قرنين ونصف (كان في وقتها الملك الراحل يشغل منصب حاكم نجد) حدثت دراما مشابهة للهجوم أعلاه ونتائج مشابهة له أيضاً: إذ قام حاكم نجد بوضع نهاية لآخر احتلال تركي في الأحساء، دام الاحتلال فترة تزيد على أربعين عاماً. وفي كلا الحدثين الدراميين كانت خطتا الهجومين جريئتين وقام بتنفيذهما رجال شجعان بقيادة ماهرة ضد عدو أعياه البعد الطويل عن بلده، كما أرهقه

وجوده في مجاهل الصحراء، وأصبح منهكاً وغير قادر على إبداء أي مقاومة فعالة.

ولإعطاء تلك الشخصية حقها يمكن القول إن ذلك الشخص كان «براك ابن غرير بن عثمان بن مسعود بن ربيعة» من آل حميد زعيم «بني خالد» الذي كان في تلك الفترة أميراً على الأحساء. لم يكن «براك» ليقنع بأكاليل النصر، ففي العام الذي تلا انتصاراته وضع نفسه مجدداً في طريق الحرب. . . وجه هذه المرة ضربته ضد «الظفير» وبالتحديد ضد مناطق جنوب غرب «القصيم»، ومن المحتمل أن تكون منطقة «الأكيثال»[1] هي التي شهدت الموقعة التي دارت بين «الظفير» و«الفضول». وفي طريق العودة مرّ «براك» بواحة «سدوس» ونهب رجاله عشيرة «آل كيثر».

فمن المناسب هنا أن نشير إلى أن أراضي «الظفير» تمتد غرباً لتصل إلى ما وراء حدودها الحالية المتصلة بشكل مباشر مع حدود العراق. هذا، وعلينا أيضاً أن نذكر أن قبيلة «الفضول» لم تعد موجودة في المنطقة الوسطى من الجزيرة العربية كقبيلة منظمة، ومن المرجح أن تكون هجرتهم باتجاه الشرق قد بدأت في عام ١٦٧٤م عندما كانت «نجد» تعاني من مجاعة وقحط شديدين. . . يشير البدو في حكاياتهم إلى تلك المجاعة باسم «جرمان». لكن شتاء عام ١٦٧٥م، ١٦٧٦م أحدث بعض التوازن حيث هطلت أمطار غزيرة وافرة، لكن الذي قلب ميزان التعادل هو غزو الجراد لهذه المناطق والذي حدث في العام الذي تلا سنوات المطر. وقد عُرف ذلك العام باسم «جرادان». حيث مات العديد من الناس بسبب كثرة الجراد.

---

(١) الأكيثال: جبلان أسودان معروفان غرب رمل السراة على شمال الخارج من عفيف إلى القصيم. (المراجعون).

هاجم «براك» في هذه الفترة «الظفير» للمرة الثانية وأسر زعيمهم الشيخ «سلامة بن مرشد بن سويط». وفي العام التالي شن «براك» غارة ناجحة على بعض مناطق أهالي الدرعية، لكن يبدو أن هذه الهجمات كانت آخر مآثره.

توفي «براك» عام ١٦٨٢م وخلفه من بعده أخوه «محمد» الذي توج توليه الإمارة بغارة شنها على منطقة «اليمامة» في الخرج. وبعد أربع سنوات عاد مرة أخرى إلى المنطقة وهاجم أقساماً من «سبيع» في «الحاير» الواقعة في وادي «حنيفة»، واستهدفت غارته الثانية التي شنها في صيف عام ١٦٨٧م مواقع في منطقة «حاير» و«المجمعة» بإقليم «سدير». هذا، وقد تورط في العام التالي في حرب مع «آل عثمان» زعماء منطقة الخرج، إلاّ أنه لا يتوافر لدينا سجلات تاريخية تتحدث عن سير أحداث تلك المعارك.

لكن يقال إن ذلك العام كان عام خيرات كثرت فيه المراعي الخصبة وكثر الكمأ وظهرت موجات عديدة من الجراد مجدداً. ويقول البدو «إن الجراد يأكلنا ونحن نأكله». بيع صاع القمح في «سدير» بمحمدية أي ما يعادل مجيدية في آخر أوقات حكم الأتراك، في حين بيعت وزنة التمر في الدرعية بمائة أحمر (أي ليرة ذهبية تركية). وبالمناسبة نشير إلى أن السجلات التاريخية تذكر أنه في العام التالي أقام ثلاث قوافل متجهة إلى الحج مخيماتهم في منطقة «عنيزة»، الأمر الذي أسفر عن ارتقاء أسعار المواد الغذائية بشكل غير مسبوق. وكان هؤلاء الحجاج من العراق وبلاد فارس والأحساء. وقد تعرضت قوافل الحجاج العراقيين في طريق العودة إلى غزو

شنته جماعات من «الظفير» و«الفضول» قرب التنومة[1] وسلبت كل أموال الحجاج وممتلكاتهم.

اجتاح الطاعون في عام ١٦٩٠م الأجزاء الجنوبية من العراق وفتك بأهلها، ووصف ذلك الطاعون بأنه لا مثيل له على الإطلاق، إذ أودى هذا الوباء بحياة عُشْر سكان البصرة التي هجرها أهلها إثر ذلك الوباء لعدة سنوات. وصل ذلك الوباء إلى بغداد واقتلع نسبة كبيرة من سكانها من جذورهم.

مات «محمد بن غرير» عام ١٦٩١م كما قتل ابن أخيه «ثنيان بن براك» في العام نفسه، كما قُتل، من جراء غارة أخرى تعرض لها، مرشحان آخران كان من المتوقع لهما أن يفوزا بزعامة القبيلة. وعليه آلت أمور المشيخة إلى «سعدون بن محمد بن حسين بن عثمان» الذي سبق أن تعاون مع «براك» في طرد الأتراك.

في هذه المرحلة بدأت الحكومة العثمانية تواجه مشكلات مع قبيلة «المنتفق» في العراق، وفي عام ١٦٩٤م عيّن «مانع بن شبيب» نفسه سيداً على البصرة وعلى كافة النواحي المجاورة لها. كان «مانع» زعيم حركة تآلف القبائل ويفترض أنه جاء خلفاً لـ«راشد بن مغامس آل شبيب» الذي فشل في إدارة الأحساء نيابة عن الأتراك. ومما لا شك فيه أن الأتراك آنذاك لم يضعوا تلك المنطقة تحت سيطرتهم المباشرة بسبب الدمار الذي لحق بها وبسبب الأوضاع غير الصحية السائدة فيها التي نجمت عن الطاعون. وعلى أي حال

(١) تقع في منطقة القصيم، وهو اسمها القديم ولا تزال تعرف به حتى الآن. (المراجعون).

فإن خسارة الأتراك لمثل ذلك الحصن أو الموقع في شرقي البلاد لم ترق لهم، ولهذا لم يدم حكم زعيم «المنتفق» على تلك المنطقة طويلاً، إذ تعرضت البصرة في عام ١٧٩٦م لهجوم شنه «فرج الله بن مطلب» زعيم عرب الأهواز في الحويزة. تمكن فرج من احتلال البصرة بدعم -على ما يبدو- من بلاد فارس التي قدمت له العون لتأمين مصالحها. وفي عام ١٦٩٩م استطاع الأتراك أن يستردوا وأن يبعدوا الفرس من تلك المقاطعة وبذلك تمكنوا من السيطرة على منطقة استراتيجية هامة.

شهد العام الأول من القرن الجديد تحركات قام بها «سعدون» بدعم من جماعات «الفضول» وعناصر من الحجاز: إذ خاض معركة ضد «الظفير» في منطقة «البتراء» وسط رمال «نفود السر».

في عام ١٦٩٦م قام «سلامة بن سويط» بغزو مناطق الفضول ثم مناطق «سدير»؛ ولذلك فقد عانى سجناً وحصاراً فرضهما عليه للمرة الثانية شريف «نجد» لقيامه باعتداء على «الفضول». ولم يتركه «سعدون» ينعم بالسلام لفترة طويلة. وفي مجمل الأمر تكبد «سلامة» أشنع الخسائر في مواجهتين: كانت الأولى مع «سعدون» وحلفائه من زعماء القبائل في موقعة «السليع»، وكانت الثانية في منطقة «البتراء». ويقال إن «سلامة» أصيب بجروح في تلك الاشتباكات وتوفي متأثراً بجراحه وهو في طريقه إلى ديرته وتم دفنه في «الجبيلة».

تعرضت كافة المناطق على مدى السنتين أو ثلاث السنوات اللاحقة لقحط وشظف عيش رافقهما خمود في نشاطات بني خالد. لكن في عام ١٧٠٦م قاظ «نجم بن عبيد الله» حفيد «غرير» مدة الصيف في «ثادق»، وفي العام نفسه شن «دجين بن سعدون» غارة على «آل زارع» وسلب ممتلكاتهم

وطردوا عنزة بن سويط من مضاربهم الصيفية في منطقة «سدير» وفي العام نفسه أيضاً جرى بين «الظفير» و«عنزة» وقعة وطاردوهم واشتبكوا معهم في معركة «الخضار» والواقعة ضمن الحزام الرملي لـ «الدهناء».

سقطت خيام الشريف «عبد العزيز» شريف نجد في أيدي الأعداء، أثناء معركة كان يحارب فيها إلى جانب «عنزة» المدحورين. وفي الأشهر الأولى من عام ١٧٠٨م قام «سعدون» بنفسه بمرافقة قوافل الحجيج من الأحساء مروراً بأراضيه، وخيم معهم في منطقة «ثادق» أثناء مرورهم بجبل طويق بمحاذاة حفر «العتك» الذي يفصل «سدير» عن «العارض».

ساءت سمعة حفيد آخر من أحفاد «غرير» ويدعى «عبد العزيز بن هزاع» إذ أقدم في ذلك الوقت على قتل «عبد الله بن عبد الرحمن بن إسماعيل» ابن عم الشيخ «محمد بن عبد الله بن إسماعيل»، وهو قاض سابق في «أشيقر»، ولم يعرف سبب تلك الجريمة كما لم يُعرف ما ترتب عليها من أمور والجدير بالذكر أن هذا الحفيد توفي في عام ١٦٩٧م.

وفي عام ١٧٠٩م انتقلت الحرب الدائرة بين «سعدون بن غرير» و «الظفير» إلى مقاطعة «الحجارة» الواقعة ضمن الأراضي العراقية دون أن تسفر عن أية مكاسب تذكر لأي طرف. تميزت السنوات القليلة اللاحقة بهطول أمطار غزيرة، وجلبت عواصف مدمرة من حبات البرد، لكن نمت على إثرها مراعٍ خصبة وبيادر قمح وافرة ظهرت آثارها في هبوط جيد في أسعار الحاجات الضرورية.

وفي عام ١٧١٤م تضامن «سعدون» مع «عبد الله بن معمر» من «العيينة» وعناصر أخرى من «العارض» ثم شنوا حملة ضد مناطق «الخرج». هوجمت «اليمامة» وسُلبت أملاكها، إلا أن هجوماً معاكساً قام به البجادي

بصحبة أربعة خيالة فقط كان كافياً لحمل الغزاة على التراجع. واستمر توالي الأيام دون أحداث تذكر باستثناء حدوث حالات قحط وأمراض وسيول ومواسم حصاد خيرة... شملت أحداث السيول تلك على أحداث شتاء عام ١٧١٤م/ ١٧١٥م التي شهدت صقيعاً قاسياً.

وفي عام ١٧٢١م عندما دخل «سعدون» نجد بالقوة وأمضى كل فصل الصيف فيها، حاصر بدو «آل كثير» في مناطقهم ضمن حدود «العارض» وأدخل كل ما يحتاجه من سلاح لحصار وضرب كل من «عقربا» و«العمارية» اللتين عانتا من مجاعة خانقة. وقامت قوات «سعدون» بسلب حقولهما وأشجار النخيل فيهما. استحكم «سعدون» الآن في منطقة «الدرعية» وسلب خيرات واحات النخيل فيها ودمر العديد من المنازل في قرية «الظهرة» وفي «السريحة» وفي «ملوى»، إلا أن قواته مُنيت -أيضاً- بخسائر جسيمة بسبب الهجمات التي كان يشنها الناس المحاصرون للدفاع عن ممتلكاتهم. ومن المناسب أن نذكر هنا أنه في خضم هذه الأحداث شهد «عبد العزيز» العظيم[(١)] ضوء النهار الذي طل عليه من خلال نافذة عليها حديد مشبك في قلعة «الطريف».

تحرك «سعدون» مرة ثانية باتجاه نجد في أوائل عام ١٧٢٣م وداهمته المنية في أحد المعسكرات التي شيدها في «الجندلية» على طريق رمال «الدهناء». كان «سعدون» قد قاد قبيلته وأدار ملكه بذكاء لمدة تزيد على ثلاثين عاماً. كان من سوء حظ أبناء قبيلته أن تخلى «سعدون» عن زمام القيادة في لحظة كان فيها الصراع من أجل الزعامة على الجزيرة العربية على وشك أن يبدأ.

---

(١) المقصود هو الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود. (المراجعون).

وقد سبب موته اضطرابات وفوضى وانشقاقاً بين رجال قبيلته التي انقسمت إلى فرق يدعم كل فريق منها زعيماً يدعي الحق في قيادة القبيلة . . . والحقيقة لم يكن أي واحد منهم جديراً بحمل شعلة القيادة من بعده . وكان الصراع الحقيقي بين أبناء «سعدون» أنفسهم ، وهما «دجين» و «منيع» من طرف و«علي» و«سليمان» وهما ابنا «محمد بن غرير» (الشخصية التي خلفها «سعدون» في حكم القبيلة) من طرف آخر . والجدير بالذكر أنهما كانا من جيل «سعدون» نفسه وأبناء عمه من الجيل الثاني . وبعد مهاترات وتشابك بالأيدي كما يحدث بين حين وآخر سيطر مجلس العقلاء على الجميع واختير «علي بن محمد» زعيماً لقبيلة «بني خالد» ، في حين تم احتجاز ابني «سعدون» كإجراء تحفظي وقائي . ولم يكن لذلك الترتيب أن يدوم طويلاً دون حدوث صدامات . وقبل انتهاء العام قام «دُجين» بمحاولة فاشلة استهدفت حياة «سليمان» وهو أخو الزعيم الجديد المنتخب ، وعليه قام «سليمان» بهجوم انتقامي على يد أحد رجال «دُجين» المخلصين له لكنه فشل في تحقيق أهدافه .

استمر القحط المدمر الذي كان قد بدأ في عام ١٧٢٢م بكافة كوارثه حتى هطلت أمطار عام ١٧٢٤م/ ١٧٢٥م . أنقذت أمطار ذلك العام الغزيرة الوضع هناك : ففي الحجاز على سبيل المثال كانت أسعار المواد الغذائية قد وصلت إلى مستويات غير معقولة ، علاوة على أنه لم يكن هناك شيء يشترى لدرجة أن الناس أصبحوا يأكلون الحمير الميتة ولحم الجيف . ولسوء الحظ خلفت الأمطار التي هطلت إثر هذا الجفاف الطويل نوعاً من الآفة الصفراء التي أوقعت الكثير من الضرر بالزرع والمحاصيل . إضافة إلى أن

موجات الجراد والحشرات القافزة زادت الأمر سوءاً. وضرب وباء الكوليرا الحاد منطقة «العيينة» والقرى المجاورة لها وأودى بحياة عشر السكان هناك. ونزح عن تلك المناطق كل من كتبت له النجاة من ذلك الوباء. أودى ذلك الوباء أيضاً بحياة الأمير العظيم «عبد الله بن معمر» وكانت وفاته كارثة لم تستطع إمارته أن تتعافى منها قبل أن يجرفها تيار السلفيين. إن ما كان بالفعل مصادفة متميزة هو أن الأحساء والعيينة الندين الرئيسيين للدرعية: فقدا قيادتهما الحكيمة التي تجلت في وفاة زعيميهما، إذ حدثت تلك الوفاة في فترة كانت الدرعية نفسها تمر بموجة من الصراعات الداخلية اشتد التنافس فيها على زعامة كان من الممكن لمن يحظى بها أن يضيف صفحة مجيدة إلى صفحات التاريخ الإسلامي، وأن يضع أسس سلالة حاكمة وإمبراطورية لم تشهد مثلها الجزيرة العربية منذ عهد ملوك سبأ.

يبدو أن «دُجين» إثر فشله في النيل من «سليمان بن محمد» قد صرف النظر عن الأحساء بشكل مؤقت. لكن قبل انقضاء عام ١٧٢٦م أو ربما في بداية عام ١٧٢٧م كان «دُجين» قد حظي بالدعم الكافي من «الظفير» و«المنتفق» ليقوم بمحاولة أخرى لاسترداد عرش أبيه. كانت الهفوف محاصرة ومضى على حصارها فترة من الزمن وكان البدو ممن تحالفوا مع «دجين» يجوبون أرجاء البلاد يسلبون الأرزاق ويقتلون العباد في القرى وفي واحات النخيل. لكن «علياً» كان يفوز بالعمليات العسكرية ولم يكن في وضع ضعيف -أبداً- يمكن أي شخص من أن يلحق به الهزيمة على أي حال. انسحب الغزاة بعد أن تم التوصل إلى هدنة بين أبناء العم المتحاربين وبقي «علي» الحاكم على الأحساء، وبدأ «محمد» فترة حكمه للدرعية.

وكما ذكرت سابقاً كان «محمد بن حمد بن عبد الله بن معمر» الملقب بـ «خرفاش» معاصراً لهما في حكم «العيينة».

بقي الآن أن نختم هذه المقدمة لنصل إلى أيام فترة «محمد بن سعود» ولإنجاز ذلك علينا أن نستمر في سرد قصة «العيينة» منذ أن تسلم «عبد الله ابن حمد بن معمر» زعامة القبيلة في عام ١٦٦١م وحتى الزمن الحاضر. يبدو أن فترة حكمه التي دامت على مدى ثلاثة وعشرين عاماً كانت فترة هادئة، ولم تذكر السجلات التاريخية سوى حادثة اندلاع الحرب بين «العيينة» و«حريملاء» في عام ١٦٨٤م، حيث شهد «عبد الله» المرحلة الأولى فقط من تلك الحرب وداهمته المنية بعد ذلك. ولا يتوافر لدينا معلومات تاريخية عن وفاته التي لابد أن تكون قد حدثت في عام ١٦٨٥م. وخلفه في الحكم ابن أخته الذي هو أيضاً ابن «محمد بن حمد بن عبد الله» الأول ويدعى «عبد الله» أيضاً. تميزت فترة حكمه بأنها كانت طويلة انتهت كما أشرنا سابقاً بوباء الكوليرا الذي ضرب المنطقة عام ١٧٢٦م.

أصبحت العيينة خلال فترة حكمه قبلة أنظار الجزيرة العربية، ويعود الفضل في ذلك للجهود التي بذلها لتطوير الإمكانيات الزراعية إلى أقصى حد ممكن وللمساكن التي أمنها للتعداد المتزايد للسكان. تحسنت مرافق الخدمات في المدينة، والحقيقة اللافتة للنظر أن والده «محمد بن حمد» كان ما زال على قيد الحياة، إذ تؤكد سجلات التاريخ أنه ذهب إلى الحج في العام الذي تسلم فيه ابنه الحكم. إن مثل هذه الحالات ليست شائعة في أي مكان آخر. لكن تفاجئك الأحداث في الجزيرة العربية؛ إذ نجد أنفسنا أمام حالة متميزة تتلخص في أن والد ملك راحل كتبت له الحياة ليعيش ما يزيد على ربع قرن يشهد فيه فترة حكم ابنه.

كـان شـغله الشـاغل -على مـا يبـدو- الحـرب التي بدأها سلفـه ضـد «حريملاء»، ولهذا - وبعد توليه الحكم مباشرة - سار برفقة «سعود بن محمد» أمير الدرعية ليخوضا معركة «المحيرس» التي يشير إليها سكان تلك المنطقة في حكاياتهم باسم «الكمين الأول». ونظراً لأنه سبق أن أشرنا إلى هذا الموضوع فسنكتفي بالقول بأن أهالي «حريملاء» مُنوا بخسائر جسيمة، ومع ذلك لم تحدث أية محاولة للهجوم على «حريملاء» نفسها. وبعد فترة قصيرة قام فريق من «حريملاء» بمهاجمة «القرينة» التي تقع على مسافة بضعة أميال في نهاية الوادي واستولوا عليها، ولكن في العام التالي واجه أهالي «حريملاء» هجوماً آخر شنه عليهم زعيم العيينة الذي جر بالحيلة المدافعين عن «حريملاء» إلى كمين وقتل عدداً كبيراً منهم. وكان ذلك ما عرف بـ «الكمين الثاني».

لم تثنهم هزيمتهم وخسائرهم عن إقدامهم، بل قام أهالي «حريملاء» بالتحالف مع أمير الدرعية «محمد بن مقرن» ومع أمير الخرج «زامل بن عثمان» لغزو «سدوس»، وتدمير قلعتها.

لكن الحرب بين العيينة وحريملاء قد انتهت إثر مفاوضات سلام تمت بينهما وذلك في عام ١٦٨٨م أو عام ١٦٨٩م. في هذه الفترة كان «عبد الله بن معمر» مواظباً على مدى خمسة عشر عاماً تقريباً على تركيز اهتمامه لتطوير منطقته. ولم يسمح لنفسه بدخول تيار الحروب حتى عام ١٧٠٣م حيث هاجم منطقة «القرينة» واحتلها. وفي العام التالي حول أنظاره إلى «ثادق» وهي منطقة رئيسة مهمة، لكن عندما وصل بقواته إلى «البير» حال بدو «عنزة» بينه وبين غايته وسلبوا العديد من حيواناته التي كان يستخدمها للتنقل.

تعرضت «العيينة» في منطقة وادي حنيفة لسيول جارفة دمرت في طريقها العديد من المنازل وخلفت الكثير من الضرر بالممتلكات.

نعمت «حريملاء» على مدى عشرين عاماً بالأمن، ولذلك السبب التفت إليها «عبد الله بن معمر» في عام ١٧٠٩م وهاجمها بقوة، كان المدافعون عنها من بدو قرى «العارض» و«سبيع»، ودار هناك قتال ضار اضطر «عبدالله» للتراجع عنها. وقد أبدى أهالي حريملاء - كما حدث سابقاً - ردة فعل شديدة وهاجموا أتباع عبد الله في تلك المناطق وداهموا واحات ملهم واحتلوها. لم يهاجم «ابن معمر» حريملاء مرة أخرى إلا في عام ١٧١٦م حيث عاث خراباً في ممتلكات أهالي «الزعاعيب»، وعندما عاود الهجوم عليها بعد مضي عامين قتل عشرة من رجالها واستولى على عدد كبير من الأغنام التي كانت ترعى في أراضيها.

وفي عام ١٧٢٥م قاد ابنه «إبراهيم» حملة تكشف عن غزو واحات «العمارية» المجاورة وبقي فيها بعد أن فرض الاستسلام على أهلها. وبعد بضعة أيام تعرض «إبراهيم» نفسه لغزو من قبل جماعة بدو «آل كثير» في «الأصيقع». قُتِل في تلك المواجهة عشرون من رجاله ووجد «إبراهيم» نفسه مضطراً للهرب بشكل عشوائي تاركاً البدو المنتصرين يحاصرون «إبراهيم» في منطقة العمارية. وكانت تلك آخر حملة قام بها «عبد الله بن معمر»، لكن يجب أن نعترف -وفقاً لدلائل إنجازاته العسكرية التي تحققت على مدى أربعين عاماً- أنه لا يمكننا أن نصنفه بين عظماء المحاربين في عصره. إن السمعة العظيمة التي تحلى بها تعاظمت بالدرجة الأولى بسبب الإنجازات

الإدارية والخدمات المدنية التي قام بها، وإن حال «العيينة» التي تركها لخلفه من الحكام تقف شاهد عيان على تلك الإنجازات.

وكما أشرنا سابقاً أودى وباء الكوليرا بحياته في نفس العام الذي يقال إن الوباء أودى أيضا بحياة ابنه «إبراهيم». وبناء على ذلك انتقلت الزعامة إلى حفيده الذي كان عليه أن يواجه قوة «الدرعية» المتنامية. لم يكن «محمد خرفاش»[1] من الطراز الذي يمكن أن يحمل على عاتقيه مثل هذه المهمة. وبغض النظر عن حادثة «زيد بن مرخان» التي كان «زيد» نفسه مسؤولاً عنها، يمكن القول إن ردة فعل «محمد خرفاش» تجاه المسؤوليات المترتبة على الزعامة لم تكن واعدة، فإن إقالته للقاضي «عبد الوهاب بن سليمان»[2] الذي كان يثق به بصفته مستشاراً وصديقاً كان تخبطاً لم يكن بالإمكان إصلاحه.

(١) هو محمد بن حمد بن عبدالله بن معمر والملقب بخرفاش. (المراجعون).
(٢) عبدالوهاب هو والد الشيخ المجدد محمد بن عبدالوهاب. (المراجعون).

الفصل الثاني

محمد بن سعود

محمد بن سعود

في الحقيقة إن ما يُعرف عن التطورات العسكرية والسياسية التي حصلت على مدى أول عقدين من فترة حكم «محمد بن سعود» هو قليل جداً. ويمثل هذان العقدان فترة ذات دلالة بالغة في تاريخ الجزيرة العربية، فكان هذان العقدان بمثابة فترة لم يكن العامل المسيطر فيها الرحلات التي كان يقوم بها الملوك والقادة، بل كانت فترة تبرعم فكرة المبدأ العقلاني التي تحولت على الفور لتصبح الفكرة الملهمة والشعار الذي تستخدمه الأجيال القادمة حتى المعاصرة لحث الناس على نصرة الحق.

ولد «محمد بن عبد الوهاب» في منطقة العيينة عام ١٧٠٣م وهو ابن الشيخ «سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد بريد بن مشرف بن عمر بن معضاد بن ريس بن زاخر بن محمد بن علوي بن وهيب»، الذي كان يشغل منصب قاضي «عبد الله بن معمر» وقد كان والده شيخاً ذائع الصيت. وهكذا تعود أصالة وشجرة نسب مجدد الدعوة السلفية إلى ستة عشر جيلاً أو على وجه التقريب إلى خمسة قرون، وإن بعض أجداده لا بد أن يكونوا قد عرفوا واستمعوا لمواعظ «ابن تيمية» الشيخ الإسلامي المرموق، الذي كان بمثابة المصدر الرئيس الملهم لـ «محمد بن عبد الوهاب».

مات الجد الشيخ «سليمان» في زحمة العمل بصفته قاضياً للعيينة عام ١٦٦٨م، وورث طعم وتقاليد أسرته المتدينة، كما كان قد تشرب مبادئ الدين والقضاء من جده «محمد بن أحمد» وورّثها بدوره إلى ابنيه «عبدالوهاب» و«إبراهيم».

سبق له أن رافق «عبد الله الثاني ابن معمر» في حملته التي شنها ضد «البير» عام ١٦٦١م، حيث أدى دوراً بارزاً في مفاوضات السلام بين الطرفين -كما أشرنا سابقاً-، لقد كان «محمد» ذا شخصية مرموقة وخاصة، وحدث أن أعد رسالة بحث فيها نقاطاً دينية محددة ومقنعة، لكنه مزقها عندما علم بأن هناك رسالة بحث حول الموضوع نفسه سبق أن قام بها الشيخ «منصور البهوتي» الذي توفي عام ١٦٤٢م. ويصنفه علماء الدين مع تلميذه الشيخ «محمد الخلوتي» في مصاف فقهاء المذهب الحنبلي.

من أبرز مشاهير تلاميذه الشيخ «أحمد بن محمد بن حسن بن سلطان القصير» الذي سبق أن أشرنا إليه عند الحديث عن حصار الشريف «سعد» لـ «أشيقر»، والتي شغل فيها الشيخ أحمد منصب القاضي، وتوفي عام ١٧٠٢م.

كان أخوه وابنه (وكلاهما معروفان باسم «محمد») من بين ضحايا وباء الكوليرا الذي ضرب المنطقة عام ١٧٢٦م والذي يقال إنه انتشر إلى ما وراء أراضي طويق ووصل إلى منطقة الوشم.

لم نسمع عن والد «محمد» المدعو «عبد الوهاب» سوى ذكر عرضي جاء اسمه مقروناً بولادة ابنه المشهور. كما لا نعلم سوى حقيقة أنه كان تلميذاً يتلقى العلم على يدي والده «سليمان». وبقي الأمر كذلك إلى أن أقاله «محمد خرفاش» من منصب قاضي العيينة عند توليه السلطة عام ١٧٢٦م.

حتى لو كان سنه مقبولاً لدراسة الأمور الدينية في أيام والده، لكنه لم يكن بالإمكان أن يخلف والده في ذلك المنصب قبل ثمانية وخمسين عاماً، ولم يكن بعيداً جداً عن سن الثمانين عندما أعفي من منصبه. لم يكن

النضوج الفكري المبكر عند الأولاد عاملاً عادلاً في الأوساط الدينية في تلك المنطقة وفي الدين الإسلامي بشكل عام، لكن يقال إن ظاهرة النضوج الفكري كانت بادية على ابن عبد الوهاب بشكل ملحوظ.

إثر إقالته من طرف الشيخ[1] «أحمد بن عبد الله بن عبد الوهاب بن عبدالله» الذي لم يكن من أسرته لا من قريب ولا من بعيد، هاجر واستقر في «حريملاء» ومات فيها وهو شيخ كبير عام ١٧٤٠م. وكان خلال آخر سنوات عمره يشجع منهج ابنه «محمد»، ويقال إنه توجب عليه في بعض الأحيان أن يحجم بعض الشيء من حماس الشباب الذي بلغ اندفاعه في إعلاء كلمة الله حدود التحفظ في مجتمع لم يكن قد نضج ليتحول عن أساليب العيش السهلة والسائدة آنذاك.

كان الدين الإسلامي دين كل شخص يحترم نفسه في قرى ومدن نجد، وكان ينظر إلى ممارسات الجهلاء في الدين بعين الشفقة، وكان يرثي لحالهم بدلاً من شجبهم وسخطهم. وقد تجاهل من عرفوا بالمواقف المعتدلة أمور التساهل في الواجبات الدينية والعلاقات المحرمة، لكنهم لم يقروا مثل هذه التصرفات. ولم تكن المعتقدات الخرافية في مدى جدوى السحر والقرابين والتضحيات وقوة الأشجار والصخور وقوة سحر القبور في تحقيق رغبات البشر إلا مقياساً لجهل السامريين في مفهوم القدّاس، وذلك أمر كانت طائفة من اليهود في عهد المسيح (الفريسيين) تتجاهله أو تزدريه، إذ كانوا يعيشون

(١) الإقالة لم تكن من طرف الشيخ أحمد بن عبدالله بل كانت من قبل محمد بن معمر وربما يقصد أن الشيخ أحمد أخذ مكانه في القضاء. (المراجعون).

في ترف أكد على حقيقته وضعهم المتميز عن وضع الآخرين. لكن «محمد ابن عبد الوهاب» لم يكن يفكر على ذلك النحو، وكان للوضع المزري للعالم من حوله أثر سلبي في نفسه، وكان يتمتع بشجاعة سلفه من البسطاء. وقد مكنته تلك الشجاعة من مجابهة ذلك المجتمع من أجل الدفاع عن قضية سامية في نظره تتخطى كل الاعتبارات الأخرى، مثل: السلام، سهولة العيش، الشهرة، وما شابه ذلك. لكن العمل في درب هذا النضال تطلب الحكمة والتجربة، وليكتسب هاتين الميزتين قرر «محمد بن عبدالوهاب» الترحال. ولا نعرف كم كان عمره عندما قام برحلة خطط لها على صعيد طموح أكثر من كونه محتملاً على صعيد التنفيذ.

قام بتلك الرحلة قبل إعفاء والده من منصبه في «العيينة»، ويقال إنه وصل إلى مكة قبل أن يبلغ سن العشرين. والمعروف أن التوجه إلى مكة كان خطوة يجب أن يقوم بها من يفكر بالترحال على ذلك النحو. وصل إلى مكة في وقت ما قبل حلول عام ١٧٣٣م، ومما يدل على ذكائه أنه زود نفسه بقائمة شملت مراكز العلم التي كان يأمل زيارتها، وذلك لأنه درس الفقه الإسلامي على يدي والده واطلع بشكل جيد على تفسير القرآن والأحاديث النبوية الشريفة.

وبعد أن أدى فريضة الحج توجه إلى المدينة لزيارة مسجد الرسول ﷺ، ويبدو أنه مكث هناك فترة لا بأس بها ليتلقى المزيد من العلم على يدي الشيخ «عبد الله بن إبراهيم بن سيف» سليل إحدى الأسر الحاكمة في «المجمعة» والذي كان آنذاك يسكن في المدينة ويدرس فيها. دعا الشيخ تلميذه الصغير ليرى بنفسه الهدية التي كان الشيخ يعدها ليرسلها إلى مسقط

رأسه «المجمعة». وقاده إلى غرفة مملوءة بالكتب، وهناك قال له: إن هذه هي هديتي إلى «المجمعة». وعن طريق الشيخ «عبد الله بن سيف» تعرف «ابن عبد الوهاب» على شيخ علامة آخر مشهور يقال له «محمد حياة السندي المدني» وأصبح «محمد بن عبد الوهاب» يحضر كافة دروسه.

عاد «محمد بن عبد الوهاب» من المدينة إلى نجد، ويقال إنه زار قريته (علماً بأن ذلك غير مؤكد في الوثائق التاريخية) قبل أن يتوجه إلى «البصرة» التي كان ينوي الذهاب منها باتجاه دمشق.

في البصرة بدأ «محمد بن عبد الوهاب» في جلب انتباه أناس ضمن دائرة أوسع من دائرة المدارس، فقد أصبح يتتلمذ على يدي الشيخ «محمد المجموعي» الذي استطاع بفضل همته واجتهاده في اكتساب العلم أن يحظى باستحسانه. ولكن سرعان ما بدأ بعض سكان «البصرة» في إظهار امتعاضهم من آرائه المتطرفة، وبدأوا يضايقونه، وعندما سنحت الفرصة أبعدوه عن المدينة بشكل فظ وقاس، وكاد أن يموت من العطش وهو يجر قدميه تحت الشمس المحرقة متوجهاً إلى «الزبير». وبينما هو على تلك الحالة من الإعياء والعطش، مر به رجل طيب يجر وراءه حماره يدعى «أبو حميدان» فأركبه على حماره وأوصله إلى «الزبير».

بعد تلك المعاناة، وجد نفسه مضطراً للتخلي عن فكرة السفر إلى الشام، بسبب فقدانه أوراقه الشخصية وكل متاعه ونقوده أثناء المتاعب التي أدت إلى طرده من «البصرة». وعليه توجه إلى الأحساء حيث استضافه الشيخ «عبدالله ابن محمد بن عبد اللطيف الشافعي الأحسائي» وتابع بعدها سفره متوجهاً إلى «حريملاء» وعاش فيها مع والده إلى أن وافته المنية كما أشرنا سابقاً.

في هذه المرحلة من عمره - أي في عام ١٧٤٠م - زاد «محمد بن عبدالوهاب» من اندفاعه وبدأ عمله جهراً كداعية للأخلاق والنهضة الروحانية. واستحسن العديد من الناس في «حريملاء» - من حيث المبدأ - طريقة وعظه، لكن كان عدد المقبلين على تطبيق آرائه حرفياً والالتزام بها في حياتهم الخاصة والعامة قليلاً جداً. فانقسم الناس في المدن والواحات إلى فريقين رئيسين كان يرأس كل فريق زعيم لا يعترف بزعامة الآخر. وشجعت هذه الحالة انعدام النظام، وما كان يصلح لطرف أو لفريق لم يكن بالضرورة ليصلح للفريق الآخر. وإن ما جعل الوضع أكثر حساسية هو وجود مجموعة من العبيد لدى أحد هذين الفريقين، وكانت هذه المجموعة من العبيد المحررة أو «العتقاء» تعرف باسم «الحميان» وهم من المزارعين الذين كانوا يتولون شؤون الأعمال اليدوية والري والتعشيب في العديد من واحات الجزيرة العربية. وبسبب انغماسهم في الملذات أصر «محمد بن عبد الوهاب» على تطبيق أصول الدين بحذافيره عليهم. ولهذا طوقوا في إحدى الليالي منزله وهم يضمرون الشر له، إلا أن الجيران تدخلوا وأبعدوهم عن داره.

وتمشياً مع نصيحة أصدقائه قرر «محمد بن عبد الوهاب» أن يقلع عن اندفاعه الذي لم يلق في تلك المرحلة من دعوته استحساناً، وعاد بعدها إلى «العيينة» التي كان يحكمها في ذلك الوقت «عثمان بن حمد بن معمر» الذي خلف أخاه «محمداً» المعروف بـ«خرفاش». ليس لدينا معلومات تفيد عن كيفية وسبب ذلك التغيير في تعاقب الحكام، لكن «محمد بن عبد الوهاب» وجد أن الحاكم الجديد «عثمان بن معمر» أفضل بكثير من سلفه. لم يستقبله أمير «العيينة» بالتشريف الذي يليق به فحسب، بل وجد «محمد بن

عبدالوهاب» في الأمير طالباً ميالاً للتعلم ومستعداً لينهل من علمه، ولم يكن ليحظى بإطراء أكبر من الإطراء الذي حصل عليه من مجرد السلام على الشيخة «الجوهرة» التي سبق أن تعرضنا لذكرها كضامن وكفيل لحسن تصرف ابن أخيها «خرفاش». وأصبح من الواضح أن «محمد بن عبدالوهاب» قد بدأ الآن يرى ملامح النصر لقضية كرس حياته من أجلها دون عودة عنها، وأصبح يرى ذلك النصر على الصعيدين المادي والمعنوي. وفي أحد الأيام قال لعثمان: «إني أرجو إن أنت قمت بنصر لا إله إلا الله أن يظهرك الله وتملك نجداً وأعرابها». وهكذا تم الإتفاق بين الأمير والداعية، وبدت المغامرة الكبيرة وأصبح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نظام الحياة اليومية في العيينة. وانضم إلى الدعوة الجديدة العديد من الناس المندفعين بحماسة ملحوظة.

لم يكن بالإمكان تجنب اختبار قوة واستقرار التركيبة الجديدة في ظل زخم الإجراءات التي لم تلق استحسان العديد من الناس. قام أحد المأجورين بقطع بعض الأشجار التي كان بعض الجهلة يبجلونها ويعظمونها، وأنجز المأجور تلك المهمة بتكتم وحذر دون إثارة أي انفعال بين الناس. وبقيت هناك شجرة واحدة وهي الأكثر قدسية بالنسبة لهؤلاء الجهلاء وعليه قرر «محمد بن عبد الوهاب» أن يقطعها بنفسه، وعندما وصل إليها وجد راعياً جالساً تحتها. قام الراعي ومنع «محمد» من الوصول إليها، إلا أن قطعة القماش التي قدمها محمد من ملابسه إلى ذلك الراعي هدأت من خاطره وترك «محمد» يعمل فأسه تقطيعاً بتلك الشجرة.

أصبحت سمعة «محمد بن عبد الوهاب» تنتشر بإخلاصه وشجاعته، وسرعان ما التحق به سبعون رجلاً بينهم العديد من أقوى رجال المنطقة، ومع ذلك بقي أمام «محمد بن عبد الوهاب» بعض العقبات الصعبة التي توجب عليه التغلب عليها. حيث كان قبر «زيد بن الخطاب» المغطى بقبة والمبجل بالخرافات، غاية تستميل حماسة «محمد بن عبد الوهاب». وقد حصل «محمد بن عبد الوهاب» على إذن من «عثمان» لإزالة ذلك القبر. وأصرّ «محمد بن عبد الوهاب» على عثمان أن يرافقه، وسار عثمان معه وبرفقته ستمائة رجل، واندفعت جموع الناس في «الجبيلة» لإيقافهم فما كان من عثمان إلا أن نشر قواته استعداداً للقتال. وعندما رأى أهل البلدة ذلك تراجعوا، ولدى اقترابهم من الضريح طلب «عثمان» ورجاله من «محمد بن عبدالوهاب» أن يعفيهم من هدم الضريح، فجاء «محمد» بفأس وهدمه بنفسه.

توقع الناس الخرافيون البسطاء وهم على يقين أن مصيبة مروعة ستتم أثناء تلك الليلة بـ «محمد بن عبد الوهاب» العاق ومحطم الأصنام. لكن عندما استيقظ في صباح اليوم التالي وهو بكامل صحته مستعداً لأي شجار أو مناظرة، بدأ الناس يشكون في حقيقة خرافاتهم. وتلا ذلك الحدث قصة المرأة التي زنت، وهي قصة مشهورة اشتملت على اختبار لاذع لجدية الداعية «محمد بن عبد الوهاب»، وعلى ما يبدو تعمد أعداؤه أن يبرزوا ذلك الحدث على ذلك النحو. وكانت تلك قضية حياة أو موت بالنسبة للمرأة أيضاً، ولم يكن «محمد بن عبد الوهاب» ليقتل امرأة ما لم تتوافر لديه قناعة بأن تلك هي إرادة الله. فقد جرب «محمد بن عبد الوهاب» كل

وسيلة استنبطها من علمه بالشريعة الإسلامية لينقذ الزانية من الحكم، إلا أن المرأة كررت اعترافها بخطيئتها لأكثر من مرة ورفضت أن تغير أية كلمة من أقوالها واعترافاتها. لكن عزيمة محمد لم تثنه عن الاستمرار في محنته وإصدار حكم بالموت على المرأة، ونفذ الحكم ورجمت المرأة وأصبحت سمعة «محمد بن عبد الوهاب» تملأ الآفاق.

شاعت أخبار هذه المرحلة في كل مخيم وقرية في الجزيرة مسببة قنوطاً في بعض الأماكن وتخمينات مثيرة في أماكن أخرى. وعندما وصلت هذه الأخبار إلى أمير الأحساء «سليمان بن غرير» الذي كان قد خلف أخاه «علي»، سارع في إبداء تحفزه وغضبه حيال تلك الأحداث، وأرسل رسالة إلى «عثمان» احتج فيها على تصرفات «محمد بن عبد الوهاب» باعتباره كان تحت حمايته. وطالب بقتله قصاصاً وهدده بإمساك المخصصات السنوية من المؤن والأموال التي كان من عادته أن يوصلها إلى العيينة وإلى تجمعات أخرى في المناطق الداخلية. ولا يمكن اعتبار مثل هذه المخصصات على أنها جزية بأي شكل من الأشكال، لكنها كانت بطبيعتها بمثابة تأمين يضمن حقوق تجار المناطق الساحلية في المتاجرة مع مناطق الداخل، وبمثابة حماية لهم من التحرش بهم والاعتداء عليهم. وقد بلغت مخصصات العيينة (١٢٠٠) قطعة ذهبية (أحمر) إضافة إلى كميات مماثلة من المواد الغذائية والأقمشة التي تباع بالقطعة أو بالمتر.

لم يكن باستطاعة «عثمان» أن يضحي بتلك الثروة من الدخل بالرغم من نواياه الطيبة تجاه الدعوة السلفية الجديدة، كما أنه لم يكن في وضع يمكنه

من مقاومة هجوم يشنه عليه زعيم بني خالد. تضافرت هذه الأمور وطغت على نيته الطيبة تجاه الدعوة الجديدة وتجاه مؤسسها. وجاء رده على مزاعم ضيفه على شكل جواب لاذع مفاده أن ليس لديه شيء يخاف عليه من أعدائه مادام يخاف الله ويضع كل ثقته بالله. ولكن بعد المزيد من الجدل والتبريرات قرر «عثمان» أن يتخلص من ضيفه غير مبال بأبعاد الأمور التي سيتخذها القادة في الأحساء وكون «محمد بن عبد الوهاب» قد أعطي خيار مصيره فقد اختار الدرعية وأرسل إلى هناك برفقة «الفريد» وفرسانه. وسار «محمد» في أسفل الوادي جاراً قدميه، ولم يكن بيده سوى مروحة يلطف بها حرارة عصر ذلك اليوم الحار. وكان لدى «الفُرَيد الظفيري» على أي حال أوامر بقتل «محمد بن عبد الوهاب» عند وصولهم غار «يعقوب» - وهو مكان يضم قبر أحد الدراويش المتدينين - وبُني له هناك قبر ذو قبة-. لكن شجاعة «الفُرَيد الظفيري» خانته عند وصولهم إلى ذلك المكان وعاد راجعاً إلى العيينة مع أصحابه تاركا «محمداً» يتابع طريقه بمفرده باتجاه الدرعية[1].

وصل «محمد بن عبد الوهاب» إلى هناك في منتصف النهار ونزل في ضيافة «محمد بن سويلم العريني»[2] في الطرف العلوي من الواحة. ولم يكن من السهل تهدئة مخاوف مضيفه فأكد له أن الله سيبارك عملهم

(١) ما قال به المؤلف هنا كان معتمداً على إحدى نسخ ابن بشر المبكرة، إذ أن النسخ اللاحقة لذلك التاريخ قد أشار فيها ابن بشر إلى أن قضية تحريض مرافقي الشيخ على قتله ليست صحيحة وعدل عنها في نسخته الأخيرة. (المراجعون).

(٢) كان نزول الشيخ في الدرعية عند عبدالله بن عبدالرحمن بن سويلم ثم عند ابن عمه وتلميذ الشيخ محمد حمد بن سويلم. (المراجعون).

ويحميهم من غضب «محمد بن سعود». علم أصدقاؤه بوجوده في ديرتهم وقدموا سراً للسلام عليه والاستفادة من علمه، وبالتدريج بدأوا يدرسون الطرق والوسائل التي يمكن أن يؤمنوا بها حماية زعيمهم لضيفه. وأخيراً قرروا أن يستدرجوا عطف «موضي» زوجة «محمد بن سعود». وقد أعلمت «موضي» زوجها بالموضوع وأقنعته بالثروة الهائلة التي يسرتها العناية الإلهية له، وعليه تقرر أن يقوم الأمير بزيارة الداعية الإسلامي سيراً على الأقدام ليتسنى للناس رؤية الحفاوة التي قوبل بها «محمد بن عبد الوهاب». واتفقوا أيضاً على تشجيع الأمير في الترحاب بالداعية الذي كان يُنظر إليه على أنه صانع معجزات، ورحب به الأمير وقال له: «أبشر ببلاد خير من بلادك وبالعز والمنعة». فكان جواب الداعية (الذي يمكن أن نطلق عليه الآن اسم الشيخ): «وأنا أبشرك بالعز والتمكين والنصر المبين، وهذه كلمة التوحيد التي دعت إليها الرسل كلهم». وإنه من المناسب هنا أن نذكر أسماء أهم الرسل الواردة أسماؤهم في مقدمة ابن بشر والذين قادوا الأمم في كافة مراحل تطورها إلى فضل الله على عباده والمتجسدة في الدين الإسلامي، وهم: آدم، ونوح، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويوسف، وموسى، وسليمان، وعيسى، ومحمد [عليهم السلام أجمعين].

وهكذا التقى التحالف بين الأمير والشيخ في ذلك اليوم من عام ١٧٤٥م، إلا أن «محمد بن سعود» طلب ضمانات من الشيخ تتعلق بنقطتين، إذ قال: أخشى إذا ساعدتكم وفزنا أنا وأنت بالعالم، ربما تتركني لتفتش عن مستقبلك في مكان آخر، وثانياً أن نظام بلدتي يعطيني الحق في نصيب من العائدات والمكاسب التي يحققها الرعية من الزراعة والتجارة

وخلاف ذلك، فلن تطلب مني أن أمتنع عن جبي تلك العائدات[1]! عندها أجاب الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» قائلاً: أما بالنسبة للموضوع الأول فلا اعتراض عندي عليه، ومن هذه اللحظة أضع يدي بيدك، وأما بخصوص الموضوع الثاني فلعل الله العزيز القدير يحقق لك انتصارات وفتوحات ويعوّض عليك بغنائم من الحروب أكثر بكثير من العائدات التي تحصل عليها الآن[2]. في تلك اللحظة شد الأمير على يدي الشيخ تبايعا بالولاء لدين الله ولرسوله، ووعد بأن يشن حرباً في سبيل الله.

في أعقاب ذلك انتقل الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» من منزل «محمد ابن سويلم» إلى منزل أعد له خصيصاً في المدينة، وبدأ الناس يأتون أفواجاً لسماع خطبه كما أن العديد من مؤيديه القدامى من منطقة «العيينة» هاجروا إلى «الدرعية» ليستنشقوا عبير الطهارة، حتى «عثمان بن معمر» كفّر عن أعماله بعد أن شاهد ما حدث في العاصمة المنافسة له، وخشي على نفسه من تلك التطورات، فسار في موكب تسوده حالة التوتر والاهتياج ومعه عدد كبير من أمراء ووجهاء العيينة لزيارة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» في منزله الجديد. وتوسلوا إليه بأن يعود معهم وعاهدوه بأن يعاملوه بشكل مشرف وأن يقدموا له الولاء في الدعم والمناصرة فكان جوابه: هذه المسألة ليست لي بل للأمير «محمد بن سعود» إذا رغب لي بأن أعود معكم عدت،

---

(١) كان شرط محمد بن سعود على الشيخ محمد بن عبدالوهاب هو: «أن الشيخ لا يرغب عنه إن أظهره الله، وأن لا يتعرضه فيما يأخذه من أهل الدرعية مثل الذي كان يأخذه رؤساء البلدان على رعاياها». (المراجعون).

(٢) كان جواب الشيخ محمد هو: «أن الدم بالدم والهدم بالهدم» وأجابه على مطلبه الثاني: «إن يخلف الله عليه من الغنيمة أكثر من ذلك، فيتركه رغبة فيما عندالله سبحانه». (المراجعون).

لكن إذا أراد مني أن أبقى معه فسأبقى ولن أترك شخصاً صادقني من أجل صداقة شخص آخر. رحل «عثمان» إلى ديرته وهو مصاب بخيبة أمل.

أما بالنسبة للاجئين الذين تدفقوا إلى منطقة الدرعية فلم يحظوا بنتائج مادية يسعدوا بها لقاء المحاولة التي قاموا بها لتطهير أنفسهم والنجاة بها من النار. لم تكن الدرعية الولاية الفخمة التي كانت على أيام «ابن بشر» بل ضاقت مصادر خيراتها لدرجة أن من قدموا ليلتفوا حول الشيخ «محمد» وجدوا أنفسهم مضطرين للبحث عن عمل في الليل من أجل كسب عيش ضئيل. وكانت قلعة «الطريف» محجوزة لأمراء آل سعود وخدمهم. سكن الشيخ وسط أشجار نخيل الوادي في ضواحي «البجيري» وبذلك تحولت إلى مركز فكري وثقافي للمدينة، كما انتشرت الأسواق المتعددة على أطراف القناة التي تتجمع فيها المياه. والجدير بالذكر أنه كان هناك أسواق للرجال وأسواق لا يدخلها سوى النساء.

وهكذا تم التجسيد الواقعي لحركة الإصلاح الديني التي كان يمكن أن يصل تموجها إلى أقصى حدود الجزيرة العربية حتى إلى ما وراء تلك الحدود، كانت حلقات الدروس الدينية للشيخ «محمد بن عبد الوهاب» للأمير ولعامة الشعب على حد سواء، إذ كانوا جميعاً بحاجة إلى روحانية بسبب القنوط الذي عانى منه العرب خلال سنوات الجهل والإهمال. كانت الآثام عظاماً وكانت البسيطة منها سائدة في الأوساط الغنية والفقيرة على حد سواء: أهمل الناس الصلاة أو كان بعضهم يؤديها لكن بشكل روتيني يفتقر إلى الخشوع؛ وكما توقف الناس منذ زمن طويل عن دفع الزكاة وتحول جمعها إلى عملية إجبارية.

كرس الشيخ جهده ونفسه لمعالجة هذه الأمور -وقد بدأ بذلك - على نطاق كافة الإمارة، وبعد ذلك امتد نشاطه ليشمل مناطق وراء ذلك النطاق. ولم يلجأ الشيخ إلى القوة بل لجأ إلى أسلوب الإقناع. وكان ينقصه المال فلجأ إلى الاقتراض وقدم له عن طيب خاطر ليساعد طلبته على الاستمرار في تحصيل العلم. ويقال إنه عند الاستيلاء على مدينة الرياض بعد عدة سنوات لاحقة، بلغ الدين المترتب عليه أربعين ألف محمدية، وذلك مبلغ كبير بالمقياس المالي لتلك الأيام. لكن تم تحصيل كل ديونه من حصته في الغنائم التي حصلوا عليها بعد ضم الرياض، وكذلك من حصته في الإتاوات التي كانت الدولة تجمعها.

في تلك المرحلة أصبحت فكرة الجهاد راسخة بحق في أذهان طلبته، إذ وجد العديد من طلابه أن فكرة الجهاد هي الجزء المستساغ في تعاليمه ونظراً لأنها كانت متمشية مع الممارسات الطبيعية للناس. يقتطع خمس الغنائم لصالح الخزينة المركزية والتي كان الأمير والشيخ يستمدان مصروفاتهما منها لتغطية نفقاتهما ونفقات أعمال أخرى معينة. واستمر الأمير والشيخ يعملان بانسجام ووفاق تامين وكأنهما روح في جسدين، ويقال إن الأمير «محمد بن سعود» وابنه وخليفته الأمير «عبد العزيز» لم يقدما على أي مشروع أو قرار دون موافقة ومباركة الشيخ «محمد بن عبدالوهاب». فلا يمكن أن يوجد أي مثيل لهذا الانسجام الذي دام على مدى نصف قرن، وإن وجد فإنه نادر. ومرت مكانة الشيخ في شؤون الدولة على ذلك النحو مدة عام أو عامين، وعليه يجب - على الأقل - النظر للشيخ على أنه الشخصية التعاونية المؤسسة لتلك الدولة.

وعندما بدأ نمو الدولة يلقي بأعباء ثقيلة على كاهليه الآخذين في الكبر، نقل الشيخ مسؤولية تنفيذ الأمور السياسية والإدارة والمالية إلى الأمير «عبدالعزيز» الذي استمر في مشاورته في كافة القضايا.

بإمكاننا الآن أن نستعرض الوضع في نجد بعد أن ظهرت به -في عام ١٧٤٥م- حكومة جديدة. كما أشرنا سابقاً ظهر حاكمان جديدان أتيا إلى السلطة خلال الثلاثينيات من القرن الثامن عشر الميلادي، وهما بالتحديد «سليمان بن محمد بن غرير» الذي كان حاكماً على الأحساء و«عثمان بن حمد بن معمر» الذي كان على العيينة.

والجدير بالذكر أن المنافسين الرئيسين للدولة السعودية كانتا « الأحساء» و«العيينة». وقد شهدت الفترة نفسها وبالتحديد على الجانب الجنوبي من الدرعية ظهور قوة جديدة سبق أن كانت تتململ على مدى بضع سنوات لتشكل أقوى عدو للدولة السعودية. وهنا لا بد أن نعود إلى الوراء قليلاً لنستعرض تعاظم أملاك الرياض، فتبدأ القصة بالواقع عام ١٦٨٢م في منطقة «منفوحة» عندما أقدم «دواس بن عبد الله بن شعلان» زعيم المدينة على ذبح زوار من عائلة «الجلاجيل»[١] قدموا إلى «منفوحة» من «سدير»[٢] لكن التاريخ الدقيق لهذه الحادثة غير متوافر لدينا؛ إلا أن تسلسل مجريات الأحداث واضح تماماً. وعندما مات «دواس» عام ١٧٢٦م خلفه ابنه «محمد» هو الأكبر بين ستة من أبنائه. واجه «محمد» تحديات من قبل ابن

(١) صحة الاسم هو: الجلاليل. (المراجعون).

(٢) وقول المؤلف إنهم قدمو من سدير إلى منفوحة اعتماداً على خطئه في قراءة الجلاليل إلى الجلاجيل فاعتقد أنهم من مدينة جلاجل في منطقة المحمل المجاورة لمنطقة سدير. (المراجعون).

عمه اللزم «عبد الله بن فارس» الذي تمكن من ذبحه ونفي كل إخوانه من منطقة «منفوحة» واستولى بنفسه على الزعامة فيها، ولجأ الإخوة الخمسة بما فيهم «دهام» إلى الرياض واحتموا فيها، وكانت الرياض في وقتها تحت حكم شخص يدعى «زيد بن موسى». قويت شوكة الإخوة في المنفى (الرياض). وحدث أن أقدم عبد يدعى «خميّس» على قتل «زيد» واغتصب حكم الرياض لمدة ثلاث سنوات حدث في نهاية تلك الفترة أن أصيب بذعر بسبب إشاعة مفادها أن هناك ثمة خطة للإطاحة به، أدى به ذلك الذعر للهروب إلى منطقة «منفوحة» وهناك نفذ به حكم الإعدام. ولأن كرسي الحكم في الرياض أصبح شاغراً تولى «دهام بن دواس» الذي كانت أخته أرملة «زيد بن موسى» الحكم على المدينة بصفته الوصي على العرش نيابة عن ابن «زيد» الذي كان قاصر السن. وعندما استقر في الحكم وثبت أقدامه نفى الصبي عن الرياض واغتصب الحكم والزعامة. وأمام حكم «دواس» الطويل لـ «منفوحة» - الذي لا نعرف متى بدأ بل نعرف فقط بأنه انتهى مع حكم خلفه «محمد» في عام ١٧٢٦م - ليس لدينا أي خيار إلا أن نرقب التطورات التي تحدثنا عنها أعلاه على مدى الأعوام ما بين ١٧٢٦م و١٧٤٠م. والمعلوم لدينا أن «دهاماً» مكّن نفسه في الحكم عام ١٧٤٠م، وفي أقصر الاحتمالات يمكن القول إن فترة حكمه بدأت في حوالي عام ١٧٤٠م.

ليس هناك سجلات تاريخية تدل على وقوع أي أعمال عدائية بين الرياض والدرعية خلال الفترة التي سبقت دخول الشيخ «محمد بن عبدالوهاب» إلى الرياض. لكن حدث في بداية عام ١٧٤٦م أن قام «دهام»

ومواطنون من الرياض تدعمهم فرقة من بدو « الظفير » بمهاجمة منفوحة. وهناك دار قتال شرس أسفر عن إصابات في كلا الطرفين دون تحقيق أي مكاسب لأي فريق. وقد استمر القتال إلى أن وصلت قوة إنقاذ من الدرعية بقيادة «عبد الله» ابن زعيم الدرعية. ولأن المهاجمين وقعوا وسط الاشتباكات الدائرة بين المواطنين وبين قوة الإنقاذ، حاولوا شق طريقهم واختراق صفوف قوة الإنقاذ. أصيب «دهام» في تلك الحادثة بجراح مرتين إلا أن حصانه أصيب بضربة قاتلة.

أصبح الآن «علي بن مزروع» - الذي يفترض أنه خلف «عبد الله بن فارس» في زعامة منفوحة - الحليف الطبيعي لابن سعود في نضاله الطويل الهادف لإخضاع زعيم الرياض. وسرعان ما استؤنفت الأعمال العدائية بين الطرفين مباشرة بعد حادثة منفوحة. أرسل «ابن سعود» قوة تحت جنح الظلام ليشق من خلالها طريقه إلى داخل منفوحة. وكانت في ذلك الوقت تقع إلى الغرب تقريباً من مدينة الرياض الحالية على تلة خلف حزام النخيل. نجح المهاجمون في الدخول إلى منزل «ناصر بن معمر» ومنزل «تركي» أخي «دهام»، لكنهم لم يتمكنوا سوى من أخذ عدد محدود من الجمال. بادر «دهام» في تلك الفترة إلى مهاجمة «العمارية» باعتبار أن زعيمها كان قد قتل وإن كانت جمالها مربوطة الأرجل. وعند سماعه بهذا الخبر سارع «محمد» على عجل ونصب كميناً للغزاة العائدين ورتب لشن هجوم عليهم من أحد أطراف الوادي. علم «دهام» بنوايا «محمد» وقرر أن يكمن له على الطريق إلى هناك، وحدث أن اختار «دهام» نفس المنطقة التي اختارها «محمد» لنصب فخه، وكانت النتيجة أن وقعت معركة حامية سقط

فيها رجال من الطرفين. وسرعان ما وقع بعد هذه الحادثة حادث آخر يعرف باسم «موقعة الشِّيَّاب». دارت تلك الواقعة بجوار الرياض التي سار إليها «محمد بن سعود» وبصحبته «عثمان بن معمر» الذي كان قد انضم إلى تحالف الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» وحاكم الدرعية. وعندما وصلوا إلى الموقع المحدد قسموا القوات إلى مجموعتين: كان مقرر لإحداهما أن تهاجم أطراف الرياض في حين كان مقرر للثانية أن تبقى في مكانها لتتصدى لأي هجوم مفاجئ يمكن أن يقوم به المواطنون لحماية ممتلكاتهم. حدثت المعركة الرئيسة حول هضبة الوشام بالقرب من المدينة؛ وكما هي العادة أدى هجوم المرابطين من مكانهم إلى إجبار «دهام» ورجاله على الهرب للنجاة بحياتهم. ولأنه كان من بين القتلى رجلان كبيران في السن سميت المعركة «بالشّياب» نسبة لكبر سنهما.

كانت معركة العبيد -تقريباً- نسخة مكررة عن هذه المرحلة باستثناء واحد هو أن معظم القتلى في الجانب المدافع عن الرياض كانوا من العبيد. حدثت هذه الاشتباكات في حوالي نهاية عام ١٧٤٦م، وفي أوائل العام التالي نقل «دهام» الحرب إلى الدرعية، ولم ينس أن يكرر التكتيك المألوف في نصب الكمائن.

اندفع سكان الدرعية بأعداد كبيرة شبيهة بأسراب الجراد للتصدي للغزاة الذين فروا في حالة اختلط فيها الحابل بالنابل قاصدين بذلك أن يوصلوا أهالي الدرعية إلى موقع الفخ. وحدثت النتيجة المألوفة لكنها جاءت على نحو مختلف تماماً، إذ قتل فيها اثنان من أبناء «محمد بن سعود» هما «فيصل» و «سعود». ورداً على ذلك شن «محمد» حملة مضادة على

الرياض تدعمه قوات من «منفوحة» و «حريملاء» اللتين كانتا قد انضمتا إلى التحالف مع السعوديين. لم تشارك في تلك الحملة أية قوات من «العيينة». ولسوء حظه أن خائناً (كان بين صفوف قوات حريملاء) تسلل وذهب ليحذر «دهام» من الهجوم المعد ضده عند الفجر. وقد أسرع «محمد» في الهجوم دون أن يعلم بهذه الخيانة وقد وجد المدافعين منتبهين ويقظين بشكل تام، ومن الصعب في مثل هذه الظروف اتخاذ أي قرارات، وانتهت تلك المعركة التي عرفت باسم «الدلقة» أو «الشراك» بالتراجع وسقوط العديد من الجرحى والقتلى في صفوف كلا الجانبين.

تجدد القتال مرة ثانية في العام التالي ١٧٤٨م إذ قاد «عثمان بن معمر» جيشاً ضم قوات من «الدرعية» و «العيينة» وقوات من «حريملاء» و«ضرما» وجميعها كانت قد دخلت في التحالف السعودي.

قاد «محمد بن سعود» قوات الدرعية وعمل تحت قيادة «عثمان» العليا. والجدير بالذكر هنا أن «محمداً» قبل تلك الفترة بقليل كان قد تزوج من ابنة «عثمان». شن الهجوم الأول ضد «صياح» و «مقرن» وهما من ضواحي الرياض، وأوشكت القوات المهاجمة أن تستولي عليهما لولا أن نجدة قدمت من الرياض وأعادت التوازن.

قاتل الطرفان بضراوة إلا أن المتدينين السلفيين أجبروا على التراجع في تلك المعركة التي عرفت باسم «البنية»، تاركين وراءهم خمسة وأربعين قتيلاً من قتلاهم وأغلبهم من أهل «حريملاء». وتكرر في نفس العام الهجوم بنفس القوة والشكل، لكن بدأ هذه المرة ضد منطقة «الخريزة» المجاورة لمنطقة «صياح»، ولم يحقق نتائج تذكر. كان القائد في ذلك الهجوم «عثمان» وكان

«عبد العزيز» تحت إمرته وكانت نفس التشكيلات العسكرية مسؤولة عن الحملة التي أرسلها «محمد» ضد «ثرمدا» في إقليم «الوشم». ونصب الفخ بالطريقة نفسها وألحقت الهزيمة النكراء بجماعة أهل المدينة الذين قدموا للقتال، حيث قتل منهم ما لا يقل عن سبعين رجلاً واختبأ الباقون في مزرعة فيها بيوت صغيرة تقع خارج البلدة. أصبحت هذه المزرعة بدون مدافعين فاندفع «عبد العزيز» لاحتلالها، إلا أن «عثمان» رفض السماح له بذلك وعليه اتهم بعدم ولائه للقضية. نقل «عبدالعزيز» تصرف «عثمان» هذا إلى «محمد ابن سعود» وإلى الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» لكنهما -على ما يبدو- لم يتخذا أي تصرف من شأنه أن يصعّد الموقف نظراً لأن «عثمان»، وفي أواخر ذلك العام ترأس حملة صغيرة وتوجه بها مرة ثانية إلى «ثرمدا»، ومنها توجه نحو «ثادق» وهناك قتل عدداً قليلاً من الناس وأخذ بعض أغنامهم.

وفي عام ١٧٤٩م ترأس «محمد» بنفسه حملة ثانية قصد بها الرياض، وهاجم عند الفجر منطقة تعرف بـ «الحبونية» لكنه وجد أن السكان في ذلك الوقت كانوا مستعدين للقتال، وهناك تم تبادل العيارات النارية على مجال محدود، ووقعت بعض الإصابات. شهدت الأشهر الأولى من ذلك العام موجة برد قارس ألحق ضرراً بالغاً بالمحاصيل، وكانت بادرة قدوم أيام عجاف تعاقبت على تاريخ الجزيرة العربية مراراً وتكراراً.

حدث في نهاية ذلك العام أيضاً أن احتجز «مسعود بن سعيد» أمير مكة حجاج «نجد»، ويقال إنه حجر عليهم في المحاجر الصحية وهناك مات الكثير منهم. بلغت في عام ١٧٥٠م الشكوك الخاصة بسلوك «عثمان بن معمر» الشرس مرحلة الذروة، وعقب صلاة الجمعة في شهر حزيران تم

اغتيال «عثمان بن معمر» في الجامع الكبير بالعيينة: زعم بأن «عثمان» كان يجري مراسلات اتسمت بالخيانة مع «محمد بن عفالق» حاكم الأحساء. وبموجب تلك المراسلات تم التفاهم بين الاثنين على أن يتنصل «عثمان» من ولائه إلى الدولة السعودية وأن يتخذ إجراءات تضر بمصالحها. نفذت عملية الاغتيال تلك مجموعة من «العيينة» متعاطفة مع «محمد بن عبد الوهاب» والتي أسفت لرحيله عنها، وحُمّل «عثمان» وحده المسؤولية عن ذلك، وحسب رأي «ابن بشر» القائل بأنه «ليس في الدين محاباة»، ونظرة الناس إلى عملية قتل أبي زوجة وريث عرش الدرعية (الذي لم يبلغ ابنه آنذاك سوى عامين)[1] على أنه إجراء جدير بالإطراء[2].

وفي العام نفسه قاد «محمد بن سعود» جيشه شخصياً في هجوم آخر ضد الرياض لكن لم تعرف نتيجته. وحدثت مجابهة بين رجال «محمد بن سعود» وفريق مدافع بالقرب من بئر «باب المروة»، وأطلق على تلك المجابهة اسم «البطحاء» أيضاً. تزامن مع هذه الحملة أن قام زعيم «العيينة» الجديد «مشاري بن إبراهيم بن معمر» ابن عم «عثمان» اللزم، بحملة أخرى كرر من خلالها الهجوم على «ثرمدا»، ورافقه في تلك الحملة «عبد العزيز» على رأس فرقة من الدرعية. ولكون سكان «ثرمدا» على علم سابق بتلك الغزوة، تمكنوا من جلب تعزيزات من «أثيثيه» ومن «مرات» المجاورتين. وكان خطؤهم أن خرجوا إلى العراء لقتال السلفيين: ونفذ الكمين المعد لهم

(١) يقصد الإمام سعود بن عبدالعزيز. (المراجعون).

(٢) يفهم من كلام المؤلف أن عثمان هذا هو جد الإمام سعود بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود لأمه وهذا لم يثبت فيه نص عند المؤرخين النجديين المعاصرين للأحداث. (المراجعون).

وحقق بعض النجاح الذي تجلى في إجبارهم على التقهقر إلى قريتهم. قام الغزاة في اللحظات الأخيرة وقبل العودة إلى ديارهم محملين بغنائم الحرب بسلب المزيد من خيرات القرية. وسقط في تلك المعركة «علي بن زامل» زعيم «أثيثية» وعرفت تلك المعركة باسم «الوطية».

شنت قوات محمد بن سعود في نهاية العام أو في بداية عام ١٧٥١م هجوما آخراً على الرياض ومُنوا بنكسة، علماً بأنهم تمكنوا من الوصول إلى منطقة «العودة»[١] جنوب شرق الرياض لكنهم لقوا مقاومة عنيدة وصعبة تكبدوا فيها بعض القتلى وكان من بينهم «علي بن موسى الدروع» وهو من أنساب آل سعود.

كان حديث الساعة في بداية عام ١٧٥١م هو ارتداد «ضرماء» عن الدعوة السلفية وكذلك ارتداد أحد الأفخاذ ذات النسب البعيد للأسرة المالكة. وكان ذلك الفخذ هو الفرع الأكبر الذي هاجر من «الدرعية» إلى «ضرماء» مع «عبد الرحمن بن إبراهيم» وهو من أجداد «محمد بن سعود».

حدث في عام ١٦٨٤م أن قتل «محمد بن عبد الرحمن» على إثر مشكلات دينية بسيطة حدثت مع جيرانه، وأصبح -على أحسن تقدير- حفيده «إبراهيم» (وليس ابنه كما ذكر ابن بشر)[٢]، حاملاً لراية مجابهة الدعوة، فقام بإعدام العديد من أشهر المؤيدين لها في منطقته بما فيهم «رشيد

---

(١) قول المؤلف إن الهجوم الذي تم عام ١٧٥١م وصل إلى منطقة العودة ليس صحيحاً، ويبدو أنه أخطأ هنا وكان يقصد «العدوة» علماً أن وقعة العدوة لم تتم في هذه السنة بل تمت في سنة ١٧٦٥م. ولتأكيد ذلك ذكر أنه قتل فيها «علي بن موسى الدروع» وهذا قتل عام ١٧٥١م. (المراجعون).

(٢) الواقع أن ابن بشر أشار إلى أنه حفيده وليس ابنه. (المراجعون).

العزازي» الذي تربطه عن طريق المصاهرة علاقة بفرع عائلة آل سيف[1] التي أصبح في تلك الفترة بعض أفرادها يبحثون عن فرص للأخذ بالثأر. وبعد مضي بضعة أشهر فاجأوه في أحد الجوامع وذبحوه كما ذبحوا اثنين من أبنائه هما «هبدان» و«سلطان»، وعليه تم القضاء على هذا الفرع من الأسرة. وأثناء زيارة «عبد العزيز» إلى ضرما بينما كان في طريقه لغزو «الزلفي» أصدر أمراً بتعيين «عبد الله بن عبد الرحمن» (المريدي) أميراً جديداً عليها.

شهد شتاء عام ١٧٥١م عودة الخيرات بعد الجفاف والتلف الذي أصاب المحصول. وفي العام التالي قام «فيصل بن سويط» على رأس قوات متحالفة من «سدير» و«المنيخ» و «الزلفي» وأهالي «الوشم» بالهجوم على بلد «رغبة» ودمروها دون هوادة، وشارك في ذلك الهجوم فريق كبير من «الظفير». ويقال: إن «فيصل بن سويط» هو حفيد «سلامة» الذي سبق أن قلنا بأنه مات في عام ١٧٠١م علماً بأنه لا تتوافر أية معلومات عن الشخصية التي خلفته في الزعامة.

شهد العام نفسه موت الشيخ «محمد حياة السندي» الذي أشرنا إليه كواحد من العلماء الذين تتلمذ «محمد بن عبد الوهاب» على أيديهم خلال فترة إقامته المؤقتة في المدينة.

انحصرت الحملات العسكرية السعودية خلال ذلك العام ضمن إطار ضيق، وتجلت في غارة بسيطة على الدلم وهي عاصمة الخرج، وانتهت باشتباك حدث ضمن قطاع العفجة بوادي حنيفة. ذهبت محاولات أهالي

(١) ليس هناك مصاهرة بين الفرعين كما أشار المؤلف، وإنما هذا اجتهاد منه لم تشر إليه أي من المصادر النجدية. (المراجعون).

الدلم في استرداد أغنامهم وإبلهم التي تم الاستيلاء عليها أدراج الرياح . وحدث هجوم صغير آخر على فريق البدو في «دهيمان» لكنه ليس جديراً بالاهتمام . وفي وقت لاحق من ذلك العام أصبح لدى السلفيين شيء مهم يستدعي أن يفكروا به ، يبدو أن إجراءات التقشف بسبب التوزيع الجديد للمؤن قد أرهق «حريملاء» التي كان قاضيها آنذاك هو «سليمان» أخو الشيخ «محمد» ، ولذلك انتفض الأهالي هناك ضد أميرهم «محمد بن عبد الله بن مبارك» وخلعوه وطردوه من بينهم وطلبوا من عمه «عدوان» وابنه «مبارك» كما طلبوا من أخيه «عثمان بن عبد الله » إضافة إلى كبار شخصيات البلد الرحيل معه والعيش كمنفيين في «الدرعية» . وبعد فترة وجيزة اتخذوا قراراً غير حكيم وعادوا بناءً على دعوة وبموجب ضمانات وتطمين صدر عن أقاربهم من سلالة «آل حمد» في «حريملاء» ، لكن سرعان ما جوبهوا بتحديات من قبل جماعة «آل راشد» الذين انقضوا عليهم لسبب ما وقتلوا الأمير المخلوع «محمداً» ومعه ثمانية من أتباعه . لكن «مبارك بن عدوان» نجا بحياته لتمكنه من الهرب إلى «الدرعية» . وفي العام التالي انضم «مبارك» إلى «عبد العزيز بن محمد» في حملة تأديبية ضد أهالي «حريملاء» . حدث خلال تلك الحملة قتال ضار رافقته أعمال سلب وتخريب للمحاصيل وواحات النخيل ، دون أن يتحقق أي تقدم ملموس في إلحاق الهزيمة برجال القبائل المتمردين .

قررت «منفوحة» في هذه المرحلة أن تنفصل عن التحالف مع الدعوة وأن تعد العدة لمحاربتها . وحدث في تلك الفترة أيضاً أنه تم بالقوة إحباط محاولة اللاجئين بالعودة إلى ديارهم وسط الظروف المتغيرة . أحبطت تلك المحاولة

بالرغم من مساعدة أصدقائهم من «سدير» و«الوشم» والأقاليم الجنوبية. لم يتمكن الأمير -على ما يبدو- من إقناع الناس بالانضمام للدعوة السلفية، وعلى العموم كان ذلك العام عام تراجع وتقهقر بالنسبة للدولة السعودية. وقد تمخضت المشكلات التي كانت تعاني منها آنذاك قبيلة «بني خالد» عن مولد شخصية بارزة على الساحة قدر لها على مدى السنوات التالية أن تكون شوكة في خاصرة الدعوة. فقد انتفضت جماعة «المهاشير» من القبيلة ضد «سليمان» الذي لجأ إلى «الخرج» طالباً النجاة.

لكن «سليمان» مات هناك بعد فترة وجيزة من وصوله وخلفه في الزعامة «عريعر بن دجين» الذي احتفل بتسلمه السلطة بأن قتل «زعير بن عثمان» المنافس المحتمل له. و«زعير» هو الحفيد الثاني لـ «عريعر»، لكن فيما بعد ثار رجل ضده يدعى «حمادة» من قبيلة «بني خالد» (ليس لسلالته ذكر في المصادر التاريخية). وقد نجح حمادة في إجبار عريعر على النزوح عن المنطقة. ومن «حريملاء»[1] شجع عريعر على العودة. وفعلاً عاد «عريعر» وأجبر «حمادة» على الفرار باتجاه الشمال بدلاً من مجابهة حركة كانت تتشكل وتختمر ضده. وأصبح بإمكان عريعر الآن أن يعمل على تقوية مركزه. وفي تلك المرحلة قام أحد أبناء عمه ويدعى «عبد الله بن تركي» وهو ابن أخ سعدون الكبير بغزو «الظفير» في السبلة بالقرب من الزلفي، وتمكن من دحرهم بسهولة وسلب كل أموالهم. والجدير بالذكر هنا أن «عريعر» هو ابن «دُجين» وعليه فهو حفيد «سعدون».

(١) جلاجل وليست حريملاء كما ذكر المؤلف. (المراجعون).

بالرغم من فترة الراحة الطويلة من القتال ومن حقيقة أن الدعوة السلفية كانت تمر بصعوبات جمة، إلا أن «دهاماً» بدأ يتعب من مقارعة الأحداث غير المواتية التي صمد أمامها حتى ذلك التاريخ، وفي نهاية عام ١٧٥٣م أو بداية العام التالي قرر أن ينضم إلى التحالف فأرسل رسولاً إلى «الدرعية» وحمله هدية فخمة تشتمل على الخيول والأسلحة[1] كانت غايته منها أن يصل إلى هدفه وأن يؤكد لـ «محمد بن سعود» على ولائه له وللعقيدة الدينية التي أسهم في إنجاحها وازدهارها. وقد طلب من «محمد بن سعود» أيضاً أن يرسل إلى الرياض معلم دين. واختار الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» لهذا الغرض رجلاً يدعى «عيسى بن قاسم».

وهكذا دخلت الرياض في الدعوة السلفية وحل السلام لفترة من الزمن، وأثناء ذلك كانت «ضرما» تواجه موجة من المشكلات المتزايدة بسبب مقتل أربعة إخوة من عائلة «السياري» وهي فرع من سلالة «سيف بن إبراهيم» على أيدي الأمير الجديد «محمد بن عبد الله» (المريدي) الذي كان من الملتزمين السلفيين وأحد أفراد أسرة «عبد الرحمن» المنتمية إلى الأسرة نفسها التي قضى أبناء عمومتهم من أسرة آل سيف على كل أفراد أسرتهم عندما ثاروا قبل بضع سنوات ضد الأمير «إبراهيم» وقتلوه مع اثنين من أبنائه. ويبدو أنه لم يعد بالإمكان ضبط أبناء عم آل سيف بعد مأثرهم في قتل الأمير الحاكم، وأصبحوا يعربون جهراً عن معارضتهم للدعوة السلفية، بل أصبحوا يستبدون بالناس ويزدرون بالحكم القائم.

---

(١) هذه الهدية التي أرسلها دهام كانت بطلب من محمد بن سعود ولم تكن مبادرة من دهام نفسه. (المراجعون).

رفع الأمير هذا الوضع إلى السلطة في «الدرعية» وتدارس الشيخ «محمد ابن عبد الوهاب» مع الأمير «محمد بن سعود» هذه المسألة وقررا أن تطلق يد الأمير في هذه المسألة وأن يتصرف حال حدوث مشكلات جادة أو خطر حسب ما يراه مناسباً. وهكذا تشاور الأمير مع وجهاء البلد واتفقوا على اتخاذ إجراء يقطع دابر أعمال التحريض على الفتنة والعصيان بشكل نهائي. لكن حدث أن قام شخص من عائلة «الغفيلي» في شهر تشرين الثاني من العام نفسه، (كانت تربطه بطريقة ما علاقة مع عائلة «آل سيف»)، بمساعدة أمير «ثرمدا» المدعو «إبراهيم بن سليمان». هذا؛ وقدم العون أيضاً لجماعة «مرات» الذين كانوا يحاولون ضرب الدولة السعودية في «ضرماء». وقد شعر أمير «ضرما» بتلك الخطة فأرسل يطلب المساعدة من «الدرعية». ومن هناك انطلق منها «محمد بن سعود» لنجدته، وتزامن وصوله إلى «ضرماء» في الوقت الذي وصل فيه أصدقاء «الغفيلي» قادمين من الوشم. ودار بين الطرفين اشتباك منيت جماعة «الغفيلي» على إثره بهزيمة نكراء وسقط منهم حوالي ستين رجلاً.

ركز «محمد بن سعود» في تلك الفترة اهتمامه على «حريملاء» وأرسل إليها في أوائل عام ١٧٥٥م «عبد العزيز» على رأس قوة من ٨٠٠ رجل. وصل «عبد العزيز» إلى هناك ليلاً وعسكر إلى الشرق من إحدى الواحات هناك ونشر قواته مشكلاً كمائن مزدوجة أشرف «عبد العزيز» بنفسه على كمين في شعيب «عويجا» في حين كمن «مبارك بن عدوان» ومعه ٢٠٠ رجل في «الجزيع».

وفي الفجر زحفت القوة الرئيسة على المدينة التي خرج رجالها للقتال. فلم يكن انضمام الكمين الأول إلى المعركة كافياً لترجيح كفة المعركة، إلا أن قدوم الكمين الثاني الذي التف عليهم ليعزلهم عن المدينة شكل ثقلاً لم يكن بإمكان المدافعين الصمود أمامه، وتحول انسحابهم إلى حالة فوضى إذ سارع السكان إلى الاحتماء بأشجار النخيل وبأسوار البلد، وسقط منهم أثناء سير المعركة حوالي مئة رجل. ولسبب ما توجه «عبد العزيز» إلى «الدرعية» تاركاً القادة المعاونين له يشرفون على سير القتال. وبعد مغادرته بقليل قام أحد هؤلاء القادة المساعدين وتمكن من دخول المدينة واحتلها بشكل فعلي. وعلى الفور رجع «عبد العزيز» ليشرف بنفسه على الوضع هناك وأعلن حماية وسلامة كل رجل ذا نوايا طيبة باستثناء أفراد جماعة آل الراشد لأنهم كانوا قد اقترفوا الجرائم وانتهكوا القانون المدني، وتم تعيين «مبارك بن عدوان» أميراً ليخلف ابن عمه المقتول، وتم استرداد «حريملاء» لنصرة الدعوة السلفية وحركتها في الرابع عشر من شهر آذار من عام ١٧٥٥م. وفي ذروة الانتفاضة فر القاضي «سليمان بن عبد الوهاب» من ذلك المكان سيراً على الأقدام ووصل بسلام إلى «سدير».

وفي الرياض سرعان ما كان «دهام» قلقاً من السلام. كما تعب من مشكلات الحرب، وفي ذلك العام بادر بجولة ثانية من القتال ضد «الدرعية»، وساعده هذه المرة «محمد بن عبد الله بن فارس» الذي كان في وقتها أميراً على منطقة «منفوحة»، كما ساعده أيضاً «إبراهيم بن سليمان» زعيم «ثرمدا» الذي جمع حوله كل الساخطين على النظام من مناطق الوشم وسدير، وثادق، وحريملاء. كما جمع حوله كل الأعداء الرئيسين للدولة الناشئة، وكان أول أهداف هذا التحالف هو استرداد «حريملاء» من الحكم السعودي. ومن أجل

تحقيق هذه الغاية تجمعت القوات التي تحت إمرتهم في قرية «الحسيان» وهو مصدر ماء في المنافذ العليا لوادي «حريملاء». شن «مبارك بن عدوان» بما لديه من قوات جاهزة في تلك اللحظة هجوماً مضاداً واستمر في مناوشتهم إلى أن وصلت التعزيزات من «الدرعية». وعند رؤية هذه التعزيزات انهارت قوات المتحالفين وأصيبوا بالذعر واختبأ بعض منهم في بيوت القرية ومكث بعضهم فيها لمدة خمسة أيام استطاع بعضهم خلال تلك الأيام الهرب تحت جنح الظلام في حين لاقى البعض الآخر حتفه. وكان زعيم «ثادق» والمدعو «ساري بن يحيى» من بين الذين تمكنوا من الهرب. وقد بلغت خسائر المتحالفين في هذه المعركة التي أطلق عليها اسم «وقعة الدار» ستين قتيلاً، ويقال إنها حدثت إما في شهر آب أو في شهر أيلول من عام ١٧٥٥م.

كان العام التالي عاماً هادئاً نسبياً باستثناء هجوم بسيط قام به «عبد العزيز» على «منفوحة». أما الحدث الآخر فكان قدوم وفد من قرية «القويعية» في مرتفعات «العرض» لزيارة أمير الدرعية والشيخ «محمد بن عبد الوهاب»، وهناك أعربوا عن ولائهم لسلطة الدرعية.

شهد ذلك العام أمطار خير ومحاصيل وافرة ومراعيَ خصبة أدت جميعها دوراً في خفض عدد الغزوات والحروب، لكن شتاء عام ١٧٥٦م/ ١٧٥٧م شهد معاودة الهجمات والغزوات، والتي بدأت بمعركة «سد الرشا»[١] الذي كان يُحوّل مياه السيول من وادي حنيفة إلى واحات النخيل في «منفوحة». وكان ذلك السد هدفاً استراتيجياً لـ «عبد العزيز» وعليه قام بالسيطرة على بعض المنازل في حزام النخيل وشرع في تدمير السد الذي كان بُني من

(١) تعرف عند ابن بشر بوقعة الرشا. (المراجعون).

حجارة كبيرة مدعمة بمعاقل وحصون مستديرة الشكل بين مسافات محددة. وبينما كان منكباً على هذا العمل جاء «دهام» من الرياض وقام بهجوم عليه ونشب قتال شرس مات فيه عشرة من السلفيين وثلاثة من خصومهم.

قامت الآن جماعة من الوشم بزيادة زمام المنافسة. اشتملت منطقة الوشم على العاصمة «شقراء» التي كانت المركز الوحيد لثقل الدعوة السلفية. وكانت تلك الجماعة أول جماعة في «نجد» (طبعاً باستثناء الدرعية والعيينة) على المبادئ الجديدة. ولأن المناطق الأخرى الأقل عدداً من حيث السكان كانت معادية جداً للدولة السعودية؛ فقد طلبت إمدادات ومساعدات من «سدير» و«منيخ» ليتمكنوا بها من غزو «شقراء». وقد أسفر هجوم قام به فريق من «منيخ» عن صدام كانت نتائجه بشكل إجمالي لصالح المدافعين الذين غنموا بعض الخيول والجمال من أعدائهم. وفي هذه المرحلة خرج «عبد العزيز» من الدرعية ليشارك في النزاع، وفي الجولة الجديدة من القتال حقق رجال الدرعية الذين خرجوا - كالعادة - من مكانهم نتيجة حاسمة، وتراجع المتحالفون إلى «القراين» التي تبعد بضعة أميال عن العاصمة، وبلغت خسائرهم في ذلك الاشتباك سبعة عشر قتيلاً من بينهم وجهاء من منطقة «سدير». وبعد أن صد «عبد العزيز» الخطر عن «شقراء» عاد إلى الدرعية وبينما هو في الطريق هاجمه فريق من بدو «سبيع» بالقرب من آبار «الحسي» الواقعة على ممر الحيسية المؤدي إلى سهول «طويق». تمكن «عبد العزيز» من هزيمة البدو وأسر زعيمهم «ابن فايز المليحي» الذي حرر نفسه بدفع فدية بلغت ٥٠٠ قطعة ذهبية.

في هذه المرحلة هاجم «عبد العزيز» الرياض، إذ قام تحت جنح الظلام بنصب كمين خارج البوابة الغربية، ولهذا السبب حظي ذلك الهجوم باسم

«باب القبلي» وكانت تلك المعركة إلى حد كبير مثل سابقاتها، إذ منيت جماعة الرياض ببعض الخسائر بسبب ذلك الكمين. في تلك الأثناء كان أمير ضرما «محمد بن عبد الله» في طريقه لمهاجمة الوشم، إلا أنه تعرض لهجوم شنه عليه فريق مغير من «الصمدة» (الظفير). لم يستطع أمير «ضرما» أن يصمد لفترة طويلة وسرعان ما هرب. تابع عبد العزيز طريقه بالتقدم نحو الوشم، وهاجم قرية «أشيقر» ومن هناك اتجه نحو «ثادق» التي حاصرها بضعة أيام وألحق خسائر كبيرة في المناطق المحيطة بها، وبعد وقوع بعض الإصابات في صفوف كلا الطرفين، وكان «محمد بن دغيثر» من المصابين من جانب الجيش السعودي، سعى الناس من أجل السلام معلنين عن استعدادهم لقبول الدعوة السلفية وقبول سلطة «ابن سعود». وقد عُيّن في تلك الفترة «دخيل بن عبدالله بن سويلم» (وهو ابن عم أول شخص استقبل «محمد بن عبد الوهاب» في الدرعية) أميراً على «ثادق» كما عُيّن شخص آخر من العائلة نفسها في منصب القاضي ويدعى «حمد بن سويلم»[1].

توجه «عبد العزيز» إلى «سدير» لمهاجمة مدينة «جلاجل» المهمة، وتركز القتال حول مناطق «العميري» إلى الشمال من المدينة، وبعدها تابع المسير نحو «الروضة». وهناك استدعى قضاة تلك المنطقة وقضاة الحوطة والداخلة، وطلب منهم أن يرافقوه إلى الدرعية، ولعله أراد من ذلك أن يطلعوا الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» عن الأمور الدينية والمادية المتهمين بها. وعرج في طريق عودته على «العودة» وأخذ اثنين من كبار رجالها

---

(١) من المعروف أن السويلم في الدرعية والرياض من سبيع وآل سويلم في ثادق من البدارين من الدواسر وليس هناك أي صلة قرابة بين العائلتين، وإنما تشابه على المؤلف توافق الاسمين. (المراجعون).

كرهائن وهما «عثمان بن سعدون» و «منصور بن حمّاد» ليضمن بهما حياة «عبد الله بن سلطان» الذي كان في ذلك الوقت يشغل منصب الأمير هناك. وبعد إقامة قصيرة في الدرعية سمح لهذين الاثنين بالعودة إلى ديرتهم بعد أن تعهدا بأن يكون سلوكهما طيباً. لكن بعد أن وصلا إلى «العودة» سرعان ما أقدما على قتل الأمير وشخصيتين كبيرتين هناك. اغتصب «عثمان بن سعدون» الإمارة، وعلى الفور أعلن عن رفضه للدعوة السلفية، وعلى أي حال يبدو أنه ضبط سلطته على المدينة واستمر في حكمها عشر سنوات إلى أن قام أحد الأشخاص باغتياله.

أما في منطقة «الروضة» التي تصنف إلى جانب منطقة «جلاجل» كمنطقة رئيسة من مناطق «سدير»، فتم خلع الأمير «فوزان» (ابن جاسر؟) ابن ماضي الذي كان قد خلف عمه «محمداً» بعد اغتياله في عام ١٧٤٥م، كما نفي الأمير «فوزان» ليخلفه أخوه «عمير بن جاسر».

وفي فصل شتاء عام ١٧٥٧م/ ١٧٥٨م كان الأمير «عبد العزيز» تواقاً إلى القتال، وكانت «ثرمدا» هدفه للمرة الثانية. وعليه أمضى تلك الليلة في نصب كمينه المعتاد في منطقة وادي الجمل وتمكن من الدخول إلى واحة النخيل عن طريق فتح ثغرة في الجدار. رابطت قوته الرئيسة في تلك الواحة بانتظار الفجر لتشن الهجوم. لكن سمع أحد حرس المدينة أصواتاً غير عادية وهرع ليخبر الأمير «إبراهيم بن سليمان». وعلى الفور قدر الأمير وأعد خطته وفقاً لذلك بانتظار الفجر، ووزع قواته إلى فريقين: أرسل فريقاً ليراقب مخرج واحة النخيل في حين أرسل الفريق الثاني ليهاجم الكمين في داخل الواحة. ونشب القتال وقتل الأمير وابنه[1] في تلك المعركة الضارية

(١) لم يقتل الأمير إبراهيم بن سليمان في هذه المعركة بل الذي قتل هو ابنه عبدالمحسن. (المراجعون).

التي حارب فيها الطرفان بشكل مميت، لكن السلفيين منوا أيضاً بخسائر جسيمة، إذ قتل منهم ثلاثون رجلاً مقابل ثمانية رجال من فريق المدافعين. وبعد تلك الواقعة سار «عبد العزيز» باتجاه «سدير» ودخل بلدتي «الحوطة» و«الجنوبية» دون معارضة من أهلهما، وكانت الرياض هدفه التالي فهاجمها خلال شهر رمضان وسقطت في يده في شهر آيار من عام ١٧٥٨م[1].

دارت معركة الاستيلاء على الرياض في نخل يطلق عليه اسم «أم العصافير»، وكان «تركي بن دواس» أخو «دهام» من بين المصابين، إضافة إلى عدد من الشخصيات الرئيسة في الرياض. وتبع ذلك معركة «البنية» الثانية. وفي طريق عودته إلى الدرعية أصدر «عبد العزيز» أوامره ببناء قلعة «غذوانة» في وادي حنيفة غرب الرياض لتكون نقطة انقضاض على الحملات المزعجة التي تستهدف البلدة وضواحيها. وتم إنجاز القلعة في سبعة أيام فقط، لكن لم يشأ الله لـ «محمد بن سعود» أن يسهم في سقوط «دهام» خلال السنوات السبع التي تبقت من عمره.

كانت المشكلات تستعر في «حريملاء» وكان الأمير الجديد «مبارك بن عدوان» قد بدأ في إعطاء نفسه قدراً أكبر من حجمه وبدأ يستخف بالسلفيين من بين رعيته، وسببت شكاوى هؤلاء السلفيين خشية لدى أمير الدرعية من احتمال انشقاق تلك المنطقة عن الدعوة السلفية. وسبق لـ «مبارك» كما أشرنا أن رافق «عبد العزيز» في حملته ضد الرياض، وفي طريق عودة الحملة إلى الدرعية اقترح الشيخ «محمد» وجوب أن يبقى «مبارك» في الدرعية ضيفاً عليها دون إجحاف بحقه في ممتلكاته في «حريملاء». واقترح

(١) لم تسقط الرياض في يد الإمام هذه السنة كما أشار المؤلف. (المراجعون).

«محمد» أيضاً أنه يجب أن يحل محله ابن عمه «حمد بن ناصر بن عدوان». وباعتبار أنه لم يكن لديه أي خيار سوى أن يطيع ما كان -في الواقع- أمراً فعمد إلى التظاهر بأنه قبل الدعوة طوعاً، ولم يلق أية معارضة لطلبه في زيارة شقيقته في العيينة التي كانت متزوجة من «حمد الطويل». وفعلاً ذهب إلى هناك ونادى بأعلى صوته مع قرع الطبل في الأسواق بأنه صاحب الحق في الإمارة، وسرعان ما التف حوله مؤيدوه الأوائل.

أغلق «حسن بن عبد الله بن عيدان» بوابة البلدة الرئيسة في وجه «مبارك» وجماعته، نيابة عن الأمير الجديد المسؤول عن الحامية، وخوفاً من أن يقوم «عبد العزيز» بتثبيت دعائم النظام والأمن هناك، فرّ «مبارك» وكبار أتباعه إلى «رغبة». ألقى أمير رغبة علي الجريسي القبض على واحد من أتباع «مبارك» ويدعى «مربد بن أحمد بن عمر القاضي» وقام بإعدامه، إلا أن «مباركاً» تمكن من الهرب عن طريق قرية «الصفرة» وتوجه إلى «المجمعة» التي وافق حاكمها «حمد بن عثمان» وزعماء «حرمة» من عائلة مدلج على دعمه ومساعدته. وعلى الفور انضم إلى صفوف المتمردين كل من «إبراهيم ابن سليمان» أمير «ثرمدا» وكل قرى «الوشم» باستثناء «شقراء». يبدو أن حادثة «رغبة» سبقت الهجوم على «ثرمدا» الذي حدث في شهر حزيران من عام ١٧٥٨م. حيث تجمعت في ذلك التاريخ قوات التحالف المشتركة للتزود بالماء من «الفقير» القريبة من «رغبة»، وليراقبوا أيضاً التطورات وليعدوا خطة حملتهم. إلا أن أخبار وصول «عبد العزيز» على رأس قوة كبيرة إلى «حريملاء» حدت من حماستهم، وعليه توجهوا إلى القسم الرئيس من «رغبة» والمعروف بـ «الجو»، وهناك حاصروا «علي الجريسي» في القلعة الرئيسة وقتلوا واحداً من زعماء العرينات ويدعى «راضي بن مهنا بن

عبيكة»، وقطعوا عدداً من أشجار النخيل. في تلك الأثناء كان معظم الناس متواجدين في الطرف الثاني من البلدة الذي يطلق عليه اسم «الحزم» ولذلك لم يفعلوا أي شيء لنجدة أميرهم المحتجز في القلعة. وعلى أي حال انسحب المهاجمون المرابطون حول القلعة لدى سماعهم بأن «عبد العزيز» كان قادماً على رأس قوته وهربوا تاركين جماعتهم في «الحزم» لمواجهة الزعيم السعودي الذي دمر المنازل وقدم واحات النخيل هناك إلى «الجريسي» كمكافأة على إخلاصه.

شهد خريف عام ١٧٥٨م وكذلك شتاء ذلك العام تحدياً جاداً للحكم السعودي. تزعم ذلك التحدي زعيم الأحساء «عريعر بن دجين» ووقف إلى جانبه رجال قبائل «بني خالد» ووجدوا أنصاراً لهم في العديد من مناطق «نجد» وبالتحديد في «الوشم» و«الرياض» إضافة إلى جماعة أخرى من «سدير» و«الخرج» وأماكن أخرى. تمركز «عريعر» بقواته المخيفة في «الجبيلة» بوادي حنيفة، وأسفر ذلك عن مصادمات، وجد المعتدون أنفسهم مضطرين فيها إلى الانسحاب، وسارع سكان «ثادق» و«المحمل» بعد أن كانوا قد انضموا إلى القوات المعادية بعقد صلح مع الدرعية ووافقوا على أن يدفعوا تعويضاً يكفر عن عدم ولائهم، كما وافقوا على تجديد البيعة للحكم السعودي. وعليه فقد أُرسل رجل من الدرعية يدعى «ساري بن يحيى بن عبد الله بن سويلم» ليحكم تلك المناطق وليضمن طاعتها وولاءها للسلطة المركزية. وفي تلك الأثناء قام «عبد العزيز» بمهاجمة «القصب» القرية المجاورة وأخضعها لحكمه تماماً وفرض على أناسها دفع فدية مقدارها ٣٠٠ قطعة ذهبية.

وفي عام ١٧٥٩م سار عبدالعزيز بن محمد بقواته إلى منطقة الخرج ليؤدبها بسبب الدور الذي قامت به في تلك الحركة، وانقض على «الدلم»

و«نعجان» وأنزل بهم بعض الإصابات وسلب العديد من أملاكهم. وفي طريق عودته إلى الدرعية وجد «عبد العزيز» نفسه يحارب «ثرمدا» وأسفر ذلك عن نتائج مماثلة للقتال مع «الدلم» و«نعجان». وبعدها هاجم أيضاً «أشيقر» حيث كرر أسلوب نصب الكمائن ونجح فيه للغاية. انتهت حملات ذلك الموسم بالنجاح التام الذي تجلى في أن قام «عبد العزيز» بهجوم آخر على الخرج وعلى الدلم ونعجان وصادر منها عدداً من الجمال وأوقع بين سكانها خسائر كبيرة. وفي خطوة لممارسة السلطة الفعلية على العيينة قرر الشيخ «محمد بن عبدالوهاب» والأمير «محمد بن سعود» أن يخلعا «مشاري بن معمر» من منصب الإمارة وأن يعيّنا مكانه «سلطان بن محسن المعمري». وعليه توجه الشيخ بنفسه إلى العيينة ليشرف على تدمير قصر العائلة. وكان ذلك مجرد عمل قصد به الرمز إلى اندماج أملاك وأراضي «العيينة» مع أملاك الدرعية، إن أسلوب الأمير الجديد علاوة على حقيقة أن اسمه لم يكن يدل بأنه -في الواقع- واحد من أفراد أسرة «المعمر» ليبرهن على احتمال أنه كان واحداً من الأتباع أو حتى الخدم.

كان «عبد العزيز» في تلك الفترة نشطاً في حملاته وغزواته، فهاجم «منفوحة»، وغزا آل عسكر وهي جزء من «الظفير» في «الثرمانية» بالقرب من «رغبة»، وأغار على الوشم، وهناك واجهته جماعة صغيرة من محاربي «ثرمدا» ولكن هذه الجماعة فرت أمام قواته فائقة العدد ولجأت إلى قرية «الحُرِّيق» بالقرب من «القصب»، وطاردهم عبد العزيز وطلب منهم الاستسلام إلا أن القرويين البواسل هناك رفضوا أن يسلموا ضيوفهم وفضلوا أن ينقذوهم من أيدي السعوديين بدفع فدية بلغت ١٥٠٠ قطعة ذهبية.

إن موسم الغزو والحملات لعام ١٧٦٠م/ ١٧٦١م دفع بـ «عبد العزيز» في كافة الاتجاهات، فكانت الحملة الأولى نحو «سدير» حيث جابه جماعة من «الروضة» اشتبك معها لفترة قصيرة وبشكل شرس دون تحقيق أية نتائج سياسية تذكر.

وبعد ذلك شن حملة على «الرياض» أصيب فيها «فهد» أحد أبناء «دواس» بجراح مميتة، وتبع ذلك غارة على «منفوحة» وغزو لبدو «سبيع» عند تجمع مياه «حفر العتش» وهناك استولى على ٨٠٠٠ جمل[١] وعلى عدد كبير من الأملاك، وانتهى موسم الغزو ذلك بحملة ضد «الرياض» أسفرت عن خسائر وإصابات بين صفوف كلا الطرفين دون نتائج إضافية تذكر.

حدث في عام ١٧٦١م أن سقط «مبارك بن عدوان» الحاكم السابق لـ «حريملاء» ضحية لمرض الشلل. وشهد فصل خريف ذلك العام استئناف النشاطات العسكرية الاعتيادية التي كان يقوم بها الأمير «عبد العزيز». شن «عبد العزيز» في ذلك اليوم هجوماً على «منفوحة»، كما هاجم «نعجان» في الخرج وألحق خسائر بها وأوقع بعض الإصابات في صفوف المدافعين. وتقريباً بعد ذلك مباشرة توجه إلى «الوشم» وهاجم «مرات» و«الفرعة» فكانت النتيجة أن قرر أهالي «الفرعة» أن ينضموا إلى الدعوة السلفية، وعليه أرسلوا بموافقة أميرهم «منصور بن حمد بن إبراهيم بن حسين» مندوباً عنهم إلى الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» وإلى الأمير «محمد» لمبايعته وأداء قسم الولاء للسلطة هناك. وكبرهان عملي على ولائهم أعلنوا الحرب على قرية «أشيقر» المجاورة، واستمرت الحرب بشكل متواصل مدة سبع سنوات

(١) عند ابن بشر وهو مصدر المؤلف، ٢٤٠٠ من الإبل. (المراجعون).

إلى أن تمكن الأمير «منصور» من الاستيلاء على أبراج الخصم الواقعة في الأطراف الجنوبية من الواحة المتاخمة للجهة العليا من «الفرعة». وهكذا انتهت «أشيقر» بأن خضعت بشكل تام للحكم السعودي بعد نضال عنيف بلغ في مجمله عشرين عاماً.

استأنف «عبد العزيز» هجماته ضد «الرياض»، وتمكن في تلك الهجمات من قتل ثمانية من حراس ناحية «مقرن»[١] وأصاب «شعلان بن دواس» وهو أحد أحفاد «دهام»[٢] بجراح. وبعدها التفت إلى «الوشم» وهاجم «أشيقر» مناصراً بذلك أهل «الفرعة» الذين بنوا - بالاتفاق مع أهل «أشيقر» الموالين للدولة السعودية - برجاً أطلقوا عليه اسم «الحليلة» ليحمي ظهورهم وبالتالي يكون نقطة تهديد للأعداء. كانت أمطار وسيول عام ١٧٦١م/ ١٧٦٢م جيدة بشكل استثنائي وانتعشت كافة مناطق البلاد، إلا أن ثمة مرضاً عرف باسم «أبو دمغة» أو حمى الواحات الذي يصيب الدماغ انتشر في البلاد. أودى المرض بحياة العديد من الناس بمن فيهم شخصيات دينية مهمة كما زاد غزو الجراد من متاعب الناس إذ خسروا كميات كبيرة من محاصيلهم الزراعية.

افتتح «عبد العزيز» موسم غزوات عام ١٧٦٢م/ ١٧٦٣م بغارتين على «الرياض» لكن لم تكن نتائجهما أفضل من نتائج الغزوات السابقة. وبعدها التفت إلى مناطق «الأحساء» وهناك أقام معسكره في جوار «المطيرفي» ليقوم

(١) يعد اسم مقرن الاسم السابق لمدينة الرياض، ثم بعد ذلك أصبح مقرن يطلق على جزء من مدينة الرياض، وهي المنطقة الوسطى من المدينة القديمة فيما يبدو ويعتقد أن مقرن القديمة هي المنطقة المعروفة الآن بدخنة. (المراجعون).

(٢) شعلان هذا أخو دهام وليس حفيداً له. (المراجعون).

بسلسلة من الهجمات في عدة اتجاهات. وتمكن من جني الكثير من الغنائم -نتيجة لتلك الغزوات- مخلفاً في صفوف الأعداء إصابات بلغت حوالي سبعين إصابة تقريباً. وبعد هجوم غير مثمر على بلدة «المبرز» توجه إلى «الدرعية» وفي الطريق إلى هناك مر بقافلة كبيرة بالقرب من منطقة «العرمة» محملة بمواد تموينية جلبتها من الساحل لأهالي الرياض وحرمة. واستولى «عبد العزيز» على كافة البضائع المخصصة للرياض، إلا أنه ترك بضائع أهالي حرمة بسبب المعاهدة التي عقدوها مع سلطة الدرعية. وفي تلك المرحلة تخلت قرية «أثيثية» في منطقة «الوشم» عن ولائها للحكم السعودي وهاجمت معتنقي الدعوة السلفية في المناطق المجاورة. لكن كان «عبدالعزيز» مشغولاً -على ما يبدو- بغارة شنها على عربان «سبيع» بالقرب من «سيح الدبول»، ولم يستطع أن يتخذ إجراءً من شأنه أن يعيد المتمردين إلى جادة الصواب. ولعل ثمة حدثاً آخر مهماً جداً استحوذ على كل اهتمام الدرعية ولم يجعلهم يهتمون بهذه القضية البسيطة نسبياً، وكان ذلك الحدث هو استسلام «دهام بن دواس»[1] الذي تعب من القتال الطويل -على ما يبدو-، إذ أرسل وفداً مفاوضاً إلى الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» وإلى «محمد بن سعود» وأرسل معهم كفارة لدفع الأذى والضرر بلغت ٢٠٠٠ قطعة ذهبية، وطلب السماح له بالدخول في ظل الدولة السعودية ودعوتها السلفية، ووعد بأن يحترم قادة ذلك التحالف وأن يطيعهم.

نادراً ما يتوقف المؤرخون من نجد ليدونوا في سجلاتهم التاريخية هذا التطور أو هذا الحدث المذهل، كما أنهم لا يعقبون عليه. ويبدو أنهم أكثر اهتماماً بنتائج واحدة من الحملات السلفية التي كانت بالكاد متواترة وهي

(١) ليس استسلاماً بل كانت هدنة بين الطرفين: الرياض والدرعية. (المراجعون).

حملة قام بها «عبد العزيز» ضد «جلاجل» البلدة الرئيسة في «سدير». دارت في تلك البلدة المناوشات الاعتيادية التي أسفرت عن إصابات وخسائر في المزارع، وعلى إثرها قرر زعيم «جلاجل» أن يستسلم للدولة الناشئة، وحذا بذلك حذوه العديد من المناطق والقرى في «سدير». وعندما كان «عبدالعزيز» ماراً بـ«رغبة» في طريقه إلى الدرعية، وصلته أخبار مفادها أن جماعة «العجمان» كانت قد اعتدت على تجمع صغير لبدو «سبيع» إلى الغرب من نطاق طويق، فتابع «عبد العزيز» أثرهم ولحق بهم في سهل «حدبا قذلة» الواقع بين مرتفعات «أرشة» ونفوذ «سدير»[1]. وبالرغم من أنهم تفرقوا قبل أن يحتدم معهم في القتال، إلا أنه استطاع أن يقتل منهم سبعين رجلاً وأن يأسر حوالي مئة[2]، واستولى أيضاً على حوالي أربعين فرساً من خيولهم.

كان فصل شتاء عام ١٧٦٤م/ ١٧٦٥م موسماً حافلاً بالأعمال التي توجب على «عبد العزيز» - الذي لم يعرف التعب - أن يقوم بها. بدأت تلك الأعمال بغارة على آل سعيد الظفير، وهي بزعامة «حمّاد المديهيم» وبمساعدة فرقة من الرياض بقيادة «دواس بن دهام».

هاجم «عبد العزيز» البدو في منطقة «جراب» وألحق بهم هزيمة منكرة وقتل منهم ثلاثين رجلاً واستولى على كافة ممتلكاتهم، لكن توجب عليه في شهر تشرين أول من عام ١٧٦٤م أن يتعامل مع تطورات أكثر جدية، تلك التي نجمت بشكل مباشر عن الانتصار الذي حققه على «العجمان» في «حدبا قذلة» في الربيع الماضي. حدث أن فر من نجا من تلك المعركة إلى

---

(١) عند ابن بشر: بين القويعية والنفود، وهو الصواب. (المراجعون).

(٢) بلغ عدد الذين تم أسرهم مئتي رجل، وليس كما ذكر هنا أنهم مئة رجل. (المراجعون).

«نجران» وهناك تمكنوا بسهولة من إقناع القبائل المتوحشة من الانضمام إليهم لشن هجوم مضاد والعمل على فك أسر رجال قبائلهم المسجونين. كان زعيم «نجران» في ذلك الوقت رجل يدعى «حسن بن هبة الله» الذي شملت سلطته قبائل «الوعلة من يام».

حشد حسن من رجال تلك القبائل عدداً ضخماً من المحاربين وسار بهم للهجوم على «الدرعية»، وعند وصولهم «حاير سبيع» في وادي حنيفة عملوا على محاصرة القرويين هناك. لكن في تلك الأثناء وصلتهم أخبار تقدم «عبدالعزيز» على رأس قوة كبيرة من مؤيديه وأنصاره، وعلى الفور انتشر النجرانيون لملاقاة العدو واحتدمت المعركة المستميتة وأسفرت عن هزيمة وإرباك وضرر لحقت جميعها بقوات «عبد العزيز» الذي هرب عاجزاً عن ضبط النفس. أنزل النجرانيون في صفوف «عبد العزيز» إصابات بالغة، وقتلوا من قوات عبدالعزيز حوالي ٥٠٠ رجل وأسروا العديد منهم. ويقال بأن الدرعية لوحدها -وبموجب قائمة الموتى- فقدت سبعة وسبعين رجلاً في حين مات من «منفوحة» سبعين رجلاً ومن الرياض خمسين. ومن بين الجماعات الأخرى التي تكبدت خسائر في الأرواح كانت جماعة «عرقة» حيث قتل منها ثلاثة وعشرون رجلاً، وجماعة «العيينة» وقُتل منها ثمانية وعشرون، وجماعة «حريملاء» ستة عشر، وجماعة «ضرماء» أربعة. وقتل من جماعة «ثادق» رجل واحد. ووقعت بقية الإصابات بين قوات البدو، وبلغ العدد الإجمالي للأسرى ٢٢٠ أسيراً.

وعندما وقف «عبد العزيز» ومن نجا من أهالي الدرعية أمام الشيخ «محمد ابن عبد الوهاب» لينقلوا له خبر الكارثة، هدأ الشيخ من نفسه بأن قرأ الآية التالية من القرآن: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٩.

على أي حـال توج ذلك التـحـدي للدعـوة السلفية بالنصر الذي تحـقق على أيدي شـرذمـة محتقرين ومنبوذين من «نجران» و «الأحساء» وكان بمثابة ضربة لمؤسسـة الدعوة السلفية. جللت ظلال المأساة آخر أيام «محـمـد بن سـعـود» بالسـواد، إذ بلغ به الكبر آنذاك نهـاية مطاف أعـمـاله المشـرفـة. إن ردة فـعل السعوديين حيال هذا الوضع الخطر كانت مفاجئة للجميع، فبدلاً من أن يشمروا عن سواعدهم وينتقموا للهزيمة المؤلمة التي لحقت بهم، قرروا أن يتفاوضوا مع المنتصرين للتوصل إلى تسوية. فقد تطورت الأحداث ووصل النجرانيون إلى المناطق المجاورة للرياض في طريقهم إلى عاصمة الدولة السعودية.

استدعى الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» زعيم الظفير «فيصل بن شهيل» ليقـوم بدور الوسيط. وأسفرت المفـاوضـات التي جـرت في نخيل البـاطن الجميلة والتي كان «حسن بن هبة الله» ضارباً خيامه فيها عن تسوية اتفق فيها الطرفان على أساس تبادل كافة الأسرى، ويقال إن التسوية شملت أيضاً دفع تعـويضات معينة. وعلى إثر تلك التسوية قام زعيم «نجران» بحل خيام معسكره وأقفر عائداً إلى دياره ناسياً على ما يبدو «عريعر» أمير قبيلة «بني خالد» الذي كان قد اتفق معه على أن يوحدا قواتهما ويشنان هجوماً مدبراً على العـاصـمـة السـعـودية. وعلى أي حال انتـهـت الحـرب قبل أن يستـعـد «عريعر» للمشاركة بها. وبالرغم من أنه كان من غير المجدي الآن أن يستمر في قراره لـلـهجـوم على العـاصـمـة السـعـودية دون حليفـه القـادم من منطقة الجنوب، إلا أنه مـا لبث أن تقدم على رأس قـوة كبيـرة إلى منطقة مـجـاورة للدرعية وأطلق عليها النيران والقذائف التي سقطت بين واحات النخيل أثناء حدوث مناوشـات كانت تتم على فترات متقطعة استمرت على مدى إقامته المؤقتة التي بلغت ثلاثة أسابيع. غادر «عريعر» بعد ذلك راجعاً إلى الأحساء

مخلفاً وراءه حوالي أربعين قتيلاً من رجاله، في حين بلغت الخسائر والإصابات في صفوف أهالي الدرعية إلى اثنتي عشرة إصابة.

وهكذا انتهت آخر حرب من حروب «محمد بن سعود» الذي وُوري جثمانه الثرى (في صيف عام ١٧٦٥م) بعد عمر طويل مشرف في مقبرة الدرعية التي احتوت على قبور آبائه وأجداده.

عرفه شعبه بورعه وإنسانيته أكثر مما عرفه ببسالته وشجاعته، وفي الواقع كان آخر عهده في الحملات القتالية تلك الحملة التي شنها ضد الرياض في عام ١٧٥٠م. وبعدها ترك قيادة القوات ليتولاها في بادئ الأمر أميرا العيينة «عثمان ومشاري» وبعدها آلت حصراً لابنه ووريثه «عبد العزيز».

حظي «محمد بن سعود» مرتين باستسلام ألد أعدائه أمير الرياض «دهام»[١] ومات وهو على يقين بأنه تمت تسوية أكبر مشكلات عصره بشكل نهائي، فلم يقم «دهام» وللمرة الثانية في طرح نية الدرعية عن عاتقه بشكل نهائي إلا بعد وفاته.

كانت مشكلة «نجران» الضربة القوية التي حدثت له في حياته. وربما كان الملك الطاعن في السن قد شعر بالقلق على مستقبل مملكته، علماً بأن الهزائم اللاحقة التي تعرضت لها قبيلة «بني خالد» طمأنته على صحة وعافية القوة العسكرية الداعمة لقضيته، يعود الفضل في بزوغ الدعوة السلفية إلى جهوده، كما يعود الفضل للقضية نفسها في اكتسابه واكتساب من خلفه من القادة لأوسمة الشهرة والشرف. ويمكن القول هنا وبكل صدق أنه لولا «محمد بن سعود» لما شهدت الدولة السعودية ودعوتها السلفية أيامها المجيدة. كان «محمد بن سعود» الشخصية التي مهدت الطريق أمام إحياء الدين الإسلامي.

---

(١) لم يكن استسلاماً كما أشار المؤلف بل كانت هدنة بين الطرفين. (المراجعون).

الفصل الثالث

عبدالعزيز بن سعود الأول

عبد العزيز بن سعود الأول[1]

بعد وفاة والده لم تكن المسؤوليات الإدارية والعسكرية جديدة على إمام الدرعية الجديد الذي وقع على عاتقه كامل مسؤولية الحكم. فقد برز «عبدالعزيز» أول ما برز كجندي شارك في حملتين ضد حاكم الرياض «دهام ابن دواس» تمت بقيادة أمير العيينة ووالد زوجته «عثمان بن حمد بن معمر» عام ١٧٤٨م. وولد في هذا العام نفسه أكبر أبنائه «سعود» الذي ترعرع ليصبح خليفته في الحكم. وفي عام ١٧٤٦م قاد أخوه «عبد الله بن محمد» قوة توجه بها لمساعدة «منفوحة» التي كانت قد تعرضت لهجوم وحوصرت من قبل «دهام» الذي تراجع بعد أن جرح مرتين وأصيب فرسه بضربة قاتلة. وكانت تلك أول مجابهة بين الدرعية والرياض منذ بداية الدعوة السلفية في العام المنصرم. وكانت تلك بداية حروب متعادلة ومتكافئة حدثت بين المنطقتين في نهاية فترة تولي «عبد العزيز» الحكم في الدرعية عام ١٧٦٥م.

وبالمناسبة، تجدر الإشارة إلى أن العلاقة بينه وبين والد زوجته مرت بفترة برود إبان الحملة الثالثة ضد «ثرمدا» عام ١٧٤٨م -كما أشرنا سابقاً-، والتي تم إجراء الهجوم عليها (بالرغم من احتجاج عبد العزيز) وسط ظروف تشير إلى تواطؤ في قضية تبناها «عثمان» بمحض إرادته قبل عامين، وقد تبلورت هذه الشكوك عام ١٨٥٠م[2] عندما تم اغتيال «عثمان» في أحد مساجد «العيينة» بعد صلاة الجمعة على يد رجال مقربين إليه وموثوق بهم.

ومنذ ذلك التاريخ أصبح «عبد العزيز» مشغولاً بنشاطات عسكرية متواصلة موجهة نحو هدف أو آخر، علماً أن معظمها كان موجهاً ضد حاكم

---

(١) الإمام عبدالعزيز بن محمد بن سعود. (المراجعون).

(٢) الصحيح عام، ١٧٥٠م. (المراجعون).

الرياض، ولم تمض فترة قصيرة حتى تنازل «محمد» الملك الطاعن في السن عن قيادة القوات السعودية لابنه «عبد العزيز».

نشد «دهام» لأكثر من مرة السلام من السعوديين الذين كادت هجماتهم أن تجهز عليه. وحدث أيضاً أن خرق «دهام» لأكثر من مرة شروط أكثر من هدنة حصل عليها بسبب موافقته الرمزية على السلطة السعودية. وها هي الظروف مواتية تماماً لاختياره العام الذي تسلم فيه «عبد العزيز» السلطة ليزيح عن كاهله مجدداً هجمات الدرعية ويستأنف القتال والهجمات ضد «منفوحة»، بالتعاون مع «زيد بن زامل» حاكم «الدلم والخرج» هاجم «عبدالعزيز» الرياض وأحرز موطئ قدم في بعض أبراجها قبل أن يجبر على التراجع بفعل هجوم معاكس. وفي تلك الأثناء كان «عبد الله بن محمد» يشن هجوماً على حلفاء «دهام» من قبيلة «سبيع» وأحرز عليهم بعض التفوق، وأثناء ذلك الهجوم أيضاً أرسل «عبد العزيز» حملة ثانية لتعزيز الضغط على الرياض، إلا أنه تم إبعادها عن الرياض ومطاردتها بسهولة.

وهكذا تعاقب النزاع الذي رافقته حملات مزعجة تمت بين الحين والآخر تخلل ذلك النزاع غزوات من الدرعية ضد حلفاء «دهام» من البدو المقيمين في صحراء «العرمة». أو في واحة «حاير سبيع» في أطراف «منفوحة» عند نهاية وادي حنيفة.

وفي ربيع عام ١٧٧١م تمت مهاجمة قبيلة «سبيع» وحوصروا في بلدة «الحاير» واستمر الحصار إلى أن استسلموا وأقسموا يمين الولاء لزعيم الدرعية. ولم يكن لذلك الترتيب أن يستمر وسط الوضع السياسي السائد آنذاك، فتفاقمت المشكلات وبلغت ذروتها في خريف العام التالي عندما

وصل «عبد العزيز» إلى بلدة «عرقة» وهو في طريقه لشن هجوم آخر ضد الرياض عقب هجمة قصيرة صغيرة، أخبره بعض عيونه عن قدوم «دهام» على رأس قوة من الفرسان والجمال لتهاجم القرية. وعندما شاهد «دهام» قوة الدرعية سارع إلى التراجع، فطارده «عبد العزيز» في العديد من مناطق الصحراء، وتمت مطاردة اثنين من أبناء «دهام» وهما «دواس» و «سعدون» وألقي القبض عليهما وذبحا في صفاة الظهرة -بين عرقة والفوارة- كما ذبح معهما عدد كبير من أتباعهما. وكان ذلك الحدث ضربة عنيفة لكبرياء وشهامة «دهام». وعندما أراد «عبد العزيز» اختبار قوته في أواخر ربيع عام ١٧٧٣م تمكن من الوصول من جديد إلى «عرقة». وهناك وصلت إليه أخبار هروب عدوه من الرياض. وعلى الفور واصل المسير ليصل إلى المدينة في عصر ذلك اليوم وليجدها -عملياً- خالية من سكانها.

تمكن «دهام بن دواس» من الهرب آخذاً معه نساءه وأولاده وحاشيته، لأنه أجرى ترتيباته سراً تحت جنح الظلام ولم يخبر أحداً بنواياه إلا بعد أن أصبح جاهزاً للرحيل، عندها قال: «يا أهل الرياض، هذا لي مدة سنين أحارب ابن سعود، والآن سئمت من الحرب فمن أراد أن يتبعني فليفعل». تبعه معظم الناس ومنهم من خاف وهرب إلى الخرج تحت أشعة الشمس الحارقة ووسط حر صيف الصحراء الملتهب حيث إن ذلك حدث في منتصف حزيران؛ ولذا مات العديد منهم بسبب الجوع أو العطش.

دخل «عبد العزيز» المدينة المهجورة وأغلق جميع أبواب منازل المدينة خوفاً من سرقة محتوياتها، وأرسل قواته لمطاردة الفارين. وعليه انتهى

القتال الذي دام سبعة وعشرين عاماً سقط خلالها حسب القائمة التقديرية حوالي ٤٠٠٠ رجل من كلا الطرفين، وكان منهم حوالي ٢٣٠٠ رجل من أتباع «دهام»، وظهر مثل شاع في «نجد» وعلى مدى سنوات عديدة لاحقة مفاده أنه عندما يقوم شخص بعمل أحمق تتم مقارنته مع هروب «دهام» من الرياض. لكن لا يستطيع المرء أن يقاوم الإحساس بأن «دهام» كان رجلاً ذا طابع بطولي، إذ كان مقاوماً مثيراً وله ثبات على القتال من أجل حرية العرب، كما كان منافسوه من الدرعية مصرين على فرض شريعة الله لتحل محل ممارساتهم الوثنية.

خاض «دهام» قضية خاسرة لكن الانهيار المفاجئ لمواقفه الدفاعية جاء - بالدرجة الأولى- نتيجة موت ولديه في كارثة مفاجئة وقعت في العام المنصرم، ولا بد أن يكون ذلك الحدث قد أتى على عقل رجل مسن أنهكته مشكلات ظهرت على مدى سنوات عمره. وكان قد مضى على وجود «عبدالعزيز» في السلطة عند وقوع ذلك الحدث حوالي ثماني سنوات، وهي مدة كانت أطول بقليل من مدة أقرانه من الزعماء في مناطق العرب.

وبغض النظر عن انشغاله المتواصل بقضية «دهام»، لم تشهد تلك السنوات سوى أحداث طفيفة لا تذكر: فتمت مهاجمة «ثرمدا» عام ١٧٦٦م، لكن معركة «الصحن» حققت انتصاراً لم تدم أهميته لفترة طويلة. وشهدت السنوات اللاحقة سلسلة من الغزوات البسيطة كان أبرزها الحملة التي أعدت ضد بلد «العودة» في «سدير»، والتي قادها ابن أخ الإمام ويدعى «هذلول بن فيصل»، الذي قتل والده في معركة حدثت ضد «دهام» عام ١٧٤٧م. ورافقه في تلك الحملة «سعود» الابن الأكبر لـ «عبدالعزيز»

الذي كان قد بلغ من العمر آنذاك تسعة عشر عاماً وكانت تلك أول تجربة له في حملة عسكرية من هذا القبيل. وكان مع الحملة أيضاً بعض المبعدين من «العودة» الذين ينتمون إلى الأسرة الحاكمة للبلدة سابقاً، وكانوا يسعون إلى ترجيح أو استعادة زعامة قائدهم «منصور بن عبد الله بن حمّاد». تمكنت تلك الحملة بسهولة من إلحاق الهزيمة بالمغتصب للسلطة، وتم ذبحه وعاد «منصور» حسب الأصول المرعية زعيماً للبلدة.

حدث في هذا العام أيضاً أن انضمت أقاليم «الوشم وسدير» إلى سلطة الدولة السعودية، وأدوا يمين الولاء إلى «عبد العزيز» وإلى الشيخ «محمد بن عبدالوهاب» الذي كان في ذلك الوقت (في الواقع منذ بداية حركته) قد أخذ وضعية لا يمكن تمييزها عن وضعية شريكه في الحكم، ويقال - وبالتحديد - إن «عبد العزيز» لم يتخذ أي إجراء دون مشاورة الشيخ «محمد بن عبدالوهاب». وعلى أي حال فمع انضمام هاتين المنطقتين وتحالف «العيينة» و«منفوحة» تمكنت الدعوة السلفية من تحقيق تقدم ملحوظ في طريق التوسع الذي أوصل الدعوة على مدى العقود الثلاثة اللاحقة إلى أبعد ما يمكن أن تصل إليه أحلام الأمير وأحلام الشيخ اللذين تضافرت جهودهما لإيجادها، وبالنسبة لهذه المرحلة فقد كان الهاجس الرئيس للكيان السعودي هو التغلب على آثار المجاعة القاسية التي عرّفها التاريخ المحلي باسم «سوقه» جفت خلال تلك المجاعة الآبار وارتفعت فيها تكلفة العيش، وأودى الجوع والمرض بحياة العديد من الأشخاص، في حين اضطر عدد آخر للهجرة من «نجد» والتوجه إلى «البصرة، والزبير، والكويت». وبعد فترة الجفاف هطل مطر غزير إلا أن أسراب الجراد حالت دون بذر حبوب الدخن ومحاصيل العلف المعتاد عليها الناس في مواسم الصيف.

مر «سعود» عام ١٧٦٨م بأول تجربة له في قيادة حملتين بشكل مستقل، سارت الأمور على ما يرام مع الحملة الأولى التي توجهت للنيل من الزلفي الواقعة في أطراف منطقة «القصيم»، في حين كانت بداية الحملة الثانية (المعدة ضد قبيلة «آل مرة» في الرمال الجنوبية) جيدة، إلا أنها انتهت بتراجع قوات «سعود» بسبب تعزيزات البدو التي وصلت لنجدة أصدقائهم. وهناك تعرضت قوات «سعود» لبعض الخسائر والإصابات، ومات في تلك الواقعة «ناصر بن عثمان بن معمر» الذي كان من الممكن -على ما يبدو- أن يخلف «سلطان بن محسن المعمري» كزعيم على «العيينة» قبل بضع سنوات، ولا تتوافر لدينا معلومات موثّقة عن ذلك التغيير المحتمل.

على إثر هذه النكسة أرسل «سعود» للتدخل في المشكلات المحلية بالقصيم، وجاء ذلك الإجراء بناءً على طلب من «حمود الدريبي» حاكم «بريدة» الذي كان على عداء مع أهل «عنيزة» وحدثت معركة خارج إحدى بوابات «عنيزة» لم تسفر عن أية نتيجة معينة، لكن تكبد الفريقان بعض الخسائر، علماً أن عبد الله بن حمد بن زامل (الذي كان حاكم البلدة آنذاك) كان من بين القتلى. وفي العام التالي وإثر الحملات التي قادها «عبد العزيز» شخصياً ضد «المجمعة» و «الهلالية» غرب عنيزة أعرب سكان «عنيزة» عن إذعانهم للحكم السعودي، لكن هذه الخطوة لم توقف استمرار المؤامرات المحلية فقد تمت الإطاحة بأمير بريدة «راشد الدريبي» وبعد عام طردته عائلة آل عليان من البلدة. كان «عبد العزيز» في تلك الفترة مشغولاً بغزو قام به وراء حدود الجزيرة العربية بالمعنى الضيق للكلمة، واضعاً نصب عينيه

«الظفير والمحمرة» التي يقطنها البدو على الحدود العراقية كهدف له[1]. وفي الطرف الآخر من الجزيرة العربية كان «عبد العزيز» يجري مراسلات مع شريف مكة «أحمد بن سعيد» وبناءً على طلب هذا الأخير أرسل «عبدالعزيز» واحداً من كبار المشايخ ويدعى «عبد العزيز بن عبد الله بن حصين» ليشرح له مبادئ الدعوة السلفية. وفي الوقت الذي وصل فيه هذا الشيخ إلى هناك كان قد حصل تغيير في قيادة مكة، فقام أفراد من أسرة «أحمد» نفسه بالإطاحة بشريف مكة وعينوا مكانه ابن أخيه «سرور بن مساعد»، ولعله من غير المهم مناقشة تفاصيل هذا اللقاء الذي -على ما يبدو- أسفر عن إعلان صدر عن مشايخ مكة يدل على كامل رضاهم لعرض الشيخ لمبادئ الدعوة السلفية وهي مبادئ أسمى من النقد أو الاعتراض.

لم يكن «عبد العزيز» ليرتاح من عناء نضاله الطويل ضد «دهام» حتى برز أمامه خطر جديد وأفدح من خطر «دهام» جاء ذلك الخطر من جهة الشرق ومن المرجح أن يكون مصدر ذلك الخطر هو توغله غير المبرر نحو الحدود العراقية. وخلال ربيع عام ١٧٧٤م سار «عريعر بن دجين» أمير الأحساء ورئيس قبيلة «بني خالد» بقواته نحو «القصيم» لمهاجمة «بريدة». تمكن «عريعر» من الاستيلاء عليها بعد حصار قصير ونهبها قبل أن ينسحب منها باتجاه وادي الرّمة متوجهاً نحو «الخابية والنبقية» المجاورتين. وهناك قدمت إليه وفود مشجعة من عدة مناطق في «نجد» والتي انبهرت -على ما يبدو- باستيلائه السريع على

(١) يبدو أن المؤلف فهم من كلام ابن بشر عند حديثه عن المحمرة على أنها المحمرة البلد التي على الخليج العربي، وإنما الذي قصده ابن بشر أن المحمرة عرب من قبيلة الظفير لهذا ذكر أن الإمام عبدالعزيز فكر في الخروج خارج الجزيرة العربية لعدم فهمه معنى عبارة ابن بشر الذي يستقي منه غالب معلوماته في هذا الجزء من الكتاب. (المراجعون).

«بريدة» كما انبهرت بضخامة عدد قواته. وكان «عريعر بن دجين» يعد العدة لشن حملة ضد «الدرعية» والمناطق المجاورة لها، لكنه أصيب بمرض مفاجئ وداهمته المنية في شهر أيار، أي بعد شهر على انسحابه من «بريدة»، وخلفه في الحكم ابنه الأكبر «بطين» الذي كان عاجزاً عن ضبط القوات والسير بها من أجل تحقيق أهداف والده الراحل.

هذا؛ وبالرغم من الهبات السخية التي كان يوزعها «عريعر» من الأموال المخصصة للحملات[1]، إلا أنه اضطر للرحيل إلى الأحساء. وهناك قام أخواه «دُجين وسعدون» بشنقه حتى الموت. خلفه «دُجين» في الحكم لكنه توفي بعد ذلك بفترة وجيزة، ويقال إنه مات مسموماً بسم دسه له أخوه «سعدون» الذي أصبح -أخيراً- أميراً على الأحساء وزعيماً للقبيلة.

في تلك الأثناء استمر «سعود بن عبد العزيز» في غزواته، وكانت أولاً باتجاه «الخرج» بعد ذلك ضد «الزلفي» لكن دون تحقيق نتائج مؤثرة، بالرغم من أن دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب كانت تنتشر في كلا الاتجاهين. أرسل أهالي «الحريق» وأهالي «نعام» وأهالي منطقة «المجمعة»[2] وفوداً لتعلن عن ولائهم للنظام الجديد، لكن لم يصدر عن «الخرج» أية تصرفات تجعلها تسير باتجاه ذلك التحالف، إلا أنه بعد الزيارة التفقدية الثانية التي قام بها «عبد العزيز» عام ١٧٧٥م تآمر «زيد بن زامل» زعيم «الدلم» مع زعيم «وادي الدواسر» المدعو «حويل» من الوداعين إضافة إلى زعماء آخرين من المناطق الجنوبية على أن يطلبوا المساعدة من قبائل «نجران» لصد اعتداء سلطة «الدرعية» عليهم. ولتحقيق هذه الغاية جمعوا مبالغ طائلة من المال

(١) الصحيح أن الذي كان يفرق الهبات والهدايا هو بطين بن عريعر، وليس عريعر. (المراجعون).
(٢) الصحيح أنهم أهل «حرمة» كما أشار إلى ذلك ابن بشر وليسوا أهل المجمعة. (المراجعون).

ليوزعوها على زعماء القبائل المعنيين. وفي الوقت المناسب تحولوا إلى جيش جرار مؤلف من سكان الواحات ومن قبائل «يام» وساروا إلى «العارض». انضمت إليهم فيما بعد قوات من «الدواسر والخرج» ووصل المتحالفون إلى «حاير سبيع» وهناك عاثوا فساداً في واحات النخيل وقتلوا حوالي أربعين من المدافعين عنها وواصلوا سيرهم نحو «ضرما» وهناك بين واحات النخيل جُوبهوا بمقاومة عنيدة ومنوا بخسائر جسيمة وأجبروا أخيراً على الخروج منها بالقوة. في تلك الأثناء قرر المتحالفون التخلي عن حملتهم والعودة إلى ديارهم. وفي الوقت نفسه اضطر «زيد بن مشاري بن زامل» الذي ترك عرضة للهجوم، لعقد صلح مع «الدرعية» والدخول في التحالف مع السلطة في الدرعية. وقد كان «سعود» في تلك الأثناء مشغولاً في حملة استهدفت «بريدة»، تمكن من إجبارها على الاستسلام وفرض «عبد الله بن حسن» من «العيينة» أميراً جديداً عليها. ومن الممكن أن يكون هذا الأمير الجديد قد حل محل «راشد الدريبي» الذي سبق وأن طرد من البلدة، لكن يبدو أنه عاد وتسلم زمام الأمور بعد فترة وجيزة من ذلك.

في أوائل ١٧٧٦م قام أهالي الأحساء الأصليون، وفي مقدمتهم مواطنون من الهفوف، بمحاولة غير ناجحة استهدفت التخلص من سطوة «بني خالد» وزعيمهم «سعدون». وفي الوقت نفسه تعاظمت قوة الدعوة السلفية بانضمام «الزلفي، ومنيخ (المجمعة)» إليها، علماً بأن زعيم «الدلم» ندم على تصرفه السابق وأقدم على ذبح أحد الشخصيات الحماسية المؤيدة للدولة السعودية. اتخذ «عبد العزيز» إجراءً فورياً لضبط الوضع هناك، الأمر الذي حدى بـ«زيد» إلى الهروب وأعفي عنه فيما بعد لاستسلامه

وخضوعه للدرعية، لكنه لم ينصب على الإمارة التي أعطيت إلى «سليمان[1] بن عفيصان». وفي هذه الفترة أعربت بلدة «اليمامة» المجاورة عن خضوعها وإذعانها للدولة السعودية، علماً أن زعماءهم كانوا على اتصال مع عناصر ساخطة متمردة في «الدلم» كانت تعمل على تحدي الدعوة السلفية. كان «زيد بن زامل» زعيم ذلك العصيان المسلح الذي أجبر «ابن عفيصان» على الخروج من «الدلم» آخذاً معه أفضل الحاميات المخلصة له. استعاد «زيد» الإمارة ورتب مع «حسن البجادي» زعيم «اليمامة»، وخطط للقيام بثورة عارمة في الإقليم وتم ذلك الترتيب أثناء غياب «عبد العزيز» لغزو «آل مرة» مجدداً. وفي الوقت الذي تجمع فيه البدو لصد الغزاة، كان «عبد العزيز» قد استولى على عدد كبير من جمالهم التي كانت في المرعى. وتمكن البدو من إجبار قوات الدولة السعودية على التقهقر إلى شعب ضيق في مرتفعات «مخيريق الصفا» وهناك أنزلوا بها خسائر فادحة في الرجال والجمال، وكان بين القتلى أمير بريدة «عبد الله بن حسن العليان» الذي لم يمض على تعيينه في ذلك المنصب إلا فترة وجيزة.

توجب على «عبد العزيز» في تلك الفترة أن يتعامل مع مشكلة الخرج، وعليه أرسل «سعوداً» إلى ذلك الإقليم لاستكشاف أولّيّ ولتحري الوضع في منطقة اليمامة. وهناك تصادم «سعود» مع الجماعات المسلحة المحلية التي كانت عائدة من حملة استكشاف أو من غزو. واحتدم قتال شرس بين الطرفين في منطقة يقال لها «وادي السهباء» وانسحب الفريقان كل إلى ديرته بشكل يحفظ ماء وجهيهما. وأرسل «عبد العزيز» منادياً ينادي بضرورة جمع كل جنده للقيام بمحاولة جادة لتسوية مشكلة الخرج بشكل نهائي.

---

(١) الذي وضع أميراً على الخرج هو إبراهيم بن عفيصان، وليس سليمان. (المراجعون).

وعندما أصبحت الحملة جاهزة للبدء في مهمتها احتج أمير حرمة «عثمان المدلجي» لدى الإمام وقال: إن إمارته بحاجة إلى أن تُلقّن درساً مفيداً أكثر من حاجة الخرج إلى ذلك الدرس، ذلك لأن أهالي منطقته كانوا قد خرجوا عن طوعه وبدأوا يهزأون بشكل علني بالدعوة، ولم يعد في وضع يمكنه من ممارسة صلاحياته كحاكم في تلك المنطقة. وقد ناشد عثمان السلطات في الدرعية إرسال فرقة قوية على الفور للتعامل مع الوضع في «حرمة» وطلب أن تساق بعض الرهائن إلى «الدرعية» لضمان حسن سلوك البلدة مستقبلاً. استجاب «عبد العزيز» لمناشدته وأرسل أخاه «عبد الله بن محمد» ليعالج المشكلة هناك.

قاد عبد الله جيشه عن طريق «الحيسية» وسهول «الحمادة» ليعطي بذلك انطباعا بأنه كان متوجهاً إلى «القصيم» ومن ثمّ أقفل راجعاً عن طريق «الغاط» باتجاه السهل ووصل إلى نقطة الهدف تحت جنح الظلام ليقوم بالتوزيع الضروري لقواته داخل وخارج البلدة استعداداً للهجوم في وقت الفجر.

كان الناس في تلك الأثناء ينعمون بنوم هادئ إلى أن عكرت الطلقات التي أطلقت في وقت واحد من قبل كل رجل يحمل سلاحاً صفو أحلامهم. ولم تكن هناك على ما يبدو أية إمكانية للمقاومة، كما لم يكن هناك مجال للهروب لذا هرع الناس إلى «عبد الله» ليستفسروا عن سبب تلك الأحداث، فطمأنهم بأنه لا داعي للخوف وقال بأن أميرهم اشتكى للإمام عن سلوكهم غير المتدين وعن تصرفاتهم الثورية ضده. لذلك كان من الضروري أن يزور البلدة وأن يدعو أربعة من قادتهم للتوجه إلى «الدرعية»

كرهائن لضمان حسن تصرف الأهالي مستقبلاً، وأضاف أنه إذا قبل الأربعة بمن فيهم «عثمان» القدوم معه بهدوء فستسير الأمور على ما يرام وستنصرف الحملة. وتم ترتيب كل شيء بهدوء دون حدوث أية إصابات، وأدى الأهالي مجدداً قسم الولاء للحكم السعودي، ورافق «عبد الله» أربعة أشخاص يتوقع منهم أن يعكروا صفو الأمن، وتوجهوا إلى «الدرعية» ليبقوا هناك كضيوف على الإمام. استأنف الإمام عملياته ضد «الخرج» وأوكلها هذه المرة لـ«عبد الله بن محمد» الذي لم يقم سوى بمناوشات مبهمة حول منطقة «الدلم».

قبل أن تعود إلى «حرمة» أعمال التحريض على الفتنة والعصيان خطط زعماؤها مع «حمد بن عثمان التويجري» أمير «المجمعة» لاغتيال أميرهم «عثمان بن عبد الله» واعتقال أصدقائه المتدينين من «المجمعة» الذين اعتادوا أن يزوروه للتباحث في أمور الدين. كما خططوا لأخذهم كرهائن ليوازوا بهم كفة زعمائهم الأربعة المحتجزين كرهائن في «الدرعية». وسار الجزء الأول من الخطة بشكل حسن، ووصل المتدينون كعادتهم وجلسوا في قاعة الاستقبال، وأرسل وراء «عثمان» الذي كان في إحدى واحات النخيل التابعة له. وفي طريقه إلى البيت كمن له أخوه «خضير» وقتله وقام ابن عم لهم يدعى «عثمان بن إبراهيم» باعتقال الضيوف المتدينين وربط أيديهم وأرجلهم وأغلق عليهم أبواب قاعة الاستقبال. إلا أن الجزء الثاني من الخطة والذي يشتمل على احتلال «المجمعة» بالتواطؤ مع أميرها، فشل بسبب حادثة تميزت بالفضول وقعت عندما وصلت القوة المرسلة من «حرمة» إلى «المجمعة». فقد حدث -بالصدفة- أن كان قائد الحركة واقفاً خارج بوابة قلعته ومعه عدد من

أتباع الدولة السعودية المحترمين الذين استشعروا عند رؤية الرجال المسلحين يتجهون نحوهم رائحة مكيدة ما، فسارعوا بالدخول إلى القلعة ومعهم الأمير وأوصدوا الأبواب. وفي هذه الظروف، لم يكن بإمكان الأمير أن يخدع نفسه ويستجيب لنداء أصدقائه في الخارج، فسارع الأهالي في تلك الأثناء إلى اتخاذ مواقعهم، وعاد الغزاة أصحاب الخطة إلى ديارهم فاشلين.

توجه ابن الأمير على عجل إلى «الدرعية» لينقل الأخبار، وجاء «سعود» على جناح السرعة ليعالج الوضع هناك. وبعد بضعة أيام من الحصار والقتال المتقطع استسلمت «حرمة» ووافقت على تسليم سجناء «المجمعة». ومما يستدعي الدهشة أن «سعوداً» وعد بأن إطلاق سراح رهائن «حرمة» المحتجزين في «الدرعية». وعندما أرسل في طلب أميري «المجمعة» و«جلاجل» اللذين كانا -في الواقع- أناساً بسطاء ناهيك عن أنه كانت هناك شكوك قوية حول مشاركتهما في خطة مصممة لتنفذ أكثر بكثير مما تم تنفيذه. ويمكن أن يكون ذلك الإقليم على حالة أفضل بكثير لو تم استبعادهما، وفعلاً تم إقصاء الأميرين عن ديرتيهما ومعهما الأسر والمؤن وأبعدا إلى «القصيم وشقراء» على التوالي. وفيما بعد وجدوا أيضاً أنه من الأفضل نقل «سويّد» أمير «جلاجل» المخلوع إلى منطقة أكثر أمناً في «الدرعية».

عُين «ناصر بن إبراهيم» (أخو أحد قاتلي «عثمان») أميراً على «حرمة» ووضع إقليم «سدير» برمته، وكذلك إقليم «منيخ» بما فيه المجمعة وحرمة تحت إمارة «عبد الله بن جلاجل» الذي كان من أقرباء «سويّد» وجُعلت «جلاجل» مقراً للقيادة.

وهكذا عاد «سعود» إلى ديرته وأصبح «عبد العزيز» مجدداً متفرغاً في معالجة الوضع في «الخرج»، وعليه سار إلى «الدلم» في الوقت الذي كان فيه

«زيد بن زامل» في «اليمامة». وقد باشر «عبد العزيز» بالهجوم بشكل مندفع وحدثت اشتباكات خارج البلدة نفسها، وسارع «زيد» على عجل بجمع قوة لنجدة إخوته أبناء البلدة وعندما وجد الطريق إلى البلدة مسدوداً بسبب المعارك، ألقى بقواته في هجوم على معسكر القوات السعودية الذي تصادف وجود «عبد العزيز» بنفسه فيه ومعه المؤونة والجمال الخاصة بالحملة. قاوم «عبد العزيز» الهجوم بضراوة وخسر المدافعون حوالي عشرين رجلاً إضافة إلى عدد من الجمال وذلك قبل أن تدرك القوة الرئيسة في البلدة ما كان يحدث في مؤخرتها. أوقف الغزو على البلدة في الحال وأخلت القوات البلدة لتتوجه لنجدة المعسكر. استغل «زيد» الهدوء الذي سبق العاصفة ودخل البلدة، وسحب «عبد العزيز» أثناء ذلك قواته إلى بلد «نعجان» المجاورة. حيث ألحق بها خسائر قبل أن يعود مرة أخرى منتصراً إلى الدرعية.

وفي ربيع عام ١٧٧٨م قدم «سعدون بن عريعر» أمير الأحساء إلى الخرج ليتفاوض مع «زيد بن زامل» وحلفائه من أجل التوصل إلى التحالف ضد الحكم السعودي. ولسبب ما لم تشرحه المصادر التاريخية قرر أن يتوصل إلى تفاهم مع «عبد العزيز» الذي سرعان ما وافق على اقتراح للتوصل إلى معاهدة سلام.

لم يعقد في الواقع أي لقاء فعلي بين الزعيمين المتنافسين، إلا أن «سعدون» مر في منطقة «بنبان» وهو في طريقه إلى مناطق مياه «مبايض» الواقعة بالقرب من «مجزل». وسواء كان ذلك نقضاً لمعاهدة السلام أم لم يكن، فقد بدا «سعدون» متوتراً حيال احتمال قيام «الدرعية» بهجوم ما عليه، وقرر على عجل العودة إلى الأحساء بالرغم من قيظ شمس الصحراء في شهري حزيران وتموز. وفعلاً أودى ذلك الحر بحياة العديد من ماشيته

من الغنم والجمال. وفي بداية العام التالي ١٧٧٩م حدث تآمر بين أهالي «حرمة والزلفي» استهدف الترتيب للهجوم على «المجمعة» التي أصبحت في تلك المرحلة تحت سلطة الدولة السعودية وتضم حامية من قواتها. قام أهالي «حرمة» بالخطوة الأولى واحتلوا الأبراج المطلة على واحات أشجار النخيل الشاسعة حول البلدة. وهبت الزلفي بكامل قوتها لمساعدتهم، وبعدها وصل «سعدون» إلى الموقع على رأس جيش مروّع.

في حين تمركز أهالي المجمعة في بلدتهم وقلعتهم لمقاومة الحصار، جال المهاجمون وصالوا في واحات النخيل، وقطعوا الأشجار وتركوا جمالهم وماشيتهم ترعى في محاصيل الأهالي. وكان أمل الأهالي الوحيد هو وصول النجدة من الدرعية، لكن سرعان ما تضاءل ذلك الأمل ووصل إلى حد إرسال رسالة إلى «سعدون» يقترحون عليه عقد هدنة من أجل إجراء مفاوضات تتعلق باستسلامهم، وفي تلك الأثناء علم الأهالي أن «حسن بن مشاري بن سعود» كان على رأس قوة من الدرعية في منطقة «جلاجل» التي كانت في ذلك الوقت عاصمة الإقليم، وكان يعد العدة لإنقاذ المجمعة.

أرسلت قوة صغيرة لكنها مشكلة من رجال أشداء في محاولة لاختراق خطوط العدو والدخول إلى القلعة تحت جنح الظلام، ويبدو أن تلك القوة تمكنت من التسلل دون أن يشعر بها أحد، وأسدلوا الحبال من أسطح القلعة لتساعد جماعتهم على الدخول. فقد الأعداء المحاصرون للبلدة شجاعتهم، وكان أول من تخلى عن الاستمرار في تلك الخطة بدو «بني خالد»، إذ ضجروا وسأموا من الجلوس الذي حرم جمالهم من مراعيها

الطبيعية، كما أن جماعة «الزلفي» قررت أيضاً الرحيل إلى ديرتها تاركين «حرمة» وحيدة في القتال ضد جارتها.

كان «عبد العزيز» قد أرسل أخاه «عبد الله» لإنقاذها، وبعد فترة قصيرة انضم إليه «سعود» على رأس قوة كبيرة لمحاصرة «حرمة»، ودارت رحى الحرب ضد المعتدين الذين تعرضوا للهجوم المتواصل بشكل يومي إلى أن أجبروا على التراجع إلى قلعتهم وتمت محاصرتهم. وعندما نشدوا السلام أمر «سعود» بإقصاء كل من ثبت أنه شارك في زعزعة الأمن، وأصر أيضاً على نقل كل محاصيل واحات النخيل إلى خزانة الدرعية. كما أمر عبدالعزيز ابنه سعوداً بهدم أسوار حرمة وتدمير تحصيناتها للقضاء على محاولات زعزعة الأمن في المستقبل.

وبعد هذه الفترة مباشرة، شن السعوديون حملتين لمعاقبة وتأديب «الزلفي» على الدور الذي قامت به في تلك الأحداث. قاد الحملة الأولى الأمير «سعود» وقاد الحملة الثانية الأمير «عبد الله بن محمد»، وفي كلتا الحملتين حدثت اشتباكات لم تسفر عن نتائج قيمة. وفي طريق عودته إلى الدرعية وبالتحديد في منطقة «رغبة»، سمح «عبدالله» لقواته من «سدير» و «الوشم» أن يذهبوا إلى منازلهم للراحة. وعندما وصلت باقي القوات إلى آبار «حفر العتش» هاجمها «سعدون بن عريعر» على رأس قوة كبيرة من «بني خالد» وأنزل بالقوات السعودية المنهكة خسائر كبيرة وإصابات في الأفراد، وجرح في تلك الاشتباكات قائدا فصيلي «الوشم وسدير» اللذان لم يذهبا في إجازة، بل بقيا مع «عبد الله» لزيارة الإمام «محمد بن عبدالوهاب». ويبدو أن «عبد الله» كان من بين القلائل الذين تمكنوا من

الهرب، واستمر «سعدون» في طريقه لغزو جزء من مناطق «سبيع» إلا أنه وجد أن فصيلاً من «ضرماء» كان مخيماً في نفس مشارب المياه، ودارت معركة مُنيت فيها قوات «سعدون» بالهزيمة ووقع أحد شيوخ الأمير «سعدون ابن خالد» في أيدي رجال «ضرماء» الذين لم يطلقوا سراحه إلا بفدية بلغت ٣٠٠٠ قطعة ذهبية.

وبعدها شنت قبائل سبيع غارة على جماعة «الظفير» التي كانت معسكرة في منطقة «صفوان» على الحدود العراقية، واستولوا على ٤٠٠٠ من جمالهم، وسارت فصائل من الدرعية مرة ثانية لغزو «الخرج» وتوغلوا فيها إلى أن وصلوا إلى «الحوطة» وقاموا بجولة من المناوشات غير المجدية. وفي تلك الأثناء كانت فصائل من القوات السعودية تهاجم مناطق الزلفي، التي خضع أهلها أخيراً للحكم السعودي الذي أصبح -على ما يبدو- مستقراً وراسخاً امتداداً من القصيم في الشمال حتى الخرج في الجنوب، ومن الدهناء شرقاً إلى منازل عتيبة وحرب غرباً. ولم تكن تلك المناطق خاضعة كلياً إلى أشراف مكة بل كانت القبائل تحكم نفسها بنفسها.

كان تأرجح بعض الوحدات السعودية بين التمسك بالمبادئ الجديدة والارتداد عنها على مدى تلك السنوات تجسيداً للروح السائدة في ذلك العصر سواء أكان ذلك في المناطق المستقرة أم في مناطق البدو. فكانت طبيعة العربي الكارهة والنافرة لأي نمط من أنماط الانضباط تواجه بشكل مضطرد تحدٍّ من قبل الدعوة السلفية التي ارتكزت على مبادئ يخضع فيها الفرد وحقوقه خضوعاً كاملاً لمصلحة السلطة. فقبل الناس هذه المبادئ على

نطاق واسع إلا أنهم كانوا يخلون بها أكثر مما كانوا يمارسونها أو يعتقدون بها.

لم يكن لأي شخص أن يدرك هذه الحقيقة أكثر مما أدركها «محمد بن عبدالوهاب»؛ ومنذ بدء دعوته أدرك الحاجة إلى قوة فعالة تستطيع أن تجعل كلمة الله سائدة ومسيطرة على عادات مجتمع شبه وثني في الجزيرة العربية. ويكمن الضعف الرئيس في الدعوة السلفية في حقيقة أن البدو الذين كانوا دائماً على استعداد للمشاركة في الغزوات التي تحقق عائدات جيدة من الغنائم، لم يدركوا معنى الجانب الروحي لهذه الدعوة، في حين كانت المنافسات المحلية في القرى والبلدان العامل الحاسم في موضوع الاختيار بين الالتزام بالمبادئ الجديدة أو رفضها وعدم الالتزام بها. ولا يمكن للمرء في خضم التطورات السياسية لتلك الفترة أن يستشعر أخوة الرجل الصالح التي أصبحت فيما بعد المرتكز الأساسي لحركة الإخوان التي شهدها القرن العشرين.

كان عام ١٧٨١م عام قلق وعدم استقرار امتدا من إقليم الفرع في الجنوب إلى مضارب القبائل على الحدود العراقية. ومرة ثانية أصبحت «الخرج» الهاجس الرئيس لحاكم الدرعية، التي توسعت في الغزوات حتى وصلت إلى مناطق «الحوطة» و «الحريق». وبعد أن انتهى من الهجوم على «الدلم» التفت «سعود» إلى جهة الشرق وهناك بنى قصر «البدع» بالقرب من «السلمية» ووضع بداخلها حامية من الجند تحت إمرة «محمد بن غشيان»، لمراقبة نشاطات زعيم اليمامة «حسن بن راشد البجادي». وعلى أي حال

مات هذا الزعيم في ذلك العام، كما قتل أخوه في المناوشات التي دارت حول البلدة.

ناشد أهالي الدلم «سعدون بن عريعر» مساعدتهم في القضاء على هذا الموقع الخطر المتقدم للقوة السعودية، لكن القوة السعودية تمكنت وبسهولة من صد موقع «البدع». أخذ «سعدون» يبحث عن مراع جديدة في مناطق الشمال، وبعد أن قام «عبد العزيز» شخصياً بغزو «الحوطة» وجني ثمار الاشتباكات المتقطعة، التفت مجدداً إلى «الدلم» ليكيل لها بنفس المكيال من الضربات والهزائم.

تحول مركز الجذب الآن إلى الشمال حيث هاجم «سعدون» وحلفاؤه من جماعة عنزة (مجموعة آل حبلان) «الدهامشة» الذين كان يتزعمهم «مجلاد ابن فواز» وتمكنوا من دحرهم. خرجت في تلك الأثناء قبيلة «الظفير» بكل قوتها تحارب مختلف تجمعات القبائل التي ضربت خيامها في منطقة «مبايض» المجاورة، وانطلق «سعود» من موقعه لمواجهتهم لكن عظم تعداد قواتهم جعل «سعوداً» يحجم عن مداهمتهم بشكل مباشر، وتراجع إلى منطقة «تمير» بانتظار وصول التعزيزات التي طلبها. وبعد وصول التعزيزات تقدم بقواته نحو «الظفير» وألحق بذلك التجمع هزيمة نكراء، واستولى على كل محتويات معسكرهم وعلى أعداد كبيرة من ماشيتهم التي كان من بينها ١٧٠٠٠ رأس غنم وخمسة آلاف جمل وخمسة عشر فرساً.

كان قدر الانتفاضة في منطقة «القصيم» يغلي على نار هادئة، ومع بداية عام ١٧٨٢م كان أهالي تلك المنطقة مستعدين لانتفاضة جماعية ضد زعماء الدرعية في عقر دارهم، وهناك لقي عدد من الشخصيات البارزة من القادة

السعوديين في المنطقة مصرعهم، ومن بينهم «منصور» و«ثنيان» من عائلة «أبا الخيل». وقد طلب الثائرون من «سعدون بن عريعر» المساعدة، فما كان منه إلا أن قدم على رأس قوة كبيرة تضم إلى جانب قوته الرئيسة من قبيلة «بني خالد» أعداداً كبيرة من «الظفير» و «شمّر». ووقف «سعدون» بقواته على مشارف «بريدة» وبدا أن كل أهالي «القصيم» كانوا مؤيدين للثائرين باستثناء «بريدة» و«الرس» و«التنومة». وبالطبع كانت «بريدة» المركز الرئيس لمسألة الولاء للدعوة. وكان أميرها «حجيلان بن حمد آل أبي عليان» قد خلف «عبد الله بن حسن» بعد موته في أحد العمليات ضد منطقة «الخرج». وخلال الحصار الذي أسفر عنه ذلك الموقف الذي دام مدة أربعة أشهر، اتهم فرد من عائلة «آل أبي عليان» بالتواطؤ مع العدو، وقام «حجيلان» شخصياً بذبحه.

حظي هذا التصرف برضا الأهالي، وأدرك «سعدون» أن الحصار يمكن أن يستمر إلى ما لا نهاية، لذلك تخلى عن ذلك الموقف وسار بقواته عن طريق «الزلفي» باتجاه «مبايض» وعسكر هناك ليعيد ترتيب قواته، وانضمت إليه تعزيزات قوية من عدة اتجاهات، إذ سارع زعماء «سدير» المنفيين من «الزبير» ومناطق أخرى بالانضمام إليه، وشكلت فرقة «الخرج» التي تزعمها «زيد بن زامل» مصدر قوته الرئيسة. وعند حلول منتصف شهر تشرين الثاني كان جيش «سعدون» مستعداً للمعارك، وتقرر أن تقوم تلك القوات بأول هجوم لها ضد بلدة «الروضة» التي كان زعماؤها المنفيون ضمن قوات «سعدون». فتوجه هؤلاء الزعماء تدعمهم فرقة قوية من الجيش إلى «الروضة» وتمكنوا تحت جنح الظلام من احتلالها بسهولة، ووافقت حامية سعودية (كانت

متمركزة في القلعة الكبيرة) في صباح اليوم على الاستسلام والرحيل مقابل ضمانات بعدم التحرش بها أثناء الانسحاب.

قرر «سعدون» أن يقيم مقر قيادته في «الروضة» خلال فترة كانت الحاجة فيها ماسة لاستقرار الأوضاع في ظل حكم «آل الماضي» الذي تمت استعادته. تركهم «سعدون» يدبرون أنفسهم ورحل عنهم، في حين انسحبت الفصائل الأخرى كل إلى ديرته.

كان «سعود بن عبد العزيز» في تلك الأثناء معسكراً في «ثادق» يراقب التطورات: وما أن غادر «سعدون» الروضة حتى أرسل «سعود» عناصر من قواته لتهاجمها: فأوكلت العمليات الأولية إلى فرق قروية من «سدير» نفسها ومنها رجال أشداء من «العارض» و «الوشم» وفي تلك العمليات قتل الأمير «عون بن ماضي» وخلفه أخوه «عقيل»، واستؤنف القتال بنفس الأسلوب المتقطع إلى أن قام «سعود» على رأس قوة أساسية من جيشه بممارسة المزيد من الضغط على المدافعين، وتمكن من احتلال واحات النخيل وإلحاق خسائر بها، ومع تتالي الأحداث بقيت قلعة واحدة تحت سيطرة «عقيل». وتحت هذه الظروف وجد «عقيل» نفسه مضطراً لمناشدة السلام الذي تمت الموافقة عليه لكن وفق شروط قاسية وهي: طلب منه دفع مبلغ كبير من المال كتعويض وعفو عن الجرائم، كما تم نفي عائلة «الماضي» وأتباعها عن المنطقة. وبعد احتلاله «الروضة» شرع «سعود» في تقصي أحوال القرى المجاورة التي شك بأنها كانت تقدم العون للثائرين من عائلة «الماضي» بما في ذلك قريتي «الداخلة» و«الفرعة». وعاد «سعود» إلى ديرته

ليعد العدة لنشاطات العام القادم. وقد أوصلته تلك المشاركات بعيداً عن ديرته فوصل «المستجدة» وهناك أغار على جماعة من «مطير».

وفي الفترة نفسها تقريباً من ربيع عام ١٧٨٣م سار «زيد بن زامل» ليغزو جماعة من «سبيع» في مكان ما من الصحراء، وفي طريق عودته جابهته دورية كانت بقيادة «سليمان بن عفيصان» وكان «عبد العزيز» قد أرسلها من «الدرعية» لتحمي طريق القوافل. وحدثت مناوشات بين الطرفين وأصاب عيار ناري طائش «زيداً» فقتله على الفور. وقد أفجعت هذه الحادثة كل أتباعه الذين خسروا عشرة رجال في تلك الواقعة، استردت تلك الدورية الجمال التي كانت جماعة «زيد» قد أخذتها من قبيلة «سبيع» وأعادوها إلى أصحابها. أصبح ابن زيد المدعو «براك» أميراً على «الدلم» وسرعان ما رتب أموره مع أهل اليمامة لمهاجمة منفوحة، ونجم عن تلك الترتيبات المناوشات المعتادة التي لم تسفر عن إصابات بالغة في أي من رجال الجانبين. غزا «سعود» في تلك الفترة الأحساء، وهو في طريق عودته إلى ديرته قرر أن يقوم بهجوم على اليمامة، بعد أن حقق غزواً ناجحاً ضد «العيون»، وفي الواقع ومن حسن حظه أنه وجد عدداً كبيراً من أهالي اليمامة مخيمين بالصحراء، وعلى الفور قام بهجوم لم تصمد أمامه أهالي اليمامة وهربوا في حالة فوضى. لم يخسر «سعود» في تلك المواجهة أكثر من ثمانية رجال. توجه «سعود» بعد ذلك إلى «القصيم» ليقوم بمناوشات حول «عنيزة»، لكنه سرعان ما عاد إلى ديرته لأنه لم يفضل أن تمكث قواته الكبيرة العدد بشكل مكشوف في العراء. وبسبب عدم هطول الأمطار في نهاية عام ١٧٨٣م

أوشكت كافة مناطق «نجد» أن تموت بسبب الجفاف الشديد. قدر لذلك الجفاف أن يستمر وبشكل قاس حتى عام ١٧٨٦م، ورافق ذلك ندرة في الطعام وارتفاع في الأسعار وكثير من الأمراض.

ومع نهاية عام ١٧٨٤م أو بداية العام التالي قاد «سعود» حملة ضد مناطق «الخرج». وعندما وصلته أخبار قافلة غنية محملة بالمواد الغذائية وكانت متوجهة إلى «الحوطة»، أصدر أوامره بأن يعد لها كمين في موارد المياه بمنطقة «الثليما» الواقعة في الصحراء على مسافة اثني عشر ميلاً من «اليمامة». نفدت مياه القافلة التي كان يحرسها حوالي ٣٠٠ محارب[١]، وما أن شاهدوا أشجار النخيل في الواحات الصغيرة حتى تدافع حراسها في المقدمة وأسرعوا نحو الواحات على الفور. قضى رجال «سعود» على هؤلاء الرجال، لكن القافلة توقفت عند سماع الطلقات النارية واستعد حراسها للدفاع عنها. على أي حال كانت القافلة فريسة سهلة بالرغم من الدفاع المستميت الذي قام به حراس القافلة، إذ سقط منهم حوالي النصف[٢] بما فيهم «زامل» وهو أحد أبناء «زيد» الذائع الصيت. وفر الناجون من الموت تاركين القافلة والبضائع الثمينة للأعداء. وكأن هذه الحادثة لم تكن مأساوية بشكل مؤثر على أهالي «الخرج» الذين كانوا يعيشون حالة قحط ومجاعة، إذ تعكر صفو الأمن في «الدلم» بسبب اغتيال الأمير الجديد «براك» على أيدي اثنين من أبناء عمومته. وقد التجأ هذان الاثنان إلى «الدرعية»، وعليه خلفه «تركي» في الإمارة وهو ابن آخر من

---

(١) ليس هذا عدد الذين يحرسونها وإنما هذا عدد أفراد القافلة. (المراجعون).

(٢) يشير ابن بشر إلى أن القتلى كانوا سبعين رجلاً وليس نصفهم. (المراجعون).

أبناء «زيد»، لكنه لم يحتفظ بالإمارة لوقت طويل لأن «سعوداً» هاجم «الدلم» في نهاية شهر تشرين أول من عام ١٧٨٥م، وبعد معارك ضارية تمكن من دحر المدافعين وإجبارهم على التراجع ضمن حدود البلدة. وأخيراً استولى عليها بهجوم عاصف. وتمكن «سعود» من قتل «تركي» وعيّن في مكانه «سليمان بن عفيصان» أميراً على المنطقة، وبهذا الشكل تم إخضاع واحد من المعاقل الرئيسة المعارضة للدعوة السلفية. وسارعت بقية بلدان ذلك الإقليم إلى الإعلان عن ولائها للعقيدة السلفية الجديدة. لكن سبق تلك التطورات أن قدم قادة «وادي الدواسر» إلى «الدرعية» ليعربوا عن اعترافهم بالسلطة السعودية الجديدة. وعليه يمكن القول إن ذلك العام شهد توسعاً حقيقياً امتد جنوب الدولة السعودية.

سبَّب الجفاف انتشار مرض الجرب بين الجمال في «نجد» على نحو خطر، كما سبب إصابات في مناطق البدو وفي القرى والمدن. وكانت الحيوانات المستخدمة في القوافل عند بدء رحلتها تبدو في حالة جيدة لكنها كانت تسقط فجأة وتموت تحت ثقل حمولتها. جاءت الأمطار الموسمية في عام ١٧٨٥م/ ١٧٨٦م وعند بوادر ثمار تلك الأمطار وظهور المحاصيل في الربيع، نزلت الأسعار بشكل سريع وازدهرت الصحراء مرة ثانية، لكن لم تخفف تلك الحالة من صراع القبائل الدائم، إذ تآمر فريقان من جماعة «بني خالد» مع اثنين من الأسرة الحاكمة للقبيلة وهما «عبد المحسن بن سرداح العبيد الله» و «دويحس بن عريعر» بقصد الثورة ضد حكم «سعدون». استجاب «ثويني بن عبد الله» زعيم «المنتفق» لمناشدتهم وقدم المساعدة لهم.

وهكذا واجهت القوات المتحالفة «سعدون» بقوة ضاربة ودام القتال الضاري عدة أيام بعدها أدرك «سعدون» أن هزيمته واقعة لا محالة، ولذلك فر مع أتباعه إلى «الدرعية» وهناك أحسن «عبد العزيز» استقباله وعامله بعز يليق بعدو شجاع. اغتصب «دويحس» مكان «سعدون» في قبيلة «بني خالد»، وباشر «عبد المحسن» اليد اليمنى لـ «دويحس» بإدارة بعض الأعمال الخاصة بسيادة القبيلة.

كان «سعود» منشغلاً بالإشراف على حملة توجه بها لغزو جماعة من «قحطان» في الجنوب، وكان «حجيلان بن حمد» أمير منطقة القصيم ينظم حملة أخرى لغزو «جبل شمر»، ويفترض أن «عبد العزيز» كان قد وافق على ذلك، والجدير بالذكر هنا أنه لم يسبق لـ «عبد العزيز» أن قام بأي تحرك في ذلك الاتجاه.

قام «حجيلان» بالاستيلاء على قافلة كبيرة محملة بالأقمشة والبضائع كانت قادمة من العراق في طريقها إلى «حائل»، وسارع بالعودة إلى ديرته محملاً بالغنائم قبل أن تُنظم أية جهة حملة لمطاردته. لكن الانتقام كان قادماً على الطريق، ففي شهر تشرين الأول من العام التالي قاد زعيم المنتفق والمدعو «ثويني» قوة عسكرية قوية وسار بها باتجاه «القصيم»؛ وكانت تلك القوة مجهزة بحمولة ٧٠٠ جمل من المواد الحربية مثل: المسدسات والبنادق التي تشعل بالفتيل، والذخائر والطلقات الضرورية لكافة الأسلحة. ولدى وصوله إلى «التنومة» سارع في حصارها بضعة أيام، وأضعف وسائل وإمكانيات الدفاع عنها بقصفها بالمدفعية إلى أن تيقن من نتيجة الإغارة عليها وتحقيق النصر. وعليه داهم القرية بهجوم عاصف وأحدث فيها أعمال ذبح عشوائية وسلب كل ممتلكاتها، وقتل من أهلها ما لا يقل عن ١٧٠ رجلاً ولم

يهرب إلا القليل بعد ذلك توجه «ثويني» إلى «بريدة» التي لم يقدم على نهبها لأنه تلقى أخباراً تفيد بحدوث مشكلات في ديرته. حملته تلك الأخبار على العودة بشكل فوري. وفي تلك الأثناء كان «عبد المحسن» الوصي على إمارة الأحساء في طريقه على رأس قوة كبيرة ليساعد «ثويني» في معاركه بمنطقة القصيم، لكنه هو أيضاً تخلى عن تلك المهمة لدى سماعه أن «ثويني» كان قد انسحب.

وصل «ثويني» إلى «الزبير» وهناك قدم حاكم البصرة لزيارته، لكن ما إن وصل الحاكم حتى أطبق «ثويني» عليه واستولى على كل ماشيته، بعدها توجه إلى البصرة بنفسه واحتل المباني الحكومية فيها، وتقلد دور الحاكم في المدينة. جمع «ثويني» وجهاء البصرة لمشاورتهم بخصوص المستقبل، وتم الاتفاق على إرسال رسالة إلى السلطان في القسطنطينية (إستانبول) يطلبون فيها موافقته على تعيين «ثويني» والياً على إقليم البصرة. وقد أصيب المندوب بالذعر بسبب تصرف وزراء السلطان غير الملائم، فهرب تحت جنح الليل. ومن المحتمل أنه تم إرسال تعليمات رسمية إلى والي بغداد «سليمان باشا» لاتخاذ كل الخطوات اللازمة لإعادة الوضع في البصرة على حاله. وعليه أشرف «سليمان باشا» بنفسه على قيادة الحملة التأديبية التي توجهت إلى البصرة في خريف عام ١٧٨٧م. كان «ثويني» في تلك الفترة يجمع قواته لمقاومة الغزو العثماني. ترك أخاه «حبيباً» يتولى شؤون البصرة وتوجه إلى نهر الفاضلية بالقرب من سوق «الشيوخ» لملاقاة العثمانيين، وهناك منيت قواته بهزيمة نكراء، إلا أنه تمكن من الفرار إلى «الجهراء» بالقرب من الكويت ومن هناك انضم إلى قبيلة «بني خالد» في «الصمان».

أصبح «حمود بن ثامر» الآن زعيماً لجماعة المنتفق، وأصبح «الآغا مصطفى» حاكماً على البصرة. كرر «حجيلان» غاراته على «جبل شمر»، وكانت تلك الغارات عنيفة لدرجة أن أهالي حائل أعلنوا خضوعهم للحكم السعودي الذي اكتسب بهذا الإقرار توسعاً آخر شمل حكمه المناطق التي يديرها.

توجه «سعود» إلى منطقة القصيم للتعامل مع عنيزة التي كانت تشهد بعض المشكلات نظراً لأن زعيمها كان من أفراد عشيرة «آل رشيد»، وكان «يحيى بن علي» قد خلف «عبد الله بن حمد» من عائلة الزامل، الذي عين أميراً عام ١٧٦٨م لكنه قتل في العام نفسه خلال الحملات التي شارك فيها في منطقة الخرج. والجدير بالذكر أن «يحيى بن علي» ابن أخت «عبد الله بن حمد». كان قد تمكن من البقاء في الإمارة حتى عام ١٧٨٨م بمساعدة أحد مغتصبي السلطة من عائلة «آل رشيد» قام «سعود» في ذلك العام بحملة ضد تلك المنطقة. وعلى إثر الانتصار الذي حققته تلك الحملة تم إقصاء المغتصب للزعامة مع أسرته عن الحكم، ونفي من المنطقة وردت الإمارة إلى عائلة «الزامل» المتمثلة في شخصية أحد أبناء «يحيى» المدعو «عبد الله». وتم هذا التغيير وأصبح ساري المفعول دون أية معارضة للقرار الذي اتخذه «سعود» بذلك الخصوص.

تزامن ذلك مع غزوة قام بها «سليمان بن عفيصان» للمناطق الشرقية، إذ أنزل بأهالي «قطر» خسائر جسيمة. وبعد أن انتهى من ذلك التفت إلى مناطق الأحساء وهناك عزل قرية «الجشة» وتعامل معها بشكل جذري وقتل العديد من أهلها بحد السيف. سار بعد ذلك بقواته نحو ميناء «العقير» الذي أضرم فيه النار بعد أن نهب منه كل البضائع والسلع الموجودة في المستودعات.

من أبرز أحداث هذا العام كان قرار «عبد العزيز» الذي بلغ من العمر في هذه المرحلة ٦٥ عاماً، تقرر أن يتخذ ترتيبات محددة يؤكد من خلالها ضوابط تولي السلطة من بعده. إن المكانة العسكرية والإنجازات البارزة في المجالات الإدارية، جعلت من «سعود» الشخصية المرجحة لأن تحكم مستقبلاً الدولة التي كبرت وتعاظمت من حيث المناطق المحيطة بالدرعية، لكن من المشوق أن نشير هنا إلى أن «محمد بن عبد الوهاب» وبصفته ممثل السلطة الدينية وبموجب منزلته كإمام، أصدر أوامره لكافة المناطق والمحافظات بالاعتراف بـ «سعود» كحاكم عليها في المستقبل. لم تقم لهذه المناسبة أية احتفالات رسمية خاصة، إلا أن أداء البيعة من قبل الأهالي في حضرة أمرائهم وحضرة سلطات أخرى مخولة بإدارة أمورهم، ألزمت الجميع ومنذ تلك اللحظة بأن يقدموا جلّ خدماتهم وبإخلاص للأمير «سعود» وذلك ليس فقط بصفته إماماً عليهم بل بصفته وريثاً للحكم بشكل فعلي، وله الحق في احترامهم له وطاعته بنفس القدر الذي كانوا يحترمون ويطيعون فيه والده. ولا بد أن يكون هذا الإجراء موغلاً في القدم، إذ كان يمارسه ملوك سبأ حين يشركون واحداً وفي بعض الأحيان يشركون اثنين من إخوانهم وأخواتهم في الحكم معهم، وذلك ليس فقط بصفتهم أمراء ورثة للحكم، بل كانوا يطلقون عليهم اسم ملوك أيضاً.

أما في منطقة الحكم السعودي فكان يشار للحاكم إلى جانب كونه إمام المسلمين بلقب «الشيوخ» (في صيغة الجمع)، في حين كان الشخص الآخر المخول الحق بهذا اللقب هو الأمير الوصي على العرش أو الأمير المعترف به كوريث للعرش. ومن أحد المحاسن في هذا الترتيب التقليدي هو أن النظام

يتحاشى أو يتفادى أي حاجة لإجراءات غير مسوغة للتنازل عن الحكم من قبل ملك حاكم، كما يؤكد استمرارية السلطة السيادية في الدولة في حال عجز الحاكم عن الاستمرار في الحكم أو موته.

وبعد توليه منصب ولي العهد مباشرة أمضى «سعود» بقضاء شتاء عام ١٧٨٨م/ ١٧٨٩م في سلسلة من الغارات والغزوات التي تمت جميعها في المناطق الشرقية والمناطق الشمالية الشرقية. كانت كل حملاته مركزة وبشكل عام على ممارسة المزيد من الضغوط على أمراء «بني خالد» في الأحساء. ففي منطقة «الصمان» واجه «سعود» كامل زخم قوات «بني خالد» لكنه انسحب دون أن يبدي أية محاولة جادة في الاشتباك معهم، وجاء ذلك الانسحاب بعد يومين من استعراض القوى والمناوشات الخفيفة. واشتبك بعد ذلك بجماعة «ثويني» في نفس المنطقة، وكان معهم اللاجئون من جماعة «المنتفق» الذين هربوا معه من العراق بعد كارثة «سوق الشيوخ»، لكن «سعوداً» هذه المرة هاجمهم وأجبر جماعة «المنتفق» على الفرار واستولى على معسكرهم وكل الأمتعة والمعدات التي بداخله. وبعد ذلك هاجم مجموعة من القرى الصغيرة في صحراء «الطف» واستولى على كل مخزونهم من الحبوب. تابع المسير لمسافات بعيدة حملته على مهاجمة مجموعة أخرى من «المنتفق» كانت في منطقة «الروضتين» بالقرب من «صفوان» على الحدود العراقية، وسلب كل ما احتواه معسكرهم وكل ما احتوته خيامهم، إضافة إلى ممتلكاتهم.

رجع «سعود» قافلاً إلى مياه «الوفراء» وهناك واجه فريقاً من قبيلة «بني خالد» وألحق به هزيمة وقتل منهم حوالي ٩٠ رجلاً. وعاود بعد ذلك المسير باتجاه واحة «الأحساء» وهناك قام ببعض المناوشات حول بلدة «المبرز» دون

تحقيق أهداف جوهرية، لكنه هاجم قرية «الفضول» التي تقع بالجوار من تلك المنطقة واحتلها وقتل من أهلها حوالي ٣٠٠ رجل.

وفي الخريف التالي عاود حملاته وضغوطه على الأحساء، وكان جيشه هذه المرة إضافة إلى قواته النظامية من «العارض» ومن المناطق المجاورة للدرعية، يضم فرقة من قبيلة الظفير وعناصر من قبيلة «بني خالد» بزعامة «زيد بن عريعر» الذي كان قد أبعد عن القبيلة مع أتباعه إثر ثورتهم ضد «سعدون». توجه «سعود» بهذه القوة مستهدفاً القوة الرئيسة لقبيلة «بني خالد» التي كانت تعسكر بالقرب من تل ومورد ماء «غريميل» الذي لا يبعد كثيراً عن الواحة الرئيسة في الأحساء. كان معسكرهم تحت إمرة «دويحس ابن عريعر» وإمرة عمه «عبد المحسن» الوصي على الحكم، فداهمهم «سعود» على الفور. قاتل الفريقان بشكل مستميت إلى أن توصل «بنو خالد» إلى مرحلة لم يستطيعوا الاستمرار فيها فتفرقوا وانهزموا، وأثناء الفرار تمكنت خيالة «سعود» من قتل العديد منهم تاركين وراءهم ماشيتهم وكل ممتلكاتهم. ويقال إن «عبد المحسن» و «دويحس» فرا إلى «المنتفق» لذا قرر «سعود» أن يعين «زيد بن عريعر» رئيساً للقبيلة.

وفي خريف عام ١٧٩٠م ظهر خطر حقيقي هدد بشكل جدي استقرار الحكم السعودي. قدم ذلك الخطر من الغرب حيث كان الشريف «غالب بن مساعد» الذي خلف أخاه «سروراً» في إمارة مكة بعد وفاته، يخطط لغزو «نجد» في عام ١٧٨٨م. أعلن «غالب» بوضوح أن هدفه كان إسقاط الدرعية نفسها ووضع نهاية للدعوة السلفية. فأرسل أخاه «عبد العزيز» على رأس جيش مؤلف من عشرة آلاف رجل ومعهم عشرون مدفعاً. انضم إليه وهو في طريقه إلى هناك بدو الحجاز ورجال من «شمر» و «مطير» وعناصر أخرى

من قبائل «نجد». وعند وصول هذه الحشود إلى مقاطعة «السر» قامت المدفعية التركية (العثمانية) بتطويق ودك منطقة «قصر بسام» - وهي قرية صغيرة محصنة- ، إلا أن الحامية الصغيرة التي قيل بأن عدد رجالها بلغ ثلاثين رجلاً، صمدت ببسالة ضد كل أشكال الهجوم التي فرضت عليها. وبعد بضعة أيام من القصف قر ر «غالب» الذي كان يدير العمليات بنفسه، أن يلتحق بالقوة الرئيسة التي كانت تحت إمرة أخيه في «الشعراء» الموجودة في أعالي «نجد»، وقد تعرضت تلك البلدة المهمة إلى قصف عنيف، كما تمت عدة محاولات للاستيلاء عليها بهجوم عاصف، إلا أن جميع هذه المحاولات التي استهدفت الاستيلاء عليها أو إجبارها على الاستسلام باءت بالفشل. وبعد مضي شهر من المحاولات غير المثمرة رفع «غالب» الحصار الذي كلفه حوالي خمسين رجلاً من رجاله، وأقلع عن أية فكرة أخرى تتعلق بالسيطرة على «نجد». وبعد أن أدرك البدو فشل محاولته انشقت قبائلهم عن قوات «غالب» التي كانت قد انضمت إليها على أمل الحصول على غنائم سهلة، وترك «غالب» يقود المجموعة الرئيسة من قواته وهي في طريق عودتها إلى مكة دون تحقيق أية مكاسب.

قام «سعود» على رأس قوة كبيرة بالهجوم على البدو الذين تحالفوا مع الشريف «غالب». والجدير بالذكر أن «سعوداً» - على ما يبدو - كان يحتفظ بالقسم الأكبر من قواته في حالة احتياط تحسباً لأي طوارئ أو تهديد مباشر يمكن أن يحدث ضد الدرعية. وسرعان ما سمعوا بأخبار الحملة. انسحب البدو من «نجد» وكان الوقت آنذاك قد دخل في صيف عام ١٧٩١م حيث وصلت جماعات «شمر» و «مطير» إلى موارد مياه «العدوة» إلى الجنوب من

«حائل». وفي الثلاثين من شهر آب (أغسطس) دارت معركة «العدوة»، وهناك التف «سعود» عليهم، وقاتل البدو بإصرار وعناد إلا أنهم مُنوا بالهزيمة وأجبروا على الفرار تاركين وراءهم غنائم ثمينة استولى عليها رجال «سعود». خسرت تلك الجماعات أيضاً عدداً من قادتهم، لكن بعد ذلك بوقت قصير - وبعد أن جمعوا تعزيزات جديدة من الرجال الذين لم يشاركوا في تلك المعركة - عادوا لمهاجمة قوات «سعود» الذي كان لا يزال موجوداً في «العدوة» يوزع غنائم الحرب حسب العادة.

جابه السعوديون تحدي رجال القبائل، وقتل واحد من زعماء «شمر» وهو يحاول الانقضاض على «سعود» في خيمته الخاصة. تفرق المهاجمون ولاذوا بالفرار وطاردتهم فرسان السعوديين واستمروا في مطاردتهم لمدة ملحقين بهم خسائر بشرية ومادية كبيرة.

وفي شهر كانون ثاني (يناير) من عام ١٧٩٢م عاد «سعود» مرة ثانية إلى درب الحرب فتوجه إلى إقليم الأحساء، وهناك استولى بهجوم عاصف على «سيهات» و «عنك»، وقتل حوالي ٤٠٠ من أهل البلدتين[1]، واستولى على كميات كبيرة من الغنائم. وأخيراً وافقوا على عقد صلح وسلام لقاء دفع فدية بلغت ٥٠٠ جمل. في تلك الفترة تمكن «زيد بن عريعر» -الذي كان قد عينه زعيماً على قبيلة «بني خالد» بعد معركة «غريميل»- من التغرير بـ «عبدالمحسن» وحمله على العودة بعد أن قدم له ضمانات وتعهدات بأن يعامل بكرم، لكنه ذبحه بكل برودة أعصاب في الهواء الطلق أمام حشد من الناس.

وبناءً على أوامر تلقاها من الإمام، قام زعيم قبيلة قحطان «هادي بن قرملة» بمهاجمة عربان «مطير» المتجمعة بالقرب من آبار «الحنابج» في أعالي

(١) العدد عند ابن بشر هو ٥٠٠ رجل. (المراجعون).

نجد، وتوجه «سليمان بن عفيصان» لغزو «قطر» وفي طريقه إلى هناك اشتبك مع مجموعة مسلحة من القطريين ودحرهم في موقعة دارت في الصحراء. بعد النشاطات التي قام بها في منطقة «القطيف» توجه «سعود» بنفسه إلى «جبل شمر» وغزا تجمعاً كبيراً لرجال قبائل «حرب» و «مطير» حول موارد مياه «الشقرة»، واستولى على غنائم كبيرة شملت ٨٠٠٠ جمل وعدداً من الخيول الأصيلة.

وقع أبرز أحداث ذلك العام خلال فصل الصيف، حيث انتقل «محمد بن عبد الوهاب» في العشرين من تموز (يوليو) إلى جوار ربه، مات بعد حوالي نصف قرن من التفاني في خدمة الدعوة السلفية التي أسس أول ركائزها، وفي خدمة الأئمة الذين تعاونوا معه من أجل دفعها وتقدمها إلى مستوى أدخل إلى قلبه الرضى التام في أواخر عمره. لكن لم يكن مقدراً له أن يعيش ليشهد أرض الميعاد في تبرعمها وامتداد أطرافها إلى أقصى حدود الجزيرة العربية. وفي سياق الإشارة إلى حادثة وفاته، يخبرنا «ابن بشر» أن «محمد ابن عبد الوهاب» عاش اثنين وتسعين عاماً، إلا أنه في وثائق تاريخية أخرى عن حياة «محمد بن عبد الوهاب» يشير إلى أن تاريخ ميلاده كان في عام ١١١٥هـ (السابع عشر من شهر آيار من عام ١٧٠٣م وإلى الخامس من آيار من عام ١٧٠٤م). وبالرغم من هذه المعطيات يمكن القول إنه بلغ من العمر عند وفاته ٩٣ سنة.

بدت على «محمد بن عبد الوهاب» في آخر أيامه السمنة وثقل الحركة لضخامته، وكان لا بد أن يعتمد على رجلين يسندانه من كل طرف ليصل إلى المسجد، ويستشهد «ابن بشر» بعبارة ذكرها المؤرخ المشهور «حسين بن

غنام» في مرثاة شعرية نظمت على شرفه : إلا أن أفضل صرح قائم في ذاكرته هو ذكرى الدولة التي أوجدها من خلال فوضى كانت سائدة في الجزيرة العربية واستمرت إلى هذا اليوم بالرغم من كل تقلبات الظروف التي عانت منها الجزيرة على مدى أكثر من قرنين .

ويشهد الجميع أنه علاوة على أن «محمد بن عبد الوهاب» ترأس الإدارة الدينية في البلاد بتميز ، فقد قام أيضاً بنشاط قوي فعّال في إدارة الشؤون العسكرية والنشاطات السياسية المكرسة لخدمة دين الله . إن الانسجام التام الذي خيم على مدى خمسين عاماً تقريباً على النضال المتواصل بينه وبين أول زعيمين للدولة السعودية ، لهو في الواقع أفضل مقياس لعبقريته الفذة ولإخلاصهما الحقيقي للقضية المشتركة التي تتجاوز نقاط ضعف الجنس البشري وطموحاته التي سادت في عالم تكثر فيه الضغائن ، إذ تمكنا من العيش والعمل مع بعضهما البعض .

شهد الخريف والشتاء اللذان أعقبا موت الشيخ العظيم تطورات مهمة في إقليم «الأحساء» حيث اتخذت جماعة «بني خالد» بتحريض من قبل «براك ابن عبد المحسن» موقفاً عدائياً من «زيد بن عريعر» وأطاحوا به . وما إن نُصب «براك» من قبل أتباعه زعيماً على القبيلة ، حتى سارع في قيادة حملة شملت كل رجال القبيلة للإغارة على مناطق آبار «اللصافة» . وفي الطريق إلى هناك هاجم جماعة من «سبيع» وسلب منهم الكثير من ممتلكاتهم . وفي غضون ذلك قدم «سعود» بكامل قوات المحاربين السعوديين إلى الصحراء الشرقية للنيل من «بني خالد» الذين كانوا في ذلك الوقت في منطقة «الجهراء» بالقرب من الكويت . وبالقرب من «اللصافة» تقفى «سعود» أثرهم الذي

أوصله إلى موارد المياه. وهناك وجد أنهم كانوا قد غادروها للتو، فأقام معسكره هناك وتوقع عودتهم إلى موارد المياه نفسها أو إلى موارد مجاورة، وأرسل «سعود» قوات لتحتل آبار «اللهابة» و «القرعا»، لكن جماعة «بني خالد» عادت إلى آبار «اللصافة» ووجدوا أن «سعوداً» قد استولى عليها كما وجدوا أن فرسانه والمحاربين على الجمال كانوا على أهبة الاستعداد للقتال. دارت معركة هناك دامت لمدة ساعة تقريباً انهارت جماعة «بني خالد» وفر رجالها في حالة فوضى واضطراب، فطاردتهم فرسان «سعود» دون هوادة وعادوا ومعهم الكثير من الغنائم. قدرت الخسائر التي مني بها رجال «بني خالد» ما بين ألف إلى ألفي قتيل. هذا؛ وغنمت قوات السعوديين ما لا يقل عن ٢٠٠ فرس، إضافة إلى عدد آخر من الماشية.

تمكن «براك» من الهرب على ظهر فرسه ومعه جماعة صغيرة من رجاله وتوجهوا إلى «المنتفق» قرب الحدود العراقية. وقد أصيب أهالي «الهفوف» بالذعر لدى سماعهم أخبار هزيمة «بني خالد».

كان «سعود» يسير في ذلك الاتجاه لكنه توقف عند آبار «الردينية» في إقليم «الطف» لبضعة أيام. تلقى خلالها مبادرات من مدن «الأحساء» أعربوا فيها عن رغبتهم في المثول بين يديه والإعراب له عن الطاعة والولاء. احتفلوا به لدى وصوله إلى «عين نجم» ينبوع المياه الساخنة، وهناك أرسل «سعود» فرقة لتهدم كل القبور ذات القباء والقبور والأماكن التي يرتادها الشيعة. أمضى «سعود» في تلك المنطقة شهراً من الزمان عمل خلاله على إقامة الركائز الأساسية للإحياء الفكري عند الناس الجهلة. وشمل ذلك الإصلاح بناء المساجد والمدارس وتعيين المعلمين الأكفاء لشرح المبادئ

الأساسية في الإسلام وعقيدة التوحيد. عَيّن «سعود» أيضاً رجلاً يدعى «محمد الحملي» في منصب أمير الإمارة باعتبار أنه كان شاغراً آنذاك وجعل المقر الرئيس للإمارة في قلعة «الكوت». ولما كانت هناك حاجة لعدد من الرسميين، فقد عَيّن «سعود» عدداً منهم في دوائر حكومية مختلفة، كما وضع حاميات عسكرية في القلاع وفي مراكز الحراسة الأخرى.

حل «سعود» خيام معسكره وسار بجنده نحو مشارب مياه «نطاع» الموجودة في إقليم «الطف» وهناك نزل للاستراحة المؤقتة ولترعى جماله وخيوله في مراعيها الخضراء، وهناك أيضاً وصلته أخبار عن حدوث مشكلات جادة في منطقة «الهفوف»، وعلم أن الأهالي هناك ثاروا ضد النظام الجديد وقتلوا حوالي ثلاثين شخصاً بمن فيهم الحاكم وبعض الرسميين وكل المعلمين الذين تم تعيينهم مؤخراً لتعليم أصول الدين. ويُقال إن القتلة جَرّوا أجساد قتلاهم في الشوارع ومثلوا بهم على أعين الناس، ولم يبق من الإدارة الحكومية التي عينها «سعود» سوى حامية في قلعة «الحصار» كانت تحت إمرة «محمد بن غشيان» الذي فر تحت جنح الظلام -بعد أن صمد لفترة قصيرة- ليلتحق بقوات «سعود» في معسكره الحالي. قرر «سعود» في ضوء هذه الأخبار أن يعود - حالاً - إلى الدرعية، واستمر «زيد بن عريعر» في حكمه المتقطع للأحساء على مدى تلك الفترة.

حدث أنه في حوالي نفس الفترة أصيب الحكم السعودي بكارثة وفاة «سليمان بن عفيصان» أمير منطقة «الخرج» الذي دامت فترة إمارته مدة ست سنوات. وقبل وفاته كان «عبد العزيز» و «سعود» يعتمدان عليه في حملات عسكرية كانت تتطلب قيادة شجاعة.

أصبح «سعود» في خريف عام ١٧٩٣م مستعداً ولديه خطط للتعامل مع ثورة «الأحساء». سار «سعود» إليها بقوات ضاربة من جيشه، وكانت قرية «الشقيق» هدفه الأول إذ استولى عليها بهجوم صاعق بعد أن حاصرها مدة يومين وقتل بعضاً من أهلها في حين فر البعض الآخر. اجتمع أهالي القرى المجاورة الواقعة في الجزء الشمالي من الواحة في منطقة تدعى «القرين» للدفاع عن أنفسهم، ولكن قوات «سعود» حاصرت تلك المنطقة تماماً كما حاصرت قرية «المطيرفي»، ودام الحصار حتى اضطر أهالي كلتا المنطقتين إلى دفع نصف أملاكهم مقابل فك الحصار. عاد «سعود» بعدها إلى منطقة «المبرز» المجاورة، وهي المنطقة الثانية من حيث الأهمية بعد «الهفوف». قام «زيد بن عريعر» بمهاجمة قوات «سعود» لكن السعوديين تمكنوا من دحر قواته ومن مطاردتهم حتى العاصمة. هاجم سعود القلعة البعيدة عن مقر القيادة التي كانت بها جماعة من «المبرز». أسفر ذلك الهجوم عن قتل مئة رجل من رجالها. هذا؛ وتعرضت قرية «البطالية» أيضاً إلى هجوم مماثل، توجه «سعود» على إثره شرقاً لمهاجمة بلدة «الجبيل». وفي الوقت نفسه وجه سعود رعاياه من البادية إلى القيام بأعمال حربية في بعض الاتجاهات الأخرى لإنزال أكبر قدر من الخسائر في صفوف العدو. عقاباً لهم نظير أعمالهم السابقة.

واستمرت حملة الذعر هذه بضعة أيام، لكن أهالي «الأحساء» اختاروا «براك بن عبد المحسن» ليذهب إلى «عبد العزيز» ويطلب منه العفو، ويعرب له عن ولائهم وطاعتهم له في المستقبل. ووافق الإمام على مناشدتهم وطلب من «سعود» العودة إلى الدرعية تاركاً «براك» يرتب من أجل وضع اللمسات الأخيرة لهذه المعاهدة التي دخل فيها كطرف نيابة عن أهالي ذلك

الإقليم. لكن أهالي الهفوف لم يتوبوا وتصدوا لمحاولة دخوله إلى ديرتهم. علماً بأن أهالي «المبرز» لم يعارضوا دخوله إلى بلدتهم، وفي تلك الأثناء كانت قوات «زيد» وأبناء عمومة «عريعر» ترابط في «الجشة» و «الجفر» القريبتين من الأطراف الشرقية لتلك الواحة، وبعد قتال مرير دار بين الفئات المتنافسة ظهرت سطوة «براك» في القتال وانطلق «زيد» متوجهاً بقواته نحو «المنتفق»، وتولى «براك» السلطة كحاكم ممثل للسلطة السعودية في الدرعية، واعترف بحكمه كافة أهالي ذلك الإقليم.

وهكذا انتهت استقلالية إقليم الأحساء الذي كان تحت ظل أمراء «آل عريعر» وهم من سلالة «آل حميد» الذين دام حكمهم لتلك المنطقة مدة ١٢٤ عاماً، أي من عام ١٦٦٩م عندما قام «براك بن عريعر» الجد الأول لـ «سعدون» و «زيد» بالاستيلاء على ذلك الإقليم وتحريره من الأتراك الذين تمكنوا بعد فترة وجيزة من استعادته. حدث ذلك عندما قامت قوة تركية عام ١٥٩٢م بقيادة «فاتح باشا» بإلحاق الهزيمة بحكام عائلة «آل أجود بن زامل العامري الجبري القيسي»، وأصبح «فاتح باشا» أول والٍ تركي على تلك المنطقة. ويذكر المؤرخ «ابن بشر» أسماء ثلاثة ولاة تولوا الحكم من بعده هناك كان من بينهم: «عمر باشا» الذي هزمه «آل حميد». ويضيف «ابن بشر» قوله إن حكم الأتراك استمر حوالي ثلاثين عاماً، وإذا كانت التواريخ التي أوردها «ابن بشر» حقيقية فيمكن القول إن حكم الأتراك (العثمانيين) لتلك المنطقة دام مدة ٧٨ عاماً وتلك -بالطبع- فترة طويلة جداً من الصعب أن يغطيها أربعة ولاة أتراك فقط! لكن ربما يكون ذلك ممكناً، إلا أن الاحتمال الآخر هو أنه يمكن أن يكون قد حدث خطأ في كتابة الرقم، فبدلاً من كتابة «ثلاثين»

كتب الرقم «ثمانين». على أي حال تحول إقليم «الأحساء» في تلك الفترة إلى مقاطعة تابعة للحكم السعودي، الذي امتد عليه مدة ٨٠ عاماً قبل أن يعود مرة ثانية ليصبح تحت سيطرة الحكم العثماني عام ١٨٧١م. ومن جديد استمر الحكم التركي (العثماني) لهذا الإقليم مدة ٤٢ عاماً، أي حتى عام ١٩١٣ وأخيراً تحول في ذلك العام ليصبح خاضعاً للحكم السعودي. يعد هذا الإقليم من أغنى المناطق التابعة للسيادة السعودية.

وبالرغم من أن حملة «الأحساء» هذه جاءت في مقدمة أحداث موسم شتاء عام ١٧٩٣م/ ١٧٩٤م الشديد البرودة، وقد أسفرت عن نتائج فاقت بكثير كل نتائج الغزوات التي قام بها السعوديون في تلك الفترة، إلا أنهم صَعَّدوا أعمالهم العسكرية وأرسلوا تلك الحملة في كافة الاتجاهات، ومن بين تلك الأعمال العسكرية كانت حملة ضخمة تقدر قوتها بألف رجل و٦٠٠ جمل، إذ قادها «عبد الله بن محمد بن معيقل» -وهو من بلدة «شقراء»- ووصل بها إلى مشارف سهول «ركبة» على حدود الحجاز. وهناك اشتبك مع «عتيبة» بالقرب من «البغث» إلا أنهم أوقعوا بين صفوفه بعض الخسائر وصدوه عن مواقعهم.

وفي موقعة أخرى حيث كانت القوات السعودية أيضاً تحت قيادة «محمد ابن معيقل» نفسه، تمكن السعوديون من التغلب على بني «هاجر» ودار ذلك الاشتباك في سهول «الحزم الراقي» الواقعة بين مرتفعات «الذنايب» وآبار «الثعل»، وفيه فاز السعوديون بغنائم كثيرة وقتلوا زعيم القبيلة «ناصر بن شري». وفي حملة أخرى تحت قيادة «إبراهيم بن عفيصان» أمير «الخرج» وابن أخي «سليمان» توجه السعوديون أولاً إلى «قطر» وهناك دخلوا بلدة

«الحويلة» الواقعة على البحر والتي يعمل أهلها بالصيد، وبعدها توجهوا إلى «الكويت» وتمكنوا من صد هجوم معاكس قام به أهلها نتيجة كمين نصبوه لهم ولم يدخلوا المدينة. ومن أكثر هذه الحملات أهمية كانت حملة شكلت فصائلها - بتوجيهات من «عبد العزيز» - من مقاتلي «الوشم» و«القصيم» وجبل «شمر»، وكان يقود كل فصيل قائد من نفس منطقة المقاتلين، وكان كافة القادة يأتمرون بأوامر القيادة العليا لـ «محمد بن معيقل». كان الهدف من تلك الحملة التوجه شمالاً والتوغل إلى مسافات أبعد مما توصل إليه الجيش السعودي. فكانت منطقة «الجوف» النقطة المستهدفة لهذه الحملة التي عرفت في ذلك الوقت باسم «دومة الجندل»[1] وهي منطقة تقع على أطراف الصحراء السورية. تمكنت هذه القوات من احتلال ثلاثة بلدان في تلك الواحة، وأما باقي القرى والأماكن بما فيها «قصر مارد» وهي القلعة الرئيسة في «الجوف»، فقد حوصرت إلى أن استسلم أهلها وانتموا إلى الدعوة السلفية وأقسموا يمين الولاء للحكم السعودي.

يمكن القول إن هذه الأحداث وقعت إما شتاء أو في الأشهر الأولى من ربيع عام ١٧٩٤م وهو العام الذي مات فيه شيخ الدرعية[2] «سليمان بن عبدالوهاب»، وجاء موته بعد عامين من موت أخيه الأكثر شهرة.

قام «سعود» في الأشهر الأخيرة من هذا العام بغزو «الظفير» في مقاطعة «الحجرة» على الحدود العراقية، وعاد منها إلى الدرعية في شهر شباط من

(١) يعد الجوف منطقة أوسع وأشمل من دومة، واشتهر حالياً أن يطلق الجوف على المنطقة الجغرافية للمنطقة، ودومة الجندل إحدى المدن فيها، وقاعدة الجوف في هذا الوقت مدينة سكاكا. (المراجعون).

(٢) لم يعرف في المصادر النجدية أن أطلق على الشيخ سليمان بن عبدالوهاب لقب شيخ الدرعية. (المراجعون).

عـام ١٧٩٥م ومعـه الكـثـيـر من الغـنـائم، وبعـد عـودتـه أعـد العـدة لغـزو الحجاز.

وفي شهر آيار خاض «سعود» معركة ضد «تربة» مستخدماً الأسلوب المعتاد في غزو المناطق الزراعية خارج المدن وشن مناوشات متقطعة. قتل في تلك المناوشات «محمد بن عيسى بن غشيان» وهو واحد من أبرز قادته. وباعتبار أن القتال لم يتحول من المناوشات إلى مرحلة الاشتباك الفعلي، سرعان ما وافق «سعود» على إيقاف القتال. جاء ذلك بعد أن تسلم فدية وتعويضات لقاء ذلك. يبدو أن حر الصيف حد من إصرار «آل سعود» على المغامرة، إذ كان من الواضح أن قادة الدرعية كانوا يفكرون أيضاً في توسيع نطاق عملياتهم، وكانوا يفكرون في عدة طرق لتحقيق تلك الغاية خاصة أنهم تمكنوا من الوصول حتى حدود «سوريا» و «العراق».

اعتقد «غالب بن مساعد» شريف مكة أن الحملة التي شنها «سعود» ضد «تربة» ما كانت إلا انطلاقة باتجاه مواقعه، ولذلك قام على الفور بترتيب حملة لغزو «نجد» بالرغم من حر ذلك الصيف. كان هدف الشريف «فهيد» الذي قاد تلك الحملة القضاء على قبيلة «قحطان» التي يتزعمها «هادي بن قرملة». وعليه أقام معسكره في موارد مياه «ماسل» التي تبعد حوالي خمسين ميلاً إلى الجنوب من «الدوادمي»، وبعد قتال عنيف تمكن من هزيمة قبيلة قحطان وأنزل بهم خسائر جسيمة واستولى على عشرة آلاف جمل. كادت نساؤهم وأطفالهم الذين تركوهم خلفهم أن يموتوا من العطش لولا أن العناية الإلهية أرسلت عليهم مطراً من السماء روى ظمأهم.

وفي الوقت الذي كانت فيه قوات الشريف تنسحب محملة بالغنائم، كان «محمد بن معيقل» يشن هجوماً ناجحاً على «عتيبة» في منطقة «مران» الواقعة في «حرة كشب» البركانية. وحدث بعد فترة قصيرة أن قدم «سعود» إلى المنطقة نفسها لغزو تجمعات «مطير» و «عتيبة».

كان «غالب» يعد العدة مرة ثانية لشن غزوة على نطاق واسع ضد «نجد» انطلقت حملته تلك من «مكة» (إما في شهر كانون الثاني أو شهر شباط من عام ١٧٩٦م) بقيادة الشريف «ناصر بن يحيى» متوجهة نحو مرتفعات الجزيرة العربية. وعندما وصلت أخبار هذه التطورات أرسل «عبد العزيز» توجيهاته إلى «محمد بن ربيعان» زعيم «عتيبة» وإلى «فيصل الدويش» زعيم «مطير» وإلى قبائل «السهول وسبيع» و «الدواسر» و«العجمان» وأمرهم أن يلتفوا حول «هادي ابن قرملة» القائد الأعلى للقوات المدافعة في ذلك الوقت، وكانت قوات «هادي» وقتئذ منتشرة حول مشارب مياه «الجمانية» على شكل رقم ٨ بدءاً من ممر «النير» حتى ممر طريق القوافل بين نجد والحجاز. وعند وصول قوات الشريف «ناصر» الضخمة والمجهزة ببعض المدافع، احتدمت المعركة وتكبد الطرفان خسائر جسيمة واستمرت المعارك إلى أن قامت مجموعة فرسان من قوات «هادي بن قرملة» بترجيح كفة القتال لصالحها. بعدها تفرقت قوات الشريف وفرت من أرض المعركة، وطاردها فرسان نجد وقتلوا منها حوالي ٣٠٠ رجل، وأخذوا أعداداً كبيرة من الغنائم اشتملت على خيام «ناصر» وبنادقه. كان «عبد العزيز» قد أرسل «محمد بن معيقل» ليسانده إذا دعت الحاجة، إلا أنهم وصلوا في الوقت المناسب لمطاردة فلول القوات المعادية التي أبعدوها حتى حدود منطقة

«القنصلية» بالقرب من «تربة»، وتمكنوا من قتل حوالي أربعين شخصاً من الرجال الفارين وأخذوا المزيد من الغنائم منهم.

كان «مبارك بن هادي بن قرملة» في تلك الأثناء يقود حملة باتجاه حدود اليمن، واشتبك هناك مع قبائل نجران وتغلب عليها ملحقاً بها خسائر مادية. بدت كافة مناطق الجزيرة العربية وكأنها في حمأة نشاطات عدائية عسكرية وكان السعوديون أثناءها يقاتلون بدافع حماس ديني متزايد، لكن حدث في شهر نيسان أن وصلت إلى القيادة السعودية أخبار عن حدوث بعض المشكلات في الأحساء، والتي تتلخص في أن «براك بن عبد المحسن» قام بتحريض شخصيات بارزة من بين الأهالي وأغواهم بالانضمام إليه وذلك في محاولة للخروج عن الحكم السعودي. رفضت قبيلة «السياسب» التي كانت تقيم في المنطقة الساحلية بالقرب من القطيف الانضمام إلى حركته وناشدت سلطات الدرعية تقديم العون إليها، وعليه تم إرسال «إبراهيم بن عفيصان» لمعالجة تلك الانتفاضة. تمكنت جماعة «السياسب» بمساعدة من جماعة «المبرز» (التي رفضت أيضاً الانضمام إلى ذلك التحالف) من تطويق مناطق الانتفاضة، واستسلم بعض المتمردين بمن فيهم «صالح بن النجار» أحد زعماء تلك الفتنة حتى قبل وصول قوات «ابن عفيصان» في حين أصر البعض الآخر على القتال. تمكنت قوات «ابن عفيصان» من محاصرتهم بضعة أيام في عدة مناطق من الهفوف إلى أن طالبوا في نهاية المطاف وقف القتال. وافق «ابن عفيصان» على ذلك شريطة أن يتوجه زعماء الفتنة إلى الدرعية ويعربوا عن خضوعهم التام له شخصياً[1].

(١) عند ابن بشر أن ابن عفالق، والحبابي، والحملي طلبوا من ابن عفيصان الأمان مقابل أن يخرجوا من الأحساء ويتجهوا إلى العقير، فلما خرجوا قصدوا بلد الزبارة. عنوان المجد، ج١، ص٢١٥. (المراجعون).

ومع حلول شهر حزيران (يونيو) كان «سعود» قد توجه إلى الوشم ليشرف على حشود قوات الجيش لشن حملة على «الأحساء». ولدى وصوله إلى «الرقيِّقة» ضرب معسكراً لجيشه وبقي هناك لأكثر من شهر. لم يقم خلال ذلك الشهر إلا بعمليات تطهير لبقايا قوات العدو وإعادة ترتيب القضايا الإدارية. وكانت تقع بعض الاشتباكات المتفرقة لكن لم يتمكن المتمردون من تحقيق أي تقدم، واستسلم عدد كبير من الأهالي بعد أن أدركوا أن المكابرة والاسترسال في العناد لن يفيدهم شيئاً. هذا؛ وقد قام سعود بقتل ونفي المتسببين في الحوادث السابقة، كما دمر تحصينات المدينة قطعاً لدابر الفساد فيها.

كما أمر «سعود» شخصاً يدعى «ناجم بن دهينيم» من «الهفوف» بإلقاء القبض على كل شخص اتهم باقتراف الفظائع أثناء الانتفاضة. والجدير بالذكر أنه عندما قرر «سعود» العودة إلى الدرعية عَيَّن «ناجماً» حاكماً على الأحساء، وساق معه عدداً كبيراً من الرهائن. تمكن «براك» من الهرب إما خلال إجراءات توقيف المجرمين أو بعد الانتهاء منها، ويقال إنه هرب عن طريق «المنتفق» التي كانت تعاني خلال الجزء الأخير من ذلك العام من تفشي العديد من المشكلات. كان «ثويني» -الذي مُني قبل بضع سنوات بهزيمة على أيدي «سعود» في مناطق «بني خالد»- قد هرب أيضاً إلى «صفوان» وجمع حوله عدداً كبيراً من أبناء قبيلته. قام «حمود بن ثامر» الأمير الجديد بمهاجمة «ثويني» وأتباعه وتمكن من دحرهم، إلا أن «ثويني» تمكن مجدداً من الهرب عن طريق «شط العرب» ولجأ إلى جماعة «كعب».

حاول هناك – وبالتحديد في عام ١٧٨٩م – أن يحظى بمساعدة «زيد بن عريعر» لمعاودة القتال، إلا أن «زيداً» لم يستجب لمحاولاته فتوجه إلى الدرعية طالباً حماية «عبد العزيز» ومكث هناك بعض الوقت. وبعد فترة من الزمن تمكن من الهرب إلى الكويت ومنها توجه إلى بغداد ليلقي بنفسه تحت رحمة «سليمان باشا» الذي وبخه أمام الناس في «سوق الشيوخ» وبعدها عفا عنه وسمح له بالبقاء في بغداد. تمكن من الفوز بالحظوة عند «سليمان باشا» على أمل أن الباشا سيقوم في يوم من الأيام بإعادة تنصيبه زعيماً على «المنتفق». ولتحقيق ذلك الغرض حاول جاهداً إقناع الباشا بأنه إذا استعاد زعامته على «المنتفق» سيكون في موضع يمكنه من تحقيق طموحه في إخضاع «نجد» لسلطة الصدر الأعظم.

صَدَّق «سليمان باشا» مزاعم «ثويني» وزوده بالسلاح والرجال وأرسله خلال ذلك العام ليستعيد زعامته على «المنتفق» التي أقيل منها «حمود» وفقاً لذلك الاتفاق. ولم يمض وقت قصير على تولي «ثويني» الزعامة هناك حتى قام بحشد القوات لتنفيذ المهمة التي ألزم نفسه بها. وبمساعدة رجال قبيلته له الذين كانت تدعمهم فرق من البصرة والزبير، استطاع «ثويني» حشد كامل القوات لتتحالف مع «الظفير». وهناك وجد أن قبيلة «بني خالد» كانت مستعدة تماماً للانضمام إليه تحت قيادة الهارب «براك»، فحشد كامل قوة جيشه في «الجهراء» وبقي هناك مدة ثلاثة أشهر ليتمم خططه ومعداته اللازمة للقيام بذلك الغزو المدروس بعناية، وانضمت القوات التركية القادمة عبر البحر عن طريق البصرة إلى قواته، في حين حملت باقي القوات بالسفن وسارت بشكل مواز لسير قواته البرية المتجهة إلى «القطيف». والجدير بالذكر أنه كان مقرراً أن تكون «القطيف» قاعدة لعملياته التي تستهدف الأحساء.

أصدر «عبد العزيز» أوامره بحشد كل القوات المتمرسة المحلية للتصدي لذلك التهديد، كما عَيَّن «محمد بن معيقل» في منصب القائد العام لتلك القوات. وعندما حان الوقت المناسب غادرت كافة تلك القوات الدرعية باتجاه مشارب منطقة «قرية» في مقاطعة «الطف». وأصدر «عبد العزيز» أوامره أيضاً لكل القبائل البدوية بالتحرك بكل أمتعتهم وحتى أسرهم وماشيتهم باتجاه ديار «بني خالد»، وأمرهم باحتلال الآبار هناك والدفاع عنها ضد أي هجوم أو غزو.

إضافة إلى هذه الترتيبات تقدم «سعود» على رأس مجموعة قوية من حرسه الخاص وهم من رجال «العارض» ومن رجال المناطق الوسطى وعسكر في «روضة التنهاة» الواقعة على الطرف الغربي من الدهناء؛ ثم تحرك من هناك باتجاه «حفر العتش» واستراح فيها مدة شهرين.

تقدم «ثويني» نحو مقاطعة «الطف» وتراجع السعوديون المتواجدون في منطقة «قرية» إلى أن وصلوا جنوباً إلى موارد مياه «جودة» و «أم ربيعة». أرسل «سعود» قوة من حرسه الخاص بقيادة «حسن بن مشاري» لدعم موقف «محمد بن معيقل» وليكون بالتالي ستاراً يحمي جماعات البدو. أدخلت التحركات التي قام بها «ثويني» باتجاه آبار «الشباك» الرعب في قلوب الأهالي هناك، وفي هذه المرحلة من تطور الأحداث تدخلت العناية الإلهية إذ قام أحد العبيد باغتيال «ثويني» عندما كان يراقب انتشار قواته وماشيته حول مصادر المياه. وعلى الفور قام رجال «ثويني» بذبح ذلك العبد وحجبوا لفترة من الزمان أخبار مصرع «ثويني» عن الجيش لمنع حدوث الذعر في صفوفه. إثر ذلك الحدث تم تعيين «ناصر» أخي «ثويني» زعيماً على القبيلة خلفاً

لأخيه، إلا أن «براك» -الذي كان على اتصال سري مع «حسن بن مشاري» الذي لم يكن مسروراً لتعامله مع زعيم «المنتفق»- قرر أن الوقت قد حان ليغير موقفه ويناصر الطرف الآخر. أحدث تراجع قبيلة «بني خالد» وسحب دعمهم رعباً في صفوف القوات الغازية التي سارعت في التراجع، وعليه قامت القوات السعودية بمطاردتها حتى ضواحي مدينة الكويت ومشارفها، واستولى السعوديون على معسكر وسلاح وذخيرة فلول تلك القوات، كما جمعوا الكثير من الغنائم أثناء مطاردتهم لقوات «المنتفق»[١].

تمت هذه الأحداث مع نهاية شهر حزيران من عام ١٧٩٧م. وبعد أن وزع «سعود» الغنائم في أرض المعركة توجه بقواته إلى «الهفوف» ليحظى مجدداً بتأكيد الأهالي هناك على ولائهم للحكم السعودي. وأثناء استراحته القصيرة هناك والتي حدثت في أوائل الخريف، هطلت الأمطار الموسمية بغزارة في معظم مناطق «نجد» وعلى نحو غير مألوف. دمرت السيول بلدة «الدلم»، كما سقطت على «حريملاء» حبات برد عنيفة أحدثت أضراراً جسيمة في واحات النخيل والمحاصيل، وتسببت في انهيار العديد من المنازل والأسوار. وحدث أيضاً - إما خلال صيف العام نفسه أو خلال صيف العام التالي - سيل عنيف خلف دماراً في مناطق «حوطة بني تميم» و «وادي حنيفة»، علاوة على الدرعية نفسها التي تكبدت خسائر كبيرة، وكذلك تكبدتها منطقة العيينة.

لم توقف العوامل الطبيعية تلك الغزوات، فحدث أن قام زعيم «الدواسر» بغزو قبيلة «شهران» الحجازية القريبة من «بيشة»، كما قام

(١) تسمى هذه الوقعة: سحبة. ابن بشر، عنوان المجد، ج١، ص٢٢٨. (المراجعون).

«محمد بن معيقل» بغزو جزيرة «العماير» في الخليج العربي والتي كانت أول منطقة عبر البحار تنضم إلى الحكم السعودي على حساب «البحرين».

إثر موت «ثويني» جدد «سليمان باشا» تعيين «حمود بن ثامر» زعيماً على منطقة «المنتفق»، وذلك في خطوة أولى ضمن سلسلة من خططه الهادفة لاستئناف أعماله العدائية ضد السعوديين، وفي تلك الأثناء تولى الشريف «غالب» عجلة استمرار الغزوات وقام بحملة ضد «قحطان» الذين كانوا متجمعين قرب مصادر المياه في «عقيلان» شمال «بيشة»، لكن قواته التي عجزت عن التقدم إلى موارد المياه وأنهك العطش قواها، أصبحت فريسة سهلة للبدو الذين انقضوا عليهم وأوقعوا فيهم خسائر فادحة. تبع هذه الحادثة هجوم شنه زعيم الدواسر «ربيع بن زيد» ضد بلدة «بيشة»، فدفع بقواته بشراسة لدرجة أن الأهالي هناك أعلنوا استسلامهم وخضوعهم له لكن سرعان ما تعرضت قوات «ربيع» لهجوم مضاد شنه عليه الشريف «فهيد بن عبد الله» الذي كان «غالب» قد أرسله على رأس فرقة قوية لذلك الغرض، إلا أن قوات «ربيع» تمكنت من دحرها واستسلمت رغم غياب القوات السعودية المساندة. بعد ذلك هاجم «فهيد» في طريق عودته منطقة «رنية» لكنه لم يحرز سوى انتصار محدود، وهاجم «هادي بن قرملة» البقوم في منطقة «تربة» المجاورة، وفتح عليها جبهتين من اتجاهين مختلفين.

حدثت هذه العمليات مع نهاية عام ١٧٩٧م وبداية عام ١٧٩٨م، وفي تلك الفترة كان «عبد العزيز» قد أرسل قوة من «الأحساء» لمهاجمة الكويت تمكنت تلك القوة من الاستيلاء على عدد كبير من الجمال التي كانت ترعى في المراعي، كما تمكنت من صد هجوم قامت به حامية موجودة هناك

وأوقعت بها خسائر جسيمة، علماً أن المهاجمين فشلوا في إحراز أي موقع لهم في المدينة.

وفي الطرف الآخر من شبه الجزيرة العربية أرسل «حمود بن ربيعان» زعيم قبيلة «عتيبة» رسولاً إلى «عبد العزيز» يعرض عليه استسلام وخضوع القبيلة إلى الحكم السعودي. والجدير بالذكر أن قبيلة «عتيبة» لم تكن حتى يومنا هذا تحت قيادة الحجاز. على أي حال عرض الرسول على «عبدالعزيز» استعداد القبيلة لدفع تعويض عن المخالفات والانتهاكات التي اقترفوها في الماضي، وفعلاً تم ترتيب أمر هذا الولاء حسب الأصول، إلا أن انشقاق قبيلة «عتيبة» أثار حفيظة غالب ودفعه إلى التحرك، فما كان منه إلا أن قاد حملة بنفسه لمهاجمة «هادي بن قرملة» زعيم قبيلة «قحطان»، وبعد معركة في الصحراء، أصيبت فيها قوات «هادي» أثناء تبادل الهجمات بخسائر كبيرة اضطرته للتراجع إلى منطقة «رنية»، في حين استمرت قوات «غالب» -التي كانت معسكرة في «القنصلية»- في هجومها العشوائي المتفكك على الواحة دون أن تسفر جهودها عن أية نتائج قيمة. في تلك الأثناء أخذت أسهم الدولة السعودية ترتفع في المناطق الغربية، كما أن انشقاق «البقوم» وانضمامها إلى المعسكر السعودي جاء بمثابة صفعة عنيفة أخرى على وجه «غالب».

غَيَّر «عبد العزيز» وجهة غزواته وأصبح يتجه شمالاً. فأرسل «حجيلان ابن حمد» أمير «بريدة» لغزو «الشرارات» على الحدود الشامية. وقد حقق ذلك الغزو نتائج باهرة؛ فاستطاعت القوات السعودية قتل حوالي ١٢٠ رجلاً من رجال تلك القبائل، كما جمعت غنائم ضخمة تم توزيعها بين

خزينة الدولة السعودية والجنود المنتصرين. وفي العام نفسه قاد «سعود» قوة ضخمة وتوجه بها إلى الحدود العراقية، وأول ما غزا هناك كان «سوق الشيوخ»، وبعدها غزا «السماوة»، وهناك اشتبك مع تجمعات بدوية قوية وبالتحديد من بدو «شمر» و «الظفير»، ودارت معركة بين القوات السعودية وقبائل البدو بقيادة «مطلق بن محمد» زعيم «الجرباء» بالقرب من «وادي الأبيض» وقتل في تلك المعركة «مطلق» وتمكنت القوات السعودية من الاستيلاء على معسكرات البدو وعلى كافة محتوياتها، لكنها تكبدت خسائر فادحة إذ سقط من بين قتلاها «براك بن عبد المحسن»، وكانت تلك نهاية حياته المفعمة بالأحداث المتقلبة.

بينما كان «سعود» منشغلاً بغزواته في شرق البلاد، كان الشريف «غالب» يقود قوات كبيرة مدعومة بقوات مصرية ومغربية لمهاجمة الواحات الجنوبية الغربية، وبالرغم من قطع العديد من أشجار النخيل والمناوشات العنيفة التي قامت بها قواته خلال استراحتها التي دامت ثلاثة أسابيع، إلا أنه فشل في إضعاف قوة المدافعين؛ وعليه توجه إلى «بيشة» وهناك تمكنت قواته بمساعدة بطانة له من أهل البلد من التغلب على كامل البلدة وإخضاعها له، وساعده في ذلك الهجوم وتستر عليه «جنينة» و «روشان» الشخصيتان الرئيستان في جانب السعوديين.

وكما يشير المؤرخون عاد «غالب» مزهواً بنفسه مسروراً بما أنجزه، وتوجه إلى «الخرمة» في طريق عودته، وأقام معسكراً هناك انتشرت فيه جحافل قواته، وفي تلك الأثناء غارت عليه قوة كبيرة من قوات الدولة السعودية بقيادة «هادي بن قرملة»، واجتاح ذلك الهجوم العنيف كل ما كان أمامه،

فما كان من قوات «غالب» إلا أن انهارت وتفرقت ولاذت بالفرار، تاركة كل ما في المعسكر من غنائم إلى السعوديين، الذين طاردوهم دون هوادة وأوقعوا بينهم العديد من القتلى، وسلبوا كل ممتلكاتهم، وبلغ عدد القتلى بين رجال «غالب» ١٢٢٠ قتيلاً بمن فيهم الشريف «مسعود بن يحيى بن بركات» وابن أخيه «هزاع»، وعدد آخر من كبار الزعماء. هذا؛ وقد خسرت القوات العثمانية والمصرية والمغربية التي كانت تقاتل إلى جانب قوات الشريف غالب ما يزيد على ٦٠٠ رجل، علاوة على ذلك استولى السعوديون على رواتبهم التي كان من المفروض أن توزع عليهم في صباح اليوم التالي.

وفي سياق عرضه للأحداث يتحول المؤرخ «ابن بشر» ليحدثنا عن أحداث مثيرة تتعلق بالاحتلال الفرنسي عام ١٧٨٩م لكل من مصر وفلسطين، ويزودنا بوصف مؤثر لمعركة «الفدان»، ووصف آخر عن وصول الأسطول البريطاني الذي يقول إنه حصل على صورة مصغرة له من سجلات الطائف التي وجدها عند احتلال «عثمان المضايفي» لها، لكن تلك القضية لا تعنينا كثيراً لأننا بصدد أحداث الجزيرة العربية. إن استمرار الحروب الطائفية في الجزيرة، والتجاهل التام وعدم الاكتراث بما يحدث في العالم من أحداث (كان من الممكن أن تنتشر لتصل إلى الجزيرة العربية وإلى الأماكن المقدسة فيها) ليؤكد على منحى الجزيرة العربية عن تلك الأحداث باستثناء الانتصارات التي حققها البريطانيون على قوات نابليون التي توجت بانتصارها على الهند. وحسب ما يقول «ابن بشر» نقل رجل من «حرب» أخبار معركة الفدان إلى مكة، وكان ذلك الرجل هو الوحيد الذي كتبت له

الحياة من بين مجموعة من رجال عشيرته، التي كانت تحارب إلى جانب الأتراك. وتجدر الإشارة هنا إلى أن رجلاً ادعى أنه شاهد «نابليون» في معركة الفدان عام ١٧٩٩م، وكان عمره آنذاك خمسة عشر عاماً، وأخبر الشريف «حسين» -الذي كان آنذاك ملكاً على الحجاز- بقصة معركة الفدان.

وبعد انقضاء صيف العام نفسه الذي هزم فيه «غالب» في منطقة «الخرمة» خلال شهر آذار من عام ١٧٩٨م، كلف «عبد العزيز» زعيم قبيلة «الدواسر» والمدعو «ربيع بن زيد» بشن هجوم على «بيشة». قاد «ربيع» قوة تشتمل على عناصر من قبيلة قحطان وأغار على القرى الصغيرة حول الواحة، واستولى على بعضها بهجوم عاصف واستسلم بعضها الآخر، واستمر الهجوم إلى أن استسلمت «روشان». وأعربت عن ولائها لـ«سالم بن محمد بن شكبان» الذي كان «عبد العزيز» قد عيّنه أميراً جديداً على كافة تلك المنطقة. لكن مع بداية العام القادم أعد «سليمان باشا» والي العراق جيشاً كبيراً ضم عناصر نظامية وعدداً من البدو، وزوده بعدد من المدافع وبحوالي ١٨ ألف فارس وذلك لغزو الأحساء.

سارع أهالي «الهفوف» و«المبرز» وقرى الواحة هناك إلى الاستسلام لـ«علي كيخيا» قائد ذلك الجيش، إلا أن الحامية العسكرية في «الهفوف» والحامية العسكرية في «قصر صاهود» بالمبرز -وكانتا تحت إمرة كل من «إبراهيم بن سليمان بن عفيصان» و«سليمان بن ماجد» من ثادق- واجهتا الغزاة الذين بدأوا هجومهم بمنطقة «المبرز».

مارس «علي كيخيا» -ولمدة استمرت من بداية شهر شباط وحتى بداية شهر نيسان (أبريل) من عام ١٧٩٩م- كافة الأساليب المتبعة في فرض الحصار،

وذلك للنيل من حامية «سليمان» المؤلفة من حوالي مئة رجل. كرر هجماته على أسوارها إلا أنه لم يتمكن منها، وعندما وصلت أخبار تقدم «سعود» لتخفيف الضغط عن حامية «سليمان» والقادة الآخرين، قرر «علي كيخيا» أن يرفع الحصار ويغادر تلك المنطقة، لكن قبل مغادرته أقدم على حرق كافة المعدات التي استخدمها في الحصار، كما دفن ذخيرته في رمال الصحراء.

وعندما سمع «سعود» بهذه التطورات سارع إلى منطقة «ثاج»؛ ليعترض مسير قوات العدو التي توقفت لتعيد ترتيب أوضاعها ولتستعد للمعركة التي حدثت في وقت لاحق بمنطقة آبار «الشباك». وبعد عدة أيام من المناوشات العشوائية المتقطعة من قبل الجانبين، اقترح «علي كيخيا» إمكانية التوصل إلى هدنة، وافق «سعود» على ذلك الاقتراح، كما وافق على عدم التحرش بالقوات التركية أثناء عودتها إلى بلادها، وتوجه «سعود» بنفسه إلى «الأحساء» ليشرف على إعادة بناء القلاع والمراكز الدفاعية الأخرى في تلك المنطقة، وعيّن «سليمان بن محمد بن ماجد» أميراً عليها، وتجدر الإشارة إلى أن سليمان هو والد بطل معركة «المبرز». لم يصل «سعود» إلى الدرعية إلا في منتصف الصيف وهناك وصلته أخبار نجاح حملة الحج التي قام بها فريق من «الوشم» و «القصيم» بقيادة أمير «شقراء» الذي كان يرافقه كل من «علي» و «إبراهيم» ابني المرحوم الشيخ «محمد بن عبد الوهاب». والذي أسهم في إنجاح هذه الحملة كان حقيقة أن «غالب» بعد هزيمته في «الخرمة» كان قد أرسل رسالة إلى «عبد العزيز» وعده فيها بتوخي السلام بين الطرفين، كما وجه دعوة إلى القائد السعودي ناشده فيها السماح لرعاياه بالتوجه إلى الحج كما كان الحال في السابق.

شجعت هذه التجربة التي خلت من الأحداث والمشكلات، السعوديين على معاودة الحج في شهر نيسان من العام التالي، لكنها تمت على نطاق أوسع من ذلك بكثير، إذ قام «سعود» بأول رحلة حج له شارك فيها زعماء «نجد» ونساؤهم وأطفالهم، وسارت أمور تلك الحملة على ما يرام واستقبل «غالب» الأمير «سعود» بكل الحفاوة والتكريم ودعاه للعودة في حج العام القادم بصحبة والده. ويبدو أن الطرفين قد تجاوزا خلافاتهما إلى الأبد، علماً أن لديهما كل الأسباب الدينية والدنيوية التي تجعل كل فريق يكره الآخر، وعلى أي حال وبعد مضي اثني عشر شهراً انطلق «عبد العزيز» من الدرعية وكان عمره آنذاك ثمانين عاماً، وبعد مسير دام مدة سبعة أيام شارك فيه ابنه الأمير «سعود» وعدد كبير من أهالي الدرعية، شعر «عبد العزيز» لدى وصول القافلة إلى «الدوادمي» بوعكة صحية، وقرر أن يعود إلى الدرعية وكلف ابنه «سعوداً» بأن يحج نيابة عنه.

ومرة ثانية حظي الأمير «سعود» بكل الحفاوة والترحيب من قبل شريف مكة. وفي هذه المرة قدّم الأمير «سعود» مبلغاً كبيراً من المال إضافة إلى الهدايا وطلب توزيعها على فقراء الحرمين، ثم عاد إلى الدرعية وهو مسرور جداً بعلاقات الصداقة التي تبدو قد ترسخت جذورها بين جيرانه من الناحية الغربية.

استمر تعليق أو تعطيل العمليات العسكرية لمدة عامين: أو على الأقل يمكن القول إنه لا توجد وثائق تاريخية تدل على حدوثها - ويبدو أن الهدنة التي اقترحها «غالب» قد طبقت ضمنياً على كافة الجبهات. لكن يبدو أن «سعوداً» كسر طوق هذا السلام أخيراً وأعد حملة خلال شتاء عام ١٨٠١م/ ١٨٠٢م

واتجه بها نحو الحدود العراقية، وبعد المناوشات المعتادة المتقطعة وغير الهادفة ضد «المنتفق» و «الظفير» وجد نفسه في شهر أيار من عام ١٨٠٢م أمام مدينة «كربلاء» المتميزة دينياً بالنسبة للشيعة. وبعد أن حاصرها لفترة وجيزة شن عليها هجوماً عاصفاً، وقضى على المظاهر الشركية التي كانت تعلو القبور، وسويت قبابها بالأرض وفق تعاليم الدين الإسلامي، وحمل ما فيها من مجوهرات وبعد ذلك عاد سعود إلى الماء المعروف بالأبيض، وهناك عسكر «سعود» ليحصي الغنائم وليوزعها وفق الأسلوب التقليدي المعروف. عاد بعد ذلك إلى الدرعية ليتلقى تهاني والده وتهاني أهالي الدرعية على نجاحه في أول ضربة شجاعة جاءت لتخدم دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية والتي وجهها «سعود» ضد نظام كان في نظر أتباع الشيخ تجسيداً حياً للشرك. كانت تلك -بالتأكيد- عملية وصلت أصداؤها إلى مسافات أبعد من حدود الطائفة الشيعية، لكنها ربما كانت بداية انطلاقة ثورة ضد قادة دعوة الشيخ محمد، وبالفعل أسفرت عن نتائج مفجعة بالنسبة للحكم السعودي. وسرعان ما تمت ممارسة المنهج الذي استخدم ضد «كربلاء» في المدن الإسلامية المقدسة في الحجاز. وكانت تلك الممارسة مقدمة لبدء موجة أعمال الانتقام، إذ قام أحد ضحايا الأعمال التي وقعت في «كربلاء» بتوجيه أول انتقام لما لحق بمقدسات الشيعة في كربلاء.

وفي حوالي منتصف شهر أيار من عام ١٨٠١ كان حاكم مسقط «سلطان ابن أحمد بن سعيد» يعد حملة بحرية ضخمة، توجه سلطان بتلك الحملة ضد جزر البحرين التي لم يواجه أي صعوبة في نزعها من أيدي زعماء آل خليفة «العتوب» الذين كانوا قبل حوالي نصف قرن قد استولوا عليها من فارس.

ناشد زعيم آل خليفة السلطة في الدرعية أن تقدم له المساعدة لاسترداد تلك الجزر، وبعد نضال عنيد تم طرد الغزاة من الجزر وتكبدوا خسارة في الأرواح بلغت ألفي رجل.

وإذا رجعنا إلى المجرى الرئيس لأحداث الدولة السعودية التي تمت عام ١٨٠٢م وإلى الفترة التي شهدت موت زعيم عتيبة «حمود بن ربيعان»، إضافة إلى موت «سليمان باشا» المروع وقد خلفه «علي كيخيا» في الولاية على بغداد، نجد أنه حدث تَرَدٍّ في العلاقات بين الدرعية ومكة. ويعود سبب ذلك التردي إلى حادثة لا يمكن أن يلام بسببها أي من الشخصيات الرئيسة من كلا الجانبين، علماً بأن النتائج التي ترتبت على ذلك الحدث زعزعت الانفراج الهش في العلاقة بين الطرفين، والذي برز إلى حيز الوجود إثر هزيمة «غالب» في منطقة «الخرمة». قام «غالب» ولأسباب مجهولة بعزل كبير وزرائه «عثمان ابن عبد الرحمن المضايفي» الذي توجه إثر ذلك إلى الدرعية ليقدم خدماته وولائه للدولة السعودية. وبعد أن استقبله «عبد العزيز» وكذلك «سعود» بالترحاب كحليف واعد، رجع «عثمان» إلى ديرته «العبيلاء» الواقعة عند سهول مرتفعات الطائف، وهناك سرح كافة بدو الحجاز التابعين للشريف غالب من الخدمة. وجمع حوله نواة جيش يمكن أن يساعده في أي عمليات عسكرية يمكن أن يقوم بها السعوديون ضد الشريف غالب سيده السابق.

قام «غالب» بمبادرة الهجوم على «العبيلاء»، إذ قاد قوة ضخمة تشتمل على أعتى القوات النظامية، إلا أنه فشل في التأثير على المتمردين وتراجع إلى الطائف ليعيد تجميع قواته، وفي أعقاب ذلك تلقى «عثمان» استجابة رائعة لطلبه تأمين تعزيزات تساعده على الهجوم على قوات الشريف، إذ قدم «سالم بن شكبان» لنجدته على رأس فرقة من «بيشة»، كما تقدم

«مسلط بن قطنان» على رأس قوة من «سبيع» المستوطنين في مناطق «رنية» أما حمد بن يحيى فقد جلب البقوم من تربة. وكان «هادي بن قرملة» في المقدمة على رأس محاربين من قحطان ومن عتيبة. زحف «عثمان» بقواته نحو الطائف التي كان «غالب» قد عززها وحصنها للدفاع عنها، إلا أن منظر الأعداد الضخمة التي احتشدت ضده أملت عليه التراجع؛ ولذلك سحب قواته النظامية إلى مناطق آمنة في مكة، تاركاً مدينة الطائف تحت رحمة أعدائه الذين احتلوها دون أية مقاومة عملية.

وعندما وصلت أخبار هذه التطورات المرضية إلى «سعود» استدعى كافة القوات السعودية من القبائل والحضر، وتقدم بها إلى «السبلة» بالقرب من «الزلفي» وهناك بقي لفترة قصيرة ليرتب قواته. تابع بعد ذلك مسيره ووصل إلى مشارف الحجاز في نهاية شهر آذار من عام ١٨٠٣م وعسكر بقواته بالقرب من آبار «عشيرة» في وادي «العقيق» وقد مكنه ذلك الموقع من السيطرة على الممرات الجبلية المؤدية إلى سهول مكة، وكانت تلك فترة يؤدي المسلمون فيها فريضة الحج، وكان الحجاج من سوريا، ومصر، والمغرب، إضافة إلى الحجاج المرافقين لسلطان مسقط متجمعين في مكة أيضاً. وكانوا -بالطبع- مسلحين وبإمكانهم صد أي غزو عليهم، على أنهم أبدوا في البداية استعداداً لشن هجوم وقائي إلا أن مجالسهم اختلفت في الرأي، وأخيراً قرروا العودة إلى ديارهم مادامت الطرق الساحلية كانت لا تزال مفتوحة أمامهم.

أصاب الذعر «غالب» وسحب قواته النظامية من مكة وتراجع بها إلى «جدة» وأخذ معه كل ممتلكاته ومخزونه من المؤن.

حل «سعود» معسكره وتوجه بقواته إلى منطقة «السيل الكبير» وهناك اغتسل السعوديون وأحرموا استعداداً لدخول مكة وأداء الشعائر، وبالفعل دخلوا مكة دون أية مصادمات وأعلن «سعود» عفواً عاماً عن الأهالي، ووزع الهبات والصدقات السخية على الناس قاطبة بدون استثناء، وأدى رجاله شعائر العمرة. وبعد ذلك مباشرة نشر «سعود» قواته من أجل المهمة التي كان يعتقد أنه مُثاب عليها، وهي البحث عن القباب التي بنيت فوق قبور الصالحين والصالحات في صدر الإسلام والعمل على إزالتها.

استمر السعوديون في هذا العمل لعدة أسابيع، لدرجة أن أي بناء مخالف في الشكل للتعاليم الإسلامية تَعَرَّض أيضاً للزوال وتحول إلى أنقاض.

كان «غالب» في تلك الفترة يحاول كسب الوقت لتعزيز مواقعه حول «جدة»، وبالتالي يتسنى له تحميل كل ما هو ثمين من ممتلكاته على السفن الراسية في الميناء لتكون جاهزة إذا اقتضت الضرورة. وكان أيضاً يرسل الرسل إلى «سعود»، ويقترح إجراء تسوية ودية لخلافاتهم، لكن «سعوداً» بعد أن عين «عبدالمعين بن مساعد» أميراً على مكة (وهو أخ لغالب)، تقدم بقواته نحو «جدة» على أمل الاستيلاء عليها بهجوم خاطف، لكنه بعد أن وجد أن التحصينات حول «جدة» كانت قوية للغاية، ولا يمكن مهاجمتها بشكل مباشر نظراً لأن «غالباً» كان قد بنى حولها سوراً وحفر حوله خندقاً من الماء، قرر أن يرجع إلى «مكة». وفي مكة وضع في كل حصن من حصونها حاميات عسكرية قوية، وبعدها رجع إلى «نجد» في منتصف صيف عام ١٨٠٣م، وبقي في الدرعية دون القيام بأي نشاطات عسكرية.

إن الاستيلاء على مكة واحتلال جنوب الحجاز باستثناء «جدة» لم يترك للسعوديين الكثير من العمل الذي يجب إنجازه ليتم به إنهاء الإنجازات الباهرة التي حققها «عبد العزيز» خلال فترة حكم له زادت على ٣٨ سنة. علاوة على تلك الفترة المليئة بالأعمال النشطة والتي امتدت لأكثر من نصف قرن كان خلال السنوات الأولى منها الساعد الأيمن لوالده في كل حملاته وغزواته المحلية التي أرست الأسس التي توجب عليه أن يبني عليها صرح إمبراطوريته الخاصة به.

بلغ «عبد العزيز» في هذه الفترة سن اثنين وثمانين عاماً، لكن المرض الذي أصابه قبل عامين ومنعه من تحقيق أمنيته في حج بيت الله، كان مؤثراً على تردي صحته في آخر أيامه، ويقال إنه في آخر أيامه أصيب بسكتة دماغية، وكان الناس يدعون له بالشفاء، وكانوا يوزعون الصدقات بسخاء وجود على كافة الفقراء في المدن والقرى التابعة لحكمه، وعلى أي حال لم يكن مقدراً لحكمه أن يدوم لفترة أطول من ذلك، علماً بأن الطريقة التي انتهى بها حكمه كانت غير متوقعة ومأساوية: حدث أن كان «عبدالعزيز» في وسط الصف الأول من المصلين الذين كانوا يؤدون صلاة العصر إما في اليوم الثاني (أو الثالث أو الرابع) من شهر تشرين أول (أكتوبر) في المسجد الكبير في «الطريف» والتي تعد قلعة الدرعية، إذ قام أحد الغرباء -الذي اعترف بأنه كان من «الدراويش»- بالهجوم على «عبد العزيز» أثناء السجود. كان ذلك الرجل جالساً في الصف الثالث من صفوف المصلين ومباشرة خلف «عبد العزيز»، وفجأة ألقى بنفسه على «عبد العزيز»، وطعنه بسكين في

ظهره نفذت إلى معدته، وكان أخوه «عبد الله» ساجداً في تلك اللحظة بجانبه، وحاول ذلك الرجل قتل «عبد الله» أيضاً فأصابه بجرح بليغ إلا أن عبد الله شهر سيفه بسرعة وضرب ذلك الرجل وهرع باقي المصلين وأجهزوا عليه. أصيب الناس في المسجد بالذعر إلا أنه سرعان ما عاد الهدوء إلى المسجد عندما علم الناس حقيقة الأمر. أرسل رسول إلى «سعود» الذي كان في حينها في مزرعة «مشيرفة» وتم استدعاؤه إلى الدرعية. كان «عبد العزيز» فاقداً للوعي لكنه على قيد الحياة ثم نقل إلى قصره، لكنه لم يعش طويلاً وفارق الحياة بعد حين.

لم يكن بالإمكان رد الحياة إلى الميت، كما أن القاتل كان قد نفذ فعلته. ولدى وصوله إلى مسرح الجريمة تولى «سعود» زمام الأمور، وأخذ يعزي الناس بفقدان الزعيم العظيم، ويطلب منهم الهدوء والحرص على واجباتهم تجاه الدين الإسلامي، وبعد ذلك وفي المكان نفسه جدد الموالون المخلصون له البيعة والولاء بمناسبة تعيينه وريثاً للعرش.

يعتقد أن المقصود من محاولة الاغتيال تلك كان شخص الأمير «سعود» ويقال إن ذلك انتقاماً من الأعمال التي قام بها في «كربلاء»، وهي موطن القاتل. والمقولة الأخرى وهي الأقل احتمالاً أن القاتل كان من أكراد «العمارية»، التي تقع بالقرب من «الموصل» ويدعى «عثمان»، ويقال إن الدافع وراء إقدامه على ذلك العمل غير معروف، باستثناء فرضية مفادها أنه قبض مبلغاً من المال ليقوم بذلك العمل لعدم توافر أي سبب ديني آخر يدفعه إلى القيام به، وذلك لكونه سنياً وليس من الشيعة.

وينظم «ابن بشـــر» قصيدة شـعبية ملحمية يصور فيها في معرض نعيـه لـ «عبد العزيز» ظروف وأحوال نجد خلال فترة حكمه. ونادراً ما ضـمنت الحمـلات والغزوات التي حدثت خلال النصف الأخير من القرن الثامن عشر الميلادي تنفيذ البيانات التي صدرت عن «عبد العزيز» بخصوص الأمان المطلق حيال مفاجآت الزمن والتأمين على الممتلكات في كافة أرجاء مملكته، وخاصة المترامية الأطراف منها حيث كان من الممكن أن تترك الجمال والخيول ترعى دون حراسة أو بحراسة رجل واحد. ومما لا شك فيه أن هدف «عبد العزيز» و «سعود» تجسد في العمل بشكل دؤوب لا يعرف الكلل من أجل تحقيق تلك المثل، لكن كان مقدراً لتلك المثل أن تكون من نصيب الأجيال التالية المقدر لها أن تعمل على تحقيقها في الجزيرة العربية.

هذا ولا غبار على الإطلاق في مدى ورع وإحسان «عبد العزيز»، لكنه عاش عمره في عالم مليء بالشر، كما أن المهمة التي كلف نفسه بها -وهي «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»- كانت تتطلب ذراعاً قوية لتحمي وتدافع عن الضعفاء ضد الأقوياء. كان يضع تلك المهمة نُصب عينيه دون تردد أو خوف، في حين كان صبره على ثورة المتمردين ضد سلطته (حتى تحت أحلك الظروف) بارزاً ومتميزاً مثل تميز نجاحه في اللجوء إلى القوة في ترويض أشرس الرجال وإخضاعهم إلى سلطته. كان الناس يدفعون الجزية له باستمرار تحت طائلة فرض عقوبات جوهرية في حال تأخرهم أو تهربهم من دفعها، كما أن الناس كانوا يلبون دعوته (سواء في القرى أو في القبائل) للانضمام إلى القوات المقاتلة التي كان من حق الدولة تأمينها لخدمة الأغراض العسكرية... لبى الناس الدعوة تحت طائلة فرض عقوبات على المتخلفين.

لم يزودنا المؤرخ «ابن بشر» بتفاصيل كاملة عن المصادر والموارد الاقتصادية للدولة في أيام «عبد العزيز»، لكنه زودنا فقط ببعض المعلومات عن هذا الموضوع، وذلك ليوضح الوسائل التي كانت متبعة في تمويل احتياجات الحكومة. فعلى سبيل المثال يقول «ابن بشر»: إنه في سنة من السنوات وصلت أموال الجزية التي دفعتها قبيلة «مطير» إلى ٣٠ ألف ريال (أي حوالي ثلاثة آلاف جنيه إسترليني من الذهب)، وحدث أنه في العام نفسه دفع البدو إلى الخزينة المركزية مبلغاً قدره ٤٠ ألف ريال، ودفعت قبيلة «هتيم» الأقل شأناً وحدها مبلغاً وصل إلى سبعة آلاف ريال.

وبالإضافة إلى هذه الضرائب النظامية التي كانت تُفرض على الماشية وواحات النخيل والمحاصيل الأخرى (والتي لا تتوافر لدينا معلومات عنها)، فقد جلبت الحملات العسكرية المتكررة التي كانت السلطة السعودية تنظمها مبالغ كبيرة إلى خزينة الدولة. وكان لخزينة الدولة الحق في خمس غنائم الحرب. ولهذا يبدو أن الدولة السعودية كانت في حالة جيدة لكنها متواضعة، لأن نفقات المؤسسات والمنشآت الدينية والتربوية كانت تمتص نسبة كبيرة من عائدات الدولة، ناهيك عن أعمال ونفقات الصدقات والتبرعات الخيرية. وعلاوة على ذلك كان من الصعب تجنب التكاليف المترتبة على كرم الضيافة. ظل نمط الحكم وإدارة شؤون الناس الذي جاء وريث ظروف وأحوال سادت في الجزيرة العربية على مدى قرون عديدة سبقت الحكم السعودي، على الحالة التي كانت متبعة في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي. . . واستمر حتى يومنا هذا، لكن لا بد من أن تطرأ بعض التعديلات على كافة جوانب هذا النمط نظراً لتدفق الخيرات التي تميزت بها الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية.

كان الناس يفهمون وببساطة أن ليس لديهم أي سبب اقتصادي يدعو إلى عدم الرضا على حكامهم، إذ تعرضوا في الماضي لكوارث طبيعية مثل المجاعة والجراد ووباء الطاعون. أدرك الناس أيضاً أن حكامهم كانوا يرقون إلى سدة الحكم أو كانت تتم الإطاحة بهم نتيجة أسباب شخصية وليس نتيجة أسباب اقتصادية. ولا تزال بعض معالم الأسلوب القديم سائدة بالرغم من التحديث الذي طرأ على ظروف الحياة، ومثال ذلك التزام الدولة بتقديم الخدمات المالية غير العائدة بالربح عليها والمتعلقة بالخدمات الدينية وأعمال الصدقات وكرم الضيافة.

ولا تزال السلطة المركزية -كما كانت في السابق- مركزة في شخص الحاكم الذي كان له مطلق الحرية في اختيار الأشخاص الذين يسيّرون أمور مختلف دوائر الدولة وعلى أعلى المستويات، ولم يطرأ على ذلك النظام سوى تعديلات بسيطة لوحظت على صعيد الأمور التي كان من صلاحية القاضي والحاكم التصرف فيها (تماماً كما كانت الحال في أيام «عبد العزيز» الأول) والتي تستبعد تدخل الرسميين القائمين على جمع الأموال والإشراف على عائدات الدولة الواجب تحصيلها من مصادر ومناطق مختلفة.

وعليه فإن لمحة سريعة عن الإطار الإقليمي الذي استنبطه «عبد العزيز» للتعامل مع الاحتياجات الإدارية لمملكته، والذي أخذ شكله النهائي خلال فترة حكمه، تزودنا بملخصٍ وافٍ عن تفاصيل سجل النشاطات التي قام بها «عبد العزيز» والتي تعرضنا لها في هذا الفصل من الكتاب. وعليه جاء نظام الأقاليم وترتيبات مهام كبار الرسميين في الحكومة التي آلت من بعده إلى ابنه «سعود» على الشكل الآتي:

اسم الإقليم	اسم الحاكم	اسم القاضي
عسير تهامة	عبد الوهاب أبو نقطة	-
الحجاز	عثمان بن عبد الرحمن المضايفي	-
عُمان	صقر بن راشد من رأس الخيمة	-
الأحساء	سليمان بن محمد بن ماجد	-
القطيف	أحمد بن غانم	-
الزبارة والبحرين	سلمان بن خليفة	-
وادي الدواسر	ربيع بن زيد الدوسري	سعيد بن حجي (الحوطة)
الخرج	إبراهيم بن سليمان بن عفيصان	محمد بن سويلم
المحمل	ساري بن يحيى بن سويلم	-
الوشم	عبد الله بن حمد بن غيهب	عبد العزيز بن عبد الله الحصين
سدير	عبد الله بن جلاجل	حمد بن راشد العريني
القصيم	حجيلان بن حمد (بريدة)	عبد العزيز بن سويلم
جبل شمر	محمد بن عبد المحسن بن فايز بن علي	-
الدرعية	-	حسين بن محمد بن عبد الوهاب وأخوه عبدالله بن محمد
الإقليم التابع للإمام	إمام القصر	عبد الرحمن بن خميس
المجمعة (منيخ)	تحت حكم سدير	محمد بن عثمان بن شبانة
الحوطة، والحريق، والأفلاج	تابعة للخرج	سعيد بن حجي (الحوطة)
بيشة	سالم بن شكبان	-
رنية	مسلط بن قطنان	-
تربة	حمد بن يحيى	-

ملاحظة : الفراغات التي يشار إليها بخط (-) تدل على أنه لا يوجد شخص يشغل ذلك المنصب بشكل دائم. وعادة كان مثل ذلك المنصب يشغل من قبل القاضي الذي يتم إرساله من قبل القيادة العليا لمدة عام أو نحوه.

الفصل الرابع

سعود الثاني (ابن سعود)

سعود الثاني (ابن سعود)[(١)]

كان عمر الأمير «سعود» عند تولي الحكم في الدرعية خمسة وخمسين عاماً، وكان جده الأكبر يدعى بهذا الاسم، وقد أطلق هذا الاسم أيضاً على السلالة الحاكمة قبل عهد الدعوة السلفية. كان الأمير «سعود» على اطلاع مباشر بالتوجيهات العليا لشؤون الدولة في عهد حكم والده، وبدأ اطلاعه على تلك الشؤون منذ أن نودي به وريثاً للعرش في عام ١٧٨٨م، واستمر اطلاعه على شؤون الدولة مدة خمسة عشر عاماً، وله سجل حافل بالأعمال العسكرية التي غطت فترة دامت ٣٦ عاماً كان أولها مراسه وحنكته في الحملة العسكرية الناجحة ضد «عودة سدير» والتي كانت تحت قيادة ابن عمه اللزم «هذلول بن فيصل بن محمد» عام ١٧٦٧م. ومنذ ذلك التاريخ كان «سعود» في معظم الأوقات قائداً للقوات التي بعث بها والده لأغراض متعددة على مدى فترة حكمه. وهكذا كانت له خبرة رائعة في خوض الحروب وفي إدارة شؤون الدولة التي آلت جميعها إليه ليتمم ما بدأه والده، فشهدت فترة حكمه ذروة إنجازات الدعوة السلفية.

وها هو «سعود» مجدداً يمتطي صهوة حصانه متوجهاً خلال الأشهر الأولى من عام ١٨٠٤م شمالاً نحو «التنومة» في إقليم «القصيم». وهناك حشد رجال قبائله ومحاربيه من تلك المنطقة استعداداً لحملة فصل الربيع. مكث «سعود» هناك حتى نهاية شهر آذار واحتفل بأيام عيد الأضحى المبارك، وبعد انتهاء فترة العيد أعلن بشكل مفاجئ عن قراره بالعودة إلى الدرعية، وعليه سمح لكل الفرق العسكرية من مناطق الشمال بما فيها فرقة

(١) المقصود الإمام سعود بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود. (المراجعون).

«الظفير» بالراحة وبالذهاب إلى ديارهم، لكنه قاد بقية قواته متجهاً جنوباً إلى الدرعية. ونظراً لأنه كان أمام فرقة «الظفير» سفر طويل قبل الوصول إلى ديارهم على الحدود العراقية، ونشر خبر عودته إلى «الدرعية» فقد قام فجأة وغير وجهته وانطلق بقواته بالسرعة القصوى إلى «البصرة»، وعندما وصل إلى المناطق المجاورة لها اشتبك مع فرقة من خيالة «المنتفق» كانت تحت إمرة «منصور بن ثامر»، وتمكن من دحرها ومن أسر قائدها «منصور» وأرسله إلى أحد السجون في الدرعية، وبقي فيه مدة أربع سنوات، وإثر هذه الواقعة عرج «سعود» بقواته على «الزبير»، وأرسل جماعة من قبائل البدو الرحل لتهديد المناطق المحيطة بالبصرة، لكن السكان أغلقوا أبوابهم على أنفسهم ولم يغادروا تلك المناطق، وقد صَعَّد «سعود» من حشود قواته لتعزيز الحصار على «البصرة»، وقام خلال فترة الحصار بإزالة القباب المبنية فوق القبور في المقابر الواقعة وراء جدران المدينة، وهدم كل المجسمات المقدسة هناك بما فيها هدم مزاري «الحسن» و«طلحة» اللذين لم يُعد ترميمهما إلا بعد سقوط الدرعية.

هاجم «سعود» في تلك الفترة أيضاً قلعة «الدريهمية» ودمرها وقتل كافة رجال الحامية العسكرية التي كانت بداخلها. وعند غروب شمس ذلك اليوم أمر كافة الجنود والرماة على مدافعه بإطلاق النيران دفعة واحدة. أدخل دوي الطلقات الرعب في قلوب أهالي المدينة المحاصرة، إلا أنهم لم يظهروا أية بوادر ضعف. وبعد حصار غير مجد دام مدة اثني عشر يوماً، أمر «سعود» قواته بالتراجع والعودة إلى الدرعية. لكن قبل عودته أمر جنده بجمع المحاصيل، التي كانت في ذلك الوقت قد نضجت وعلى وشك الجني.

وخلال تلك الفترة تقريباً كان سلطان مسقط المدعو «سلطان بن أحمد بن سعيد» قد قتل في اشتباك بحري مع قراصنة «القواسم»[1] من منطقة «رأس الخيمة» وخلفه في الحكم أخوه «بدر». وجد «سعود» آنذاك أنه من الضروري إعادة النظر في بعض الترتيبات الإدارية التي كان والده قد أقرها في بعض الأقاليم، وعليه أمر بنقل «إبراهيم بن عفيصان» من «الخرج» إلى «الأحساء» ليحل محل «سليمان بن محمد بن ماجد» الذي قرر «سعود» إقالته من منصبه.

لكن لعل من أبرز التطورات التي شهدها ذلك العام، والتي تركت أثراً على مستقبل الجزيرة العربية، كان مجيء «محمد علي باشا» إلى السلطة في مصر. لم يكن في تلك الفترة سوى قائد للقوات التركية هناك. لكن بسبب انزعاجه من حادثة تافهة تتعلق بإيقاف أو تأخير توصيل المؤن والرواتب إلى القوات العثمانية، قام بقتل «محمد باشا» حاكم مصر آنذاك ومزاولة مهام الحكم من بعده إلى أن يأتي إقرار بذلك الوضع من الصدر الأعظم، وفعلاً أقر الصدر الأعظم سلطة «محمد باشا» كحاكم على مصر وثبته في الحكم.

وفي ربيع عام ١٨٠٥م ووسط تقارير مفادها أن عرب «الظفير» أصبحت تتساهل في الأمور والواجبات الدينية، وأنها تشارك بعض القبائل في الهجمات على القبائل التابعة للدولة السعودية، قرر «سعود» ترتيب وإعداد حملة تأديب واسعة. وعند وصوله إلى منطقة «لينة» في الجانب العراقي من صحراء «الدهناء» حيث كانت جماعة «الظفير» معسكرة هناك، وطلب

(١) اتهام القواسم بالقرصنة تهمة بريطانية غير صحيحة، روجوا لها تبريراً لتدخلاتهم وفرض نفوذهم في الخليج العربي. (المراجعون).

الأمير «سعود» -كما هي العادة- من تلك الجماعة الانضمام إلى قواته، فلم تستجب لندائه سوى فرقة صغيرة كانت تحت إمرة زعيمها «مسلط بن الشايوش بن عفنان». وعندما علق «سعود» على قلة عدد أفراد القوة التي لبت النداء وذبح زعيم القبيلة، رد «مسلط» قائلاً: إن باقي رجال القبيلة لم يعودوا يعترفون بسلطة «سعود» عليهم وأنهم ينوون مهاجمة قبيلة «مطير» منتهكين بذلك الوعود التي قطعوها على أنفسهم للأمير «سعود» الذي قام قبل فترة قصيرة بالتدخل وتسوية الخلاف فيما بينهما.

تحرك «سعود» بقواته نحو الحدود العراقية، لكنه غيّر وجهته فجأة وعاد ليلقي بكامل ثقل قوته على معسكر «الظفير» وتمكن في ذلك الهجوم من قتل عدد كبير منهم، وفر العدد الآخر هائماً على وجهه في الصحراء، كما استولى على كافة ممتلكاتهم التي شملت غنائم طائلة من الجمال والغنم والخيول والخيام والمؤن ومعدات في المعسكرات.

عاد «سعود» بعد ذلك الغزو إلى الزلفي وهناك وزع غنائم الحرب على المقاتلين. اتضح فيما بعد أنه كان في حوزة جماعة «الظفير» عدد كبير من الجمال والأغنام العائدة ملكيتها إلى عدة جماعات من قرى «سدير»، لذلك قام «سعود» بإعادة هذه الجمال والأغنام إلى أصحابها بناءً على ما قدم له من أدلة وبراهين مقنعة.

حوّل «سعود» بعد ذلك اهتمامه إلى مناطق الحجاز، وهناك شيد قلعة في وادي فاطمة وعززها بحامية عسكرية لممارسة الضغوط على «غالب»، إضافة إلى أن قلعة السعوديين في «الزيمة» الواقعة في وادي اليمانية عند النقطة التي تشرف على مدخل وادي فاطمة، كانت أيضاً مستهدفة. تلقى

«عبدالوهاب أبو نقطة» أمير تهامة عسير أوامر بالتوجه إلى «جدة» بكل ما لديه من قوات متواجدة في تلك المنطقة. بلغ تعداد تلك القوة ٦٠٠٠ رجل وعسكر بهم في منطقة «السعدية» القريبة من الساحل، والتي تبعد مسيرة يوم ونصف على ظهر الجمال.

تجلت ردة فعل «غالب» بأن قام على الفور بالتوجه بقوة ضخمة (يقال إن تعداد رجالها بلغ عشرة آلاف رجل) لمهاجمة «أبي نقطة» مستبقة وصول أية تعزيزات إضافية له. وفي الطريق اصطدمت قوات «غالب» مع قوة من «عسير» قوامها أربعون رجلاً تمكنوا من القضاء عليهم عن بكرة أبيهم؛ إلا أن منازلة قوات أبي نقطة كانت أمراً مختلفاً تماماً، إذ تمكنت قوات أبي نقطة من دحر قوات «غالب» وإجبارها على الفرار مخلفة وراءها كل ممتلكاتها وعدد معسكراتها وأسلحتها وذخائرها ومدافعها، وسقطت جميعها غنيمة في أيدي رجال أبي نقطة، ويقال إن عدد الأسلحة الخفيفة وبنادق الفتيل (الدك) بلغ ٢٥٠٠ قطعة، وبلغ عدد القتلى من رجال «غالب» ٦٠٠ قتيل معظمهم من الأتراك (العثمانيين).

فر «غالب» إلى مكة وعاد «أبو نقطة» إلى بلده مسروراً، علماً بأنه لم يصل إلى «جدة» التي كانت في الأصل النقطة المستهدفة لحملته. وبالمناسبة نقول هنا إن «ابن بشر» لم يشر إلى وجود «غالب» في مكة، لكن تدل كتبه التاريخية على آخر ما عُلم عن «غالب» أنه كان في «جدة» عندما عاد «سعود» إلى «نجد» بعد أن انتهى من تثبيت حاميات عسكرية في قلاع مكة. يقال أيضاً بأنه ذهب فيما بعد إلى مكة، وليس لدينا علم فيما إذا استمرت الحامية السعودية في التمركز بتلك القلاع أم لا.

في تلك الفترة كانت كافة المناطق في الجزيرة العربية على أعتاب موجة قحط ومجاعة، ويعزو الناس - ومنذ القدم - نقمة تلك المجاعة إلى اغتيال الإمام «عبد العزيز». بدأ جفاف موسم شتاء عام ١٨٠٤م/ ١٨٠٢م واستمر مدة ست سنوات (ويقول بعض كبار السن إنها استمرت مدة تسع سنوات). عانى الناس خلال تلك الفترة في كافة مناطق الجزيرة العربية من شظف العيش الذي تجلى بأحلك حالاته في مناطق الحجاز. ويعود السبب في ذلك إلى قطع السعوديين اتصالاتهم مع تلك المناطق التي كان الأشراف آنذاك يحكمونها.

وصلت الأسعار في تلك الفترة إلى مستويات خيالية لا يمكن تصورها، وشملت كافة مستلزمات الحياة لدرجة أن الناس بدأت تأكل لحم الحمير ولحم الجيف والكلاب، ووصل سعر كيلو الزبدة إلى أربعة ريالات أو اثني عشر شلناً من الجنيه البريطاني. ويقول المؤرخ «ابن بشر» إن المناطق الأفضل حالاً نسبياً هي الدرعية والمناطق المحيطة بها، وكانت تُقارن - من باب المباهاة والتفاخر - بالبصرة والأحساء، وذلك يعني أن الناس هناك كان بإمكانهم الحصول على التموينات والإمدادات من خارج حدود الجزيرة العربية.

وفي فصل الخريف من ذلك العام قرر «سعود» أن يكثف ضغوطه على «غالب» فأرسل أوامره إلى «عبد الوهاب» وإلى «سالم بن شكبان» وإلى «عثمان المضايفي» للإعداد لحملة كبيرة جداً الهدف منها الهجوم على مكة والمناطق المحيطة بها. كما أمر أن تبقى القوات هناك لحين وصول قوافل الحج من دمشق، والتي كان دخولها إلى مكة ممنوعاً إذا كانت مسلحة. وجد

«غالب» نفسه عاجزاً عن مقاومة مثل تلك القوات الضخمة؛ ولذلك بدأ يعمل على الفور من أجل التوصل إلى اتفاقيات سلام، ووعد بأن يتوجه شخصياً إلى الدرعية بعد انقضاء موسم الحج ليقدم الطاعة والولاء للحكم السعودي. وافق القادة السعوديون على طروحات «غالب»، ودخلت قوافل الحجيج إلى مكة دون أية ممانعات، كما أدى «عبد الوهاب» و «عثمان» فريضة الحج بنفسيهما.

اجتمع بعد ذلك «عثمان» بـ «غالب» وقدم له «غالب» الهدايا القيمة، فما كان من «عثمان» إلا أن سحب قواته وقفل راجعاً إلى بلده، ولم يقتصر ذلك على «عثمان» فحسب، بل قام بفعل الشيء نفسه، «سالم بن شكبان» الذي أصيب بمرض خلال وجوده في مكة، إلا أنه مات بعد فترة قصيرة من وصوله إلى «بيشة»، وخلفه ابنه «فهاد» في الحكم. استمر «غالب» في مراسلة الأمير «سعود»، وتوصلا إلى عقد سلام بينهما على أساس أن يعرب «غالب» عن كامل ولائه وطاعته لنصرة الدعوة السلفية، وعليه تم رفع المقاطعة والحصار، وعادت المياه إلى مجاريها مرة ثانية، وأصبح باستطاعة مكة والحجاز أن تتواصلا مع مصادر المؤن والتموينات من المناطق الداخلية، وهبطت الأسعار إلى مستويات معقولة وسارت الأمور على ما يرام.

لكن على ما يبدو لم تكن نوايا «غالب» سليمة، فوصلت أخبار إلى الدرعية عن تطورات في الأمور بلغت حد نقض التفاهم الذي تم التوصل إليه، وبموجب مزاعم مفادها أنه بناءً على أوامر تلقاها «عبد الله باشا العظم» أمير الحج من الصدر الأعظم، تم إبقاء بعض القوات التركية (العثمانية)

والمغربية في منطقة الحجاز، ولم يسمح لها بالعودة مع الحملة الشامية التي رافقتها في القدوم إلى مكة.

ومن بين الملاحظات التي سُجلت ضد «غالب»، تحصينه لأسوار «جدة» وحفر خنادق خلف تلك الأسوار وملئها بالماء، وبدأ الناس أيضاً يعترضون على منع «غالب» للأجانب -بمن فيهم الزوار القادمون من مناطق «نجد»- من الدخول إلى تلك المناطق، ومن بين المآخذ عليه أيضاً أنه كان يقضي معظم وقته في «جدة»، وفي ضوء هذه المعطيات أصبح من الواضح أنه لا بد من مجابهته في الوقت المناسب، إلا أن الأمير «سعوداً» كان مشغولاً بقضايا أخرى، وبالتحديد قضايا لها علاقة بالمناطق الحدودية مع العراق، خاصة أن «سعوداً» لم يعد يثق ببدو «الظفير» الذين قاموا بالتعاون مع أصدقائهم باقتراف أعمال السطو والسرقة بحق الجماعات السعودية المعسكرة في مناطقهم. والأمر اللافت للنظر أنه وقع الخيار على «منصور بن ثامر» ليقود حملة للقضاء على تلك العناصر الغوغائية المتجمعة على الحدود العراقية، وجدير بالذكر أن «منصوراً» كان في تلك الفترة لا يزال من الناحية العملية أسير حرب في أحد سجون الدرعية.

قرر «سعود» أن تكون قيادة تلك الحملة مناصفة بينه وبين «غصاب» زعيم قبيلة عتيبة، وتوجه الاثنان بالحملة باتجاه «الظفير» وبالقرب من «حفر الباطن» شاهد قادة الحملة مجموعة غزو تقدر بمئة وعشرة رجال ترد مياه «فليج»، فهاجمهم السعوديون وقتلوا منهم مئة وتمكن عشرة من الهرب.

ظهرت وبخطى متوازية مع هذه الأحداث تطورات بارزة على الساحة في المدينة المنورة، ونتيجة لهذه التطورات أعرب الناس عن خضوعهم للحكم

السعودي، وفعلاً وافقوا على هدم كافة القباب المبنية فوق القبور وإزالة كافة المزارات في المناطق المجاورة. يذكر «ابن بشر» أن هذه التطورات بدأت في عام ١٢٢٠ هجري وبالتحديد قبل عقد الصلح الذي تم مع «غالب» خلال موسم حج ذلك العام، وباعتبار أن هذا العام الهجري بدأ في الأول من نيسان ١٨٠٥م وانتهى في عشرين آذار ١٨٠٦م، وكانت أيام الحج بين ٢٨ شباط وحتى الثالث من آذار، فبإمكاننا أن نفترض أن خضوع أهالي المدينة إلى الحكم السعودي جاء خلال أوائل صيف عام ١٨٠٥م، وجاء الصلح مع «غالب» في أوائل شباط من العام التالي. ومهما تكن حقيقة الوضع فيعود أصل ضم المدينة إلى الزيارة التي قام بها رجلان من «حرب» إلى الأمير «سعود»، وهما «بادي» و«بداي». وهذان الرجلان هما ابنا «بدوي بن مضيان» الذي وجد نفسه متجاوباً مع الدعوة السلفية. طلب هذان الرجلان من «سعود» أن يرسل معهما شيخاً ينورهم بتعاليم الدين وبمبادئ عقيدة التوحيد، فأرسل «سعود» معهما الشيخ «عثمان بن عبد المحسن أبا حسين»، ونتيجة لذلك تبنت هذه الجماعة موقفاً متشدداً من الحكم في المدينة، واتخذوا من مناطق «العوالي» مقراً قوياً لهم. وبناءً على أوامر تلقوها من الأمير «سعود» قاموا ببناء «قلعة» لهم وحصنوها وجهزوها، وانضم إليهم أهالي «قباء» وبدأوا يضايقون أهالي المدينة.

يقول «ابن بشر» في هذا السياق إنهم تمكنوا من عزل أهالي المدينة عن العالم الخارجي لعدة سنوات. كما عزز الأمير «سعود» مؤسستهم الدينية التربوية بأن فوض قاضي «الرس» الشيخ «قرناس بن عبد الرحمن» بأن يقوم بزيارتهم مرة كل عام. تعب أهالي المدينة من الحصار وبدأوا في مراسلة «سعود» وانتهى بهم الأمر كما أشرنا سابقاً إلى دخولهم في طاعته.

كان «سعود» منهمكاً في أعمال جهادية على الحدود العراقية، إذ قاد من هناك حملة لمهاجمة «مشهد» في «النجف»، ولم يكن من السهل اقتحام الأسوار القوية المدعمة بخنادق مملوءة بالماء، لذلك اكتفى المقاتلون السعوديون بتبادل نيران المدفعية على نحو متقطع، وبقي المدافعون متحصنين في أبراجهم وحصونهم، وسقط من بين المهاجمين عدد من القتلى. توجه «سعود» بقواته نحو «الهندية» و«هيلة» وهناك دارت المناوشات التي لم تفض إلى نتيجة مقبولة، وبدا واضحاً أن الاستمرار في المناوشات على ذلك النحو لن يجدي في تحقيق نتائج قيمة، لذلك توجه «سعود» بقواته جنوباً نحو «السماوة» وهناك غزا أطراف المدينة ومزارعها وألحق بالمنطقة أضراراً أخرى خلال المناوشات المتقطعة. وفي طريق عودته إلى «الدرعية» حاول النيل من أهالي «الزبير» إلا أنه لم يحقق الكثير من المكاسب.

سبَّب تطور الأحداث التي وصلت أخبارها من أقصى الجزيرة العربية (في بداية عام ١٨٠٦م أو أواخر عام ١٨٠٥م) قلقاً للدولة السعودية: ففي مسقط ثار ولدا «سلطان بن أحمد بن سعيد» الذي كان قد قتل على أيدي «القواسم» ضد عمهم «بدر» الذي خلف أباهما في السلطة، وتمكن الولدان من قتل عمهما «بدر» كما تمكن أحدهما وهو «سعيد بن سلطان» من اغتصاب الحكم. وفي منطقة «اليمن وتهامة» قرر زعيم ميناء الحديدة و«بيت الفقيه» أن ينضم إلى الدولة السعودية، وهكذا أوجدت الدولة السعودية لها أول قدم في «اليمن» دون أن تقوم بأية مبادرة أو جهد، علماً بأن العرب في كافة أنحاء العالم العربي كانوا يدرسون ويتمعنون بدقة في دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب. كان للأمير «سعود» تطلعات لضم نجران، فما كان

منه في نفس ذلك العام إلا أن أصدر أوامره إلى «عبدالوهاب أبو نقطة» وإلى أميري «بيشة» و «وادي الدواسر» بأن ينضما إلى قوات «عبيدة» و«سنحان» من قبائل قحطان في الجنوب، وإلى جماعة «وادعه» في شمال اليمن وبالتالي يقومون بهجوم مدروس على «نجران» والمناطق المجاورة لها. ولتحقيق تلك الغاية تم حشد قوة تقدر بـ ٣٠ ألف رجل، إلا أن إنجازاتها لم تكن متكافئة مع قوتها وكثرة عددها: ففي الواقع لم تتمكن تلك القوة من الوصول إلى مشارف «نجران» لأن القوات المدافعة تمكنت من صد تقدمها في منطقة «بدر» وهي مقر قيادة جماعة «المكرمي» وهي جماعة إخوان من الشيعة أو من الطائفة الإسماعيلية. تكبدت القوات السعودية هناك خسائر فاقت الخسائر التي تكبدها المدافعون. أمر «أبو نقطة» رجاله ببناء قلعة مواجهة لقلاع «المكرمي» المحصنة، وعزز تلك القلعة بحامية قوية على مستوى ذلك الحدث.

أجبرت نتائج ضم الحديدة إمام صنعاء على إرسال حملة عسكرية لاستردادها، وبعد حصار قصير تم فعلاً الاستيلاء عليها وعين ابن المشاكس «صالح» أميراً عليها[1]. وفي تلك الفترة كان «صالح» موجوداً في منطقة «بيت الفقيه» فنظم حملة للهجوم على «زبيد» وتمكن بعد أن صمدت قلعتها القوية أمام هجومه من الاستيلاء عليها وعلى ممتلكاتها. ووفق ما هو مقرر ومتبع أرسل «صالح» إلى الخزينة السعودية حصة الحكم السعودي من الغنائم ووزع باقي الغنائم بين جنوده قبل أن يعود إلى بلده.

(١) الصحيح أن صالحاً رئيس الحديدة قد عين ابنه أميراً على بندر الحديدة وهو كان في بيت الفقيه، وليس كما ذكر المؤلف هنا. (المراجعون).

وعلى ما يبدو حققت الدعوة السلفية بعض التأثير النفسي على أهالي اليمن في تهامة. كان الشافعيون منهم يكنون قليلاً من الحب للجماعات الزيدية التي كانت تعيش في المناطق المرتفعة. بلغ تعداد القوة التي أعدها «صالح» للهجوم على «الزيديين» حوالي ثلاثة آلاف رجل بالرغم من وجود جيش الإمام الذي كان مرابطاً في السهول الساحلية للبحر الأحمر. والجدير بالذكر هنا أن «بداي بن بدوي» بطل مرحلة المدينة هذه لم يعش طويلاً بعد هذا النصر، إذ سقط في العام نفسه ضحية مرض الجدري وحل محله زعيماً على قبيلة «حرب» أخوه «بادي»[١]. وبعد ذلك بفترة قصيرة توجب على «بادي» أن يرحب بأول زيارة يقوم بها «سعود» إلى تلك المنطقة التي كان له ولأخيه دور بارز في ضمها إلى الحكم السعودي.

قرر «سعود» أن يحج للمرة الثالثة لكنه أدرك أنه من الممكن أن تنشب بعض المتاعب بسبب تصرف «غالب» المريب والمشبوه، خاصة إذا قرر الصدر الأعظم أن يرسل قوات قوية من الأتراك والجنود النظاميين لترافق حملة الحج من الشام. ولهذا قرر اتخاذ بعض الاحتياطات وأطلع «أبونقطة» وبعض القادة الموثوق بهم على نيته في أداء فريضة الحج لذلك العام. أخبرهم بذلك الأمر قبل فترة طويلة من موسم الحج، أي مع نهاية شهر رمضان أو خلال الأسبوع الأول من كانون الأول عام ١٨٠٦م. ولم يغادر «سعود» الدرعية إلا عند حوالي نهاية كانون الثاني، علماً بأن الحج كان من الممكن أن يبدأ في الثامن عشر من شباط ١٨٠٧م بدأت تظهر بوادر خطته المحكمة إذ تجمعت

(١) الذي خلف بداي هو أخوه مسعود وليس بادي كما ذكر المؤلف. علماً أن بادي قد توفي قبل بداي وكان ذلك عام ١٢١٧هـ/ ١٨٠٢م. (المراجعون).

في المدينة حشود لاستقباله اشتملت على قوات من «عسير» و «بيشة» و «رنية» وعلى رأس كل قوة وقف أميرها، وكان «عثمان المضايفي» على رأس فرقة من سكان المناطق المرتفعة في «الطائف» إضافة إلى مجموعات أخرى من الحجاز والتي ألحقت بها فيما بعد قوات من «القصيم» بقيادة «حجيلان بن حمد»، وقوات من «جبل شمر» بقيادة أميرها «محمد بن عبد المحسن بن علي»، وفرقة «الوشم» التي انضمت إلى قافلة «سعود» بكامل قواتها من قبيلة «حرب» تحت زعامة «مسعود بن مضيان» و«جابر بن جبارة». قرر «سعود» أن تكون «المدينة» مكان ملتقى قواته ليقودهم من هناك في الوقت المناسب إلى «مكة» لأداء فريضة الحج. لكنه قبل الشروع في رحلته أرسل رسولاً إلى قادته في «المدينة» يطلعهم على تعليماته المشددة بعدم السماح للمحمل الذي يقل الحجاج من الشام بالدخول إلى «المدينة» أو مواصلة السير إلى «مكة». وبناءً على هذه الأوامر وعند اقتراب الحملة الشامية من الأماكن المقدسة، قام فريق بإخبار أمير الحملة «عبدالله العظم»، وبشكل لبق بأنه لن يسمح له بمواصلة المسير وطلب منه العودة مع رعاياه، وفعلاً عاد بالحملة لكن بعد احتجاج شديد اللهجة، وعاد معه إلى دمشق الحجاج الذين وصلوا إلى تلك المنطقة بعد عناء مسير خمسة أسابيع دون أن يحظوا حتى بالنظر إلى «المدينة» ناهيك عن رؤيتهم «لمكة».

لكن الأمير «سعوداً» أكد - وبدون أدنى شك - أن مكة والمدينة كانتا تحت مسؤوليته وليستا تحت مسؤولية «السلطان». وبعد أن أجبرت القوات التابعة لـ «سعود» الحملة الشامية على العودة إلى دمشق، أقامت معسكراً لها استعداداً للانضمام إلى قوات «سعود» التي انطلقت من الدرعية وبطريق

مباشر قاصدة «مكة». أدى «سعود» ورجاله فريضة الحج وسط خليط من الخشوع لله وعنفوان باد في عيون الرجال، وتلك كانت سمات الأوائل من السعوديين. ومن قصر «البياضية» الواقع على مداخل مكة والذي اتخذ منه «سعود» مقراً لقواته، وزعت الصدقات بشكل سخي. قدم «غالب» إلى ذلك القصر ليتشرف بالسلام على الأمير «سعود» وليجدد عهد الولاء الذي أساء إليه - تقريباً - طيلة مدة تزيد على عامين. توجهت كافة القوات التركية المتواجدة في مكة والمناطق المجاورة لها إلى «جدة»، وكان الشغل الشاغل لـ «سعود» في تلك المرحلة أن يكسو «الكعبة» قبل مغادرته مكة بالرداء الجميل المطرز بخيوط الحرير الحمراء والذي كان قد جلبه معه لهذا الغرض. وهكذا أنهى «سعود» رابع[1] حجة له.

وفي بداية شهر آذار من عام ١٨٠٧م غادر سعود مكة متوجهاً إلى المدينة وهناك كان همه الأول تقوية المواقع الدفاعية للمدينة والمناطق المحيطة بها ضد أي هجوم يمكن أن تقوم به القوات التركية لاسترداد المدينة. وعليه عمل على ترميم وإصلاح كافة القلاع المتهدمة، ووضع بها حاميات عسكرية وجعلها تحت القيادة العامة لرجل يدعى «حمد بن سالم» من العيينة. كما سرح «سعود» القاضي التركي (العثماني) القيِّم على مسجد الرسول، كما سرح عدداً من المشكوك في ولائهم له وعين مكانهم شخصيات موالية اشتملت على تعيين رجل من الدرعية في منصب رئيس دائرة عائدات الدولة هناك.

(١) الصواب: الحجة الثالثة. (المراجعون).

وبعد أن جلس في «المدينة» فترة لم تحددها المصادر التاريخية، أمر سعود بتسريح فرق الجيش وعاد خلال فترة الصيف إلى الدرعية. حدثت في تلك الفترة (أي عند قرابة نهاية شهر حزيران) ثورة في قصر الصدر الأعظم بإستانبول أسفرت عن عزل السلطان «سليم بن أحمد» وعين مكانه ابن أخيه «مصطفى بن عبد الحميد». وفي العام التالي نظمت مجموعة من كبار الرسميين ثورة مضادة استهدفت إعادة تنصيب «سليم» في الحكم، وكان «سليم» في تلك الفترة لا يزال نزيل السجن. وبناءً على توصيات مستشاري «مصطفى باشا» حُكم على «سليم» بالإعدام، فأبدى «يوسف باشا» زعيم تلك الحركة ردة فعل عنيفة حيال ذلك القرار، ونجح في إقالة «مصطفى باشا» وتنصيب أخيه الأصغر «محمود بن عبد الحميد» مكانه على العرش. ويقول «ابن بشر» في هذا السياق إن حكم «محمود بن عبد الحميد» استمر حتى عام ١٢٥١ هجري المصادف لعام ١٨٣٥/ ١٨٣٦ ميلادي، وهذا يدل على أنه بدأ الحكم في بداية عهد الإمام فيصل أو قبل عهده بقليل. وعند حديثه عن موت السلطان «محمود» لم يعقب «ابن بشر» ويصحح هذه الملاحظة[1].

وبالمناسبة يمكن القول إن السلطان «سليماً» قبل إقالته من منصبه، كان قد أقال «عبدالله العظم» من منصبه بصفته حاكماً للشام، ويفترض أنه أقاله بسبب انسحابه الجبان من المدينة، وعين مكانه شخصاً يدعى «يوسف الكنج» حاكماً للشام. وفي العراق أيضاً جاءت خاتمة أحد أعداء «نجد» والمدعو «علي كيخيا» على أيدي بعض خدمه إذ أقدموا على قتله. والجدير بالذكر هنا أن «كيخيا» كان قد خلف «سليمان باشا» والياً على «بغداد».

(١) لم يكن ابن بشر مخطئاً لأنه يتحدث عن عزل عبدالله العظم والي الشام قبل قتله، وليس عن السلطان محمود. (المراجعون).

وتولى من بعده الحكم هناك شخص آخر يدعى أيضاً «سليمان» فأصدر حكماً بقتل أولئك الخدم وبقي في السلطة في انتظار فرمان من الصدر الأعظم يؤكد مشروعيته في الولاية على بغداد.

استمر الجفاف والقحط في النيل من كافة مناطق «نجد» على مدى العام، لكن في نهاية العام هطل المطر وتمكن الأهالي من بذر بذور محاصيلهم ليخففوا قليلاً من عناء الكارثة التي ألمت بهم، وبالرغم من ذلك الوضع قام «سعود» بالحج للمرة الخامسة[1] وصحب معه كالمعتاد حاشيته الكبيرة، ووصل إلى هناك ووجد «غالباً» قد تأقلم تماماً مع الوضع وأصبح ودوداً وصديقاً حميماً إلى أقصى درجة يمكن أن تخطر على بال، وبعد أن أمضى في مكة ثلاثة أسابيع تقريباً كان خلالها مهتماً بالعبادة وأداء فريضة الحج وتوزيع الصدقات بشكل سخي، وإكساء «الكعبة» ثوبها الباهظ الثمن، شرع «سعود» في زيارة «المدينة» وأمضى هناك بضعة أيام تفقد خلالها كافة الفروع الإدارية وصرف الكثير من اهتمامه للعديد من القلاع والحاميات العسكرية الموجودة فيها والتي وضعها جميعاً آنذاك تحت قيادة «عبد الله بن مزروع» المنتمي إلى أسرة عريقة من «منفوحة». ويشير «ابن بشر» هنا إلى أنه لم يشارك في رحلة الحج التي قام بها «سعود» ذلك العام أي شخص غريب سواء أكان ذلك من الشام أم من أي مكان آخر.

ومع حلول شهر حزيران أصبح «سعود» مستعداً للغزو من جديد، فحشد قواته لشن هجوم على جبهات العراق، وكانت «كربلاء» أول أهدافه. سبق له أن استولى عليها وبسهولة إثر هجوم عاصف، لكنها الآن أصبحت محاطة بسور ضخم يمتد إلى مسافات شاسعة! هاجم «سعود» المدينة ونشر حول

(١) هذه هي الحجة الرابعة. (المراجعون).

أطرافها مجموعاته المقاتلة، إلا أنه سرعان ما أدرك أن القوات والإمكانات المتوافرة لديه لم تكن كافية لتحقيق ذلك الغرض، لذلك سحب قواته وتوجه بها نحو «شثاثا» التي فر أهلها إلى المرتفعات المجاورة تاركين قراهم تحت رحمته. أقنعهم «سعود» بالعودة إلى ديارهم ووعدهم بعدم التحرش بهم وعدم المساس بممتلكاتهم باستثناء خيولهم التي بلغ تعدادها حوالي مئة فرس. بعد ذلك غزا «المنتفق» الواقعة بجوار قناة «المجرة» و«سوق الشيوخ» لكن دون أن يحقق مكاسب كبيرة. وبعدها توجه إلى «البصرة» و «الزبير» وهناك أغار على ضواحيهما ملحقاً بها خسائر منوعة.

عاد «سعود» من هذه الحملة غير الناجحة تماماً، لكنه سرعان ما بدأ يعد العدة للقيام بالحج للمرة السادسة[1]، وفعلاً رتب أمور ذلك الحج بنفس النمط الذي اتبعه في رحلات الحج السابقة، وكرس اهتمامه هذه المرة لأمور دينية مهمة لم يتمكن الناس البسطاء من أهل مكة آنذاك من استيعابها: فقد جال شوارع المدينة رجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليمنعوا الناس من تدخين السجائر في المناطق العامة، وليحثهم على الصلاة في المسجد الحرام بعد سماع الأذان. واظب «غالب» على العناية بسيده وتبادل معه الهدايا الثمينة وأكد له على الاحترام والثقة المتبادلة. وألبست «الكعبة» حلة أجمل وأبهى من سابق كسائها، وكما كان الحال في العام الماضي لم تأت إلى الحج أية حملة من الشام أو مصر أو العراق أو المغرب، باستثناء عدد صغير جداً من المغاربة الذين أتوا إلى الحج بعد أن تلقوا ضمانات بعدم التحرش بهم. وعاد «سعود» إلى الدرعية بعد أن أمضى في مناطق الحج

(١) الصواب أنها الحجة الخامسة. انظر الهامش السابق. (المراجعون).

ثلاثة أسابيع، ولم يذهب خلالها إلى زيارة «المدينة» إلا أنه أرسل حاميات من الجند لتحل محل الحاميات التي خدمت فيها على مدى عام ونيف.

ولدى وصوله إلى الدرعية أرسل «سعود» حملة صغيرة إلى «عمان» وأرسل معها جماعة من الوعاظ والمتفقهين في الدين ليغرسوا في أذهان أهالي مناطق «عُمان» مبادئ التوحيد وليديروا الوضع هناك. قام الحكام المحليون وهم «قيس بن أحمد بن الإمام» من منطقة «صحار» وابن أخيه «سعيد بن سلطان» من «مسقط» بحركة عكرت صفو الأمن في المنطقة الواقعة تحت سيطرة السعوديين والتي كان يزحف للاعتداء عليها جيش قوامه عشرة آلاف رجل. كان الأمير الحاكم لذلك الإقليم رجلاً يدعى «سلطان بن صقر بن راشد» من «رأس الخيمة». سارع هذا الأمير وحشد قوة قوامها ثلاثة آلاف رجل لمواجهة الغزو، وتقابل الفريقان في منطقة تدعى «خورفكان» وهي تقع بين عاصمة السلطان وبين مقاطعة «الباطنة». وقد قتل في ذلك الاحتدام الدامي «قيس» كما تم دحر جيشه، وقتل العديد من رجاله في حين أغرق الأعداء قسماً آخر من رجاله في البحر أثناء محاولتهم الهرب. بلغ العدد الإجمالي للقتلى أربعة آلاف رجل. أرسل «ابن قيس» مبعوثين واحداً إلى «سلطان بن صقر» والآخر إلى الأمير «سعود». وناشد من خلال مبعوثيه إيقاف القتال والتوصل إلى سلام، وأعلن عن استعداده واستعداد أتباعه للانضمام إلى الدعوة السلفية والدخول في الطاعة. وقد حظيت مناشدته بالقبول وسرعان ما حذا «سعيد بن سلطان» حذوه[1]،

(١) ما يشير إليه المؤلف هنا يختلف عن المصدر الذي أخذ منه وهو ابن بشر، إذ أن ابن بشر يشير إلى أن ابن قيس أرسل رسلاً منهم ابن أخيه سعيد بن سلطان، وليس سعيد هذا هو الذي حذا حذو ابن قيس كما هو مسجل هنا. (المراجعون).

وكانت النتيجة أن كل أهالي «عمان» خضعوا لحكم «سعود» : وقام «سلطان ابن صقر» على الفور بتوزيع غنائم الحرب ولم ينس أن يقدم خمس الغنائم إلى ممثلي «سعود» ليقوموا بدورهم بإرسالها إلى الدرعية .

استمرت المجاعة والقحط في إنزال الكوارث في كافة أجزاء الجزيرة العربية ، كما ارتفعت أسعار كافة مستلزمات الحياة ، وجاءت الكوليرا لتزيد من مآسي الناس فأودت بحياة العديد منهم .

حدث كسوف للشمس عند حوالي الثامن عشر من شهر تشرين ثاني ١٨٠٨م ، وفي شهر كانون الثاني مات قاضي الأحساء المشهور «محمد بن سلطان العوسجي» ، واستمر وباء الكوليرا حتى منتصف صيف عام ١٨٠٩م وبلغ أشده في منطقة الدرعية والمناطق المجاورة لها . وكان الناس يموتون بمعدل ثلاثين أو أربعين شخصاً في اليوم الواحد ، ومن بين الذين لقوا حتفهم قاضي الدرعية «حسين بن محمد بن عبد الوهاب» الذي خلفه ابنه «علي» ليواصل المسيرة على نهج أبيه وأجداده . وفي ذروة ذلك الوباء أصدر «سعود» (الذي لم ينس أبداً الإرادة الإلهية في مثل هذه الأحداث) بياناً طلب فيه من الأهالي التجمع للتكفير عن خطاياهم ولطلب الغفران من الله ، وذكر في ذلك البيان عدة قضايا تستوجب الإصلاح ، واختتم بيانه بدعاء إلى الله بأن يرفع عن شعبه المؤمن شر ذلك الوباء . ويقال إنه عندما قرأ هذا البيان على جموع المصلين في جامع الدرعية ، بدأ الوباء بالتلاشي تدريجياً . الضحية الأخرى التي استهدفها الوباء كانت ابن أخي «سعود» الأمير «سعد ابن عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن سعود» كما قضى الوباء على أربعة أشخاص آخرين من عائلة أمراء العيينة .

وعند حوالي منتصف عام ١٨٠٩م شن «سليمان باشا»، وهو ابن أخي والي بغداد، حملة قوية قصد بها تأديب «الظفير» و «عنزة»، وأقام معسكره داخل الصحراء العراقية.

كانت قبائل «الظفير» تحت إمرة «الشاويش» الذي سبق أن أشرنا إلى اسم ابنه في سياق هذه القصة. وكانت قبائل «عنزة» تحت إمرة «الدريعي بن شعلان» واستمرت القبائل في تبادل الهجمات لعدة أيام وعندما شعروا بأنهم كانوا على وشك أن يهزموا قرروا أن يقوموا بمحاولة يائسة لإنقاذ أنفسهم، فشنوا هجوماً عنيفاً تمكنوا به من تفريق القوات العراقية وإجبارها على الهرب. هذا؛ وتكبد الطرفان الكثير من الإصابات، إلا أن رجال القبائل تمكنوا من السيطرة على أرض المعركة وعادوا إلى مرتفعات نجد يحملون معهم كل الغنائم التي استولوا عليها.

هبت عاصفة غير عادية في منتصف شهر تموز وجلبت معها الأمطار التي هطلت على مناطق «طويق» وعلى امتداد ٤٠٠ ميل من الشمال إلى الجنوب، منهية بذلك الجفاف الذي دام لفترة طويلة. واستمر هطول المطر لعدة أيام وسالت على إثره السيول في معظم وديان المنطقة، ونضجت ثمار أشجار النخيل. أدى ذلك الخبر إلى هبوط الأسعار وبدأت كافة نواحي البلاد في الانتعاش تدريجياً.

كان «سعود» منشغلاً في مشكلات «تهامة عسير»: كان شريف منطقة «أبي عريش» والمدعو «حمود أبو مسمار» وهو من أبناء شريف مكة «أحمد ابن أبي نمي» يتشاجر مع «عبد الوهاب أبو نقطة» وهو الأمير السعودي على كافة مناطق تهامة. ومنذ أن أعلن «حمود» التزامه بمبادئ دعوة الشيخ محمد

ابن عبدالوهاب قام رجال الدولة بجمع الأموال المفروضة على موانئ مقاطعته بما فيها مقاطعة «جازان»، وفي تلك الأثناء كان ابن «حمود» يقضي زيارة طويلة في الدرعية عند الأمير «سعود».

واستمرت الأمور على هذه الحالة فترة من الزمن إلى أن نشب سوء تفاهم بين «حمود» و «أبو نقطة». ونتيجة لهذا الحدث استدعى «سعود» الأطراف المعنية ليجتمع بهم في الدرعية، وخلال ذلك الاجتماع حدثت مشادات كلامية حادة، زادت من صعوبة التوصل إلى تسوية لتلك المشكلة. وفي محاولة لسبر مدى ولاء «حمود» أرسل «سعود» تعليمات إليه أمره فيها بمهاجمة «صنعاء» عاصمة اليمن، لكن «حموداً» تجاهل تلك الأوامر.

أصبح من الواضح الآن أن «حموداً» قد بدأ تمرده ضد «سعود»، وعليه بدأ «سعود» في حشد قواته من كافة مناطق الجزيرة العربية حتى بلغ تعداد ما جمعه من القوات لقمع ذلك التمرد خمسين ألفاً. فوض «سعود» زعيم قبيلة عتيبة المدعو «غصاباً» ووضع برفقته فرقة قوية من الخيالة وخوله حق ممارسة سلطته في كافة المناطق التي شهدت ذلك التمرد، وطلب منه أن لا يتدخل في شؤون إدارة منطقة «أبو نقطة» الذي أبقى في يده زمام السلطة على الإقليم وقيادة القوة المتواجدة فيه والمؤلفة من عناصر محاربة من كل مناطق «جازان» (امتداداً من الطائف وجنوباً حتى خميس مشيط)، إضافة إلى عناصر من جماعات بدو «قحطان» و «عبيدة» وقبائل أخرى. ولمقاومة هذه الحشود تمكن «أبو مسمار» من جمع قوة كبيرة من مناطق مرتفعات «اليمن» بما فيها قبائل «حاشد» و«بكيل»، إضافة إلى عناصر أخرى «همدانية» وعناصر من «نجران» وبدو «يام» و«الدهم». وبعد أن شكل حاميات قوية ووضعها في كافة القلاع

في تلك المنطقة، تقدم «أبو مسمار» بالجزء الأكبر من جيشه لمهاجمة القوات السعودية التي كانت متجمعة في وادي «بيش»، فداهم «حمود» القوات السعودية قبل أن تتاح لها فرصة الانتشار، وقصد بهجومه على وجه التحديد قوات «عسير» التي كانت تحت إمرة «عبد الوهاب أبو نقطة»، ودارت معركة تقاتل فيها الطرفان وأسفرت عن مقتل «أبو نقطة» وعدد كبير من رجاله. وتحركت الفرق السعودية الأخرى بكامل عدتها وعتادها وقيادتها لمقاتلة «حمود»، وتمكن الجيش السعودي من دحر قواته وأجبروها على الفرار بشكل مخز ومشين، وطاردوهم وسلبوا كل ممتلكاتهم.

انطلق «حمود» والفرسان المرافقة له يسابقون الريح والخوف من أعدائهم يملأ قلوبهم، ولم يتوقفوا إلا بعد أن وصلوا إلى قلاع «أبو عريش»، في حين استمرت القوات السعودية الظافرة في الطواف حول أطراف منطقة «صبيا» وألحقوا بها خسائر كبيرة. واستسلمت قلعة «صبيا» الضخمة دون قتال. لذا قام «غصاب» على الفور بوضع حامية فيها، كما أرسل قواته في كل اتجاه لإخضاعها وتدمير تحصيناتها. كانت بعض القوارب التابعة للقوات السعودية راسية في البحر، فحملوها بما غنموه من محتويات مستودعات الجمارك في «جازان» والتي اشتملت بالدرجة الأولى على القهوة. ومن جانب آخر فقد خلف «عبد الوهاب أبو نقطة» في منصب إمارة «تهامة عسير» ابن عمه «طامي بن شعيب».

كان «سعود» في تلك الأثناء يستعد لمعاودة زيارة «مكة» لأداء فريضة الحج للمرة السابعة[1]، وصادف موسم حج ذلك العام في منتصف شهر كانون

(١) الصواب أنها الحجة السادسة كما ذكر ابن بشر. (المراجعون).

الثاني من عام ١٨١٠م، وقرر «سعود» أن يحتفل بذلك الحدث في أرقى مظاهر الاحتفالات الرسمية. فشجع كل رجال القبائل الرحل والقبائل المستقرة بالقدوم إلى الحج مع عوائلهم. ورافقه في ذلك الحج ابنتاه وعدد كبير من صاحبات السمو من عائلة «آل مقرن» وتمت مراسم الحج واحتفالاته بدون حدوث أي مشكلات تذكر، ولم تشارك في موسم ذلك الحج أية حملات أجنبية سبق لها أن زادت من تعداد الحجاج في مشاعر الحج. استمرت العلاقة بين «سعود» و «غالب» بنقاء ودون أية مشكلات تعكر صفوها. وبعد أن استبدل «سعود» القوات المرابطة في الحاميات الموجودة حول «مكة» بقوات أخرى بقصد إراحتها، غادر «سعود» الأماكن المقدسة في بداية شهر شباط قاصداً الدرعية.

في تلك الفترة بلغت المشكلات في «عُمان» ذروتها، إذ أعلن «سعيد بن سلطان» تخليه عن ولائه للحكم في الدرعية، واستدعى القوات البريطانية لمهاجمة معاقل السعوديين في «رأس الخيمة». ونتيجة لذلك سلط البريطانيون المبرقات الشمسية التي في حوزتهم وجعلوها تعكس أشعة الشمس على الأكواخ في منطقة «رأس الخيمة» مما تسبب في اشتعال النيران فيها، فاضطر «سلطان بن صقر» ورجاله إلى التراجع داخل مناطق الصحراء ونزلت البحرية البريطانية وأكملت تدمير القرية، لكن سرعان ما أعاد الأهالي بناءها إثر انسحاب تلك القوات منها. وعند وصول هذه الأخبار إلى الدرعية، قام «سعود» على الفور بإرسال «عبد الله بن مزروع» على رأس قوة من «نجد» لاحتلال «البريمي» وإنشاء مقر رئيس للقوات السعودية فيها، كما أرسل «مطلق المطيري» على رأس قوة تشرف على تجنيد أهالي «عُمان» وتدريبهم على شن حرب ضد زعيم مسقط المتمرد. ركز «مطلق»

عملياته الأساسية على طول شريط واحات نخيل «الباطنة» الواقعة بمحاذاة الساحل بين «رأس الخيمة» و «مسقط» ، وبالتحديد وجهها ضد مدينة «صحار» التي تعد معقل «عزان بن قيس» الذي كان قد خلف والده الذي قتل في إحدى الهجمات السعودية على مناطقهم. وفعلاً تم الاستيلاء على العديد من القرى كما تم جمع العديد من الغنائم وتمكنت القوات السعودية أيضاً من قتل حوالي ٥٠٠ من رجال «عزان» في معارك دامت طيلة فصلي الخريف والشتاء لعام ١٨٠٩م حتى بوادر ربيع العام التالي. ولم يهاجم السعوديون «مسقط» بالذات في حين صدت «صحار» كل المحاولات السعودية العاصفة التي استهدفت الاستيلاء عليها. واستسلمت باقي المناطق إلى «مطلق» ودخلت مجدداً في الحظيرة السعودية.

ومما تزامن مع هذه الأحداث هو أن «سعوداً» وجد نفسه مضطراً حيال تصرفات حكام «آل خليفة» للبحرين و«الزبارة» أن يرسل حملة للتعامل مع تصرفاتهم المريبة قبل التوجه إلى مكة لأداء فريضة الحج.

كان «محمد بن معيقل» قائداً على تلك الحملة، لكن الأمير «سعوداً» أرسل له فيما بعد تعزيزات تحت إمرة «عبد الله بن عفيصان» ابن «إبراهيم» الذي كان في وقتها أميراً على «الأحساء». بقيت تلك القوات في منطقة «الزبارة» لمدة أربعة شهور دون أن تقوم بأي عمل عسكري. وبعد عودة «سعود»، من موسم حج ذلك العام قامت تلك القوات المشتركة أو بالأحرى هددت بالقيام بهجوم عنيف ما لم يوافق زعماء «آل خليفة» على السير معهم إلى الدرعية. وكان من بين كبار الذين قدموا إلى عاصمة «سعود»، زعيم البحرين والزبارة الأسمى «سليمان بن أحمد بن خليفة» وأخوه «عبدالله»

وابن عمهما «عبد الله بن خليفة»، ومعهم كافة أبنائهم. استقبلهم «سعود» بخطبة رنانة تتعلق بظلم وجور الأساليب التي كانوا يتبعونها، وأمر بإيقاف الزعماء الثلاثة لكنه سمح لأبنائهم وأتباعهم بالعودة على شرط أن يسلّموا كل ما يملكونه في البحرين والزبارة من خيول وجمال ومعدات عسكرية أخرى إلى القوات السعودية. أصدر «سعود» أوامره إلى «فهد بن سليمان ابن عفيصان» وطلب منه أن يتولى زمام الأمور في تلك الجزر، كما طلب منه أن يعين شخصاً ليكون مسؤولاً عن جمع العائدات.

قام أبناء زعماء «آل خليفة» بتهريب كل نسائهم وثروتهم من الذهب خلسة، وحملوها على قوارب يقال لها «الدحو» كانت موجودة في ميناء «الزبارة» وهربوا بها جميعاً إلى «مسقط». وذلك بسبب عدم ارتياحهم للتحول الجديد الذي شعروا من خلاله بأنهم مجرد مواطنين عاديين في بلد كانوا يحكمونها، وحدث بالمصادفة أن كان عدد من السفن البريطانية موجودة في ذلك الوقت في ميناء «مسقط»، وعلى الفور تم تنظيم حملة بحرية ضخمة للتوجه إلى «الزبارة». وبعد أن تمكنت السفن البريطانية من الحامية السعودية ومن المواقع العسكرية التابعة لها، واصلت سيرها نحو «البحرين»، وبعد أن استسلم «فهد» وفق شروط معينة تمكنت من محاصرة قواته التي كانت في قلعة «المنامة» ليومين متتاليين، وتم احتجاز «فهد» وستة عشر من رجاله كرهائن مقابل إطلاق سراح مشايخ «آل خليفة» الموقوفين في الدرعية وأطلق البريطانيون سراح باقي القوات السعودية.

كان «سعود» في تلك الفترة منهمكاً في حملة انطلق بها نحو الشمال، وعندما عاد وسمع أخبار آخر التطورات في البحرين، عرض عليه مشايخ

«آل خليفة» المحتجزون اقتراحاً يطلبون فيه إطلاق سراحهم والسماح لهم بالعودة إلى «الزبارة» لمناقشة المشكلة مع أبنائهم وأصدقائهم على أساس ولائهم للحكم السعودي، وإذا نجحوا في ذلك كان خيراً وإن لم ينجحوا فسيعودوا إلى السجن في الدرعية. وأقسموا على ذلك للأمير سعود ووافق «سعود» على هذا الاقتراح وأرسل معهم مرافقين، إلا أن مشايخ «آل خليفة» فشلوا في إقناع أبنائهم وأصدقائهم في جدوى ذلك الاقتراح، وعادوا إلى الأسر في الدرعية، وفي تلك الأثناء أطلق البريطانيون سراح «فهد بن عفيصان» ورجاله الأسرى.

وصل «سعود» في حملته نحو الشمال كما سبق وأن ذكرنا آنفاً، لكن ليس فقط إلى حدود «الشام»، بل توغل بها لمسافة أدخلت الرعب في قلوب سكان «دمشق»، وشاهد «سعود» ولأول مرة منظر الثلج على قمة جبل «حوران». وفي الواقع اختلط الأمر من الناحية الجغرافية على المؤرخ «ابن بشر»، لأن التي احتمت خلفها القبائل التي استهدفها «سعود»، لا يمكن أن تكون سوى سلسلة جبال «القلمون»، لكن القمة الجبلية المغطاة بالثلوج كانت بالقرب من «نابلس» كما ذكر «ابن بشر». وفي شهر أيار استهدف «سعود» تجمعات قبائل بدو من الشام يعتقد أنها كانت في منخفض منطقة «نقرة الشام». وصلت إلى هذه التجمعات أخبار تحركات «سعود» الأمر الذي حدا بها أن تحل مضاربها وترحل إلى مضارب «دوخي بن سُمير» زعيم عشيرة «ولد علي من عنزة» في منطقة «الغور»، والمقصود بها إما «سهل البقاع» بين لبنان وسوريا أو وادي الأردن. على أي حال أخذ «سعود» يحوم بقواته حول سهول «حوران» ملحقاً خسائر مادية في المزارع المحيطة بها في

مناطق «المزيريب» و «بصـرة اسكيـشـام»[1]، وهرب الناس من منازلهم وقراهم عند سماعهم عن زحف القوات السعودية .

قامت القوات السعودية بمحاولة الهجوم على قلعة «المزيريب» لكن سرعان ما تخلت عن تلك الفكرة، وسحب «سعود» قواته وتوجه بها إلى منطقة «بصرة» في حوران ومكث هناك فترة قصيرة قبل أن يعود إلى ديرته محملاً بالغنائم التي استولى عليها. وقد تمخض هذا الحادث عن عزل حاكم الشام السيد «يوسف» وعُين مكانه «سليمان باشا» الذي كان حاكماً على «عكا» وصدرت إليه الأوامر بمصادرة كافة أملاك سلفه «يوسف».

ونتيجة الأمطار الغزيرة التي هطلت في أعقاب العاصفة التي هبت في شهر تموز من عام ١٨٠٩م تحسنت الأوضاع بشكل سريع. فبسبب الجفاف الطويل الذي سبق هطول الأمطار وصل سعر كل أربعة صيعان من القمح ريالاً واحداً، إلا أن سعر الصيعان إثر سقوط المطر أصبح نصف ريال، واستمر سعرها في التحسن إلى أن أصبح الناس في شتاء عام ١٨١٠م يشترون ١٣ صاعاً بريال واحد، كما أصبحوا يشترون ٣٧ وزنة من التمر بريال واحد بينما كانوا يشترون بالريال الواحد في بداية الفترة نفسها عشر وزنات ونصف الوزنة. لكن لم تبدُ بشائر سلام دائم للحكم السعودي في الجزيرة العربية، إذ طلت بوادر المشكلات في شهر آب في مناطق «تهامة عسير» حيث بدأ «حمود أبو مسمار» - بعد أن تعافى من هزيمته في «وادي بيش» - يعد العدة للحرب . وكُلِّف «عثمان المضايفي» بالتعامل مع تلك

---

(١) بصرة اسكيشام: هي بصرى الشام سابقاً وحالياً درعا على الحدود السورية الأردنية. (المراجعون).

المشكلة واشتبكت قواته مع قوات «حمود أبو مسمار» في مكان يقال له «باوحلة». حيث مني «أبو مسمار» بهزيمة أخرى وقتل من رجاله حوالي ٢٥٠ رجلاً. وفي الوقت نفسه كان «طامي بن شعيب» حاكم «تهامة عسير» الجديد يعد العدة للتوغل في مناطق «تهامة اليمن»، وتوجه بحملته واستولى بهجوم عاصف على «اللحية» بعد أن حاصرها لفترة قصيرة، واستولى على كافة البضائع والأشياء الثمينة التي وجدها في مستودعات الجمارك وفي متاجر التجار. ويقال إن ألف رجل لقوا حتفهم في هذه المعارك التي انتهت بعد أن التهمت النيران كافة أرجاء المدينة. وقد تابع «طامي» تقدمه نحو «الحديدة» بجيش بلغ تعداده عشرين ألف رجل، ووصلت أخبار تقدم هذا الجيش إلى أهالي «الحديدة» فما كان منهم إلا أن حملوا كل ما غلا ثمنه وخف حمله على قواربهم وأبحروا بها في البحر. وبهذه الحالة كان من السهل على «طامي» الاستيلاء على المدينة، وإلحاق خسائر بشرية ومادية بأهلها. لكن السعوديين لم يقوموا بأية محاولة جادة لإقامة إدارة محلية، سواءً في «الحديدة» أو في «اللحية» لأن غاية الحملة -على ما يبدو- كانت جمع أكبر عدد ممكن من الغنائم.

لم تتعد المشكلات في بغداد النطاق المحلي، ولم تؤثر على مصالح الجزيرة العربية، علماً بأن «ابن بشر» يسرد الكثير عن تلك المشكلات، لكن يكفي أن نذكر بأن «سليمان باشا» والي بغداد -الذي صدرت إليه الأوامر بأن يحول عائدات العديد من السنوات المتراكمة إلى الصدر الأعظم- تعرض لهجوم شنه عليه زعيم الأكراد « عبد الرحمن باشا» وقتله واحتل المدينة وسلب أموالها بمناصرة واليها «عبد الله باشا» الذي كان ألعوبة في

يده. أرسل السلطان جيشاً لتأديبه ومعاقبته على تجاوزاته، وطلب من شاه «إيران» أن يساعده بأن يشن هجوماً على «كردستان»، وفعلاً قام شاه «إيران» بالهجوم وضم «كردستان» إلى مملكته بعد هروب «عبدالرحمن».

وفي نهاية شهر كانون الأول من عام ١٨١٠م قدم «سعود» -مجدداً- إلى مكة لأداء فريضة الحج للمرة الثامنة[١] وكان المؤرخ «ابن بشر» شاهد عيان فيها. وحدث في الشهر نفسه أن توفي سلفه مؤرخ نجد «حسين بن غنام الأحسائي»، ولعله من اللافت للنظر أن «ابن بشر» لم يشر في رثائه له إلى مؤلفاته التاريخية التي استقى منها بحرية الكثير من الأخبار والمعلومات.

على أي حال قدم لنا «ابن بشر» صورة جميلة عن العاهل السعودي وهو في زي الإحرام يمتطي جمله وسط حشود كبيرة في مسجد «نمرة» لتستمع إلى الخطبة التي أدلى بها «سعود» حول معنى الحج وأهدافه، كما استعرض في خطبته تلك الأمن والرفاهية التي تتمتع بهما مناطق الجزيرة العربية بفضل رحمة الله ودين الإسلام، واختتم خطبته قائلاً إن من غير المسموح لأي شخص أن يحمل السلاح في مكة المكرمة، ولا يجوز لأي امرأة أن تتباهى بزينتها أو تتبرج، وهنا اقترب منه «غالب» وهو على ظهر جواده وبجانبه واحد من أتباعه، وترجل الاثنان وعانقا الأمير السعودي أمام حشود الحجاج - عدو الماضي وحليف اليوم - وأخذا مكانهما في الصف الأول لأداء صلاة الظهر استعداداً لإتمام مناسك الحج في عرفة، إذ إن «الحج عرفة». ويشهد «ابن بشر» على حقيقة أنه بعد ذلك لم يجرؤ أي شخص من ذلك الحشد من الحجاج على التدخين في شوارع مكة، وكانت تلك الشوارع

(١) الصواب: السابعة. (المراجعون).

تخلو من الناس تماماً عندما يرفع المؤذن الأذان للصلاة. وكان أكثر جلوسه إذا دخل الحرم فوق زمزم مقابل البيت الشريف (الكعبة). وفي تلك المناسبة أمر سعود بإزالة القبة التي كانت تغطي مقام إبراهيم، وهو الحجر الذي كان إبراهيم يقف عليه أثناء بناء الكعبة، وذلك لكي يتمكن الحجاج من النظر مباشرة ومشاهدة ذلك المقام الديني المقدس، ويصف «ابن بشر» هذا المقام بقوله إنه كان حجراً مربعاً في قسمه العلوي يبلغ طوله حوالي ثماني عشرة بوصة ومطلي بالذهب أو البرونز في قسمه العلوي، وتبدو آثار قدميه الطاهرتين ظاهرتين تحت ذلك الغطاء وهي تعلو سطح الحجر بعرض يبلغ حوالي أربعة أصابع. وحدث أن مات خلال تلك الأيام أحد كبار مشايخ «نجد» ويقال له الشيخ «حمد بن ناصر بن عثمان بن معمر» الذي تتلمذ على يد الشيخ «حسين بن غنام». ومن بين الذين شاركوا في حملة الحج هذه أيضاً الشيخ «سليمان بن عبد الله». وهو حفيد الشيخ «محمد بن عبدالوهاب» ومن بين الطلبة البارزين عند ذلك المؤرخ.

عاد «سعود» إلى الدرعية ووجد أمامه أزمة محلية تتمثل في أن ثلاثة من أبنائه وهم: تركي، وناصر، وسعد كانوا قد فروا من الدرعية وذهبوا إلى «عُمان» بحثاً عن مغامرات، أو عن مجالات أكبر مما كان والدهم قد سمح لهم. حيث سبق أن حصل بعض الجدال حول هذا الموضوع بين «سعود» وأبنائه قبل توجهه في حملة الحج تلك، وكان الأبناء الثلاثة قد طلبوا الإذن منه بالانضمام إلى الجيش في «عُمان» إلا أن «سعوداً» كان مقتنعاً بأن ما كانوا يتمتعون به كان كثيراً، وعليه رفض أن يغادر أبناؤه الدرعية. وعلى أي حال، فإنهم فعلوا ذلك دون موافقة والدهم وغادروا أثناء غيابه وأخذوا

معهم أتباعهم، وبعد وصولهم إلى هناك بقليل وبالتحديد إلى «رأس الخيمة» خططت جماعة من «الباطنة» ومن «صحار» لمهاجمتهم ليلاً وقتلهم. ونفذت تلك الجماعة الهجوم إلا أنهم لقوا مقاومة باسلة من قبل أبناء «سعود» ورجالهم، وأجبروا على التراجع بعد أن تكبد الطرفان بعض الخسائر.

إثر هذه الحادثة، وصلت إلى «مطلق المطيري» قائد القوات المتواجدة في البريمي عدة رسائل قام على إثرها بضم قواته إلى قوات الأمراء الثلاثة، وتولى «تركي» أكبر الأمراء منصب قيادة كافة القوات. وأسفر ذلك الترتيب عن حملة نظامية جديدة سرعان ما هاجمت منطقة «مطرح» على الساحل والقريبة من «مسقط»، وتمكن السعوديون من الاستيلاء عليها. وقد انتشرت قوات «تركي» في كافة أراضي «عمان» بدءاً من «الظاهرة» ومروراً بـ «الباطنة» باتجاه «صور» و «جعلان». وكانت الأوامر الصادرة إلى القوات السعودية تتلخص في كسب الغنائم وفرض النفوذ دون احتلال المناطق، إلا أن «سعوداً» استاء من الأعمال التي كانوا يقومون بها؛ لذلك أرسل فرقة مؤلفة من أربعين رجلاً إلى «البريمي» وأمرها باحتلال القلعة هناك وأخذ مكان الحامية الموجودة فيها بقيادة «ابن مزروع». كما أمرها بعدم السماح للأبناء المتمردين بالدخول إليها، ووجه في الوقت نفسه أوامره إلى «مطلق المطيري» بأن يجلي قواته عن منطقة «عُمان» وأن لا يترك رجلاً واحداً خلفه هناك.

بدأ الأمراء الشباب يشعرون بالعواقب الوخيمة التي جلبتها عليهم نزواتهم، ورفض «سعود» أن يصغي إلى التوسط والشفاعة لهم وأصر على

أن يستسلموا له دون شروط. وعلى أساس هذا الإصرار رافقوا «مطلق» مع قواته المنسحبة باتجاه «الأحساء» إلا أنهم رفضوا التقدم إلى أبعد من ذلك لخوفهم من مواجهة غضب والدهم. لكن في النهاية وافق «سعود» على العفو عنهم وعادوا لوالدهم في الدرعية ليحظوا منه بكل دلائل وعلامات الغضب وعدم السرور لتصرفهم الطائش وغير المسؤول. حدث في هذه الأثناء أن سقط ناصر مريضاً ومات على إثر ذلك المرض بعد شهرين، لكن «سعوداً» لم يحزن على وفاته ولم يشارك في جنازته[1]. وجد «سعود» نفسه الآن مضطراً لمعالجة العاقبة التي نجمت عن عملهم الطائش وعن مغامرتهم التي أسفرت في نهاية المطاف عن نفور واشمئزاز الناس من تصرفاتهم.

خرجت قبيلة «بني ياس» من منطقة «الظاهرة» في تمرد مكشوف، فما كان من «سعود» إلا أن فوض «عبد العزيز بن غردقة» من منطقة الأحساء بمعالجة تلك المسألة. وصل «ابن غردقة» إلى «الظاهرة» في شهر آيار من عام ١٨١١م وعلى الفور اشتبك مع «بني ياس»، إلا أن القوات السعودية منيت بهزيمة شديدة وقتل قائدها أيضاً. وأصبح من الواضح الآن أن «عُمان» وصلت إلى مرحلة التخلي عن اعتمادها على الدرعية.

تم مجدداً تعيين «مطلق المطيري» في مركزه القديم، وذلك لمراقبة تطورات الأحداث. كانت «عُمان» آنذاك في حالة فوضى، وفي نهاية العام أو أوائل عام ١٨١٢م وبالتحديد في شهر كانون الثاني قام حاكم مسقط «سعيد بن سلطان» - بعد أن طلب نجدة من إيران - بأن جهز جيشاً بلغ تعداد أفراده

(١) الذي ذكره ابن بشر أن الإمام سعوداً لم يعده في مرضه. ولم يذكر أنه لم يشارك في جنازته. (المراجعون).

ثلاثة آلاف جندي - وهاجم المناطق الخاضعة للسعوديين. وهناك بدأ يجول بقواته حولها وشرع في أعمال السلب العشوائية، وتمكن من الاستيلاء على مركز «سمايل» الذي يعد مقر قيادة عائلة «الجبري». إلا أن «مطلقاً» أحكم قبضته على حركة التمرد واشتبكت قواته مع قوات حاكم مسقط في منطقة بين مراكز «سمايل» و «البريمي». رجحت كفة قوة جيش «مطلق» وفرت قوات جيش مسقط أمامه وطاردتهم القوات السعودية بالصياح والهتاف ملحقة بها خسائر كبيرة في الأرواح وفي العتاد حيث كانت الغنائم التي جمعتها القوات السعودية كثيرة جداً، وقد اشتملت على المدافع العشرة التي كانت بحوزة جيش مسقط، فأرسل «مطلق» تلك المدافع إلى الدرعية كما أرسل معها حصة الخزينة السعودية من الغنائم. استغرقت تلك العمليات أكثر من عام بدأ من زيارة الأمراء الثلاثة إلى «عُمان».

يبدو ظاهرياً على الأقل أن الوضع كان مستقراً في كافة أرجاء تلك المنطقة باستثناء بعض القرى التي كان ممثلون عن «آل سعود» يمارسون فيها سلطاتهم الفعلية.

وعند عودة سعود من مكة عام ١٨١١م سمح لزعماء «آل خليفة» الذين كانوا لا يزالون في السجن لديه بالعودة إلى ديارهم شريطة أن يقبلوا بسلطته وبحكمه على كافة مناطقهم. وقد تزامن مع عودتهم حدوث اشتباك بحري بالقرب من الجزر البحرينية دار بين سفن «إبراهيم بن عفيصان» التي تدعمها قوات «رحمة بن جابر العذبي» من منطقة «خوير حسان»، وكذلك قوات «أبا حسين» من الحويلة بالقرب من الشواطئ القطرية، وبين أبناء زعماء «آل خليفة» الذين كانوا محتجزين في الدرعية.

احتدمت المعارك بقوة، ويبدو أنها انتهت دون نتيجة محددة، علماً بأن القوات البحرينية تكبدت الكثير من الخسائر، واشتعلت النيران في بعض القوارب وتفجرت حمولتها من الذخائر وغرقت، وخسر كل طرف بفعل هذه الحرائق والتفجيرات حوالي سبع سفن، وبلغ عدد القتلى من الجانب البحريني ألف رجل ماتوا ما بين قتيل وغريق ومحروق، وكان من بين القتلى «راشد بن عبد الله بن خليفة»؛ وبلغ عدد القتلى بين صفوف السعوديين مائتي رجل بمن فيهم زعيم قبيلة «الحويلة».

قرر العثمانيون في صيف هذا العام محاولة استعادة مناطق الحجاز من أيدي السعوديين، ولذلك بدأوا في إعداد العدة على نطاق واسع، وأرسلت القوات العثمانية لدعم الفرق التي كانت متوجهة إلى الشام ومصر. وتم أيضاً إرسال كميات كبيرة من مستلزمات الحرب بما فيها المدافع، ومدافع الهاون وما شابهها إلى «علي باشا» الذي عين في منصب القائد العام للحملة.

لم تواجه القوة العسكرية التي أرسلت عن طريق البحر أية صعوبات في احتلال ميناء «ينبع»، وتوجهت القوات الرئيسة العثمانية التي كانت تحت إمرة «أحمد طوسون باشا» (ابن محمد علي) براً وبحراً وبلغ تعداد تلك القوة حوالي أربعة عشر ألف جندي تركي ومغربي. حدث أن هرب أمير «ينبع» إلى المدينة فما كان من الأمير «سعود» إلا أن أرسل منادين إلى الشرق والغرب لحشد كل الطاقات لمقاومة الغزو العثماني. ووضع القوات السعودية تحت إمرة ابنه «عبدالله» الذي ظهر في تلك المرحلة على ساحة الجزيرة العربية للمرة الأولى. تمركز «عبد الله» بقواته في منطقة «الخيف»

وهي أضيق المناطق في «وادي الصفراء» الواقعة على بعد نصف المسافة بين «المدينة» والساحل، وانتظر هناك وصول القوات العثمانية المعادية. وشملت قوته حوالي ثمانية عشر ألفاً من أقوى المقاتلين من بينهم حوالي ٨٠٠ فارس من فرقة رجال «الوشم» ورجال قبائل «حرب»، وكانت تلك الفرقة تحت إمرة «مسعود بن مضيان»، ووضع «عبد الله» فرقة «مسعود» هذه في أحد أطراف الوادي كقوة احتياطية تتصدى للقوات التركية في حال ما إذا قدمت من ذلك الاتجاه. لكن تقدمت القوات التركية عبر الطريق الرئيس للوادي مروراً بواحة «الحمراء» وهي أقرب نقطة على طريق القوافل القادمة من «ينبع»، فأرسل «عبد الله» قواته المتقدمة لمواجهتهم لكن القوات التركية أجبرت قواته على التراجع.

انتشرت القوات التركية في مواقع معينة استعداداً لمهاجمة القوة الرئيسة في جيش «عبد الله»، وقرر «عبد الله» أن يدفع بفرقة الخيالة التي كان يقودها أخوه «فيصل» وزعيم قبيلة مطير «حباب بن قحيصان». واحتدم القتال بين فرقة الخيالة والقوات التركية وتكبد الطرفان الكثير من الخسائر، لكن البدو في القوات السعودية قبل بدء الاشتباك مع القوات التركية أصيبوا بالجبن، وهربوا تاركين المقاتلين السعوديين الحارسين للسلطة يتصدون لهجمات القوات التركية، واستمر هذا الوضع مدة ثلاثة أيام بعدها أمر «عبد الله» قوته الاحتياطية بمهاجمة حاصرة جيش الأتراك. غير ذلك الهجوم القوي مجرى أحداث ذلك اليوم واضطرت القوات التركية والمغربية إلى الهرب تاركين وراءهم كل معداتهم بما فيها المدافع السبعة، فطاردتهم القوات السعودية إلى أسفل الوادي، ووصل الناجون من الأتراك إلى شاطئ «البريكة» واختبأوا في السفن الراسية في «الميناء». قتل من الأتراك حوالي أربعة آلاف رجل

وقتل من القوات السعودية حوالي ستمائة رجل كان من بينهم الأمير «مقرن ابن حسن بن مشاري بن سعود» كما قتل عدد من كبار القادة المشهورين مثل «هادي بن قرملة» من قبيلة قحطان. وقد حدثت معركة «الخيف» خلال النصف الأول من شهر كانون الأول عام ١٨١١م، وكان السعوديون أول من ضحى في نضال استمر فيما بعد على مدى سبع سنوات من القتال والمعارك.

وبينما كانت القوات التركية في ملاذها تضمد جراحها، قاد «عبد الله» وبجرأة تامة كل قواته وسار بهم في طريق الحج ماراً بمنطقة «بدر» التي شهدت إحدى انتصارات النبي ﷺ على قريش قبل حوالي اثني عشر قرناً. توجه بتلك القوات نحو مكة وهناك قابل والده الذي كان يؤدي فريضة الحج للمرة الثامنة، ووهب ثمار ذلك النصر لله سبحانه وتعالى.

رافق الملك «سعود» في حملة الحج تلك عدد من المقاتلين الذين لم يكن تعدادهم أقل من تعداد جيش ابنه في أرض المعركة وبعد انقضاء شعائر الحج أعطيت بعض تلك القوات فترة راحة في حين تمت إعادة انتشار بعضهم الآخر في منطقة «المدينة» استعداداً لمجابهة أي وضع يمكن أن ينجم بسبب تواجد قوات العدو في منطقة الساحل. ولم يتشجع الشريف «غالب» أن ينضم إلى صفوف القوات السعودية أو أن يبدي القليل من مشاعر الود والاحترام القائمة بينه وبين «سعود» على مدى العديد من السنوات -بسبب صلة النسب بينه وبين منقذيه من براثن القوة التركية-. على أي حال انقضت شعائر الحج وسط مظاهر العظمة والأبهة ولم تشارك فيها هذه المرة أيضاً أية حملات خارجية، كما انتهت بدون أي حدث يجدر ذكره. وقد رافق «عبد الله» والده في طريق عودته إلى الدرعية ووصلوا بقواتهم إلى هناك في نهاية شهر كانون الثاني من عام ١٨١٢م.

كان «محمد علي باشا» يدرس الوضع بجدية وعناية ويفكر في ترميم الوضع الناجم عن هزيمة ابنه في منطقة «الخيف». وبدأت التعزيزات تنصب على منطقة «ينبع» وكانت جميعها تحت إمرة «أحمد بن نابرت» الملقب بـ«بونابرت»، وعليه بذلت كافة الجهود الرامية إلى تماسك القبائل هناك، وانضمت إلى تلك القبائل قبيلة «جهينة» من منطقة «ينبع»، كما انضمت إليها العشائر الجبلية من «حرب». حيث تمكن الأتراك من احتلال واحة «ينبع النخل» في المناطق الداخلية وأصبح «وادي الصفراء» مكشوفاً أمامهم، فتقدمت قوات الأعداء نحو «المدينة» ووصلتها وطوقتها في منتصف شهر تشرين أول. كانت أوضاع إحدى الحاميات السعودية سيئة بسبب عدة أشكال من الأمراض التي أصابت جنودها. وبعد قصف الأتراك للمدينة اضطر السكان إلى فتح أبوابها أمام العدو الذي أجبر عدة حاميات في عدد من القلاع (التي قاومت ببسالة) على الاستسلام.

وعند حلول منتصف شهر تشرين الثاني كانت كل «المدينة» قد أصبحت في قبضة الأتراك. وعلى ما يبدو لم يبد «سعود» أي جهود لدرء هذه الكارثة. وقد تمكن الأتراك من قتل أكثر من نصف رجال الحاميات التي تركها «سعود» خلفه بعد آخر حج قام به. وأصبحت القوات التركية تسيطر بشكل تام على مناطق الحجاز وعلى طول الشريط الذي يربط «ينبع» بالمدينة. نظرت السلطة السعودية إلى هذا الوضع على أنه وضع خطير للغاية، لكن كان هم «سعود» بالدرجة الأولى التخطيط للقيام برحلة حج أخرى إلى مكة، وكانت تلك الحجة التاسعة والأخيرة له. ومن بين الترتيبات التي أعدها لذلك الغرض حدث أن أرسل «سعود» ابنه «عبدالله»

على رأس قوة كبيرة ليتفحص المواقع الدفاعية في منطقة مكة، وأمضى «عبدالله» في معسكر نصبه بالقرب من «وادي فاطمة» بعض الوقت دون حدوث أية مشكلات. وعند وصول والده مع قواته إلى ضواحي مكة انضم «عبدالله» إليه وساروا جميعاً لأداء شعائر الحج وسط الاحتفالات التي شهدتها مواسم الأعوام السابقة.

ومع بداية شهر كانون الثاني عام ١٨١٣م انطلق «سعود» بقواته عائداً إلى الدرعية تاركاً خلفه جزءاً كبيراً من قواته التي جاءت معه للدفاع عن مكة، وأمر ابنه «عبد الله» أن يعسكر بقواته في «وادي مر» وهو الجزء الأوسط من «وادي فاطمة» الذي يشطر الطريق إلى المدينة إلى شطرين. وبالرغم من أن «غالباً» أبدى كل الود ومشاعر الصداقة التي كان يبديها في الأعوام السابقة، إلا أن «سعوداً» اتخذ احتياطاته وجعل «غالباً» يجدد يمين الولاء والإخلاص وأن يقسم بالله العظيم بأنه لن يخونه. وكانت آخر هدية قدمها «سعود» إلى مكة القيلان الأسود الذي ألبسه للكعبة.

وبعد مغادرة «سعود» مكة بفترة قصيرة بدأت القوات التركية المتواجدة في «المدينة» و «ينبع» بالزحف على مكة، وما إن وصلت أخبار ذلك الزحف إلى «غالب» حتى سارع إلى تغيير موقفه، وقد تنبه «سعود» لذلك التغيير في الموقف وأمر الحاميات السعودية بالانضمام إلى القوة الرئيسة للدولة، وزحف بقواته إلى الممرات التي تربط جبال الحجاز مع صحاري نجد الشاسعة، وتقدم باتجاه منطقة «العبيلاء» عند سفوح مرتفعات الطائف، ومن هناك أرسل «عثمان المضايفي» إلى مقر القيادة في الطائف وأمره بالدفاع عن تحصيناتها مهما كلف الثمن. وعاد «عبد الله» إلى منطقة «الخرمة».

ويعلق «ابن بشر» بشكل غريب قائلاً: «وقد دخل المسلمون الفشل وذلك بقضاء الله وقدره، وبسبب ذنوبنا نسأل الله العظيم المغفرة»، على حد تعبير «ابن بشر». بدا خوف «عثمان المضايفي» يظهر تحسباً من غضب الله ومما قد ينزل بهم من عقاب، وما إن وصل إلى «الطائف» حتى جمع أبناءه ونساءه وبعضاً من خيله وهرب قبل أن ينضم -كما هو مقرر- إلى قوات عبد الله في السادس والعشرين من شهر كانون الثاني عام ١٨١٣م.

دخلت قوات «طوسون» مكة دون أية مقاومة. استقبلها «غالب» بالأحضان وبكل الترحيب، وبعد بضعة أيام تمكنت القوات التركية من احتلال الطائف وسارعت كل القبائل التي كانت تسكن المرتفعات هناك إلى الخضوع للحكم الجديد. لكن المناطق الغربية أبقت على ولائها لحكم «سعود»، كما حافظت قبائل المرتفعات في الجنوب وفي مناطق «تهامة عسير» على ولائها له أيضاً.

لم يعد حكم «سعود» قائماً على أساس وطيد، وأصبح محفوفاً بالمخاطر ومتقلقلاً، وأدرك «سعود» أنه لا يمكن لشيء أن يعدل من كفة الميزان سوى ردة فعل قوية يجابه بها الغزو التركي الذي تعززت قوته بسبب سيطرته على مناطق الحجاز. وعلى الفور انطلق «سعود» شخصياً على رأس قوة ضاربة جمعها من كافة مناطق نجد سواء من البدو الرحل أو من الحضر، واتجه بها نحو «الحناكية» وهي منطقة مهمة تقع على الطريق الرئيس بين المدينة والقصيم، وكانت القلعة هناك تحت سيطرة القوات التركية بقيادة «عثمان كاشف» كما كان مناصروه من قبيلة «حرب» يسيطرون على آبار المياه هناك، وعند مشاهدة القوات السعودية فر «عثمان كاشف» واختبأ بين الصخور

البركانية في منطقة «الحرة» والممتدة إلى مسافة تصل إلى «المدينة» تاركاً وراءه خيامه وكل معدات معسكره.

تقدم «سعود» بقواته وحاصر القوات النظامية الموجودة في القلعة، لكن بعد قتال بسيط طلبت تلك القوات وقف القتال، وسمح لها «سعود» بالرحيل شريطة أن لا تتوجه إلى «المدينة»، بل ترحل مباشرة إلى العراق، ومن هناك قام أمير «جبل شمر» ورجاله المقاتلون بمرافقتهم وفق ما اقتضت الظروف. بعد ذلك تقدم «سعود» على رأس قواته إلى «المدينة» وقام خلال زحفه بالاشتباك مع بعض التجمعات البدوية، وواصل المسير إلى أن واجه مجموعة كانت خليطاً من الخيالة الأتراك والبدو على ظهور الجمال بالقرب من «جبل أحد». وتمكن «سعود» من هزيمتهم واستمر في مطاردتهم إلى أن احتموا بأسوار «المدينة»، وبعد ذلك جاب أطراف «المدينة» استعداداً للانقضاض عليها، ووصل في تطوافه لوادي «الحساء»[1] ومن هناك انحدر بقواته باتجاه وادي الصفراء وغنم أثناء الانحدار كل ما كان في طريقه. وبعدها اتجه جنوباً نحو الجبال ومناطق الحرارة إلى أن وصل «السوارقية» وهناك استسلم الأهالي ووافقوا على التنازل عن نصف غلتهم من التمور التي كانوا يعملون على جمعها طيلة شهر آب (أغسطس).

مكث «سعود» بعض الوقت في المناطق المجاورة ليوزع غنائم الحرب ويراقب تطورات الأمور، وفي تلك الأثناء كلف «طوسون» (مصطفى باشا) بتنظيم حملة للهجوم على «تربة» حيث كانت قوات تركية تحاصر حامية سعودية. وبعد مضي يومين على ذلك الحصار وصلت قوات من «بيشة»

(١) وهي المعروفة الآن بأبيار أو آبار علي. وهي ميقات أهل المدينة. (المراجعون).

ومن مناطق أخرى لتساند الحامية السعودية، وفي الوقت الذي كانت فيه القوات السعودية مشتبكة مع القوات التركية حول تلك الحامية، قامت مجموعة احتياطية من القوات السعودية بالالتفاف على معسكر الأتراك واستولت عليه وأجبرت القوات المدافعة عن ذلك المعسكر على الفرار، عندها سحب «مصطفى باشا» قواته وسار بها نحو الطائف وهناك اشتبك مع القوات التي حشدها «عثمان المضايفي» لمهاجمة عدة قلاع صغيرة. والجدير بالذكر أن العرب كانوا قد استولوا على العديد منها وتوجهوا نحو وادي «بسل» المترامي الأطراف والتي توجد فيه عدد من الحاميات المحصنة. وبعد أن استولى «عثمان» على هذه الأماكن قام الشريف «غالب» على رأس حامية من القوات التركية النظامية بمهاجمته. وبعد حصار دام عدة أيام تمكن «غالب» بهجوم عاصف من الاستيلاء على هذه الأماكن وذبح كل من كان يدافع عنها بحد السيف، لكن تمكن «عثمان» من الهرب فقامت مجموعة من رعيان عتيبة بتقفي أثره وهاجمته في منطقة يقال لها صحراء «الحزم» وأسرته وسلمته إلى الشريف «غالب» الذي حظي في نهاية المطاف برأس وزيره السابق وأمر بإعدامه.

كان «سعود» في تلك الفترة قد رجع إلى الدرعية بعد أن قام بجولة استكشاف للمناطق القريبة من «المدينة» و «السوارقية». وهناك وجد نفسه مضطراً للتعامل مع المشكلات التي ظهرت في مقاطعة «عُمان». وعَيَّن «سعود» مجدداً «مطلق المطيري» قائداً على القوات السعودية في تلك المنطقة، فقام «مطلق» بمهاجمة «جعلان» في أقصى جنوب «البريمي» وفاز بالكثير من غنائم الحرب، لكن قبائل تلك المناطق جمعت قواتها لمطاردته فما

كان منه إلا أن واجهها وخسر تلك المعركة وقتل فيها. وقبل أن يحاول «سعود» القيام بأي عمل لإعادة الأمور إلى طبيعتها ظهرت أمامه أزمة جديدة في المناطق الغربية توجب عليه التعامل معها.

قرر «محمد علي باشا» في شهر تشرين الأول عام ١٨١٣م أن يرافق المحمل الذي كان يقل الحجاج المصريين المتوجهين إلى مكة للمرة الأولى منذ عدة سنوات. ودخل «محمد علي باشا» مكة في ظل الظروف والأحوال المواتية لذلك الحدث التاريخي، وبدأت قواته بالاستيلاء على كافة القلاع والمراكز الدفاعية القوية في المدينة. ومثل «غالب» بين يدي «محمد علي باشا» وقدم له كل ضمانات الولاء إلى جانب الهدايا الثمينة، وبادله «محمد علي» نفس حفاوة الاستقبال ومَنَّ عليه بالهدايا وشكره على الخدمات التي قدمها للأتراك. لكن بعد أن استتب الحكم والإجراءات الأمنية في المدينة الأم، قام «محمد علي» في الثالث من شهر تشرين الثاني عام ١٨١٣م باعتقال «غالب» وطرد أسرته من قلعة «أجياد» التي كانت تشرف على الحرم المكي، وسجن ابنيه الاثنين، وصادر كل ثروته الطائلة وعين مكانه أخاه «سرور بن يحيى بن سرور»[١] أميراً على مكة. وفي فترة لاحقة أمر «محمد علي» بنقل «غالب» وولديه «عبد الله وحسين» إلى مصر ومن هناك رحلوا جميعاً بموجب فرمان من الصدر الأعظم إلى «سالونيك» ليعيشوا تحت إقامة جبرية مكرمين تصرف لهم رواتب تغطي احتياجاتهم. وأمر الصدر الأعظم أيضاً بإعادة بعض ممتلكاتهم إليهم، وبقي «غالب» في ذلك المنفى إلى أن مات عام ١٨١٦م متأثراً بوباء الطاعون.

(١) الصواب أنه عين يحيى بن سرور. ابن أخ غالب. وليس سرور بن يحيى. (المراجعون).

بعد أن قام محمد علي بكل الترتيبات الإدارية الضرورية للسيطرة الفعلية على مناطق الحجاز، بدأ يتطلع إلى مسافات بعيدة عن الحجاز تصل إلى مناطق نجد التي فكر في الاستيلاء عليها. أما أشراف مكة فقد فر العديد منهم إلى المناطق الجبلية هرباً من التعرض لغضب الباشا ونزواته وتحرشاته بهم، لكن «محمد علي» استثنى من بين أولئك الأشراف الشريف «راجح» الذي كانت له خبرة كبيرة في أمور الصحراء، واعتمد علية كأداة مناسبة لإغراء باقي العرب بالوقوف إلى جانب قواته، وربما كان من المحتمل أن يعينه أميراً على مكة بدلاً من أخيه «غالب»، لكن لم تكن لدى «راجح» رغبة في خدمة الأتراك.

وحدث في أحد الأيام أن هرب «راجح» من مكة وانضم إلى القوات السعودية في «تربة»، وقام شريف آخر يدعى «يحيى بن سرور» بنفس العمل والتحق بالقوات السعودية في منطقة «تهامة»، فأرسلت القيادة التركية «طوسون» على رأس قوة لتحسم الأمر مع قوات الحامية الموجودة في «تربة»، وبعد بضعة أيام من القصف المدفعي والمناوشات قرر «طوسون» التراجع عن «تربة»، وبهذا سجلت نهاية ذلك العام توقفاً عن الأعمال العسكرية التي -على ما يبدو- لم يكن بالإمكان الاستمرار فيها. وربما تجدر الإشارة بشكل عابر إلى أن هذا العام المأساوي الذي شهدته فترة حكم «سعود» والمصادف لعام ١٢٢٨ هجري، جاء مطابقاً لامتداد العام الميلادي ١٨١٣م إذ كانت بدايتهما في الرابع من شهر كانون الثاني ونهايتهما في الثالث والعشرين من شهر كانون أول.

شهدت الأشهر الأولى من عام ١٨١٤م عمليات عسكرية غير حاسمة حدثت في مناطق «تهامة» بالقرب من القنفذة وحول «الحناكية»، لكن اجتياح الأسراب الكثيفة من الجراد لمنطقة نجد أحدثت بين الأهالي مخاوف وذعراً فاقا المخاوف والتهديدات التي سببتها قوات الغزو التركي المتواجدة على مسافات بعيدة عن نجد.

ووري جثمان الأمير «سعود» التراب إلى جانب قبور آبائه وأجداده في الأول من شهر آيار عام ١٨١٤م، تاركاً لابنه «عبد الله» مهمة الدفاع عن المملكة وعن الدعوة السلفية التي قدم من أجل التوسع فيها أكثر ما يمكن أن تصل إليه مخيلة مؤسسيها الأصليين. ومختصر القول إن «سعوداً» كان رجلاً مسلماً قوياً، وسلفياً شجاعاً، ومحارباً باسلاً، وملكاً عظيماً بمقياس منهج الأيام الخوالي والأزمنة الغابرة المنصرمة.

الفصل الخامس

عبدالله (الأول) ابن سعود

عبد الله (الأول) ابن سعود

في بداية عام ١٨١٤م وبعد فشل الحملة التي قام بها «أحمد طوسون» لإخضاع بلد «تربة» خلال فصل شتاء ذلك العام، كان «محمد علي باشا» شخصياً يشرف على عدة عمليات، بهدف استقرار الأوضاع في مناطق الحجاز وفي مناطق أخرى على ساحل البحر الأحمر.

قامت قوات تركية مساندة -ونقلت من مصر عبر البحر الأحمر- بالاستيلاء على ميناء «القنفذة» الواقع جنوب «جدة»، وقام «طامي بن شعيب» زعيم قبائل عسير بمهاجمة المعسكر المصري وأجبر القوات القادمة من مصر على الفرار والعودة إلى قواربها. وتمكن الناجون منهم من التوجه إلى «جدة» تاركين كل مستلزمات معسكرهم غنيمة في أيدي العرب. وكلف «طوسون» في تلك الأثناء بقيادة حامية كانت في منطقة الطائف ليشرف على المناطق الصحراوية بين «الطائف» و «تربة». وفضل الشريف «راجح» الانضمام إلى القوات السعودية في «تربة» على أن يثق بتملق الوالي التركي ممثل الصدر الأعظم في «مصر» الذي فكر في استخدام نفوذه لصرف أنظار القبائل عن الهدف الرئيس لعدوهم.

والأمر الآخر المشابه لهذا الحدث هو أن الشريف «يحيى بن سرور» غادر مكة تحت ذريعة مهاجمة القبائل المعادية للمصريين، وتمكن بتلك الذريعة من الهرب والوصول إلى مناطق «تهامة عسير».

إن ما أحدث تغييراً مفاجئاً في هزيمة «تربة» كانت المقاومة الناجحة التي أبداها مقاتلو قبيلة «حرب» في شهر كانون الثاني بمنطقة «الحناكية» ضد

الهجوم الذي شنته قوات من «القصيم» و «حائل». والجدير بالذكر أن تلك القبيلة كانت مقربة من العثمانيين. لكن حدثت في الشهر نفسه موقعة دارت بالقرب من «صفينة» وفيها تمكنت قوات الأمير «عبد الله بن سعود» من إلحاق هزيمة بأبناء قبيلة حرب. كانت تلك الموقعة والعملية أكثر من مجرد غزوة من النوع التقليدي؛ إذ كان هدفها وبدون شك تحذير البدو من التعاون مع قوات العدو. لم يغر ذلك الانتصار «عبد الله» بالبقاء في المناطق التي تحتلها القوات المعادية، فتوجه بقواته عائداً إلى ديرته وعند وصوله إلى آبار «الخنوقة» بالقرب من «الدوادمي» وصلته أخبار وفاة والده.

أصبحت الآن مسؤولية الدفاع عن أرض أجداده ضد العدو القوي والعنيد ملقاة على عاتقه خلال فترة حكمه التي لم يقدر لها أن تدوم فترة طويلة لكنها كانت مملوءة بالقلاقل والمحن. وقد دلت الأعمال التي قام بها على أنه لم تكن لديه النية في ترك المبادرة كلياً في أيدي أعدائه.

على أية حال تابع «عبد الله» المسير بقواته باتجاه الدرعية، وقبل الوصول إلى هناك ليستمع إلى قسم الولاء لحكمه وله شخصياً، أمر زعيم عتيبة «غصاب» بترك الحملة والتوجه إلى «تربة» ليقود كافة التشكيلات العسكرية العاملة هناك، إذ أصبحت «تربة» الآن منطقة أساسية ورئيسة في الدفاع عن حكمه.

وفي شهر أيلول كان «عبد الله» شخصياً على رأس قوة كبيرة من «نجد». توجه بها إلى «الرس» وأقام هناك مقراً رئيساً لقوته وأغار على مناطق مختلفة لقبيلة مطير، وهي قبيلة اتخذت موقفاً حيادياً تجاه القوات المصرية. وأما في شهر تشرين الثاني فتوجه بقواته من جديد نحو مناطق الحجاز لمنازلة قبيلة «حرب» في المنطقة البركانية التابعة لجبل غراب، ومنها عاد إلى منطقة

القصيم ليقضي فترة راحة طويلة قبل أن يعود أخيراً إلى الدرعية في شهر شباط من عام ١٨١٥م. وفي ذلك التاريخ أرسل أخاه «فيصلاً» على رأس قوة ليتولى قيادة «تربة» وليشرف على سير العمليات في تلك الجبهات، وسرعان ما انضم إليه «طامي بن شعيب» بتعزيزات قوية تقدر بعشرين ألف رجل، جاءت معظمها من جبال تهامة والحجاز. وتحركت جموع القوات التي بلغ تعدادها الآن ثلاثين ألف رجل عن طريق مشارب «غزائل» في وادي تربة باتجاه «بسل» وهناك اشتبكت مع القوات المصرية وحاصرتها وانتهى الحصار بفوز السعوديين. لكن في صباح اليوم التالي وصلت تعزيزات إلى القوات المعادية - يفترض أن طوسون أرسلها إليهم - وهاجمت القوات السعودية وتمكنت من دحرها، علماً بأن قوات «فيصل» بقيت في مواقعها وانسحبت في نظام تام باتجاه «تربة» دون أن تطاردها القوات المصرية. وقصد «فيصل» من خطة تراجع قواته إلى «تربة» أن يعيد ترتيب جيشه استعداداً لجولة جديدة ضد العدو.

تلاشت قوات «طامي» وحشود البدو التي كانت معه داخل الصحراء، وعندما علم «فيصل» بقدوم القوات المصرية قام على الفور بإخلاء «تربة» وتوجه بقواته جنوباً نحو «رنية» وهناك سرح حلفاءه من القبائل المحلية قبل عودته إلى «نجد».

أصبحت «تربة» الآن تحت سيطرة «محمد علي باشا» الذي تولى قيادة القوات مباشرة بعد معركة «بسل». وزحف «محمد علي باشا» بقواته نحو «بيشة» و «تبالة» وقمع في طريقه كافة أشكال المقاومة. وأثناء تقدمه عمل على تنظيم شؤون الحكم في تلك المناطق. كما أطلق الأتراك يد الشريف

«راجح» وأرسلوه لاحتلال «رنية» ونهب ممتلكاتها بسبب دعمها ومساندتها للقوات السعودية.

استمر «محمد علي» في التقدم جنوباً ليحتل «خميس مشيط» وليحتل واحات «وادي شهران»، وقد أبدت قبائل «شهران» و «ربيعة» وباقي المناطق هناك استسلامها لـ «محمد علي»، إلا أن جماعة «طامي» والعشائر التي كانت تقطن المناطق المرتفعة هناك قاومت القوات الغازية التي كانت تحاول شق طرقها في أعالي الجبال.

تم تعزيز مستوطنة «الطلحة» التي تقع في ممر «شعار» على الطريق بين «أبها» و «القنفذة»، وجهزت بمعدات ومقاتلين ووضعت تحت إمرة «حوان» بينما تراجع «طامي» بقواته إلى مرتفعات «بني مغيد» ليدير من هناك أعمال حرب العصابات. ولم يواجه «محمد علي» سوى قليل من المتاعب في السيطرة على «الطلحة»، وتمكن من تدمير استحكاماتها قبل أن ينزل بقواته باتجاه «عقبة تيه» متقدماً نحو «محايل» و «القنفذة». وقد غادر «طامي» المناطق الجبلية متوجهاً إلى معاقل تهامة في «مسلية»، ومن هناك غرره أصدقاؤه بالتوجه إلى «صبيا» عاصمة تهامة قاصدين خداعه، وهناك تم اعتقال «طامي» وتسليمه إلى «محمد علي» الذي أمر بترحيله إلى مصر وتم إعدامه هناك شنقاً.

وصلت إلى «محمد علي» في «القنفذة» أخبار المشكلات التي كانت تدور بين المماليك وحكومته، وعليه قرر في الحال العودة إلى مصر تاركاً أمر إدارة العمليات المستقبلية إلى «طوسون» الذي كان في ذلك الوقت في «المدينة» يحضر لشن حملة ضد «نجد».

كانت الأخبار التي نقلها إلى «طوسون» بعض العناصر المستاءة والساخطة في منطقة «الرس» و «الخبرا» مشجعة لـ «طوسون» وجعلته يصدر أوامره إلى القوات الموجودة في «الحناكية» بالتحرك إلى «القصيم». وعليه تمكنت القوات التركية من السيطرة على بلدتي «الرس» و «الخبرا» دون أية مقاومة، كما تمكنت من احتلال القلاع والمستوطنات الصغيرة في المناطق المجاورة لهما، علماً بأن القرى والمدن في وسط القصيم وفي الجبهات الشرقية من ذلك الإقليم، بقيت على ولائها للدعوة السلفية وفي مقارعة القوات المصرية التركية، إلى أن تمكن «عبد الله» من حشد قواته من كافة مناطق «نجد» وقدم لنجدة مناطق وسط وشرق «القصيم».

وفي منتصف شهر نيسان من عام ١٨١٥م غادر «عبد الله» الدرعية متوجهاً إلى «المذنب» المكان المتفق عليه للقاء القوات، وتحرك من هناك متوجهاً إلى «الرويضة» بالقرب من «الرس». واكتفى المصريون هناك بإطلاق نيران المدفعية عن بعد، لكن «عبد الله» سار بقواته نحو جماعة «حرب» ورجال عشائر «مطير» التي كانت متجمعة حول آبار «البصيري» باتجاه الغرب، وفي طريقه إلى هناك وصلته أخبار مفادها أن «طوسون» كان قد وصل على رأس قوة كبيرة إلى «الداث» في طريقه إلى «الرس»، وعلى الفور توجه «عبد الله» إلى هناك على أمل أن يفاجئ العدو عند موارد المياه، لكن «أحمد طوسون» الذي كان قد توقع من «عبد الله» أن يقوم بذلك التحرك، تابع مسيره مباشرة إلى منطقة «الرس». وأرسل «عبد الله» فرقة رجال «القصيم» لمقاومة أي تقدم محتمل لقوات العدو، وعاد هو بنفسه إلى خطته الأولى وهاجم تجمع القبائل في «البصيري». وبعد أن وجه ضربة

ناجحة ضدهم وصلته أخبار أن قوة تركية أخرى كانت قد وصلت إلى قلعة وآبار «البعجاء» القريبة منه، وكان عليه التحرك لملاقاتها. وتمكنت القوات السعودية بقيادته من النيل من تلك القوة التي بلغ تعدادها اثني عشر ألف رجل، واختبأ رجالها في البيوت إلا أنه داهمهم كما داهم الحامية التي كانت هناك وقتل كافة رجالها.

عاد «عبد الله» بعد ذلك إلى قاعدته في المذنب وقام «طوسون» الذي كان مسيطراً على «الرس» و «الخبرا» باقتحام موقع متقدم في «الشبيبية» بالقرب من «عنيزة» واستولى عليه. وكان «طوسون» ينوي احتلال «عنيزة» عندما تحين الفرصة وتحويلها إلى مقر رئيس لقواته، وعلى أي حال سبقه «عبد الله» في الوصول إليها وجعل منها قاعدة لحملاته ولغزواته المتكررة ضد القوات المصرية وحلفائها من البدو. كان الوضع العام للقوات المصرية وحلفائهم المتواجدين في منطقة محاطة بأعدائهم سيئاً، إضافة إلى أن جماعات من منطقة «الرس» سارعت في التفكير عن التسرع في استسلامها لـ «طوسون» وقامت بهجوم احتلت على إثره قلاع «الشنانة» لتستفيد منها قوات الأمير «عبد الله». سحب «عبد الله» القوات المتقدمة والموجودة في منطقة «الشبيبية» وسار بقواته خارج «عنيزة» باتجاه آبار «الحجناوي» وعسكر هناك لمدة شهرين قام خلالهما بممارسة الهجمات المتوالية على مواقع «طوسون».

هذا ولم يعرف السبب المباشر للتطور الذي حدث لاحقاً في الأحداث، إذ يعزوه بعض المؤرخين إلى وضع «طوسون» المضطرب في وسط الصحراء، والبعض الآخر يعزوه إلى الأحداث التي حصلت في «مصر» مؤخراً أو إلى صحته المتردية. ومما حدث أن أحد الضباط الأتراك كان يرافقه دليلان واحد

من جماعة «حرب» والآخر من جماعة «مطير» وكان ذلك الضابط في طريقه إلى «طوسون»، فاعترضت سبيله دورية من القوات السعودية واقتادته إلى معسكر «عبد الله»، وقد أبلغ الضابط التركي «عبد الله» بأنه يحمل رسالة إلى «طوسون» من والده الذي يأمره في تلك الرسالة بالتوصل إلى صلح وسلام والعودة إلى مصر.

أحسن «عبد الله» استضافة الضابط التركي وسمح له بالذهاب إلى «طوسون»، وسرعان ما توصل القائدان إلى اتفاق سلام يفضي أولاً إلى إنهاء الأعمال العدائية فيما بينهما، وثانياً إلى إنهاء التدخل التركي في شؤون نجد، وثالثاً حرية التجارة بين الجزيرة العربية وجيرانها والتأكيد على سلامة وحرية رحلات الحج لكافة الجماعات المسلمة المعنية. وعليه غادرت القوات المصرية «الرس» متوجهة إلى «المدينة» في منتصف شهر تموز من عام ١٨١٥م، ورافق «طوسون» مبعوثان على مستوى رفيع من الجانب السعودي وحملا معهما رسالة من «عبد الله» إلى «محمد علي» والتي بموجبها أصبحت الهدنة سارية المفعول. وفي نهاية شهر أيلول عام ١٨١٧م توفي «طوسون» في مصر بعد أن سجل فشلاً في حملته ضد الجزيرة العربية، وقبل هذا التاريخ بشهر تقريباً كان الشريف «غالب بن مساعد» (الذي نفاه محمد علي من مكة قبل بضع سنوات) قد مات أيضاً في «سالونيك».

يبدو أن «عبد الله» قد أعد حملته ضد «طوسون» بقوة ومهارة كبيرتين حافظ على العناصر الهشة التي كانت بين قواته وأبقاها تحت أنظاره، كما شجع إرادة الأهالي في مناطق «القصيم» ورفع معنوياتهم في مواجهة الاعتداء المصري على حقوقهم وممتلكاتهم، وجلى ذلك في تكفير أهالي

«الرس» عن سوء تصرفهم. وحقيقة إن مبادرة «محمد علي» شخصياً في إلغاء الغزو ضد مناطق «نجد» جاءت بمثابة انتصار معنوي للقوات السعودية. وبرزت نتائج هذا النصر المعنوي أيضاً في المقاومة الرفيعة المستوى التي أبدتها مناطق ومدن «نجد» والتي أشاد بها «إبراهيم باشا». وقد شعر «عبد الله» بأنه يستحق فترة استراحة يقضيها في الدرعية، علماً بأنه كان على يقين من أن هناك حاجة ماسة لمواجهة بعض الجماعات سواء من البدو الرحل أو من الحضر، لأن عدم ولائهم المفضوح قد تجاوز الحد وأصبح من الصعب تجاوزه أو الصفح عنه. ومع حلول نهاية العام كان «عبد الله» قد انتهى من تجميع قواته في «القصيم» التي سبق وأن استدعاها من كل حدب وصوب من مملكته: وكان قد جمعها من «عُمان» و«وادي الدواسر» و «الأحساء» و«جبل شمر» وحتى من «الجوف» في أقصى الشمال، ناهيك عن الفرق التي جمعها من الدرعية ومن مناطق «القصيم» نفسها، وكانت منطقتا «الخبرا» و«البكيرية» أول المناطق التي استهدفها، فدمر الآبار فيها باعتبارها مصدراً من مصادر الضرر مستقبلاً، وبعد ذلك سار بقواته غرباً بحثاً عن تجمعات قبائل «حرب» و «مطير»، ووصل إلى آبار «العلم» بالقرب من «الحناكية» واستمر في تقدمه جنوباً نحو موارد مياه «حرة الكشب»، وبعدها رجع باتجاه الدرعية عن طريق «الدفينة».

حاول في تلك المرحلة إخفاء الإعياء الذي أصاب قواته نظراً لأن القبائل كانت منتشرة في الصحراء تحاول تجنب الاحتكاك مع قواته. وقام أهالي تلك المناطق بتدمير أو ردم العديد من الآبار التي يمكن لأي قوة غازية أن تستفيد منها. وتمكنت قوات «عبد الله» من أسر أمير «الرس» واثنين من كبار

الشخصيات فيها، واقتادوهم إلى الدرعية كرهائن. وقد أحدث هذا التصرف بعض الاستياء بين أهالي «القصيم»، فقامت بعض العناصر المستاءة وغير الموالية بإرسال رسائل إلى «محمد علي باشا» الذي كان في ذلك الوقت مستعداً لاستئناف نشاطاته في الجزيرة العربية.

وبعد وفاة «طوسون» وقع اختيار «محمد علي» على ابنه «إبراهيم» ليقود حملته العسكرية، لكن الرسل والهدايا التي أرسلها «عبد الله» إلى الوالي (والتي طلب فيها تجديد الهدنة أو التأكيد عليها) لم تلق نفس الترحيب الذي لاقته في السابق، وعليه استمرت الترتيبات الخاصة بالحملة العسكرية ضد الجزيرة العربية، ووصل «إبراهيم» بقواته الضخمة إلى «المدينة»، وكان ذلك إما في شهر تشرين الأول أو في شهر تشرين الثاني عام ١٨١٦م. وأقام إبراهيم في «الحناكية» مركزاً دفاعياً متقدماً ليبدأ في طي الجزيرة العربية متقدماً نحو جوهرتها الدرعية، وقد أسفرت الهجمات التي شنها على مواقع البدو عن إجبارهم على التحالف معه في مغامرته التي كان على وشك الخوض فيها، وكانت الجماعات الرئيسة (التي تمكن من حشدها لمساندة قواته) من قبائل «حرب» و «مطير»، علماً بأن بعض العناصر من «عتيبة» ومن «عنزة» (الدهاشمة) انضمت إليه أيضاً.

وبالتدريج توسع «إبراهيم» بغاراته شرقاً إلى أن وصل إلى مشارف القصيم عند مرتفعات «أبانان». وبدأ «عبد الله» بإعداد ترتيباته لمجابهة خطر ذلك الغزو فأصدر أوامره إلى فرق «الوشم» و «سدير» بالانضمام إلى قوات «حجيلان بن حمد» زعيم منطقة القصيم التي كانت قد اتخذت مواقعها في منطقة «الغميس» بين «بريدة» و«الخبرا» ومضى على وجودها هناك أربعة

أشهر وبقيت دون عمل إلى أن قدم «عبد الله» إلى «الرس» في شهر آذار من عام ١٨١٧م على رأس قوة كبيرة وهناك استدعى «حجيلان» وقواته، وتوجه بجموع تلك القوات على طول وادي «الرمة» إلى أن وصل آبار «العلم» على أمل أن يداهم حلفاء «إبراهيم باشا» من البدو في تلك المنطقة، لكنه وجد أن أولئك البدو كانوا قد انسحبوا إلى «الحناكية» وعليه عاد «عبدالله» بقواته إلى «مسكة» و«نجخ» ليراقب تطور الأوضاع. وهناك وصلت إليه أخبار مفادها أن قوة تركية بقيادة «علي أزن» ترافقها قوة من البدو كانت في طريقها إلى آبار «ماوية» والتي تبعد مسير يومين جنوب شرق «الحناكية».

وعلى الفور سار «عبد الله» بقواته وداهمهم بهجوم مفاجئ في صباح الأول من أيار (مايو)، وطاردهم إلى أن وصل إلى مسافة تقع ضمن المدى المجدي لنيران المدفعية التركية، وهناك عسكر «عبد الله» في موقع مقابل لمعسكر العدو إلا أن مدافع العثمانيين أوقعت الكثير من الإصابات بين صفوفه، وأدى الفشل في محاولته احتلال تلك الآبار إلى هروب قواته بشكل غير منظم. وهكذا سيطرت القوات المصرية على أرض المعركة وعلى آبار المياه. وتمكن «عبد الله» مع فريق من فرسانه من الهروب أيضاً والعودة إلى «نجد»، تاركاً هناك كل المعدات الثقيلة ومنها عاد إلى «عنيزة» عن طريق «الخبرا».

عزز «إبراهيم» ذلك النصر بأن تقدم بقواته من «الحناكية» باتجاه «ماوية» جاراً معه كامل معداته، ومن هناك استمر في تقدمه نحو «القصيم» إذ وصل إلى مشارف «الرس» في التاسع من تموز ووجد أن «عبد الله» كان قد أرسل

لهم تعزيزات لتحول دون تفكيرهم بالاستسلام للأتراك. حيث قاوم الأهالي هناك بكل عزيمة وإصرار الحصار الذي فرضه «إبراهيم» عليهم، إلا أن كفة المعركة رجحت لصالح قوات «إبراهيم» التي لم تترك مدافعها وألغامها وآلية الحصار التي فرضها على الناس أية فرصة للراحة (لا في الليل ولا في النهار). كان السكان أثناء الليل يسدون الفجوات التي استطاعت قوات إبراهيم ومدافعه إحداثها في النهار، كما كان الأهالي المحاصرون يرسلون فرقاً لتبطل الألغام التي زرعها المهاجمون، ويبدو أن المصريين استخدموا أنواعاً من القذائف كانت تنفجر إلى شظايا عندما تسقط داخل التحصينات التي أقامها الأهالي.

ومع استمرار المعارك على مدى بضعة أيام، وغياب أي أمل في انفراج الحصار، أرسل الأهالي رسائل إلى «عبد الله» الذي كان لا يزال في «عنيزة»، لكنه عجز عن التدخل بشكل مباشر، وناشدوه في التدخل بشكل سريع، أو كبديل عن ذلك، ناشدوه أن يسمح لهم بالتفاوض مع العدو. في تلك الأثناء وصلت إلى القوات المهاجمة تعزيزات ومؤن ضخمة من مصر وأصبح المدافعون في وضع يائس. وبعد أربعة أشهر من الحصار أجبروا على الاستسلام، ووافق «إبراهيم» على استسلامهم وقدم لهم شروطاً سخية في الخامس والعشرين من شهر تشرين الأول من عام ١٨١٧م، وسمح لهم بالخروج من معاقلهم مع كافة أسلحتهم ومعداتهم للالتحاق بقوات «عبد الله» في «عنيزة». وقد بلغ تعداد القتلى بين صفوفهم سبعين رجلاً في حين ذكرت تقديرات المؤرخين بأن عدد القتلى بين صفوف القوات المصرية وصل إلى ٦٠٠ قتيل.

بعد أن أمضى «عبد الله» عيد الأضحى في عنيزة، وفي عشية سقوط «الرس» بدأ «عبد الله» -مجدداً- في إعداد الترتيبات اللازمة للدفاع عن المدينة وعن قلاعها ضد تقدم قوات «إبراهيم». حيث وضع الحامية العسكرية التي كانت تحت إمرة ابن عمه اللزم «محمد بن حسن بن مشاري ابن سعود» في قلعة «الصفا» الحيوية تحت إمرة «إبراهيم» أخي «محمد»، وزودها بالعتاد والسلاح والمؤن، ووضعها وتوجه بعد ذلك إلى «بريدة» وراقب تطور الأوضاع وأدرك أن أفضل عمل يمكن أن يقوم به هو إنهاك القوات المصرية بالحصار الطويل، بدلاً من منازلتهم بأسلوب حرب العصابات المتبع تقليداً في حروب العرب.

تحرك «إبراهيم باشا» على الفور بقواته نحو «عنيزة» التي استسلم أهلها في الحال، أما قلعة «الصفا» فأبدت مقاومة باسلة، إلا أن قذيفة انفجرت في مستودع البارود داخل القلعة وأحدثت فتحات كبيرة في جدرانها. وقد اضطر «محمد» حيال سقوط «عنيزة» وسقوط القوات المدافعة عن القلعة إلى طلب وقف إطلاق النار، وقبل «إبراهيم» الطلب وكان متساهلاً في شروط الاستسلام، وسُمح للحامية التي كانت تدافع عن القلعة بالرحيل مع ممتلكاتها وأسلحتها، وطلب من رجالها التفرق والذهاب كل إلى بيته.

سقطت كافة مناطق القصيم في أيدي الأتراك، وهرع «عبد الله» عائداً إلى الدرعية لينظم قواته لتصد هجوم الأتراك القادم على الدرعية. وفي طريقه إلى هناك توقف في «شقراء» ليشجع أهلها على مقاومة الغزاة بكل ما يملكون من قوة، وطلب أمير شقراء «أحمد بن يحيى بن غيهب» من الأهالي تجهيز الخنادق المحيطة بالمدينة، والتي سبق أن استخدموها في صد قوات

«طوسون» قبل سنتين، وكان العمل فيها قد توقف بسبب الهدنة التي توصلوا إليها في ذلك الوقت واستجابة لذلك الموقف جلب الأهالي الكثير من المؤن إلى داخل المدينة تحسباً لحصار طويل، وتم جمع تلك المؤن والمعدات الأخرى عن طريق جبايتها بالقوة من أثرياء المدينة، وقاموا أيضاً بقطع سعف أشجار النخيل لكي لا تشب فيها نيران القذائف.

وبعد أن انتهى «إبراهيم باشا» من الترتيبات الأمنية في «عنيزة» توجه إلى «بريدة» التي استسلم أميرها «حجيلان» والأهالي هناك دون مقاومة، وهكذا سقطت كافة مناطق القصيم في أيدي الأتراك بعد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع من انهيار المقاومة الباسلة لأهالي «الرس»، وعليه كان الطريق مفتوحاً أمام «إبراهيم باشا» لمتابعة المسير جنوباً، وفعلاً توجه إلى «المذنب» وأخذ معه ابن حجيلان واثنين من وجهاء «بريدة» كرهائن، ومن هناك توجه إلى «أشيقر» و «الفرعة»، واستسلم أهالي هذه المناطق لدى وصول قوات «إبراهيم باشا» إلى بوابات قراهم. واتخذ «إبراهيم باشا» من «أشيقر» قاعدة لقواته، وفي الرابع والعشرين من شهر كانون الثاني عام ١٨١٨م توجه لاستطلاع «شقراء» والمناطق المحيطة بها، ليرسم خطة مهاجمة المدينة التي كان يدرك أنها ستبدي مقاومة باسلة خلف تحصيناتها القوية. وفي اليوم التالي بدأ هجومه من مواقع إلى الشمال والشرق من البلد، ودارت معارك عنيفة بين البلد وخارجها تكبد الأتراك فيها إصابات كثيرة، إلا أن التعزيزات وصلت لمساندتهم، وتم إجبار المدافعين على التراجع إلى داخل المدينة، وأصيب أميرهم بجراح بالغة.

نشر «إبراهيم باشا» فرق المدفعية لتدك جدران المدينة من موقع على هضبة في الجانب الشمالي، ووصل دوي قصف مدافعه ليس فقط إلى «سدير» و«المجمعة» القريبتين، بل وصل حتى سهول «العرمة». وقد تراجع الأهالي خلف أسوار المدينة، واقتربت مدافع «إبراهيم باشا» من أحياء المدينة وتم قطع العديد من أشجار النخيل المحيطة بها، إلا أن السكان تصدوا للهجوم بإصرار، وقاوموا العدو من خلف كل جدار أو بناء منهار، وبرزوا من مواقع حول خندق المدينة الذي أمن لهم قدراً لا بأس به من الحماية، واستمر الأهالي في رفض طلب «الباشا» منهم الاستسلام ولو كان ذلك وفق شروط مشرفة، إلا أن مجريات الأمور لم تكن لصالحهم، ففي العاشر من شهر نيسان استسلم الأهالي وسقطت «شقراء». ويعني سقوطها استسلام باقي مناطق «الوشم». من هنا أرسل «إبراهيم باشا» قوة تحت إمرة «رشوان آغا» لإخضاع منطقة «سدير» و «المجمعة»، ولم يواجه «رشوان» سوى مقاومة بسيطة إن لم تكن معدومة. وقد تفادت «حريملاء» و «المحمل» سطوة القوات التركية - المصرية وأبلغت «إبراهيم باشا» عن استسلامهما له خلال فترة استراحته في «شقراء» التي دامت شهراً تقريباً.

خلال تلك الفترة كان «الباشا» مشغولاً بالإشراف على هدم ما تبقى من الأسوار، ومشغولاً في ردم الخنادق. وتعاظمت الشكوك المتعلقة باحتمال عدم الولاء للباشا بعد رحيله. وقد غذت تلك الشكوك في ذهن الباشا بعض الجماعات التي لها مصلحة من هذه الشائعات، فما كان من «إبراهيم باشا» إلا أن عامل الأمير الجريح وعدداً آخر من الوجهاء معاملة جلفة وتمكن من إقناع الناس بالتهم التي ألصقت بهم. وعلى أي حال أخذ «إبراهيم باشا» معه عشرة من أهالي البلدة كرهائن وتوجه بهم أخيراً إلى «ضرماء».

توقع «عبد الله» أن يقوم «إبراهيم باشا» بتلك الحركة، فما كان منه إلا أن أرسل إلى «ضرما» تعزيزات بقيادة ابن عمه «سعود بن عبد الله بن محمد بن سعود» وأرسل معه «ابن عفيصان» و «محمد العميري».

عندما وصلت قوات «إبراهيم باشا» في العشرين من شهر شباط إلى المناطق المجاورة لضرماء، أدرك أن المدينة كانت على علم مسبق بقدومه وكانت مسلحة لمقاومة هجومه، فأمر قواته بالتمركز في بلد «المزاحمية» التي تقع على مسافة عدة أميال إلى الشرق من «ضرماء». وصف مدافعه وجهز معدات الحصار ليدك أسوار المدينة وفق خططه العسكرية التي أصبحت الآن معروفة للجميع، وبعد أن أضعف من مقاومة المدينة دفع بقواته في محاولة للاستيلاء عليها، إلا أن المدافعين البواسل صدوهم وقتلوا منهم حوالي ٦٠٠ رجل. بعدها بدأوا في ترميم الفتحات في أسوارهم التي صمدت في وجه نيران المدافع، فوجه «إبراهيم باشا» مدفعيته إلى مكان آخر من التحصينات حيث كان «متعب بن عفيصان» ورجاله يتصدون للقصف ببسالة، إلا أنهم سمعوا منادياً ينادي أن الأتراك تمكنوا من التسلل خلف صفوفهم وأصبحت المدينة مكشوفة وتحت رحمتهم، فتوقف «متعب» ورجاله عن القتال وقام رجال «الباشا» بمطاردتهم داخل شوارع المدينة. وزاد المطر الذي كان ينهمر بغزارة والبرد الشديد من معاناة الجميع، واستمرت المعارك في الشوارع إلى ما بعد غروب الشمس.

في تلك الأثناء تمكن «محمد العميري» مع فرقة بسيطة من «ثادق» من اختراق صفوف العدو والهرب، بعدها قام المصريون بنهب المدينة وذبح كل شخص يشاهدونه في الشارع.

ولاذ «سعود بن عبد الله» ومعه حوالي مئة رجل إلى أحد القلاع في المدينة، لكنهم استسلموا في وقت لاحق وفق شروط مشرفة سمح لهم «إبراهيم باشا» بموجبها بالمغادرة إلى الدرعية بسلام.

هرب معظم أهالي المدينة إلى الصحراء وبدأ «إبراهيم باشا» بجمع غنائم الحرب، وبالمناسبة تجدر الإشارة إلى أنه جمع -أيضاً- النساء والأطفال (الذين بلغ عددهم ٣٠٠٠) وأرسل معهم فرقة لتؤمن وصولهم إلى الدرعية دون أن يصابوا بأي أذى أو أن يتحرش بهم أحد.

وهكذا بعد ثلاثة أو أربعة أيام فقط من بدء هجوم قوات «إبراهيم باشا» عليها سقطت «ضرما» المعروفة بأنها من أقوى مدن نجد بعد «الدرعية». يقال إن عدد القتلى من بين رجالها البالغ تعدادهم ١٢٠٠ رجل وصل إلى ٨٠٠ رجل، كما مات عدد مشابه من التعزيزات التي وصلت لنجدتهم.

وبعد أن نهبت قوات «إبراهيم باشا» المدينة انسحبت استعداداً للمرحلة الأخيرة من الحملة التي كلفه بها والده. فسار «إبراهيم باشا» بقواته في ممر «الحيسية» المحاذي لوادي «حنيفة»، ومر «بالعيينة» و «الجبيلة»، وأخيراً عسكر في بلد «الملقا» التي تبعد عن الدرعية حوالي مسير ساعة على ظهر الجمال. ومن هناك قام بنفسه بجولة استطلاع ووصل إلى منطقة «العلب» عند مدخل البلد. وقد رافقه في جولة الاستطلاع تلك عدد من ضباطه ومعهم المدافع. وسارت تلك القوة في الوادي، في حين كانت فرقة الخيالة تسير على طول المرتفعات في أعلى ضفة الوادي. وبعد مناوشات عنيفة مع المواقع المتقدمة لقوات «عبد الله» عاد «إبراهيم باشا» إلى «الملقا» ليكمل ترتيباته للمعركة التي بدأت في اليوم التالي المصادف للحادي عشر من شهر آذار عام ١٨١٨م.

في الوقت الذي كانت فيه المناطق والمدن والقرى في «نجد» تسقط الواحدة تلو الأخرى أمام زحف الغزاة، كانت هناك عناصر ترفض وباستمرار فكرة العيش بسلام تحت الحكم الأجنبي الكافر. حيث تجمعت هذه العناصر واحتشدت في المواقع الدفاعية بالمدينة وزودها «عبد الله» بكل ما تحتاجه لمواجهة متطلبات الوضع.

تقع الدرعية في الوادي العميق الذي يطلق عليه اسم «وادي حنيفة» والذي يبلغ متوسط عرضه حوالي ٥٠٠ ياردة ويمتد على طول أربعة أميال من الشمال إلى الجنوب، وتقع على جانبيه واحات النخيل الكثيفة وتطل على ضفتيه صخور انكسارية بطول مئة قدم، ويقع في حنايا هذا الوادي عدد من القرى والبلدان الصغيرة، وفي أعالي هذه القرى وعلى حافة الصخور في الضفة اليمنى من الوادي تجثم قلعة «الطريف». وكانت هناك قصور عائلة «سعود» والمنازل الفخمة الكبيرة التي كان يعيش فيها أتباعهم، إضافة إلى عدد من المساجد وأماكن الترفيه المتعارف عليها في المدن العربية. وكان هناك أيضاً أخدود عميق يفصل القلعة عن الضفة اليمنى، أما في الطرف الآخر فكانت تنتشر المنازل المتواضعة والبيوت التي كان يعيش فيها الحرفيون وطبقات اجتماعية أخرى.

وخارج هذه الضاحية كان هناك سور تعلوه الأبراج والتحصينات الصغيرة وكان ذلك السور يمتد من أسفل الوادي باتجاه الشرق ليطوق المساحة الكبرى منه، وكان هناك سور مشابه إلا أنه أكبر من السور المذكور بكثير ويمتد بشكل مقوس قليلاً على طول الصخور المطلة على الوادي من الجهة الشرقية، ولم يكن بالإمكان الوصول إلى قلب البلد إلا عبر مجرى

الوادي من الشمال والجنوب. وكانت آثار أقدام الجمال من أعلى الصخور حتى بطن البلد تظهر بين الحين والآخر، لكن من أبرز طرق الجمال هذه كان خط السير الممتد من ذلك البلد باتجاه الرياض.

تلك هي المنطقة التي ستكون مسرح أحداث المواجهة بين العثمانيين والدولة السعودية الأولى. ففي الحادي عشر من شهر آذار تحرك «إبراهيم باشا» بكامل قواته في أسفل الوادي وكانت فرق الخيالة التابعة له منتشرة على كلا الجانبين، وتقدم في مسيرته هذه ليتخذ من منطقة «العلب» مقراً رئيساً لقواته. وتصدت لقوات «الباشا» في الوادي القوة الرئيسة التي تضم فرسان الدرعية ومقاتلين من مناطق أخرى من «نجد»، وكانت جميعها تحت إمرة أخوة «عبد الله» الثلاثة وهم: فيصل، وإبراهيم، وفهد، ولم يكن لدى القوات السعودية سوى ثلاثة مدافع يجابهون بها مدفعية العدو القوية.

وكان على يمينهم باتجاه الشمال الشرقي قوات أخرى من الدرعية تحت إمرة أخوين آخرين هما: سعد، وتركي، وكانت تلك القوة تحمي مدخل «شعيب المغيصيبي»، وبالقرب منهم كانت فرقة «منفوحة» بقيادة زعيمها «عبدالله بن مزروع».

وبين خط الدفاع هذا وقوات العدو شَكَّل «تركي بن عبد الله الهزاني» قوة متقدمة مؤلفة من رجال «الحريق» ومن جماعات أخرى، وكانت مهمتها الدفاع عن بوابة «سمحان» في الطريق الشمالي من القلعة.

اتخذ «عبد الله» موقعه داخل أسوار القلعة ومعه بعض المدافع الثقيلة، وكان «فهد بن عبد الله بن عبد العزيز» (ابن عم عبد الله اللزم) يرابط للدفاع عن «قري عمران» الواقعة بجوار بلد «الرفيعة»، وكانت معه قوة من الدرعية وسدير ومعهم بعض المدافع أيضاً.

شكلت كافة هذه المواقع الدفاعية خط المواجهة الأول لتشكيلات العدو المشابهة للتشكيلات السعودية، وكان خلف هذا الخط مباشرة في الجانب الأيمن من البلد مواقع واستحكامات تمركز فيها عدد من الرجال الكبار في السن والأهالي غير المؤهلين لتحمل وطأة المعركة لكنهم كانوا قادرين على الدفاع عن مواقعهم عند الضرورة. وتحسباً من أن يقوم العدو بحركة التفافية من المناطق الصحراوية في أسفل البلد، فقد قام «سعود بن عبد الله بن عبدالعزيز» -وهو أيضاً ابن عم «عبد الله» اللزم- بالتمركز في جبل القرين الواقع على رابية صغيرة.

رابط «عبد الله بن عبد العزيز» على رأس قوة من عناصر مختلطة في نخل «سمحة» الواقع إما على الضفة اليمنى أو الغربية من الوادي ومباشرة أمام خط الدفاع، وكان إلى جانبه أخ آخر له يدعى «عمر». وكان هذا الأخير يغطي مدخل شعيب الحريقة. وامتداداً لنفس الخط الدفاعي كان أخ ثالث لـ «عبد الله» ويدعى «حسناً» يرابط بقواته التي انتشرت لتتصل بقوات «تركي» و «زيد» ابني «عبد الله بن محمد» اللذين كانا يقودان فرقة أخرى من الدرعية، وكان «فرج الحربي» وهو عبد سابق من عبيد «سعود الكبير» على رأس فرقة من العبيد مهمتها حماية قوات «تركي» و «زيد». أما في أعالي الشعيب فكان «فهد بن تركي» المشار إليه أعلاه وابن عمه «محمد بن حسن ابن مشاري» اللذان سبق أن أشرنا إليهما بصفتهما قائدين لقلعة «الصفا» في عنيزة. وخلف هذه المواقف على الضفة الغربية أيضاً رابط «مشاري» (أخو عبدالله» في «مصلى العيد» الواقع في الحافة خلف ضاحية المدينة الغربية التي سبق أن أشرنا إليها. وفي المرتبة الثانية جاءت ضفاف «شعيب صار» التي

رابط فيها «سعود بن عبد الله بن محمد» لمنع أية محاولة هجوم يقوم بها العدو من الخلف، وكما سبق -أن أشرنا آنفاً- كان هذا الأمير أيضاً يغطي مؤخرة مواقع الضفة اليسرى من الشعيب.

وفور وصوله إلى منطقة «سد العلب» بادر «إبراهيم باشا» بالهجوم على الخط الأمامي للقوات السعودية، واندلعت المعارك بضراوة دون توقف على مدى عشرة أيام دون تحقيق مكاسب لأي طرف علماً أن اشتباكين حدثا بالسلاح الأبيض عند مدخلي شعيب «المغيصيبي» وشعيب «الحريقة» على ضفتي الوادي. وقد بادر السعوديون في كلا هذين الاشتباكين بالقتال والهجوم. وإثر هذه الاشتباكات قرر «إبراهيم باشا» إيقاف ذلك القتال والتوجه لمهاجمة المواقع الدفاعية للقوات السعودية في اتجاه الشمال في وادي «غبيرا». وفعلاً بدأ بالهجوم عند الفجر ودفع بالعديد من التعزيزات ليشغل المدافعين بها. وفي تلك الأثناء أمر فرقة الخيالة (التي كان قد خبأها في الوديان طيلة الليلة السابقة) بمهاجمة القوات السعودية من الخلف. حيث فاجأ ذلك الهجوم القوات السعودية وجعلها تتقهقر بشكل غير منظم متجهة إلى أسفل الوادي، الأمر الذي أسفر عن موت العديد منهم بمن فيهم أول قتلى من أسرة «آل سعود» الحاكمة، وهم: فهد بن تركي، ومحمد بن حسن ابن مشاري، إضافة إلى حسن عميد أسرة «الهزاني».

تجمع الذين نجوا من الموت وحاولوا الوصول إلى القلعة التي فشل الأتراك في التأثير عليها، وأسفر الاكتئاب والغم الذي خلفته كارثة الدرعية هذه عن انشقاق بعض العناصر ذوي الحماسة الفاترة عن الدعوة السلفية وحاولوا التملق للباشا وكسب رضاه عن طريق تزويده ببعض المعلومات عن الوضع في الدرعية.

وبعد فترة وجيزة من انتصاره في موقعة «غبيرا» أرسل «إبراهيم باشا» فرقة الخيالة ومعها بعض المشاة التي سحبها من المواقع المحصنة بالخنادق في الوادي إلى «علي أزن» قائد القوات التركية على الضفة اليمنى من الوادي، وأمره بمهاجمة السعوديين في مزرعة «سمحة» كما أمر قواته في الضفة الغربية بتصعيد الهجمات العنيفة ضد القوات السعودية المواجهة لهم لمنع سحب أي مجموعة أو فرقة مشاركة في إسناد الهدف الرئيس من الهجوم، وفتح الرئيس «إبراهيم باشا» نيران مدافعه على القلعة والمناطق المجاورة لها في الوادي إلى أن حول معظم التحصينات هناك إلى أنقاض. وعليه وجد «عبد الله بن عبدالعزيز» نفسه مضطراً للانسحاب عن ذلك الموقع والتراجع إلى الخط الخلفي المعزز بالخنادق.

في تلك الأثناء شن «علي أزن» هجوماً على القلعة التي كان «عمر» (أخو عبد الله) مرابطاً فيها لصدِّ أيِّ هجوم عليها بالرغم من القصف العنيف الذي تعرض له. لكن في النهاية تمكنت القوات التركية التي هاجمته من الخلف - والتي سبق أن احتلت مزرعة «سمحة»- من هزيمته.

تشتت مقاتلو «عمر» وهربوا إلى جنوب الوادي وهي المنطقة التي كان «إبراهيم باشا» يشن هجوماً رئيساً فيها ضد المواقع الرئيسة لـ «فيصل بن سعود» واستمر «فيصل» في مقاومة الهجوم بضراوة إلى أن أمر «علي أزن» فرقة الفرسان والمشاة التي كانت تحت تصرفه بالمسير عبر شعيبي «الحريقة» و«غبيرا» باتجاه الوادي، وهناك اتخذت من واحات النخيل معسكراً لها ومكثت فيه إلى أن تخلى «عمر بن سعود» عن موقعه. وبعدها تحركت هذه القوة إلى خلف مواقع «فيصل»، وتمكنت إثر قتال شرس من دحر قواته التي

تركت خلفها معظم أسلحتها ومدافعها، كما أن القوات السعودية التي كانت ترابط في المواقع على كلتا ضفتي الوادي انهارت وهربت مذعورة.

لم يتوقف تقهقر القوات السعودية حتى نجح «فيصل» وأخوه «سعد» في تجميع الرجال في نخيل «السلماني»، والتصدي للقوات التركية التي كانت تطاردهم وردوها على أعقابها، وأوقعوا فيها الكثير من الخسائر. ولم تقم القوات السعودية بأية محاولة لاستعادة مواقعها، بل تمركزت في المواقع التي توقفت فيها؛ لإقامة خط دفاعي عن طريق ربط مختلف المواقع بخنادق وحواجز عبر امتداد عرض الوادي في تلك المنطقة.

عزز أبناء «عبد الله» الثلاثة فيصل وتركي وفهد أمكنتهم في هذا الجزء من الوادي، ووقف إلى جانبهم عمهم «عبد الله بن عبد العزيز»، وعلى يسارهم تمركزت قوات أخيهم «إبراهيم» لتغطي الضفة اليمنى من الوادي. وفي صحن القلعة التي تقع خلف موقع «إبراهيم»، رابط «سعد بن عبد الله» بقوات ضخمة ومدفعية قوية تطل على مساحة واسعة من الوادي، وتشرف أيضاً على المعركة. ورابط في أعلى الوادي وعلى ضفاف شعيب غبيرا «تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود» وابنه «فيصل». الجدير بالذكر هنا أن ذلك كان أول ظهور لـ «فيصل» على مسرح الأحداث، وقدر له أن يلعب على ذلك المسرح دوراً بارزاً دام لفترة تزيد على ثلاثين عاماً.

سيطرت قوات «عمر» و «حسن» (أخوي عبد الله) مع فرقة حربية بقيادة المحارب «فرج الحربي» على جزء من منطقة «شعيب البليدة». ورابطت بين هذا الخط الدفاعي وبين «شعيب كتلة» قوة أخرى بقيادة أخ لـ «عبد الله» يدعى «عبد الرحمن». وفي منطقة مصلى العيد رابط «مشاري بن سعود»

الأخ الأكبر لـ «عبد الله». أعدت هذه المواقع ليكون كل واحد منها مقابلاً لموقع من مواقع القوات التركية. واستمر توارد المحاربين وحشدهم فيها ليلاً ونهاراً دون توقف. أما بالنسبة للمواقع في أسفل الوادي (والتي سبق أن أشرنا إليها)، فتم تعزيزها بشكل طفيف للاستفادة منها وقت الحاجة، ولم تكن معنية بالتطورات الرئيسة في المعركة. وأما المنطقة الواقعة في «السلماني» وعلى الضفة اليسرى من الوادي فقد أوكل الدفاع عنها لـ «عبدالله بن مزروع» من «منفوحة» ولـ «عبد الله بن إبراهيم بن حسن بن مشاري». وحقيقة الأمر أن قوات «مشاري» كانت ترابط في مكان مرتفع يعرف بـ «ناظرة» وفي قمة الرابية أو الهضبة هناك كانت تقع قلعة صغيرة مبنية من الحجارة وداخلها حامية بقيادة «شديّد اللوح» من منطقة «المحمل» تشكل إحدى مراكز الدفاع الرئيسة، وبين هذه النقطة والخط الممتد حتى شعيب «قليقل» رابطت قوات «سعد بن سعود» (أخي عبد الله أيضاً)، وسيطر على منطقة الشعيب نفسه الأخوان الدغيثر (إبراهيم وعلي)، ورابط «عبد الله» بنفسه ومعه قادة المشايخ بقواتهم عند بوابتي «سمحان» و «الظهرة»، وجلسوا في خيامهم بالقرب من بطارية المدافع الثقيلة.

نقل «إبراهيم باشا» مقر القيادة إلى وهاد «قرى قصير» في الجانب الشمالي القريب من البلدة، في حين أخذت قوات «علي أزن» مواقعها على طول الضفة اليمنى من الوادي المواجهة للقلعة من جهة الغرب، واندلعت المعركة بقوة المعركة السابقة نفسها واستمر الصدام في الليل والنهار وتخللتها اشتباكات بالسلاح الأبيض وقعت بين الحين والآخر لتنوع من طراز القصف المدفعي المتواصل. وبشكل عام يمكن القول إن المدافعين تفوقوا في الاشتباكات المتلاحمة، لكن القوات التركية تفوقت بكثرة العدد وكان

بإمكانها سد الثغرات التي نجمت عن الإصابات البالغة التي تعرضت لها قواتها. أضف إلى ذلك أن القوات التركية كانت تتلقى وباستمرار تعزيزات ومؤناً تصلها من منطقة «المدينة». في حين عانت القوات السعودية المدافعة من تناقص في عدد الرجال وتناقص في العتاد.

تصاعدت وتيرة المعارك في عدد من مراكز الدفاع الحيوية مثل نخيل «السلماني» وأطلال قلعة «سمحة» وأماكن أخرى في «شعيب البليدة» على الضفة اليمنى من الوادي، وفي «شعيب قليقل» على الجانب الأيسر منه.

طوقت فرقة الخيالة العثمانية المدينة بمهاجمة قرية «عرقة» التي تقع على مسافة بضعة أميال جنوب الدرعية، وتمكنت من الاستيلاء على البلدة وقامت بتدميرها، وهرب من كتبت لهم النجاة من أهلها عبر الوادي إلى العاصمة. وتمكن «عبد الله» من استعادة القرية في موسم جمع ثمار التمر ليزود مخازنه منه. وقد رد «الباشا» على ذلك بهجوم على حامية السعوديين بمساعدة من أمير الرياض «ناصر العائذي»، وعناصر من «منفوحة» ومن قرى أخرى من «نجد» كانت قد تحالفت مع العدو التركي.

وفي النهاية استسلمت «عرقة» وتراجعت الحامية السعودية التي كانت تدافع عنها إلى الدرعية، لكن خلال هذه المعارك تكبدت قوات «إبراهيم باشا» كارثة فادحة، تجلت في أن أحد مستودعات الذخيرة انفجر، ودمر كميات كبيرة من المعدات الحربية، كما تسبب في وفاة العديد من الجنود الأتراك في المناطق المجاورة للانفجار، هذا؛ إضافة إلى الذعر الشديد الذي أصاب الناس بسبب دويّ الانفجار. وقد استغل السعوديون هذا الظرف وهجموا على القوات التركية لكن بدون جدوى. وفي محاولة من الباشا للتعويض عن خسارته،

فقد أرسل فرقاً في كافة أرجاء البلاد وأمرها بمصادرة وجمع كل الذخائر وكل الأموال التي تقع عليها أيديها لخدمة أغراضه العسكرية.

في تلك الأثناء نظم الأتراك في العراق وفي أماكن أخرى قوافل لتواصل إمداد الحملات التركية بالمؤن والمعدات. وهكذا بدأت القوة التركية تزداد يوماً بعد يوم وبدأت تتكرر حالات الفرار من صفوف المدافعين عن الدرعية إلى أن قام «غصاب» زعيم قبيلة عتيبة بالالتحاق بالقوات التركية، وقدم للباشا معلومات مهمة ونصائح تتعلق بطبيعة الأوامر والروتين الذي كانت تنتهجه القوات السعودية المدافعة. والجدير بالذكر هنا أن «غصاباً» كان يشغل منصب قائد قوات الخيالة الدفاعية، وكان يعتمد عليه بوصفه واحداً من أقوى أنصار أسرة «آل سعود» الحاكمة.

وفي شهر نيسان عام ١٨١٨م منيت الدولة السعودية بخسارة فادحة تجلت في مصرع «فيصل» (أخي عبد الله) الذي قتل إما برصاصة طائشة أو برصاصة قناص من مسافة بعيدة أثناء قيامه بجولة تفقد لمقر قيادته. وخلفه في منصبه أخوه «تركي» واستمرت جولات المعارك المنهكة دون توقف: إذ إنها كانت تخمد في منطقة لتشتعل من جديد في منطقة أخرى. فبعد المعارك التي دارت في «شعيب كتلة» و «قرى عمران» نشب اشتباك عنيف حول واحة «الرفيعة» حيث شن الأخوان «دغيثر» وأتباعهما هجوماً على مواقع مدافع العدو، إلا أن القوات التركية تمكنت من صدهم وأنزلت بهم العديد من القتلى من بينهم شقيقين من عائلة «الدغيثر».

دارت معركة أخرى في الموقع نفسه نتيجة للهجوم الذي شنته قوة تركية كبيرة على تحصينات السعوديين. وقد تمكن «فهد بن عبد الله» في تلك

المعركة من دحر القوة المصرية التي كانت مع القوة التركية المهاجمة وطاردها، إلا أنه قتل عندما تصدت له القوات التركية أثناء تلك المطاردة. وواصل السعوديون في الدرعية هجماتهم على القوات التركية واندلعت المعركة من فجر ذلك النهار حتى الظهيرة دون تحقيق أي مكاسب لأي فريق، وبدأت القوات السعودية المدافعة تشعر بلسعات الجوع واحتمال حدوث المجاعة، إذ نفد مخزون التموين لديهم ووصل سعر القمح إلى أرقام لا يمكن تصورها، وحمل الغلاء العديد من الناس إلى هجر الدرعية، فبدا جلياً أن الوقت كان يمضي بسرعة ولم يكن لصالح «عبد الله» وجماعته.

وفي الخامس من شهر تشرين الأول قامت قوات «الباشا» بغارة على المواقع الدفاعية للدرعية من كافة الاتجاهات، وأرسل «الباشا» لأول مرة قوة مجهزة ببعض المدافع إلى نهاية الطرف الجنوبي من الواحة لترويع المراكز الدفاعية الضعيفة هناك، كما أمر قوة كبيرة بقيادة «علي أزن» بأن ترابط على الضفة اليمنى من الوادي مشكلة بذلك تهديداً للقلعة من جهة الغرب. وأمر «الباشا» بالبدء في هجوم قوي على مواقع الضفة اليسرى ليجر أكبر عدد من المدافعين في ذلك الاتجاه، و كان «علي أزن» في تلك الأثناء قد نشر قواته عند الفجر للهجوم على الموقع الذي يرابط فيه «عبدالرحمن» (أخو عبد الله) والذي يقع في أعلى واحة «مشيرفة».

وجد «علي أزن» أن القوات السعودية كانت قد هجرت ذلك الموقع، وعليه دخل بقواته إلى الواحة وشرع في إحداث فتحات في سورها، وأمر قواته بالانتظار ليحين دورها في الانضمام إلى القوات التركية في الهجوم الذي احتدم على كلا ضفتي الوادي. وقد أبدى المدافعون مقاومة باسلة في

صد الوحدات التركية المواجهة لمواقعهم، لدرجة أنهم انشغلوا عن مراقبة ما كان يجري خلفهم. وأخيراً باغتتهم قوات «مشيرفة» بهجوم من الخلف واضطروا للهروب من خنادقهم فطاردتهم القوات التركية (العثمانية) واختبأوا في منازلهم المنتشرة حول الوادي، وأوصدوا أبواب بيوتهم وأخذوا مواقعهم على الجدران للتصدي للقوات التركية التي كانت تطاردهم. وقد اختبأ «سعد بن عبد الله» ومعه عدد من وجهاء الدرعية في قصر جده في «الطريف»، فما كان من «إبراهيم باشا» إلا أن وجه نيران مدافعه عليها. وكان «عبد الله» ومرافقوه إلى تلك اللحظة لا يزالون صامدين في مواقعهم بين البوابتين وكان أهالي القرى يقاومون القوات التركية بشجاعة وسط وضع فَلَت فيه زمام الأمور وأصبح ميؤوساً منه.

أدرك «عبد الله» -الذي قتل أخوه في مواجهة سابقة- أن كل شيء قد ضاع، ولذلك تراجع إلى مقر إقامته في «الطريف» تاركاً كل مدافعه ومعداته العسكرية غنيمة سهلة للأتراك عند بوابتي القلعة. وذهب وفد من السعوديين بقيادة كل من «عبد الله بن عبد العزيز» (عم عبد الله) والشيخ علي (أحد أبناء محمد بن عبد الوهاب) وناشدوا «إبراهيم باشا» السلام.

وافق «إبراهيم باشا» على وقف القتال في قرى الوادي، ولم يوافق على إيقافه على منطقة القلعة. وقال بأنه لن يوقف القتال في القلعة ما لم يستسلم «عبد الله» دون أي شروط. وفي التاسع من شهر أيلول عام ١٨١٨م توصلت قرى الوادي في تلك الواحة إلى هدنة منفصلة، ودارت حول الحصن معارك ضارية، وقصف الأتراك بيت ضيافة «آل سعود» في بوابة «سمحان» التي اتخذها «عبد الله» مقراً لقيادة قواته منذ اليوم الأول للمعارك. وإثر ذلك

القصف أخرج «عبد الله» مدافعه من القصر ووضعها في المسجد لشن آخر هجوم ساندته فيه أعداد كبيرة من الأهالي المخلصين. وقد صمد «عبد الله» ورجاله رغم كل الصعاب الجامحة مدة يومين في قتال يائس، وأخيراً قرر أن يستسلم في الحادي عشر من أيلول. ودام جهاد «عبدالله» ضد الأتراك مدة ستة أشهر واجه خلالها كل قوة الصدر الأعظم ومصادر ثرواته وقوته، إضافة إلى قوته وقوات مندوبه السامي في مصر. وأخيراً تم التوصل إلى سلام مشروط بتوجه «عبد الله» شخصياً إلى القسطنطينية ليمثل أمام الصدر الأعظم ويسمع بنفسه حكمه عليه. وبعد يومين غادر «عبد الله» حصنه تحت حراسة قوة كبيرة بقيادة «رشوان آغا» و«علي دويدار» واقتاداه إلى القسطنطينية عن طريق «مصر» وهناك أصدر الصدر الأعظم أمره بإعدامه.

كلفت الحملة التي شنها «إبراهيم باشا» على الدولة السعودية اثني عشر ألف قتيل من القوات التركية، ويقدر عدد الذين قتلوا في المعارك ضد الدرعية بحوالي عشرة آلاف تركي، لكن كان ذلك العدد من القتلى بمثابة ثمن بخس لمثل ذلك النصر، الذي تحقق للإمبراطورية العثمانية.

وقد بدت السلطة السعودية من حيث الجوهر كأنها مبعثرة إلى الأبد لولا أن الإدارة العسكرية التي ظهرت لاحقاً على الساحة بددت كافة المكاسب التي حققتها حملة «إبراهيم باشا». وولدت تلك الإدارة العسكرية التركية في المناطق العربية التي هيمنت عليها روح السخط وعدم الرضا عند جماهير أعربت عن ولائها لأمراء «آل سعود» الذين نجو من تلك المعارك. وكان العديد من هؤلاء الأمراء قد تمكنوا من مغادرة الدرعية قبل وقوع الكارثة الكبرى. وأخذ الأتراك عدداً آخر منهم كأسرى حرب إلى «مصر»، ومن

هناك تمكن عـدد منهـم في الوقـت المناسب من العـودة إلى الجـزيرة العـربيـة ليقـومـوا بواجـبهم في خدمة بلدهم. وكـان من بين الـذين هربوا قبـل وقـوع الكارثة «سعود بن عبد الله بن محمد» (ابن عم عبد الله اللزم الذي كان قد نحي عن السلطة). وحيـال ذلك الهروب أمـر «إبراهيم باشا» فـرقـة الخيـالة بمطاردته وتمكنت منه وقتلته، إلا أن أخاه «تركياً» تمكن من الفرار وقدر له أن يؤدي دوراً بارزاً في استعادة هيبة وسمعة «آل سعود» خلال فترة السنوات العشر التي تميزت بالفوضى إبان الاحتلال التركي (العثماني).

رافق «تركياً» في غياهب الصحراء أخوه «زيد» الذي كان ابنه المدعو «فيصل ابن زيد» من بين أعضاء أسرة «آل سعود» الذين أمر «إبراهيم باشا» بترحيلهم إلى مصر. ويقدر العدد الإجمالي للقتلى بين المدافعين السعوديين بحوالي ألف وثلاثمائة قتيل بما فيهم ثلاثة من أشقاء «عبد الله» وثمانية أفراد من عائلة «آل سعود». وبالمناسبة نشير هنا إلى أنه لا يقل عن عشرة من أشقاء «عبد الله» إضافة إلى واحد من أبنائه الثلاثة كانوا قد شاركوا في الدفاع عن العاصمة السعودية خلال فترة الحصار التي دامت مدة ستة أشهر. وكان نصيب أسرة «آل معمر» من القتلى - وهي أسرة أمراء «العيينة» سابقاً - خمسة عشر قتيلاً سجلت أسماؤهم في سجل الشرف. وقتل من عائلة «الدغيثر» ستة رجال، وسقط من كل فرقة جاءت من تلك النواحي لتشارك في المعارك عدد كبير من الرجال الذين أضيفت أسماؤهم إلى سجل الشهداء.

وفي الواقع انهارت الدولة السعودية وهي تقاتل حتى آخر رجل، لكن كان مقدراً لها أن تنهض من بين أشلاء الاضطرابات التي جاءت نتيجة لزوالها المؤقت.

وحسب ما هو مدون في السجلات التاريخية يمكن القول إن «إبراهيم باشا» عامل أعضاء أسرة «آل سعود» بالحفاوة اللائقة بهم وبمكانتهم الاجتماعية، لكنه لم يعامل العديد من أنصار عائلة «آل سعود» بنفس الحفاوة والتكريم، وعلى وجه الخصوص أولئك الذين كانوا ينتمون إلى جماعة آل الشيخ، فأعدم بعضهم رمياً بالرصاص، في حين ربط بعضهم الآخر عند فوهات المدافع التي مزقت أجسادهم إلى أشلاء. كما أقدم جنود «إبراهيم باشا» على ضرب وتعذيب قاضي المدينة «أحمد الحنبلي» الذي كان في ذلك الوقت موجوداً في الدرعية، وقلعوا كل أسنانه من فمه، وألحقوا الخزي بـ «سليمان بن عبد الله» (حفيد محمد بن عبدالوهاب) إذ أجبروه على سماع أنغام آلات العزف قبل جره إلى أحد المقابر وقتله هناك رمياً بالرصاص. لكن تمكن حفيد آخر من أحفاد «محمد بن عبدالوهاب» ويدعى «علي بن حسين» من الهرب إلى «قطر» ومن ثم إلى «عُمان» خشية أن يتعرض لمثل ما تعرض له العلماء، وبعد بضع سنوات عاد علي من هناك ليخدم تحت إمرة الإمام «تركي».

دام عهد الإرهاب الذي مارسه «إبراهيم باشا» مدة تسعة أشهر بدءاً من سقوط الدرعية التي أقدم على تدميرها كلياً بناءً على أوامر صدرت إليه مباشرة من «محمد علي باشا» في شهر حزيران عام ١٨١٩م. وهكذا اختتم «إبراهيم باشا» بتدميره الدرعية النصر الذي حققه عن جدارة بفضل عناده وقدراته المنظمة وتكتيكه العسكري البارع وحنكته السياسية.

الفصل السادس

تركي بن سعود

تركي بن سعود[1]

إن انهيار الدولة السعودية الأولى التي كانت ترتكز على وازع ديني وخلقي أكسبها احترام الناس، -وأسفر بشكل طبيعي وبتسارع مفاجئ- عن تراخ في قواعد السلوك الديني التي كان لها الفضل الكبير في انتشال العرب من الحالة الهمجية التي سيطرت عليهم قبل ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب.

عادت مظاهر الضعف الديني والتشاحن والتنافس بين القبائل تجتاح كافة مناطق الجزيرة العربية. كانت تلك المظاهر تتم إما بتستر علني أو غير علني من قبل زعمائها الجدد الذين لم يكونوا بأي شكل من الأشكال مهتمين بتحسين أحوال معيشة الأهالي أو إعادة بناء الاقتصاد الذي دمرته الحرب، بل على العكس من ذلك كان جل هم «إبراهيم باشا» وغايته المباشرة بث الرعب في قلوب الأهالي، وابتزازهم بالقوة من كل الممتلكات التي تسهم بتموين قواته في مواقعها المنتشرة في كل مكان. وفي الوقت نفسه تعمدت قواته أن تدمر كل الوسائل والإمكانات المحلية التي يمكن أن تستخدم ضد حكم الأتراك المستبد.

لم تعد الناس تسمع لصوت العقل ناهيك عن عدم سماعها لصوت الدين، وأصبح التنقل بين قرية وأخرى أمر خطير جداً. كما لم يعد بإمكان الوجهاء في المدن التنقل دون حراسة ترافقهم، وأصبحت النميمة والاتهامات الكاذبة الخبز اليومي للناس. ومن خلال تعامل المصريين مع ضحاياهم المشدوهين لم يجد الأتراك أية صعوبة في الاستيلاء على ممتلكاتهم وغلال محاصيلهم وتسخيرها لخدمة الجيش. ودمروا كل الأسوار والأبنية التي من المحتمل أن تساعد في مقاومة الابتزاز والأعمال الوحشية الأخرى التي كانوا يقترفونها.

(١) هو تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود، مؤسس الدولة السعودية الثانية. (المراجعون).

ونظراً لهذا الجور المفروض على مصادر الأرزاق المحلية، وللتدمير الذي طال واحات النخيل وجني المحاصيل أثناء الحرب وبعدها، فقد خيمت المجاعة على الجزيرة العربية. ومن الصعب تصديق القصة التي تقول إن القوات المصرية بدأت تأكل العشب من شدة الجوع، لكن ما هو أكثر احتمالاً للتصديق أن ضحايا الجنود المصريون أنفسهم كانوا يأكلون العشب. ولم تشر أية وثيقة تاريخية إلى وجود أمر إداري يهدف لتحسين حصة الأهالي أو زيادة إنتاج المناطق المحلية، ناهيك عن انعدام أي قرار يهدف إلى تحسين الأوضاع الأمنية للأهالي في هذه المناطق، وذلك بدءاً من سقوط الدرعية حتى رحيل الحاميات المصرية عن مناطق الجزيرة العربية. إنه من المحتمل جداً أن يكون ذلك الإهمال بالواجب وأن يكون عدم المبالاة بأمور الناس جزءاً متعمداً في سياسة «محمد علي» الذي كان مهيئاً نفسياً لترك الجزيرة العربية تعاني من فوضى مستوطنة فيها. ولم يكن ليكترث بها مادامت لن تتعدى وبشكل جدي على الأقاليم المتاخمة للبحر الأحمر التي كانت بالغة الأهمية بالنسبة لمصالح الإمبراطورية العثمانية. ولم يكن بإمكان «محمد علي باشا» أو أي شخص آخر أن يتصور بأن الدولة السعودية ستبرز من جديد (وفي أقل من عقد من الزمن) متحدية الفوضى التي تركها ابنه فيها.

الحقيقة أن «إبراهيم باشا» راودته فكرة الوصول بالحكم التركي (العثماني) إلى الخليج وبعد سقوط الدرعية مباشرة قام الأخوان «ماجد» و «محمد» (من أسرة ابن عريعر الرئيسة في قبيلة بني خالد، واللذان كانا حاكمين على منطقة الأحساء) بمحاولة نجحا فيها جزئياً لاستعادة سطوة أسرة آل عريعر وحكمهم. فاعترفت «الهفوف» و«القطيف» بحكمهما، إلا أن

استقلالهما لم يدم لفترة طويلة ذلك لأن «إبراهيم باشا» أرسل قوة صغيرة تحت إمرة «محمد الكاشف» لجمع كل الأموال والممتلكات الخاصة بأسرة «آل سعود» ومؤيديهم، الأمر الذي حمل أسرة «آل عريعر» التي كانت تطالب بالحكم على الهرب، وهرب معهم زعيم قبيلة «سبيع». وبعدها سيطر الأتراك على الأحساء وبقوا فيها إلى أن قرر «إبراهيم باشا» الجلاء عن الجزيرة العربية.

اقترف الأتراك تلك الفظائع في حق كل من كان له علاقة بـ «آل سعود» والدعوة السلفية. وكان قرار الجلاء عن الجزيرة العربية (الذي يقال بأن محمد علي باشا نفسه اتخذه) ذا أهمية بالغة لبريطانيا العظمى التي كانت قواتها مشغولة خلال العقدين الماضيين في إيجاد سلسلة مترابطة من الممتلكات الخاضعة للإمبراطورية البريطانية. وبعد مضي قرن ونصف توسعت القوات البريطانية في أنشطتها ووصلت المناطق الساحلية لشبه الجزيرة العربية، وليس هناك علاقة تذكر بين تفاصيل أحداث النشاطات البريطانية في منطقة شبه الجزيرة العربية وتاريخ الأحداث المحلية للجزيرة العربية، لكنه من الصعب التصديق أن الهدف من نزول قوات بريطانية كبيرة في «القطيف» (التي جاءت إما قبل أو بعد احتلال قوات «محمد كاشف») كان مجرد إعراب عن التعاون بين البريطانيين والأتراك. والجدير بالذكر هنا أن احتلال قوات «محمد الكاشف» لتلك المنطقة جاء على لسان بعض السكان، لكن لم يؤكد أي مصدر رسمي حدوث ذلك الاحتلال.

كان تمركز الأتراك على شاطئ «الأحساء» بمثابة تحد غير مباشر للموقع البريطاني في منطقة الخليج، الموقع الاستراتيجي المهم للعثمانيين. ومن

ناحية أخرى كان من المهم بالنسبة للبريطانيين أن يتحققوا من نوايا «إبراهيم باشا» ونوايا والده بخصوص المناطق الواقعة على شواطئ الخليج. والواضح أن الرحلة التاريخية التي قام بها الكابتن «سادلير» عبر الجزيرة العربية في صيف عام ١٨١٩ كانت قد أعدت أصلاً لتخدم ذلك الغرض، وعليه فلا يوجد تفسير لسبب فقدان القوات البريطانية لفرصة احتلال كافة مناطق ذلك الساحل الخليجي وصولاً إلى الكويت (التي لم تكن على أهمية كبيرة في ذلك الوقت). وإذا كانت القوات البريطانية فعلاً موجودة في منطقة «القطيف» فليس أمامنا إلا أن نعد أن ضياع تلك الفرصة كان مجرد غموض يصعب تفسيره، كما يمكن من وجهة النظر البريطانية أن ننظر إلى عودة «ماجد بن عريعر» وأخيه إلى الأحساء على أنها مجرد اتفاق مُرضٍ يرتكز على تطورات محتملة للوضع هناك، لكن في الواقع لم يتبلور ذلك الاتفاق.

وبعد وصول أوامر «محمد علي باشا» القاضية بتدمير الدرعية، وإجلاء كافة القوات التركية، وإنزال الدمار في الأسوار والتحصينات والقرى والمدن، بدأ «إبراهيم باشا» بتجميع القوات التركية المتناثرة وسار بها نحو «ضرما» ومن هناك اتجه نحو عاصمة الدرعية وتوقف فيها للاستراحة مدة تسعة أشهر. حيث قام «إبراهيم باشا» خلال الأشهر التي قضاها في «ضرما» بشن عدة غارات على «سبيع» و «العجمان» و«عنزة»، وكانت تلك الغارات أكثر من مجرد حملات غزو لجمع ونهب المؤن. وحدث أن نجا «إبراهيم باشا» بصعوبة من محاولة لطعنه بخنجر، إذ نفذ الخنجر من بنطاله وغرز في سرج الحصان وأصيب الحصان بجرح بليغ.

تابع «إبراهيم باشا» المسير بقواته إلى «القصيم» في طريقه إلى المدينة ووصل مع مرور الوقت إلى هناك ومعه «حجيلان» حاكم الإقليم الذي وافته المنية في المدينة عن عمر يناهز الثمانين عاماً، وفي تلك الأثناء يبدو أن أغاوات الباشا «إبراهيم» ارتكبوا أعمالاً وحشية استهدفت القضاء على الشخصيات البارزة التي يمكن أن تعمل على بناء ذلك البلد المدمر. وقبل النزوح عن مواقعهم للانضمام إلى قوات «إبراهيم باشا» قام هؤلاء «الأغاوات» باعتقال أمير حائل «محمد بن عبد المحسن بن علي» وأخيه «علي»، كما اعتقلوا أمير عنيزة «عبد الله بن رشيد» وقتلوهم بوحشية بالغة. وعانت أسرة «العفيصان» في «الدلم» على أيدي الآغا «حسين جوخدار» من الويلات ما هو أسوأ من الفظائع التي تعرض لها الأمراء أعلاه. حيث قام «حسين جوخدار» - الذي قطع رحلته إلى الحوطة وعاد إلى الدلم - بذبح ثلاثة من قادتها وصادر كافة ممتلكاتهم. وفي جوار الدرعية أيضاً قام الأتراك بقتل الشيخ «علي بن عبد الله» أحد أحفاد الشيخ «محمد بن عبدالوهاب». ولم تكن المكائد وأعمال الإجرام والاقتتال المميت بين القبائل (والتي برزت جميعها إثر رحيل قوات «إبراهيم باشا» عن مناطق في القصيم مثل «بريدة» و «حريملاء» وأماكن أخرى)، سوى جزر من الرعب في خضم كبير من الأحداث التي سرعان ما بدأت تظهر وسط حالة فوضى عارمة.

سبق أن أشرنا إلى عودة الأخوين ابني «عريعر» إلى مركزهما التقليدي في الأحساء التي استقر الوضع فيها بعد قيامها بقتل زعيم قبيلة «السياسب». ولم يكن من المعقول أن يكتفيا باستعادة سطوة أسرتهما، خاصة أن كرسي العرش في الدرعية قد أصبح شاغراً ومدعاة للتنافس. وكان المنافس لهما

الأكثر خطورة عليهما عائلة أمراء «العيينة» الذين تكشفت طموحاتها منذ أن انضموا إلى السيادة السعودية. وكان «محمد بن مشاري بن معمر» زعيم العائلة موجوداً في الدرعية طيلة فترة الحصار، ولم يغادرها إلى «العيينة» إلا بعد أن دمرها «إبراهيم باشا».

وفي شهر أيلول (سبتمبر) عام ١٨١٩م سار «ابن معمر» بقواته إلى الدرعية ونصب نفسه إماماً فيها وحاكماً على كافة مناطق نجد بدلاً من أمراء «آل سعود». كما بدأ في حشد الدعم والتأييد لمطلبه ومكانته الجديدة. ولم يحظ «ابن معمر» سوى بتأييد متواضع من مناطق محددة اتخذت موقفاً ودياً منه. وفعلاً بادر «ابن معمر» في إصلاح أنقاض المدينة، لكن جهوده الرامية إلى استعادة الرفاهية في المناطق التابعة لسلطته اصطدمت وتعثرت بجفاف موسم الشتاء وكذلك بالمجاعة التي نجمت عنه، ذلك إذا قورنت بالأمطار غير الاعتيادية والسيول التي شهدها شتاء العام المنصرم (١٨١٩م).

وما هي إلا فترة قصيرة حتى ظهرت بوادر المعارضة لسلطته، وخاصة من قبل أهالي الرياض وحريملاء والخرج، فطلب هؤلاء الأهالي العون من «ماجد بن عريعر» لطرد «ابن معمر» قبل أن تتثبت قدماه في الحكم. حيث قامت هذه القوات المتحالفة بمهاجمة «منفوحة» الحليف الرئيس لابن معمر، إلا أن ذلك الاشتباك انتهى بهدنة قام «ابن معمر» على إثرها بإرضاء «ماجد» بالهدايا كما طمأنه بأنه ليس لديه أية نوايا في تحدي سلطته على مناطق الأحساء، وأبلغه بأنه كان يحكم مناطق «نجد» باسم السلطان العثماني. ويمكن أن تكون مثل هذه الاتفاقية قد تمت ضمنياً في المحادثات التي دارت بين «ابن معمر» و «إبراهيم باشا» الذي تعامل معه وفق اعتبارات ودية. على

أي حال وبغض النظر عن ردة فعل «ماجد» للهدايا والتطمينات التي عرضها عليه «ابن معمر»، فيمكن القول إن البدو حسموا المسألة وعاد «ماجد» إلى ديرته محبطاً وخائب الأمل. وتمكن «ابن معمر» من توسيع وتعزيز نفوذه في المناطق المجاورة التي استغل أهلها حقيقة ارتفاع الأسعار في الدرعية، فكانوا يرسلون القوافل إليها لبيع منتجاتهم وتحقيق الربح لأنفسهم.

ظلت الرياض وحريملاء والخرج ممتنعة عن الاعتراف بحكمه، وكانت «حريملاء» على ما يبدو متزعمة حركة الانشقاق تلك. ولم يكن هناك شيء يوازي عداء «حريملاء» لـ «ابن معمر» سوى الظهور المفاجئ لـ «تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود» الذي قدم من الصحراء مع أخيه «زيد»، وحظيا بكل الولاء والدعم من أهالي «حريملاء». وقد طلب «ابن معمر» من أهالي «حريملاء» ومن «تركي» التدخل نيابة عنه، كما وعدهم «تركي» بأن يقدم لهم الدعم الفعّال إذا قرروا أن ينظموا انتفاضة ضد الزعيم المحلي «حمد بن راشد». وهكذا أرسل «ابن معمر» ابنه «مشاري» و «زيداً» (أخا تركي) على رأس قوة (انضمت إليها خلال المسير قوات من «المحمل» و «سدير»). تمكنت تلك القوات من محاصرة القلعة التي كان «ابن راشد» مستحكماً فيها، وبعد مضي أسبوع على الحصار استسلم «ابن راشد» وفق شروط معينة واقتادوه إلى الدرعية. وتسبب احتلال «حريملاء» في خضوع عدد من القرى والمدن في العارض والوشم وسدير بسرعة، وإعلانها عن ولائها للنظام الجديد.

استُكملت تلك التطورات في بداية شهر آذار عام ١٨٢٠م، إلا أنه في نهاية ذلك الشهر تعرض موقف «ابن معمر» لهزة عنيفة استدعت وصول «مشاري بن سعود» المفاجئ إلى الدرعية. والجدير بالذكر هنا أن «مشاري»

هو أحد العديد من إخوة عاثر الحظ «عبد الله»، وأنه بإمكانه المطالبة بولاء الأهالي له بصفته الوريث الشرعي لأمجاد أسرة «آل سعود» الحاكمة.

كان «مشاري» قد تمكن من الإفلات من القوة التي رافقته إلى منفاه في «مصر». وفي المنطقة الواقعة بين «المدينة» و «ينبع» تمكن من الهرب وعاد إلى «القصيم». وفي «الزلفي» و «ثرمدا» تمكن من حشد الدعم الكافي لاستعادة سلطة آبائه. وكان طبيعياً أن يشعر «ابن معمر» بالمضايقة إلا أنه أحجم عن القيام بأي عمل عدائي مكشوف، بل على العكس أعرب عن ولائه للإمام الجديد. وهلت على «مشاري» وفود من الرياض وحريملاء والمحمل وسدير لتبارك له بسلامة الوصول ولتهنئته بالمنصب الجديد. إن أفضل المكاسب التي فاز بها «مشاري» في تلك الفترة كانت انضمام «تركي بن عبد الله» إلى صفه، كما انضم إليه أيضاً عمه «عمر» وأبناؤه الثلاثة، واثنان من أفخاذ عائلة «مشاري» وهما «حسن بن محمد» و «مشاري بن ناصر»، وكانوا جميعاً قد هربوا من الدرعية قبل سقوطها.

كان هم «مشاري» الأول إخضاع إقليم «الخرج» المتمرد، وقد أبدت منطقتا «السلمية» و «اليمامة» بعض المقاومة في البداية لكنهما سرعان ما استسلمتا، وقام «مشاري» أمير تلك المنطقة بخلع «البجادي» من منصبه. وتجاوبت «الدلم» بكياسة ملحوظة وعاد «مشاري» إلى الدرعية ليجد أن «ابن معمر» كان قد توجه إلى «سدوس» للراحة بحُجة المرض.

كانت تلك ذريعة أخفى «ابن معمر» وراءها دوافعه الحقيقية في قيادة ثورة ضد «مشاري». وقد رحب زعيم «حريملاء» بخطته ودعاه للقدوم إلى المدينة التي حولها إلى مقر رئيس وبدأ منها بحشد قوة لذلك الغرض. وهناك تم تشكيل تلك القوة في معظمها من رجال قبائل «مطير» بزعامة «فيصل

الدويش» وانضمت إليها قوات أخرى محلية، وشنوا هجوماً مباغتاً على العاصمة ودخلوها دون مقاومة تذكر، وساروا مباشرة إلى قصر «مشاري». وألقوا القبض عليه وأودعوه السجن، لكن «ابن معمر» سلم القيادة هناك إلى ابنه وتوجه على رأس قوة إلى الرياض لاعتقال «تركي بن عبد الله» وشخصيات أخرى من عائلة «آل سعود»، وقد هرب «تركي» وجماعته عند سماعهم خبر قدوم «ابن معمر» الذي دخل الرياض دون مقاومة، كما سارع الأهالي إلى الاستسلام له. وانتهت فترة حكم «مشاري» القصيرة، وحكم «ابن معمر» تلك المناطق من جديد، لكن هذه المرة باعتراف الأتراك بحكمه، وسارع «ابن معمر» بإبلاغ «آبوش آغا»، الذي كان قد وصل إلى «عنيزة» على رأس قوة تركية، بأنه لم يكن يحكم لصالح السلطات العثمانية فحسب، بل كان ينوي أيضاً تسليم «مشاري» إلى السلطات التركية في اللحظة المناسبة.

كان «تركي بن عبد الله» قد توجه في تلك الفترة مع عدد من أتباعه إلى «ضرماء» لأمر شخصي خاص. ووصل ذلك الخبر إلى «ابن معمر» فما كان منه إلا أن أرسل ابنه «مشاري» (الذي كان قد عيّنه حاكماً على الرياض) على رأس قوة لاعتقال «تركي».

استطاع تركي أن يمسك برسول ابن معمر إلى أهالي «ضرماء» واستحكم في أحد قلاع المدينة ليحمي نفسه من خطر مباشر. وكان «تركي» يشن غارات ليلية من تلك القلعة تمكن في إحداها من الاستيلاء على منزل فيه عدد من المقربين من «ابن معمر» وأتباعه الذين فرّوا ثم عادوا ووضعوا أنفسهم تحت خدمة «تركي». هرب «مشاري بن معمر» على ظهر حصانه مع بعض أتباعه بينما بقي «تركي» في «ضرماء» يتلقى الدعم من قبيلة «سبيع» ومن مناطق أخرى في الجنوب.

وفي شهر كانون الأول من عام ١٨٢٠م توجه «تركي» إلى الدرعية، وبمساعدة الأهالي هناك تمكن من القبض على «محمد بن معمر»، كما تمكن في وقت لاحق من القبض على ابنه «مشاري» في الرياض، ووعد بأن يطلق سراحهما مقابل إطلاق سراح «مشاري بن سعود» الذي كان لا يزال سجيناً في «سدوس». لكن أهالي القرية خافوا من الإذعان لأوامر «ابن معمر» باعتبار أن قوة تركية كانت قد وصلت للتو إلى ديارهم يرافقها «فيصل الدويش»، لهذا سلموا «مشاري بن سعود» إلى القوات التركية تنفيذاً للوعد الذي قطعه «ابن معمر» على نفسه للأتراك. وعلى الفور قام «تركي» بقتل «ابن معمر» وابنه «مشاري». وتوفي «مشاري بن سعود» بعد فترة قصيرة من وصوله إلى عنيزة ولا يوجد ما يدل على أن «آبوش آغا» كان في أي حال من الأحوال مسؤولاً عن وفاته.

قامت القوات التركية تدعمها جماعة «فيصل الدويش» بهجوم فاشل على الرياض، وبعد ذلك قاموا باستعراض قواتهم في الشمال والجنوب إذ فرضوا إتاوة باهظة على أهالي «ثادق» و «سدير» و «الوشم». ومارست قوات «آبوش آغا» نفس التصرف في مناطق «القصيم». وبعودة الأتراك عادت الفوضى بين العديد من المناطق كما تجددت الأعمال العدائية المميتة بينهم. ومما زاد من تردي الأوضاع الاقتصادية أن زحفت أفواج الجراد على تلك المناطق. وخلال فصل شتاء عام ١٨٢٠م/ ١٨٢١م تم تعزيز القوات التركية المحتلة بقوات أخرى بقيادة «حسين بيك» الذي تسلم زمام قيادة القوات التركية في «نجد». لكن سرعان ما توجه «حسين بيك» بقواته نحو «الوشم»، ومن هناك أرسل قوة بقيادة «آبوش آغا» لمهاجمة الرياض.

واشتملت تلك القوة على عناصر مشتركة من الأتراك ومن قرى محلية وقبائل جندها الأتراك بين صفوفهم. وشملت تلك العناصر شخصيات مهمة كان «ابن معمر» قد نفاها عن «الرياض» و «حريملاء».

استعد «تركي» لمقاومة الهجوم لكن أهالي الرياض لم يعد لديهم جلد على المزيد من القتال، الأمر الذي مكّن «أبوشاً» من دخول المدينة دون مقاومة. وقد تراجع «تركي» بقواته إلى حصن الدرعية ومعه حوالي «سبعين» من أتباعه ليقاوموا الحصار المتوقع، إلا أن التيار كان أقوى من إمكاناته. لذلك هرب «تركي» ليلاً بمفرده تاركاً رجاله ليستسلموا في صباح اليوم التالي، فقام الأتراك بذبحهم جميعاً ببرودة أعصاب باستثناء «عمر بن عبد العزيز» وثلاثة من أبنائه إذ أرسلوا إلى مصر للعيش مع أقربائهم في المنفى.

ظهر «حسين بيك» على خشبة الأحداث وفرض إتاوة بالغة على أهالي الرياض و «منفوحة»، كما أجبر جماعة «ابن معمر» في الدرعية على مغادرتها، وعلى الفور اقتادتهم القوات التركية إلى «ثرمداء» وهناك تظاهر القائد العسكري لتلك المنطقة ويدعى «خليل آغا» بحسن استقبالهم ووعدهم بأن يعطيهم أرضاً في المناطق التي يختارون الاستقرار فيها. وبناءً على أوامر تلقاها من «حسين بيك» لدى عودته من الرياض قام «خليل آغا» عندما حانت الفرصة باعتقالهم وإعدام العديد منهم وتدمير ممتلكاتهم أو مصادرة ما تبقى منها، وكانت تلك بداية عهد إرهابه وترويعه للأهالي في منطقة «نجد»، إذ قامت القوات التركية المرابطة في القصيم، وسدير، والمحمل، والوشم ومناطق أخرى بسلب ونهب وإعدام الأهالي، لدرجة أن عدداً كبيراً من الناس هربوا إلى الصحراء تاركين ممتلكاتهم ليدمرها الجنود

الأتراك . ولم تسلم حتى النساء والأطفال من الأعمال الوحشية التي ارتكبتها القوات التركية .

ومع رحيل «حسين بيك» في نهاية ذلك العام كادت قصة القتل والتدمير التي كان الأتراك يمارسونها في كل مكان من «نجد» أن تنتهي ، لكنه خلّف وراءه صراعات داخلية مميتة ألحقت الدمار بتلك المناطق وخاصة منطقتي «سدير» ، و«المجمعة» (اللتين كانتا تكثر فيهما أعمال الشغب والاضطرابات) ، إضافة إلى منطقتي «العارض» و «القصيم» . وتُوجت مشاهد الرعب التي شهدها ذلك العام باندلاع وباء الكوليرا الخبيث والذي جاء من الهند واجتاح الجزيرة العربية مروراً بالخليج العربي والعراق .

تصدرت منطقة «سدير» قائمة القلاقل والاضطرابات التي تميز بها عام ١٨٢١م/ ١٨٢٢م ، وحدث في «منفوحة» و «بريدة» أيضاً أعمال قلاقل واضطرابات مماثلة ، لكن من أهم أحداث ذلك العام وصول القائد التركي الجديد «حسن أبو ظاهر» إلى منطقة «الرس» ، الذي ادعى بأنه قدم ليخضع البدو ويسخرهم لخدمة أهالي المدن . وبسبب إطلاقه لسراح العديد من الرهائن الذين كان سلفه التركي قد أمر باحتجازهم في قلعة «ثرمدا» ، فقد أعرب الأهالي هناك عن شكرهم وامتنانهم لذلك التصرف . وأرسل أهالي «القصيم» ما يؤكد ولاءهم له ، وأعرب أهالي «المجمعة» وأهالي قرى «سدير» عن ولائهم له أيضاً . لكن إرساله حملة تحت إمرة «موسى كاشف» إلى كل من «المجمعة» و «سدير» لجلب الزكاة التي اعتاد الناس عليها ، أحدثت نوعاً من التذمر الأمر الذي حدا بالجنود الأتراك أن يسلكوا أساليب أكثر عنفاً ليجبروا الناس على احترام رغباتهم .

قام الأتراك بسلب ونهب العديد من القرى، كما أقدموا على قتل كبار الشخصيات فيها، وفي غارة قادها «موسى كاشف» ضد «السهول» لقي «موسى» مصرعه في وقت كان أخوه «إبراهيم» متوجهاً إلى «الوشم» و«الرياض» اللتين اتخذ منهما مقراً لقيادته، وامتدت سطوة موسى كاشف جنوباً حتى مناطق «الخرج».

قام «حسين بيك» نفسه بالهجوم على «جبل شمر»، وأمر الأهالي هناك بدفع الزكاة المستحقة عليهم منذ رحيل قوات «إبراهيم باشا». وبعد أن تجاوبوا مع المطلب الأول فرض المزيد من المطالب عليهم.

وعقوبة على المقاومة التي أبداها أهالي «موقق» ورفضهم دفع الزكاة، أقدم الأتراك على قتل معظم الأهالي، علماً بأنهم استسلموا بعد حصار دام فترة قصيرة. وفي الفترة نفسها تقريباً قاد «إبراهيم» في الجنوب قوة كبيرة وأغار بها على قبيلة «سبيع» المقيمة في منطقة «الحاير»، إلا أن رجال تلك القبيلة دافعوا عن أنفسهم ببسالة وتمكنوا من دحر القوات التركية وحلفائها من أهالي الرياض ومن مناطق أخرى. وقد قتل في تلك المعركة «إبراهيم»، وقتل معه ثلاثمائة من الجنود الأتراك، وقد تمكن زعيم منطقة الرياض «ناصر العائذي»، من الهرب إلا أنهم تقفوا أثره وذبحوه في المغارة التي كان مختبئاً فيها.

وبعد أن ترك «تركي بن عبد الله» الرياض احتجب في منطقة «الحلوة» بعيداً عن الأنظار، وفي تلك الفترة كانت القوات التركية مشغولة عنه في جمع الزكاة وفي إرسال الحملات التأديبية ضد القوى والقبائل المتمردة. وفي عام ١٨٢٣م وخلال شهر رمضان المبارك ظهر «تركي» من مخبئه ومعه

ثلاثون رجلاً من أتباعه، وتوجه بهم إلى قرية «عرقة» في وادي حنيفة بين الدرعية والرياض، وهناك مكث فترة من الزمن ليستطلع الأوضاع وليجس النبض. وكان أول من رحب به وقدم له الدعم زعيم منطقة «شقراء» المدعو «حمد بن يحيى بن غيهب».

أرسل «تركي» ابن عمه «مشاري بن ناصر بن مشاري بن سعود» إلى سويّد زعيم «جلاجل» (الذي حدث أن اصطدم في العام الماضي مع الأتراك)، وناشده أن ينضم إليه بأكبر عدد من الرجال المسلحين. وبعد وصول هذه القوة التي أتت استجابة للمناشدة رفع «تركي» من جاهزية الثورة ضد الأتراك، وسار بقوته إلى الرياض التي كانت تحت رحمة الحامية التركية بقيادة «أبي علي البهلولي المغربي». وعلى أي حال فشلت محاولة «تركي» تلك وأصيب «سويّد» ورجاله بالجبن، وفروا عائدين إلى ديارهم تاركين «تركي» يتصدى للأتراك مع نفر قليل من أنصاره. حيث بادر الأتراك وأنصارهم بالهجوم على «تركي» وحاصروه مع رجاله في منطقة «عرقة»، لكنهم لم ينالوا منه، واستمرت الأعمال العدائية بين الطرفين حتى حلول شهر أيلول حيث قام تركي (بعد أن ترك قوة صغيرة في عرقة) بمهاجمة قرية «ضرما»الحيوية واستولى عليها بشجاعة وبسالة فردية استهوت مخيلة العرب جميعاً.

في تلك الأثناء بدأ «حسن أبو ظاهر» (الذي كان قد رجع من حملته ضد حائل) يواجه مشكلات في «القصيم» بسبب استياء الأهالي من الإتاوة التي كان يفرضها على أرزاقهم، كما أن إقدامه على سجن حاكم «عنيزة» الموالي للأتراك والمدعو «عبد الله الجمعي» وعدد آخر من وجهاء المنطقة، شجع الناس على الثورة ضده وإجباره على الاستسلام وفق شروط وافق بموجبها

على سحب قواته (بما فيها قواته في «ثرمدا») والتوجه بها إلى «المدينة». وعلى أي حال فقد ترك وراءه فرقة صغيرة في قلعة «الصفا» في «عنيزة» لكنها سرعان ما استسلمت وخرجت من تلك المنطقة تتبع آثاره. ولم يبق من الحاميات التركية سوى الحاميات الموجودة في «الرياض» و «منفوحة» التي كانت تتعرض لأعمال عدائية من قبل الأهالي في هاتين المنطقتين.

بدا «ماجد بن عريعر» مستقراً ومسيطراً على الوضع في إقليم «الأحساء» الذي لم يكن لدى الأتراك أية نية في دخوله، وكان أمام «تركي» العديد من المشكلات الملحة، التي استوجب عليه التفكير فيها أكثر من التفكير في مستقبل أقاليم الخليج. وقد واجه «ماجد» تقريباً في هذه الفترة نفسها تحدٍّ من قبل «فيصل الدويش» الذي كان يقود قوة ضمت عناصر من رجال قبائل «مطير» و «العجمان»، وهو حليف قديم للأتراك. فقد نشبت معركة بين الاثنين في منطقة «الرضيمة» في سهول «العرمة»، وانتهت بهزيمة نكراء منيت بها قبيلة «بني خالد»، لكن «فيصلاً» لم يكن في وضع يمكنه من متابعة الانتصار الذي حققه.

اندلعت مشكلة كبيرة للمرة الثانية في إقليم «سدير»، لكن تفاصيل تلك المشكلة أقل أهمية من حقيقة أن «تركي بن عبد الله» غادر «ضرماء» في شهر تموز متوجهاً إلى «ثادق» ليتدخل في تلك القضية. هناك لاقت مناشدته للأطراف المتناحرة للتوقف عن الاقتتال لخير وسعادة الجميع استجابة طيبة ونتيجة فورية، إذ سارع زعماء القرى والمدن في منطقة «سدير» بإعلان ولائهم للإمام «تركي».

سار الإمام «تركي» على رأس قوة حشد رجالها من أهالي «المحمل» نحو «جـلاجل» التي كـانت تعـد بؤرة كل المشكلات، لكن الأهالي هناك لم يجابهوه بل رحبوا به وأعربوا عن ولائهم له.

تردد أهالي «المجمعـة» في البـداية في الالتـزام ودعم مـوقف «تركي»، لكنهم أعادوا النظر في موقفهم عندما قدم إليهم بقوة كبيرة ليفرض عليهم الحصار. وقد أقال «تركي» زعيم «سدير» الذي كان يدعى «مزيداً» وعين مكانه «محمد بن صقر» وهو من وجهاء منطقة «العمارية»، ووضع تحت إمرته حامية لتدافع عن القلعة الموجودة هناك. وسارع الناس مجدداً لأداء يمين الولاء إلى «تركي» وإن لم يكن هو حفيد من سليل مباشر لـ «آل سعود» حكام «نجد» الأوائل. ومكث «تركي» في «المجمعة» حوالي شهر، عمل خلاله على إعادة ترتيب الأمور الإدارية للإقليم والمناطق المجاورة له، وأثناء وجوده هناك قام أهالي «الغاط»، و«الزلفي»، و«شقراء»، وقرى أخرى من منطقة «الوشم» بإرسال ممثلين عنهم لمبايعته.

وهناك وجد «تركي» الخيام ومعدات المعسكرات التي خلفها الأتراك وراءهم بعد آخر حملة لهم على تلك المنطقة، فصادرها جميعها، وما إن نظم قوة مناسبة جمعها من الرجال المحليين حتى سار بها إلى «حريملاء» - التي لم تبد أي تحفظ في دخولها ضمن معسكر «آل سعود» للمرة الثانية- وعندما أصبحت قوته مستعدة للهجوم على حريملاء، بعد أن جهزت سلالم التسلق على الأسوار، بعث الأمير «تركي» بتحذير إلى أمير حريملاء «حمد ابن راشد» قال فيه: إنه إذا لم يخرج من البلدة ويبايعه قبل غياب القمر فسيقتحم «تركي» مع قوته البلدة ويقابله في ساحتها الرئيسة. واستسلم

«حمد»، لكن «تركي» عامله بكل الحفاوة والتكريم وثبته في منصبه أميراً على «حريملاء»، ولم يصب ممتلكاته وممتلكات أسرته بأي أذى.

وهكذا انضمت قوات «حريملاء» إلى قوات الأمير «تركي» الذي قادها جميعها في غزو لمنطقة «منفوحة» التي استسلمت دون مقاومة، إذ خرج أميرها شخصياً ليعرب عن استسلامه. وتمكنت قوات الأمير «تركي» من طرد الحامية التركية التي انضمت إلى القوات التركية في الرياض. وفي شهر آب من عام ١٨٣٤م أصبحت الرياض الهدف المباشر الذي يستحوذ على كل اهتمام الإمام «تركي».

هاجم الإمام «تركي» الرياض إلا أن «حمد العائذي»[١] -الذي تسلم زمام الإمارة إثر موت أخيه الأمير «ناصر» في «الحائر»- لم يكن راغباً في الاستسلام، فدار قتال حول المدينة، ووقعت إصابات بين الطرفين، فأمر «تركي» قواته بأن تجمع جني ثمار النخيل لتستفيد منه، وفعلاً جمعت ثمار أشجار النخيل تحت أنظار الحامية العسكرية المعادية التي لم تستطع أن تحرك ساكناً، وحاصر «تركي» البلدة مدة شهر تقريباً، ورفع الحصار عنها عند ظهور «فيصل الدويش» على رأس قوة كبيرة من قبيلة «مطير» كانت قد قدمت لتدعم الحامية العسكرية هناك. وعليه تراجع «تركي» بقواته نحو «عرقة»؛ لكن ليعود ويفرض على الرياض حصاراً أشد وأعتى من الحصار السابق، والجدير بالذكر أن بدو «مطير» رحلوا بعد أن مكثوا في جوار الرياض لفترة قصيرة.

ومع مرور الأيام طلب القائد التركي التوصل إلى سلام بين الفريقين المتحاربين، وتم ترتيب شروط الاستسلام على أساس أن تغادر القوات التركية بشكل نهائي إلى «المدينة». بعدها تم تعيين «مشاري بن ناصر» حاكماً

---

(١) الصواب أن الأمير هو عبدالله بن حمد بن ناصر العائذي. (المراجعون).

على منطقة الرياض، وسار «تركي» على رأس قوة متوجهاً إلى «ثرمدا» و«شقراء» ليتأكد من أن القوات التركية لن تفكر في البقاء في تلك المنطقة بشكل يخالف تعهدهم بالجلاء عنها. وبينما كان الإمام «تركي» في «شقراء» تسلم رسائل، كما قدم إليه المبعوثون من «عنيزة» ومن باقي مناطق «القصيم» ليعربوا عن ولائهم له. وعندما اجتازت القوات التركية منطقة «الوشم» في طريقها إلى «المدينة» عاد «تركي» إلى الرياض التي أصبحت منذ ذلك الحين فصاعداً عاصمة «نجد».

وأثناء سقوط الرياض كان أهالي «الحوطة»، و«الحريق» قد أرسلوا وفداً عنهم ليعربوا عن ولائهم للنظام الجديد، ومع انضمام وتماسك «القصيم» و«الوشم» وجد «تركي» نفسه مسيطراً على كافة مناطق «نجد» باستثناء إقليم «الخرج». وعلى أي حال لم يكن «تركي» على عجلة ليتعامل مع بعض الأشخاص الذين نادراً ما يمكنهم أن يلحقوا الأذى به، فتريث حتى عام ١٨٢٥م، وبعدها أخضع إقليم «الخرج» لسلطته. وقد أبدى أمير الدلم «زقم بن زامل» بعض المقاومة، ولكن سرعان ما استسلم لقاء أن يضمن سلامته وسلامة أتباعه. تم ترتيب هذا الاتفاق بسهولة واستولى الإمام «تركي» على القلعة وأخذ كل معداتها الحربية، وأرسل زقماً إلى الرياض ليعيش ضيفاً على السلطة هناك. وخضعت «السلمية» و«اليمامة» دون أية مقاومة جادة، وأصبح بإمكان الإمام «تركي» أن يعود بحرية إلى عاصمته الجديدة مع علمه الأكيد بأن كافة مناطق «نجد» قد تحررت من السيطرة الأجنبية وعادت إلى التحالف السعودي.

وبعد فترة وجيزة من وصول الإمام «تركي» إلى «عرقة» تمكن الإمام «تركي» من تأمين قدرٍ كافٍ من الموارد المادية، ويعود الفضل الكبير في

نجاحه التام خلال فترة قصيرة في ذلك الأمر إلى شخصيته القوية التي اشتملت على جاذبية أخاذة وعلى سلطة نافذة، ناهيك عن هالة البطولة التي جسدتها شجاعته في أذهان الناس. ويقال بأن الإمام «سعوداً» كان يتمنى لو أن «تركياً» يرث الحكم من بعده، إلا أن «تركياً» لم يرغب في ذلك لأنه كان دائماً مخلصاً لـ «عبد الله»، كما أن الكل كان يعترف بأن «تركياً» كان روح وشريان الدفاع عن الدرعية. كما كان مستعداً للتعاون مع ابن معمر ومشاري بما يخدم مصلحة البلاد، ويعود الفضل جزئياً في نجاحه في مهمته إلى سياسة العنف والتعسف التي مارسها الأتراك في البلاد بدلاً من اللين والعفو. وكما يعود الفضل في ذلك أيضاً إلى تعب ومِلل أهالي «نجد» من الفوضى والاضطراب اللتين تقبلهما الأهالي في بداية الأمر فقط ليستريحوا قليلاً من الانضباط الذي فرضه عليهم النظام التركي.

يمكن اعتبار أن عهد حكم الإمام «تركي» بدأ مع وصوله إلى «عرقة» في شهر أيار من عام ١٨٣٢م، وبدأت سلطته بشكل فعّال حقاً باستسلام الحامية التركية في شهر تشرين الأول من عام ١٨٣٢م في الرياض، إذ بدأ الإمام «تركي» برنامج إصلاح اقترن باسمه واشتمل على ترميم الأسوار، وبناء القصر، والمسجد الكبير، وقفت جميعها كمعالم هندسية رئيسة في عاصمته إلى أن هدمت في عام ١٩٥٠م ليشيد مكانها صروح حديثة أكبر وأوسع. وإلى جانب هذه النشاطات انشغل الإمام «تركي» في تنظيم الأمور الإدارية بالمناطق والأقاليم التابعة لسلطته، فعين حكاماً وقضاة ممن يعتمد عليهم في تطبيق الشريعة وحفظ السلام دون خوف أو محاباة: فعين على إقليم الخرج «عمر بن عفيصان» الذي ذبح الأتراك عدداً كبيراً من عائلته في «الدلم» أثناء انسحابهم النهائي منها.

كان هروب «مشاري بن عبد الرحمن بن مشاري بن سعود» من مصر ووصوله إلى الرياض، بمثابة سبب وجيه لتعيينه أميراً من عائلة «آل سعود» على بلدة «منفوحة»، والحدث المهم الآخر كان ظهور الشيخ «عبد الرحمن ابن حسن» (حفيد محمد بن عبد الوهاب) والذي عينه «تركي» في منصب قاضي الرياض وبقي في ذلك المنصب لعدة سنوات إلى أن تقاسمه أخيراً مع ابنه وتلميذه «عبد اللطيف»، فكان للوالد والابن دور كبير في استتباب الدعوة السلفية كعنصر فعال في حياة العرب، علماً بأن دعوة الشيخ محمد ابن عبدالوهاب لم تصل إلى مستويات التعصب والغلو. إن الذي أسهم في استعادة سلطة وحكم «آل سعود» (خلال عهد تركي وفيصل) كان باعثاً سياسياً بقدر كونه دافعاً دينياً، علماً بأن الأسس الدينية لتوجهاتهم السياسية لم تكن محجوبة تماماً. لم تسيطر الفورة والنشاط الديني على حياة العرب بشكل تام إلا في العقد الثاني من القرن العشرين في عهد الدولة السعودية الحديثة.

لم يكن هناك ما يجعل الإمام «تركي» يسارع في تلك المرحلة إلى توسيع حدود مملكته، لذا تريث حتى شتاء عام ١٨٢٦م/ ١٨٢٧م حيث نظم حملة لمحاربة قبيلة «بني خالد» التي كانت قد عبرت صحراء «الدهناء» واستقرت بجوار آبار «حفر العتش». وكلف «مشاري بن عبد الرحمن بن حسن بن مشاري بن سعود» بقيادة تلك الحملة، ويقول «ابن بشر» بأن مشاري هذا هو ابن عم «تركي» وأنه أصيب بجرح في مواجهة دارت بينه وبين البدو لكنه ألحق بهم هزيمة تامة.

تميز هذا العام بالجفاف والقحط والمجاعة التي تسببت في موت العديد من الناس في إقليمَيّ «القصيم» و «سدير».

عين «تركي» في ذلك العام حاكماً جديداً على إقليم «سدير» يدعى «محمد بن عبد الله» وهو من «ضرماء». والأبرز أيضاً بين أحداث ذلك العام كان موت «رحمة بن جابر» من رجالات الخليج المشهورين في أحد الاشتباكات البحرية التي حدثت ضمن سياق حملة قادها ضده الأمير «ماجد بن عريعر» والتي ساعده فيها بشكل ملحوظ حكام «البحرين» و «القطيف». وتولى ابنه «بشر» مهمة قيادة دفة الأمور في مقر القيادة بالدمام، إلا أنه سرعان ما حوصر وأجبر على الاستسلام. وكان «رحمة» صديقاً وحليفاً مثالياً لعائلة «آل سعود» كان ذلك قبل أن تحل بهم مصيبة الدرعية، لذلك جاءت وفاته لتقوي شوكة «ماجد» كحاكم على إقليم الأحساء.

كان للغارات العابرة المتقطعة في «الوشم» وفي أماكن أخرى دور في تقلب برنامج إعادة البناء الذي نهجه الإمام تركي والذي كان يمكن أن يسير بشكل مستقر لولا تلك الغارات. وباءت بالفشل الآمال المعقودة على جني محصول وافر نتيجة الأمطار الغزيرة التي هطلت في خريف عام ١٨٢٩م وذلك بسبب سقوط مطر متواصل طيلة شهر نيسان حيث أدت مياهه المتجمعة في أماكن الحصاد إلى تعفن الحبوب والتبن، كما أن ثمار النخيل التي نضجت خلال ذلك الصيف أصيبت بحشرة أتلفت كافة المحصول.

استمرت هذه الظروف الزراعية غير المواتية على مدى العام التالي لكن على مستوى أخف. أما الإمام تركي فقد توجب عليه في ذلك العام ووسط

تلك الظروف أن يواجه قبيلة «بني خالد» التي تعدت على حدود مملكته. كما توجب عليه أيضاً في تلك الفترة التصدي للاعتداء الذي قامت به جماعة «العجمان» بالقرب من «بنبان». ويصف المؤرخ التاريخي المختص بشؤون «نجد»[١] ذلك العام على أنه عام أخبار طيبة وخيرات وكأن ساحة تلك المنطقة بدت - على الأغلب - خالية من الأحداث.

الحق يقال إن الزيارة التي قام بها حاكم «جبل شمر» المدعو «عيسى بن علي» إلى الرياض ليعلن البيعة للإمام «تركي» ويضع إقليمه تحت تصرفه شكلت تطوراً مهماً على صعيد الأحداث. كما أن عودة ابن تركي الأكبر والمدعو «فيصل» إلى الرياض بعد أن هرب من الأسر في مصر، لم تكن مجرد حدث محلي سارٍّ. بل كانت بشرى خير لمستقبل الأسرة الحاكمة ولمستقبل البلد ككل.

تطلبت المشكلات المحلية التي حصلت في «القصيم» تدخل الإمام «تركي» بشكل فوري، فاستدعى قادة الأقاليم وقدموا إلى الرياض ليجددوا البيعة والولاء والطاعة. وفي ذلك الحدث أعفى الإمام «تركي» حاكم بريدة «محمد العلي الشاعر» من منصبه وعين مكانه «عبد العزيز بن محمد بن عبدالله». وفي ربيع ذلك العام شن «تركي» حملة غزو على جماعة «مطير» والعناصر المؤيدة لهم من قبيلة «بني خالد»، وداهمهم في ممر الصمان وألحق بهم هزيمة نكراء، وبعد ذلك بفترة وجيزة بدأت تصل إليه الوفود من القبائل المقيمة في وسط نجد مثل (سبيع، والسهول، والعجمان، ومطير، وقحطان) لتعرب عن ولائها ودعمها الكامل لنظامه.

---

(١) أي ابن بشر، صاحب كتاب «عنوان المجد في تاريخ نجد». الذي جعل منه المؤلف مصدراً أساسياً في بناء كتابه. (المراجعون).

وقد تعاظم استقرار ونفوذ نظام الإمام «تركي» بوصول وفد أهالي «عُمان» الذي ناشد الإمام «تركياً» تقديم الدعم لهم ضد أعدائهم وطلب منه أن يرسل لهم جيشاً وأن يعين عليهم حاكماً وقاضياً. واستجابة منه لهذا المطلب أرسل «عمر بن محمد بن عفيصان» على رأس حملة قوية بشكل كاف لتشرف على تنصيب «عبد الله بن سعود» (من القويعية) حاكماً على ذلك الإقليم، على أن تكون «البريمي» مقراً لقيادته. كما أرسل الشيخ «محمد بن عبد العزيز العوسجي» ليتسلم منصب القاضي هناك، ولدى وصولهم إلى هناك خرجت الوفود من الظاهرة، كما جاءت جماعات من الباطنة ومن المناطق الساحلية العمانية لترحب بهم ولتعرب عن ولائها لحكم الإمام «تركي».

في تلك الأثناء استدعى الإمام «تركي» الذي كان يرافقه ابنه «فيصل» العشائر من مناطق شاسعة بدءاً من وادي الدواسر في الجنوب وباتجاه الوشم وسدير ليعرض عليه خطط مواجهة موسمي الخريف والشتاء، ويبدو أنه قصد من تلك التظاهرة إظهار التضامن فيما بينهم أكثر من إظهار أي سبب آخر، فعين منطقة الوشم لتكون مكان ملتقى القوات، لكن بسبب انتشار وباء الكوليرا هناك، سرعان ما قرر أن يكون الملتقى في مرتفعات طويق. وتفشى هذا الوباء بين الجنود ومات منهم العديد في معسكر «المجمعة» لكن الوباء لم يصل إلى المدينة.

أرسل الإمام «تركي» ابنه «فيصلاً» في غارة شنها على ناحية من نواحي «عنزة»، إلا أن رجال القبائل هناك غافلوه وتمكنوا من الهرب، ومكث «تركي» في «المجمعة» مدة شهر عمل خلاله على ترتيب أمور الإقليم، فأقال حاكم سدير المدعو «ابن عبدان» من منصبه وعين مكانه «أحمد بن ناصر الصانع».

مر صيف عام ١٨٢٩م بدون أحداث، لكن الإمام «تركياً» أرسل في خريف ذلك العام «محمد بن عفيصان»(١) على رأس حملة لغزو «الأحساء». ويدل على ذلك نية الإمام «تركي» في إحكام قبضته على حكم «آل عريعر» في ذلك الإقليم، لكن في حقيقة الأمر قام الأخوان «محمد وماجد العريعر» بالمبادرة بإعلان الحرب على «تركي»، وحشدوا لذلك الغرض قوة كبيرة في منطقة «الصمان»، وعلى الفور قام الإمام «تركي» بتجميع رجال العشائر ووضعها تحت إمرة «فيصل» لمواجهة ذلك الخطر، ودارت معركة شرسة ومتوازنة حول موارد مياه «معقلا» القريبة من سبخات «خفيسة المهمري». واستمرت المعركة بدءاً من حوالي منتصف شهر شباط (فبراير) حتى الرابع والعشرين منه والذي صادف اليوم الأول من رمضان الذي قتل فيه «ماجد بن عريعر». وبعد أن أصبح «فيصل» واثقاً من الانتصار أطلع والده على الأخبار الجيدة، فما كان منه إلا أن سار بتعزيزات قوية ووصل إلى هناك في منتصف شهر آذار، حيث تجددت المعركة بضراوة وشراسة من قبل الفريقين إلا أن قوات الإمام «تركي» بدأت في التفوق التدريجي إلى أن قامت في الثامن والعشرين من شهر آذار بشن هجوم بكامل قوتها على مواقع العدو الذي أسفر تراجعه عن هزيمة نكراء في صفوف آل عريعر وفرار قسم منهم وكان من بين الفارين محمد بن عريعر وأتباعه. إلا أن رجال قبيلة «مطير» الذين كانوا يراقبون تطور أحداث المعركة قرروا الانسحاب قبل أن يقوم «تركي» بهجومه الكبير، الأمر الذي أسهم في تحقيق الفوز لصالح قوات الإمام «تركي».

وبعد مضي أسبوعين سار «تركي» وابنه «فيصل» بالجيش نحو «الأحساء» وكانا قد أرسلا رسلاً ليطلبوا من القادة هناك الاستسلام ومن القبائل

(١) الصواب: عمر بن عفيصان. (المراجعون).

والقوى مبايعة الإمام «تركي». استسلم العديد من القبائل والقرى، إلا أن «محمد بن عريعر» وأقرباءه وأتباعه سارعوا في تعزيز قلاعهم استعداداً للمقاومة، وعند ظهور أول قوات الإمام «تركي» لاذ العديد من زعماء قبيلة «بني خالد» بالفرار. وكانت قوات «تركي» قد استولت على بلدة «الهفوف» دون مقاومة، وأقامت مقراً لقيادتها على هضبة «أبو غنيمة»، وعندها قدم العلماء، ووفود المدن والقرى المختلفة إلى مقر قيادة الإمام «تركي»، ليعربوا عن استسلامهم؛ وليقسموا يمين الولاء له، وفي تلك الأثناء كان «محمد» يرابط في قلعة «الكوت» الكبيرة في الزاوية الشمالية الغربية من «الهفوف»، وعندما طلب منه الإمام «تركي» أن يستسلم وفق شروط مشرفة هلل بأعلى صوته، وأخذ إقليم «الأحساء» مرة ثانية مكانته في الدولة السعودية.

مكث «تركي» وابنه «فيصل» في تلك المنطقة مدة شهر ونصف قاما خلالها بترتيب الأمور، وتلبية الاحتياجات الدينية للأهالي الذين تم دعوتهم إلى طاعة الله وشكره على نعمه، وإلى أداء الصلاة في المساجد بانتظام، كما طلب منهم بشكل عاجل الالتزام بنمط القيادة الشرعية المتبعة مذهب أهل السنة والجماعة.

عين «عمر بن عفيصان» حاكماً على ذلك الإقليم، وأسندت شؤون الأمور الدينية فيه إلى الشيخ «عبد الله الوهيبي». وقد هطلت في ذلك العام أمطار غزيرة وجاءت مواسم خيرة ومحاصيل وافرة، وهبطت الأسعار لتختم عاماً شهد العديد من الإنجازات الكبيرة. ولم تسجل السجلات التاريخية بـ «نجد» أية أحداث بارزة إلا بعد حلول عام ١٨٣٠م.

ومع نهاية شهر كانون الثاني من عام ١٨٣١م كان الإمام «تركي» يعد حملة لغزو «حفر الباطن» على الحدود العراقية. وعليه هدأت الأمور وسار بقواته نحو «الصبيحية» في أراضي الكويت، ومكث هناك فترة طويلة قدم

له خلالها شيخ الكويت «جابر بن عبد الله بن صباح» الهدايا كما قدمت القبائل هناك لمبايعته. وأثناء إقامته هناك وصلته أخبار مزعجة من الرياض، فتحرك من هناك على الفور ليتأكد بنفسه من صحتها.

مما سيبقى في الذاكرة أنه قبل بضع سنوات من تعيين «تركي» لابن عمه «مشاري بن عبد الرحمن» حاكماً على «منفوحة»، ومن المحتمل أن يكون «تركي» قد أرسل نفس هذا الشخص «مشاري» على رأس حملة ضد قبيلة «بنى خالد» في «حفر العتش»، ويبدو أن مشاري بن عبدالرحمن استغل الفرصة للبدء في تنفيذ تطلعاته بالتمرد على تركي ولذلك توجه شمالاً للبحث عن مؤيدين له في حركته العقيمة للوصول إلى الحكم.

وفي منطقة «المستوي» جابهه أحد زعماء قبيلة «مطير» وصد تقدمه، وإثر ذلك التمس العون من جماعات مختلفة في منطقة «القصيم» إلا أنه لم يفلح في ذلك، وبعدها ناشد شريف مكة المدعو «محمد بن عون»، لكنه لم يكن مهتماً بمعارضته للإمام «تركي». وغادر «مشاري» مكة يائساً وهو يدرك أن أهالي «نجد» ليسوا مهتمين فعلاً بالتمرد على الإمام «تركي»، وعليه قرر العودة إلى الرياض وإلقاء نفسه تحت رحمة خاله. استقبله خاله بلطف وقدم له نزلاً ليقيم فيه بالقرب من القلعة، ويحدد المؤرخ «ابن بشر» تاريخ عودة «مشاري» وعفو الإمام «تركي» عنه بقوله: إن ذلك حدث في نهاية شهر أيار من عام ١٨٣٢م، وإذا كان ذلك التاريخ صحيحاً فيجب علينا أن نفترض أن «مشاري» مكث في مكة فترة طويلة جداً من ذلك العام، ولم يترك أي أثر يذكر على تاريخ «نجد» المعاصر.

وفي شهر حزيران من عام ١٨٣١م قاد «فيصل» حملة قوية وتوجه بها إلى عالية نجد لغزو عتيبة، وألحق بها هزيمة كبيرة بالقرب من آبار «طلال». وفي تلك الحالة من الفوضى عاد رجال القبائل ومعهم تعزيزات من تجمعات قبائل «مطير» التي كانت تقضي الصيف في المناطق المجاورة، فدارت الدائرة على المنتصرين، إلا أن «فيصلاً» وفرقة الحرس الخاصة به غطت انسحاب قواته وتراجعها باتجاه «القويعية» وهي تحمل معها غنائم أول معركة. وقد اشتملت تلك الغنائم على نحو ثلاثة آلاف جمل.

سبق هذا الحدث - وبالتحديد في الجزء الأول من شهر أيار (مايو) - أن هبت عاصفة هوجاء عنيفة اجتاحت معظم مناطق «نجد»، وخلفت الكثير من الضرر والخراب في واحات النخيل، علماً أن السجلات التاريخية تشير إلى أن الضرر لحق بأشجار النخيل الصغيرة وأن جذوع الأشجار الطويلة قاومت عنف الريح وبالتالي تعرضت للقليل من الأضرار. وقد صادف موسم حج هذا العام في هذه الفترة نفسها (أي حوالي نهاية هذا الشهر نفسه)، وتعرض الحجاج إلى الإصابة بوباء الكوليرا ومات الآلاف منهم ومن مرافقيهم، وبالمناسبة نقول إن المؤرخ «ابن بشر» يسرد عدداً من الظواهر الفلكية وأخرى لها علاقة بالظواهر الجوية التي سبقت هذه الأحداث، ولهذا يبدو وكأنه يتنبأ بحدوث وباء يسمى «الطاعون الدبلي» الذي ضرب مناطق العراق والكويت، إلا أنه ولمدة عام كامل (بدءاً من شهر آب عام ١٨٣٢م) بقي خارج مناطق «نجد». ومن بين الظواهر التي ذكرت أعلاه كانت الظواهر التالية:

١ - ظهور الألوان الساطعة والمزركشة في السماء وكأن نور القمر سطع بشدة خلال الليالي الخمس الأواخر من شهر صفر (المصادف لأي يوم من الأيام بين الخامس والعاشر من شهر آب).

٢ - كانت الشمس عند حوالي نهاية شهر آب أو بداية أيلول تشرق باللون الأخضر.

٣ - ظهور أضواء الشفق القطبي الشمالي خلال الليالي الأولى من شهر أيلول، الأمر الذي حمل الناس على الاعتقاد بأن الشمس لم تغرب بعد.

أخيراً عند نهاية شهر أيلول أو مع بداية شهر تشرين الأول، ظهر اقتران الكواكب الخمس (الشمس، والقمر، والمريخ، وزحل، وعطارد) ضمن مجموعة نجوم برج الأسد.

أمضى الإمام «تركي» فصل ربيع عام ١٨٣٢م في صحراء «عرقة» دون أن يستحوذ على فكره أي شيء معين باستثناء بعض التقارير التي كانت تصل إليه بين الحين والآخر والتي تفيد عدم دفع بعض القبائل ما يترتب عليها من الجبايات. وقد تطلب ذلك الأمر إعداد حملة لإجبارها على الدفع، فأرسل «تركي» في أواخر الصيف أو بداية الخريف ابنه «فيصلاً» ليؤنب ويوبخ إحدى عشائر «عنزة» التي كانت ترعى إبلها في الدهناء، إلا أنهم تمكنوا من الفرار بعد أن وصلتهم أخبار تقدم قوات «فيصل» باتجاههم. وقد توقف «فيصل» للاستراحة بقواته في «المجمعة» وهناك جلب إلى صفوفه بعض المقاتلين ونظم قوة لغزو «عُمان» لتكون تحت قيادة «عمر بن محمد بن عفيصان» ولا تتوافر في السجلات التاريخية أية تفاصيل عن تلك الحملة. وبعدها عاد «فيصل» إلى الرياض.

قاد الإمام «تركي» حملة ضد إقليم «الأحساء»، واستغل زعيم «آل مرة» هذا الظرف وأعلن استسلامه إلى الإمام «تركي»، وعندما سمع «فلاح بن

حثلين، من العجمان» بذلك استسلم بدون شروط، وعرّج «تركي» بعد ذلك على منطقة القطيف وهناك قابله الأهالي بالهدايا وبايعوه على الولاء له، وأمضى بعد ذلك شهراً في منطقة «الهفوف» قبل أن يعود راجعاً إلى الرياض. وقد توقف «تركي» في طريق عودته عند موارد مياه «وثيلان» إلى الغرب من الدهناء ليعقد مجلساً قبلياً يتحدث خلاله عن رأيه حول مفهوم الحكومة الجيدة، وعندما طلب منه أمير «بريدة» أن يكون أكثر دقة وأن يوضح التلميحات التي أشار فيها إلى تقصير القادة أجاب الإمام «تركي» قائلاً: «في الواقع قصدت بأن أوجه كلامي إليك شخصياً وإلى أمثالك، إذا كنت تظن بأنك فتحت البلاد بقوة سيفك، فاعلم بأنها فتحت بسيف الإسلام، وأن سيف الإسلام دافع عنها ووحدها تحت قائد واحد».

فُض الاجتماع وسط مزاج دل على تهجم وخضوع لرجل قوي قادر - كما كان يعرف الجميع- على أن ينتقل من مجرد الضوابط إلى حيز التصرف الفعلي وذلك لإخماد أي فساد على أي مستوى كان. وقد أكد الجميع على ولائهم وانصياعهم لرغباته، إلا أن الضرورة التي استدعت أن يتحدث الإمام «تركي» بهذه اللهجة الواضحة في مثل ذلك الوقت وبالتحديد بعد أن استعاد أمجاد الإمبراطورية التي خسرها «عبد الله»، لتدل على أن هناك الكثير من الأعمال التي كان يتوجب على «تركي» القيام بها ليعدل حمولة سفينة الحكم ويجعلها تسير بشكل متوازن.

دلت الأحداث بوضوح على أنه لم يكن أمام الإمام «تركي» بوصفه حاكماً للبلاد أي خيار آخر، إذ مهدت الحزازات الشخصية المتعصبة البائرة بين القبائل والقرى الطريق أمام ظهور حركات التمرد، كما حرضت على

الفتن والعصيان، وإن موت «فيصل الدويش» مباشرة بعد هذا اللقاء أضعف زعامة قبيلة «مطير» القوية وغير المستقرة، والتي تولى زمام الحكم فيها ابن فيصل المدعو «محمد والمكنى بأبي عمر».

إن عودة «مشاري» التي حدثت في هذه الأثناء كما أشرنا سابقاً كانت مسألة أكثر جدية، إلا أن الخطوات التي اتخذها «تركي» للترحيب به وإعداد كل الترتيبات من أجل راحته، كان لها دور في فض معظم التعقيدات التي كان من الممكن أن تنجم بسبب وجوده في «نجد». وبسبب الأمطار الغزيرة التي هطلت تحسنت الأوضاع الاقتصادية لدرجة كبيرة، وذلك بالرغم من موجة البرد الشديد التي طغت على المنطقة خلال شتاء عام ١٨٣٢م/ ١٨٣٣م، ويقال إن الماء كان يتجمد أثناء رفعه من الآبار، كما أن أشجار النخيل تضررت كثيراً بسبب الصقيع، إلا أن الأثر المباشر للبرد على تلك الأشجار لم يظهر إلا مع حلول موسم جني الثمار في فصلي الصيف التاليين.

أنهت الأحداث التي وقعت في منطقة «الزبير» و «البصرة» و «تهامة اليمن» حالة الهدوء النسبي التي سادت في المناطق الخاضعة لحكم الإمام «تركي»، فقد تعكر صفو الأمن فعلياً هناك في صيف وخريف عام ١٨٣٣م بسبب المعركة التي طال مداها في منطقة «المربع» بمنطقة السر والتي كان أبطالها الرئيسيون قبيلتي «عنزة» و «مطير» وإلى جانبهم حلفاؤهم الذين تجمعوا على الأغلب من قبائل البدو في الصحراء. ولسبب ما أحجم الإمام «تركي» عن أي تدخل بين القبيلتين، وانتهى القتال بينهما إلى هزيمة عنزة والمتحالفين معها. ويشير «ابن بشر» هنا إلى أنه من المحتمل أن الإمام «تركياً»

كان منشغلاً بمشكلة «مشاري»، لكن «ابن بشر» يطرح في الوقت نفسه تفسيراً آخراً يمكن أن يكون أكثر احتمالاً وهو أن موقفه السلبي نجم عن قلقه حول استقرار الوضع في إقليم «الأحساء» الذي وصلته منه أخبار مفادها أن ثمة مشكلة كانت تتقد في منطقة «القطيف».

كانت الحرب قد اندلعت هناك بين جماعة «العماير» وحاكم القطيف «عبد الله بن غانم»، الأمر الذي أدى إلى قطع طرق التموين من الميناء. ونظم الإمام «تركي» مجموعة من قواته ووضع «فيصلاً» أميراً عليها وأمره بالتوجه بها لإقالة بعض أتباعه، وأثناء تقدمه بتلك القوة على طول منطقة آبار «الرمحية» الواقعة عند أطراف الدهناء، قام بمهاجمة جماعة ضايقته بكثرة مطالبها فهزمها، وهربت إلى قلعة الدمام التي كانت تابعة لحاكم البحرين، فطاردهم «فيصل» حتى وصل إلى «سيهات» وهناك أعد الترتيبات اللازمة لمحاصرة الحامية المعادية، واستولى في تلك الفترة أيضاً على جزر «تاروت» و «دارين»، ووضع فيها حاميات مقاتلة. لكن نشاطاته تعرقلت بسبب الأخبار السيئة التي وصلته من الرياض ومفادها أن عناصر موالية لـ «مشاري ابن عبد الرحمن» قامت باغتيال والده عند خروجه من أحد المساجد بعد أداء صلاة الجمعة، وأن «مشاري» قد احتل القلعة وأجبر الأهالي في العاصمة على الاعتراف به حاكماً عليهم.

وقعت تلك الكارثة قبل بضعة أيام من تاريخ العاشر من أيار عام ١٨٣٤م، واحتفظ «فيصل» بتلك الأخبار لنفسه، وفك الحصار عن «سيهات»، وأخذ معه «عبد الله بن غانم» إلى الهفوف، وهناك جمع قادة قواته بمن فيهم حاكم الأحساء «عمر بن عفيصان» وأمير حائل «عبد الله بن

علي بن رشيد» الذي كان قد أنشأ معه صداقة حميمة منذ اللحظة التي قدم فيها إلى الرياض لمبايعة الإمام «تركي». ومن بين الشخصيات الأخرى التي كان يعتمد عليها بشكل مطلق حاكم بريدة «عبد العزيز بن محمد بن عبدالله ابن حسن»، و «حمد بن غيهب» من «شقراء»، و«تركي الهزاني» من «الحريق». وبعد أن أطلعهم على الأخبار التي تلقاها تشاور معهم في الأمر ووافقوا بالإجماع على ضرورة القيام بعمل فوري لاستعادة الرياض ومعاقبة ذلك الدجال الأفّاك، وأقسموا جميعاً يمين الولاء للإمام «فيصل» على أن يكون حاكمهم وإمامهم المؤمن، ووضع «ابن عفيصان» كل الأموال والمستودعات بكل محتوياتها تحت تصرف الإمام «فيصل».

أعدت الترتيبات للقيام بهجوم مبكر، ففي العاشر من شهر حزيران عام ١٨٣٤م وصلت قوات الإمام «فيصل» إلى جوار الرياض، وعلى ما يبدو لم يكن لدى «مشاري» معلومات عن ذلك التحرك، لكن رجاله كانوا يحرسون كل الأسوار والأبراج حول الرياض. وأرسل «فيصل» مجموعات لتفتح فجوة تدخل منها قواته إلى المدينة وتحتل المباني حول القلعة. وقد سهلت المجموعات التي كانت تحرس الأسوار دخول هذه القوة، وعلى الفور بدأت قوات «فيصل» في قصف القلعة التي كانت مزودة بالمؤن والسلاح لمواجهة أي حصار، إلا أن فرار مجموعة تقدر بـ ١٤٠ رجلاً من رجال قبيلة «سبيع» أضعف الحامية. وبعد أن أحكم فيصل ورجاله الحصار تمكن فريق من مقاتلي الإمام فيصل من التسلق، ووصلوا إلى أسطح القلعة وانتشروا يبحثون عن «مشاري» وأعوانه، وأخيراً وجدوهم وأخرجوهم من مخابئهم وذبحوهم جميعاً. على إثر ذلك تدفق أهالي الرياض ليبايعوا

«فيصلاً» حاكماً جديداً عليهم. وحدث ذلك في الثامن عشر من شهر حزيران عام ١٨٣٤م، أي بعد حوالي أربعين يوماً من اغتيال الإمام «تركي» الذي امتد عهد حكمه أحد عشر عاماً بالضبط وذلك بدءاً من تاريخ وصوله إلى «عرقة».

الفصل السابع

فيصل بن سعود

فيصل بن سعود[1]

كـانت فتـرة حكم الإمـام «تركي» القـصيـرة الأجل على درجـة بالغـة من الأهمية في استعادة بعض أملاك الحكم السعودي، واستعادة هيبة أسرة «آل سعـود»، وكـان باسـتطاعـة الإمام «تركـي» -على الأقل- أن يعـيـد إصـلاح الأسس التي نهضت عليها الدولة والأسرة الحاكمة (على مدى نصف قرن قبل سقـوط الدرعـية)، والتي تعاظمت إلى أن أصبحت مملكة لم تعـرف الجزيرة العربية مثيلاً لها منذ العهود التي سبقت ظهور الدين الإسلامي، وكان بإمكان «آل سعود» على هذه الأسس -كما صنعوا بالفعل- أن ينهضوا من جديد ليأخذوا مكانتهم في عالم معاصر. وقد تجاوزت تلك النهضة أحـلام وتوقعـات الإمـام «تركي» ومعـاصـريه، وفي مضـمـار هذا التطور واستعادة الأمجاد كان لا بد من التعثر أحياناً والتقدم أحياناً أخرى، إلا أنه من العـدل أن نقـول: إنه لولا صبـر ومثـابرة الإمـام «تركي» في إعـادة بناء الأنقاض التي ورثها من آبائه لما حظيت المملكة العربية السعودية على عهد ابن حفيده بما هي عليه.

إذا كان قدر لأي إنسان أن يقوم بذلك الدور، لكان ذلك الإنسان هو الإمام «تركي». إذ ألبس عند ولادته اللون الأرجـواني، وهو لون يرمـز للسلطة والمنزلة الرفيعة، دون أن يتوقع له أي أحد أنه سيصبح حاكماً، إلا أن الوضع الملح للبلاد وحاجتها إلى قائد يتولى قيادتها، فرضت عليه أن يتسلم زمام الحكم في وقت فشل فيه أشخاص آخرون في كل محاولاتهم ومنصبهم للفوز بالحكم ومن بينهم أشخاص كان الإمام «تركي» نفسه راغباً في خدمتهم.

---

(١) الإمام فيصل بن تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود. (المراجعون).

لا بد أن يكون الإمام «تركي» طاعناً في السن عندما نالت يد الغدر منه، إذ لا تتوافر أية معلومات تاريخية تحدد تاريخ ولادته والذي لا يمكن إلا أن يقدر تقديراً، وما هو موثق في السجلات التاريخية أن الإمام «تركياً» أدى دوراً جديراً بالاعتبار - كما أداه العديد من أبناء أسرة آل سعود - في الدفاع عن الدرعية ضد مطامع «إبراهيم باشا»، كما أن الدور الذي قام به ابنه «فهد» الذي قتل أثناء المعارك جدير بالاعتبار أيضاً، ولا ننسى دور ابنه الآخر الإمام «فيصل» الذي خلف أباه في الحكم وشارك في تلك المعارك. والجدير بالذكر هنا أن ثلاثة من إخوانه وهم: زيد، ومحمد، وسعود شاركوا أيضاً في الدفاع عن عاصمتهم، واستشهد محمد، وسعود وهما يناضلان في ساحات المعارك.

والحقيقة أنه ليس للإمام «تركي» أي ذكر في النشاطات والأعمال التي قام بها الإمام «عبد العزيز الأول»، و «سعود الأول»، غير أن السجلات التاريخية تشير فقط إلى أنه كان من بين أبناء والده «عبد الله بن محمد»، وكان يحضر مع أولاده باستمرار كل جلسات ومحافل «سعود». ويعود أول ظهور له في تاريخ الأحداث السعودية إلى عام ١٧٤٦م عندما شارك في حملة لفك الحصار عن «منفوحة» المحاصرة من قبل «دهام بن دواس» حاكم منطقة الرياض آنذاك. ومنذ ذلك التاريخ تكرر ذكر اسمه بصفته قائداً لعدة حملات قام بها نيابة عن والده «محمد» وعن أخيه المشهور «عبد العزيز الأول» الذي استمرت أعماله تلك حتى عام ١٨٠٣م، حيث كان في مسجد «الطريف» يصلي صلاة الجمعة إلى جانب أخيه «عبد العزيز الأول»، فقام أحد رجال الشيعة المتعصبين باغتياله انتقاماً لانتهاك قدسية «كربلاء»(١).

(١) المقصود بالقدسية قدسية خاصة عند الشيعة فقط. أما الإمام عبد العزيز ورجاله فهم حين قاموا بأعمالهم في كربلاء كانوا يرون أن ما في كربلاء من قباب على القبور وغير ذلك إنما هو من المظاهر الشركية التي يجب العمل على إزالتها وتصحيح المعتقدات من الإيمان والتعلق بها (المراجعون).

ونعرف حق المعرفة أن الإمام تركياً عاش كامل فترة حكم ابن أخيه «سعود» التي دامت أحد عشر عاماً. وبالرغم من أن تاريخ وفاة الإمام سعود غير مذكور في أي مصدر تاريخي، لكن لا بد أن وفاته حدثت قبل عام ١٨١٤م ولنقل في عام ١٨١٢م، وبذلك نعطي تركياً فترة ستة وستين عاماً من تاريخ حملة عام ١٧٤٦م، إذ من المعقول أن نفترض أيضاً أن عمره في تلك الحملة كان -على الأقل- عشرين عاماً، وعليه يمكن أن يكون قد وصل سن السادسة والثمانين عندما داهمته المنية. وبناءً على هذا التحليل يمكن القول: إن أخاه «عبد العزيز الأول» ولد في عام ١٧٢١م وأن ابنه الأكبر وريثه في الحكم «سعود» ولد في عام ١٧٤٨م، وعليه يمكن القول أيضاً: إن «عبد العزيز» بلغ من العمر ٨٢ عاماً عندما اغتيل في عام ١٨٠٣م، وكان عمر «سعود» عندما تولى السلطة من بعده ستة وخمسين عاماً وكان قد بلغ من العمر عند وفاته ستة وستين عاماً، وليس هناك فرق كبير في السن بين أبناء العم «سعود» و «تركي»، إذ لم يكن عمر «تركي» أقل من ثمانين عاماً عندما اغتيل في عام ١٨٣٤م.

من المعلوم أن ابنه الأكبر ووريثه في الحكم «فيصلاً» كان قد شارك في معارك الدرعية، والمعروف عنه أيضاً أنه رافق الإمام «سعوداً» في حملته التي شنها عام ١٨٠٣م والتي أسفرت عن ضم «مكة»، ولم يكن عمر «فيصل» في تلك الحملة أكثر من خمسة عشر عاماً، ولهذا يمكن القول إنه كان في الأربعينيات من عمره عندما تولى الحكم، وكان قد تجاوز السبعين عندما مات في عام ١٨٦٥م. إن طول أعمار حكام «آل سعود» هو في الواقع ظاهرة متميزة، إذ غطت على مدى فترة ٣٠٠ عام ثمانية أجيال من

تلك العائلة بدءاً من مولد «محمد بن مقرن» الذي حدث تقريباً عام ١٦٤٠م. والجدير بالذكر أن «محمد بن مقرن» هو والد «سعود» الذي تسمى الأسرة تبعاً لاسمه، وتفصل فترة مئة عام بين مولد «سعود» وبين موت أكبر أبنائه ووريثه «محمد»، وهناك فترة تزيد على مئة عام انقضت بين تاريخ مولد والد الملك الراحل «عبد الرحمن» والتي حدثت عام ١٨٥٠م ووفاة الملك عبدالعزيز عام ١٩٥٣م.

لم يتمكن الإمام «تركي» من الوصول إلى الحدود الإقليمية التي فتحها وخسرها سلفه، إذ لم يكن مقدراً لمنطقة الحجاز أن تعود إلى الحظيرة السعودية إلا بعد مضي قرن من الزمن تقريباً.

ومن الناحية الأخرى تمكنت أسرة «آل سعود» من إخضاع إقليم «الأحساء» كما استعاد الحكم السعودي سلطته على منطقة «عُمان» التي لم تخسرها أسرة «آل سعود» بشكل كامل في أي وقت من الأوقات. وكان «جبل شمر» و «وادي الدواسر» يشكلان الحدود الشمالية والجنوبية للمنطقة الوسطى، بينما كانت الواحات في المناطق الغربية (بيشة، ورنية، والخرمة، وتربة، وخيبر، وتيماء) مرتبطة بحكم «آل سعود» بروابط ليست على نفس القدر من القوة. وقد تمكن الإمام «تركي» ضمن هذه الحدود من أن يوجد الأمن والنظام على نحو ملحوظ في مناطق القبائل ومناطق الحضر على حد سواء. وعمل ذلك بالرغم من أن القصائد الشعرية التي نظمها المؤرخون في وصف الأحوال السائدة في زمن حكمه قللت من تقدير الأصول والموجودات التي آلت إلى الإمام «فيصل».

تقدم المصادر التاريخية الإمام «فيصلاً» على أنه رجل متدين يميل للزهد

والتعبد والجد، كما تقدمه لنا على أنه مطلع ومتمكن من الأمور الدينية وحافظ للقرآن عن ظهر قلب، إذ كان يقضي الليل في التعبد والصلاة والتهجد طالباً العون من الله على مصاعب هذه الحياة.

ويعلق المؤرخ «ابن بشر» على صفات الإمام «فيصل» بقوله إنه عانى مشكلات ومصائب في حياته، كما واجه من الأخطار ما يمكن أن يوقع الكآبة واليأس في نفس أي إنسان تقي عالم، ناهيك عن الأمراء والحكام. لقد بدا من الواضح ومنذ اللحظة الأولى لتسلمه زمام الحكم أن فترة حكمه ستكون هادئة ومزدهرة، ولم يكن هناك أدنى شك في أن إخلاصه للدين الإسلامي ولبلاده ولشعبه لم يكن أقل من إخلاص والده لهذه الأمور.

عندما عاد «فيصل» إلى «نجد» عام ١٨٢٨م كان قد قضى في سجن الأتراك (العثمانيين) في مصر سنوات عدة. ويمكن النظر إلى حقيقة هروبه من السجن ليلتحق بوالده على أنها ظاهرة إصرار وعزيمة زرعت في نفسه حب المحافظة على بلاده حرة من أي سيطرة أجنبية أو تدخل خارجي. وكان «فيصل» خلال السنوات الست التي تلت ذلك الحدث ساعد والده الأيمن في إعادة بناء واستقرار الحكم إذ أدى دوراً مهماً في استعادة إقليم «الأحساء» الذي اعتمد اقتصاد البلد عليه لدرجة كبيرة، ولم يسفر توليه المفاجئ للسلطة عن أي انقطاع في إنجاز الأمور الملقاة على عاتقه، ومع ذلك لم يكن مقدراً له أن ينعم بفترة حكم خالية من الأحداث.

لم تحدث المشكلات في السنوات الأخيرة من حياة فيصل إلا في الجزء الأخير من عام ١٨٣٤م عندما تسلم زمام الحكم واستهل فترة حكمه بمؤتمر دام شهراً كاملاً عقده في الرياض وشارك فيه كبار رجال الدين في الحكم.

بما فيهم اثنان من أحفاد الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» وهما «علي وعبد الرحمن»، وكلاهما ابني «حسين». وكان «محمد» في تلك الفترة قاضي «الحوطة» في حين كان «عبد الوهاب» قاضي «الخرج»[(١)]، وتبع ذلك المؤتمر سلسلة من زيارات التهنئة التي قام بها وجهاء الأهالي من عدة مناطق ليبايعوا الإمام «فيصلاً» ويعربوا عن ولائهم له. وبعد انقضاء هذه الرسميات أرسل «فيصل» جباة الزكاة إلى كل مكان في شرق البلاد وغربها وشمالها وجنوبها، وأمرهم بجمعها لصالح خزينة الدولة.

نقل أحد جباة الزكاة الذي كان الإمام «فيصل» قد أرسله إلى الجنوب أخبار النزاعات الداخلية في «وادي الدواسر» وفي منطقة «الأفلاج»، و على الفور أرسل الإمام «فيصل» حملة عسكرية إلى هناك ليستعيد النظام والاستقرار إلى تلك المناطق. وتصادف في تلك الأثناء أيضاً أن قام «فيصل» وهو في طريقه إلى معسكره بالقرب من «تمير» بتأديب مجموعة من قبائل «الدواسر» كانت تقضي فترة الشتاء في صحراء «العرمة». وقد حدد «فيصل» ذلك المعسكر ليكون نقطة لقاء تتجمع فيه فرق القبائل والأهالي المشاركة في قواته الإقليمية. وتوجه بعد ذلك لقضاء فترة استراحة طويلة في منطقة «الشعراء» الواقعة في عالية نجد، وهناك ركز اهتمامه على احتياجات الأهالي الدينية، وأمرهم بحضور دروس التوعية الدينية بعد صلاة العصر من كل يوم؛ ولم يجعله ذلك يهمل احتياجات خزينة الدولة من الأمور الدنيوية، لذلك حث جباة الزكاة على العمل بجد والمثابرة على جمعها.

وبحلول عام ١٨٣٥م يبدو أن «فيصلاً» جلب بعض المتاعب لنفسه من جراء اتخاذه قراراً بمكافأة صديقه الحميم «عبد الله بن علي بن رشيد» الذي

---

(١) قاضي الخرج هو علي بن حسين بن محمد بن عبدالوهاب، أما قاضي الحوطة فهو عبدالرحمن بن حسين بن محمد بن عبدالوهاب. (المراجعون).

كان يعد من المؤيدين البواسل الذين أسهموا في إخماد فتنة «مشاري»، إذ قرر تعيينه حاكماً على «جبل شمر» على حساب «صالح بن عبد المحسن بن علي» الذي كان يمثل في ذلك الوقت السلالة الحاكمة في منطقة «حائل».

أرسل الإمام «فيصل» مع «عبد الله بن رشيد» أحد كبار المشايخ ليفقه الناس هناك بالمبادئ السليمة للعقيدة الإسلامية، وبعد عدة أشهر من رحيله نشبت المشكلات في منطقة «حائل» وبدأت بين جماعات من المصلين في مسجدين رئيسين بعد صلاة الجمعة إثر شجار عنيف دار بينهم وبين رجال الزعيم الجديد الذي أرسله «فيصل» ليكون حاكماً على تلك المنطقة، وانتهت تلك المشكلات بهروب الحاكم المخلوع وكل أسرته إلى «القصيم». وصلت هذه الأخبار إلى «فيصل» فأرسل أوامره إلى سلطات «القصيم» باعتقال كل الفارين، فنفذت سلطات «القصيم» ذلك الأمر، في حين تمكن البعض الآخر من الهروب إلى «الدمينة»، وبقي «عبد الله» زعيماً على منطقة «جبل شمر» دون منازع وتابع للدولة السعودية، وقد تبعه في أداء الدور نفسه (مع مرور الزمن) اثنان من أبنائه، لكن ابنه الثالث ويدعى «محمداً» كان مقدراً له ليس الاستقلال الكلي عن الرياض فحسب، بل صهر الحكم السعودي ضمن بوتقته الشخصية حتى نهاية ذلك القرن.

في تلك الأثناء كانت القوات التركية في منطقة الحجاز تحت إمرة «أحمد باشا»، وبدعم من قبل شريف مكة «محمد بن عون» حاولوا إخضاع إقليم «عسير» لسيطرتهم، إلا أن أعمال الابتزاز والاغتصاب للأملاك التي كان يمارسها الجيش التركي (العثماني) الكبير الذي أرسل لذلك الغرض ولدت ردة فعل قوية بين قبائل مناطق عسير، الأمر الذي جعلهم يتحدون

ويهاجمون الأتراك ويوقعون بهم هزيمة نكراء، ولم يفلت من القوات التركية (العثمانية) سوى قوة صغيرة تمكنت من الهرب إلى مكة وكان من بينها «الباشا» وشريف تلك المنطقة. وفي صيف عام ١٨٣٥م استدعى «محمد باشا» كلاً من الباشا والشريف إلى مصر ووضع الشريف في السجن. وهنا تجدر الإشارة إلى أنه قام بذلك إما بسبب فشلهما أو لأنه شك في أن الشريف لم يكن يقوم بدور التابع المخلص للحكم العثماني.

أرسل زعماء مناطق «عسير» الكثير من الغنائم التي استولوا عليها من القوات التركية (العثمانية) إلى الإمام «فيصل» لتكون دليلاً لتضامنهم مع قضيته. ومما لا شك فيه أن «محمد علي» خطط في تلك الأثناء لمحاسبة الإمام «فيصل»، فأرسل إليه «دوسري بن عبد الوهاب أبو نقطة» الذي كان سجيناً في مصر منذ «أيام الدرعية»، وطلب منه أن يخبر الإمام «فيصلاً» بأن عليه أن يدفع الجزية إلى «محمد علي باشا». وقد رد «فيصل» على ذلك بأن أرسل إلى «أحمد باشا» في مكة هدايا قيمة حملها إليه أخوه «جلوي» الذي لم يبلغ من العمر في ذلك الوقت سوى خمسة أو ستة عشر عاماً، وذلك لأنه ولد خلال وجود والده في المنفى بعد هربه من الدرعية. ومكث «جلوي» في مكة ليؤدي فريضة الحج في شهر نيسان من عام ١٨٣٦م وعاد إلى أخيه «فيصل» الذي كان يخيم في معسكره الربيعي في «روضة التنهاة» الواقعة على الطرف الغربي من «الدهناء». وكان «فيصل» مشغولاً بجمع الزكاة وإحلال الأمن والأمان والنظام في الصحراء، ومن المحتمل أيضاً أن يكون قد استقبل أبناء شيخ البحرين «عبد الله بن خليفة» في ذلك المكان نظراً لأنه سبق له أن زار ساحل الخليج ليحظى بمبايعة حكام «القطيف» و«سيهات» له.

وعند عودته إلى الرياض أرسل أحد خدمه إلى «القصيم» بصفة رسمية لجمع الزكاة من قبائل «عنزة»، كما أرسل - بناءً على طلب كبار زعماء «القصيم» - أحد كبار علماء الدين ويدعى «عبد الله بن عبد الرحمن أبي بطين» ليسد حاجة أهالي «القصيم» الدينية والروحانية. وقد مكث «أبو بطين» هناك لفترة قصيرة إلا أن مهمته كانت ناجحة لدرجة أن أهالي «عنيزة» أصروا على أن يحضر عائلته وأن يستقر بينهم بشكل دائم. وبالمناسبة يجدر القول بأن موسم شتاء عام ١٨٣٥م/ ١٨٣٦م كان جافاً ولم يشهد أية أمطار، وطغت على العام الجديد موجة جفاف نجمت عنها زيادة في أسعار المواد الغذائية. وأسفرت تلك التطورات عن نزوح أعداد كبيرة من الأهالي إلى «البصرة» و «الزبير». ويشير المؤرخ «ابن بشر» بشكل فيه الكثير من التدقيق، إلى ظهور مذنب بشكل واضح في مجرى الدب الأكبر، واستمر ظهوره لمدة خمسة أو ستة أسابيع تلت اليوم التاسع من شهر تشرين الأول، كنذير شؤم على الجفاف الذي أصاب البلاد بسبب العقوبة الناجمة عن اغتيال الإمام «تركي». ويقول المؤرخ أيضاً إن جفافاً مماثلاً ضرب البلاد بعد اغتيال الإمام «عبد العزيز».

إلا أن ذلك المذنب وذلك الجفاف كانا نذيرين لمصيبة أعظم، تجلت في أن قرر «محمد علي باشا» أن يُعيد فرض إرادته على الجزيرة[1]، ومن أجل تحقيق تلك الغاية أمَّن مساعدة ودعم «خالد بن سعود» وهو ابن «سعود الكبير» وشقيق «مشاري» الذي فشل في محاولته لاستعادة سلطة العائلة في

(١) الواقع أنه لا علاقة للأحداث الكونية بتصرفات البشر، وما ذكره المؤلف حول هذا جهل منه. (المراجعون).

عام ١٨٢٠ . كان «خالد» الأخ الأكبر للمغفور له «عبدالله» من بين أعضاء أسرة «آل سعود» الذي حملهم «إبراهيم باشا» معه كأسرى إلى مصر، وبهذا يكون قد بقي خارج «نجد» لمدة تزيد على ثمانية عشر عاماً. وكما ذكرنا سابقاً حاول أحد الأشخاص انتحال شخصيته لينافس بها مركز «تركي» كأمير على منطقة الرياض. على أية حال كانت تلك محاولة ذكية من قبل «محمد علي باشا»، إذ فكر أن يقرن حملته لغزو «نجد» بشخصية يمكن أن يعتبرها أهالي «نجد» كوريث شرعي لمكانة وشرف عائلة «آل سعود».

وفي أواخر عام ١٨٣٦م أو في بداية العام التالي، وصل «محمد علي باشا» إلى «ينبع» بصحبة «إسماعيل آغا» الذي كان قائداً للقوات التركية التي تقدر بألفي رجل. وعندما وصلت أخبار هذه التطورات إلى فيصل أرسل أحد رجاله إلى «إسماعيل باشا» وحمله الهدايا وطلب من ذلك الرجل أن ينقل إليه أخبار ونوايا «إسماعيل باشا».

إن أخبار تقدم «إسماعيل باشا» إلى «الحناكية» عن طريق «المدينة»، إضافة إلى النصيحة التي تلقاها من «عبد الله بن رشيد» وزعماء آخرين كانوا في ذلك الوقت في الرياض، جعلت فيصلاً يقرر أن يسبق تقدم القوات التركية ويسارع باحتلال «القصيم» خوفاً من أن يجد الأهالي أنفسهم مضطرين للاستسلام حيال وصول قوات «إسماعيل باشا». وبعد أن حشد كل قواته لملاقاة «إسماعيل باشا» في مكان حدده في الشمال، غادر «فيصل» الرياض متوجهاً إلى «الصريف» عن طريق «الخفيسية»، وهناك وصلته أخبار مفادها أن قوات «إسماعيل باشا» ومعها «خالد»[١] قد وصلت إلى «الرس». عندها

(١) أي خالد بن سعود بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود الذي رحل مع كثير من آل سعود إلى مصر بعد هدم الدرعية عام ١٨١٨م، ١٢٣٣هـ. (المراجعون).

تحرك باتجاه «عنيزة» حيث انضمت إليه قوات «عنيزة» وقوات «بريدة» كل بقيادة أميره، وسار نحو «رياض الخبرا» التي لا تبعد كثيراً عن «الرس». وبعد مناوشات متقطعة غير هادفة، وبعد رفض أهالي «الشنانة» السماح لقوة أرسلها الإمام «فيصل» بالدخول إلى منطقتها (لأن أميرها كان قد ذهب -بالفعل- إلى إسماعيل باشا لعقد صلح معه)، اختلفت الآراء وأسفرت عن قراره بالتراجع إلى «عنيزة». ومنها عاد «فيصل» مع قواته إلى الرياض، وعلى ما يبدو تخلى عن أية فكرة لمقاومة احتلال العدو لمنطقة «القصيم».

وحتى في الرياض فقد كان مقدراً لـ «فيصل» أن يفتح عينيه على الحقيقة، وأن يتحرر من الوهم، إذ وجد الأهالي هناك في مزاج عكر وغير مستعدين للوقوف إلى جانبه، وذلك إما بسبب فشله في التصدي للأتراك في «القصيم»، أو بسبب نجاح أصدقاء «خالد» وأعوانه في حشد الرأي العام الجماهيري ضده، ويبدو أن هذا السبب هو الأكثر احتمالاً. ولذلك قرر البقاء في عاصمته لفترة كافية لجمع كل ما هو موجود من السلاح والمؤن والمال في القلعة، وبعدها توجه بما تبقى من قواته نحو «الخرج» ومكث فيها عشرة أيام ثم تابع المسير إلى «الأحساء» ووصلها مع بداية شهر أيار من عام ١٨٣٧م. وقد قدم له «عمر بن عفيصان» الدعم والولاء الكاملين، وبقي هناك حتى منتصف شهر تموز. وعمل خلال تلك الفترة على تنظيم جنود في صفوف قواته كان معظمهم من قبائل «مطير»، و«العجمان»، و«سبيع والسهول»، ومن أبناء مدن وقرى «الأحساء» الذين لم تكن لديهم الرغبة في لقاء الأتراك في منطقتهم.

تقدم في تلك الأثناء «إسماعيل آغا» بقواته باتجاه «عنيزة»، إذ لقي هناك مقاومة بسيطة استسلم الأهالي على إثرها، وتبع سقوط «عنيزة» استسلام

«بريدة» دون مقاومة، ومن ثم استسلمت باقي مناطق الإقليم. وحول «إسماعيل آغا» بعد هذا الانتصار وجهته إلى «حائل» فهرب منها «عبد الله ابن رشيد» تاركاً الساحة مهيأة لتنصيب «عيسى بن علي» حاكماً على المنطقة بالأصالة عن«خالد بن سعود». وقام وفد من الرياض بزيارة «خالد» في «عنيزة» ليبايعوه الولاء ويتعهدوا له بولاء كافة مناطق «نجد». وباستثناء «الخرج» و«الفرع» أرسل زعماء هاتين المنطقتين رسالة إلى «خالد بن سعود» عبروا فيها عن رغبتهم في قبوله أميراً شريطة أن يحكم «نجداً» بنفسه ولا يترك الحكم للأتراك. وتلقى «خالد بن سعود» رسالتهم عندما وصل إلى الرياض برفقة «إسماعيل آغا» في بداية شهر أيار.

أصر «إسماعيل آغا» على معاقبة أولئك القادة على صفقاتهم، وفي بداية شهر تموز (يوليو) سار «إسماعيل وخالد» بقوة مشكلة من الأتراك والعرب تقدر بسبعة آلاف رجل، وتوجها بها جنوباً بعد أن صفوا حسابهم مع جماعة «المحمل» وانتهوا من قضايا أخرى. وأثناء المسير انضم إلى قواتهما حاكم منطقة «الخرج» المدعو «فهد بن عفيصان»، لكن الأهالي في مناطق «الحوطة» و «الحريق» وباقي مناطق وادي «الفرع» قرروا مقاومة الأتراك بكل ما يملكون. وقد شجعهم على موقفهم ذلك ثلاثة من أحفاد الشيخ «محمد بن عبدالوهاب» وواحد من أبناء أحفاده، وكان هؤلاء الثلاثة من قادة المشايخ في الرياض، وكانوا قد هربوا منها إلى «الحوطة» قبل وصول القوات التركية.

أبدى القرويون في وجه القوات الغازية مقاومة رائعة، وأسفرت المعركة الباسلة عن إلحاق هزيمة ساحقة بالعدو وتكبد فيها إصابات بالغة حدثت في أرض المعركة وأثناء المطاردة التي تمت في الصحراء، ناهيك عن خسران

القوات المعادية لمدفعيتها وأمتعتها ومؤنها . وعليه فر «خالد» و «إسماعيل» إلى الرياض ومعهما مجموعة صغيرة من بقايا الفرسان، وفي أثناء الليل فر «فهد بن عفيصان» (الذي كان قد التحق بالمعتدين وهم في الطريق إلى هناك) . وطارد القرويون القوات التركية الفارة وقتلوا أكبر عدد منهم .

وعندما سمع الإمام «فيصل» بأخبار هزيمة العدو أتى بقواته من «الأحساء» إلى «الدلم» وانضمت إليه هناك قوات من «الخرج»، كما التحقت بقواته أعداد كبيرة من «الحوطة» و«الحريق» . وقبل أن يتوجه بتلك القوة نحو الجنوب كان «إسماعيل باشا» قد ترك فرقة من الجنود الأتراك والمغاربة في الرياض، وعندما وصل «فيصل» إلى قرية «المصانع» الواقعة جنوب «منفوحة» التي تكثر فيها واحات النخيل، اعترض «خالد» سبيله بمجموعة قوية من الأتراك ومن أهالي الرياض لكن «فيصلاً» تمكن من إلحاق الهزيمة به بسبب دفعه لقواته الاحتياطية في قلب المعركة . وأغفلت قوات «فيصل» الطريق المؤدية إلى الرياض، فما كان من «خالد» إلا أن اختبأ في «منفوحة» .

والواقع أنه كان بإمكان «خالد» أن يؤمن هروبه إلى العاصمة لو أنه كان – فعلاً– في وسط المعركة في «المصانع»، والدليل على ذلك أنه لم يكن بين الذين استسلموا لقوات «فيصل» إثر الحصار القصير لمنطقة «منفوحة» . والجدير بالذكر أنه بعد ذلك الحصار أعرب أهالي «منفوحة» عن ولائهم للإمام فيصل، الذي قام بمحاصرة الرياض واحتلال كافة الواحات المحيطة بها . وبقي «خالد وإسماعيل» متحصنين داخل المدينة المسورة . وقد بدأ ذلك الحصار في السابع من شهر أيلول عام ١٨٣٧م وشددت قوات فيصل الحصار لدرجة أن الشح بدأ يبدو على ضروريات الحياة هناك . وبسبب الجوع بدأ المحاصرون يذبحون كل

ما توافر لديهم من حيوانات داخل المدينة، إلى أن بدأوا يأكلون خيول المقاتلين، وارتفع سعر القهوة وأصبح سعر الصاع الواحد ثمانية عشر ريالاً. واستمر الحصار حتى الخامس من تشرين الأول حيث قرر «فيصل» وكبار مستشاريه شن هجوم كبير على المدينة، فقامت قوات «فيصل» بنصب سلالم التسلق في عدة نقاط حول أسوار المدينة، وأوشك المهاجمون على وضع قدم لهم في بعض المتاريس، إلا أن المدافعين تمكنوا بمحاولة مستميتة من إحباط الهجوم.

وفي العاشر من شهر تشرين الأول (أكتوبر) قدمت قوة كبيرة من رجال قبائل «سبيع» و «قحطان» لتخفيف حدة الحصار عن المدينة. وفي عشية ذلك اليوم تحت جنح الظلام رفع «فيصل» الحصار عن «منفوحة»، وتراجع بقواته. وبعد مرور خمسة أيام تم خلالها تبادل الرسائل للتوصل إلى تسوية سلمية للقتال، التقى الإمام «فيصل» مع «خالد» في منطقة محايدة بين المدينتين، وتحاوروا لمدة ثلاث ساعات دون التوصل إلى نتيجة، ذلك لأنه لم يكن هناك أي أمل في حل مشكلة وجود الأتراك التي كان «خالد» ملتزماً بها بشكل لا سبيل للخلاص منه. ولم يكن الإمام «فيصل» وكذلك كبار قادته ولا حتى أهالي «نجد» ليقروا بتجديد عودة الاحتلال التركي (العثماني)، ولذلك احتدم القتال من جديد علماً بأن انسحاب «فيصل» كان قد مكن أعوان «خالد» من إدخال الخراف ومواد التموين الأخرى إلى الحامية، وبالرغم من المحاولة التي قام بها «فيصل» للحيلولة دون دخول تلك التموينات.

شارف شهر تشرين ثاني على الانتهاء وبدأ تقريباً شهر رمضان، وحدثت في تلك الفترة بعض المناوشات المتفرقة حيث تمكنت قافلة من الوصول إلى الرياض قادمة من «القصيم» بالرغم من محاولات قوات «فيصل» اعتراض سبيل تقدمها. ولم تكن تلك القافلة محملة فقط برواتب القوات التركية،

بل جلبت لهم أيضاً أخباراً سارة عن وصول «خورشيد باشا» إلى «القصيم» ومعه تعزيزات لدعم «إسماعيل باشا» و «خالد».

وفي الثالث من شهر كانون الثاني عام ١٨٣٨م برزت مشكلة كيفية المسارعة في وصول القوات التركية إلى الرياض والتي كانت قد توقفت في «القصيم» تحسباً من اعتراض قوات «فيصل» لها ومهاجمتها. وعليه تقرر إرسال أحد الأشخاص ويدعى «فهيد الصييفي» ومعه بعض الجمال إلى تلك القوة يرافقه في حراستها ضابط تركي، ولكن عندما وصلا إلى «القصيم» وجدا أن الأتراك ينوون التملق للإمام «فيصل» بدلاً من محاربته، ولتحقيق هذه الغاية قام «خورشيد باشا» يرافقه الشريف «عبد الله» (من ينبع) الذي كان مفوضاً بزيارة الإمام «فيصل»، وحمل إليه الهدايا المقرونة بالعبارات اللطيفة، ووعده بأن تثبت القوات التركية حكمه على مناطق «نجد». وظلت تلك التعزيزات مع «خورشيد باشا» في «القصيم»، لكن الشريف «عبد الله» سارع إلى مقابلة «فيصل»، وفي حقيقة الأمر أغراه في أن يتخلى عن مقاتلة قوات خالد، ويفترض أنه قام بذلك على أمل أن الأتراك سيوفون بما التزموا به عندما تحين الفرصة.

وهكذا جمع الإمام «فيصل» كل محتويات مخازنه وذخيرته من المناطق المجاورة للرياض، وأرسل حلفاءه من رجال القبائل للراحة في بيوتهم، ومن ثم توجه إلى «الخرج». وبعد أن جلس الإمام «فيصل» في «الدلم» يستمتع بضيافة عائلة «العفيصان» وحوله قوة كبيرة من المناطق الجنوبية كفيلة بأن تدافع عن نفسها، فكر في جس نوايا الأتراك فأرسل في الرابع والعشرين من شهر شباط أخاه «جلوي» إلى «خورشيد باشا» الذي كان في ذلك الوقت في «المدينة»، وأرسل معه الهدايا والرسائل الودية.

في تلك الأثناء اتخذ الإمام «فيصل» كل الإجراءات الضرورية ليأمن جانب كل مناطق الجنوب بما فيها «عُمان»، و«الأحساء»، و«وادي الدواسر»، وبدأ نجم سعده يتحسن في مناطق الشمال، إذ نجحت محاولة «ابن رشيد» في استعادة «حائل» من سلطة «عيسى بن علي» الذي كان الأتراك قد نصبوه حاكماً عليها.

كانت البلاد بدءاً من شمال «الخرج» تقف إلى جانب «خالد» وكانت الوفود من مناطق «المحمل» و «ضرما» قد قدمت لتعرب عن دعمها له. لذلك قام «خالد» بإرسال رجاله لجمع الزكاة من مناطق البلاد التي كانت لا تزال تعاني ضراوة الجفاف والمجاعة التي سبق أن أشرنا إليها.

وبعد فترة من الزمن وصلت التعزيزات التركية من «القصيم» تحت قيادة «الملا سليمان» الذي كان قد عاد في تلك الفترة من مصر والذي كان مرشحاً ليحل محل «إسماعيل آغا» فأرسل «أحمد السديري» إلى إقليم «سدير» ومعه فرقة من الخيالة الأتراك ليتسلم منصب حاكم إقليم «سدير»، وزوده بأوامر لجمع ليس فقط الزكاة المستحقة للحكومة التركية، بل أيضاً التعويضات الناجمة عن الدور الذي قام به القادة الإقليميون خلال الحصار الأخير لمدينة الرياض. وعلى أي حال كان بمقدور «أحمد» أن يلطف من حدة الريح التركية لتتناسب مع بلد أنهكته المجاعة[1].

ومع أواخر شهر أيار وصل «خورشيد باشا» يرافقه «جلوي» إلى «عنيزة» واستقبلهما الأهالي والقبائل هناك بالترحاب والحفاوة والتكريم وأعربوا عن ولائهم لهما. ومكث «خورشيد باشا» في «عنيزة» خمسة أشهر عمل

(١) كان الأمير أحمد السديري في غاية النبل والتدبير ولم ينجرف مع التيار حيث يذكر ابن بشر في أحداث عام ١٢٥٤هـ أن إمارته من أسباب الرفع عنهم وعن رجالهم وأموالهم وذلك من حسن سيرته ولم يزل يدافع عنهم ويرى أحوالهم وأنهم في غاية الضعف من شدة الغلاء والقحط ويحض العسكر على الرفق بهم. ابن بشر، عنوان المجد. ج ٢ ، ص١٦٢ (المراجعون).

خلالها على ترتيب أمور ذلك الإقليم، كما كان خلال تلك الفترة يستقبل زواره، وكان أبرز من قدم لزيارته «عبد الله بن رشيد» الذي أكد له «خورشيد» على حكمه لـ «حائل» وحمله بالعديد من الهدايا قبل رحيله. ومن الشخصيات المهمة الأخرى التي قدمت لزيارة «خورشيد باشا» أيضاً زعيم قبيلة مطير «محمد الدويش».

بدأت الآن تتكشف خطة «خورشيد باشا» لاحتلال الجزيرة العربية بشكل دائم، واقترنت تلك اللحظة بصدام حتمي واقع لا محالة مع قوات الإمام «فيصل». وكان «جلوي» -في حقيقة الأمر- سجيناً لدى مضيفه، فوجد نفسه مضطراً للجوء إلى الحيلة ليخلص نفسه من الأسر، فطلب إذناً لزيارة «بريدة» ومُنح ذلك الإذن، ومن هناك هرب والتحق بقوات أخيه في «الخرج». وكان «خورشيد باشا» في تلك الفترة مشغولاً بتجهيز قلعته في «الصفا» بمنطقة «عنيزة»، وعند حوالي منتصف شهر تشرين الأول (أكتوبر) من عام ١٨٣٨م وقبل أن يغادر بقواته جنوباً متوجهاً إلى «الوشم» قرر ترك حامية عسكرية فيها تحسباً لوقوع المشكلات، وفي تلك الفترة انضمت إليه قوات «خالد» وقوات «العارض» لمهاجمة «الخرج». وقد وصلت القوات المتحالفة هذه إلى «نعجان» في آخر يوم من شهر تشرين الأول ووجدت أن كافة الأهالي هناك كانوا قد انضموا إلى قوات «فيصل» في «الدلم»، ودارت معركة عرفت باسم «معركة الخراب» وهي عبارة عن بقايا أطلال مستوطنة قديمة أنشأ فيها «خورشيد باشا» مقراً لقواته. وقامت قوات «فيصل» بهجمات ضد قوات «خورشيد باشا» إلا أنها لم تتمكن من التغلب عليها، وبعد أن حصن «فيصل» أسوار المدينة وحفر خندقاً حولها وأقام تحصيناً حول

جميع مصادر المياه وراء الأسوار، حشد قواته للتصدي لهجوم العدو، واحتدمت المعركة بشراسة في عدة محاور وبالتحديد حول قلعة «هينة» التي كانت مسرحاً لكر وفر كلا الجانبين، واستمرت المعركة إلى أن تمكن الأتراك أخيراً من الاستيلاء عليها وبالتالي السيطرة على مصادر المياه.

عند هذه المرحلة من تطور الأحداث، وصل «عمر بن عفيصان» إلى بلدة «السلمية» على رأس قوة كبيرة من «الأحساء» وأرسل رسالة إلى «فيصل» يقترح فيها أن تقوم الحامية بهجوم قوي على القوات التركية (العثمانية)، وأن تقوم قواته بمهاجمتها من المؤخرة. وفعلاً حدثت تلك المعركة في الخامس والعشرين من شهر تشرين الثاني واستمرت من الفجر حتى منتصف النهار. وبعد النكسة التي منيت بها القوات التركية (العثمانية) في بداية الأمر، حشد الأتراك (العثمانيون) قواتهم من جديد وأجبروا قوات «ابن عفيصان» على فك الاشتباك والتراجع.

وفي الثاني من شهر كانون الأول المصادف للرابع عشر من شهر رمضان، احتلت قوات خورشيد «زميقة» واستولت على مستودعات المؤن، وبعد حوالي عشرة أيام أرسلت مجموعة الهاربين من «الحوطة» مندوباً إلى «خورشيد باشا» يطلبون منه السلام والعفو لهم ولكافة جماعاتهم التي تحارب بين صفوف قوات «فيصل» في «الدلم»، وعلى الفور وافق «خورشيد» على طلبهم. فما كان من فيصل إلا أن أرسل رسولاً إلى «خورشيد» يطلب منه عفواً عاماً عن تلك الحامية، وعاد المرسول وأخبر فيصلاً بأن «خورشيد» مستعد للموافقة على ذلك الطلب شريطة أن يسلم «فيصل» نفسه للقوات التركية ويذهب معها إلى مصر لينضم إلى باقي أفراد عائلة «آل سعود» المقيمة هناك.

وبناءً على ذلك القرار لم تكن هناك حاجة للجوء إلى السلاح، وعليه سلم «فيصل» نفسه للقوات التركية بعد أن ضمن أن حياة وممتلكات أولئك الذين حاربوا معه بإخلاص كانت آمنة. وفي حوالي العشرين من شهر كانون أول من عام ١٨٣٨م بدأت رحلة «فيصل» إلى مصر بحراسة قوة تركية تحت إمرة «حسين اليازجي»، وسار معه إلى الأسر أخوه «جلوي» وكذلك ولداه «عبد الله ومحمد» (كان ابنه سعود صغيراً جداً لم يُرحَّل). وذهب في رحلة الأسر تلك أيضاً عمه «عبدالله بن إبراهيم بن عبد الله بن محمد» المعروف بلقبه «صنيتان»، وعند وصوله إلى القاهرة قدم له سكن. وأمضى «فيصل» هناك معظم أوقات الليل والنهار في العبادة، ويقال بأن المرضى من الناس كانوا يأتون إليه للشفاء عن طريق قراءته عليهم آيات من القرآن (الرُّقية).

أما بالنسبة لـ «عمر بن عفيصان» فإن حماسه وتأييده الشديدين لقضية «فيصل» جعلاه لا يثق بعرض العفو العام الذي تلقاه من «خورشيد باشا»، ولجأ لفترة من الزمن إلى البحرين قبل أن يستقر به المطاف أخيراً في «الكويت». وعلى أي حال كان قبل هروبه قد نصح جماعته بالتوجه إلى الرياض لأداء يمين الولاء لإمامهم الجديد الذي أصبح الآن المرشح دون منازع ليكون سيد كافة مناطق «نجد» وبدعم من الخديوي في مصر ومن ممثليه المحليين. لقد بلغت فترة حكم «فيصل» أربع سنوات ونصف، وتمتع قبل ذلك بعشر سنوات من الحرية قبل أن يدخل في مرحلة الأسر الثانية.

نُقل «أحمد السديري» من إقليم «سدير» إلى إقليم «الأحساء» الحيوي الذي لم ينس أهله الجرائم البشعة التي ارتكبتها قوات «إبراهيم باشا»، وكان

الغرض من ذلك التعيين إظهار الاحتلال الجديد بمظهر أقل خشونة وبصبغة ألطف؛ إلا أن ذلك التغيير في المزاج لم يدم إلا فترة قصيرة، وما إن هدأ «أحمد» من مخاوف الأهالي ورتب لإدارة الإقليم (بما فيه منطقة القطيف)، حتى نقله الأتراك (العثمانيون) ليتسلم مهام إدارة عائدات الدولة، وعينوا في مكانه شخصاً مغربياً يدعى «محمد أفندي»[1] الذي أصبح تعسفه وتشدده على كل لسان. استمر «محمد أفندي» في تلك الإدارة إلى أن قام رجل مجهول بقتله أثناء عودته من منابع «عين نجم» الساخنة التي كان الناس يقصدونها للعلاج.

أرسل «خورشيد باشا» شخصاً آخر (يدعى محمد أفندي) ليخلف «محمد أفندي» في منصبه. واستمر هذا الحاكم الجديد على نهج السياسة التعسفية التي نهجها سلفه، ولم ترق هذه الإجراءات لـ «أحمد السديري» لذلك منحه الأتراك إجازة من العمل ونصبوا مكانه «عيسى بن علي بن فايز» كتعويض عن حكمه الذي خسره في منطقة «حائل». وفي شهر تشرين الأول (أكتوبر) من عام ١٨٣٩م قام شخص بقتل «محمد أفندي» هذا، وفي الشهر التالي خلف «عيسى بن علي بن فايز» «أحمد السديري» في منصبه.

كان «خورشيد باشا» مشغولاً في إقليم «الخرج» بتدمير تحصينات «الدلم» وتعزيز حامية «السلمية» بالقوات التي أوكلت إليها مهمة الإشراف على محاصيل مشروعات شبكة الري التي كانت تعتمد على ينابيع مناطق «السيح». وفرض على أهالي «الحوطة» وأهالي وادي «الفرع» أن يقدموا

(١) أشار ابن بشر إلى أن اسم هذا الرجل الذي عين مكان أحمد السديري هو «محمد الفاخري» وهو من المغاربة، وقد اجتهد المؤلف وغير اسمه إلى محمد أفندي. وذلك لتكرر اسم محمد أفندي مرة أخرى وهذا الأخير تركي وليس من المغاربة. (المراجعون).

للقوات التركية (العثمانية) الحبوب والتمور، وفي طريق عودته من الخرج إلى الرياض أرسل بتعليماته إلى «حسن المعاون» المسؤول عن حامية «ثرمدا» وطلب منه أن ينظم حملة على نطاق واسع لتقدير المحاصيل والعائدات التي يمكن جبايتها من كافة مناطق «نجد» بدءاً من «القصيم» وحتى «الأحساء». وفي شهر أيار (مايو) من عام ١٨٣٩م نقل «خورشيد باشا» مقر قيادته من الرياض إلى «ثرمدا» وهناك بنى قلعة كبيرة تستوعب كل قوات حاميته، ومنها فرض على كافة القرى والمناطق بأن تقدم نصف محاصيلها للقوات التركية بغض النظر عن حقيقة أن حالات القحط التي شهدها العام المنصرم كانت لا تزال تخيم بثقلها عليهم.

يقال إنه إما في شهر آذار (مارس) أو في شهر نيسان (أبريل) من عام ١٨٣٩م تلقى «خورشيد باشا» أخبار وفاة السلطان «محمود بن السلطان عبد الحميد»، كما وصله خبر مفاده أن ابن السلطان «محمود» المدعو «عبد المجيد» خلف أباه في السلطة. وبعد حوالي عام من ذلك التاريخ بعد أن كان قد استقر في منطقة «ثرمدا» تلقى أوامر من مصر تستوجب عودته المباشرة إلى هناك ومعه أكبر عدد من قواته. وحيال هذه الأوامر كان همه الأكبر جمع الجمال لنقل قواته ومعداته إلى «المدينة»، وعليه تفاوتت ردود فعل القبائل لمطالبه هذه، إلا أن «عبد الله بن رشيد» أرسل له حوالي سبع مئة دابة من مناطق «شمر» لتلبي احتياجاته الملحة لنقل القسم الأكبر من قواته، ولم يفعل «عبد الله بن رشيد» ذلك إلا ليسارع في رحيل القوات التركية (العثمانية) عن الجزيرة العربية. وبينما كان في انتظار وصول هذه الدواب، قام «خورشيد باشا» بمساعدة «خالد» الذي كان قد انضم إليه في «ثرمدا»

بتنظيم حملة ضد «آل شامر» في صحراء «البياض» الواقعة إلى الجنوب من «الخرج»، لكن لم تكتب لتلك الحملة النجاح إلا أنه من أبرز سماتها أن «خالداً» الذي قاد تلك الحملة التأديبية صحب برفقته «عبد الله بن ثنيان»، وبذلك قدم له أول فرصة للظهور في سجل أحداث صحراء «نجد». والجدير بالذكر أن «عبد الله بن ثنيان» هو من أبناء عمومة «خالد»، كان جده الأول «ثنيان» الأخ الشقيق لجد «خالد» الأول والمدعو «محمداً»، وهذا الأخير هو أول إمام في الأسرة السعودية.

وفي شهر نيسان من عام ١٨٤٠م أحدث «خورشيد باشا» تغييراً في منصب حاكم الأحساء، إذ عين في ذلك المنصب «حمد بن مبارك» (من منطقة «حريملاء»). ويفترض أن يكون ذلك التعيين خلفاً للراحل «محمد أفندي»، إلا أنه بعد مضي عام قام «خالد» باستدعاء «حمد» ونصب مكانه «موسى الحملي» أحد كبار زعماء قبيلة «بني خالد»، كما عين زعيماً آخراً من تلك القبيلة هو عبد الرحمن بن مانع في منصب رئيس دائرة الجبايات بدلاً من «عيسى بن علي» الذي وافته المنية في ذلك الوقت. وقد حدث ذلك التغيير بالطبع بعد رحيل «خورشيد باشا» بعد أن جمع كل قواته من «شقراء» و«الزلفي»، وكان ذلك في شهر أيار من ذلك العام. وبعد فترة وصل «خورشيد باشا» إلى «الشنانة» وهناك أعد آخر الترتيبات المتعلقة برحيله، وفي منتصف شهر تموز انضمت قوات حامية «ثرمدا» إلى قواته. وهكذا أصبحت مناطق «نجد» خالية من القوات التركية باستثناء بعض الجيوب الصغيرة التي تركها في «ضرما» و «الرياض» وبعض المناطق الأخرى، والتي لم يتجاوز عدد أفراد كل واحدة منها العشرين رجلاً.

وعند حوالي نهاية شهر تموز تم استدعاء «خالد» إلى «الشنانة» ليقابل «خورشيد باشا» للمرة الأخيرة، وفي طريق عودته إلى الرياض توقف في «عنيزة» و «بريدة» ومن هناك سار خلفه أميرا هاتين المنطقتين. وفي «شقراء» تقابل مع «عبد الله بن رشيد» الذي كان في طريقه لزيارة «خورشيد باشا». وفي شهر تشرين الأول المصادف لشهر رمضان أرسل لاستدعاء كل قواته وطلب تجمعها في الرياض دون أي هدف محدد، سوى أنه أراد أن يتيقن من مكانته في مختلف الأقاليم التي لم يعد بإمكانه أن يعتمد فيها على الدعم التركي ضد حكام تلك المناطق الذين فتر حماسهم ودعمهم للأتراك، وبناءً عليه تقدمت عشائر «سدير» بكامل قواتها يتقدمها «محمد السديري» حاكم الإقليم ومعه والده «أحمد» الذي كان «خورشيد باشا» قد أقاله من منصبه في «الأحساء».

استغل «خالد» هذ التجمع ليحقق في الشكاوى الخاصة بأعمال الابتزاز وسوء المعاملة التي يتلقاها أبناء إقليم «سدير» ومختلف الحكام المحليين. وأسفر ذلك التحقيق عن طرد كل المعنيين بتلك التصرفات من مناصبهم، كما تم تعيين حاكم جديد على الإقليم يدعى «عبد الله الحصيّن» ولتحقيق أغراض الحملة المعدة للنيل من جماعات قبيلة «قحطان»، كلف «عبد العزيز» (ابن الشيخ عبد الله أبو بطين) بقيادة قوات سدير، بينما كلف «عمر ابن عفيصان» بتولي القيادة العامة لكافة الوحدات.

والجدير بالذكر هنا أن «عمر بن عفيصان» بعد أن ذهب طوعاً للمنفى في الكويت، عاد الآن إلى الرياض ليتصالح ويسوي الأمور مع «خالد». وقد كان أهالي «نجد» يشكون في سلوك «خالد» بسبب خضوعه وتبعيته المكشوفة

للأتراك، إلا أن رحيل «خورشيد باشا» ورحيل معظم قوات الاحتلال التركي، أسهما في إزالة هذه الوصمة عن «خالد» ولم يكن هناك ما ينبئ بأن حكم «خالد» لم يكن سوى حكم دائم.

سرعان ما تعرض موقف «خالد» للتحدي من قبل أحد المدعين، ففي إقليمي «القصيم» و «جبل شمر» دارت حرب بين حاكم «حائل» وحاكم «بريدة» وكان لها أبعادها، لكن الحكومة المركزية لم تبد أي محاولة للتدخل بين الفريقين، وحتى نتناول هذا الحدث بالتفصيل علينا أولاً أن نشير إلى أن أمير حائل «عبد الله بن رشيد» وأمير بريدة «عبد العزيز بن محمد» كانا على عداء منذ بضع سنوات. وعلى أي حال نقل بعض المسؤولين أخبار الاقتتال بين هذين الأميرين إلى «خالد» إثر عودته من «الشنانة»، وعند عودة هؤلاء المسؤولين كل إلى منطقته وقعت حادثة بسيطة نسبياً كان لها دور في استهلال الأعمال العدائية: فقد قامت مجموعة من «عنزة» بالإغارة على مجموعة من «شمر» تابعة لـ «ابن طوالة» وسرقت أعداداً كبيرة من الجمال، لكن «عبدالله بن رشيد» تصدى لجماعة «عنزة».

والواضح أن جماعة «عنزة» كانت الجماعة المعتدية، إلا أن حاكم «بريدة» بادر في الإعداد لتأديب جماعة «حائل» وأجرى مشاورات مع حاكم «عنزة» ومع زعماء قبائل «القصيم» لتنظيم هجوم مضاد على نطاق واسع ضد «حائل»، وتمت الموافقة على هذه الخطة وقاد كل من حاكم «بريدة» وحاكم «عنيزة» قوة مقاتلة كبيرة تضم مقاتلين من مدن وقرى «القصيم»، إضافة إلى بدو من مناطق عدة من «عنيزة». وتجمعت كل هذه القوات في «بقعاء» وسارت لتغزو منطقة «شمر»، وفعلاً نجحوا في هزيمتهم وأخذوا الكثير من

الغنائم منهم. واقترح حاكم «عنيزة» المدعو «يحيى بن سليمان» على القادة الآخرين أن يكتفوا بما كسبوه من الغنائم، وأن يعودوا إلى ديارهم، إلا أن زعيم «بريدة» أقسم بأن لا يثنيه شيء ويحمله على العودة حتى يقاتل «ابن رشيد» في عقر داره، ولذلك تابعت الحملة مسيرها ووصلت القوات المتحالفة إلى قرى «بقعاء» والآبار المحيطة بها والتي تقع نوعاً ما إلى الشرق من «حائل»، وعلى الفور أرسل «ابن رشيد» أخاه «عبيداً» على رأس قوة من الفرسان لمهاجمة رجال قبائل «عنزة» عند موارد مياه «ساعدة» التي لا تبعد كثيراً عن «بقعاء»، فقام «عبيد» بهجوم مباغت عند الفجر توالت بعده اشتباكات ضارية تأرجحت خلالها كفة الغلبة بين الأطراف المتحاربة. وفي تلك الأثناء تقدم «يحيى» بقوة صغيرة سيراً على الأقدام لنجدة أصدقائه في «بقعاء»، وفي الوقت الذي وصلت فيه قوة «يحيى» إلى هناك للمشاركة في القتال، ظهر «ابن رشيد» على رأس قوة كبيرة كان قد تبع بها أخاه لدعمه عند الضرورة. وكان للهجوم الذي شنه «ابن رشيد» أثر حاسم في ترجيح كفة القتال، إذ تمكنت قواته من إلحاق الهزيمة برجال «عنيزة». وشاهد «عبدالعزيز» كما شاهدت قوات «بريدة» تلك الهزيمة فما كان منهم إلا أن هربوا من «بقعاء» آخذين معهم جمالهم وجمال «يحيى» أيضاً.

صمد «يحيى» ورجاله في القتال، وقاتلوه بضراوة، لكن بسبب عدم تمكنهم من الوصول إلى موارد المياه، سرعان ما شعروا بحدة العطش خاصة أن الشمس بدأت تتوسط كبد السماء. وقد تمكنت قوات «ابن رشيد» من قتل معظم رجال «يحيى»، وتمكنوا أيضاً من أسر «يحيى» نفسه الذي طلب منهم أن يأخذوه إلى خيمة «ابن رشيد». وهناك أوشكت عرى الصداقة

القديمة أن تخدمه إلى حد كبير لولا أن أحد أبناء «عبد الله بن رشيد» وصل في تلك اللحظة وقال إن «عبيداً» لقي مصرعه في القتلى. وكان وقع ذلك الخبر عنيفاً على «عبد الله» فما كان منه إلا أن أمر بذبح «يحيى» بكل برودة أعصاب، وسرعان ما ندم «عبد الله بن رشيد» على تسرعه في قتل «يحيى» لأنه اكتشف أن «عبيداً» لم يقتل بل كان على قيد الحياة.

تذكر المصادر التاريخية أن عدد القتلى من قوات «بريدة» بلغ سبعين رجلاً، في حين بلغ عدد قتلى قوة «عنيزة» ثمانين رجلاً، ناهيك عن ذكر خسائر أهل القرى وخسائر البدو. والجدير بالذكر هنا أن التعداد الإجمالي لتلك القوة بلغ ألف ومائتي رجل، وقد غنمت قوات «ابن رشيد» من تلك المعركة الكثير من الغنائم.

رجع «عبد الله» (أخو يحيى الذي كان في تلك الفترة يقوم بزيارة إلى خالد في الرياض) إلى «عنيزة» ليشغل منصب الحاكم هناك، واتفق مع عدد آخر من قادة «عنيزة» على الطرق والأساليب التي يجب أن ينهجوها للانتقام من الهزيمة التي لحقت بهم مؤخراً. ولم يمض وقت طويل حتى جهزوا قوة تقدر بأربعة آلاف رجل وساروا بها إلى «حائل»، وبلغ بهم المسير حتى «الكهفة»، وهناك تخلى المقاتلون عن الحملة لأسباب غير معروفة وتفرقت القوات. ومن المحتمل أن تكون التطورات الخطيرة التي حدثت في الرياض -والتي كان لا بد من التعامل معها- السبب المباشر الذي أفضى إلى هذه الكارثة المفاجئة. وذلك باعتبار أنه أصبح من الواضح لدى «عبد العزيز» أن الاتحاد الذي أصبح الآن ممكناً بين «الرياض وحائل» كان أقوى من الإمكانات المتاحة لاستثارة أي تصادم.

ربما كان لدى «خالد» أسباب وجيهة تدعوه لإبقاء ابن عمه «عبد الله بن ثنيان» تحت إشرافه المباشر، كما سبق أن رأينا أنه أخذه معه في حملته ضد «شمر». وفي شهر تموز من عام ١٨٤٠م طلب من «عبد الله» أن يرافقه لزيارة «خورشيد باشا» في «الشنانة»، ولم يقبل اعتذاره في عدم الذهاب معه لأسباب صحية، كما أنه لم يقبل أن يتركه خلفه في العاصمة، وعلى أي حال تمكن «عبد الله» من التسلل والهرب من القافلة ولجأ إلى «عيسى بن محمد» زعيم قبيلة «المنتفق» على الحدود العراقية. وبعد أن رجع «خالد» من «الشنانة» أرسل يؤكد له بأن ليس هناك أي شيء يدعوه للخوف، وبذلك استجاب «عبد الله» إلى «خالد».

أرسل «عبد الله» رسولاً إلى الرياض من معسكر قريب منها، ليعلن عن قرب وصوله وليستكشف الطريق، وعاد هذا الرسول إلى «عبد الله» بأخبار غير سارة، وبسببها قرر «عبد الله» الهرب إلى «حاير سبيع» في وادي حنيفة، وهناك قدم عليه زعيم قبيلة سبيع «راشد بن جفران» للمساعدة نظراً لقرابة المصاهرة بينهما. وبعد ذلك عمل «عبد الله» على جلب المساعدة من منطقة «الحوطة» ومنطقة «الحريق» لدعم سياسته الرامية إلى التخلص من السيطرة التركية ومن الاحتلال التركي، وكان للجوئه إلى قبيلة «سبيع» ونفوذ مشايخ تلك القبيلة أثر في النجاح الذي حققه. ولم تسفر محاولة «خالد» في استرضائه من خلال توسط وجهاء قبيلة «سبيع» سوى في توضيح موقفه، إذ أعلن على الملأ عن نيته في القتال، وبناءً على ذلك التصريح استنفر «خالد» قواته وجمع مقاتليه من كافة المناطق. ولم تكن ردود الفعل لندائه مشجعة بشكل كاف، فطلب من أهالي الرياض الانضمام إلى حملة مقترحة لمحاربة «عبد الله بن ثنيان»، وترك «خالد» حامية من الجنود الأتراك والمغاربة،

إضافة إلى عدد من أتباعه في القلعة تحت إمرة «حمد بن عياف» (بصفته أمير المدينة)، وأيضاً تحت إمرة «عمر بن عفيصان» بصفته قائداً عاماً لتلك القوات، وبعدها تمكن من التسلل والهرب إلى «الأحساء». وقد حدث ذلك عند بداية شهر تشرين الأول عام ١٨٤١م، وكان ذلك الحدث نهاية فترة حكم «خالد» التي دامت لأقل من ثلاث سنوات. وبعد هروبه فر مؤيدوه من حوله تدريجياً، وبسبب أخبار التطورات السيئة التي حدثت في الرياض هرب «خالد» مجدداً من «الهفوف» وتوجه إلى «الدمام»، ومن هناك سار نحو الكويت ومن ثم إلى «القصيم» لينتهي به المطاف في «مكة» ليجد ملاذاً آمناً له. وبعد مضي عشرين عاماً داهمته المنية هناك.

بعد أن رفع «عبد الله» من مستوى المجابهة وأصبح متأكداً من دعم قبيلة «سبيع» والمناطق الجنوبية له، تبنى أساليب وخططاً مشابهة للأساليب التي نهجها الإمام «تركي» في محاولته لاستعادة السلطة، فتحرك بقواته في أول الأمر إلى «ضرما» حيث كانت هناك حامية تركية صغيرة رفضت في البداية مناشدته إياها الاستسلام، علماً أن بلدة «المزاحمية» المجاورة للحامية رحبت به واعترفت بقيادته. وبعد قتال وحصار داما لفترة قصيرة وافقت الحامية التركية على الرحيل بسلام للانضمام إلى أبناء جلدتهم في منطقة «ثرمدا»، وبعدها احتل «عبد الله» البلدة. واتخذ أهالي «حريملاء» سياسة الحياد حيال إصراره على الحصول على دعم الأهالي له، إلا أن أهالي «العمارية» و «أبا الكباش» أرسلوا إليه متطوعين وسار «عبد الله» بهم مع قواته إلى «عرقة» وتمكن من الاستيلاء عليها بغارة عنيفة رغم المقاومة التي واجهته من الحامية التي وضعها «حمد بن عياف» هناك، وبعد ذلك الانتصار اعترف أهالي «منفوحة» بقيادته الأمر الذي شجعه على التوجه بقواته إليها.

كان أهالي الرياض منذ فترة طويلة يناشدون «خالداً» أن يقدم لهم العون الفوري، لذلك ألحت جماعة أهالي الرياض (التي كانت ترافق «خالد» خلال وجوده في «الهفوف») على «خالد» إما أن يرسل قوة لنجدة أهل الرياض أو أن يسمح لهم بالعودة إليها والاستسلام للغاصبين. ووافق خالد على إرسال قوة مشكلة من ثلاثمائة جمل وسرعان ما اشتبكت في قتال وهجمات متقطعة دارت حول منطقة «منفوحة»، وساندتها في تلك الاشتباكات الحامية الموجودة في الرياض.

وعند عودة تلك الحامية من منفوحة إلى الرياض تحت جنح الظلام تبعها «ابن ثنيان» سراً ومعه عدد من رجاله. وقد سهلت جماعة من أصدقائه دخوله الرياض عبر حي «دخنة» وجاء ذلك التسلل في الوقت الذي كانت فيه القوات والأهالي تحتفل بالأغاني والأهازيج لنيلهم من الأعداء حول منطقة «منفوحة». وفجأة ظهر «عبد الله بن ثنيان» (الذي كان يتحلى ببعض الصفات العسكرية التي كان يتحلى بها الإمام «تركي») وسط المحتفلين شاهراً سيفه، وأبلى بلاءً حسناً في القتال الذي نشب بينهم، وتراجع المغاربة إلى القلعة وأوصدوا الأبواب في وجه قوات «عبد الله بن ثنيان» ورجاله، وكان «عبد الله بن ثنيان» قد وزع رجاله في عدة مواقع من المدينة، واتخذ من منزل حاكم الرياض «حمد بن عياف» مقراً لقواته، ولذا بدأ كبار رجالات المدينة في القدوم إليه ليعربوا له عن اعترافهم بقيادته لهم، ومن بين الذين قدموا إليه في مقره ذلك ليقسموا له يمين الولاء والطاعة كان «عمر بن عفيصان».

عرض «ابن ثنيان» على القوات المغربية والتركية (العثمانية) الموجودة في

القلعة الاستسلام لقاء شروط مشرفة، فوافقت تلك القوات عليها مقابل أن تجلوا عن مناطق الرياض برمتها. وفي صباح اليوم التالي، وضع «عبد الله» عدداً من رجاله في المنازل المجاورة تحسباً لقيام الأتراك بهجوم، وذلك إثر سماع بعض العيارات النارية من جهة الحامية التركية، إلا أنهم قرروا قبول شروطه وخرجت القوات التركية رتلاً واحداً من المدينة.

وهكذا أصبح «عبد الله بن ثنيان» حاكم «نجد» دون منازع، وقدمت الوفود المعتادة إلى الرياض لتؤكد له ولاءها، وأوضح لهم بأنه ليس على استعداد لتحمل أو قبول أي تمرد في مناطقهم.

أمر «ابن ثنيان» أهالي «المجمعة» بإعادة بناء قلعتهم التي كانت قد دمرت بموجب أوامر «خالد»، وأمر باعتقال أربعة من قادتهم والاحتفاظ بهم كرهائن لحين تنفيذ أوامره. وعين «ابن ثنيان» على الإقليم حاكماً جديداً يدعى «عبد العزيز بن مشاري بن عياف».

حان الآن دور أهالي وادي الدواسر ليدفعوا ثمن خطاياهم، فأصدر «ابن ثنيان» أمراً بإقالة حاكم وادي الدواسر المدعو «محمد بن جلاجل»، كما أقال عدداً من كبار الشخصيات من مناصبهم، وعين «عبد الرحمن بن عبيكان» حاكماً على ذلك الإقليم.

وفي بداية عام ١٨٤٢م أرسل «ابن ثنيان» (عبد الله بن بتال المطيري) وهو من عائلة محاربة مشهورة لاحتلال إقليم «الأحساء»، وبعد أن حقق نصراً في مهمته أرسل «ابن ثنيان» (عمر بن عفيصان) إلى هناك ليتسلم مهام منصب الحاكم فيها وبعد أن مارس مهام مركزه في مقر قيادته القديم في قصر «الكوت» بالهفوف أمر «عمر بن عفيصان» كافة وجهاء الإقليم بالذهاب إلى

الرياض ليقدموا الإجلال والاحترام لسيدهم الجديد. وهناك أمر بتوقيف أربعة منهم كرهائن لضمان حسن تصرف البقية، ولحسن تصرف كافة أهالي الإقليم على حد سواء. وكان لا بد من معالجة الأوضاع في المناطق الساحلية التابعة للقطيف، ومما زاد من تعقيد المشكلات هناك وجود مصالح مكتسبة للأسرة الحاكمة في البحرين، وعليه استدعى «ابن ثنيان» في شهر حزيران كافة القوات وتجمعت عند آبار «الرمحية» و «رماح» في منطقة «العرمة»، وهناك عند حوالي منتصف شهر تموز أقام مقر قيادته. ومن ذلك المقر أرسل قوة تحت إمرة أحد العبيد ويدعى «بلال بن سالم الحرق» لاحتلال «القطيف»، كما أمر «عمر بن عفيصان» بالتوجه إلى هناك ليتولى زمام الأمور، وناب عن «ابن عفيصان» خلال غيابه عن «الأحساء» ابن عمه «فهد ابن عبد الله بن عفيصان».

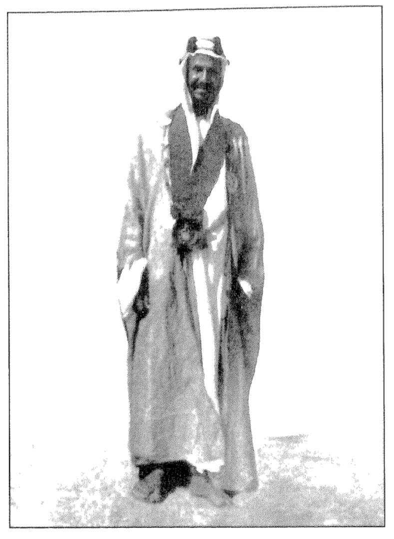
وفي تلك المرحلة من تطور الأحداث التاريخية كانت البحرين تعاني من غليان ضروس احتدمت فيه الاصطدامات بين الحكام ومنهم «محمد بن خليفة» الذي ثار ضد عمه «عبد الله». وطلب «عبد الله» العون من قبيلة «آل مرة» بصفته الحاكم آنذاك، وقد استجابت لطلبه وتحركت لتسلب وتنهب كافة مناطق ومدن الجزيرة. وباعتبار أن «محمداً» لم يتمكن من تحقيق هدفه في الفوز بالحكم على البحرين، فقد هرب والتجأ إلى «ابن ثنيان» في «الرمحية»، وفي تلك الفترة نفسها تمكن حاكم «سيهات» المسجون من الهرب من السجن وفر إلى البحرين.

عين «ابن ثنيان» (أحمد السديري) أميراً على «القطيف» وعلى المناطق التابعة لها، وعاد «عمر بن عفيصان» إلى منصبه الحقيقي في «الهفوف»،

وهكذا انتهى «ابن ثنيان» من ترتيب أمور أقاليم المنطقة الشرقية وعاد إلى الرياض وأمر بإعطاء إجازات لكافة عناصر وحداته المقاتلة وقدم لهم الهدايا، وحاول أيضاً إرضاء السلطات التركية فأرسل أيضاً الهدايا إلى «عمر باشا» حاكم مكة، كما حمل «محمد بن جلاجل» الهدايا وطلب منه أن يوصلها إلى «محمد بن عون». وتجدر الإشارة هنا إلى أنه استكمل احتلال كافة مناطق «الأحساء» بأن أرسل قوة للاستيلاء على ميناء «العقير» الذي كان لا يزال تحت سيطرة السلطات البحرينية.

وخلال الأسبوعين الأولين من شهر تشرين الثاني (المصادفين للجزء الأخير من شهر رمضان) هطلت أمطار غزيرة على كافة مناطق «نجد» وأنهت الجفاف الذي دام تسع سنوات، أي منذ اغتيال الإمام «تركي». وقد دفعت تلك الأمطار أمامها مياهاً غزيرة سالت في كافة الأودية الرئيسة وبالتحديد في أودية منطقة «سدير» التي لم تعرف السيول منذ أربعة عشر عاماً. وألحقت تلك السيول الكثير من الضرر في واحات النخيل وفي المحاصيل التي كانت على وشك الحصاد تلك الفترة، إلا أن كافة مناطق البلاد نعمت في وقت لاحق بالمراعي الخيرة الوفيرة، وبالمحاصيل التي انتعشت إثر توقف الأمطار. وكان من الطبيعي -في ضوء الأحداث التي تبعت مباشرة الأمطار الموسمية لذلك الشتاء- أن ينظر الناس إليها على أنها نذير خير على الصعيد السياسي.

ففي شهر شباط من عام ١٨٤٣م تمكن «فيصل» ومعه ابنه «عبد الله» وابن عمه «عبد الله البراهيم» وأخاه «جلوي» من الهرب من القلعة في القاهرة



صاحب الجلالة الملك عبدالعزيز آل سعود



صاحب الجلالة الملك سعود آل سعود



صاحب الجلالة الإمام عبدالله آل سعود



صاحب االسمو الملكي الأمير فيصل بن عبدالعزيز
ولي عهد المملكة العربية السعودية

التي كانت الحراسة مشددة عليها. وتمكنوا من الهرب بعد أن تدلوا على حبال من أعلى الصخور التي بلغ ارتفاعها ما يزيد على مئة قدم، وكانت بعض الجمال في انتظارهم لتحملهم خارج مصر، وكل ما نقل إلينا عن طريق مؤرخي تاريخ «نجد» عن تلك الفترة الدرامية أنهم واصلوا المسير حتى جبل «شمر»، وهناك كان «عبد الله بن رشيد» الصديق القديم للإمام «فيصل» ومرافقه الحميم في استقبالهم.

ووضع «عبد الله بن رشيد» كل إمكاناته وكل قواته تحت تصرف الإمام «فيصل» وجماعته دون أي تحفظ، وأرسلت الرسل إلى كافة أرجاء المناطق وإلى كافة قادة القبائل لتقديم ولائهم ودعمهم للإمام «فيصل». وقد أعرب كافة أصدقاء «عبد الله بن ثنيان» عن ضرورة إعلان الجهاد، كما نصحوه بحشد كل القوات لمجابهة الخطر القادم على أمل أن يردع تولي الإمام «فيصل» لمقعد القيادة الناس عن إلقاء أنفسهم في أحضان منافسيه. وبعد فترة وجيزة تبين أن الإمام «فيصلاً» كان قادراً على حشد العديد من الناس لمناصرة قضيته، فأرسل «ابن ثنيان» أمير «ضرماء» إلى الإمام «فيصل» وأرسل معه الهدايا. وفي نفس الوقت تحرك بقواته عن طريق «الخفس» باتجاه «سدير» وأجرى اتصالاً من هناك مع أمير «بريدة» الذي توقع أن يكون من أكثر المتحمسين لمناصرته نظراً للعداء الشديد القائم بينه وبين «ابن رشيد»، وفي طريق عودته إلى «بريدة» تلقى تأكيدات من أمير «بريدة» أكد له فيها ولاءه ودعمه له. وقد أحدث هذا التطور بعض الإرباك في منطقة «عنيزة» حيث جمع حاكمها «عبد الله بن سليمان بن زامل» وجهاء المنطقة لينظر معهم في أمر الإجراء المناسب الذي يجب اتخاذه. وكان قرارهم

بالإجماع تقديم الدعم للإمام «فيصل»، وأرسلوا «عبدالعزيز» (ابن الشيخ عبد الله أبو بطين) ليبلغه بذلك وليوجه إليه الدعوة بالقدوم إلى «عنيزة». وكان فيصل في تلك الأثناء قد توجه جنوباً وتمكن «عبدالعزيز» من مقابلته في منطقة «الكهفة» ومن هناك توجها إلى «عنيزة».

سار «جلوي» (أخو الإمام «فيصل») و«عبيد بن رشيد» بقوة شكلاها من قوة الإمام «فيصل» وتوجها لزيارة زعيم قبيلة «مطير» المدعو «محمد بن فيصل الدويش» في معسكره بسهل «الحمادة» وعندما سمع «ابن ثنيان» بخطط الأعداء غادر «بريدة» وانطلق مسرعاً لينصب كميناً للإمام «فيصل» على الطريق المؤدي إلى «عنيزة»، لكن الإمام «فيصلاً» كان قد سلك طريقاً آخر، وكانت الأهازيج والأغاني التي استقبل بها الإمام «فيصل» في «عنيزة» أول الأخبار التي وصلت إلى «ابن ثنيان» بخصوص وصول «فيصل» إلى هناك. وعاد «ابن ثنيان» إلى «بريدة» بسبب خيبة أمله في فقدان تلك الفرصة ووجد هناك أن أعداداً كبيرة من أتباعه وخاصته في منطقة «سدير» والمناطق الأخرى، قد انشقت عنه والتحقت بالإمام فيصل، وعليه أمر قواته بالاستعداد للتحرك باتجاه «عنيزة»، لكنه لسبب ما وجه سير القوات باتجاه «المذنب» ومن هناك تابع المسير بصعوبة تحسباً من أي هجوم يمكن أن يشنه عليه «جلوي» ورجال قبائل «مطير». وأدركت قوات جلوي ومطير مؤخرة قوات «ابن ثنيان» الشاردة في منطقة «الوشم»، وفي الطريق فر العديد من رجال قوات «ابن ثنيان» وعادوا إلى ديارهم، واستمرت قوات «جلوي» وحلفائه من رجال قبيلة «مطير» بالتقدم شرقاً للاستيلاء على واحات «ثادق»

الرئيسة المهمة والممتدة على طول الطريق من الرياض حتى «سدير». ولأن «عبد الله بن إبراهيم»[1] كان في مهمة لاحتلال «سدير» باسم «فيصل»، فقد وصلت إلى «فيصل» رسائل مفادها أن الطريق أصبح سالكاً وممهداً لتقدم قواته نحو الرياض.

كان «ابن ثنيان» في تلك الفترة مشغولاً في إعداد ترتيبات للدفاع عن الرياض، وشرع في توزيع الحاميات والمقاتلين على مختلف الأبراج والقلاع الواقعة على السور الدائري. وتحرك «فيصل» في شهر نيسان من «عنيزة» إلى «شقراء» ومن هناك توجه إلى «حريملاء» حيث انضمت إليه قوات «جلوي» وقدم عليه زعماء منطقة «سدير» ليقدموا له يمين الولاء. ومكث الإمام «فيصل» هناك فترة من الزمن أرسل خلالها رسالة إلى «عبد الله بن ثنيان» اقترح عليه فيها تسوية سلمية للنزاع الدائر بينهما لتجنب سفك الدماء، وعرض عليه أيضاً شروطاً سخية لتحقيق تلك التسوية، وعرض عليه أنه سيحظى بحصانة تامة وأن بإمكانه أن يتوجه برجاله وممتلكاته وأسلحته إلى أي مكان يختاره في «نجد» أو في أية منطقة أخرى دون أي تحرش أو اعتداء يمكن أن يقع عليه. إضافة إلى ذلك وعده بأن يحصل على هبة مالية سنوية تكفي لتغطية كافة احتياجاته. وقد رفض «ابن ثنيان» هذ العرض وأصبحت الحرب بين الطرفين أمراً محتوماً، وعليه تحرك «فيصل» بقواته نحو «سدوس» ومن هناك بعث رسالة إلى أمير «منفوحة» أصر عليه فيها على ضرورة أن يقدم دعمه لقوات الإمام «فيصل»، واقترح في تلك

(١) ابن عم الإمام فيصل بن تركي. (المراجعون).

الرسالة أن تكون «منفوحة» قاعدة العمليات العسكرية كما كانت أثناء الحصار الذي فرضه «فيصل» على «خالد» قبل خمس سنوات.

وبعد بضعة أيام من وصوله إلى هناك، امتنع الإمام «فيصل» عن القيام بأي أعمال عدائية ضد الرياض، وأجرى خلال تلك الأيام اتصالات سرية مع كبار قادة الأهالي في الرياض، وفي الثاني والعشرين من شهر أيار أرسل «جلوي» على رأس قوة صغيرة من المقاتلين البواسل وأمره بالدخول إلى المدينة عن طريق بوابة «دخنة» التي كان من المقرر أن يفتحها لهم بعض المتحالفين مع الإمام «فيصل». لكن حدث في تلك الأثناء أن كان «ابن ثنيان» يقوم بجولة تفقدية في المدينة، وفي تلك الأثناء تلقى أخبار دخول قوات «جلوي» إليها. وعندها عاد مسرعاً إلى القلعة لكن قوات «جلوي» كانت قد تمكنت من احتلال العديد من المنازل المجاورة وتمركزت فيها، وكان بإمكان مدفعية «ابن ثنيان» في القلعة أن تنال من تلك المنازل، لكن الإمام «فيصلاً» دخل بنفسه على رأس قوة من رجاله إلى المدينة، ودارت الاشتباكات بين الطرفين لمدة ثلاثة أسابيع على الشكل المتقطع المعتاد. وعلمت قوات «فيصل» في تلك الأثناء أن هناك خطة للنيل من حياة الإمام «فيصل» فتمكنت من إحباطها وإفشالها.

وفي الحادي عشر من شهر تموز أرسل «عبد الله بن ننيان» رسالة إلى «عبيد ابن رشيد» يقترح فيها أن يقوم بالتوسط للتوصل إلى تسوية سلمية، لكن عندما قدم «عبيد» إلى «عبد الله بن ثنيان» لمناقشة تلك المسألة معه اتضح أن ليس هناك أساس للتوصل لأي اتفاق، الأمر الذي أسفر عن توقف المفاوضات.

وبعد مضي يوم أو يومين غادر «ابن ثنيان» القلعة لأسباب غير معروفة، وفي الطريق تمكنت قوات «فيصل» من التعرف عليه واعتقاله، وأجبر على المثول أمام الإمام فيصل. وصادر «فيصل» كل ممتلكاته وأصدر عفواً عاماً عن كل أتباعه وأطلق سراح الذين كان «ابن ثنيان» قد أودعهم في السجن ورد إليهم كل ما كان قد أخذ من ممتلكاتهم. وهرع أهالي الرياض ليباركوا لـ «فيصل» بعودته إلى الحكم بعد انقطاع دام لخمس سنوات تقريباً. وأول عمل قام به «فيصل» كان إعادة النظر في الترتيبات التي فرضها «ابن ثنيان» على «الأحساء» وعلى «وادي الدواسر»، إذ عين «عبد الله بن بتال المطيري» أميراً على «الأحساء»، وعين «ابن عثيمين» أميراً على «وادي الدواسر»، وأمر بإعطاء إجازة لكافة القوات التي ساعدته في استرداد الحكم وسمح لهم بالذهاب إلى أسرهم. وانتهت مشكلة «عبد الله بن ثنيان» بموته في الثالث عشر من تموز من عام ١٨٤٣م. وقد أدى «فيصل» نفسه صلاة الميت على جثمان «عبد الله بن ثنيان» وسار في جنازته إلى المقبرة لدفنه.

رحبت السماء بعودة الإمام «فيصل» إلى «نجد»، وذلك بظهور مذنب في السماء من جهة الغرب، وفي اليوم الثاني من شهر آذار عام ١٨٤٣م. وبقي ذلك المذنب ظاهراً للعيان حتى نهاية ذلك الشهر. ويقارن المؤرخ «ابن بشر» ظهور هذا المذنب بظاهرة مشابهة حدثت في السادس عشر من شهر كانون أول من عام ١٦١٨م، وصادق على صحة ذلك الشيخ «مرعي بن يوسف الحنبلي»، علماً أن تلك الظاهرة لم تكن متزامنة مع أي حدث بارز يتعلق بنشاطات الإنسان على الأرض. وتناول المؤرخ «ابن بشر» السنوات الثماني الأولى فقط من الفترة الثانية من حكم الأمير «فيصل»، إذ اختتم تدوين سرد

الأحداث التي كان في صددها في شهر أيار عام ١٨٥٤م دون أن يذكر سبب توقفه عند ذلك التاريخ[1]، والجدير بالذكر أن «ابن بشر» عاش حتى تاريخ الخامس عشر من شهر آب عام ١٨٧٣م، ولا بد أنه كان شاهد عيان لكافة الأحداث التي وقعت خلال فترة حكم الإمام «فيصل»، كما شهد الأمور التي حدثت على أعقابها مباشرة. ولا يسعنا إلا أن نأسف لتوقفه عند الأحداث التي حصلت خلال فترة حكم الإمام «فيصل».

وللحصول على معلومات تتعلق بتلك الأمور (أي ابتداءً من عام ١٨٥١م وما بعد) كان علينا أن نعتمد على المحلل التاريخي المدعو «إبراهيم بن صالح ابن إبراهيم بن عيسى» الذي ولد عام ١٨٥٤م في قرية «أشيقر» بإقليم «الوشم»، وفيما يتعلق بروايته وسرده التاريخي جاءت الاعتبارات السياسية لتقطع تسلسل سرد أحداث روايته حتى من النقطة التي بدأ عندها، ولتعكس معرفته الشخصية بالأحداث وحكمه المتعقل عليها.

يمكن النظر إلى الفترة الثانية من عهد حكم «فيصل» ومن أوجه عدة على أنها بدء للتاريخ الحديث أو المعاصر للجزيرة العربية. وحسب ما هو متوافر انسحبت كلياً إلى مناطق «الحجاز» خلال فترة حكم «ابن ثنيان» القصيرة، لذلك لم تكن هناك أية قوى أجنبية كان يتوجب على الإمام «فيصل» التعامل معها. وسرعان ما استعادت «نجد» صبغة الحياة الطبيعية الخاصة بها، وكانت تلك مرادفة لحياة الأمن والرخاء والانسجام التي كان نعيمها شيئا نادراً أو منقطعاً حتى عهد قريب، ولم يشر إليها الإمام «فيصل» إلا نادراً في

(١) توقف ابن بشر عند عام ١٨٥٠م الموافق ١٢٦٧هـ، كما هو مبين في نهاية كتابه ولا يزال الجزء الثالث مفقوداً. (المراجعون).

قصائده الشعبية الطنانة الطويلة التي تلاها على مسامع أتباعه بعد أن اعتلى سدة الحكم. وكانت تلك القصائد في مضمونها دينية، وهي دون شك كانت ثمرة تأملاته الطويلة خلال فترة سجنه في مصر، حيث كان عزاؤه الوحيد في محنته تلك ثقته الكبيرة والأكيدة بالله سبحانه وتعالى. وأحب في كتاباته تلك أن يلفت نظر القراء إلى أهمية أن الورع ومخافة الله هما من الركائز الأساسية للحياة السعيدة، وإن الأساس في الإيمان هو الاعتقاد بوحدانية الخالق التي تنبثق منها مستوجبات الصلاة، في حين أن الزكاة هي رافد طبيعي من مستلزمات الصلاة بما فيها دفع ما يتوجب على الفرد المؤمن لخزينة الدولة، كما أن من واجب كل مسلم مؤمن أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

وقد ضَمَّن كتاباته بعض المقتطفات من مصادر قديمة غير محددة مفادها أن ركائز الإسلام عشرة: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأداء الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، والحج، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، والجماعة، والسمع والطاعة، والإحسان للفقراء والمحتاجين... وهذه النقطة الأخيرة أضافها إلى القائمة بعد تفكير لاحق. وناشد أبناء جلدته أن لا يسيروا في خطى الأشرار، وأن يرجو الخلاص والرحمة من الله لأن الأماني في هذه الدنيا ما هي إلا رأسمال خاسر. وكان الإمام «فيصل» يأمر الحكام والقضاة بقراءة هذه الوصايا في الخطب بالمساجد، وأمرهم أيضاً أن يعاودوا قراءتها مرة كل شهرين. وإضافة إلى هذه النصائح والحرص الذي كان يتوخاه في اختيار مسؤولين ترقى سمعتهم فوق الشك والطعن ليتولوا المناصب في مختلف مناطق البلاد، يمكن القول إنه لم تكن لديه أية آليات محددة يستخدمها للربط بين

الحماس الديني وبين النشاطات الدنيوية للدولة كما فعل أسلافه وأجداده ضمن أطر منظومة الدعوة الدينية.

كانت الترتيبات العسكرية التي قام بها ترتيبات إدارية، كما أن كافة الأطراف المعنية بالأمور العسكرية كانت متفهمة لما يجري، وكان يتم حشد القوات والجند بناءً على سجلات توضح التزامات كل بلدة وقرية وقبيلة بواجبها في تقديم الرجال والجمال والخيول التي تتطلبها مختلف أنواع الاستعدادات العسكرية. ومن حيث المبدأ كانت الدولة هي المسؤولة عن توفير السلاح والذخيرة عند الحاجة، وكان يتوجب على القوات التي يتم استدعاؤها أن تحضر معها الجمال (وكانت النسبة في بعض الحالات تستدعي أن يقدم كل رجلين جملاً واحداً) وإلا توجب عليها أن تشارك سيراً على الأقدام. وكانت الدولة بدورها تقدم للفرسان تشجيعات وإغراءات خاصة، وفي الحقيقة كان يدفع نصيب معين لكل رجل محارب من الأشياء التي يفوز بها خلال الحروب، بمعنى أن خمس غنائم الحرب كانت تخصص لخزينة الدولة ويوزع الباقي على القوات بنسبة سهم لكل مقاتل على جمل أو مقاتل من المشاة، وتدفع سهمين لكل فارس. وقد اقتضى برنامج الحياة الطبيعية في «نجد» إقامة معسكر موسمي خلال فترة الشتاء أو فترة الربيع من كل عام، كما اقتضت الخلود إلى فترة راحة خلال أشهر الصيف، علماً بأننا نتفاجأ أحياناً لكثرة النشاطات العسكرية التي كانت تمتد حتى فصل الصيف الحار أو إنها كانت تبدأ في أحوال غير مواتية.

أما بخصوص حال الحملات التأديبية ضد القبائل فيعود سبب القيام بها

في أوقات معينة إلى أن القبائل كانت تنتشر - وخاصة في مواسم الأمطار الخيرة - في مناطق مختلفة من الصحراء، لكنها كانت في فصل الصيف تتجمع بالقرب من الآبار لتوفر مياه الشرب لجمالها وقطعانها التي كانت بحاجة إلى الماء بشكل متكرر. أما بخصوص العمليات العسكرية التي كانوا يشنونها ضد الأتراك (العثمانيين)، فقد كانوا يأخذون تأثير عوامل الطقس بعين الاعتبار، وكانوا يعتبرون حرارة الطقس عاملاً يسهل حملاتهم العسكرية.

يمكن أن يكون تاريخ أحداث السنوات الثماني الأولى من الفترة الثانية لحكم الإمام «فيصل» ملخصاً في سلسلة من الأحداث التي تعطي صورة أكثر شمولية عن الوضع في «نجد» خلال العقد الخامس من القرن التاسع عشر. فقد تناول المؤرخ «ابن بشر» بعض هذه الأحداث بالإسهاب والتفصيل، وكان ينظر إليها من وجهة نظر شاهد عيان. لكن يمكن القول في المقام الأول إن الإمام «فيصلاً» انشغل بشكل طفيف بالتأثيرات الخارجية على حكمه. وكانت الحالة الوحيدة التي تعرض فيها لمحاولة اعتداء من طرف أجنبي في شهر نيسان من عام ١٨٤٧م هي عندما سار «محمد بن عون» شريف مكة بقواته مستهدفاً «القصيم». ويعود سبب تلك الحملة إلى أن جماعة من إقليم «القصيم» (رغبت طوعاً أن تعيش في الحجاز) اقترحت على الشريف «ابن عون» فكرة أنه إذا هاجم «نجد» لصالح «خالد بن سعود» -الذي كان في ذلك الوقت لاجئاً أيضاً في مكة- فإن الإمام «فيصلاً» لن يقاوم احتلاله لمناطق «نجد» أو أنه على الأقل لن يجد الدعم الكافي من القبائل المحلية لمقاومة قوات الشريف بشكل جدي. وسارت الأمور في

البداية على الأقل لصالح القوات الغازية التي كان يرافقها «خالد» ومعه فرقة من القوات التركية، حيث استسلم أهالي «القصيم» إلى الشريف دون أن يبدوا أي مقاومة. والجدير بالذكر أن هؤلاء الأهالي كانوا قد اتخذوا موقفاً حيادياً حيال فكرة الاستقلال، لكن تحت شكل ما من أشكال الحماية التركية. وكانوا يكنون -بشكل خاص- الضغينة لـ «عبد الله بن رشيد» الذي كان دعمه وولاؤه للإمام «فيصل» مكشوفاً وشائناً حسب رأيهم. علاوة على ذلك سارع زعماء القبائل ومن بينهم قبيلة «مطير» إلى الارتماء في أحضان قوات الشريف الغازية.

إلا أن ردة فعل الإمام فيصل حيال هذه التطورات جاءت أبعد مما تكهن به أعوان الشريف «محمد بن عون»: فأرسل ابنه «عبد الله» على رأس قوة نظمها على عجل من أهالي المناطق الوسطى والجنوبية إلى منطقة «المجمعة» ليحمي مناطق «سدير» و «طويق» ضد أي تقدم يمكن أن تقوم به قوات العدو. وعندما علم الشريف «محمد بن عون» بذلك أرسل رسولاً إلى الإمام «فيصل» ليؤكد له على حسن نواياه، فرد الإمام «فيصل» على الشريف بالطريقة والأسلوب التقليديين بأن أرسل إليه أخاه «عبد الله بن تركي» وحمله بالهدايا، لكن «ابن عون» رفض الهدايا بناءً على نصيحة أسداها إليه أشخاص مغرضون كانت رغبتهم الجامحة إذكاء نار الصراع بين الطرفين. وقدم الشريف «ابن عون» هدايا شخصية قيمة لـ «عبد الله بن تركي» وطلب منه أن يخبر أخاه بأن عليه أن يأتي إليه شخصياً.

وبعد أن قطع «عبد الله بن تركي» مسافة وأصبح في مأمن من مطاردة قوات الشريف له، أعاد الهدايا إلى الشريف «ابن عون»، وأرسل إليه رسالة تحدٍّ.

وعندما وصل إلى «شقراء» أرسل ليعلم الإمام «فيصلاً» بما جرى معه، وبقي هناك بانتظار الأوامر من «فيصل». فسر الإمام «فيصل» سلوك الشريف «ابن عون» على أنه إعلان حرب، ولذلك انطلق إلى «شقراء» على رأس قوة كان قد جمعها أثناء وجوده في الرياض تحسباً للحاجة، وبعث بتعليماته إلى ابنه في «المجمعة» وأمره بالتوجه بقواته إلى نقطة التجمع. وتنبه الشريف «ابن عون» لخطورة الموقف وأرسل رسولاً إلى الإمام «فيصل» الذي كان في تلك الأثناء قد وصل إلى الماء المعروف بالشمس، على مشارف مقاطعة «الوشم» ليبلغه باقتراحه في عقد سلام ومصالحة. ووافق فيصل على هذا الطرح بشرط أن يتخلى الشريف «ابن عون» عن أي مطلب في الحكم بمنطقة «القصيم» أو في مناطق قبائل «نجد»، وكمبادرة لتلطيف الجو بين الطرفين أرسل الإمام «فيصل» إلى الشريف بعض الهدايا القيمة إضافة إلى مبلغ من المال لكن الشريف «ابن عون» قدمه إلى الأتراك على أنه جزية جمعها من بعض أتباعه. وعلى أي حال رحل الشريف «ابن عون» بقواته عن «القصيم» في شهرحزيران، وأثناء رحيله أغار على جماعة من قبيلة «مطير» في منطقة «الحيد»، وعلى ما يبدو سمح للجنود الأتراك بأن يأخذوا معهم بعض الناس من أصل تركي. وكان الإمام «فيصل» في الوقت المناسب يشن غارة على تجمع لجماعة «شمر» وعلى بعض البدو الذين كانوا حول موارد مياه «النباع» بالقرب من «القويعية»، وعاد «فيصل» بعدها إلى ديرته وأعطى الجنود إجازة للراحة في بيوتهم.

حدثت المجابهة الوحيدة الثانية مع طرف أجنبي خلال السنوات الأولى من حكم الإمام «فيصل» إذ اشتملت على أعمال عدائية تمت على نطاق محدود بينه وبين «آل خليفة» حكام البحرين. ففي عام ١٨٤٣م قاد الإمام

«فيصل» قواته باتجاه شواطئ الخليج وبالتحديد في جوار «القطيف»، وشن غارات ناجحة على قبائل «المناصير» و «آل مرة» و «بني هاجر»، وبعدها التفت إلى «الدمام» التي كانت تحت سيطرة جماعات بحرينية بزعامة «عبدالله بن خليفة» وهو أحد أعضاء الأسرة الحاكمة في البحرين. وبعد حصار دام أقل من أسبوع استسلم المدافعون عن «الدمام» بدون أي شروط واستولى الإمام «فيصل» على كافة المؤن والذخائر التي كانت في القلعة، ووضع فيها حامية تقدر بمئة رجل وزودها بكميات كبيرة من العتاد والمؤن لمقاومة أي محاولة يمكن أن يقوم بها البحرينيون لاستعادة القلعة.

في تلك الأثناء دارت معركة بين جماعة «العجمان» و«سبيع» من ناحية وبين جماعة «مطير» تحت زعامة «محمد الدويش» من ناحية أخرى. تمكنت جماعة «العجمان» و«سبيع» من إلحاق الهزيمة المنكرة بجماعة «محمد الدويش» الذي لجأ إلى «الدمام» ليطلب من الإمام «فيصل» أن يعوضه عن الخسائر التي تكبدتها قواته علماً أن جماعة «مطير» كانت هي المعتدية باعتبار أن الاشتباك حدث في أراضي قبيلة «بني خالد». وعلى أي حال قام الإمام «فيصل» بدافع الجود والكرم بتعويض «محمد الدويش» عن جزء كبير من خسارته وخسارة رجاله، ودفع له التعويضات من ممتلكات الدولة التي تم الاستيلاء عليها مؤخراً من قلعة «الدمام». وسار الإمام «فيصل» بعد ذلك إلى «الهفوف» وجلس فيها فترة طويلة وكانت الوفود خلال تلك الفترة تأتي إليه من أماكن بعيدة وصلت حتى من منطقة عُمان، وأثناء إقامته هناك قام بترتيبات لإرساء إدارة ناجحة في منطقة الخليج، إذ عين «أحمد السديري» على إمارة «الأحساء» كما عين «عبد الله بن سعد المداوي» حاكماً على «القطيف».

ومع بداية صيف عام ١٨٤٤م إثر عودة «فيصل» إلى الرياض قام بإرسال حملة إلى «عُمان» تحت قيادة «عبد الله بن بتال المطيري» الذي رافقه فيها الشيخ «ناصر بن علي العريني» الذي كان في تلك الفترة قد عين قاضياً على «البريمي».

وفي العام التالي تسلم «عبد الله المطيري» قيادة القوات الإقليمية في منطقة «الأحساء» التي كانت تحت إمرة «أحمد السديري». وعند نهاية عام ١٨٤٧م أرسل الإمام «فيصل» حملة أخرى إلى «عُمان» بقيادة «عبد الرحمن بن إبراهيم» (من منطقة «منفوحة») وزوده بتعليمات مفادها أن عليه أن يرسخ أقدامه في منطقة البريمي. وأرسل معه حامية عسكرية كانت مرابطة في منطقة «الأحساء». وبعد تلك المرحلة مباشرةً، اندلعت المشكلات في تلك المنطقة بسبب المكائد بين زعماء القبائل المحليين، وهنا وجد الإمام «فيصل» نفسه مضطراً لأن يرسل حملة أخرى قادها «سعد بن مطلق المطيري» وهو ابن عم «عبد الله بن بتال». وقام رجل يدعى «ابن طحنون» وكان الرأس المدبر لتعكير الأمن هناك بأن حشد مؤيديه وخطط لنصب كمين لتلك الحملة وهي في الطريق إلى هناك؛ فما كان من بعض الزعماء والموالين للإمام «فيصل» هناك مثل سلطان بن صقر حاكم الشارقة ومكتوم من دبي إلا أن أرسلوا رسولاً إلى قائد الحملة لينبهوه عن أمر ذلك الكمين، ولسوء الحظ لم يتمكن ذلك الرسول من لقاء تلك القافلة فوقعت بشكل مباشر في شباك الكمين، وعلى الفور نشبت معركة ضروس بين الطرفين وتمكن رجال «ابن طحنون» من إلحاق هزيمة نكراء برجال تلك القافلة، ولقي عدد من بين الناجين حتفهم أثناء هروبهم باتجاه «دبي» وواصل من بقي منهم مسيره من

هناك حتى «الشارقة». وبعد هذه المعركة التي أطلق عليها اسم «معركة العانكة»، خطط «سعد المطيري» وأتباعه لشن هجوم على منطقة البريمي، وتمكنوا من الاستيلاء على قلعة «ابن طحنون» وعلى كافة المواقع الرئيسة في تلك الواحة، واستعادوا كل الغنائم التي استولى عليها «ابن طحنون» بسبب ذلك الكمين. وكان لا بد من معاقبة «سعد المطيري» على ارتكابه هذه الكارثة، فقام الإمام «فيصل» في شهر تشرين ثاني من عام ١٨٤٩م بإعفائه من منصبه كقائد للقوات.

سيتضح فيما بعد أن مناطق ساحل الخليج استحوذت خلال هذه السنوات على الجزء الكبير من تفكير الإمام «فيصل»، إذ كان هناك حاجة ماسة للتنبه من احتمال قيام بعض العناصر بالإخلال بالأمن بدءاً من مناطق «البريمي» في الجنوب إلى مناطق «القطيف وبني خالد» في الشمال. وقد اقترفت جماعة «العجمان» في نهاية عام ١٨٤٢م بقيادة «فلاح بن حثلين» عملاً مروّعاً بأن هاجمت قافلة للحجاج كانت مارة بإقليم «الأحساء» متوجهة إلى مكة، على الرغم من أن القافلة كانت برفقة «حزام بن حثلين» بصفته دليلاً لها وضامناً لسلامتها، وبالتالي هو أحد أبناء أسرة «فلاح» نفسه.

توجه الإمام «فيصل» نفسه إلى «حريملاء» التي كان من المقرر أن تكون مقر تجمع قواته بما فيها قوة رجال «حائل» التي كانت تحت إمرة «متعب بن عبد الله بن رشيد» الابن الثاني للصديق القديم للإمام «فيصل». وأثناء مسيره عبر منطقة «الكضيمة» قرر «فيصل» أن يقيم مقراً لقيادة قواته في منطقة «مجزل» على الطرف الشرقي من منطقة «طويق»، وهناك قدمت إليه جماعات كبيرة من قبيلة «العجمان» المعتدية وأعلنت عن رغبتها في الانشقاق كلياً عن جماعة «فلاح بن حثلين»، وعليه منحهم «فيصل»

السلامة شريطة أن يجلوا كلياً عن مناطق قبيلة «بني خالد» التي كان «ابن حثلين» قد تمركز فيها استعداداً للقتال. وصدرت الأوامر إلى جماعة «مطير» بقيادة «الحميدي بن فيصل الدويش» لاحتلال منخفض «السر»، وهرب «فلاح» لينضم إلى زعيم قبيلة قحطان «محمد بن هادي بن قرملة» في معسكره بمنطقة «الخفس»، لكنه عندما سمع بقدوم قوات الإمام «فيصل» لمهاجمته فر إلى «الملاعبة» من «مطير» وطلب اللجوء إليهم والدعم منهم، إلا أن «منديل بن غنيمان» زعيم تلك الجماعة رفض طلبه وأرسل يستشير رئيسه «الحميدي الدويش» بذلك الخصوص، فما كان من «الحميدي» إلا أن توجه شخصياً إلى هناك ووضع «فلاح» تحت الحماية لحين انتهاء المفاوضات مع الإمام «فيصل» بخصوص مستقبله. وأصر «فيصل» على أن يعاقب «فلاح» على الغارة التي شنها على قافلة الحجاج فأرسل مع «الحميدي» قوة لاعتقاله، وفعلاً نقل «فلاح» كأسير إلى «الهفوف» وتم تسليمه إلى «أحمد السديري» الذي أمر بقتله.

كما تم اعتقال كبار الذين شاركوا معه في الغارة على تلك القافلة وفي اعتداءات أخرى مثل قطع الطرق والسرقات. وكان من المعتقلين «مُشعان بن هذال» و«هادي بن مذود» وأعدموا جميعاً، واستسلمت القبيلة بأسرها إلى الإمام «فيصل» وأجبرت على إعادة كل الغنائم التي سلبتها. وبالمناسبة يشير «ابن بشر» إلى أنه حظي شخصياً بشرف المثول أمام الإمام «فيصل» في معسكره في «مجزل» أثناء عمليات استرداد الغنائم. وفي إشارته تلك يقدم لنا «ابن بشر» صورة حية عن الأعمال الروتينية لمجلس الإمام «فيصل» من أداء مستمر للصلاة والخطب والمواعظ التي كان الهدف منها إراحة أعصاب المحاربين.

ومع وصول الحملة التأديبية هذه إلى نهاية ناجحة في أواخر عام ١٨٤٦م، أصبحت الأجواء الآن مهيئة للشروع في محاولة جادة لتسوية الحسابات مع حكام البحرين، لأن نشاطاتهم وادعاءاتهم بحقهم في حكم مناطق مختلفة ممتدة إلى داخل الجزيرة العربية (والتي يمكن أن يحققوها رغم أنها غير معقولة) أصبحت مصدر إزعاج واضطرابات في المنطقة. وبسبب الاحتلال الأجنبي السابق لمناطق مختلفة من الجزيرة العربية، لم يجد الإمام «فيصل» نفسه مستعداً للاهتمام مرة أخرى بالمناطق الشرقية إلا في أواخر عام ١٨٥٠م. وفي ذلك العام استدعى الإمام «فيصل» ابنه «عبد الله» الذي كان في «شقراء» يراقب تطور الأوضاع في «القصيم»، وطلب منه أن ينضم إلى قواته في الناحية الغربية من صحراء الدهناء. وهناك التقت تجمعات القوات وقادها الإمام «فيصل» إلى إقليم «الأحساء» وعرج في الطريق على موارد مياه «النجبية» وعسكر بقواته في «حليوين» الواقعة بين الأحساء والقطيف. وهناك انضمت إلى قواته جماعات من «الأحساء والقطيف» وفرق من قبائل «بني خالد وبني هاجر وآل مرة» ومقاتلون من فخذ قبيلة «العجمان» الموالية له بزعامة «حزام بن حثلين».

كانت نية الإمام «فيصل» من حيث المبدأ معالجة الوضع في البحرين بسبب المشكلات الداخلية في تلك الجزر وبسبب عدم دفعهم الزكاة المفروضة عليهم. ورفض الإمام «فيصل» المحاولة التي قام بها حكام «آل خليفة» والتي استهدفت تهدئة غضبه، وسار بقواته باتجاه شبه جزيرة قطر وأقام معسكره هناك في منطقة يقال لها «عريق سلوى»، وكان يهدف إلى احتلال قلعة «البدع» الواقعة في ميناء «الدوحة» والتي كان يسيطر عليها أخو شيخ البحرين المدعو «علي بن خليفة»، وكان شيخ البحرين قد زود بسخاء

الحامية في تلك القلعة بالمؤن والذخيرة لمواجهة أي مشكلة. وأمر «فيصل» ابنه «عبد الله» بأن يضرب حصاراً حول القلعة، لكن «علي بن خليفة» سبقه إلى استخدام القوارب الشراعية التي كانت تحت تصرفه في الميناء. وبادر بالهرب من الحامية تاركاً الأهالي يواجهون الحصار. واستسلم الأهالي في بلدة «الدوحة» لـ «عبد الله» الذي استولى بقليل من الجهد على أكبر مخازن المؤن فيها، ناهيك عن طرد وترحيل جماعة «آل خليفة» من آخر معقل لهم على الساحل. ولم يكتف الإمام «فيصل» بذلك الإنجاز، بل تحرك بقواته باتجاه آبار «مسيمير» القريبة من الساحل، وهناك وجد ما لا يقل عن ثلاثمائة قارب فقام بتجهيزها استعداداً لهجوم بحري على البحرين بعينها. ووضع الإمام «فيصل» تلك القوة تحت إمرة اثنين من أبناء «عبد الله بن خليفة» المنفيين عن البحرين واللذين كان برفقته في تلك الحملة.

ناشد زعيم البحرين أمير أبو ظبي «سعيد بن طحنون» أن يقدم له المساعدة (سبق أن أشرنا إليه كبطل لمعركة «العانكة»)، وسرعان ما لبى «ابن طحنون» المناشدة وتوجه بقوة بحرية كبيرة للتدخل في ذلك الصراع، وعندما اقترب من قطر بدا وكأنه فقد الشجاعة على الاستمرار في التقدم، وأرسل رسالة إلى الإمام «فيصل» اقترح فيها إجراء محادثات للتوصل إلى سلام دائم بينه وبين عائلة «آل خليفة» ولكن الإمام «فيصل» أصر على أن يمثل «ابن طحنون» بين يديه شخصياً، وفعلاً تم ذلك بضمانات شخصية قدمها «أحمد السديري» وتعهد بموجبها بأن يكفل سلامته، وبعد محادثات تمت بين الطرفين وافق الإمام فيصل على عقد سلام مع حكام البحرين شريطة أن يدفعوا الزكاة المترتبة عليهم، علماً بأنه لم يشدد كثيراً على وجوب أن يدفعوا

له ضمانات بعدم الاعتداء وتعويضات عن المهام والاستعدادات التي قام بها. وهكذا تمت تسوية الأمور بشكل يرضي الجميع دون إراقة قطرة دم واحدة من بدء الحملة حتى نهايتها.

صادفت عودة «فيصل» عبر كثبان الصحراء صيفاً إما في شهر حزيران أو شهر تموز من عام ١٨٥١م، وكان من الممكن أن يموت العديد من أفراد جيشه بسبب حرارة الشمس لولا أن المطر -وبشكل غير اعتيادي- هطل بغزارة وسارت على إثره السيول في كافة أودية «الأحساء». ومن بين الهواجس التي شغلت فكر الإمام «فيصل» وأخرت إتمام التسوية السلمية مع حكام البحرين، هو الوضع في «القصيم» الذي ظهر إثر الغزو الفاشل الذي قام به الشريف «ابن عون» عام ١٨٤٧م. فسامح الإمام «فيصل» زعماء منطقة «القصيم» وغفر لهم الدور الذي قاموا به في ذلك الحدث، إلا أنه كانت لديه بعض الشكوك بما يضمره بعضهم من عدم الولاء له. أما بخصوص موضوع أمير «عنيزة» (إبراهيم بن سليمان بن زامل) فقد استغلت جماعات معادية الشكوك لدى الإمام «فيصل» وقامت بأعمال عدائية في المدينة نفسها نجم عنها أن قرر الإمام «فيصل» عزل الأمير «إبراهيم بن زامل» وعين مكانه «ناصر بن عبد الرحمن السحيمي».

عين الحاكم الجديد أخاه «مطلق الضرير» قائداً على القلعة الكبيرة، ووضع فيها حامية من الجنود تحت إمرته، لكن الأهالي قبلوا في الظاهر -على الأقل- الحاكم الجديد. ولم يكن ابن أخي الأمير «إبراهيم بن زامل» والمدعو «عبد الله بن يحيى بن سليمان» ورفاقه ليذعنوا لذلك الاستخفاف بأسرتهم، ففي إحدى الليالي قام أتباعهم بالهجوم على «ناصر السحيمي»

وأطلقوا عليه ثلاثة عيارات نارية أصابه أحدها بجرح بليغ. وأدرك «عبد الله ابن يحيى» أن الحراسة حول القلعة كانت مشددة للغاية، فهرب إلى «بريدة» وطلب حماية أميرها «عبد العزيز آل محمد»، الذي أرسل بدوره إلى الإمام «فيصل» يطلعه على ذلك التطور، وحاول تبرير الجريمة على أنها استجابة للتصرف الاستفزازي الذي قامت به جماعة «السحيمي». وعلى أي حال أصر الإمام «فيصل» على أن يرسل «عبد الله» إلى الرياض، وفعلاً بقي هناك قيد انتهاء التحقيق في تلك المسألة.

حدث أيضاً أن قام أتباع «الضرير» بأن أنزلوا ضرباً مبرحاً بأحد أتباع عائلة «الزامل» ومات على إثره. وبعد أن شُفي «ناصر» من إصابته أقدم على قتل «إبراهيم بن سليمان بن زامل»، وتمكن أخو «إبراهيم» من الفرار إلى «المذنب». وحيال هذا الحدث أصدر الإمام «فيصل» أمراً يقضي بأن يحضر «السحيمي» إلى الرياض ويحاكم وفق أحكام الشرع وأمرته المحكمة بدفع الدية المتبعة في حالات القتل وجرح الأشخاص. وخشي الإمام «فيصل» أن تؤدي الأعمال العدائية بين الإخوة المسلمين إلى مزيد من التعقيدات، وربما إلى مناشدة شريف مكة للتدخل، فما كان منه إلا أن أقال «السحيمي» من منصبه وأرسل «عبد الله المداوي» (حاكم «القطيف» السابق) ليتسلم زمام الحكم في «عنيزة».

بعد أن رفض «مطلق الضرير» أن يجلي قواته عن القلعة، تقدم «عبد الله المداوي» بقواته إلى «بريدة»، وعندما وصلت أخبار هذه التطورات إلى الرياض قام «السحيمي» بإقناع الإمام «فيصل» بأن الطريقة الوحيدة لإنهاء المشكلة في «عنيزة» هي أن يعيد تعيينه في منصبه السابق، وأن يدعمه بقوة

عسكرية ترابط عند حدود «القصيم» الجنوبية. ووصل «السحيمي» إلى «عنيزة» ووجد أن أهاليها كانوا في حالة تمرد وعلى استعداد لتحدي سلطة الإمام «فيصل»، فما كان منه إلا أن وقف إلى جانبهم. ولكن كان الجميع يشعرون بأن فرصتهم بالنصر كانت ضئيلة جداً ما لم يقنعوا كافة مناطق الإقليم وبالتحديد أمير بريدة «عبد العزيز المحمد» بالانضمام إلى صفوفهم. وعليه عرضوا على أمير «بريدة» أن يقود قوات المنطقة ووافق «عبد العزيز المحمد» على ذلك شريطة أن لا يفتر الحماس ويتراجع الناس عن موقفهم إذا سبق السيف العذل، وقرروا الثورة ضد الإمام «فيصل».

وعند حوالي بداية شهر نيسان (أبريل) عام ١٨٤٩م تحرك الإمام «فيصل» من الرياض على رأس قواته وكان معه ابناه «عبد الله» و «محمد»، وانضم إليه ابنه الثالث (الذي كان قد عينه أميراً على «الخرج» عام ١٨٤٧م) بقواته وهو في الطريق إلى هناك كما رافقه في تلك الحملة أيضاً أخوه «جلوي» والشيخ «عبداللطيف» (وهو من أحفاد محمد بن عبد الوهاب)، وبقي «عبد الله بن تركي» (أخو الإمام «فيصل») في الرياض بصفته نائباً عنه في الحكم. وسار الإمام «فيصل» بقواته على طريق «بنبان» و «الحسي» ومكث فيهما بعض الوقت ليرتب قواته، وهناك وصلته أخبار تؤكد تمرد أهالي «القصيم» عليه. وتابع «فيصل» مسيره باتجاه «سدير» و «المجمعة»، وزار في تلك المرحلة من المسير المؤرخ «ابن بشر» الذي ذكر في سياق سرده للأحداث بأنه كان من بين الأشخاص العديدين الذين كانوا في خيمة الإمام «فيصل» بعد صلاة العصر، ويضيف بأن أحد المشايخ قام هناك بقراءة مقطع من موضوع التوحيد بقلم «محمد بن عبد الوهاب» وكان ذلك المقطع يتعلق بموضوع «الكفر».

وفي اليوم التالي سار الإمام «فيصل» بقواته من «المجمعة» باتجاه «الجريفة» في سهل «الحمادة» ومن هناك مر بـ «أشيقر» وكذلك بـ «السر»، وقضى بعض الوقت في «ساجر» قبل أن يتابع مسيره باتجاه «المذنب». وعندما وصل المذنب أرسل قوة كبيرة تحت إمرة «محمد بن أحمد السديري» (حاكم منطقة «سدير» لاحتلال واحة «العوشزيات» التي تقع على مسافة قصيرة من «عنيزة»، بعد ذلك أرسل الإمام «فيصل» إنذاراً إلى أهالي «القصيم» يحذرهم فيه من الاستمرار في تمردهم، فما كان منهم إلا أن أرسلوا إليه أحد وجهاء «بريدة» المدعو «مهنا بن صالح» ليناقش الوضع معه.

بدا «فيصل» متفائلاً من أن الأمور يمكن أن تسوى دون إراقة الدماء، لكن بعد رحيل «مهنا» ليطلع المتمردين على ما دار بينه وبين الإمام «فيصل»، وصلت أخبار إلى «فيصل» مفادها أن بدواً من «الدهامشة» من «عنزة» في «الطرفية» الواقعة إلى الشرق من «بريدة» قد احتشدوا، فأرسل الإمام «فيصل» ابنه «عبد الله» على رأس قوة كبيرة للإغارة عليهم، وحذره من عدم التورط في أي أعمال عدائية ضد أي فرد من أهالي «القصيم»، وذلك لأنه سبق له أن حمل «مهنا» رسالة وعدهم فيها بعدم التحرش بهم. وعليه سمح رجال «عبد الله» لقافلة كانت متوجهة إلى «بريدة» بأن تمر بسلام. ووصل خبر الحملة التي يقودها «عبد الله» إلى «الطرفية» الأمر الذي حمل جماعة من عرب «الدهامشة» على الفرار، إلا أن قوات «عبد الله» طاردتهم وأنزلت بهم الويلات، وتمكن فريق منهم من الوصول إلى «عنيزة» ونبهوا الأهالي هناك عن الخطر القادم إليهم.

تمكن «عبد العزيز المحمد» بسهولة من إقناع أتباعه بأن الفرصة المتاحة لنيل

الحرية من سلطة الإمام «فيصل» لن تتكرر، وعليه بدأ يأخذ مواقعه على كثبان رمال منطقة «اليتيمة» الواقعة بين «الشماسية» و «الطعمية» في مجرى وادي «الرّمة»، وتقدر قوته تلك بألف وخمسمائة رجل. وفي تلك الأثناء أرسل «عبدالله» رسالة من «الطرفية» إلى والده يبلغه فيها بالهزيمة التي ألحقها بعرب «الدهامشة»، إلا أن الشخص الذي كان يحمل الرسالة شاهد آثار قوات كبيرة متجهة شرقاً، فعاد بالرسالة إلى «عبد الله» ليخبره بما شاهد. أشار مستشاروه عليه بأن يترك بينه وبين المتمردين مسافة طويلة أثناء توجهه بقواته إلى الإمام «فيصل»، إلا أن «عبد الله» أصر على مداهمتهم بالرغم من تفوقهم عليه في العدد، وأمر بدفع الجمال والأغنام التي تم الاستيلاء عليها من عرب «الدهامشة» باتجاه مواقع العدو لتكون بمثابة ستار لقوة الفرسان الضاربة، وفعلاً تمكنوا بهجومهم العنيف من حسم الموضوع والانتصار عليهم في نفس ذلك الموقع، حيث تراجع المتمردون، لكن سرعان ما بدأوا في الفرار عن بكرة أبيهم.

هرب «عبد العزيز المحمد» لينجو بحياته ولجأ إلى قلعة «الطعمية» ومن هناك توجه إلى «عنيزة» بعد أن علم بأن «عبد الله» توقف عن مطاردة الجماعات الفارة وعاد إلى «المذنب». وقد سبقته أخبار ذلك النصر إلى والده لتخفف من قلقه، علماً بأنه قد أمر بإرسال بعض التعزيزات لنجدته. وكانت قوات «فيصل» تحتفل بذلك النصر بالأغاني والرقصات والأهازيج، إلا أنه أمرهم بالكف عن ذلك والقيام بالصلاة والشكر لله على رحمته بالعباد.

نعت كل قرية في «القصيم» عملياً موت بطل من أبطالها، لكن فرقة المقاتلين من «بريدة» تكبدت العدد الأكبر من القتلى والجرحى، إذ بلغ عدد القتلى من بريدة حوالي مئة قتيل.

دخل «عبد العزيز» عنيزة يتبختر على صهوة جواده وهو يردد الأهازيج مع أتباعه ليشجع المقاتلين على الاستمرار في القتال، إلا أنه سرعان ما أدرك أن الويلات التي ألمت بالأهالي كانت كبيرة وكانوا على استعداد للاستسلام للإمام «فيصل»، ولذلك توجه إلى «بريدة». أما «السحيمي» فقد لجأ إلى «طلال بن رشيد» الذي كان في ذلك الوقت في «القوارة» يستعد لتقديم الدعم إلى «فيصل» ضد المتمردين. وبالمناسبة تجدر الإشارة إلى أن «طلالاً» كان قد خلف والده «عبد الله بن رشيد» أميراً على «حائل»، وكان والده قد توفي في شهر أيار من عام ١٨٤٧م أثناء غزو الشريف لمنطقة «القصيم».

عقد أهالي «عنيزة» اجتماعاً ليقرروا الإجراء المستقبلي الذي يتوجب عليهم أن يقوموا به، وطلبوا من القاضي «عبد الله أبي بطين» أن يتدخل ويلتمس لهم العفو من الإمام «فيصل»، فوافق «فيصل» على ذلك بنفور لكن مقابل شرط واحد وهو أن يضمن «محمد بن عبد الرحمن بن بسام» رئيس أحد العائلات النبيلة في البلدة أي نكوص عن الاتفاق يمكن أن ينجم من طرفهم.

تم ترتيب الأمور بسهولة ودخل «فيصل» عنيزة ليقدم الأهالي له الطاعة، وبالتالي ليصفح عنهم لعدم ولائهم وتمردهم في ذلك الإقليم. بعدها أرسل الإمام «فيصل» رسالة إلى «عبد العزيز المحمد» يخيره بين السلم والحرب، وكان «عبد العزيز المحمد» قد قرر الهرب إلا أن أقاربه ووجهاء «بريدة» أقنعوه بأن يدعهم يتشفعون له عند «فيصل»، وبعد مناقشات وتدخل من قبل شخصيات كبيرة في المنطقة وافق الإمام «فيصل» على أن يصفح عما كان وقرر أن يعينه حاكماً على المدينة، ولكن حرصاً منه بأن لا تقع أحداث

مماثلة في المستقبل في بيئة غير مستقرة ولا يمكن الاعتماد عليها، قرر الإمام «فيصل» أن يعين «جلوي» حاكماً عاماً على الإقليم كله، وأن يكون المقر الرئيس للقوات في القلعة الكبيرة في «عنيزة». وكان جلوي أول أجنبي وأمير يشغل منصب احتجز هناك ليشغله أحد الوجهاء المحليين. وبالمناسبة فإن صاحب المنصب الحالي كان الجد الأول لـ «عبد الله بن مساعد» الذي احتجزه بدوره عمه المشهور والمعروف باسم «عبد الله بن جلوي» ومن قبله والده «عبد العزيز بن مساعد» الحاكم الحالي لـ «حائل»، وهكذا أدخل الإمام «فيصل» نظاماً إدارياً جديداً طبق بشكل متقطع وعلى فترة تزيد على مئة عام.

وبعد توقف للاستراحة في «عنيزة» دام شهراً، عاد الإمام «فيصل» إلى الرياض وقابل في طريقه إلى هناك «طلال بن رشيد» في منطقة «المذنب». وفي شتاء العام التالي ١٨٤٩م/ ١٨٥٠م انشغل الإمام «فيصل» مجدداً بحملة أعدها للإغارة على تجمع لرجال قبائل «عتيبة» في منطقة «جراب» في الشمال، ووصلت أخبار الحملة التي كان يعدها الإمام «فيصل» إلى قبيلة «عتيبة»، فما كان منهم إلا أن تراجعوا إلى منطقة «قبه» وانضموا إلى قوة كبيرة من قبيلة «مطير» كانت متجمعة هناك، وعند اقتراب قوات الإمام «فيصل» منهم تقدم زعماء وقادة «الدويش» وقدموا لـ «فيصل» الهدايا وحصلوا على عفو عام منه عن كل الأعمال التي قاموا بها في الماضي. ويعدها توجه الإمام «فيصل» نحو «القصيم» وعند موارد مياه «أبا الدود» شمالاً انضمت إليه قوات «القصيم» التي كانت تحت إمرة «جلوي»، وبسبب هذه التحركات بدا الذعر على أمير بريدة «عبد العزيز» ولم يتمكن من

السيطرة على أعصابه ففر مع أبنائه إلى «مكة» تاركاً وراءه نساءه وكل ممتلكاته الشخصية، ووصل «فيصل» إلى «بريدة» وجمع كل ممتلكات الحاكم الفار وأخذ معه أيضاً ما بقي من أعضاء أسرته، وعين أخا الحاكم الفار المدعو «عبدالمحسن المحمد» حاكماً على «بريدة»، وبعد ذلك عاد إلى الرياض.

استقبل شريف مكة الحاكم الفار «عبد العزيز» بالكثير من التعاطف والود ومشاعر الصداقة، لكن سرعان ما تغيرت مشاعره تجاهه عندما أدرك أن الهدايا البسيطة التي قدمها الهارب «عبد العزيز» كانت كل ما يملكه في هذه الدنيا، وبدأ يراسل الإمام «فيصلاً» بخصوص ضيفه غير المرغوب فيه. وطلب «عبد العزيز» من الشريف المساعدة، إلا أن الشريف أجابه بأن الجنود الذين تحت إمرته لا يذهبون للقتال ما لم يدفع لهم مقدماً.

في هذه الأثناء - أي عند حوالي نهاية شهر تشرين الأول عام ١٨٥٠م- انطلق «عبدالله بن فيصل» بقوة كبيرة من الرياض تعاظم تعدادها بسبب القوات التي التحقت بها أثناء المسير، وتوجه بها وجهة الحجاز في حملة قتالية شاملة. وفي الطريق استراح لفترة من الزمن في «القويعية» واستمر بعدها للبحث عن معسكرات زعيم قبيلة عتيبة «مرزوق الهيضل» وأثناء مروره بجوار آبار «الشبكة» وموارد مياه «المصلوب» في مرتفعات «النير» التف «عبدالله بن فيصل» على «الحنابج» وأوشك أن ينال من طريدته عند آبار «الثعل» بمنطقة «الحزم الراقي»، إلا أنهم سبقوه بمغادرتها قبل وصوله بقليل لعلمهم بتقدمه، وانضموا إلى قوات «ابن ربيعان» أحد مشاهير زعماء قبيلة «عتيبة» في منطقة «نفي» طالبين منه الحماية.

سبب تقدم قوات «عبدالله بن فيصل» إلى الحجاز وبلوغها منطقة «حرة

الكشب» الذعـر بين الأهالي هناك، وخـشي شـريف مكة أن يؤدي وجـود «عبد الله المحمد» هناك إلى إذكاء نار المشكلات، ولذلك بدأ يصعب الأمور على الأمير الهارب، فأدرك الأمير الفار «عبدالعزيز المحمد» أن توقعاته في أن يقدم له شريف مكة الدعم لم تعد في محلها، فطلب من الشريف أن يتوسط له لدى الإمام «فيصل» ليصفح عنه وليسمح له بالعودة إلى «بريدة». كان الإمام «فيصل» في ذلك الوقت في المنطقة الشرقية على سواحل الخليج يعالج المشكلات المتعلقة بجماعة البحرين. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الإمام «فيصلاً» كان رجلاً شفوقاً رحيماً فوق العادة، صبوراً على الأذى. وعلى أي حال فقد قبل «فيصل» شفاعة شريف مكة شريطة أن يأتي «عبدالعزيز المحمد» إلى «عنيزة» ويلتحق بالحملة التي كان يعدها «جلوي» للتحرك باتجاه «سلوى» دعماً للعمليات العسكرية التي كان «فيصل» يقوم بها. وفعلاً وصل «عبد العزيز المحمد» إلى معسكر الإمام «فيصل» في شهر كانون الثاني عام ١٨٥١م، وبعد أن اعترف بكل أخطائه وأعرب عن ندمه على كافة الجرائم التي اقترفها بحق الإمام، صفح «فيصل» عنه ونصبه من جديد حاكماً على «بريدة»[١].

وفي بداية العام التالي انتشرت الشائعات بأن «عباس بن طوسون» حفيد «محمد علي باشا» الذي كان في ذلك الوقت معيناً في منصب الخديوي على مصر، كان يعد العدة لغزو مناطق «نجد» مجدداً. والحقيقة أنه بسبب تواجد «عبد الله بن فيصل» ومعه القوات السعودية في المناطق المجاورة لمشارف الحجاز، تم إرسال أعداد كبيرة من القوات التركية (العثمانية) إلى «المدينة».

(١) من هنا ينتهي المؤلف من النقل من ابن بشر ويبدأ النقل من ابن عيسى صاحب كتاب (عقد الدرر)، وهو يوافق عام ١٢٦٨هـ/ ١٨٥٢م. (المراجعون).

وكانت الاشتباكات التي دارت بعد وصول هذه القوات من النوع المتقطع الاعتيادي، علماً بأن أبعاد أحد الاشتباكات التي حدثت في شهر أيار من ذلك العام وصلت حتى منطقة «الدفينة». وكإجراء احتياطي حشد الإمام «فيصل» قواته وسار بها باتجاه «المجمعة». وفي شهر تموز تسربت بعض الأخبار التي تقول بأن «عباس بن طوسون» كان قد بعث بجيش كبير إلى إقليم «عسير» وأصدر أمراً إلى القوات في «المدينة» بالانضمام إلى ذلك الجيش لتنفيذ العمليات المزمع القيام بها في تلك المنطقة. وحيال هذه التطورات عم الهدوء مناطق «نجد». وبعد أن انتهى الإمام «فيصل» من الإغارة على جماعة من قبيلة «مطير» في منطقة «أم الجماجم» أثناء عودته إلى الرياض، أصدر أمراً بإعطاء القوات استراحة للذهاب إلى أسرهم.

لم يتوجس الأتراك خيراً من حملتهم للنيل من قبائل «عسير»، فسارع زعيم هذه القبائل «عايض بن مرعي» وربط قضيته بقضية الإمام «فيصل»، فأرسل إليه مندوباً يبلغه بالأخبار السارة ويقدم له الهدايا التي تمثل حصة الإمام «فيصل» من الغنائم، لكن مشاغل الإمام «فيصل» بأمور المنطقة الشرقية لم تدعه يفكر في أمور الحجاز حتى ولو كان راغباً في الاهتمام بها.

قضى الإمام «فيصل» جزءاً من شتاء عام ١٨٥٢م/ ١٨٥٣م في الصحراء، وشن من معسكره في «رماح» خلال تلك الفترة غارة على جماعات قبيلة «مطير» في منطقة «الوفراء»، وكان الإمام «فيصل» قد عهد إلى «عبد الله» مهمة التعامل مع جماعات من قبيلة «آل مرة» كانت تعكر

صفو الأمن في منطقة «الأحساء». وحدث أيضاً أن تمكن «عبد الله» من الاستيلاء على قافلة كانت محملة بالبضائع الثمينة قادمة من «العقير» في طريقها إلى «الهفوف» وأوقع بين رجالها العديد من الإصابات والخسائر في الأرواح، وذلك أثناء توقفها في معسكر «النعيرية». وتقدم «عبد الله» بعد ذلك إلى منطقة «سلوى» وهناك أغار على جماعة «النعيم» القطرية، كما أغار على جماعات من قبيلة «بني هاجر» وجماعات «المناصير» التي كانت تشاركها في نشاطاتها، وهزمهم جميعاً واستولى على الغنائم منهم. وأذن «عبد الله» بعد ذلك لفريق من قواته بالتمتع بفترة راحة، في حين سار ببقية القوة إلى «عُمان» ليثبت نفسه وليتأكد من أن الأمور في ذلك الإقليم كانت على ما يرام، خاصة أنه تلقى أخباراً عن وجود نزاعات داخلية كانت تحدث هناك بشكل متقطع، ولم يرجع «عبد الله» من حملته تلك إلا في شهر أيلول عام ١٨٥٣م. وقد وصلت في هذا التاريخ (أو ربما في بداية العام التالي) إلى الرياض أخبار اغتيال «عباس باشا» في مصر، وعلم في الرياض أيضاً أن عمه «سعيد باشا» ابن «محمد علي» قد عين في منصب الخديوي على مصر.

حدث في منطقة «القصيم» وبالتحديد في شهر أيار من عام ١٨٥٤م تفجر جديد للمشكلات واستحوذت على كل اهتمام الإمام «فيصل». حيث تمرد أهالي «عنيزة» على «جلوي» وطردوه من المدينة، فما كان منه إلا أن لجأ إلى «بريدة» وبعد فترة قصيرة تبعه الشيخ المشهور «عبد الله بن عبد الرحمن أبو بطين» الذي اشمأز من الشقاق والنزاعات المزمنة الناجمة عن مركزه الديني.

ونتيجة لتلك الأحداث تمكن «عبد الله بن يحيى بن سليم» -وأسرته فرع من أسرة السليم- من السيطرة وحكم عنيزة، وعندما علم الإمام «فيصل» بتصرفه حشد جيشه وأرسل قوة كبيرة تحت إمرة «عبد الرحمن بن إبراهيم» (من منطقة «منفوحة» إلى «بريدة»، وأمره أن يحاصر «عنيزة» وأن يعزلها عن بقية العالم. وفي نهاية شهر آب أرسل الإمام «فيصل» ابنه «عبد الله» إلى «شقراء» وأمر الوحدات المقاتلة هناك بالانضمام إليه، وبعد مضي حوالي أسبوع من الزمن شن «عبد الله» غارة قوية على قرى وادي «الرمة» وعلى واحات النخيل التي يمتلكها أهالي «عنيزة»، واستولى على كل ممتلكاتهم وماشيتهم، وقتل حوالي عشرة رجال من الأهالي، وفي تلك الأثناء تدخلت قوة من «عنيزة» ودارت اشتباكات حامية أجبرت «عبد الله» على التراجع إلى «العوشزية» ومن هناك توجه إلى «الربيعي» التي اتخذ منها مقراً لقواته بشكل مؤقت. وفي تلك المنطقة انضم إليه «طلال بن رشيد» ومعه قواته من «حائل».

بدأ «عبد الله» في هذه المرحلة يناور لمهاجمة «عنيزة» بالذات، لكن المناوشات الملازمة لمثل هذه الحالة تعاظمت لدرجة أن «عبد الله السليم» قرر السعي من أجل السلام، فأرسل إلى الإمام فيصل يناشده الصفح والسماح، لكن الإمام «فيصلاً» أصر على أن يأتي «عبد الله السليم» شخصياً إلى الرياض فقدم عبد الله إلى الرياض، وسرعان ما صفح عن زلاته حتى إنه وافق أن يبقيه حاكماً على «عنيزة». وعلى أي حال أصدر الإمام «فيصل» أمراً إلى «عبد الله» بالعودة بقواته، ورافقه في طريق العودة إلى عنيزة «جلوي» في حين استمر معهم في المسير الشيخ «أبو بطين» إلى أن وصل إلى بلدته «شقراء». وحدث ذلك في شهر كانون الثاني عام ١٨٥٥م،

وبعدها نعمت مناطق «نجد» بهدوء لمدة حوالي سنتين دون أي أحداث. ويذكر المؤرخ «ابن عيسى» أنه لم يحدث شيء يذكر سوى أن الأمطار الموسمية استمرت في الهطول بغزارة، ويقول «ابن عيسى» أيضاً إن القوات التركية بقيادة «مصطفى باشا» سيطرت على المشكلات التي أثارتها قبيلة «المنتفق» في العراق والتي نجمت بسبب سلوك تخريبي قام به بعض أعضاء عائلة «سعدون» الذين حاولوا أن ينفردوا بزعامة القبيلة.

وفي شتاء عام ١٨٥٦م/ ١٨٥٧م أغار «عبد الله بن فيصل» على «عنزة وعتيبة» في مناطق مختلفة من أرجاء الصحراء، وبعد مرور عام قام فريق من جماعة «برية» من قبيلة «مطير» بمهاجمة تجمع لقبيلة «عنزة» عند موارد مياه «الداث» واستولت على قطعانهم وماشيتهم. وحدث في هذا الشتاء أيضاً أن توفي زعيم قبيلة «مطير» المدعو «الحميدي بن فيصل بن وطبان الدويش»، وفي نهاية آذار من عام ١٨٥٧م توفي شريف مكة «محمد بن عون» عن عمر يناهز السبعين عاماً، وخلفه في منصبه ابنه الأكبر «عبد الله». وحدث أيضاً أن اشتبكت قبيلتا «عتيبة وحرب» في مرتفعات «ساق» إلى الشمال من «القصيم»، ومنيت قبيلة عتيبة بالهزيمة، وفي وقت لاحق من ذلك العام تكبدت قبيلة «عتيبة» أيضاً خسائر جسيمة نتيجة الغارة التي شنها عليها «عبدالله بن فيصل» والتي وصل بها إلى منطقة «البقوم» غرباً ومنطقة «سبيع» القريبة من «تربة» و «الخرمة»، لكن الحدث المهم الذي وقع في ذلك العام كان انتشار وباء الطاعون الذي دخل مناطق «نجد» عن طريق البحرين والأحساء، وأودى بحياة الكثير من الناس.

لن ننسى أنه خلال التمرد الذي شهدته منطقة «القصيم» عام ١٨٤٧م فر

الرأسان المدبران لهذا التمرد والمدعوان «عبد العزيز المحمد» و «ناصر السحيمي» إلى «بريدة».

وسبق أن أشرنا إلى الأعمال التي قام بها «عبدالعزيز المحمد» وانتهينا إلى أن عينه الإمام «فيصل» من جديد في منصبه القديم، وكل ما نعلمه عن «السحيمي» منذ هروبه إلى «بريدة» هو أنه قتل خلال فصل شتاء عام ١٨٥٨م وسط ظروف تخدمنا في شرح الحزازات والعداءات بين الأسر الحاكمة في المناطق الرئيسة بوسط الجزيرة العربية في تلك الأيام.

هاجر جد «ناصر» مع ابنه «عبد الرحمن» من «أشيقر» في منطقة «الوشم» ليستقروا في «عنيزة» مع عائلة من «سبيع» تعرف باسم «آل بكر» والتي كانت لها مزاعم وذرائع للفوز بالسلطة على «عنيزة» التي كان يحكمها في تلك الفترة «آل سليم» أو «سليمان»[1]. كان «يحيى بن سليم أو سليمان» أميراً على المنطقة، حينما قدمت عائلة «البكر» الدعم لناصر السحيمي على أنه المرشح الأكثر ملاءمة لتسلم الحكم. ووصلت الأمور إلى مرحلة جدية للغاية فاضطر «يحيى» إلى مناقشة الوضع مع ذلك المطالب بالسلطة فعرض عليه بسخاء الخيار بين الفوز بالإمارة أو العيش طوعاً في المنفى، وتفاهما على أنه في حال وقع اختياره على الإمارة فإن «يحيى» يجب أن يرحل عن

(١) يقول ابن عيسى في عقد الدرر «سليم لقب على سليمان بن يحيى بن علي بن عبد الله بن زامل. فأولاد سليمان بن يحيى بن علي المذكور وأولاده هم المعروفون بآل سليم رؤساء بلد عنيزة». انظر إبراهيم بن صالح بن عيسى، عقد الدرر، فيما وقع في نجد من الحوادث في آخر القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر، منشورات مكتبة النهضة في الرياض، ط ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣، ص ١٥. (المراجعون).

المدينة . وقال «يحيى» بأن ذلك كان الإجراء المتبع في أيام الفوضى التي شاعت في الدرعية قبل انتفاضة الإمام «تركي» وإخضاع مناطق «نجد» لحكمه . وباعتبار أن «ناصر» كان يتمتع بخصال طيبة كريمة قدر تلك التضحية التي بدرت عن «يحيى» في سبيل السلام والمجتمع ، وسارع بالإعلان بأن «يحيى» سيكون - إن شاء الله - الحاكم الشرعي ، كما أعرب عن ولائه له ، وهكذا لم يطرأ تغيير على ترتيبات الحكم في «عنيزة» .

وعندما قتل «يحيى» في «بقعاء» عام ١٨٤١م خلفه في الحكم أخوه «عبدالله ابن سليم» ، وقتل هذا الأخير أيضاً في معركة دارت بينهم وبين «ابن رشيد» عام ١٨٤٥م وآل الحكم من بعده إلى أخيهم الثالث «إبراهيم بن سليم» ، لكن بعد مضي ثلاث سنوات على تسلمه الإمارة أقاله الإمام «فيصل» وعين مكانه «ناصر السحيمي» بناءً على اقتراح «إبراهيم بن سليم» نفسه .

أذكى هذا التطور نار الضغينة والعداء القديم بين الأسر ، وحاول كل من «عبد الله» (ابن يحيى) و «زامل» (ابن عبد الله) اغتيال «ناصر» في شوارع عنيزة ، كما حاولا احتلال القلعة التي كان «مطلق الضرير» (أو ناصر) مسيطراً عليها ، إلا أنهما فشلا في تلك المحاولة ، وقام «زامل» بضرب أحد أتباع عائلة «السليم» حتى الموت ، وعندما شفي «ناصر» من الإصابة التي تعرض لها بسبب محاولة الاغتيال تلك ، أقدم على ذبح «إبراهيم بن سليم» . ولا نعلم فيما إذا كان «ناصر» قد رجع إلى «عنيزة» خلال فترة حكم «جلوي» ، لكن من المؤكد أنه كان يعيش هناك كفرد عادي ومعه أخوه «مطلق» . وتصادف أن تواجدا هناك عندما كان «عبد الله بن يحيى» أميراً على عنيزة ، أي مع نهاية عام ١٨٥٨م . والجدير بالذكر أن «عبد الله بن يحيى» كان

قد اغتصب الإمارة إثر الانتفاضة التي قام بها ضد «جلوي» وأقر «فيصل» ذلك الوضع وثبته فيها. وفي أحد أيام ذلك الشتاء كان «ناصر» قد قام برحلة باتجاه «الهلالية» الواقعة في أعالي وادي «الرمة» ليتفقد أحوال خيول الاستيلاد والسباق التي كان يربيها في مزرعته هناك، فتعقبه «عبد الله» ومعه أبناء عمومته «زامل بن عبد الله وحمد بن إبراهيم» وهاجموه وقتلوه انتقاماً لاغتياله «إبراهيم بن سليم». وفرّ أخوه «إبرهيم» والمدعو «مطلق» إلى ديرته «أشيقر» وبقي فيها إلى أن مات عام ١٨٧١م دون أن يحاول الانتقام لمقتل أخيه، كما أن ذلك الحدث لم يشجع أيضاً الإمام «فيصلاً» على اتخاذ أي إجراء.

انزعج الإمام «فيصل» من تصرف عدوه القديم «عبد العزيز المحمد» أمير «بريدة» والذي كان قد أكرمه في أكثر من مناسبة، وفي شهر شباط من عام ١٨٥٩م استدعاه إلى الرياض، وبعد أن فاتحه بحيثيات سوء تصرفاته، أمر بإيقافه وإيقاف اثنين من أبنائه كانا قد رافقاه في القدوم إلى الرياض، ثم أمر الإمام «فيصل» أن يعين «عبد الله بن عدوان» أميراً على منطقة «بريدة» بدلاً من «عبد العزيز المحمد».

والجدير بالذكر أن «عبد الله بن عدوان» هو من أسرة العليان التي تربطها قرابة بعيدة مع أسرة «عبد العزيز المحمد»، وعلى أي حال قامت مجموعة من أسرة «عبد الله بن عدوان» في شهر أيلول من العام نفسه باغتياله، وخلف «عبد الله بن عدوان» في منصب الإمارة شخص يشك بأنه شريك في خطة الاغتيال تلك، إلا أن الإمام «فيصلاً» ألقى القبض عليه وزج به في زنزانة أحد القلاع. والغريب في الأمر أن «فيصلاً» عين أحد الذين شاركوا في عملية الاغتيال وهو «محمد بن غانم» ليحل محل المقتول «عبد الله بن

عدوان» كحاكم على «بريدة». وقد شجعت الشائعات التي دارت حول احتمال حدوث مشكلات في «بريدة» السجين «عبد العزيز المحمد» على أن يعرض خدماته على الإمام فيصل ليضع الأمور في «بريدة» في نصابها، وبطريقة ما قبل الإمام «فيصل» عرضه ذلك، وفي شهر كانون الأول عام ١٨٥٩م نصبه من جديد حاكماً على «بريدة» بدلاً من «ابن غانم».

وفي شهر آذار من العام نفسه كان الإمام «فيصل» يستجم في معسكره الربيعي المفضل بمنطقة «رماح»، وهناك أرسل ابنه «عبد الله» للإغارة على جماعة «برية» من قبيلة «مطير» لأنها كانت قد أساءت التصرف في بعض الأمور الطبيعية. وعليه داهمتهم قوات فيصل في منطقة «دخنة» جنوب القصيم وعاملتهم بخشونة، لكن بعد أن اعتذروا عن سوء تصرفهم وأعربوا عن ولائهم للإمام «فيصل» سمح لهم الأمير «عبد الله» بالرحيل عن تلك المنطقة. وفي الطريق وعندما اقتربوا من آبار «الشبيكية» داهمتهم جماعة من قبيلة «قحطان» وأنزلت بهم المزيد من الخسائر، كما قتلت عدداً من الشخصيات الرئيسة منهم. وارتكبت جماعة «قحطان» المنتصرة خطيئة عدم زيارة الأمير «عبد الله» الذي استاء من تصرفهم وأمر بسجن عدد كبير من رجالهم، وصادر كل خيولهم التي قدرت بحوالي ١٤٠ فرساً، وطلب منهم دفع غرامة نقدية وعينية. وقدم الإمام «فيصل» جزءاً من تلك الغرامة إلى جماعة «برية» فدية عن الرجال الذين سقطوا منها.

وفي شهر آذار من العام التالي (١٨٦٠م) جاء دور «العجمان» لتتلقى غضب الإمام «فيصل» بسبب إغارتهم على ماشيته وجماله في إحدى المراعي. وكان زعيم قبيلة «العجمان» أثناء تلك الإغارة شخصاً يدعى

«راكان بن حثلين» الذي خلف والده «فلاح» بعد أن قتل في «الهفوف» إثر الغارة الكبيرة التي شنها على أحد قوافل الحجاج. والجدير بالذكر أن الإمام «فيصل» ثبت «راكان» في الإمارة بعد أن قدم الضمانات والتعهدات المشددة بأن لا تقوم قبيلته بمثل تلك الانتهاكات، لكن إثر هذه الغارة التي تمت بموافقته الشخصية، فر «راكان» إلى «الصبيحية» الواقعة في الأراضي الكويتية، فما كان من الإمام «فيصل» إلا أن أعلن الجهاد وكلف «عبد الله» بقيادة القوات وأنزل العقوبة بهم.

تجمعت القوات السعودية عند آبار «الدجاني» ومن ثَمَّ سار بها «عبد الله» إلى «الوفراء» وهاجم جماعات «العجمان» ليلاً على حين غرة وألحق بهم هزيمة فادحة واستولى على معظم ممتلكاتهم، وطاردت قواته الفارين حتى «الصبيحية» التي داهمها هي أيضاً وفلول الفارين أمامه تتسارع للجوء إلى قوات «راكان» المعسكرة في منطقة «الجهراء» بالقرب من مدينة الكويت. ونظم «عبد الله» قواته من جديد بالقرب من «مَلَح» التي قرر زعماء «العجمان» فيها مهاجمته وبالأسلوب الصحراوي التقليدي، أي بمعنى أن تتقدم قواتهم سبعة جمال يحمل كل واحد منها فتاة من أجمل نساء القبيلة، وذلك تشجيعاً لرجال قبيلتها وحثهم على الدفاع عن شرف وعرض القبيلة. ودارت المعركة في الثالث من نيسان عام ١٨٦٠م وقاتل الفريقان بضراوة وشجاعة وعزيمة، لكن رجال قبيلة «العجمان» لم تكونوا نداً لقوات «عبدالله»، وعندما بدأت كفة الميزان تميل لصالح قوات «عبدالله» تفرق مقاتلو «العجمان» وفروا في حالة فوضى واضطراب ولجؤوا إلى الكويت للنجاة بأرواحهم.

توجه «عبد الله» بقواته إلى «الجهراء» ليحتل معسكر أعدائه وليوزع الغنائم بالطريقة المعتادة، وتذكر بعض الوثائق التاريخية أن جماعة «العجمان» خسروا سبعمائة قتيل. وسر أهل «العراق» بأخبار انتصارات «عبد الله» كما سر بها أهالي «الرياض»، ذلك لأن الغارات التي شنها رجال «العجمان» على «الزبير» وعلى المناطق المجاورة «للبصرة» والتي تكررت مؤخراً سببت القلق لدى المسؤولين العرب والأتراك. وأرسل والي «البصرة» كما أرسل أمير «الزبير»[1] وفودا إلى الأمير «عبد الله» وحملوهم الهدايا القيمة له مع التهاني القلبية بالإنجازات التي حققها.

استُقبل «عبد الله» استقبالاً شعبياً حافلاً بطولياً يليق به كالأبطال لدى عودته إلى الرياض، وكان قادة «العجمان» (الذين هزموا لكنهم لم يسحقوا تماماً) يتشاورون بخصوص ما يمكن أن يفعلوه مستقبلاً، وكانوا يدركون بأنه لا يمكنهم لوحدهم مواجهة حشود قوات «نجد»، لذلك قرروا أن يتحالفوا مع «المنتفق» لشن غزوات متواصلة على نطاق واسع، فقاموا خلال فصل خريف ذلك العام بشن غزوات وهجمات متكررة أنهكت مناطق «البصرة»، و«الزبير»، و«الكويت»، الأمر الذي اضطر معه «حبيب باشا» والي «البصرة» أن يفرض على أمير «الزبير» بأن يجمع أكبر قوة ممكنة للتصدي لأعمال جماعات «العجمان». وقام «حبيب باشا» بنفسه بتقديم الأموال الضرورية والأسلحة والذخائر والمواد التموينية اللازمة لتجنيد القوات واستمرارها في القتال على أرض المعركة.

(١) كان أمير الزبير في ذلك الوقت هو سليمان بن عبد الرزاق بن زهير. انظر: ابن عيسى، عقد الدرر، ص ٣٤. (المراجعون).

كانت أول خطوة قام بها قادة «العجمان» وحلفاؤهم هي غزو واحات نخيل شط العرب ومصادرة تمور ذلك الموسم للاستفادة منها في حملتهم المزمعة ضد «نجد». وتقدمت قوات «الزبير» تدعمها القوات التركية والقوات التي تم تنظيمها من قبائل «نجد» ضد قبائل «العجمان» وأجبروها على التراجع من واحات النخيل والهروب باتجاه الصحراء. وقد طاردتها القوات المهاجمة واشتبكت معها وتمكنت من هزيمتها وأجبرتها على التراجع مجدداً باتجاه «الجهراء» و«كويبدة» و «كابدة».

ثم بدأ «حبيب باشا» يسعى إلى الانتقام من «المنتفق» الذين كانت لديهم أملاك كثيرة في ولايات البصرة، وهددهم بمصادرة أراضيهم وواحات نخيلهم، فدب الذعر بسبب هذا التهديد في قلب زعيمهم «ناصر بن راشد بن ثامر بن سعدون» وأرسل إلى الوالي رسالة ألقى فيها باللوم على جماعات «العجمان» حيال النشاطات والأعمال التي حدثت مؤخراً، وبرر في تلك الرسالة تصرف رجال قبيلته بقوله إنه غرر بهم في علاقتهم مع رجال «العجمان» الذين أوهموهم بالحصول على مراع لمواشيهم في مناطق «نجد». وبعد تبادل لعدد من الرسائل وافق «الباشا» على أن لا ينفذ تهديده ضد «المنتفق»، ولذلك تضاءل عدد جماعات «المنتفق» التي تدعم بشكل تام وكامل رجال قبائل «العجمان» إلى أن انتصر على عدد بسيط من رجال القبيلة الذين كانوا يخيمون إلى جانب الفارين من قبائل «العجمان» في المناطق المجاورة «للجهراء».

وعندما سمع الإمام «فيصل» بنوايا المتمردين وحلفائهم في الهجوم على «الكويت» ومناطق «نجد» نفسها، أعلن الجهاد للمرة الثانية وحشد المقاتلين

من القرى والمناطق عند موارد مياه «الحفنة» في مجرى «العرمة». ووصل «فيصل» إلى هناك في أواخر شهر آذار عام ١٨٦١م ليتولى تلك القوات. وتحرك «عبد الله» بتلك القوة عن طريق «الوفراء» حيث انضمت إلى قواته جماعات مقاتلة من «مطير» و «بني هاجر»، وتابع المسير ووصل إلى «الجهراء» ومن هناك شن هجوماً عند الفجر على خصومه المتحالفين، ومرة أخرى منيت قوات «العجمان» بالهزيمة المحققة وطاردتهم قوات عبد الله حتى بلغوا مياه البحر وجرفهم المد العالي أثناء رجوعه إلى البحر. وقد دارت تلك المعركة في شهر رمضان، كما دارت معركة «الوفراء» التي حدثت قبل عام من تاريخ هذه المعركة، واستولت قوات الأمير «عبد الله» على الكثير من الغنائم، وسر أهالي «البصرة» و «الزبير» من الانتصار الذي حققته القوات السعودية وأعربوا عن تقديرهم لبسالة الأمير «عبد الله» بأن قدموا له الهدايا التي تليق بالأمراء.

وبالمناسبة نقول إن «محمد بن فيصل» الذي رافق أخاه «عبد الله» في تلك الحملة أبلى بلاءً حسناً في طريق العودة إلى الرياض، إذ تمكن من قتل «حمْدي بن سقيان» زعيم قبيلة «مطير» البارز، وذلك في الغارة التي شنها «عَبد اَلله» على جماعات من قبيلة «مطير» كانت تخيم في منطقة «المنسف» بالقرب من «الزلفي». وكان ذلك الحدث مجرد مقدمة أو تمهيد لغزو «القصيم» وفعلاً توجه «عبد الله» بقواته إلى هناك وأقام معسكره في منطقة «روضة الربيعي»، وأحدث تقدم هذه القوة الكبيرة الرعب في قلب «عبدالعزيز المحمد» حاكم «بريدة» فهرب مذعوراً إلى «عنيزة» مع أبنائه الثلاثة ومعه مجموعة من خدمه وعدد من أتباعه، لكنه لم يلق أي ترحيب

في «عنيزة»، الأمر الذي اضطره إلى مواصلة الهروب باتجاه «مكة». وعندما علم «عبد الله» بهروبه إلى «مكة» أرسل على الفور قوة بقيادة أخيه «محمد» لمطاردة «عبد العزيز المحمد»، وتمكنت تلك القوة من اللحاق به عند آبار «الشقيقة» فقامت بذبحه وذبح أبنائه الثلاثة وذبح أحد أبناء عمومته، إضافة إلى عبدين من عبيده الخاصين، وقد سمحوا للباقين ممن كانوا برفقته بالتوجه حسب وجهتهم بسلام. وتوجه في تلك الأثناء الأمير «عبد الله» إلى «بريدة» لينصب عليها حاكماً جديداً يدعى «عبد الرحمن بن إبراهيم» (من منطقة منفوحة). والجدير بالذكر أن الحاكم الجديد سبق أن كان قائد الحملة التي نظمت ضد القصيم بعد أن تم خلع «جلوي» عام ١٨٥٤م، كما أنه كان الشخص الذي أشرف على تدمير قصور «عبد العزيز» وأبنائه.

عندما سمح الإمام «فيصل» لعبد العزيز المحمد بأن يتولى منصب حاكم بريدة، كان «فيصل» قد احتجز واحداً من أبناء «عبد العزيز المحمد» كرهينة في الرياض لضمان حسن سلوكه. وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن ابن «عبدالعزيز المحمد» كان مرافقاً لـ«عبد الله» في حملته التي شنها ضد «العجمان»، وكان معه أيضاً في الربيعي حين قتل والده وإخوانه، وبقي مع تلك القوة في طريق عودتها إلى الرياض إلا أنه انسل وهرب قبل وصولها إلى الرياض، لكن القوات السعودية طاردته وأسرته في الصحراء وأرسلته إلى أحد السجون في القطيف، وبقي هناك إلى أن داهمته المنية، وانتهى بموته «فخذ» من أفخاذ أسرة معروفة وعريقة، إلا أن ذلك الفخذ كان يتميز بالغدر وعدم الولاء. والجدير بالذكر أن أمراء «آل سعود» عاملوا هذه الأسرة بكل تقدير واحترام، لكنها كثيراً ما خانت تلك المعاملة الحسنة.

قام «طلال بن رشيد» بزيارة «عبد الله» أثناء إقامته في «بريدة»، علماً بأنه لم يسبق له أن شارك في الحملة ضد قبائل «العجمان»، إلا أنه الآن قد أحضر معه عدداً من المقاتلين ربما تستدعي الحاجة في «القصيم» إليهم. ولا بد أن تكون الإهانة التي لحقت بعدوه القديم في «بريدة» قد أثلجت صدره، لكن ولاء منطقته للحكومة المركزية تقف على النقيض تماماً من جيشان الخيانة المتواترة التي تحدث في «القصيم». ولم ينقض عام ١٨٦١م حتى عاد ميدان التناحر في الجزيرة العربية إلى المخاض من جديد، فكانت وفاة أمير منطقة الأحساء «أحمد السديري» في بداية هذا العام خسارة فادحة للإمام «فيصل» الذي تقدم به العمر. وقد خلف «أحمد السديري» في منصبه ابنه «محمد بن أحمد» بشكل مؤقت، والذي كانت له خبرة سابقة بذلك الإقليم، إلا أن الأحداث في منطقة «القصيم» اقتضت تعيينه أميراً على «بريدة». وعند حوالي نهاية عام ١٨٦٣م، وافق «فيصل» بسبب إلحاح أهالي «الأحساء» على أن يرسل «محمد بن أحمد السديري» إلى «الأحساء» مرة أخرى ليكون أميراً فعلياً على ذلك الإقليم.

وفي شهر شباط من عام ١٨٦٢م تمرد أهالي «عنيزة» لسبب غير معروف، ومن المحتمل أن يعزى سبب ذلك التمرد إلى السياسة التي نهجها «عبدالرحمن بن إبراهيم» الذي كان قد عين حاكماً على بريدة. وكانت ردة فعل الإمام «فيصل» الفورية على ذلك التمرد أن أعطى البدو الحرية المطلقة في مهاجمة وسلب خيرات «عنيزة» والمناطق المجاورة لها. وفي تلك الأثناء نظم «فيصل» قوة يقودها «صالح بن شلهوب» باتجاه «بريدة» لمساعدة «عبدالرحمن بن إبراهيم» في العمليات التي كان يقوم بها ضد المتمردين في

المدن . وفي شهر نيسان تمكنت تلك القوة من الاستيلاء على أعداد كبيرة من الجمال والأغنام التي كانت ترعى في مراعي عنيزة والمناطق المجاورة لها ، إلا أن أهالي «عنيزة» أبدوا كل ما يمكنهم من مقاومة وتمكنوا في هجماتهم المتكررة من أن يوقفوا هجوم قوات «صالح بن شلهوب» . وفي تلك الفترة وبالتحديد في شهر أيار عاد «محمد بن غانم» من «المدينة» إلى «القصيم» .

والجدير بالذكر أن «محمد بن غانم» هذا هو أحد الذين شاركوا في اغتيال «عبد الله بن عدوان» وأيضاً اغتيال الذي خلفه في الحكم لفترة قصيرة على إمارة «بريدة» ، وعلى ما يبدو كان «محمد بن غانم» خلال فترة حكم «ابن عدوان» يعيش طوعاً في المنفى بعيداً عن «بريدة» . ولكونه من أبناء عائلة «العليان» التي تطمح إلى الحكم أو إمارة «بريدة» ، تحالف «محمد بن غانم» مع المتمردين من مدينة «عنيزة» وشجعهم على مهاجمة المدينة المنافسة لهم ، وبالفعل تمكنوا تحت جنح الظلام من التسلل إلى المدينة ، إلا أنهم فشلوا في تحقيق أي تقدم في هجومهم على القلعة التي كان «ابن إبراهيم» مستحكماً فيها تدعمه قوات «صالح بن شلهوب» . وفشلوا أيضاً في اقتحام معاقل عائلة «أبا الخيل» المحصنة . وعندما علم أهالي «بريدة» بأمر ما كان يجري هرعوا إلى الشوارع وصدوا الغزاة وأنزلوا بهم خسائر فادحة .

إثر ذلك الحدث أرسل الإمام «فيصل» تعزيزات قوية إلى «بريدة» للمساعدة في ممارسة الضغط على «عنيزة» علماً بأن أهالي «عنيزة» هم الذين بادروا بمهاجمة المدافعين وإلحاق الهزيمة بهم في ديرتهم القريبة من واحات نخيل «رواق» ، وكان من بين الذين أصيبوا بإصابات قاتلة «عبد الله بن

عبدالعزيز الدغيثر» القائد المكلف بقيادة التعزيزات التي وصلت مؤخراً بأمر من الإمام «فيصل».

إن فشل «ابن إبراهيم» المتكرر في ضبط المتمردين والسيطرة عليهم أثار حنق وغضب الإمام «فيصل» فاستدعاه ووبخه وأمر بمصادرة كل ممتلكاته في «بريدة»، وعلى إثر ذلك بقي «صالح بن شلهوب» قائداً على القوة العسكرية هناك.

وبعد استراحة الصيف التي استمرت فيها الأزمات دون قيام أي فريق بنشاطات مجدية، قرر الإمام «فيصل» اتخاذ إجراءات أكثر حدة وصرامة. ففي فصل الخريف حشد قواته من جديد وأرسلها إلى «القصيم» تحت قيادة ابنه «محمد»، وانضمت إلى تلك القوة جماعات ليست فقط من «سدير» و«الوشم»، بل من جماعات أخرى كبيرة من قوات «حائل» تحت قيادة «عبيد بن رشيد» الذي كان يرافقه ابن أخيه «محمد بن عبد الله» الشخص الذي كان قدره أن يصبح شخصية بارزة في الجزيرة العربية.

انطلقت هذه القوات الكبيرة التي كانت متجمعة في «بريدة» باتجاه مواقع العدو في «عنيزة»، إلا أنها اشتبكت مع قوة متقدمة من المتمردين في منطقة وادي «الرّمة» التي تشكل تقريباً نقطة الحدود بين أراضي «عنيزة» وأراضي «بريدة»، وهناك هُزم المتمردون ومنوا ببعض الخسائر، وعسكر «محمد» بقواته في وادي «الرّمة» وأخذ يشرف على قواته وهي تقطع أشجار النخيل في الواحات، لكن حدث في العاشر من كانون الأول أن قام الأهالي بهجوم مضاد على قوات «محمد» ودارت معركة شرسة تمكن الأهالي فيها من طرد قوات «محمد» من الواحات وأجبروها على العودة إلى خيامها بالقرب من

«الجسر»، لكن المطر الغزير الذي هطل في تلك الأثناء أصاب البارود الذي كان بحوزتهم بالرطوبة ومنعهم أيضاً من حمل الغنائم إلى بيوتهم. وهنا قامت قوات «محمد» بهجوم مضاد قوي وأوقعت خسائر جسيمة في الأرواح بين الأهالي تقدر بأربعمائة قتيل، وهرب من كتبت له الحياة. وتقوقع المتمردون في ديارهم وانضمت إلى قوات «محمد» تعزيزات زادت من قوته، وكانت تلك التعزيزات تحت إمرة «طلال بن رشيد» التي أتت من «حائل» بكامل عدتها. إضافة إلى ذلك أرسل «فيصل» في شهر كانون الثاني عام ١٨٦٣م ابنه «عبد الله» على رأس قوات من «الأحساء» وإلى جانبها قوات احتياطية من مناطق أخرى، وأرسل معه بعض الأسلحة والمدافع وأصبحت عنيزة الآن محاصرة كلياً، وتعرضت يوماً بعد يوم لقصف متواصل وعنيف إلى أن بدأ المحاصرون يستغيثون طلباً للسلام.

والحقيقة أن «فيصلاً» كان قد أعلم ابنه «عبد الله» بأن يقبل أي مبادرة استسلام يقوم بها المتمردون، شريطة أن يسلم الأمير «عبد الله بن يحيى» نفسه ويأتي طائعاً إلى الرياض ليعرب عن استسلامه وخضوعه شخصياً لـ «فيصل». وعلى هذا الأساس تمت ترتيبات السلام ووقف الأمير المتمرد بين يدي «فيصل» يطلب منه العفو والسماح، وفعلاً صفح عنه «فيصل» وسمح له بالعودة إلى ديرته وأسند إلى «محمد السديري» منصب أمير «بريدة» وعينه حاكماً عاماً على كل مناطق «القصيم». لكن كما أشرنا آنفاً، لم يمض وقت طويل حتى قام الإمام «فيصل» باستدعاء «محمد السديري» وعينه أميراً على الأحساء، وكلف «سليمان الرشيد» (وهو أحد أبناء عائلة العليان) بأن يكون أميراً على إمارة «بريدة»، لكن هذا التعيين أحدث المزيد

من المشكلات في البلدة، إذ سرعان ما قام «فيصل» بعزل «سليمان» من منصبه وعين مكانه «مهنا الصالح» وهو من أسرة «أبا الخيل».

وفي الجزء الأخير من عام ١٨٦٣م مات الخديوي «سعيد باشا» في مصر وخلفه في ذلك المنصب «إسماعيل باشا» وهو أيضاً أحد أحفاد «محمد علي باشا الكبير». وقد شهدت فترة حكم «إسماعيل باشا» أعمال شق قناة السويس، إضافة إلى متغيرات أخرى مهمة فتحت الأبواب أمام احتلال البلاد. وحدث أيضاً في الفترة نفسها أن مات أحد كبار مشايخ قبيلة عتيبة المدعو «تركي بن حميد». وفي خريف عام ١٨٦٤م كان «عبد الله» في طريقه إلى الحرب في إقليم «الأحساء» حيث أغار على العديد من القبائل، وبالصدفة داهم تجمعاً لرجال قبائل «العجمان» وألحق بهم خسائر فادحة. تلت فترة تمرد «عنيزة» فترة هدوء وسلام نسبي دامت اثني عشر شهراً، حدث خلالها أن توفي الشيخ المشهور «عبد الله أبا بطين» (المولود في روضة سدير في نوفمبر من عام ١٧٧٩م). وكان الشيخ «عبد الله» (عند وفاته في بلدة شقراء) يبلغ من العمر خمسة وثمانين عاماً، وأول منصب ديني تسلمه الشيخ «عبد الله» كان منصب قاضي الطائف الذي كان قد عينه فيه الإمام سعود عام ١٨٠٥م بعد فتحه لمناطق الحجاز. وإثر طرد «جلوي» من «عنيزة» تقاعد الشيخ «عبدالله» في عام ١٨٥٥م بعد أن مارس سنوات عديدة من العمل في ذلك المنصب، وعاش حياته الخاصة إلى أن وافته المنية.

إنه من اللافت للنظر أن المؤرخ «ابن عيسى» لم يذكر شيئاً عن الزيارة التي قام بها المقيم البريطاني في الخليج الكولونيل «لويس بيلي» إلى الرياض عام

١٨٦٥م. ففي الربيع من ذلك العام قدم بيلي إلى الرياض لإجراء محادثات مع الإمام «فيصل». وليس من الغريب أن يلزم «ابن عيسى» الصمت حيال الزيارة التي قام بها «وليام جيفورد بالجريف» قبل عامين من ذلك إلى العاصمة السعودية (الرياض)، لقد كان من المثير أن نعرف بعض الشيء عن ردود فعل السعوديين لمثل تلك اللقاءات فيما لو تحدث عنها ابن عيسى. ولعل أبرز الآثار التي أسفرت عن الزيارة التي قام بها «لويس بيلي» توقيع اتفاق عربي وإنجليزي لم يعثر لنصه المخطوط على أي أثر في أرشيف ديوان السلطة السعودية. وقد وقعت تلك الاتفاقية خلال السنة الأخيرة من فترة حكم الإمام «فيصل».

كما سجل بيلي من خلال رحلته رصداً دقيقاً للأحوال التي كانت سائدة في أواخر أيام «فيصل» حيث أوكل «فيصل» مهام الأمور الحيوية لعدة سنوات إلى ابنه «عبد الله»، وخاصة مهمة توجيه العمليات العسكرية التي كانت قائمة بشكل مستمر خلال فترة حكمه. وكان في بعض الأحيان يشرك ابنه الثاني «محمداً» في بعض المهام التي يوكلها إلى «عبد الله»، علماً بأنه كان يبقي السلطة العليا في يده ويبدو أنه لم يخطر على باله أبداً أن يفكر في التخلي عن العرش. وعلى أي حال يبدو بوضوح أن صحته كانت تتردى خلال السنوات الأخيرة من عمره، واستمر الأمر كذلك إلى أن داهمته المنية في الثاني من شهر كانون الأول عام ١٨٦٥م. حيث توفي الإمام «فيصل» بعد فترة حكم دامت ٣١ عاماً تخللتها فترة خمس سنوات كانت البلاد خلالها خالية من حكم أو سلطة فعلية حين كان الإمام «فيصل» خلالها أسيراً في مصر.

الفصل الثامن

عبدالله الثاني، وسعود الثالث

ابنا فيصل بن تركي

عبد الله الثاني وسعود الثالث
ابنا فيصل بن تركي

تلت وفاة الإمام «فيصل» التي حدثت في اليوم الثاني من شهر كانون (ديسمبر) الأول من عام ١٨٦٥م، حقبة شهدت خلافات كان آخرها قد أثر في أسرة آل سعود الحاكمة؛ وأدى إلى انهيارها مؤقتاً، وقد حدث ذلك خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر.

اتضح من خلال الزيارة التي قام بها الكولونيل «لويس بيلي» (البريطاني المقيم في الخليج) والتي حدثت في شهر آذار (مارس) من عام ١٨٦٥م، أن صحة الإمام فيصل كانت آخذة في التدهور، ولذلك قام الإمام «فيصل» في شهر حزيران من العام نفسه بتعيين ابنه «عبد الله» وريثاً للعرش بشكل رسمي، وبموجب تلك الصفة القانونية مارس «عبد الله» الحكم الفعلي للدولة السعودية. وقد سبق له أن كان الساعد الأيمن لوالده في الأمور الإدارية والعسكرية على حد سواء على مدى عشرين عاماً. ولم يحظ أخوه «سعود» بانتباه المحليين من مؤرخي تلك الفترة إلى أن مات والدهما وهي الفترة التي أبدى «سعود» فيها غيرته وعداءه لأخيه «عبد الله» ولمدة قصيرة.

لم يكن الذكاء المتبلد والفضائل المتمرسة عند الحاكم الجديد نداً لعدم الشعور بالمسؤولية وعدم المبالاة الصادرة عن أخيه المدعي الأحقية في تسلم الحكم، لقد جلب التوتر والنفور بينهما الدمار لبيت الأسرة السعودية وخلّفا أطلالاً ودماراً.

كان أول عمل قام به «عبد الله» بعد أن اعتلى العرش هو أنه بنى لنفسه

قصراً محصناً عرف باسم «المصمك»[1]، وجعله إلى الشمال الشرقي من قصر الإمام «تركي» القديم الذي كان الإمام «فيصل» قد استقر فيه ووسعه ليتوافق مع احتياجاته، ومنه كان يدير شؤون استعادة الأمجاد السعودية، إلى أن هدم في السنوات الأخيرة ليشاد في مكانه قصر يناسب متطلبات العصر الحديث.

سار «عبد الله» بقواته في فصل الربيع ليغير على قبيلة «الظفير» على الحدود العراقية، لكنه لم يحقق سوى مكاسب بسيطة تجلت في الاستيلاء على بعض الجمال والأغنام وتحول اهتمامه بعد ذلك إلى قضايا أكثر أهمية. وعلى ما يبدو كان «سعود» يعتقد بأنه من الحكمة أن ينأى بنفسه عن أخيه، فانشق بمعسكره وتوجه وجهة إقليم «عسير» في السلسلة الجبلية الواقعة غربي الجزيرة العربية ليحظى بمساعدة زعيم تلك المنطقة «محمد بن عائض» وليحقق بالتالي غايته في استلام سدة الحكم، وعلى الفور أرسل «عبد الله» مندوباً عنه إلى «أبها» ليحذر حاكمها من أي تعاطف أو تعاون مع أخيه، كما أمر ذلك المبعوث أن يطلب من «سعود» العودة إلى الرياض مع ضمان سلامته وعدم المساس بحياته، وقد رفض سعود تلك الدعوة، وعلاوة على ذلك لم يحظ بالدعم الذي نشده من زعيم تلك المنطقة، فما كان منه إلا أن لجأ إلى «المكرمي» زعيم قبائل «نجران»، ولقي هناك حظاً أفضل إذ كان لقرابة النسب وعلاقاته الزيجية وقرابته من ناحية الأم مع قبيلة «العجمان» في «الأحساء» دور في دعم مكانته. وسرعان ما وجد «سعود» نفسه قائداً لقوة مخيفة من البدو توجه بها باتجاه منطقة «السليل»، وعندما وصل إلى هناك وعده زعيم «السليل» بتقديم الدعم له.

---

(١) الراجح أن حصن المصمك بني في عهد محمد بن عبدالله بن رشيد سنة ١٣١٢هـ، وأن ذلك الحصن بني على أنقاض قصر الإمام عبدالله بن فيصل بن تركي. انظر: عبدالرحمن الروشيد، قصر الحكم في الرياض، (الرياض، ١٤١٢هـ)، ص٢٢٣. (المراجعون).

وهكذا أصبحت الساحة مهيأة لأول محاولة لاستعراض القوة بين الأخوين: فسارع «عبد الله» بأن أرسل أخاه الآخر «محمداً» باتجاه الجنوب على رأس قوة شكلها من رجال قبائل بلدان «نجد». وقد ظلت بقية مناطق «وادي الدواسر» على ولائها للإمام «عبد الله» لكن سعوداً بادر بالهجوم واشتبك الطرفان في منطقة يقال لها «المعتلا»، وتكبد الطرفان الكثير من الإصابات إلا أن النصر أخيراً كان من نصيب أنصار «عبد الله». وأصيب «سعود» في تلك المعركة بجراح بليغة لكنه تمكن من الهرب من أرض المعركة ولجأ إلى قبيلة «آل مرة» في الصحراء، ومكث هناك إلى أن شفي من جراحه ومن ثم توجه إلى «البريمي» في نهاية عام ١٨٦٦م واستقر أخيراً في «عُمان» كضيف على «تركي السديري» الحاكم السعودي على تلك المنطقة، ودارت الأيام ومكث هناك مدة أربع سنوات شعر في نهايتها بأنه أصبح بإمكانه أن يعكر صفو الأمن الذي كان ينعم به أخوه «عبد الله».

في عام ١٨٦٩م أقدم أحد الأشخاص على قتل الأمير «تركي» في «الشارقة» بينما كان يحاول حشد الدعم المحلي لسلطان «مسقط» المخلوع «سالم بن ثويني»، وفي تلك الأثناء أيضاً حدث أن طلب أهالي «البريمي» من «عزان بن قيس» الذي اغتصب الحكم في كل من «مسقط» و «عُمان» أن يأتي ويحتل واحتهم لأنهم لم يرتاحوا لحكم الأمير «تركي» المتشدد. وسواء أثر تغيير هذه الأحداث على خطط «سعود» أم لم يؤثر، فقد قام «سعود» في العام التالي بزيارة إلى البحرين وهناك تلقى الدعم من حكامها من «آل خليفة» للهجوم على «قطر»، لكن باء ذلك الهجوم بالفشل بسبب المقاومة العنيفة التي أبدتها الحامية التي وضعها «عبد الله» هناك.

وعاد «سعود» إلى البحرين وشمر عن ساعديه للقيام بمغامرة أكثر جدية خلال فصل الخريف المقبل. وفعلاً حدثت تلك المغامرة إثر مراسلات دارت بينه وبين قبيلة «العجمان» أنزل على إثرها قواته على شواطئ «العقير» وتقدم بها باتجاه واحة «الأحساء». وتمكنت قواته بسهولة من احتلال البلدان والواحات المجاورة وفرض حصاراً على الأحساء بعد أن ألحق هزيمة بقوات عبدالله. وعلى أي حال قاومت عاصمة الإقليم «الهفوف» ببسالة طيلة أيام الحصار التي استمرت أربعين يوماً، كان خلالها الإمام «عبد الله» موجوداً في الرياض يجمع قواته ليخفف الحصار عنها، وعليه أرسل أخاه «محمداً» على رأس هذه القوة إلا أن «سعوداً» قرر أن يجابهه في الصحراء واحتل موارد مياه «جودة» الحيوية قبل أن يصل «محمد» إليها.

وفي اليوم الأول من شهر كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٧٠م دارت معركة «جودة» بإصرار على الفوز من قبل الفريقين، وسقط الكثير من الجرحى والقتلى من الطرفين، إلا أن جماعة «سعود» حققت نصراً مبيناً على قوات «محمد»، ووقع «محمد» في تلك المعركة أسيراً وأرسل كسجين إلى «القطيف» واحتجز هناك، فاستسلمت «الأحساء» دون حدوث المزيد من الاضطرابات، وأصبح «سعود» سيد كل مناطق شرقي الجزيرة العربية ومسيطراً على كل طرق الإمدادات والتموين المؤدية إلي الرياض.

وخلال الفترة التي نصب فيها «سعود» نفسه حاكماً على «البريمي» حدثت تطورات مهمة في مناطق «نجد»، إذ قام «عبد الله» إثر معركة «المعتلا» بتوجيه نشاطاته ضد أولئك الذين ساندوا أخاه في التمرد، وأرسل عمه «عبدالله بن

تركي» على رأس قوة إلى «الأحساء» لتأديب قبيلة «العجمان»، كما أقال حاكمها الإقليمي «محمد السديري» (الأخ الأكبر لتركي في منطقة البريمي) من منصبه وعين مكانه «ناصر بن جبر الخالدي». وبعد ذلك بفترة وجيزة نظم حملة على نطاق واسع وأرسلها إلى «وادي الدواسر» لتأديب الذين خانوا العهد معه في تلك المنطقة. وتولى «عبد الله» بنفسه قيادة تلك الحملة وبقي حول تلك المنطقة مدة شهرين ليستعيد سلطته عليها. ولدى عودته إلى عاصمته استحوذت الأحداث التي وقعت في «جبل شمر» على جل اهتمامه، فبالرغم من أنها كانت -في حقيقة الأمر- مستقلة إلا أنها لم تقدم سوى الخدمات اللفظية الشفوية لعائلة «آل سعود» الحاكمة.

حدث في عام ١٨٦٦م أن انتحر الأمير «طلال بن عبد الله» الذي أصيب بمرض عقلي وخلفه في الحكم أخوه «متعب». وبعد مضي عامين قام أبناء الأمير طلال بقتل «متعب» في بلدة «حائل» واستلم بعد ذلك «بندر بن طلال» منصب أمير الإمارة فيها. وأثناء تلك التطورات كان أخ آخر لـ «طلال» يدعى «محمد بن عبد الله» موجوداً في الرياض يقوم بزيارة إلى الإمام «عبد الله» ورأى «محمد» هذا أنه من الحكمة أن يبقى في الرياض لفترة من الزمن ليراقب تطورات الوضع في «حائل». وقام في العام التالي «بندر» بنفسه بزيارة الرياض ليقدم تقديره واحترامه للإمام، وليقنع عمه بالعودة معه مع ضمان أن يعامل بكل احترام وكرم وحسن ضيافة. وكان بيت عائلة «آل رشيد» على أعتاب كارثة مروعة تتكشف عن بداية عهد حكم تصدره أحد أبرز أبنائها الذي هو من دون شك من أعظم رجال تاريخ الجزيرة العربية.

يتوقف المؤرخ المعني بسرد أحداث «نجد» عند عام ١٨٦٩م ويتحول للتحدث عن البدء في حفر قناة السويس التي انتهت حسب ما ورد في كتابه التاريخية عام ١٨٧٤م. ويعلق المؤرخ على هذه الحفريات بقوله: إن المتعهدين بهذه الأعمال هما الفرنسيون والبريطانيون وكان معهم الخديوي «إسماعيل باشا». وبعد أن انتهى المتعهدون من عمليات الحفر فرضوا رسوماً ثابتة على السفن التي تمر بالقناة يتم تحديدها تبعاً لحمولة كل سفينة. وفيما يتعلق بعملية وصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر، يمكن القول إن «هارون الرشيد» فكر في ذلك المشروع منذ زمن طويل وذلك لتسهيل العمليات التي كان يقوم بها ضد البيزنطيين، لكن حدث أن حذره «يحيى البرمكي» من أنه إذا فعل ذلك سيمنع الفرنجة المسلمين من الوصول إلى المسجد الحرام في مكة المكرمة، وعليه أحجب عن تلك الفكرة وألغي المشروع، إلا أن سياسات الدول العظمى في القرن العشرين كانت أكثر دهاءً ومكراً من ذلك.

كانت هزيمة «جودة» بمثابة كارثة لـ «عبد الله» وللدولة السعودية في نهاية المطاف، إذ تجلت ردة فعل «عبد الله» في أنه توقع أن يزحف «سعود» بقواته إلى الرياض، الأمر الذي حمله على الفرار بتهور وعجلة قاصداً اللجوء إلى «حائل» لحماية نفسه. وأثناء استراحته في الطريق إلى هناك أرسل «عبد الله» مندوباً إلى الباشا التركي في بغداد ومندوباً إلى الباشا في البصرة وطلب منهما تقديم العون الفوري ليتصدى إلى تمرد أخيه عليه. وحدث أن قدم زعيم قبيلة «قحطان» المدعو «محمد بن هادي بن قرملة» لزيارته في معسكر استراحته. وكان هذا الزعيم قبل أن يقدم إلى معسكر «عبد الله» قد زار

«سعوداً» وشعر بالإهانة بسب الاستقبال الفاتر الذي استقبله به . وقد عرض «محمد بن قرملة» خدماته على «عبد الله» فما كان من «عبد الله» إلا أن سارع بدافع اليأس بالترحيب بتلك الخدمات ، وعليه غير خطته وعاد إلى الرياض ووصلها في وقت مناسب مما جعل «سعوداً» يعدل عن نيته في التحرك بقواته باتجاهها .

لم يدم ذلك الهدوء فترة طويلة علاوة على أن المجاعة التي قدر لها أن تستمر مدة عامين زادت من الهلع والفوضى العامة في الجزيرة العربية ، وبالرغم من أن الناس الجياع بدأوا يأكلون لحم الحيوانات ، إلا أن ذلك لم يمنع موت العديد منهم بسبب الجوع . وفي شهر نيسان من عام ١٨٧١م تحرك «سعود» بقواته باتجاه الرياض ، إلا أن «عبد الله» هرب مجدداً جنوباً باتجاه مناطق قبيلة «قحطان» ، لكنه قبل هربه كان قد أرسل قوة كبيرة وزودها بالمؤن والسلاح والذخائر لتقابله في تلك المناطق إلا أن هذه المؤن والعتاد والأسلحة وقعت غنيمة في يد «سعود» الذي هاجمها في منطقة «الجزعة» التي تقع على مسافة ترى بالعين من الرياض ، وإثر ذلك الحدث دخل «سعود» الرياض دون مقاومة وعاثت قواته فيها سلباً ونهباً ، كما سلبت العديد من البلدان المجاورة لها ، وأصبح «سعود» سيد «نجد» سواء على نحو شرعي أو غير شرعي ، ولبى وجهاء البلدان والمدن والقبائل استدعاءه لهم وقدموا إليه وأقسموا يمين الولاء والطاعة له .

ومع حلول شهر حزيران (يونيو) أصبح «سعود» جاهزاً ليصول في أرض المعركة ويجول على رأس قوات كبيرة من البدو ورجال المدن ، فشرع في

مطاردة «عبد الله» وحلفائه من قبيلة «قحطان» الذين كانوا يخيمون بالقرب من موارد مياه «الأنجل» لكنهم رحلوا عنها باتجاه «البرة» بعد أن مر بها «سعود» في طريقه لاحتلال إقليم «الوشم» الذي كان مهماً بالنسبة إليه. وقد ترك «سعود» عمه «عبد الله بن تركي» ليتولى أمور «شقراء» ورجع ليواجه أعداءه في «البرة»، وهناك مني «عبد الله» بهزيمة منكرة وهرب هو وحلفاؤه إلى «الرويضة» في منطقة العرض، ومن هناك تمكن من الوصول إلى «الأحساء» لينضم إلى الحملة العسكرية التركية التي كانت تحت إمرة «فريق باشا». وكانت تلك الحملة العسكرية قد بدأت سيرها من البصرة في شهر حزيران، ووصلت إلى «الهفوف» عن طريق «القطيف»، وفي تلك الفترة كان «محمد بن فيصل» قد تحرر من السجن كما تم تسريح الحاكم الذي عينه «سعود»، وصرح الأتراك بأنهم قدموا إلى هناك بناءً على طلب «عبد الله» لمساعدته ضد التمرد الذي قام به أخوه «سعود»، لكنهم في حقيقة الأمر قدموا للبقاء في تلك المنطقة، كما أنهم أخذوا «عبد الله» أسيراً بالرغم من المعاملة الكريمة والتشريف الذي أبدوه له في البداية.

ومما لا ريب فيه أن أخبار وصولهم إلى «الأحساء» هي التي استدعت رجوع «سعود» إلى الرياض بعد معركة «البرة»، لكن الأهالي لم ينسوا قسوة معاملته لهم التي لم يكن ليمضي عليها سوى بضعة أشهر، كما أن وجود الأتراك على مسافة ليست ببعيدة منهم شجعهم على الانتفاضة ضده. وجاءت تلك الانتفاضة بعد أن أمر «سعود» بإعطاء الجنود الذين حاربوا معه في «البرة» استراحة لفترة قصيرة، استغل الأهالي ذلك الظرف وحاصروه في القلعة لعدة أيام واستمر الحصار إلى أن قبل إنذار الأهالي له بالرحيل عن

الرياض مع أتباعه، ووعدوه بأن يؤمنوا لهم سلامة الانسحاب. وفعلاً سار «سعود» مع جماعته باتجاه «الدلم» وهي عاصمة إقليم «الخرج»، وبقي عمه «عبد الله بن تركي» حاكماً على الرياض.

لم يكن «سعود» لينوي البقاء عاطلاً عن القتال، فتوجه إلى «الأحساء» ووصل إلى هناك مع جماعته في شهر أيلول (سبتمبر) من العام نفسه، وشرع في أعمال السلب والنهب إلى أن تنبه الأتراك إلى الأعمال التي كان يقوم بها وألحقوا به هزيمة نكراء في معركة «الخويرة» التي حضرها أخوه «عبدالله» بنفسه. وعلى أي حال فبعد مرور فترة قصيرة على هذه المعركة جاء دور «عبد الله» ليشك في نوايا حتى من كان يؤمن الحماية له، وبعد بضعة أيام من معركة «الخويرة» وصلت إلى «العقير» تعزيزات كبيرة للقوات التركية الموجودة في «الأحساء» وهناك أطلعه أحد الضباط عن وجود خطة تهدف لاعتقاله وترحيله ومن معه من أفراد عائلة «آل سعود» لتمهيد الطريق أمام عملية ضم «الأحساء» للإمبراطورية العثمانية. وكانت تلك الخطة منسجمة تماماً مع سياسة «مدحت باشا» المتطرفة والخاصة بالعالم العربي، لكن المحللين مخطئون في القول إن الرجل الكبير أتى بنفسه على رأس تلك التعزيزات ليتأكد من تنفيذ ما كان يصبو إليه. ومهما تكن حقيقة الأمر، فإن «عبد الله» أدرك الآن أنه كان في فخ يصعب الهرب منه، إلا أنه تمكن -ومعه أخوه وابنه- بفضل حيلة محبوكة تماماً من أن يروغ عن أنظار حراسه خلال نزهة كانوا يقومون بها في عصر أحد الأيام. وبعد عناء سفر وترحال في الليل والنهار وسلوك دروب لم يطرقها أحد من قبل، تمكنوا من الوصول

إلى الرياض ووجدوا أنفسهم وسط ترحاب وتهليل الأهالي بهم. وكان قد مضى على هروبه من العاصمة أقل من نصف عام إثر معركة «جودة»، وكانت رحى الأيام والظروف قد دارت على أخيه بسبب تعاقب الأحداث التي لم يستفد منها والتي كان قد أعد لها وخسر أكبر إقليم في مملكته.

أصبح «سعود» مجدداً في حكم الهارب لكنه كان نشطاً في تحريك النضال من أقاليم الجنوب، وهي المناطق التي كان بإمكانه أن يحظى فيها بشكل دائم ببعض الدعم والمساعدة. وكانت قد انضمت إلى «سعود» أعداد ضخمة من دواسر إقليم «الأفلاج»، فقام «عبد الله» - الذي كان يفكر في اتخاذ تدابير مسبقة لإحباط أي تقدم يقوم به «سعود» باتجاه الرياض - بإرسال أخيه «محمد» وعمه «عبد الله بن تركي» على رأس قوة كبيرة لاحتلال «الدلم».

وتحرك «سعود» بقواته باشمئزاز ليفرض حصاراً على المدينة التي سرعان ما تواطأ أهلها معه بسبب تعبهم من الفاقة والحرمان والعوز، وبفعل ذلك التواطؤ تمكن «سعود» من دخول المدينة لكن «محمداً» تمكن من الهرب ووقع «عبد الله بن تركي» في الأسر وأودع في أحد السراديب وفارق الحياة بعد بضعة أيام، ولم يكن هناك أي حب ضائع بينه وبين «سعود» لكن يبدو أنه كان المؤثر والفعال والوحيد النشط خلال سنوات الفوضى التي نجمت عن موت الإمام «فيصل». ووقعت الأحداث المذكورة في حوالي شهر كانون الثاني عام ١٨٧٣م، وبعد مضي حوالي شهرين التفت «سعود» إلى الرياض بعد أن نال من كل من «ضرما» و «حريملاء»، وهناك خرج «عبد الله» لملاقاته.

ودارت معركة بالقرب من «الجزعة» أسفرت عن تسوية المسألة فيما بينهما بشكل نهائي على النحو التالي: فر «عبد الله» مع حرسه الخاص باتجاه الكويت ليقضي فترة أخرى في المنفى بعيداً عن الرياض وسط جماعات قبيلة «قحطان» التي كانت تخيم بالقرب من آبار «الصبيحية»، وعلى إثر ذلك الحدث حكم «سعود» الرياض بدلاً منه وتدفق عليه وجهاء المناطق المجاورة ليقسموا له يمين الولاء والطاعة للمرة الثانية، لكن كل مناطق «نجد» كانت تعيش حالة من اليأس بسبب الفوضى التي عمت، وكان بإمكان أي عدو له أن يستغل تلك الظروف للنيل منه.

لا بد أن «سعوداً» أدرك أهمية التطورات الأخيرة التي حدثت في «حائل» إذ قام «محمد بن رشيد» عند حوالي نهاية عام ١٨٧٢م بالانتقام لمقتل أخيه، ووفاءً للوعد الذي قطعه «بندر بن طلال» على نفسه في الرياض قام بتعيين «محمد» في منصب مهم ومربح على الصعيد المالي وهو منصب المشرف على طريق الحجيج بين العراق ومكة عبر أراضي شبه الجزيرة العربية. وجاء هذا التعيين في الوقت الذي كان فيه «محمد» عائداً من المناطق الحدودية مع العراق بعد أن أوصل ما أوكل له إلى السلطات التركية (العثمانية) هناك. وفي تلك الأثناء كان «بندر» ومعه عدد من أمراء الأسرة الحاكمة قد حشدوا قواتهم وخرجوا للتصدي لقوات «محمد»، وقد ذعر «بندر» لدى رؤيته للأعداد الكبيرة من رجال قبائل «الظفير» التي كانت ترافق «محمداً»، وكان اللقاء بين العم وابن الأخ بارداً جداً لا يطمئن أي طرف منهما، وعليه قام «محمد» بالمبادرة وطوق «بندراً» بقواته وشهر سيفه وأرداه قتيلاً. وعلى أي

حال كانت أصول الفروسية في الجزيرة العربية مرعبة في ذلك الوقت، بمعنى أنه كان لـ «محمد» الحق -فعلاً- في الانتقام من الضحية «بندر»، لكن لم تتوقف المشكلة عند هذا القدر، فكان للمقتول «بندر» خمسة إخوة تعقبهم «محمد» جميعاً وقتلهم باستثناء «نايف» الذي كان في ذلك الوقت مجرد طفل، إضافة إلى ابن رضيع لـ «بندر» كانت قد أنجبته له زوجة «متعب» التي تزوجها «بندر» بعد أن قتل زوجها. وشاء الله أن يكون «عبدالعزيز» ابنها الرضيع من متعب، الذي خلف «محمداً» في الحكم لأنه تبناه لعدم قدرته على الإنجاب. تم إزالة الخزي الذي حل بأسرة «آل رشيد» بسبب الانتحار الذي اقترفه «طلال» بحق نفسه، حين قتل محمد كل أبنائه. وقد ذكر لـ «تشارلز داوتي» خلال الترحال الذي قام به بعد مضي بضع سنوات على هذا الحدث أنه بالرغم من أن «محمداً» كان قد اقترف جرائم لم يعرفها العالم من قبل، ، لكن لم يسبق لأمور الحكم أن حظيت بتعامل أفضل من تعامل «محمد».

جاء ذلك الحدث ليبرر بالتأكيد تقييمه المبكر لمؤهلاته الشخصية، كما كان أيضاً مقدراً لـ «حائل» أن تكون الولاية الأم والعاصمة الحضارية لإمبراطورية الجزيرة العربية ولكن لفترة محدودة من الزمن.

انطلق «سعود» في درب الغزو مرة أخرى عند أوائل شهر حزيران من عام ١٨٧٣م، واستهدف هذه المرة تجمعات قبيلة «عتيبة» في «عالية نجد»، فداهمهم في مخيماتهم عند آبار «طلال» وكانت الساعات الأولى من القتال

لصالحه لكن سرعان ما أعاد رجال القبائل تجمعهم وعززوا أنفسهم ودارت رحى المعارك ضد «سعود» ومني بخسائر كبيرة في الرجال والمعدات. وبعد أن عوض الخسائر التي فقدها من مخزونه طيلة موسم الخريف، عاد «سعود» عند انقضاء العام إلى مناطق قبيلة «عتيبة»، علماً بأن السجلات التاريخية لم تذكر شيئاً عن طبيعة النشاطات التي قام بها هناك. وفي تلك الأثناء كانت المشكلات في إقليم «الأحساء» تتقد تحت نار هادئة. فحدث أن وصل في شهر تشرين الأول عام ١٨٧٤م أصغر أبناء الإمام «فيصل» المدعو «عبد الرحمن» إلى «الأحساء» قادماً من بغداد. ومن المحتمل أيضاً أن يكون «عبد الرحمن بن فيصل» كان قد ذهب إلى الأتراك موفداً من قبل «عبدالله» بعد هروبه الثاني من الرياض باتجاه الكويت[١]، علماً بأن هذا التخمين غير مذكور في السجلات التاريخية. ومهما يكن الأمر فبدت عودته إلى «الأحساء» بمثابة مناسبة لانتفاضة عامة ضد الحامية التركية الموجودة في «الهفوف».

هجم الأهالي على قلعة «خزام» الجديدة وقتلوا الحراس على الأبواب واستولوا عليها، إلا أن القوة الرئيسة التركية في القلعة تراجعت إلى حصن «الكوت» واستحكمت فيه لتقاوم الحصار المتوقع، لكن سرعان ما وصلت قوة لنجدتهم مؤلفة من الجنود النظاميين ومن المقاتلين البدو، وكانت تلك القوة قد قدمت من العراق تحت إمرة زعيم المنتفق «ناصر السعدون» الذي تولى منصب حاكم الإقليم.

(١) ذهب الإمام عبدالرحمن إلى بغداد ممثلاً عن أخيه سعود بناء على طلب من الدولة العثمانية التي احتجزته لمدة ثم أطلقت سراحه. (المراجعون).

شن «عبد الرحمن» هجمات مضادة عليهم إلا أنهم تمكنوا من رده، ووقعت «الهفوف» فريسة أعمال سلب ونهب، ولم يعتد الأتراك على الشيعة بل اعتدوا على كل شخص شكّوا بأن له علاقة بالدعوة السلفية أو كان متعاطفاً معها، وذلك انتقاماً للجنود الأتراك الذين قتلوا في تلك الاشتباكات. وقد ذبح في تلك الأحداث أعداد كبيرة من الناس، وسلب من الغنائم ما لا يحصى، وتمكن وجهاء المنطقة من النجاة بحياتهم بأن هربوا إلى البحرين كما هرب «عبد الرحمن» وأتباعه إلى الرياض، وتصادف وصولهم مع عودة «سعود» من الغارة التي شنها على «حريملاء»، وشاركوا في الترحاب بعودته إلا أنه كان في تلك الفترة مريضاً. وبعد فترة وجيزة وبالتحديد في السادس والعشرين من شهر كانون الأول عام ١٨٧٥م وافته المنية.

وهكذا انتهت مرحلة مضطربة من تاريخ أسرة «آل سعود» الحاكمة، علماً بأن الله شاء لأبناء «سعود» ولأبناء أبنائه أن يحلوا في الجزيرة العربية بلاد الفتنة والعصيان لسنوات عديدة.

تسلم «عبد الرحمن» زمام إدارة الأمور في العاصمة الرياض نيابة عن «عبد الله» الذي كان لا يزال مع أخيه «محمد» في الكويت. وعلى أي حال كان «عبد الله» قد أرسل أخاه «محمداً» للسيطرة على منطقة «الوشم»، وبعد بضعة أيام من العمل على استقرار الأمور في «شقراء» انطلق باتجاه «ثرمدا»، وقد أحدث هذا التصرف بعض الامتعاض في العاصمة الرياض. فما كان من «عبد الرحمن» إلا أن حشد قوة كبيرة من الأهالي ومن البدو وسار بها وإلى جانبه أبناء «سعود» باتجاه «ثرمدا» وفرضوا عليها حصاراً دام بضعة

أيام. وهناك دارت اشتباكات سقط بسببها العديد من القتلى بين الطرفين، ولم يمض وقت طويل حتى توصلا إلى اتفاق على الهدنة وعادت العلاقات الودية بينهما، ووضع «محمد» نفسه تحت تصرف أخيه الأصغر وسلمه أسلحته وكل معدات التنقل. وبالطبع كان من المحتمل في هذه المرحلة أن يفكر «عبد الرحمن» في العمل لمصلحته الشخصية، ولذلك تحرك بقواته باتجاه «الدوادمي» وفي الطريق واجه زعماء قبيلة «عتيبة» الذين كانوا يعملون على تثبيت أقدامهم في تلك المنطقة، ودارت معركة بينهم مني «عبدالرحمن» فيها بالهزيمة والخسائر، وكذلك عندما عاد إلى الرياض سرعان ما دارت المشكلات بينه وبين أبناء «آل سعود».

وقد دفعه تصرف أبناء «سعود» إلى أن يلقي بنفسه بين يدي «عبد الله» وانضم إليه في موقعه بالمنطقة الشرقية من العربية السعودية تاركاً الرياض تحت رحمة أبناء أخيه. وبعد فترة قصيرة سار «عبد الله» ومعه «عبد الرحمن» على رأس قوة كبيرة من البدو باتجاه الرياض، فما كان من أبناء «سعود» الذين كانوا يطالبون بالحكم إلا أن فروا خلسة باتجاه «الدلم»، وهناك فتح «عبد الله» مجلسه للمرة الثالثة ليستقبل المهنئين من الأهالي وليستمع إلى قسم الولاء له. كان ذلك التغيير الثامن الذي شهدته العاصمة الرياض منذ وفاة الإمام «فيصل» التي حدثت قبل أحد عشر عاماً. إن تواريخ هذه التغيرات ليس محدداً بشكل دقيق في الوثائق التاريخية، لكنها تبدو على النحو التالي:

من ٠٢/ ١٢/ ١٨٦٥م إلى ٩ / ٠٤/ ١٨٧١م عبد الله الثاني ابن فيصل

من ١٠/ ٠٤/ ١٨٧١م إلى ١٥/ ٠٨/ ١٨٧٥م سعود الثالث ابن فيصل

من ١٥/ ٠٨/ ١٨٧١م	إلى ١٥/ ١٠/ ١٨٧١م	عبد الله بن تركي
من ١٥/ ١٠/ ١٨٧١م	إلى ١٥/ ٠١/ ١٨٧٣م	عبد الله الثاني ابن فيصل
من ١٥/ ٠١/ ١٨٧٣م	إلى ٢٦/ ٠١/ ١٨٧٥م	سعود الثالث ابن فيصل
من ٢٦/ ٠١/ ١٨٧٥م	إلى ٢٨/ ٠١/ ١٨٧٦م	عبد الرحمن بن فيصل
من ٢٨/ ٠١/ ١٨٧٦م	إلى ٣١/ ٠٣/ ١٨٧٦م	أبناء سعود الثالث ابن فيصل
من ٣١/ ٠٣/ ١٨٧٦م		عبد الله الثاني ابن فيصل

ومن بين الزوار الذين قدموا إلى «عبد الله» في هذه المناسبة كان شخصاً يدعى «إبراهيم بن عبد المحسن بن مدلج» من عشيرة «آل أبي عليان» من «بريدة». أتى «إبراهيم» لينشد الإنصاف في موضوع اغتصاب حكم «بريدة» من قبل «حسن بن مهنا الصالح أبا الخيل» زعيم العشيرة المنافسة لعشيرته. وتبدأ الأحداث حين قام مهنا الصالح أبا الخيل بإبعاد بعض العناصر من أسرة آل أبي عليان لاشتباهه بمحاولة الإطاحة بحكمه. وبعد مدة من النفي في عنيزة عادت هذه العناصر وأطاحت بالأمير مهنا وقتلته وهو في طريقه لصلاة الجمعة ولذلك قام ابنه حسن بمحاولات الثأر لأبيه واستعادة السلطة.

وجه حسن اهتمامه نحو القلعة التي تحصن بها الثائرون على والده، وحدث وأن قتل اثنان من قادة عشيرة «أبا الخيل» بعيارات نارية صوبت عليهما من القلعة خلال اغتصاب السلطة، لكن المهاجمين استمروا في التقدم ونجحوا في وضع لغم تحت برج القلعة الرئيس. وانفجر اللغم وأطاح بالبرج الذي دفن تحت أنقاضه العديد من الأشخاص، كما تمكن المهاجمون من أسر وقتل عدد آخر ممن كان في القلعة، وهكذا تمكن «حسن» من الانتقام لمقتل والده. ولم يكن «إبراهيم» موجوداً في «بريدة» في ذلك

الوقت، إلا أن «حسناً» تمكن من اعتقال والده واثنين من إخوانه وأودعهم السجن بتهمة أنهم كانوا على علاقة بالعناصر القادمة من عنيزة للإطاحة بالسلطة. وعلى أي حال تمكنوا في إحدى الليالي من الهرب إلا أن قوات «حسن» تعقبتهم وتمكنت من قتلهم باستثناء «مدلج» (الأخ الأصغر) الذي تمكن من الهرب وإطلاع الآخرين على ما حدث. وقد وافق «عبد الله» مبدئياً على اتخاذ إجراء بحق «حسن المهنا»، وعندما سنحت الفرصة سار بقوة ضخمة باتجاه «عنيزة»، لكن «حسن المهنا» ناشد (محمد بن رشيد) أن يقدم له وعلى الفور قدم «ابن رشيد» إلى «بريدة» وكان لقدومه السريع دور في تهدئة اندفاع «عبد الله» في تنفيذ وعده. وعلى أي حال قرر «عبد الله» أن يحل معسكره وأن يعود إلى الرياض دون أن يحقق أي غرض، علماً بأن ذلك الحدث كان على درجة من الأهمية، لأن حائل والرياض استعرضتا فيه قواتهما لأول مرة.

ومما لا شك فيه أن «حسن المهنا» كان الشخص الذي بدأ الهجوم على المناطق الخاضعة لسلطة «آل سعود»، لكنه مني بهزيمة كما مني بالخسائر المادية الكبيرة من جراء محاولته الاستيلاء على مدينة «شقراء» في ربيع عام ١٨٧٧م. وفي وقت لاحق من ذلك العام انضم «حسن المهنا» إلى قوات «محمد بن رشيد» في الغارة التي شنوها ضد قبيلة «عتيبة» التي كانت تخيم في الجوار، وتضررت محاصيل «أشيقر» بشكل ملحوظ علاوة على الضرر الذي أصابها بسبب الجراد، وقام الغزاة باعتبار أنهم كانوا يبتغون النهب فقط بسرقة ما تبقى من المحصول، كما سرقوا ثمار العديد من واحات النخيل. والآن جاء دور عشيرة «آل أبي عليان» (الذين أصيبوا بخيبة أمل بسبب عدم

تمكنهم من التقرب إلى السلطة في الرياض) ليجربوا حظهم مع «ابن رشيد»، فأرسلوا وفداً إليه على أن جماعة «حسن المهنا» نصبت كميناً لثلاثة من كبار ذلك الوفد أثناء عودتهم من الاجتماع بابن رشيد، وتمكنوا من قتلهم في منطقة «قرية» عندما كانوا في طريقهم إلى «عنيزة» عائدين من «حائل»، وكان من بين القتلى «إبراهيم بن عبد المحسن».

والحدث البارز الآخر من بين أحداث عام ١٨٧٧م كان موت شريف مكة «عبد الله بن محمد بن عون» إذ خلفه في السلطة هناك أخوه «حسين» بعد أن أقصى عن الحكم «علياً» و «محمداً» ولدَي المتوفى «عبد الله».

لم يشر المؤرخ «ابن عيسى» إلى الزيارة التي قام بها «تشارلز داوتي» إلى «حائل» وإلى «القصيم» بل خرج عن أسلوبه المألوف ليقول بأن الأعوام ما بين١٨٧٨م و ١٨٨١م لم تشهد أي أحداث تذكر، وفعلاً يمكن أن يكون هذا الشيء صحيحاً أو ينطبق على المناطق الخاضعة لحكم «عبد الله» والتي أخذت في التقلص والتناقص، خاصة أنه خسر إقليم «الأحساء» التي استولت عليه القوات التركية دون أمل في استرداده، كما أن إقليم «القصيم» بدأ يأخذ استقلاله بشكل حذر وسري بحماية علنية أو غير علنية قدمها له «محمد بن رشيد»، ناهيك عن وجود منطقة «الخرج» تحت سيطرة أبناء «سعود». . . فلم يبق بإمكان «عبد الله» أن يفعل الكثير ليستعيد هيبته وسمعة أسرة «آل سعود» الحاكمة اللتين بدأتا تأخذان في التناقص والضعف.

ازدادت في تلك الفترة رغبة «ابن رشيد» في مد نفوذه نحو الشمال باتجاه «الجوف» و «وادي السرحان»، وكان الأتراك يزحفون على هاتين المنطقتين ببطء وبدعم غير حقيقي من قبل قبيلة «الرولة» وزعيمها المدعو «سطام بن شعلان».

حدث في فترة سابقة أن أرسل الأتراك قوة صغيرة لتعسكر في منطقة «الجوف» بموجب اتفاق لحفظ ماء الوجه تم مع «محمد بن رشيد»، لكن تصرف القوات التركية أسفر عن انتفاضة الأهالي الذين أجبروهم على التراجع. وبشكل عام يمكن القول إن المنطقة هناك حافظت على ولائها لـ «حائل»، وبدأ «محمد» ببطء لكن بخطى ثابتة في مد نفوذه باتجاه «وادي السرحان» حتى وصل تقريباً إلى حدود «حوران».

كان «محمد» -بدون شك- الشخصية القوية في الجزيرة العربية في ذلك الوقت، فبعد أن تمكن من التصدي والحد من التوسع التركي في الشمال، نأى بنفسه عن أي مغريات للتدخل في نشاطاتهم التي كانوا يقومون بها في «الأحساء» وفي مناطق الحجاز، وكان الأهالي في كلتا هاتين المنطقتين مستائين تماماً من سيطرة الأتراك وإدارتهم للأمور، وكان الشريف «الحسين» ضحية هذا الاستياء إذ أقدم الأهالي في عام ١٨٨٠م على اغتياله بسبب إذعانه وقبوله لهذه الأحوال.

استغل الأتراك هذه الحادثة وأحدثوا تغييراً على صعيد السلالة الحاكمة لإمارة مكة، وعليه تم استدعاء «عبد المطلب بن غالب» وهو من سلالة «ضاوي بن زيد» وتم تعيينه أميراً على مكة. والجدير بالذكر أنه سبق له أن شغل ذلك المنصب من عام ١٨٥١م حتى عام ١٨٥٦م، ثم أقيل مجدداً من ذلك المنصب في عام ١٨٨٢م ليعين مكانه «عون الرفيق» وهو أحد إخوة المغدور «حسين» وهو من خلفه أيضاً بعد اغتياله. كما قدر له أن يشهد المرحلة الأولى من خط سكة الحديد في الحجاز التي انتهت في السنوات الأولى من القرن العشرين أي خلال فترة حكمه، لكنه لم يعش طويلاً

ليشهد انتهاء العمل في سكة حديد الحجاز، فداهمته المنية عام ١٩٠٥م وخلف وراءه سمعة حسنة دلت على فعاليته وجاذبية شخصيته.

أما بالنسبة لـ «عبد الله» فقد كان «محمد» مكتفياً بمراقبته عن قرب دون أن ينقض عليه. وفي الواقع كان كل ما توجب عليه أن يفعله هو أن يترك ضحيته تحفر قبرها بيدها، لكن ذلك لا يعني أن «محمداً» لم يطلق العنان لقدراته الفائقة في التعامل وإحداث المكائد السياسية، والدليل على أنه أعطى إمكاناته وقدراته الشخصية حق قدرتها ووزن الأمور، وكان بإمكانه أن يحقق التفاهم مع كافة الشخصيات القيادية في كل إقليم من أقاليم مملكة «عبد الله» التي كانت آخذة في التناقص والضعف. كذلك تمكن من التفهم لأي أزمة يمكن أن تتعاظم وتكبر في شؤونهم الداخلية.

وبالتأكيد كانت تلك حالته مع «المجمعة» ومع إقليم «سدير» اللذين خرجا من عام ١٨٨٢م وهما متأكدان من استقلاليتهما. وقد حشد «عبد الله» مقاتليه من عشائر «العارض» ومن «عتيبة» ليقودهم باتجاه «المجمعة»، فما كان من أهالي تلك المنطقة إلا أن ناشدوا «ابن رشيد» أن يقدم لهم العون الذي كان قد وعدهم به، وتجلت ردة فعل «محمد» بأن أرسل على الفور قوة كبيرة إلى «بريدة»، وهناك انضمت إلى تلك القوة جماعات مقاتلة بقيادة «حسن المهنا»، بمن معه من فرق «القصيم». وبعد أن تأكد من تعزيز القوة تقدم بها حتى وصل إلى «الزلفي». وكان مجرد خبر تقدم قوات «محمد» كافٍ لأن يجعل «عبد الله» يهرول عائداً إلى الرياض بعد الحصار غير المجدي الذي دام أربعين يوماً. وأمضى «محمد» بعد ذلك بضعة أيام في «المجمعة» وهناك نظم أمورها وعين عند عودته إلى ديرته أحد رجاله المدعو «سليمان

ابن سامي» (وهو من حائل) حاكماً عليها نيابة عنه. وتمكن «محمد» وبدون تفاخر وبقليل من الجهد أن يضيف إلى مملكته إقليماً آخر، فكان لا بد لهذا الحدث أن يكون بمثابة تحذير إلى «عبد الله» لكنه كما سنرى لاحقاً تجاهل هذه الحقيقة ليلقى في الوقت المناسب مصيراً مقدراً.

في تلك الأثناء قام أبناء «سعود» بالتصدي لتحديات تنامي سيطرة «ابن رشيد» على مناطق «نجد»: فقام «محمد» أكبر أبناء «سعود» بتنظيم قوة شَكَّل رجال قبائل «عتيبة» الجزء الأكبر من مقاتليها. وكانت هذه القوة معسكرة بالقرب من آبار «عروى» في منطقة «العرض» وهناك هاجمتها قوة مشتركة من رجال «حسن المهنا»، فانهزمت قوات «محمد بن سعود» وتراجع بها إلى «الخرج» ليعد العدة لحملة أخرى يشنها خلال فصل ربيع عام ١٨٨٣م، وكان هدفه من تلك الحملة غزو جماعات «مطير» في الصحراء الشرقية، وفعلاً تحرك باتجاهها واستولى على الكثير من الغنائم (من الجمال وأنواع أخرى من الماشية)، وقتل في تلك المعركة أحد إخوته المدعو «عبد الرحمن».

وشهد فصل شتاء عام ١٨٨٣م/ ١٨٨٤م أمطاراً غزيرة سالت على إثرها السيول في الأودية. وفي أوائل شهر كانون الثاني من العام نفسه ظهر «عبدالله» على ساحة المعركة من جديد ولكن بدون تخطيط مركز، ليجبر أهالي «المجمعة» على الخضوع له. وأرسل منادين من «شقراء» قاعدته العسكرية المتقدمة، واستدعى العشائر لحشد القوات في سهل «الحمادة» الواقع في مسار المراعي الخصبة باتجاه «أم العصافير». وهَبَّ التحالف القائم بين «حائل» و«بريدة» للعمل والدفاع عن «المجمعة» التابعة لحمايتهما،

ودارت المعركة المحتومة التي انتهت بهزيمة تامة وبخيبة أمل «عبد الله» ومن تحالف معه، وبعد انتهاء المعركة مكث «ابن رشيد» في «الحمادة» ليرتب الأمور الإدارية في المناطق الواقعة على كلا الجانبين، واستجاب كبار أهالي القرى والبلدان في مناطق «الوشم» و «سدير» لندائه ومثلوا أمامه، وتقول المصادر التاريخية إن «ابن رشيد» عين حاكماً على كل قرية من قرى هذين الإقليمين. وقد كان ذلك أول تصادم مسلح حقيقي بين الفئة الحاكمة وبين الرعية التابعة لها، ودلت تصرفات «محمد» التي ظهرت بعد تلك المعركة على أنه أصبح الآن يدرس إمكانية عكس الأدوار. وهنا يشير مؤرخو «نجد» أن «ابن رشيد» بدأ في هذه المرحلة يتوق للسيطرة على مملكة «نجد» نظراً لأن هناك جماعات لها مصلحة في هذا الأمر وستقدم له الدعم في مراحل تحقيق ذلك الهدف.

ومع نهاية شهر آب (أغسطس) من عام ١٨٨٤م بلغ الأمر بـ«عبد الله» إلى حد أنه أدرك ما كان خلف ظهره، فأرسل أخاه «محمداً» إلى «حائل» وحمله رسالة ودية إلى «ابن رشيد». واستقبله «ابن رشيد» وأكرمه وعاد «محمد» إلى الرياض في الحادي والعشرين من شهر تشرين الأول محملاً بالهدايا الثمينة، وبدون أي تحفظ تخلى «محمد» عن الإقليمين ليعودا تحت حكم «عبد الله».

والجدير بالذكر أن «محمداً» كان في وقت مبكر من ذلك العام قد ضم هذين الإقليمين إلى مملكته، وكان على يقين بأن الهدايا التي أرسلها إلى «عبد الله» كانت ستعود عليه في الوقت المناسب بفائدة مضاعفة. وكانت الاضطرابات والفتن ما زالت على أشدها في كل المناطق التابعة لحكم «عبد الله». وبالمناسبة نقول إن وثائق المؤرخ «ابن عيسى» تتوقف عن سرد الأحداث عند هذه النقطة.

ومن هذه النقطة فصاعداً علينا أن نتبع سبيلاً آخر عبر السجل التاريخي للأحداث في الجزيرة العربية، علماً بأن لدينا ما يكفي للشك بأن السجل التاريخي المكتوب بقلم المؤرخ «عبد الرحمن بن ناصر» باسم «عنوان السعد والمجد» يعوض لنا عن الجزء المفقود من الوصف التاريخي الذي بدأه، إذ إنه تعرض للكثير من الشطب والإلغاء والتصحيح الهامشي. ويمكن أن يقال بأن الأسلوب هو واحد في حين أن الأجزاء التي ألغيت والتي يمكن فهمها بسهولة من المخطوطات اليدوية يبدو عليها أنها أصدق أن تكون مطبوعة من أن يكون المحرر قد قام بجهد كبير لتغيير صيغة صورة الواقع، وعلى أي حال فإن لدينا النسختين ويمكننا أن نختار فيما بينهما.

ومهما يكن الأمر، فإن المؤلف الجديد (بعد أن نسخ كلمة بكلمة سجل الأحداث التي كتبها سلفه على مدى عدة سنوات سبقت المرحلة التي توصلنا إليها) يسرد الأحداث بدءاً من التاريخ الهجري ١٣٠٣ والمصادف للعاشر من تشرين الأول عام ١٨٨٥م، وهي السنة التي تم فيها توقيف وسجن عاثر الحظ الإمام «عبد الله» في الرياض على أيدي أبناء أخيه «سعود»، وبعد ذلك الحدث استأثروا بالحكم. وها هي الفرصة تلوح أمام «محمد بن رشيد» ليظهر صداقته لـ «عبد الله» وفي الوقت نفسه يبسط يده على ما تبقى من المملكة السعودية، ولذلك توجه إلى الرياض على رأس قوة كبيرة تراجع أمامها أبناء «سعود» وولوا وجهتهم نحو «الخرج». وتمكن «محمد» من إطلاق سراح «عبد الله» من السجن وأخذه معه إلى «حائل» حرصاً على سلامته وعين «سالم السبهان» حاكماً على الرياض وهو واحد من أكثر الشخصيات التي يثق بها، ومعروف عنه شدته وصرامته وكفاءته.

وقد اختلفت الروايات فيما إذا كان «ابن رشيد» أخذ معه في تلك الفترة إلى «حائل» «عبد الرحمن»، لكن يبدو أنه من المرجح أن «عبد الرحمن» لم يذهب إلى «حائل» لزيارة أخيه إلا بعد مضي عامين تقريباً من ذلك الحدث. وكما لا تتوافر وثائق تاريخية تحدد مكان وجود «محمد بن فيصل» في تلك الفترة. ولم تعاود الوثائق التاريخية ذكر أخباره إلا في الجزء الأخير من عام ١٨٩٠م حيث ورد أنه كان في ذلك التاريخ موجوداً في الرياض، ومن المرجح أن «محمد بن فيصل» كان طيلة كل تلك الفترة منذ رحيل «عبد الله» إلى «حائل» موجوداً في الرياض.

وخلال خريف عام ١٨٨٦م (الذي جاء مصادفة إثر فصل الربيع الذي شهد الكثير من الأمطار)، حدثت مشكلات في إقليم «الخرج» بين أبناء «سعود» الذين لم يكفوا عن إثارة الشغب والاضطرابات بين أهالي تلك المنطقة الذين ناشدوا «سالم السبهان» التدخل من أجل معالجة الوضع. لذلك أرسل «سالم» قوة مسلحة تحت إمرة رجل يدعى «شنيف» لمعالجة الوضع هناك، وقتل في ذلك الاشتباك ثلاثة من أبناء «سعود» وهم: محمد، وسعد، وعبد الله، وكان الابن الآخر «عبد الرحمن» قد سقط في معركة «أم العصافير» لكن الابن المتبقي منهم ويدعى «عبد العزيز» كان في زيارة إلى «حائل» أثناء حدوث ذلك الاشتباك، وهناك ألقى «ابن رشيد» القبض عليه وأودعه السجن بشكل مؤقت.

ومرة ثانية هطلت أمطار غزيرة وكان «ابن رشيد» في تلك الأثناء يغير على قبيلة «عتيبة» التي وجدها متجمعة بكامل قوتها في منطقة «عروى»

وهي مسرح الأحداث التي وقعت في عام ١٨٨٧م. ودار اشتباك بينهم، ويبدو أن البدو الذين كانوا تحت قيادة رجل يدعى «محمد بن هندي» تمكنوا في البداية من تحقيق النصر، إلا أن وصول مجموعة قوية من «القصيم» بقيادة «حسن المهنا» مكنت «ابن رشيد» من إلحاق الهزيمة برجال القبائل والاستيلاء على ماشيتهم ومعدات معسكراتهم.

شهد خريف العام التالي ١٨٨٧م أيضاً أمطاراً غزيرة سالت على إثرها الأودية، وخلال هذا الموسم وجه «ابن رشيد» غزواته باتجاه «العجمان» ورافقه في تلك الغزوات مرة ثانية أمير «بريدة»، وقصة أحداث العام التالي كانت مشابهة لأحداث هذا العام، وكانت قبيلة «عتيبة» مرة ثانية ضحية تلك الغزوات.

واستجابة للشكاوى التي أرسلها أهالي الرياض وأعربوا فيها عن استيائهم وتذمرهم من «سالم السبهان» المولع بالقتال، قام «ابن رشيد» بعزله من منصبه وعين عام ١٨٨٧م بدلاً منه حاكماً على الرياض يدعى «فهد بن رخيص» وخلال شتاء عام ١٨٨٩م/ ١٨٩٠م قام «ابن رشيد» بغزوات اتسمت بطموح أكبر ووصلت حتى مناطق «بلي» و «جهينة» في الحجاز، وعند عودته من هذه الغزوات وجد أن ضيفه «عبد الله بن فيصل» كان يعاني من مرض شديد، وعلى الفور نزل عند رغبته وسمح له بالعودة إلى الرياض مع أخيه «عبد الرحمن». ولم يكتف «ابن رشيد» بأن سمح له بالعودة، بل أعاد إليه كامل حقوقه في السيادة على ديرته، لكن كرم «محمد بن رشيد» هذا لم يفد الإمام كثيراً لأنه سرعان ما داهمته المنية بعد وصوله إلى الرياض ومات بالتحديد في الرابع والعشرين من شهر تشرين الثاني عام ١٨٨٩م.

وقد مر على توليه السلطة من والده عشرون عاماً حكم خلالها مملكة امتدت من «جبل شمر» إلى مرتفعات «عُمان» ومن شواطئ الخليج إلى حدود الحجاز واليمن.

كان لعدم كفاءته دور في تبدد هذا الإرث الملكي الكبير، كما أنه لم يتردد في جلب المساعدات الخارجية لدعم عرشه المتداعي، وكانت النتيجة أن الأجانب ضموا إلى ملكهم كل المناطق التي أتوا لنجدتها وإنقاذها. وعندما ذهب إلى منفاه في «حائل» ليعيش بقية عمره لم يكن يملك سوى ديرته «العارض» وسيادة اسمية على «الوشم» و «سدير». وكان «عبد الله» قد قضى أقل من نصف عمره بقليل محارباً في أكثر من موقع ومع أكثر من جبهة، في تلك الأثناء تولى آخرون مكانه في الحكم وسط مملكة متداعية. وكونه -على كل المقاييس- رجل جاذبية وتهذيب وكياسة، كان ينقصه الحكمة في التعامل مع الخصوم. وتجدر الإشارة هنا إلى أنه قد بلغ سن السبعين عندما وافته المنية.

كان على أخيه الأصغر «عبد الرحمن» الذي بلغ من العمر في تلك الفترة سن الأربعين أن يتقدم موكب جنازة مملكة والده، فلم يتردد إثر وفاة أخيه «عبد الله» من أن يخلفه في السلطة رغم وجود أخيه الأكبر «محمد» الذي أدى دوراً نشطاً في الحملات العسكرية التي تمت في زمانه. ولكن -على ما يبدو- لم تكن لديه طموحات سياسية. وقام «عبد الرحمن» على الفور بإبلاغ «ابن رشيد» بخبر وفاة أخيه وبتسلمه السلطة من بعده، وفي الوقت نفسه طلب منه أن يسحب ممثل «آل رشيد» من الرياض المدعو «فهد بن رخيص». وقد وافق «محمد بن رشيد» على الاقتراح الذي لم يدل على

وجوب استبدال ذلك الشخص بشخص آخر، لكنه قرر أن يعين «سالم السبهان» ممثلاً عنه في الرياض، ويقال بأنه طلب منه أن يراقب عن كثب تحركات الحاكم الجديد في الرياض. ولم تذكر الوثائق التاريخية تاريخ وصول «سالم» إلى الرياض، لكن تذكر بعض الوثائق بأن «سالماً» طلب في التاسع والعشرين من شهر تموز عام ١٨٨٩م إذناً بأن يمثل أمام «عبدالرحمن» وأعضاء آخرين من العائلة الحاكمة لينقل إليهم تحيات سيده «ابن رشيد» بمناسبة عيد الأضحى المبارك، وكانت تلك مجرد شكليات تم ترتيبها ببساطة إلا أن «عبد الرحمن» كانت لديه أسباب في استشعار خيانة ما، ولذلك فضل أن يبادر بالدفاع فما كان منه إلا أن هاجم «سالماً» والرجال الذين كانوا معه، وأمر بذبح بعضهم لدى دخولهم صالة الاستقبال، لكن «سالماً» تمكن من الهرب.

إن ما حدث سيسفر الآن عن متاعب جسيمة. ولم يكن أمام «عبدالرحمن» سوى السلاح والقيام بالتحصينات، ويبدو أن الحظ خدمه إذ حدثت تطورات غير متوقعة في «القصيم»، ولسبب ما لم تعرف تفاصيله (علماً أنه من المحتمل أن تفسر تلك التطورات استناداً إلى التنافس الدائم بين «بريدة» و «عنيزة») قام «ابن رشيد» بإلحاق الإهانة بأهالي «القصيم». ومن خلال بحثهم عن حلفاء يقفون إلى جانبهم حيال المشكلات القادمة إليهم، كتبوا رسائل إلى «عبدالرحمن» وعدوه فيها بولائهم له مقابل أن يقدم لهم الدعم.

أبدى «ابن رشيد» ردة فعل فورية لذلك التحالف الجديد، فسار بقواته باتجاه الرياض وأرسل مندوبين عنه إلى «عنيزة» ليؤكدوا على مشاعر الود التي يكنها لهم ولقادتهم، وعندما وصل بقواته إلى غايته المنشودة وجد أن

الرياض محصنة بشكل قوي ولم يكن من السهل النيل من المدافعين عنها. وعليه قرر أن يحاصرها، وأثناء الحصار شن غارة على طرق الإمداد والتموين وعلى المعسكرات المنتشرة حولها، كما أقدم على تدمير واحات النخيل، ويقال بأنه قطع ما لا يقل عن ثمانية آلاف نخلة.

وبعد مضي أربعين يوماً على هذه الأعمال التي لم تسفر عن نتيجة مجدية، تم الاقتراح على أن يجري الطرفان مفاوضات للتوصل إلى تسوية سلمية لكل الخلافات بينهما، ووافق «عبد الرحمن» على هذا الاقتراح وأرسل وفداً لذلك الغرض برئاسة أخيه «محمد» ومن بين الآخرين الذين رافقوه كبير المشايخ «عبد الله بن عبد اللطيف». وكان من بين الوفد الأمير «عبد العزيز بن عبدالرحمن» الذي لم يبلغ من العمر في تلك الفترة سوى «عشر سنوات»[1] والذي ظهر على مسرح الأحداث في تلك الفترة لأول مرة وكان قدره أن يسيطر عندما اشتد عوده على مسرح الأحداث كلياً. وتمكن الجميع بسهولة وبسرعة من تسوية المشكلات المطروحة شريطة أن يرفع «ابن رشيد» الحصار عن الرياض وأن يذهب إلى ديرته بسلام، وأن يبقى «عبد الرحمن» على عرش أجداده. ومن المحتمل أن يكون أي فريق منهم قد نوى فعلاً أن تكون هذه الترتيبات نهائية ودائمة، فقد بلغت خسارة «عبد الرحمن» أكثر بكثير مما يمكنه أن يسترده في حين لم يكن أمام الطرف الآخر سوى الشيء القليل الذي

---

(١) القول بأن عمر الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن -الملك فيما بعد- كان عشر سنوات مبني على أن تاريخ ولادته كان في عام ١٢٩٧هـ. والأصح: أن مولد الملك عبد العزيز كان عام ١٢٩٣هـ وهذا يتفق مع قيام الأمير عبد العزيز بالمشاركة في هذه المهمة (مهمة المفاوضة) التي كلفه بها والده ضمن مفاوضاته مع ابن رشيد. للمزيد عن تاريخ مولد الملك عبد العزيز انظر خير الدين الزركلي، شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز، ج١، ص ٥٧، ٥٨. (المراجعون).

يجب أن يفوز به ليحقق حلمه في حكم إمبراطورية «نجد»؛ والواقع أن «عبدالرحمن» كان الطرف الذي بادر في كسر هذه الهدنة.

أصيب «ابن رشيد» بخيبة أمل من تصرف «عبد الرحمن» في الرياض، وقرر أن يصفي حساباته مع أهالي القصيم لأن «حسن المهنا» الذي سقط من اعتبار «ابن رشيد» ولم يعد يلقى حظوة عنده تحالف مع «زامل السليم» زعيم «عنيزة» وقررا أن يطرحا تسلط «حائل» عن كاهلهما. لذلك سار «ابن رشيد» بقوة حشدها من رجال قبائل «شمر، والظفير، وحرب» وكذلك من رجال «المنتفق» في «العراق»، وتقدم باتجاه «المليداء» التي تقع على حافة رمال الدهناء الشاسعة في منتصف «القصيم». وفي تلك الأثناء أخذ المتحالفون مواقعهم عند واحات نخيل «القرعاء» ودارت بعض المناوشات بين الطرفين بضعة أيام تكبدت قوات «ابن رشيد» بسببها خسائر جسيمة بلغت أكثر من خسائر الطرف الآخر. وبعدها تحرك «ابن رشيد» غرباً باتجاه «الضلفعة» ليغري قوات «القصيم» بالتقدم إلى أراضٍ مكشوفة، وفعلاً تمكن فرسانه المتفوقون عدداً ومهارة من السيطرة على عدوهم الذي أصبح في تلك الأرض المكشوفة تحت رحمتهم.

نجم عن ذلك التخطيط معركة ضارية قتل فيها «زامل السليم»، كما قتل عشرة من قادة قوة بريدة المحاربة، وبلغ عدد الإصابات التي وقعت بين صفوف المتحالفين ٦٠٠ إصابة، وكان النصر الذي حققه «ابن رشيد» نصراً حاسماً بكل الاعتبارات، وأصبحت «القصيم» تحت رحمته وأمام معسكره في بلدة «الرفيعة». وهناك استسلم إليه أهالي المدن والقرى. وقد أصيب «حسن المهنا» بجرح في المعركة واستسلم وتم إرساله أسيراً إلى «حائل» مع

عدد من أعضاء أسرته وبقي هناك مدة خمس سنوات وافته المنية بعدها. وعين «ابن رشيد» المدعو «سالم السبهان» حاكماً على بريدة بدلاً من «المهنا»، وعين «عبد الله بن يحيى» حاكماً على عنيزة وهو من أعضاء أسرة «السليم»، وجاء تعيينه مكان «زامل» الذي قتل في المعارك. والجدير بالذكر أن معركة «المليداء» كانت قد دارت في اليوم الحادي والعشرين من شهر كانون الثاني من عام ١٨٩١م، وأصبح «ابن رشيد» على إثرها متحكماً في كل مناطق «نجد» دون منازع، علماً بأنه فضل الذهاب إلى ديرته ليحصل على قسط من الراحة قبل أن يتعامل مع مشكلة الرياض البسيطة.

كشف «عبد الرحمن» عن موقفه بسبب التحضيرات التي أعدها لمساعدة حلفائه في «القصيم». وعلى أي حال جاءت مشاركته في المعركة الحيوية متأخرة جداً، إذ علم بالأخبار النهائية لها عندما كان قد وصل إلى منطقة «الجريفة» في سهل «الحمادة»، وإدراكاً منه بأن المعركة انتهت، قفل راجعاً إلى الرياض وأعد ترتيبات سريعة للرحيل عن العاصمة مع أسرته يصاحبهم كل أعضاء عائلته «آل سعود» باستثناء أخيه «محمد» الذي بقي في الرياض ينتظر قدوم «ابن رشيد».

وأثناء هذه الأحداث بقي «عبد الرحمن» يهيم في المنطقة الشرقية بانتظار وصول جواب من الشيخ «عيسى» أمير البحرين بخصوص طلبه في أن يحصل أطفاله ونساؤه على اللجوء السياسي في البحرين لحين أن تجلو الرؤية عن تطورات الوضع. وبالطبع كان جواب الشيخ «عيسى» إيجابياً. وبعد أن أمن عبد الرحمن على سلامة زوجاته وأولاده في منأى من المشكلات، قام بجمع عدد من البدو وعاد بهم إلى الرياض، لكن دون نية

للبقاء فيها، وكانت الخطوة التالية التي ترتب عليه القيام بها هي اللجوء إلى «حريملاء» لكن ما أن سمع «ابن رشيد» بأخباره حتى قدم إلى منطقة «البرة» على رأس قوة كبيرة، ومن هناك شن هجوماً مباغتاً على الهاربين والفارين المتواجدين في «حريملاء»، لكن «عبد الرحمن» وأتباعه تمكنوا بشق الأنفس من الهرب ليهيموا مرة أخرى في الصحراء بانتظار ردود تتعلق بمناشدتهم الأتراك في «الأحساء» ومناشدتهم أمير «الكويت» في السماح لهم بالاستقرار في المناطق الخاضعة لإدارتهم.

وعندما رفض كل من الأتراك وشيخ الكويت طلبهم، وسار «عبدالرحمن» بجماعته عند حوالي نهاية ذلك العام باتجاه «قطر» وهناك مكث شهرين آخرين دارت خلالهما مفاوضات مع الأتراك حول شروط استسلامه. وأخيراً وافقت الحكومة العثمانية أن تدفع له ستين ليرة ذهبية شهرياً، بسبب المساعي الحميدة الي قام بها «حفيظ باشا» المتصرف العثماني في «الأحساء»، كما أذنت له بالاستقرار مع عائلته في أي مكان يشاء داخل حدود المنطقة الخاضعة للحكم العثماني. وقد وقع اختياره على «الكويت» ليراقب منها مجرى تطور الأحداث في «نجد» وبعيداً عن أذى حكامه الجدد.

بعد حادثة «حريملاء» توجه «ابن رشيد» بقواته لاحتلال الرياض، وتمكن من هدم سورها الدائري وتحصيناتها، وعين «محمد بن فيصل» أميراً عليها بالنيابة عنه، ولم يكن ذلك التعيين سوى ترتيب مؤقت لأنه في العام التالي (نتيجة لتذمر أهالي الرياض من أن عدم قدرتهم على الدفاع عن أنفسهم جعلتهم عرضة لغزوات البدو على محاصيلهم وماشيتهم) قام «ابن رشيد» بتعيين رجل من «حائل» يدعى «عجلان» حاكماً على إمارة الرياض، وأوكل

إليه مهمة الدفاع بكل الوسائل عن أهالي الرياض. وتحولت مناطق «نجد» إلى إقليم غير جدير بالاهتمام وتابع لحكم أسرة غريبة عنه، وأصبح تاريخ «نجد» دينياً محدوداً تكثر في سجلاته التاريخية أحداث وفيات وجهاء تلك المناطق، وأمور تعيينات إدارية طفيفة كان يفرضها «ابن رشيد» من حين لآخر. ويبدو أنه لم يعد يشغل تفكير «ابن رشيد» سوى شن غارات اعتيادية في فصل الشتاء ضد مختلف قبائل البدو.

ومع نهاية عام ١٨٩٤م حدثت حادثة في «الكويت» لا بد أن يكون «ابن رشيد» قد استمد منها فكرة معينة، تجلت تلك الحادثة في أن قام «مبارك» باغتيال أخيه «محمد بن الصباح» وأخيه الآخر «جَرَّاح» واستولى على السلطة في مدينة «الكويت» وعلى القبائل فيها. وقدر له أن يمارس تأثيراً بالغ الأهمية على شؤون الجزيرة العربية على مدى عشرين عاماً، بعد تلك الحادثة. ولم تغب عن ذهنه حقيقة أن وجود بقايا من عائلة «آل سعود» في ديرته كان مكسباً لا يقدر بقيمة يدعم به نشاطاته السياسية. وفي هذه المرحلة تعلم الأمير «عبد العزيز بن عبد الرحمن» دروسه في فن السياسة وإدارة الدولة، الأمر الذي مكنه من أن يرقى إلى منصب مرموق.

وهكذا تستمر قصة أحداث المملكة العربية السعودية البسيطة وتنقضي السنوات ويثبت «ابن رشيد» معها نفسه على صهوة الحكم دون أن ينافسه أحد في سيطرته.

حدث في الحادي عشر من شهر تموز من عام ١٨٩٦م كسوف كلي في الشمس، ونظر بعض الناس إلى هذا الحدث على أنه نذير كارثة، علماً بأنه لم يحدث شيء أكثر خطورة من حدث موت أمير المجمعة «إبراهيم العسكر»

السنوات ويثبت «ابن رشيد» معها نفسه على صهوة الحكم دون أن ينافسه أحد في سيطرته.

حدث في الحادي عشر من شهر تموز من عام ١٨٩٦م كسوف كلي في الشمس، ونظر بعض الناس إلى هذا الحدث على أنه نذير كارثة، علماً بأنه لم يحدث شيء أكثر خطورة من حدث موت أمير المجمعة «إبراهيم العسكر» الذي وافته المنية بسبب إصابته بمرض الكزاز (وهو مرض تتشنج معه

الفصل التاسع

عبدالعزيز (الثاني) ابن سعود

عبد العزيز (الثاني) ابن سعود[1]

أصبحت إمارة الكويت بعد موت «محمد بن رشيد» ولفترة قصيرة محور الصراعات السياسية في الجزيرة العربية، كما أصبحت بؤرة التوتر والمنافسة الدولية. وكان الأتراك قد خسروا حليفاً لهم في قلب الجزيرة العربية لا يقدر بثمن، كما كانوا على يقين بأنه لا يمكنهم الاعتماد كلياً على «عبدالعزيز بن متعب بن رشيد» خليفة «محمد بن رشيد» الذي كان أميراً على «حائل». ولم يكن بالإمكان وضع «عبد العزيز بن متعب بن رشيد» في نفس المرتبة التي كان يتمتع بها السعدون زعماء قبائل «المنتفق» العراقية، أو في نفس مرتبة الشيخ «مبارك الصباح»، علماً بأنه كان من الممكن للأتراك أن يعطوا «عبد العزيز بن رشيد» قيمة ومكانة، وذلك عن طريق مده بالمال والسلاح بالرغم من عدم ارتياحهم له.

من غير المحتمل أن يكون لـ «سعدون باشا» طموح في حكم وسط الجزيرة العربية، فقد كان راضياً تماماً بمركزه القوي في جنوب العراق، وكان ينظر إلى الصحراء على أنها مجرد ساحة للغزوات والمناوشات بين فرسان ذلك العصر، لكن الأمر كان مختلفاً بالنسبة لـ «مبارك» الذي كان يحلم بأن يأخذ مكان المرحوم «محمد»، وكان لديه أوراق رابحة يمكن أن يلعبها وذلك لكون الشخصيات الرئيسة من عائلة «آل سعود» كانوا يعيشون ضيوفاً لديه في المنفى. ومما زاد من تفاؤله كان التصرف المستبد الذي سلكه «ابن رشيد» الجديد تجاه رعاياه. فلم يمض وقت طويل حتى أثارت الحكومة البريطانية مخاوفه بخصوص الوضع في الكويت ونبهته لضرورة حماية الكويت من

(١) الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود. (المراجعون).

أي اعتداء أجنبي، استناداً لما كان لدى الحكومة البريطانية من أخبار عن المباحثات العثمانية الألمانية المتعلقة بإقامة خط سكة حديد يربط بين بغداد وبرلين. وهكذا أطلقت يد «مبارك» ليقوم بمغامراته في الجزيرة العربية التي كان يحتفظ بمفتاحها في جيبه، وكان بإمكانه أيضاً أن يعتمد على تعاون «المنتفق» معه في حملاته داخل المناطق الخاضعة لسيطرة «ابن رشيد» الجديد، ولذلك السبب قام بغاراته مع رجال البدو ضد المناطق المتاخمة للعراق.

في الواقع اتخذ «ابن رشيد» عنصر المبادرة في تلك المسألة، ففي خريف عام ١٨٩٨م قام بتفقد المناطق المجاورة للرياض ليتأكد من أن الأوضاع في الأراضي النجدية التي مضى على حكم عمه الفعلي عليها أحد عشر عاماً كانت على ما يرام. فقدم إليه وجهاء الرياض وكبار رجال الدين فيها ليبايعوا حاكمهم الجديد، وبعد أن اطمأن من أن «عجلان» الحاكم الإقليمي كان مسيطراً على الوضع هناك، قرر الاندفاع في غارة على قبيلة «الدواسر» التي كانت في منطقة «المرّوت». وقبل عودته إلى ديرته نفذ خطته وأغار عليهم وحصل على غنائم كثيرة منهم. وفي خريف العام التالي نتيجة للمراسلات التي دارت بينه وبين بعض المستائين من الكويتيين الذين كانوا يعيشون في المنفى بـ«البصرة» حول أنظاره باتجاه الشرق وقام بغزوة عادية ضد البدو على الحدود العراقية، وتوجه بعد ذلك بقواته نحو «الكويت» وهناك اشتبك مع القوات المحلية التي كانت تساندها قوات متحالفة معها من «المنتفق» وتمكن من هزيمتهم بسهولة ومكث هناك بعض الوقت قبل أن يعود إلى «حائل» ليقضي فيها فصل الصيف.

شهد أول خريف من القرن الجديد المزيد من التطورات وكان كلا الطرفين مستعداً للقتال، فقد شن «عبد الرحمن بن سعود» غارة على قبيلة «قحطان» في منطقة «سدير» وعاد وهو مدرك أن الظروف كانت مواتية للقيام بالمزيد من الغارات والغزوات. وكان «ابن رشيد» في تلك الأثناء قد وصل بقواته حتى الحدود العراقية، وعسكر في منطقة «الجهراء» ليقضي فيها فصل الشتاء وليستغل أي ظرف يمكن أن يحدث فيها. وأثناء وجوده هناك وصلته أخبار مفادها أن «مبارك الصباح» ومعه قوة كبيرة قد غادروا «الكويت» باتجاه وادي «الشوكي» الواقع خلف صحراء «الدهناء»، ومن هناك تمكنوا من الوصول إلى «بريدة» عاصمة «القصيم».

والجدير بالذكر أن قوة «مبارك الصباح» تلك كانت مشكلة من قوات «سعدون باشا» إلى جانب رجال قبائل «المنتفق» وفرقة مقاتلة من قبيلة «الظفير» ومعهم أمراء «آل سعود» الذين وجهوا نداءً إلى قبائل «العجمان» و «مطير» التي استجاب رجالها لذلك النداء وانضموا إلى الأمراء. ولم يتردد «ابن رشيد» في مواجهة ذلك التحدي فسار بقواته بسرعة باتجاه الغرب، وتزامن ذلك مع توجه «عبدالعزيز» (حديث السن) من وادي «الشوكي» على رأس قوة كبيرة ليجرب حظه في الرياض. وفعلاً تمكن من الدخول إليها عبر أطلال أسوارها المجردة من وسائل الدفاع، لكنه لم يتمكن من إضعاف القلعتين اللتين لجأت قوات «ابن رشيد» إليهما لتستعد ولتقاوم الحصار. وكان لا بد من تسوية هذه المسألة على أرض المعركة في منطقة «الصريف» بالقرب من «بريدة». وفعلاً ألقى بكامل قوة المتحالفين في المعركة التي دارت في شهر شباط (فبراير) من عام ١٩٠١م ضد قوات «ابن رشيد». وتمكن «ابن رشيد» في تلك المعركة من

هزيمتهم، وفرّ مقاتلوهم وهم في حالة فوضى واضطراب باتجاه «الكويت». وتحركت قوات «ابن رشيد» في إثرهم وطاردتهم ولم ترحم الفارين الذين وقعوا في أيديهم. وعندما تلقى «عبد العزيز بن سعود» أخبار تلك الكارثة انسحب بسرعة من الرياض. وقد احتفل «ابن رشيد» بنصره ذلك بأن أنزل بأهالي «بريدة» وأهالي بلدان أخرى في «القصيم» أقسى أنواع الوحشية في التعامل وكان ذلك عقاباً لارتدادهم عن التحالف معه، وأرسل أيضاً الشخصية المعروفة «سالم بن سبهان» إلى الرياض ليقوم بالدور نفسه.

أصبح الآن بمقدور «ابن رشيد» أن يعود إلى تنفيذ خطته الأصلية التي وصل بموجبها في الخريف الماضي حتى منطقة «الجهراء». وكان من الواضح أنه توصل مع الأتراك إلى اتفاق يمكنه من مهاجمة «الكويت» التي ضعفت القوات المدافعة عنها بسبب معركة «الصريف». وعليه تحرك بقواته باتجاه «حفر الباطن» وسرعان ما وجد نفسه أمام أسوار «الجهراء» وهي قرية تقع على الطرف الداخلي من خليج الكويت، وهنا ناشد «مبارك» البريطانيين ليقدموا له المساعدة، وفعلاً أرسل البريطانيون سفينة حربية لقصف معسكر العدو. وفي ظل هذه الظروف، وبعد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع من الحصار غير الفعال، قرر «ابن رشيد» أن يتراجع بقواته إلى معسكره في «الحفر»، ومن هناك تابع المسير باتجاه «حائل» ليقضي استراحة فصل الصيف المعتادة. وقد كان انتصاره في معركة «الصريف» بمثابة موضوع قيم جداً، لكن عنصر المبادرة في الانتصار تحول لصالح أعدائه.

يبدو أن «مباركاً» و «عبد الرحمن آل سعود» لم يعد لديهما الجلد على القيام بالمزيد من المغامرات في الصحراء، بسبب الهزيمة التي لحقت بهما

مؤخراً. لكن «عبد العزيز» الحديث السن الذي كان قد بلغ من العمر واحداً وعشرين عاماً، كان يتحفز للقيام بنشاط ما. ويمكن أن تكون تجربته الشخصية في الشتاء الماضي قد ولدت لديه بعض الأحلام التي -بدورها- شجعته لمعاودة المحاولة للاستيلاء على الرياض.

حصل «عبد العزيز» على موافقة «مبارك» وموافقة والده على خطته في شن حملات وغزوات عبر الصحراء خلال خريف عام ١٩٠١م. لكن لم تكن موافقتهما لتخلو من الهواجس والشكوك. حيث غادر «عبد العزيز» الكويت ومعه أربعون شخصاً من أتباعه المجاهدين، وبدأ في حشد التعزيزات من البدو، وشرع في غزو القبائل المعادية له وصولاً حتى حدود إقليم «الأحساء» (الذي كان في تلك الفترة خاضعاً للاحتلال التركي) ومشارف إقليم «سدير»[١]. وفي شهر كانون الأول وصل إلى موارد مياه «حرض» (التي هي حالياً منطقة غنية بالنفط)، ومكث هناك ليقضي شهر رمضان. وما إن انقضى شهر رمضان حتى شمر عن ساعديه استعداداً للمغامرة الكبيرة التي توجت بعد خمسة أيام وبالتحديد في الخامس عشر من شهر يناير (كانون الثاني) من عام ١٩٠٢م باسترداد الرياض. تكرر ذكر تفاصيل تلك المغامرة الدرامية مرات عديدة لدرجة أنه لا حاجة لذكرها في هذا السياق. وقد قتل «عجلان» الحاكم الذي عينه «ابن رشيد» في تلك المعركة. كما قتل معه العديد من رجال الحامية التي كانت تحت إمرته؛ وهرع

(١) قام الملك عبدالعزيز بعدة غارات بهدف جمع القبائل والرجال من حوله ثم قرر دخول الرياض بشكل سري وبفئة قليلة من رجاله وأسرته بلغ عددهم ثلاثة وستين رجلاً. انظر تفصيل ذلك في كتاب «الطريق إلى الرياض»، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ. (المراجعون).

أهالي الرياض الذين أصابتهم الدهشة والذهول ليقدموا مرة ثانية ولاءهم إلى عائلة «آل سعود» كما كان الحال في الأيام الخوالي. وخلال شهر من الزمن ارتفعت أسوار الرياض التي هدمها «محمد بن رشيد» لتحصن العاصمة السعودية من جديد.

أصبح همّ «ابن سعود» الآن ترتيب أمور نقل والده وبقية أسرته من «الكويت» إلى «الرياض»، حيث أعد لهم استقبالاً يليق بالأبطال. وجلس الأب والابن ليتدارسا المشكلات التي تواجه حكمهم الجديد، وبسهولة اتفقا فيما بينهما على أن يحتفظ «عبد الرحمن» بلقب الإمام لكونه رئيس الأسرة الملكية الحاكمة، وأن يكون ابنه الرئيس الفعال للدولة والقائد العام للجيش، ولم يسفر هذا الوضع -نوعاً ما- عن أي مشكلات على صعيد الممارسة العملية، لأن «عبد العزيز» كان لا ينزل عن رغبة والده في القضايا الرسمية، كما أن الوالد لم يسمح لنفسه أبداً بأن يتدخل في شؤون الدولة التي كان مجلس قادتها الحكماء تحت إمرة ابنه دون أي تحفظ. وهكذا كانت ولادة علاقة ساحرة بين الأب وابنه، ارتكزت تلك الرابطة على تفاعل بين احترام الابن لأبيه وكرامة الأب المرعية باستمرار، وقد قدر لتلك العلاقة أن تستمر دون أن يعكر صفوها أي توتر أو عدم اتفاق في الرأي، إلى أن توفي الإمام «عبد الرحمن» في عام ١٩٢٨م عن عمر يناهز الثامنة والسبعين. والجدير بالذكر أن «عبد الرحمن» كان ينوب عن ابنه «عبد العزيز» في كل القضايا التي لها علاقة بالإدارة المركزية في العاصمة نظراً لأن الابن كان منشغلاً في معظم الأوقات في ساحات القتال.

أصبح «ابن سعود» الآن مشغولاً بالمهام الصعبة والشاقة والرامية لاستعادة مكانة أسرته الحاكمة في كافة الأقاليم. وكان «ابن سعود» يتصرف بثقة تامة

من أن الأمور كانت تجري على ما يرام حتى في غيابه، وهكذا قام بنفسه باستعادة سيطرته على المناطق الجنوبية وعلى المناطق القبلية التي لم يعاملها «ابن رشيد» بلطف وكياسة، حيث تقدم «ابن سعود» بقوته إلى مناطق «الخرج»، و«الأفلاج»، و «الحوطة»، و «الحريق» ليحظى بقسم الولاء له من زعمائها ووجهائها. كما أرسل أهالي «وادي الدواسر» وفداً عنهم ليعربوا عن ولائهم له. لكن «ابن سعود» اضطر لمهاجمة قبيلة «قحطان» في منطقة «حلبان» ليؤكد للجميع إصرار الحاكم الجديد على قدرته في الحكم بالاسم والفعل.

مادام الموالون لابن سعود في الأقاليم الشمالية لم يكونوا في وضع يمكنهم من تحدي سلطة حكام «آل رشيد» المفروضة عليهم، فقد قرر «ابن سعود» ترك الأقاليم الشمالية لمناسبات قادمة. وكان «ابن رشيد» نفسه بطيئاً في الرد على الوضع الجديد في الجنوب، ولم يتمكن من السير بقواته جنوباً إلا مع حلول خريف عام ١٩٠٢م، وفي طريقه إلى هناك أقام مقراً لقيادته في منطقة «رغبة» الواقعة على حافة سهل طويق، ومن هناك بعث فرق كشفية لتحاول التأثير على التحالف بين قبائل «العجمان» و «آل مرة» في الأحساء، إلا أن «ابن سعود» تصدى لمحاولته تلك بأن أرسل أخاه «محمداً» ومعه ابن عمه «عبد الله بن جلوي» ليحبطا مكيدته تلك.

وبسبب التزام قبيلة «آل مرة» بدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب كان بالإمكان إسقاط تصرف قبيلة «العجمان» المتذبذب من حسابات المعركة وعدم الاكتراث به. وبينما كان «ابن رشيد» يعسكر بقواته في منطقة «رغبة» كان «ابن سعود» غير منشغل بأي شيء سوى أن يعد الخطط لجره إلى

المعركة. وكان أول عمل قام به هو أن ترك المدافعين عن الرياض وراء الأسوار يدافعون عنها وتوجه بقواته نحو «الحاير» في وادي حنيفة، ومن هناك تقدم باتجاه «الحوطة» ليحشد أهلها الشجعان بين صفوف قواته. وفي تلك الأثناء أيضاً أرسل «محمد السديري» على رأس قوة ليحتل «الدلم» عاصمة «الخرج»، كما أرسل أخاه «سعداً» إلى «الحريق» ليجلب المزيد من التعزيزات.

احتار «ابن رشيد» أمام هذه الاستراتيجيات، فما كان منه إلا أن تقدم نحو آبار «الحسي» عند مدخل ممر «الحيسية» واستراح هناك لفترة من الزمن، إلا أن اندلاع مرض الحمى بين صفوف قواته عكر صفو تلك الراحة. عطله ذلك الوباء بعض الشيء وكان ذلك التأخير - من وجهة نظره - أكثر خطورة من الإصابات التي نجمت عن ذلك الوباء، وعلى أي حال تقدم باتجاه «بنبان» ومن هناك هبط بقواته فوصل إلى منطقة «الخرج». حيث كان «ابن رشيد» ينوي مهاجمة «الدلم» فوصل إلى واحات نخيل «نعجان» القريبة منها واحتلها، لكن الوقت كان متأخراً بعض الشيء ليقوم بإجراء آخر فعال. ولم يكن «ابن رشيد» على علم بأن «ابن سعود» وصل بنفسه في الليلة السابقة إلى «الدلم» على رأس قوة كبيرة. وعندما دفع بقواته في صباح اليوم التالي إلى أرض المعركة تعرضت تلك القوات لنيران مهلكة صوبتها عليهم القوات المدافعة التي كانت مختبئة في واحات «الدلم» وأجبرتهم على التراجع بشكل فوضوي. وقد طاردهم فرسان «آل سعود» في السهل الواقع بين البلدتين، إلا أن «ابن رشيد» تمكن من إعادة تنظيم قواته ودارت معركة شرسة دامت من وقت الظهر حتى غروب الشمس،

وكانت النكسة بمثابة عامل حاسم للغاية للقيام بهجوم مضاد في وجه قوة كانت أكبر من القوة التي كان يعتمد عليها، وعليه اضطر «ابن رشيد» إلى الانسحاب خلال ساعات الليل باتجاه «السلمية» في الطرف الشرقي من الإقليم، ومن هناك، وبعد مشاهدة خيالة «آل سعود» تطارد قواته، تحرك بقواته سريعاً باتجاه وادي «السلمية» ووصل إلى آبار «حفر العتش» البعيدة والآمنة نسبياً.

وبعد بضع سنوات وأثناء وصفه للمعركة الحاسمة اعترف «ابن سعود» بأنه كان من الممكن أن تسير الأمور على نحو سيئ ولا تخدم قضيته لو أن «ابن رشيد» كان على علم بعامل واحد حيوي ومهم. ذلك يعني أنه كان لدى «ابن سعود» عدد كبير من المقاتلين، إلا أن مخزونه من الذخيرة كاد ينفد خلال الاشتباكات، وكانت المطاردة التي قام بها فرسانه لقوات العدو ليست أكثر من مجرد إشارة تحد، إلا أنها حققت الغرض المطلوب. وظل «ابن رشيد» على هدوئه في منطقة «حفر العتش» بالرغم من أن همته قد فترت بسبب الهزيمة التي لحقت به في منطقة «الدلم». وعلى أي حال أمضى «ابن رشيد» الأشهر المتبقية من موسم عام ١٩٠٢م/١٩٠٣م في حملات غزو شنها في اتجاهات متعددة. وقد شجعته الانتصارات التي حققها ضد قبيلة «عتيبة» بالقرب من «الأرطاوية» وضد قبيلتي «سبيع والسهول» في صحراء «الدهناء» على التحرك باتجاه «الكويت»، وقام هناك بهجوم على رجال قبائل «العريبدار» الذين كانوا على مقربة من الكويت نفسها. وقد أدخل ذلك الهجوم الذعر في قلب الشيخ «مبارك»، وعلى الفور أرسل رسالة عاجلة إلى «ابن سعود» طلب منه فيها أن يقدم له العون، وبسبب

حاجته لتعويض مخزونه من الذخيرة قدم «ابن سعود» على الفور إلى الكويت على رأس قوة كبيرة تقدر بعشرة آلاف رجل، وهناك انضم إليه «جابر» ابن الشيخ «مبارك» ومعه قوة تقدر بأربعمائة رجل. حيث قامت تلك القوات بمهاجمة حلفاء «ابن رشيد» من قبيلة «مطير» الذين كانوا تحت إمرة «عماش الدويش» وتمكنوا من إلحاق الهزيمة بهم في منطقة «الصمان» وسلب كل ممتلكاتهم. وفي تلك الأثناء قرر «ابن رشيد» الذي عاد مسرعاً إلى معسكره في «حفر العتش» أن يهاجم الرياض نفسها، وتمكن من الوصول بقواته إلى جبل «أبو مخروق» الذي يبعد مسافة مد النظر عن الرياض دون أن يشعر بتقدمه أحد، ومن هناك تقدم باتجاه العاصمة، ولسوء حظه أن أحد البدو لاحظ تقدم قواته باتجاه الرياض وأنذر «ابن سعود» بذلك، وعلى الفور قام أهالي الرياض بتعزيز تحصيناتهم وحشد قواتهم، وباعتبار أنه لم يعد الآن هناك مجال للقيام بهجوم مفاجئ، فما كان من «ابن رشيد» إلا أن نفس عن غضبه بأن دمر واحات النخيل المحيطة بالرياض وقتل عدداً من الفلاحين المسالمين.

حدثت أيضاً بعض الاشتباكات بالقرب من أسوار الرياض بين الفرق المدافعة عن الرياض وبين قوات «ابن رشيد»، وكونه قد خسر عنصر المبادرة قرر «ابن رشيد» في اليوم التالي التخلي عن محاولته احتلال الرياض وسحب قواته وتوجه بها شمالاً، ولم يعد بعد ذلك الحدث باتجاه الجنوب مرة أخرى.

وأصبح الهم الرئيس لـ «ابن رشيد» الآن هو أن يعزز قوة أقاليم «الوشم وسدير والمجمعة» في الشمال لتقاوم أية محاولة يمكن أن يقوم بها «ابن

سعود» لاستردادها، ولذلك بنى «ابن رشيد» قلعة في منطقة «ثرمدا» في الوشم، ووضع بها حامية قوية للدفاع عنها، كما قام بوضع حاميات مماثلة في «المجمعة» و «روضة سدير»، وبعد أن أمن على أن «شقراء» عاصمة إقليم «الوشم» كانت إلى جانبه، شعر أن بإمكانه التراجع باتجاه إقليم «القصيم» لينظر ويراقب تطور الأحداث.

وجد «ابن سعود» نفسه عند عودته إلى الرياض قادماً من الكويت مسيطراً سيطرة تامة وبدون منازع ليس فقط على إقليم «العارض» (الذي يشتمل على العاصمة الرياض)، بل أيضاً على كل الأقاليم في جنوب «نجد». وأفادت أول الأخبار التي وصلت من أرض المعركة بعد وصوله أن «مساعد بن سويلم» الذي كان الإمام «عبد الرحمن» قد أرسله على رأس قوة لاحتلال المناطق الشمالية في أعقاب تراجع العدو، لم ينجز مهمته فحسب، بل زاد عليها أن شن هجوماً على «شقراء»، ولم يبد القائد الرشيدي هناك والمدعو «الصويغ» أي محاولة للدفاع عنها، بل هرب إلى قلعة «ثرمدا» وتبعه إلى هناك «مساعد» بعد أن احتل عاصمة «الوشم» بدون مقاومة. وأرسلت التعزيزات على الفور إلى إقليم الوشم تحت إمرة «عبد الله بن جلوي» لكن يبدو أن حامية «ثرمدا» كانت قد جلت قواتها عن القلعة تحت جنح الظلام قبل أن تصل تلك التعزيزات. وفي تلك الأثناء كانت قوات أخرى قد وصلت إلى إقليم «سدير» قادمة من الرياض، ولم تلق تلك القوات أي مقاومة إلا في منطقة «الروضة»، وعلى أي حال تم دحرها وهربت القوة إلى «المجمعة».

يبدو أن «ابن سعود» في هذه المرحلة كان قد توجه شمالاً ليدير العمليات بنفسه، ولم يكن بإمكان «ابن رشيد» أن يفعل أي شيء قبل عودته إلى بلده

بشكل نهائي أكثر من أن يدمر بعض القرى العاجزة عن الدفاع عن نفسها والقريبة من منطقة «عشيرة» الواقعة على التخوم الشرقية لإقليم «سدير». والجدير بالذكر أنه كان قد وصل إلى «عشيرة» عن طريق «الزلفي» في محاولة منه لاستعادة الأوضاع هناك. وحيال هذا الوضع سارع أهالي «المجمعة» لاستدرار رأفة «ابن سعود» ومسامحته لهم عن زلاتهم الماضية، واستسلمت أيضاً مدينة «الزلفي» له، وهكذا انهار كل النظام الدفاعي لهذه الأقاليم الذي كان «ابن رشيد» قد رتبه على عجل قبل تراجعه إلى «القصيم».

تم ذلك الانهيار بشكل غير عادي عند ظهور أول بوادر قوات «ابن سعود»، وقد سبب القتال الذي نشب للاستيلاء على إقليم «القصيم» الحيوي بالنسبة للقائدين مشكلات حادة. ومن الواضح أن «ابن رشيد» بدأ يدرك أن مكانته أصبحت محفوفة بالمخاطر بسبب تخلي القرى والقبائل عن قضيته، لكنه كان لا يزال يسيطر على مصادر ثروات القصيم لإطعام جنوده طيلة وجودهم هناك، إلا أنه لم يكن ليثق بأن أهالي القصيم سيقفون إلى جانبه إذا تردت الأمور، وبدا أن أمله الوحيد في التصدي لتقدم قوات «ابن سعود» يكمن في البديل الأكثر خطورة وهو مناشدة الأتراك في تقديم العون له. ولن يكون الأتراك في تلك الحالة مستائين من تقديم ذلك العون لسبب بسيط هو أنهم نتيجة هذا الموقف سيضعون قدمهم في وسط الجزيرة العربية لدعم إقليم «الأحساء» الخاضع لسيطرتهم، والذي فازوا به نتيجة تدخلهم قبل ثلاثين عاماً لدعم موقف «عبد الله بن سعود».

قرر «ابن رشيد» أن يتمسك بالقشة الأخيرة تلك، ولذلك أرسل رسائل إلى الوالي التركي في بغداد وشرع في إعداد ترتيبات مؤقتة للدفاع عن «القصيم» مستبقاً بذلك وصول جنود السلطان التركي. فأقام معاقل قوية في

منطقتي «عنيزة» و «بريدة» ووضع الحامية في «بريدة» تحت إمرة الحاكم المحلي، كما وضع الحامية في «عنيزة» تحت إمرة ابن عمه «ماجد بن حمود» تحسباً من ردة فعل أهالي «عنيزة» المشكوك في ولائهم له، وأقام موقعاً متقدماً عززه ببدو قبيلة «حرب» وواصل نشر قواته حتى منطقة «السر» وجعل «حسين بن جراد» قائداً على ذلك الموقع وكلفه بمراقبة أي تقدم للقوات السعودية والتصدي لها إذا اقتضى الأمر.

أما بالنسبة لـ «ابن سعود» فقد وضعته سيطرته السهلة على كافة الأقاليم وصولاً إلى حدود إقليم القصيم حيال ورطة ومأزق صعب، إذ إن الجفاف الذي جلبه فصل الشتاء وميل قادة «ابن رشيد» إلى نزعة السلب والنهب جردا كل المناطق الخاضعة له من خيراتها، فلم يكن بإمكانه الاعتماد كلياً على دعم الأهالي في حال قرر أن يجازف بالتقدم الفوري باتجاه القصيم. وبالطبع رأى كبار الشخصيات المعروفة بتأييدها لقضيته أنه من الحكمة أن يرفعوا أيديهم عن موضوع القصيم خوفاً من انتقام «ابن رشيد» وأخذه للثأر منه وفضلوا في تلك المرحلة استمرار الإقامة في الكويت بانتظار تطور الأوضاع في منطقة «نجد». وعليه قرر «ابن سعود» العودة إلى الرياض مؤقتاً وأرسل رسالة إلى «الشيخ مبارك» يطلب منه أن يرسل أهل القصيم إلى «نجد» لينضموا إليه، وكانت هذه الجماعات متلهفة لحدوث فرصة يمكنهم من خلالها المساعدة في تحرير مناطقهم من نير الحكم الرشيدي. وفعلاً وصلت إلى الرياض جماعة منهم تقدر بمائتي رجل كان بينهم «عبد العزيز السليم» زعيم «عنيزة» و «صالح المهنا» زعيم «بريدة».

لم يضيع «ابن سعود» الوقت فسارع في تنشيط عملياته، فاشتبك في أوائل شهر آذار من عام ١٩٠٤م مع جماعة «حسين بن جراد» في منطقة

«السر» وألحق بهم هزيمة نكراء كما ألحق الهزيمة أيضاً بمؤيديهم من قبيلة «حرب» في منطقة «فيضة السر». وعند نهاية ذلك الشهر تمكن -بعد أن تجنب الموقع المتقدم الذي كان تحت إمرة «ماجد بن حمود»- من شق طريقه ليلاً وتمكن من دخول «عنيزة»، وحدث هناك اشتباك قتل فيه نائب «ابن رشيد» المدعو «فهيد بن سبهان»، كما قتل أخو «ماجد» المدعو «عبيداً». ولم يكتف «ابن سعود» بالاستيلاء السهل على مدينتين رئيستين في إقليم القصيم. فسار بقواته ليلاً يبحث عن موقع القوة الرئيسة لعدوه التي كانت تحت إمرة «ماجد»، ووصل به البحث حتى وصل إلى أواسط واحات النخيل في وادي «الرّمة»، وهناك هاجم عدوه على حين غرة وحدث اضطراب بين الجنود، فما كان من «ماجد» إلا أن هرب وتمكنت قوات «ابن سعود» من الاستيلاء على المعسكر وأخذت كل المؤن والمعدات التي كانت فيه. والحدث الطريف في هذه المرحلة أن «ابن سعود» عثر على أبناء عمه الثلاثة والذين كانوا إما في معسكر وادي «الرّمة» أو في «عنيزة» نفسها، والجدير بالذكر أن أبناء عمه الثلاثة هؤلاء هم أحفاد عمه «سعود» الذين كانوا قد انضموا إلى صفوف «ابن رشيد» على أمل أن يستعيدوا حكمهم على العاصمة الرياض بفضل مساعدته وعفا «ابن سعود» عنهم بفعل الشهامة التي أصبحت جزءاً من شخصيته وعرض عليهم أن يختاروا بين البقاء معه أو الالتحاق بـ«ابن رشيد». وعليه قبلوا عرضه الهادف إلى السلام والدال على حسن الضيافة.

أصبح الآن الطريق إلى «بريدة» سالكاً أمام «ابن سعود» فلم يجد صعوبة في احتلالها، علماً بأن الحامية الرشيدية هناك رفضت الاستسلام واستحكمت في القلعة الكبيرة لتقاوم الحصار على أمل أن يأتي «ابن رشيد»

في الوقت المناسب لكسر طوق الحصار عنهم. وعلى أي حال لم يتحقق ذلك الأمل، وبعد مضي حوالي شهر من الاقتتال المتقطع والقنص استسلمت الحامية الرشيدية وفق شروط معينة، وسمح لها بالخروج مع أسلحتها لتلتحق بزعيمها في «حائل»، وأصبح «ابن سعود» الآن سيد الجزء الغربي من «القصيم» في حين بقي الجزء الشرقي وعاصمته «الرس» ولو اسمياً على ولائه لـ «ابن رشيد» والذي سرعان ما تحول ليصبح قاعدة لعملياته. وبدت مناشدة «ابن رشيد» للأتراك تؤتي ثمارها فوصلته ثمانية كتائب من القوات النظامية (التي كان بعضها من المدينة) تحت إمرة «صدقي باشا»، وكان بعضها الآخر من بغداد تحت إمرة «فوزي باشا» الذي كان في مركز القائد العام لكافة تلك القوات.

استسلمت «بريدة» في أوائل شهر حزيران (يونيو) من عام ١٩٠٤م، وبعد مضي بضعة أسابيع على هذا الحدث بدأ «ابن رشيد» يتحفز، إذ كان الأتراك قد مدوه وبشكل تام بالمال والسلاح والمعدات، وأصبح بمقدوره أن يحشد ضمن قواته أعداداً كبيرة من بدو قبيلة «حرب» وقبيلة «عتيبة» إضافة إلى رجال قبيلته من «شمر». وبهذه القوة من المحاربين إلى جانب الكتائب التركية، تقدم «ابن رشيد» باتجاه القصيم التي وصلها عند حوالي نهاية شهر آب، وبالتحديد يمكن القول إنه وصل إلى منطقة «القرعا» المجاورة لها. وقد قبل «ابن سعود» ذلك التحدي وسار بقواته إلى منطقة «البصر» وهي إحدى الواحات الصغيرة في منطقة تعرف باسم «الخبوب»، وتمركز في موقع جعل من كثبان الرمال فيه ستاراً واقياً لقواته، وتمكن من ذلك الموقع من مراقبة تحركات «ابن رشيد» دون أن ينخرط في أي هجوم مباشر، وبدأت

المناوشات المتقطعة إلى أن تحرك «ابن رشيد» غرباً باتجاه رمال «الشيحية» المتموجة حيث كان بإمكان مقاتليه أن يحتموا أثناء النهار بواحات النخيل المنتشرة هناك، كما أنه من الممكن لفرسانه أن يتحركوا بسهولة من ذلك الموقع إذا اقتضت الضرورة.

رد «ابن سعود» على ذلك التحرك بأن تقدم إلى واحات «البكيرية» الشاسعة وترك جيشه يرابط خلف كثبان الرمال العالية والممتدة طولاً والتي تفصل بينه وبين قوات العدو، ولم يباشر «ابن سعود» في الهجوم ولكنه وضع خطة بحيث يتم الهجوم في اليوم التالي. وقد تجمعت قوات «ابن سعود» في واحات النخيل التي اتخذت منها مأوى لتخفف عن نفسها من لهيب شمس النهار، وعندما توسطت الشمس كبد السماء داهمتهم قوات «ابن رشيد» واحتدمت المعركة ودامت حتى غروب الشمس. واستفادت قوات «ابن سعود» من واحات النخيل واستحكمت خلفها وتمكنت بذلك من إنزال خسائر جسيمة بين صفوف المهاجمين، ولم يكن بإمكان قوات «ابن سعود» البقاء في واحات النخيل بعد هبوط الظلام، ولو فعلوا ذلك لجازفوا باحتمال أن تدحرهم قوات العدو التي كانت تفوقهم عدداً. ومن خلال حماية مؤخرتهم تمكنوا من التسلل عبر الواحات بالتدريج ووصلوا كثبان الرمال التي كانت خلفهم، ومن هناك سارعوا إلى التراجع بأقصى سرعة ممكنة تحت جنح الظلام.

ظلت قوات «ابن رشيد» مسيطرة على أرض المعركة، لكن أخيراً جاء دور قوات «ابن سعود» لتفاجئهم عند غروب الشمس فاصطدمت فرقة القصيم (التي كانت قد وصلت متأخرة جداً للمشاركة في القتال ولم يكن لديها علم

بتراجع قوات حلفائها) بقوات ابن رشيد إثر معركة النهار. ودارت كفة الموازين تماماً وتكبدت قوات «ابن رشيد» الكثير من القتلى والجرحى أثناء انسحابها من تلك الواحة، ويبدو من التقديرات عن هذه الفترة من تطور الأحداث أن الاشتباكات بين الفريقين استمرت على مدى اليوم أو اليومين التاليين، إلا أن المواجهة الرئيسة بين القوتين كانت قد حدثت وانتهت لأن أهل القصيم توقفوا عن القتال وانسحبوا إلى قواعدهم، ذلك لأنهم علموا بخبر تراجع القوات الرئيسة في جيش «ابن سعود» وخافوا من وصول تعزيزات «ابن رشيد».

سحب «ابن رشيد» قواته أيضاً باتجاه معسكره في منطقة «الشيحية» لكنه ترك في «البكيرية» فرقة، عمل في وقت لاحق على تعزيزها ودعمها. وكان جيش «ابن سعود» في تلك الأثناء قد وصل بتراجعه إلى «عنيزة» وهناك أعاد تجميع قواته، وانضمت إليه في وقت لاحق فرقة رجال القصيم. وكان «ابن رشيد» قد أمر قواته بأن تتقدم باتجاه «البكيرية»، وهناك لقيت هذه القوات هجوماً مباغتاً ليلاً من قوات «ابن سعود»، فتراجعت قوات هذا المعسكر لتحتمي بالقرية ودارت هناك معركة ضارية استمرت طيلة الليل. وفي النهاية اضطرت قوات «ابن رشيد» إلى فك الاشتباك والهرب باتجاه «الخَبْرا»، وهناك حاولوا الاستيلاء عليها لكنهم فشلوا بعد حصار دام لعدة أيام استخدمت القوات الرشيدية فيه المدافع وقصفوا بها تلك القرية.

اتجه «ابن رشيد» بعد ذلك نحو «الرس» واعترضت تقدمه هناك قوة من فرسان «ابن سعود» التي كانت تحت إمرة أخيه «محمد» وأحبطت محاولته، فما كان منه إلا أن حول وجهة مسيره باتجاه قرية «الشنانة» المجاورة واتخذ

منها مقراً للقيادة ومكث فيها مدة شهر تقريباً. وحدثت خلال ذلك الشهر مناوشات متقطعة بين خيالة الفريقين، وبدأت قوات «ابن رشيد» الاحتياطية من البدو بالتململ بسبب صعوبة تأمين المراعي لجمالها حيال غارات خصمهم المتكررة.

وقد وجد نفسه عملياً مضطراً للقيام بإجراء سابق لأوانه، فسحب قواته إلى الخلف وكأنه في حالة تراجع باتجاه واحة مجاورة يقال لها واحة «قصر ابن عقيل» والتي تقع على مسافة قصيرة إلى الغرب من «الشنانة»، وأثناء ذلك التراجع قام «ابن سعود» بمطاردة قواته ومهاجمتها بشكل عنيف، وبعد مضي بضعة أيام من القتال الشرس قرر «ابن رشيد» تحت ضغط من البدو أن يتراجع عن القتال، فقامت قواته بتحميل معداتها وأسلحتها على الجمال التي انطلقت تحت جنح الظلام في رحلة طويلة باتجاه «حائل». وفي الصباح أطلق «ابن سعود» فرسانه في أعقاب القافلة الشاردة وأمر القوة الرئيسة من جيشه بممارسة الضغط والهجوم على مشاة قبيلة «شمر» وعلى القوات التركية التي كانت في وسط الرمال. تمكن فرسان «ابن سعود» من إفساد وتدمير وسلب الجزء الكبير من مؤونة ومعدات وأموال تلك القافلة، وعندما علم «ابن رشيد» بذلك قرر العودة إلى المعسكر إلا أن الضغط المتواصل من قبل خيالة «ابن سعود» ألحق بهم الهزيمة. وهنا يقول المؤرخ «ابن ناصر»: أنه «خذت العساكر الطاغية على وجهها، فمنهم من هلك، ومنهم من تبع البوادي فنجا، ومنهم من هام في الفيافي فهلك، ومنهم من قصد الإمام فآواه وأكرمه».

دامت معركة «البكيرية» على مدى شهري أيلول وتشرين الأول، وانتهت المعركة بانتصار تام لقوات «ابن سعود». ورغم أن ثماني كتائب من القوات

التركية النظامية كانت قد انتشرت في أرض المعركة، لكن يجب أن نأخذ بالحسبان أن الأتراك كانوا يحاربون تحت ظروف غريبة عليهم ووسط أحوال جوية غير مواتية تميزت بجفاف الصحراء في لهيب الصيف. وعلى أي حال لم يكن أداء الأتراك متميزاً ومنوا بهزيمة على أيدي خصم شجاع ومتمرس في القتال لم تكن تتوافر لديه سوى مصادر قتالية أقل بكثير من تقنية وجودة معدات الأتراك أنفسهم.

تراجع «ابن رشيد» بقواته إلى «الكهفة» وهي قرية تقع ضمن حدود «جبل شمر» ومن هناك بعث بأخبار الكارثة إلى بغداد وناشد الوالي فيها أن يقدم له المساعدة. وقد حدث عند هذه المرحلة من تطور الأحداث أن جاءت أخبار تفيد بوقوع تمرد عنيف ضد الحكم التركي (العثماني) في منطقة «اليمن»، وتفيد تلك الأخبار أيضاً أن ذلك التمرد تم بقيادة الإمام «يحيى حميد الدين». وفي الوقت نفسه كانت الحكومة العثمانية مضطرة لتضييق مدى مسؤولياتها في وسط الجزيرة العربية لتقوم بإجراء معين من شأنه أن يعيد سيطرتها وهيبتها في المناطق الجنوبية. وعليه صدرت الأوامر إلى «أحمد فوزي باشا» بأن يتوجه على جناح السرعة إلى «اليمن» ليتولى قيادة القوات الموجودة هناك إضافة إلى قيادة التعزيزات التي كانت في طريقها إلى هناك أيضاً، وكلف أيضاً «صدقي باشا» بقيادة القوات الموجودة في المناطق الداخلية من الجزيرة العربية، ويبدو أن «صدقي باشا» كان قد تلقى تعليمات بشأن إجراء مفاوضات للتوصل إلى تسوية للخلاف مع «ابن سعود»، وبالتالي ليخلص الأتراك المشاركين في الحملة العسكرية هناك من الورطة التي وجدوا أنفسهم فيها وسط الجزيرة.

قامت السلطات العثمانية في العراق في تلك الأثناء بإرسال رسالة عن

طريق أمير الكويت إلى الإمام «عبد الرحمن» في الرياض تقترح فيها إجراء مفاوضات فورية على الصعيد السياسي، وتمت الموافقة على ذلك الطرح وتوجه الإمام إلى الكويت لمناقشة الأمور مع والي البصرة وبحضور الشيخ «مبارك». واقترح الأتراك أن يبقى إقليم «القصيم» بمثابة دويلة محايدة تقع بين دولتين تحول دون تصادمهما، على أن تقوم القوات التركية (العثمانية) بحمايتها والإشراف عليها إلى أن يتم التوصل إلى تسوية نهائية لكافة القضايا المتنازع عليها بين «ابن سعود» و «ابن رشيد». ووافق الإمام على هذا الطرح دون تردد شريطة أن يحال الأمر إلى أهالي نجد ليصادقوا عليه. وهنا وصلت إليه أخبار مفادها أن ابنه عاد من «القصيم» وتحرك باتجاه «الأحساء» للقائه، وبعد أن تباحث الأب مع ابنه في أمر المفاوضات التي دارت في الكويت قرر العودة وبشكل فوري إلى القصيم.

لكن في الواقع لم يذهب «عبد الرحمن» أبعد من «شقراء» حيث مكث هناك ليعيد تنظيم الأمور الإدارية ولينظم المزيد من المقاتلين بين قواته تحسباً للحاجة، وفي تلك الأثناء استمر ابنه في التقدم باتجاه «عنيزة» لمقابلة «صدقي باشا» و «فوزي باشا» اللذين كانا لا يزالان موجودين هناك. وفي ذلك اللقاء أعيد طرح موضوع إقامة المنطقة المحايدة على أن ترابط القوات التركية في «بريدة» و «عنيزة». ورفض ذلك الطرح بالرغم من قبوله من قبل «صالح ابن مهنا» الذي وجد نفسه في دور الزعيم القصيمي المفاوض تحت الحماية العثمانية وبشكل مستقل تماماً عن «حائل» و «الرياض». وكل ما تمخضت عنه المفاوضات المتجددة كان التوصل إلى اتفاق يقضي برحيل القوات التركية عن بغداد وعن المدينة المنورة على أن يؤمن «ابن سعود» سلامة

انسحابها ويضمن عدم تحرش القبائل بها أثناء الرحيل. وكإجراء احترازي ضد أي غدر من المحتمل أن تقوم به القوات التركية، أمر «ابن سعود» بضرورة أن تجتاز القوة التركية الموجودة في بغداد كافة مناطق ما بين النهرين قبل أن يمهد لقوة المدينة بالرحيل عن القصيم، وفعلاً تم تطبيق هذا الاتفاق دون حدوث أية عراقيل.

وهكذا رحلت القوات التركية عن الجزيرة العربية (نجد) إلى الأبد، وأصبح «ابن سعود» في موقف يمكنه من فرض إرادته على إقليم القصيم. وقد قصد «ابن سعود» أن يستفيد من صمته في العمل على تسوية مشكلة معينة، كما أنه انزعج كثيراً من المكائد التي كانت الفئات المتناحرة تقوم بها في ذلك الإقليم، ومثال ذلك التحذيرات التي صدرت عن زعيم بريدة «صالح ابن مهنا» من أن «ابن رشيد» سيقوم قريباً بتصفية حساباته مع «ابن سعود». وحيال هذه الأمور ما كان من «ابن سعود» إلا أن ترك إقليم القصيم يتخبط في رغبته وإرادته وعاد إلى «الرياض»، لكنه كان مطمئناً للغاية من أن الأتراك لن يقوموا بأية محاولة للعودة إلى ذلك الإقليم. والسبب الحقيقي لهذا الإجراء هي الأخبار التي وصلت إليه من «قطر» والتي تفيد بأن «أحمد» قد تمرد على أخيه «قاسم بن ثاني» حاكم «قطر» تدعمه في ذلك التمرد قبيلة «آل مرة»، وذكرت تلك الأخبار أيضاً أن كفة «أحمد بن ثاني» بدأت ترجح في ذلك التمرد، ولذلك توجه «ابن سعود» على جناح السرعة إلى مسرح الأحداث وتمكن من قمع التمرد بسهولة، بعدها فر «أحمد» إلى البحرين للنجاة بحياته.

وما إن أدار «ابن سعود» ظهره لإقليم القصيم حتى قام «ابن رشيد» (كما

سبق له أن تنبأ) بمعاودة نشاطاته ضد ذلك الإقليم، وأرسل قوة كبيرة لغزو بلدة «الرس» وتمكن من الاستيلاء عليها بسهولة وهرب أهلها باتجاه «الشقة»، إلا أن قوات «ابن رشيد» طاردتهم، لكن القرويين هناك تمكنوا من دحر المهاجمين.

وقد قامت قوات «ابن رشيد» أيضاً بغارة أخرى على «الطرفية» أسفرت عن ذبح أربعين من المزارعين العزل في حقولهم، كما هاجموا قبيلة صغيرة تدعى «الحمادين» ونهبوا جمالهم وماشيتهم، وقد خلفت هذه الأحداث (التي كانت لا تعني أكثر من مجرد مضايقات وإهانات صغيرة بحد ذاتها) شعوراً بانعدام الأمن في الإقليم، وألقى الأهالي هناك اللوم على «صالح المهنا» لعدم تعاونه مع «ابن سعود». ولصرف الأنظار عن المكائد التي كان يرتبها «صالح المهنا» بالتعاون مع «ابن رشيد» قام بإرسال أخيه «مهنا» إلى «عنيزة»، كما بعث برسول إلى الشيخ «مبارك» الذي كان يجري أيضاً اتصالات سرية مع «حائل» ولمح من خلال هذين الرسولين عن نيته في التقرب إلى «ابن سعود» بغية التوصل إلى تسوية شاملة. ولم يكن باستطاعة «ابن سعود» أن يتجاهل غصن الزيتون، لكنه أبدى ردة فعل مشوبة بالحذر، فأرسل فيما بعد أخاه «محمداً» بقوة للغارة على قبيلة «حرب». وقاد بنفسه قوة باتجاه «بريدة» ومن هناك تقدم نحو «الأسياح» المتاخمة للمنطقة التي كانت قوات «ابن رشيد» تعسكر فيها، واصطحب معه في تلك الحملة «صالح المهنا» إضافة إلى فرقة من مقاتلي «بريدة»، ولكنه لم يكن مقتنعاً بالولاء الذي تظاهر به «صالح المهنا».

وجد «ابن سعود» أنه من الحكمة أن يتراجع بقواته نحو «الزلفي» ومن هناك إلى «المجمعة»، وأمر قوة «بريدة» بالرجوع إلى الرياض، لكن «ابن

رشيد» كان في تلك الأثناء يمارس غارات متقطعة على مناطق الصحراء الشرقية، وكان يشنها من معسكره في «روضة مهنا»، الأمر الذي جعل «ابن سعود» يقرر مهاجمته.

قدم «ابن سعود» على رأس قوة كبيرة انضمت إليها قوات قبيلة «مطير» تحت قيادة «فيصل الدويش» الذي كان «ابن سعود» يشك نوعاً ما في تصرفاته، وتمكن ليلاً وسيراً على الأقدام من اجتياز الحاجز الرملي الذي يفصل بين قواته وقوات أعدائه، وحدث الاشتباك الفعلي في الثالث عشر من شهر نيسان عام ١٩٠٦م. وكانت المعركة شرسة وتصرف «ابن رشيد» خلالها بشكل منافٍ للتقليد المعروف، إذ كان يدور بفرسه حول رجاله يجمعهم ويوجه هجماتهم وإلى جانبه حامل رايته وقائد قواته، وأثناء تجواله تمكنت قوات «ابن سعود» من التعرف عليه فأطلقوا النار عليه وأردوه قتيلاً، وكانت تلك هي نهاية المعركة.

تفككت قوات «ابن رشيد» ولاذت بالفرار وهرب قادتها باتجاه «حائل» لا يفكرون إلا بالشخصية التي ستخلف «ابن رشيد» في الحكم. واستولت قوات «ابن سعود» على الكثير من الغنائم التي تركتها قوات «ابن رشيد» في المعسكر، لكن «ابن سعود» لم يضيع الوقت في حصرها وتوجه بقواته وأغار على فريقين من قبيلة «حرب» في منطقتي «الرحي» و «أبو مغير»، وتقدم بعد ذلك نحو «بريدة» وهناك اعتقل «صالح المهنا» وأمر بإرساله إلى السجن في الرياض وعين ابن عمه المدعو «محمد العبد الله أبا الخيل» أميراً على «بريدة» بدلاً منه.

هدأ بال «ابن سعود» بعد مقتل «ابن رشيد» ولم يعد يفكر باحتمال حدوث اضطرابات تعكر صفو حكمه في المناطق التي تمتد حتى الحدود

الشمالية من القصيم. ويبدو أنه لم تكن لديه طموحات في المناطق التي تقع خلف تلك الحدود، فقد قويت قبضة «ابن سعود» على منطقة القصيم بعد إزاحة «صالح المهنا» عن السلطة. وعندما قام «متعب بن عبد العزيز الرشيد» الذي ثبت أقدامه في السلطة بعد وفاة والده بمبادرة لتسوية الخلاف، وقد رحب «ابن سعود» بتلك المبادرة ووافق على استقلال «جبل شمر» ضمن حدوده الطبيعية، كما تعهد «متعب» بأن يعيد كافة المقيمين في حائل من عائلة «آل سعود» الذي احتموا في «حائل» إلى الرياض لكن على أمل أن يكرسوا الوضع القائم هناك لخدمة مصالحهم.

وعلى أي حال لم يكتمل جلاء القوات التركية التي كانت في تلك الفترة تحت إمرة «سامي باشا الفاروقي» الذي خلف «صدقي باشا» في قيادتها. ومادام هناك بقايا من بقاياهم، فإن هناك مجالاً لظهور المزيد من المكائد. وبالرغم من التسوية التي توصل إليها «متعب» مع «ابن سعود» إلا أنه كان يجري اتصالات مريبة مع والي بغداد، لكن الأتراك لم يتأثروا كثيرا لتقربه منهم. وقد حاول «سامي باشا» أن يقدم مساعدة مالية لـ «ابن سعود» ليسمح لقواته بالبقاء في إقليم القصيم، إلا أن «ابن سعود» رفض ذلك العرض بسخط واستياء، وأخيراً اضطرت القوات التركية إلى الرحيل. وعاد «ابن سعود» بعد ذلك إلى الرياض، وفي الطريق توقف في «شقراء» وهناك استقبل وفداً من «المجمعة» كان قد قدم ليؤدي يمين الولاء لـ «ابن سعود». وأثناء وجوده في «شقراء» وصلته أخبار تفيد بوجود مراسلات تنم عن خيانة بين «فيصل الدويش» زعيم قبيلة «مطير» وبين الأتراك، وعلى الفور أرسل «ابن سعود» حملة تأديبية وأنهى تلك المؤامرة. وعاد «ابن سعود» إلى الرياض ليستقبل وفداً

قدم إليه محملاً بشكر السلطان «عبد الحميد» للمعاملة الطيبة التي أبداها للقادة والجنود الأتراك خلال الفترة التي قضوها في الجزيرة العربية .

لم ينعم «ابن سعود» لفترة طويلة بالمجد الذي حققه إذ سرعان ما وصلت إليه أخبار مزعجة من «حائل» تفيد بمقتل «متعب» مع اثنين من إخوته . وتفيد الأخبار أيضاً بأن أحد العبيد المخلصين لهم تمكن من تهريب أخاهم الأصغر والنجاة بحياته . وأصبح «سلطان بن حمود» الذي اقترف تلك الجريمة حاكماً على «حائل» واستمر في حكمها مدة عام . وفي شهر كانون الثاني من عام ١٩٠٨م قام «سعود وفيصل» بقتل أخيهم «سلطان بن حمود» ونصب «سعود» نفسه حاكماً على «حائل» ، في حين أصبح «فيصل» حاكماً على الجوف وعلى المناطق الشمالية . وقد عارض زعيم جماعة «الرولة» المدعو «نوري الشعلان» ربط الجوف وتلك المناطق بحائل . ومما لا شك فيه أن معارضته تلك كانت مدعومة من قبل الأتراك الذين كانوا يتحركون خلسة باتجاه مناطق شمال الحجاز . وسارعت جماعة واحة «خيبر» في الإعراب عن ولائها للمغدور به «سلطان بن حمود» الذي أسفر عجزه وعدم تأهيله عن تحويل خط سير قوافل الحجاج القادمة من العراق وإيران عن «حائل» إذ كانت القوافل تتوجه من خلال حائل باتجاه «القصيم» . وعلى أي حال لم يكن «سلطان بن حمود» ليقبل بخسارته لإقليم «القصيم» بشكل نهائي ، واستمر في الاعتماد على قبيلة «مطير» والعائلات الأخرى في منطقة «بريدة» على إبقاء الوضع يسير سلساً ومرناً .

كان «فيصل الدويش» الحاكم السابق أول من رفع مستوى التمرد ، إذ قام في شهر أيار (مايو) عام ١٩٠٧م بحركة تمرد تم سحقها تماماً . وأسفر ذلك

التمرد عن اشتباكات دارت في المجمعة شارك فيها «فيصل الدويش» وأصيب بجراح بالغة.

لم تؤد مهزلة الاستسلام والعفو المعتاد لأي تغيير دائم في سلوكه، إذ نجده في خريف العام نفسه معسكراً بقواته في «الطرفية» بدعم من «سلطان» ومن زعيم بريدة «محمد أبا الخيل» للانقضاض مجدداً على «القصيم». ولذلك تحرك «ابن سعود» بسرعة باتجاه «سدير»، وهناك استدعى قبائل «عتيبة» و «قحطان» و «سبيع والسهول» وطلب منهم الاستعداد بكامل قواتهم، ثم سار باتجاه «عنيزة» وأغار على مواقع قوات «سلطان» المتقدمة، وأرسل بقوة لتسيطر على قبيلة «مطير» في «الطرفية»، ومن هناك تحرك شخصياً على رأس قوة ليلحق بقوات «فيصل» هزيمة نكراء ويحتل معسكرهم. وقد حاول «سلطان» وجماعة «بريدة» مفاجأته في هذا الموقع وأغاروا عليه في العشرين من شهر أيلول، إلا أنهم منوا مجدداً بالهزيمة وفروا باتجاه «بريدة»، ومن هناك هرب «سلطان» إلى «حائل» تاركاً وراءه أخاه «فيصلاً» ليساعد قوات «محمد أبا الخيل» حين تستدعي الضرورة.

أرسل «ابن سعود» في تلك الفترة قوة من الخيالة لمراقبة تطور الأوضاع في «بريدة»، كما قام بعدة هجمات استهدفت مناطق في عمق «القصيم» مثل «البكيرية» و «الرس» ومنطقة قبيلة «حرب» المتواجدة حول «النبهانية». وبعد انتهائه من تلك الغارات عاد إلى الرياض ليقضي فيها وقتاً من الراحة.

لم يطل «ابن سعود» الجلوس في الرياض، إذ وصلته أخبار مفادها أن «سلطان» كان يتحرك بقواته باتجاه «بريدة»، وعليه عاد مسرعاً إلى «القصيم»، لكن اتضح فيما بعد أن تلك الأخبار لم تكن صحيحة. وفي

محاولة منه للمسارعة في اعتراض تقدم قوات «سلطان» تحرك بقواته ووصل بها حتى منطقة «الكهفة»، لكن لم يجد هناك أي أثر لأعدائه، فشن غارة على معسكر لجماعة «ابن طوالة من شمر» في منطقة «فيد»، وبعد تلك الغارة سحب قواته باتجاه «البكيرية»، وهناك وصلته أخبار مقتل «سلطان» وكان ذلك في شهر كانون الثاني من عام ١٩٠٨م. وسارع الحاكم الجديد للتوصل إلى ترتيبات مع «ابن سعود» الذي صب جل اهتمامه الآن على «بريدة» وفي ذهنه تصور معين لتسوية نهائية. كما تعب أهالي «بريدة» من حالة التأهب والاستنفار المستمر الذي فرض عليهم نتيجة السياسة الشخصية التي نهجها «محمد أبا الخيل»، ولذلك قاموا باتصالات سرية مع «ابن سعود» واتفقوا معه على أن يفتحوا أحد بوابات المدينة ليلاً خلال أداء صلاة العشاء.

كلف «ابن سعود» فريق من رجاله لاحتلال الأبراج والقلاع الموجودة على السور الدائري للمدينة، وفعلاً احتلوها بسهولة وقامت مجموعة تقدر بثلاثمائة رجل بتشكيل ستار لعزل المساحة الكبيرة التي كانت أمام القلعة الكبيرة. وأخذ رجال «ابن سعود» يقرأون في الساحات العامة وفي المساجد إعلاناً صدر عن «ابن سعود» يقضي بتأمين سلامة كافة الأهالي المخلصين له ومطالبتهم بالاستسلام وبتسليم كافة الأسلحة. وعلى الفور استجاب الأهالي إلى ذلك النداء، وكل ما بقي أمام «ابن سعود» من العقبات هو التغلب على «محمد» وأتباعه الذين دخلوا القلعة واستحكموا فيها استعداداً لمواجهة الحصار. وعلى أي حال كانوا في موقف ميؤوس منه، وبعد مضي بضعة أيام من المناوشات العقيمة سعى « محمد» وراء الاستسلام. وتمت ترتيبات الاستسلام على أساس أن يسلم «محمد» كافة أسلحة وذخائر

أسرته وأتباعه مقابل أن يرحلوا بسلام عن «بريدة» ويتجهوا الوجهة التي يريدونها، وفعلاً اختاروا اللجوء السياسي في العراق واستقروا مع مرور الزمن في «سوق الشيوخ».

كان «محمد أبا الخيل» آخر حاكم محلي من «بريدة»، ولم يعد بإمكان «ابن سعود» أن يغامر بنتائج ترك الأسر الرئيسة في «بريدة» تعكر صفو الأمن في مملكته بسبب تنافسها المثير للنزاع على الفوز بالحكم. وكانت هناك حاجة إلى قوة أكبر من قوتهم لضبط روح الاستقلال في إقليم «القصيم»، فعين «ابن سعود» حاكماً على القصيم ابن عمه «عبدالله بن جلوي» المعروف بشجاعته، وبقي «عبد الله بن جلوي» في ذلك المنصب مدة خمس سنوات إلى أن استدعت الحاجة إلى الاستفادة من خدماته في مهام ومسؤوليات في مكان آخر. ولم يعد إقليم «القصيم» محور الأمور السياسية في الجزيرة العربية، ولم يعد كذلك مصدراً للتوتر الذي سبق أن كان عليه على مدى السنوات الحرجة من جهاد «ابن سعود» للسيطرة على «نجد».

استسلمت «بريدة» في اليوم التاسع والعشرين من شهر آيار عام ١٩٠٨م وسارع «سعود» الرشيد (حاكم «حائل» الجديد) للتوصل إلى تسوية لخلافاته مع «ابن سعود». وعلى الفور قبل «ابن سعود» تلك المبادرة واعترف باستقلال «جبل شمر» شريطة أن يتوقف ذلك الإقليم عن تعكير الأمن في المناطق الخاضعة لحكمه. كما أرسل أهالي المجمعة أيضاً وفداً برئاسة زعيمهم «عبد الله العسكر»[1] لتقديم الاعتذار إلى «ابن سعود» عن موقفهم المائع وليعلنوا للملأ عن ولائهم للحكم الجديد.

---

(١) الصواب: أنه عبدالعزيز بن عبدالله العسكر كما في عنوان السعد والمجد لابن ناصر. وهو مصدر المؤلف. (المراجعون).

ويبدو أن السيل العظيم الذي اجتاح «مكة» جاء كخاتمة لعام شهد إنجازات مرموقة، فقد جرت مياه السيول وهي تلتف كالدوامة ودخلت الكعبة المشرفة وشكلت حول الكعبة نفسها بحيرة بلغ عمقها حوالي عشرة أقدام.

سرعان ما تلاشت أحلام «ابن سعود» في العيش بفترة سلام بسبب المشكلات التي تفجرت من جديد في «حائل». فكما سبق أن أشرنا تم إنقاذ الوريث الشرعي للحكم في «حائل» والمدعو «سعود بن عبد العزيز بن رشيد» والذي كان قد بلغ من العمر آنذاك عشر سنوات بعد أن كتب الله له النجاة من براثن المجزرة التي قام بها «سلطان بن حمود» للاستيلاء على السلطة، إذ تمكن أحد العبيد المخلصين من تهريبه إلى «المدينة».

إن استمرار المشكلات في «حائل» جعل الوجهاء من الأهالي هناك يفكرون في العودة إلى السلالة الشرعية لتحقيق الاستقرار والأمن، فتزعم هذه الحركة اثنان من عائلة مرموقة وقدر لهما أن يؤديا دوراً قيادياً في الأمور السياسية لمنطقة «جبل شمر» وعلى مدى حوالي اثني عشر عاماً من الفترة التي ظلت خلالها «حائل» منطقة تتمتع باستقلاليتها. كان «حمود بن سبهان» هو منفذ وصاحب فكرة الانقلاب الذي حدث في شهر شباط من عام ١٩٠٩م بالتواطؤ مع ابن عمه «زامل بن سبهان». فبعد أن حشدا الدعم اللازم لخطتهما تلك عملا على حشد القوات اللازمة لتحقيق آمالهم في انتصار خطتهم. وتم إحضار «سعود» - الشاب الصغير - من «المدينة» وقام أنصاره بفتح بوابات المدينة له، وهناك نشب قتال قتل فيه «سعود بن حمود» كما تم تصفية بقية أعضاء أسرته بالقتل، علماً بأن اثنين منهم وهما «ضاري»

و«فيصل» تمكنا من الهرب إلى الرياض، بعدها تم تنصيب «سعود بن عبدالعزيز» ابن رشيد أميراً تحت وصاية «حمود بن سبهان» الذي تصادف أن كان زوجاً لشقيقته وهي البنت الوحيدة التي خلفها «عبد العزيز».

كان «زامل» اليد اليمنى في حكم ذلك الإقليم، لكن بعد مضي بضعة أشهر توفي «حمود» مسموماً وخلفه «زامل» كوصي على الحكم. وليقوى قبضته على شؤون الإقليم أقدم «زامل» على الزواج من والدة «سعود» التي سبق لها أن تزوجت ثلاثة من قبله، فكان زوجها الأول «محمد الكبير ابن رشيد» وبعده تزوجت «عبد العزيز بن رشيد» وبعده «سلطان بن حمود» وهو الشخص الذي قتل «متعب» ابن زوجها وخلفه في الحكم. ولم تكن العزلة المفروضة على النساء في الجزيرة العربية لتمنعهم من تحريك القطع المهمة على رقعة الشطرنج السياسية.

كان أول تحرك قام به «حمود» هو محاولة لكسب رضي «ابن سعود»، لكن الروايات التاريخية المتوافرة، تثبت رفض «ابن سعود» محاولة «حمود» التقرب منه. حدث ذلك الرفض خلال فترة قصيرة سبقت قيام «زامل» بتنظيم غارة على جماعة «مطير». وكإجراء انتقامي قام «ابن سعود» بالهجوم على جماعة «شمر» التي كانت بجوار منطقة «الشعيبة»، وأقام فيها مقراً لقيادته وبدأ يجوب النفود بحثاً عن «زامل» الذي علم بأنه كان يناور لشن هجوم مضاد. وتحرك «ابن سعود» بعد ذلك إلى مكان يقال له «الاشعلي» وهناك نصب خيامه بعيداً بعض الشيء ليراقب تطور الأحداث. عثر «زامل» (أثناء تحركه تحت جنح الظلام) على معسكر «ابن سعود» وأخبرته دوريات العسس بأن المعسكر كان خالياً من الناس، وعليه أعد

الترتيبات لمهاجمته، فتقدمت قواته باتجاه المعسكر ونهبت ودمرت كل معداته وممتلكاته. لكن بقيت قوات «ابن سعود» تراقب الوضع عن بعد إلى أن حان الوقت للقيام بهجوم مفاجئ. ونجم عن ذلك الهجوم الهزيمة المحققة وتابع «ابن سعود» مسيره باتجاه «قبه» ومنها إلى «القصيم» ومن ثم إلى الرياض.

أصبحت الآن كافة مناطق وسط الجزيرة العربية مقبلة على جفاف قاس. حيث حدث القحط لعدة سنوات، وبلغ درجة جعلت المصادر التاريخية للجزيرة العربية تطلق عليه اسم «ساحوت»[1]، وذلك يعني «القحط التام». وبالرغم من ذلك الجفاف أو ربما بسببه دخلت المنطقة في فترة عصيان وانشقاق وعدم استقرار شامل، حيث اضطر «ابن سعود» خلال تلك الفترة إلى استنزاف كافة مصادره الشحيحة. وحدث خلال تواجده في الشمال أن تلقى والده «عبدالرحمن» أخباراً غير سارة تفيد بحدوث مشاحنات محلية في منطقة «الحريق»، والتي حدث فيها أن قُتل «الهزاني» على أيدي اثنين من أبناء عمه. وقد قامت القوة التي أرسلت إلى هناك لإنهاء المشكلات واعتقال القاتلين اللذين قام بدوره بذبحهما بعد محاكمة وفق الشريعة الإسلامية. وما إن غادرت تلك القوة المنطقة حتى حدثت جريمتان أخريان، عندها توجه «عبد العزيز» بنفسه إلى هناك وأصر على معالجة المشكلة وفق الشريعة الإسلامية، إلا أن المعنيين بالمشكلة لم يستجيبوا له والتجأ القادة المعنيون إلى قلعتهم واحتموا فيها وقاوموا حصاراً دام خمسة عشر يوماً، وأخيراً وضع «ابن سعود» لغماً تحت القلعة وهدد بنسفها بمن فيها، وعليه استسلم المعتصمون وأرسلوا إلى الرياض ليسجنوا في سراديب سجن «المصمك» لمدة عامين بعدها أطلق سراحهم بسبب وساطة «قاسم آل ثاني» أمير قطر.

---

(١) سنة ساحوت كانت في عام ١٣٢٨هـ. (المراجعون).

في تلك الأثناء نشبت خلافات صعبة بين الشيخ «مبارك» أمير الكويت و«سعدون باشا» والي منتفق العراق. وناشد الشيخ «مبارك» «عبدالعزيز بن سعود» وطلب منه المساعدة، واستجابة منه لتلك المناشدة سار «ابن سعود» بقواته باتجاه مقاطعة «الجهراء» بالقرب من الحدود العراقية، ومن هناك سار بقوة تقدر بما يزيد على سبعة آلاف رجل كان القسم الأعظم منهم من رجال الكويت تحت إمرة الشيخ «جابر». وبعد فترة قصيرة اشتبكوا مع قوات «سعدون باشا» التي بلغ تعدادها نفس تعداد قوات «ابن سعود» لكنها تميزت بشكل ملحوظ بفرقة الخيالة. وتجاهل «جابر» نصيحة «ابن سعود» بأن يدع المقاتلين البدو يهاجمون المعسكر أولاً، بدأ القتال في معركة «هدية» بدفع فرقة الفرسان في مقدمة الهجوم وكان ذلك في اليوم السادس عشر من شهر حزيران عام ١٩١٠م. وكان «سعدون» قد احتفظ بفرسانه في حالة احتياط ولم يطلق يدهم في القتال إلا بعد أن توقف عدوه عن المنازلة وتمكنوا من ردهم على أعقابهم بعد أن دبت فيهم حالة الفوضى. وتلاشت القوات المتحالفة في الصحراء وولت الأدبار باتجاه الكويت، وقامت قوات «المنتفق» باحتلال معسكرها ونهب كل ممتلكاته.

لم تكن تلك المعركة سوى جزء من تحرك سهل كان القصد منه تضييق الخناق على جهود «زامل بن سبهان» الرامية إلى استعادة شيء ما من مجد «حائل» القديم. ففي الوقت الذي كان فيه «سعدون باشا» متحالفاً مع «زامل» بادر رئيس «الرولة» المدعو «نوري الشعلان» وانضم إلى عمارات «عنزة» ليضغط على «زامل» في الشمال والشمال الشرقي، في حين كان «ابن سعود» وإلى جانبه الكويتيون يمارسون الضغط عليه من جهة الجنوب.

والجدير بالذكر أن «نوري الشعلان» كان قد تمكن في تلك المرحلة من إقصاء «الجوف» ومنطقة «وادي السرحان» عن تحالفهما وولائهما السابق إلى «حائل». وسبق أن بينا أيضاً كيف أن أحد بنود هذا البرنامج قد انحرف عن مجراه في معركة «هدية» بأن حدث في تلك الفترة أن هاجم «زامل» القوات المتحالفة في شمال منطقة «الجميماء». وفي تلك المرحلة أيضاً ثار سكان بلدة «تيماء» في الغرب، وعلاوة على ذلك قامت القوات التركية التي قدمت من المدينة تلبية لدعوة السكان باحتلال البلدة.

وحيال هذه الأمور وجد «زامل» نفسه مضطراً لاتخاذ إجراء معين، ومرة ثانية كان النجاح حليفه وتمكن من إجبار الحامية التركية على التراجع وانتقم من السكان لانحرافهم عن الولاء له. وفي نفس الوقت قام «سعدون» و«زامل» اللذان استغلا بدرجة كبيرة الجفاف المسيطرعلى المنطقة بترتيب المكائد مع جماعة «العجمان» في شرقي الجزيرة العربية، ونجحوا في ممارسة المزيد من الضغوط على قوة «ابن سعود». وازداد الوضع تعقيداً نتيجة لحقيقة هي أن الحاميات التي كانت تحت إمرة «سعود بن فيصل»[1] كانت قد غادرت الرياض خلال فترة غياب «ابن سعود» على رأس الحملة التي توجه بها إلى منطقة «الهدية» وانضمت إلى قوات جماعة «العجمان» المعادية. والجدير بالذكر هنا أن «سعود بن فيصل» كان قد رجع إلى عائلة «آل سعود» (كما سبق أن أشرنا) بعد أن استولى «ابن سعود» على «عنيزة» عام ١٩٠٤م. وكانت تلك تطورات سيئة أسفرت بشكل مباشر تقريباً عن نتائج وخيمة، ولم يعد بالإمكان تعيين أبناء العم في مناصب إقليمية دون المغامرة بمخاطر

(١) هو سعود بن فيصل بن سعود بن فيصل بن تركي بن عبدالله، وهو ابن ابن عم الملك عبدالعزيز. (المراجعون).

محتملة. ولم ينس أبناء العم هؤلاء أسبقيتهم ورفعة منزلتهم في شرعية الخلافة على الحكم، علماً بأن «ابن سعود» عاملهم بكل تقدير واحترام، لكن ليس من الغريب أو المفاجئ على جماعة من الشبان في ريعان الشباب أن يغتاظوا بسبب العضالة المفروضة عليهم في زمن كان العالم أمامهم مملوءاً بفرص المغامرة والمتعة.

مع بداية عام ١٩١١م قام «زامل» بمبادرة للتوصل إلى السلام، وقبلت مبادرته على أساس الاعتراف باستقلاله في منطقة «جبل شمر» فقط، وكان من الممكن لتلك الترتيبات أن تدوم مادامت تناسب مصلحة الأطراف المعنية، إضافة إلى أنه قد ظهر الآن عدو آخر من ناحية الغرب. ولم يفقد الأتراك الأمل أبداً في فرض سيطرتهم على وسط الجزيرة العربية، علماً بأنهم منوا بالفشل على أيدي «ابن رشيد» بسبب تجربتهم السابقة. آل ذلك الأمل إلى «الشريف الحسين» الذي كان قد عين أميراً على مكة عام ١٩٠٨م، وهو العام الذي تم فيه إنجاز خط سكة حديد الحجاز فبلغ أقصى مسافة له حتى حدود المدينة المنورة. عاش «الشريف الحسين» فترة طفولته بين البدو قبل أن يذهب للقسطنطينية (إستانبول)[1] ليقضي هناك منفى دام فترة طويلة، والآن وقد بلغ من العمر ستين عاماً توفرت له الفرصة الأولى ليبدي ما يمكنه عمله من أجل إثبات نفسه كعنصر مهم في مجال السياسة المتعلقة بالجزيرة العربية.

---

(١) من المعلوم أن الشريف الحسين بن علي قد ولد في إستانبول (الأستانة) عام ١٢٧٠هـ ومات عام ١٣٥٠هـ ودفن في القدس. (المراجعون).

وبشكل عام وبدون اتخاذ أي إجراء إيجابي، قلد «الشريف الحسين» سلفه في تعطيل الأعمال الخاصة بمشروع سكة الحديد الممتدة إلى مكة. وأبدى «الشريف الحسين» بوادر تدل على براعة وقدرة في قيادة الحملة التي فوضه «الصدر الأعظم» للقيام بها ضد الزعيم الإدريسي المتمرد والمدعو «محمداً» الذي كان قد احتل مرتفعات «عسير» و «أبها» في تلك الفترة. وتمكن «الحسين باشا»[1] من استرداد إقليم «عسير» وإعادته إلى أسياده الأتراك، وعاد إلى مكة منتصراً عن طريق بلدان «بيشة»، و«رنية»، و«تربة».

شجعت الإنجازات التي قام بها «الحسين باشا» على الاستفادة من خدماته في محاولة لتعزيز نفوذهم في الجزيرة العربية. وفي نهاية عام ١٩١١م أو بداية العام التالي تحرك «الشريف الحسين» على رأس قوة ضخمة مروراً بمناطق قبيلة «عتيبة» ووصل إلى «القويعية» وذلك في اللحظة نفسها التي كان«سعد بن عبدالرحمن» الأخ المقرب لابن سعود قد وصل إليها لحشد المحاربين في صف ابن سعود. وتمكن «الشريف الحسين» من أسر «سعد» وأخذه كرهينة وطلب من «ابن سعود» أن يدفع فدية لإطلاق سراحه، وتجلت تلك الفدية في قبول «ابن سعود» بسيادة السلطة العثمانية إضافة إلى دفع جزية اسمية عن إقليم «القصيم».

قام بمطاردة قوات «الشريف الحسين» التي تراجعت باتجاه الغرب حاملة معها ما سلبته من غنائم ثمينة. والمعروف عن «الشريف الحسين» أنه كان يتجنب الأماكن التي يمكن أن تستعر فيها المشكلات على نار هادئة. ولم يكن أمام «ابن سعود» الكثير من الخيارات، فكان مستعداً لفعل أي شيء

---

(١) أي الشريف الحسين. (المراجعون).

لإنقاذ أخيه من براثن العدو. وبعد أن فشل عدة مرات في التفاوض مع الأتراك عبر قنوات أخرى، وجد نفسه مضطراً للتوقيع على الوثيقة التي عرضها عليه «الشريف الحسين». وحمل «الشريف الحسين» تلك الوثيقة وهو في غاية السعادة وتم إطلاق سراح «سعد» والتحق بقوات أخيه. ولقد حقق أمير مكة نصراً فنياً للموقف التركي، إلا أن «ابن سعود» لم يلزم نفسه ببنود الاتفاقية، فلم يدفع «ابن سعود» أية جزية وقام بأعمال دلت على تراجعه عن تلك الوعود الشفهية التي كانت تكتيكاً من ابن سعود استطاع من خلالها أن يقوي صفه في وجه خصومه السياسين في تلك الفترة.

وأثناء وجود ابن سعود في الصحراء الشرقية لمتابعة فلول المتمردين وصلته رسالة من الشيخ «مبارك» يطلب فيها مساعدته ضد «المنتفق» و «الظفير» المتواجدين في المناطق المتاخمة للحدود العراقية. لكن بعد تجربته الأخيرة مع «جابر» في منطقة «الهدية» لم يكن «ابن سعود» في وضع يمكنه من التعاون مع «مبارك»، إلا أن الرسالة العاجلة الثانية التي أرسلها «مبارك» إليه حملته على أن يغير رأيه فتحرك على رأس قوة كبيرة للغاية باتجاه «حفر الباطن» وهناك قدم إليه «حمود بن سويط» زعيم قبيلة «الظفير» وعقد معه اتفاقية سلام، كما أطلعه بأن «مبارك» نفسه كان قد حذره من تقدم قوات «ابن سعود»، لكن على ما يبدو كان «مبارك» يعمل على توازن القوى في الجزيرة العربية.

أغار «ابن سعود» على جماعة «المنتفق» في منطقة «كابدة»، وفجأة وجد نفسه في منطقة «صفوان» المجاورة للبصرة والزبير. ومهما يكن الدافع وراء

استعراضه للقوة تلك والتي جاءت في وقت كان فيه الأتراك متوترين ومشدودين بسبب انتشار حركة القوميين العرب في سوريا والعراق وفي أماكن أخرى بعد ثورة عام ١٩٠٨م، فنجد أن «ابن سعود» وافق على الانسحاب من تلك المناطق بعد أن وصل إليه وفد ودي يمثل والي البصرة ويمثل أهالي «الزبير»، وفعلاً سار بقواته باتجاه «الجهراء» القريبة من الكويت. وبعد لقاء ودي بالشيخ مبارك الصباح قام «ابن سعود» بغارة ثانية على جماعة «العجمان» في مناطق «الأحساء».

ومما لا شك فيه أن الأتراك تفاجأوا بمكانة وإمكانية «ابن سعود» المتنامية وبتأثيره في شؤون الجزيرة العربية، لذا سعوا لجلبه إلى مجالسهم ليشكل ثقلاً مقابل حركة القوميين العرب التي كانت تنشط في المناطق المأهولة القريبة من حدود المناطق التي يسيطر عليها. وعليه تم تفويض والي «البصرة» المدعو «سليمان شفيق باشا» بالتحقق من تصرف ذلك الزعيم السعودي وأخذ النصيحة منه بخصوص أفضل الطرق التي يمكن نهجها للتعامل مع حركة القوميين العرب.

الحقيقة أن جواب «ابن سعود» للأتراك كان موثقاً تاريخياً، كما كان جواباً مشوقاً باعتباره أول رسالة تصدرعن فن الحكم في إدارة الأمور وبعد تمهيد أو مقدمة لتلك الوثيقة القانونية التي حمل «ابن سعود» فيها الأتراك المسؤولية التامة عن المشكلات التي تحيق بهم في كل مكان من إمبراطوريتهم في العالم العربي، يقول «ابن سعود»: بعد السلام: «إنكم لم تحسنوا إلى العرب ولا عاملتموهم في الأقل بالعدل، وأنا أعلم أن استشارتكم إنما هي

وسيلة استطلاع لتعلموا ما انطوت عليه مقاصدي، وهاكم رأيي، ولكم أن تأولوه كما تشاؤون.

إنكم المسؤولون عما في العرب من شقاق، فقد اكتفيتم بأن تحكموا وما تمكنتم حقاً من ذلك، فقد فاتكم أن الراعي مسؤول عن رعيته، وقد فاتكم أن صاحب السيادة لا يستقيم أمره إلا بالعدل والإحسان، وقد فاتكم أن العرب لا ينامون على الضيم، ولا يبالون إذا خسروا كل ما لديهم وسلمت كرامتهم.

أردتم أن تحكموا العرب وتقضوا إربكم منهم، فلم توفقوا إلى شيء من هذا وذاك. لم تنفعوهم ولا نفعتم أنفسكم، وفي كل حال أنتم اليوم في حاجة إلى راحة البال، لتتمكنوا من النظر الصائب في أموركم الجوهرية.

أما ما يختص منها بالعرب فإليكم رأيي فيه: إني أرى أن تدعوا رؤساء العرب كلهم كبيرهم وصغيرهم إلى مؤتمر يعقد في بلد لا سيادة ولا نفوذ فيه للحكومة العثمانية، لتكون لهم حرية المذاكرة. والغرض من هذا المؤتمر التعارف والتآلف، ثم تقرير أحد أمرين: إما أن تكون البلاد العربية كتلة سياسية يرأسها حاكم واحد. وإما أن تقسموها إلى ولايات، فتحددون حدودها، وتقيمون على رأس كل ولاية رجلاً كفؤاً من كل الوجوه، وتربطونها بعضها ببعض بما هو عام مشترك من المصالح والمؤسسات، وينبغي أن تكون هذه الولاية مستقلة استقلالاً إدراياً وتكونوا أنتم (المشرفون) عليها، وإذا تم ذلك فعلى كل أمير عربي، أو رئيس ولاية أن يتعهد بأن يعضد زملاءه، ويكون هو وإياهم يداً واحدة على كل من تجاوز حدوده، أو أخلّ بما هو متفق عليه بيننا وبينكم».

ويختم ابن سعود رسالته قائلاً: «هذه هي الطريقة التي تستقيم فيها مصالحكم ومصالح العرب، ويكون فيها الضربة القاضية على أعدائكم»[١].

تشير النصوص التاريخية إلى أن والي البصرة أعرب عن إعجابه بالوثيقة أعلاه ونقلها إلى الصدر الأعظم لدراستها والنظر فيها. ويبدو أنه تم النظر إلى تلك الوثيقة - وربما بشكل لا خيار له فيه - على أنها جهد قام به «ابن سعود» ليعزز من سيادته على كافة مناطق الجزيرة العربية بدعم من الإمبراطورية العثمانية وعلى حسابها أيضاً. وبالرغم من ذلك يمكن أن يكون من الأفضل للصدر الأعظم لو أنه اختار هذه الفترة التي تميزت بهدوء نسبي ليعد أشرعته على نحو يتناسب مع العاصفة القادمة.

لم يكن أمام «ابن سعود» بديلاً إلا أن يعتمد على ترتيبات بديلة ليقي نفسه من الخطر، خاصة أنه أدرك أن اقتراحاته لم تلق آذاناً صاغية. وكان «ابن سعود» خلال الاثنتي عشرة سنة الماضية قد حاول جاهداً أن يستميل اهتمام الحكومة البريطانية لصالحه كقوة وحيدة لها مصالح حيوية وقوة فاعلة في الخليج، إذ كانت تدور في رأسه فكرة ضمان مكانته ومركزه في الجزيرة العربية ضد أي اعتداء كان، لكن لم تكن لدى البريطانيين الرغبة في التدخل في مغامرات الصحراء. وكانت الحكومة البريطانية مهتمة كثيراً باسترضاء الأتراك على الصعيد الدبلوماسي لأقصى درجة ممكنة وبشكل يتناسب مع حماية مصالح البريطانيين في الخليج. وهكذا مع استمرار

---

(١) نص الرسالة منقول من ابن ناصر، عنوان السعد والمجد، مخطوط، وهو مصدر المؤلف. (المراجعون).

سيطرة العثمانيين على إقليم «الأحساء» التي بدأت عام ١٨٧١م والسيطرة الفعلية للبريطانيين على كافة منافذ سواحل الخليج العربي من الكويت حتى مسقط، وجد «ابن سعود» نفسه محاصراً في الصحراء. بل وجد نفسه في هذه المناطق الداخلية المغلقة عرضة لهجمات يمكن أن يقوم بها أعداؤه من جهات الشمال والغرب بدعم وتشجيع من قبل العثمانيين.

لا بد أن «ابن سعود» أمضى خلال سنوات الجهاد هذه العديد من الساعات في التفكير المضني وفي دراسة الطرق والوسائل التي تمكنه من مجابهة تقلبات الأحداث التي يصعب التنبؤ بها، والتي سبق أن وضعت أسلافه وأجداده عند فواصل زمنية من تاريخ الدعوة السلفية التي كانت تنجح حيناً وتخفق حيناً آخر، والتي كانت أسرة «آل سعود» قد بنت عليها موقفاً استطاعت من خلاله السيطرة على الجزيرة العربية. كما أدى «ابن سعود» نفسه دوراً بارزاً في انهيار حكم «محمد بن رشيد» الذي حدث في اللحظة التي أقصى فيها الموت يد تلك الشخصية القوية عن دفة الحكم. وقد سبق أن كان للقيادة الضعيفة دور في تبدد الإمبراطورية العربية القوية في الأيام الأولى من الدولة الإسلامية، كما أسهم في تبددها أيضاً ذبول القناعات التي لها صلة بغنى ورخاء الأقاليم التي تم فتحها من قبل المسلمين. ومن الواضح أنه كان هناك ثمة ضعف في تركيبة مجتمع الجزيرة العربية، بمعنى أنه بقدر ما كان يتمتع بقوة بطولية ناجمة عن قضية عظيمة أو شخصية عظيمة، إلا أن تركيبة المجتمع القبلي جعلته عاجزاً عن الحفاظ على انضباط ضروري لتنمية ثمرات انتصارات تحققت على يده لخدمة الناس كافة. وقد كانت قبائل الصحراء وكذلك المدن مرتبطة بحس الولاء المحلي أو القبلي

الذي هيمن على الروح الجماعية والروح الوطنية الأكثر شمولية والتي تعد ضرورة للحفاظ على النظام في البلاد.

سخر «ابن سعود» كل جهوده لمعالجة ظاهرة الضعف هذه وأصر على إيجاد العلاج لها مادام كان ذلك ممكناً. وقد أملى عليه تاريخ أسرته أن يكون الدين هو العنصر الرئيس في العلاج، ومما لا شك فيه أن «ابن سعود» ووالده كانا الورعين المخلصين السائرين على سنة السلف الصالح. وعلى أي حال يمكن الافتراض أن فكرة إحياء حركة الدعوة الإسلامية كانت تعمل في فكر «ابن سعود»، على أنها أداة سياسية مهمة[1]، ولذلك كان «ابن سعود» قد طعم النموذج الاعتيادي المتبع في إحياء مثل تلك الحركات بمفهوم جديد، وحدد أيضاً نقطة ترتكز عليها جهود رسله الذين توجهوا لهذا الغرض إلى القبائل البدوية. وبدأت نتائج جهوده تؤتي أكلها في أوائل عام ١٩١٢م.

تجمعت في ذلك العام أعداد كبيرة مختلفة من رجال قبائل «حرب» و«مطير» في منطقة «حرمة» (بالقرب من «المجمعة») وبدا عليهم أنهم تأثروا فعلاً بمواعظ وتحذيرات رجال الدين الموفدين إليهم، ومقتنعين بالجزاء والثواب من الله. وكان الهدف من تجمعهم هناك تثقيف أنفسهم حول هذا الموضوع والسماع من مصادر أكثر اطلاعاً بأمور الدين من الوعاظ والدعاة الذين أرسلهم «ابن سعود» إليهم، وما كان من المتحمسين المتدينين من أبناء تلك المنطقة إلى أن أمدوهم بما كانوا يحتاجونه من علم، لكن سرعان ما قام

(١) ربما يقصد المؤلف هنا أن الملك عبدالعزيز أرسى دعائم الدولة على الدين لأنه هو الأساس والمنهج منذ قيام الدولة السعودية الأولى وحتى اليوم في المملكة العربية السعودية. (المراجعون).

بعض الأهالي هناك بأن أفسدوا ميولهم للالتزام بالشريعة ومحاولاتهم في وضع النفس على الصراط المستقيم.

قرر أفراد هذا التآخي الجديد الذي سرعان ما اكتسب اسم «الإخوان» (الذي أصبح تعداد المنتمين إليه حوالي خمسين رجلاً مع أسرهم) أن يهاجروا إلى مناطق مجاورة تكون أقل تعرضاً للشبهة، ووقع اختيارهم على مناطق آبار «الأرطاوية» الواقعة على طريق القوافل بين الكويت والقصيم، وأقاموا فيها قرية سرعان ما تحولت إلى نموذج أولي تحذو حذوه المعسكرات الدينية الأخرى الملتزمة التي انتشرت واحدة تلو الأخرى في كافة أرجاء الجزيرة العربية، وبالتحديد في الأماكن التي تتمتع بظروف مواتية لتأسيس حياة جماعية. ووضع «ابن سعود» كل التسهيلات الضرورية تحت تصرف الوعاظ والدعاة الذين أرسلهم إلى القبائل لتنشيط هذه الحركة وتكاثرها فيهم، فوضع تحت تصرفهم المال والأدوات الزراعية والبذور ومعلمي الدين وزودهم بالمال الكافي لبناء المساجد والمدارس والمساكن، وأخيراً وليس آخراً وضع تحت تصرفهم السلاح والذخيرة للدفاع عن عقيدتهم التي كانت المادة الرئيسة فيها هي تأييد المنهج الملتزم بأوامر الشرع والتخلي عن كافة ممارسات النظام القبلي القديم.

وبغض النظر عن انتمائهم القبلي أو وضعهم الاجتماعي، فقد كرس كافة الرجال من الإخوان الذين ارتضوا هذا النمط من الحياة كرسوا نزعة القتال الطبيعية عند العرب لخدمة دين الله وخدمة القائمين عليه في الأرض، وأصبحت غارات القبائل بعضها على بعض شيئاً منبوذاً، كما نبذت أعمال قطع الطرق وتدخين السجائر وأشياء أخرى من مسببات الرفاهية والمتعة التي

كان يمارسها الأولون، وأصبح هم الناس في تلك المجمعات الملتزمة بالشرع هو السعادة في الآخرة وكيفية لقاء الخالق بعد الموت.

انتشرت نشاطات الخمسين رجلاً من الإخوان على نطاق واسع بين القبائل التي سبق أن هجروها، وتهافت عليهم الرجال لينضموا إلى صفوفهم من كل حدب وصوب، ولتزيد من أعدادهم، وسرعان ما تحولت «الأرطاوية» إلى مدينة بلغ تعداد سكانها في أوج نموها حوالي عشرة آلاف نسمة. وفي منطقة «ضرما» نهجت هجرة «الغطغط» منهج «الأرطاوية» وشكلت عناصر قبيلة «عتيبة» فيها نواة تعاظمت مع مرور الزمن لتصبح ثاني منطقة من حيث الحماسة والأهمية بعد «الأرطاوية».

كثرت تلك القرى في كل مركز مناسب وازداد عددها بشكل مفاجئ. وقبل أن ينتهي ذلك العام على وجه التقريب وجد «ابن سعود» نفسه قائداً لجيش محلي معظم جنوده من المتطوعين وبالتحديد من البدو، وكان بإمكانه أن يعتمد على إخلاصهم له حتى الموت، بالرغم من أنه كان في حاجة مستمرة لدعم قوات أعتى منهم كان قد جلبها من المدن والقرى، ذلك الدعم كان من الممكن أن يجعل من شجاعتهم غير المنضبطة والعارمة قوة فعالة يستفاد منها. وكان عليه أن يضبط حماسهم المتعصب والهادف إلى تدمير الكفرة سواء في ساعات النصر أو حتى في زمن السلم. والجدير بالذكر هنا أن الكفرة بالنسبة لأولئك البدو ليسو فقط الأشخاص غير المسلمين بل شمل ذلك التعبير المسلمين الذين لا يشاركونهم في مفاهيمهم الأصولية الخاصة بالعقيدة.

ومنذ ذلك الحين أصبح جيش «ابن سعود» يشتمل على فرقة من رجال الإخوان تلازمه في مسيره باستمرار. وكان لكل تصنيف من تصنيفات فرق الجيش عمل محدد تقوم به في العمليات الواجب تنفيذها، وكانت مهمة فرقة الإخوان تنشيط العمليات ورفع المعنويات عند المقاتلين. وقد ازداد عدد تجمعات الإخوان على مدى السنوات اللاحقة ووصلت إلى المئات في تعدادها، وانتشرت الهجر ووصلت إلى أقاصي مناطق عالم البدو في الجزيرة العربية.

لكن لا بد من أن يعزى شرف المكان في سجل التشريفات إلى المعسكرات الأولى التي كانت القدوة والنموذج الذي احتذت به بقية تجمعات الإخوان، كما أن أسماء هذه المعسكرات الأولى تستحق أن تذكر في سجل الأحداث التاريخية.

استقر رجال قبيلة «مطير» (الذين تحولوا إلى حركة الإخوان) في منطقة «الأرطاوية» وامتدت أغصان فروعهم إلى «مبايض» و«بوضا» و «فريثان» و«مليح» و «العمار» و «الأثلة» و«الأرطاوي» و «مسكة» و «ضرية» و "القريتين" [1]. كانت جماعة «برقا» من قبيلة «عتيبة» هي الجماعة المسؤولة عن «الغطغط» و «الروضة» و «عروى» و «سنام»، في حين عملت جماعة «الروقة» على إنشاء تجمعات في «الداهنة» و «الصوح» و«عرجا» و«ساجر» و«عسيلة» و«كبشان» و«نفي». اتخذت جماعة «حرب» تجمعات لهم في «دخنة» و«الشبيكة» و«الدليمية» و«القرين» و«الساقية» و«حليفة» و«حنيظل» و«البرود» و«خصيبة» و«قبة» و«الفوارة»، هذا واستوطنت

(١) أي القرية العليا والقرية السفلى وهما في المنطقة الشرقية الآن. (المراجعون).

جماعة شمر الذين انضموا إلى حركة الإخوان في «بنوان»[1] و«الفطيم» و «القصير» و«الحفير» و«البلازية» و«الخبّة» و «التيّم» و «الأجفر» و«الكهفة» و«الفيضة» و«بيضاء نثيل». واستقر المنتمون إلى الإخوان من قبيلة «عنزة» في «الشعيبة» و«أم القلبان» و «الشقيق»، في حين توجهت جماعات «هتيم» المتواضعة إلى «ضريغط» و «المصاع» و «المرير»، كانت جماعة قحطان مسؤولة عن «الهياثم» و «الجفير» و «الحصاة»، إضافة إلى منطقتي «الرين العليا والسفلى»، كما استقرت جماعات الدواسر في «مشيرفة» و«الوسيطى» إضافة إلى مناطق أخرى. هذا واستقرت جماعات «العجمان» في منطقة «الصرار» و «حنين»[2] و«الصحاف» و«العقير» و«عريعرة» واستقرت جماعة «العوازم» في «الحسي» و «ثاج» و «الحناة» و«عتيق»، وكانت هناك تجمعات تواجدت فيها فئات مختلفة مثل «الشباك» و«أبيرق» و«عين دار»[3]. واستقرت جماعات «سبيع والسهول» في منطقة «الضبيعة» و«البدع» و«المنيصف» و«الأخضر» و «طسم» و«الرويضة»[4].

وهكذا كانت أماكن العشائر ومناطق تجمعاتهم التي شكلت بدورها نواة لإدارة جديدة، وسرعان ما أقدم «ابن سعود» على امتحان قدراتها من خلال الحملات التي قام بها في المرحلة الثانية من محاولته للسيطرة التامة على الجزيرة العربية.

تجاوزت تلك الحملات بشكل دقيق مرحلة عقلية الحرب القبلية ووصلت إلى مستوى رفيع بلغت فيه صعيد الصراعات الدولية. وكان لـ «ابن سعود»

(١) كذا نقلها المؤلف عن ابن ناصر، والصواب أنها النبوان، بتقديم النون. (المراجعون).

(٢) كذا نقلها المؤلف عن ابن ناصر، والصواب: حنيذ -بالذال-. (المراجعون).

(٣) الهجر الثلاث الأخيرة، عدها ابن ناصر من هجر آل مرة. (المراجعون).

(٤) يلاحظ أن توزيع المؤلف للهجر منقول عن ابن ناصر، وهو حصر غير دقيق. وفيه تداخل بين الهجر وبين القبائل التي استقرت فيها. (المراجعون).

مكانة في القضايا المطروحة أرفع قدراً من أي دور قام به حتى الآن. وليس بالإمكان أن ننكر بأن «ابن سعود» كان مديناً في الكثير من النجاح الذي حققه لجماعات الإخوان، علماً بأنهم في نهاية المطاف عرضوا حنكته في سياسة الأمور إلى اختبار صعب مليء بالمشكلات، وحدث ذلك عندما بدأت التزاما ت «ابن سعود» حيال دول العالم تتعارض مع المبادئ الدينية «للأخوان». ويوضح المؤرخ المختص بشؤون «نجد»[1] (والذي دوّن ملاحظاته طبعاً بعد وقوع الأحداث) قائلاً إن «ابن سعود» كان ولدرجة كبيرة سمحاً كريماً في تبني تجمعات الإخوان ومساعدتها في الوقوف على أقدامها. وقد عين «ابن سعود» أميراً في كل منطقة ليتأكد من أن العدالة الاجتماعية بين الضعيف والقوي كانت مرعية ومطبقة. وكانت جماعات المطاوعة والمشايخ تعمل على تغذية الاحتياجات الدينية والروحية، إذ كان واجبهم تدريس مبادئ العقيدة وتفسير الشريعة الإسلامية. علاوة على ذلك قدّم «ابن سعود» للإخوان الطعام على محمل سخي، كما قدم لهم المعدات الزراعية والاحتياجات الأخرى، إضافة إلى السلاح والذخيرة.

وبهذا الشكل بقيت تجمعات الإخوان صامدة في عقيدتها على مدى خمسة عشر عاماً. ويعلق المؤرخ على أوضاعهم بقوله إن أحوالهم استمرت على ذلك النحو إلى أن جعلتهم رفاهيتهم وغناهم يتباهون بأنفسهم ويستكبرون، وأصبحوا يتفاخرون أو يتبجحون بقولهم إن كافة الانتصارات التي تم تحقيقها جاءت نتيجة لفضائلهم ولتدينهم وبسالتهم الفائقة. لكنني بعد هذا الفصل سأناقش الأمور التي ترتبت على سلوكهم وتصرفاتهم.

---

(١) يشير المؤلف إلى المؤرخ عبدالرحمن بن ناصر صاحب كتاب «عنوان السعد والمجد فيما استظرف من أخبار الحجاز ونجد»، وهو مصدر المؤلف هنا. (المراجعون).

الفصل العاشر

التوسع وتعزيز القوى

التوسع وتعزيز القوى

مع حلول عام ١٩١٢م، أي عندما كانت حركة الإخوان قد ضربت جذورها في عمق الأرض، وأكدت مع رسوخ تلك الجذور سهولة وسرعة حشد قوة ضاربة وملهمة بفكرة مثالية دينية ملتزمة، أصبح «ابن سعود» السيد المعترف به على وسط الصحراء، أو بمعنى آخر على مناطق «نجد» التي تمتد من إقليم «وادي الدواسر» في الجنوب إلى الحد الجنوبي لـ «جبل شمر» في الشمال، ومن الحد الغربي لإقليم «الأحساء» الخاضع للحكم التركي حتى الحدود الشرقية لمنطقة الحجاز التي كانت أيضاً جزءاً من الإمبراطورية التركية.

كان يربط بين هاتين المنطقتين التابعتين للحكم العثماني شبه قوس من المناطق الخاضعة للأتراك التي تضم سوريا والعراق. وكان جبل شمر - المعترف أيضاً بالسيادة العثمانية عليه - يشكل دولة فاصلة تجثم فوق مناطق من داخل العراق وسوريا والجزء الشمالي من الحجاز، وتقع تقريباً فوق خط العرض السابع والعشرين. ولم تصل حدود المملكة السعودية في أي مرحلة من المراحل إلى شواطئ البحار، في حين كانت هذه المملكة من كل الجوانب باستثناء الجانب الجنوبي (حيث تشكل رمال صحراء الربع الخالي خطاً دفاعياً طبيعياً في وجه الأراضي الواقعة على شاطئ المحيط الهندي) مطوقة بمراكز ونقاط إدارية تابعة للحكم العثماني، أو بمعنى آخر تابعة للقوة المعروفة تقليدياً بعدائها للعرب والتي تعزز موقفها على طول ساحل البحر الأحمر بسبب احتلالها لمناطق اليمن وجبال «عسير»، كما تجثم في الطرف الجنوبي من مناطق اليمن المستعمرة البريطانية ومحمية «عدن»، في حين كانت

الكويت في ذلك الوقت تحت الحماية أو الوصاية البريطانية. وكانت الكويت بمثابة الجزء المكسور من الحلقة الضخمة التابعة للحكم العثماني، التي تكتنف المملكة السعودية من خاصراتها الثلاث، وكانت البحرين والحافة الساحلية لـ «عُمان» إضافة إلى موانئ «حضرموت» جميعها خاضعة على نحو قليل أو كثير للسيادة البريطانية أو للإشراف البريطاني أو حتى للسيطرة البريطانية المباشرة.

ومما يزيد من حجم مشكلات «ابن سعود» أن كافة المناطق الخاضعة لحكمه كانت مجردة من الثروات الطبيعية من أي نوع كان، ولم يكن محصول جني تمور النخيل كافياً ليغطي احتياجات المناطق المأهولة بالسكان سواء البدوية منها أو الحضرية، وكان محصول القمح بحاجة إلى تعزيزات تسنده عن طريق استيراد الحبوب من الخارج بما في ذلك الأرز الذي كان «ابن سعود» أول من وفره للناس كسلعة غذائية رئيسة وبالتحديد للطبقة الميسورة. واعتمد الناس في المدن وبشكل رئيس على المواد المستوردة من الدول الأخرى كالملابس، لكن البدو وجدوا أنفسهم مضطرين لاستعمال الأقمشة الخشنة التي يغزلونها من صوف الماشية. وكانت في مواسم الأمطار تتوافر مواد السمن واللحم والحليب، إلا أن أكل اللحم بالنسبة للبدو كان يعد رفاهية رغم أنهم كانوا يربون الماشية، كما كان يعد بيع الحليب شيئاً معيباً. وكانت المادة التي يمكنهم بيعها واستهلاكها هي السمن، كما كانت تربية الجمال بمثابة الحرفة الرئيسة ومصدر الرزق بالنسبة للبدو الذين كانوا إما يبيعون جمالهم أو يؤجرونها للركوب أو النقل، أو يذبحونها للاستفادة من لحومها. وكانت الزراعة هي شغل الناس في مناطق الحضر والقرى، وقد

أهمل الناس صناعة الأكواخ ولم يعمل بها سوى الفقراء لتسد رمق احتياجاتهم الضرورية. وكان الوضع الاقتصادي بائساً جداً، كما أن التطلعات السياسية نادراً ما كانت مشجعة، ومع ذلك لم يكن «عبد العزيز ابن عبدالرحمن آل سعود» الرجل الذي يمكن أن يرضخ للظروف الجبرية ويستسلم للظروف القاسية التي كانت تواجهه، خاصة أنه بلغ ذروة الإنجازات العظيمة التي رفعت من منزلته. ومما لا شك فيه أنه كان يشجع نفسه كما أنه كان يجد العزاء حيال تلك الأمور الصعبة بالرجوع إلى الآية القرآنية المحببة إليه: التي تقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١٣].

ولم يمض وقت طويل حتى أصبح بإمكان «عبد العزيز» أن يضع الجزء الأول من خططه المستقبلية حيز التنفيذ. ولعل المرء يفكر بأنه نظراً للظروف السائدة في تلك الفترة كان لزاماً على «عبد العزيز» أن يعمل على ترسيخ الأمن والاستقرار في المناطق التابعة لحكمه في الجزيرة العربية، وذلك عن طريق استعادة حائل من أسرة «آل رشيد». لكن لم يكن «عبد العزيز» ليفكر على ذلك النحو، ومن المحتمل أنه كان قد فكر بأن ضم «جبل شمر» إلى مملكته في تلك الفترة يمكن أن يفاقم من الصعوبات الاقتصادية التي كانت تواجهه. لكن مهما تكن حقيقة الأمر وحقيقة أنه قد أصدر أمراً لحشد كافة القوات، إلا أنه تحرك في شهر شباط من عام ١٩١٣م من الرياض باتجاه أماكن تجمع المياه في منطقة «الخفس» الواقعة على الطرف الغربي من سهل «العرمة» حيث تتوافر المراعي التي يمكن أن تكفي ماشية العديد من الجماعات الإقليمية المحاربة في صفوف قواته. كان من المفروض

أن تتجمع قواته في تلك المنطقة لتشكل مجمل جيشه . وأثناء انتظاره وصول كافة الحشود وليحول الأنظار عن أهدافه وخططه الحقيقية ، قام بإرسال مجموعة مقاتلة لتغزو قبيلة «آل مرة» محدثة لهم أضراراً مادية وعسكرية إلى حد ما .

ثابر «عبد العزيز» في المسير بقواته بصعوبة ووصل على بعد مسافة قصيرة من منطقة «الهفوف» التي كانت تعد عاصمة إقليم «الأحساء» والتي حدث وأن زارها خلال أشهر الشتاء الماضي الرحالة البريطاني الكابتن/ جي إي ليتشمان ؛ وكان هذا الرحالة قد وصل إليها في نهاية رحلة طويلة في الصحراء بدأها من بغداد وتغلب خلالها على عدة عقبات ومغامرات واجهته خلال مسيره إلى الرياض عن طريق بريدة . وانتهت تلك الرحلة به على شواطئ «الأحساء» وهناك وجد القوات التركية المرابطة في ذلك الإقليم - والذي هو بمثابة منفى لهم - فرحين غير مبالين بقضاء بقية حياتهم في تلك البراري . وكان آخر شيء يمكن أن يفكروا فيه - حتى في أحلامهم - هو أن يتم إعفاؤهم بشكل مبكر من الخدمة في الجزيرة العربية ، إلا أنهم وجدوا أنفسهم مضطرين لمغادرة الجزيرة العربية إلى الأبد وذلك بعد مضي أقل من خمسة أشهر على الزيارة التي قام بها هذا الرحالة البريطاني .

بلغ تعداد قوات الحامية التركية في «الهفوف» ١٢٠٠ رجل ، إضافة إلى حامية تركية صغيرة كانت موجودة في منطقة «القطيف» كما كان هناك العديد من المراكز العسكرية البسيطة المبعثرة حول مناطق ذلك الإقليم .

أمضى «ابن سعود» مساء اليوم الثامن من شهر أيار (مايو) يعد العدة للهجوم على المدينة المحصنة بأسوارها وعلى قلعتها الكبيرة ، كما كان يعطي

كبار مساعديه من القادة تعليمات مشددة تتعلق بالكيفية التي يجب أن ينفذ بها الهجوم. وقد أقدم جنوده على قطع بعض أشجار النخيل في واحة صغيرة قريبة من المدينة وعملوا من جذوعها سلالم، ووزعوا الحبال التي كانت بحوزتهم (والتي كان من الطبيعي لكل مسافر في الجزيرة العربية أن يحملها معه لسحب الماء من الآبار) على كافة أعضاء المجموعة المكلفة بتسلق الأسوار ليقوموا بدورهم بتدليتها من أعالي الأسوار.

ومع حلول منتصف الليل تحركت الدفعة الأولى سيراً على الأقدام، وعند حلول الفجر تمكنت من وضع السلالم على الأسوار استعداداً للتسلق. وقد تمكن هؤلاء الجنود من قتل بعض الحراس الذين غلب عليهم النوم، وقبل أن يتاح لتلك الحامية فرصة استدراك رشدها لصدقها بفعل الهجوم الليلي، كانت قلعة «الكوت» الكبيرة قد سقطت فعلاً في أيدي القوات السعودية. وعلى الفور انسحبت القوات التركية واحتمت بجامع «إبراهيم باشا»[1] واستحكمت فيه لتراقب التطورات. وتمكنت قوات «ابن سعود» في تلك الأثناء من الاستيلاء على إحدى بوابات المدينة، الأمر الذي مكن قواته من أن تتدفق للداخل وأخذوا يطلقون عياراتهم النارية ويهتفون بصرخات الحرب وذلك ليزيدوا من حدة الاضطراب الذي أصاب الناس، وليؤثروا على عدوهم ويولدوا لديه الشعور بالخيبة من جراء الكارثة التي حلت به.

---

(١) يعرف هذا الجامع بجامع القبة، أو النسبة إلى القصر أحياناً، بحيث يقال قصر إبراهيم أو جامع إبراهيم، ويبدو أنه منسوب إلى إبراهيم بن عفيصان، والي الإمام سعود بن عبد العزيز على الأحساء، لأنه الذي أشرف على بنائه، وقيل إنه بني منذ القرن العاشر الهجري، وإنما كان دور إبراهيم هذا هو إتمامه بهذا الشكل الذي هو عليه الآن. (المراجعون).

وتم إرسال أحد الأسرى الأتراك إلى قائده ليبلغه ضرورة استسلام كافة أفراد الحامية التركية، مقابل ضمان سلامة أرواحهم وممتلكاتهم ومرافقتهم بسلام حتى الشاطئ ليتسنى لهم التوجه عبر البحر باتجاه البحرين. وفي تلك الأثناء قامت القوات السعودية بوضع ألغام تحت الأبنية التي لجأت إليها قوة العدو الرئيسة، وأصدرت إليهم تحذيراً بأنها ستفجر الألغام إذا تأخروا أو تباطؤوا في الاستسلام.

لم يكن لدى القائد التركي العديد من الخيارات حيال تلك المشكلة، ولذلك وافق على أن يلقي سلاحه وفقاً للشروط التي تقدم بها «ابن سعود»، وعندما حان الوقت المناسب خرجت الحامية التركية تلك من «الهفوف» ورافقتها أثناء انسحابها قوة من الجيش السعودي بقيادة «أحمد بن ثنيان» وهو من أبناء عمومة القائد السعودي، ومن هناك استقلت القوات التركية ما كان موجوداً من القوارب وأبحرت باتجاه البحرين. ومن البحرين قرر القائد التركي أن يقوم بمحاولة لاستعادة الوضع، فأرسل قوات جديدة إلى «العقير» لكن القوات السعودية تمكنت من أسر بعض منهم أثناء نزولهم إلى الشواطئ، وتمكن البعض الآخر من العودة بالمراكب إلى البحرين. وقد قدم «ابن سعود» شخصياً إلى «العقير» وأطلق سراح السجناء وسمح لهم بالذهاب بالقوارب إلى البحرين، وتحرك بعد ذلك بقواته إلى «القطيف» وهناك لم يواجه أي مشكلات بل على العكس تجمهر الأهالي ليحيوا حاكمهم الجديد. واستطاع «ابن سعود» بعد ضم كل من «القطيف» وقرى بلدان «الأحساء» من جمع الكثير من الأموال وإعادة استكمال مخزونه الذي كان قد نضب إلى حد بعيد.

كما تمكن «ابن سعود» من إحباط محاولة تركية لاستعادة «القطيف» بسهولة. وبعد أن شعر بالرضى عن العمل الذي قام به على مدى شهر مضى قرر «ابن سعود» العودة جذلاً إلى الرياض، لكنه فعل ذلك بعد أن أعد الترتيبات المناسبة لإدارة إقليمه الجديدة. وقد كرس «ابن سعود» اهتمامه بشكل خاص على تثقيف الأهالي هناك وفق تعاليم الدين الإسلامي الصحيحة التي تشمل كافة أشكال الحياة هناك. وأعد «ابن سعود» أيضاً ترتيبات من أجل بناء المساجد والمدارس، وعين عليها رسميين جديرين بالثقة ليتلقوا الأموال وليقوموا بتوزيعها، وأعاد تشكيل هياكل المحاكم لتعمل وفق الشريعة الإسلامية، وأخيراً وليس آخراً عين حاكماً جديداً بقي في منصبه لمدة ربع قرن إلى أن وافته المنية، وبذلك أصبح أسطورة عصره وزمانه. ذلك الحاكم هو «عبد الله بن جلوي» الذي شارك ابن عمه في الهجوم الشجاع الذي حقق استرداد العاصمة الرياض في عام ١٩٠٢م. وسبق أن كان حاكماً عاماً على إقليم «القصيم» منذ أن استعادته القوات السعودية. ومما لا شك فيه أن «ابن سعود» كان يستنير برأيه بخصوص خططه الهادفة للهجوم على إقليم «الأحساء».

كان «عبد الله بن جلوي» قد غادر «بريدة» برفقة سيده ليشارك في حملة الأحساء تماماً قبل وصول الرحالة البريطاني «ليتشمان» إليها في شهر كانون الأول عام ١٩١٢م، كما كان «فهد بن معمر» في تلك الفترة يدير شؤون حكم بريدة. وقد تم تعيين «عبد الرحمن بن سويلم» (الذي سبق أن قاد القوة العسكرية لاحتلال «القطيف») أميراً على الميناء، لكن تابع للقيادة العامة لـ «عبد الله»؛ ووضعت «العقير» تحت إمرة «عبد الرحمن بن خير الله» الذي

بقي في ذلك المنصب طيلة نفس المدة التي بقي فيها رئيسه حاكماً على «الهفوف».

وعلى نحو مدهش وبقليل من الجهد تمكن «ابن سعود» من الدخول إلى مناطق الخليج العربي من خلال جبهة عريضة تمتد من أراضي الكويت شمالاً حتى إمارة «قطر» في الجنوب. وحدث في قطر عام ١٩٠٥م أن مات صديق «ابن سعود» وحليفه القديم «قاسم بن ثاني» عن عمر يناهز المئة وأحد عشر عاماً. والجدير بالذكر أن «ابن سعود» كان قد ذهب في أوائل ذلك العام لنجدة صديقه «قاسم» الذي كان يتمتع بسمعة أسطورية واحتفظ بقدراته الجسدية والذهنية حتى وفاته. وكان الناس غالباً ما يشاهدونه في ساعات العصر راكباً فرسه ويرافقه مجموعة من الفرسان معظمهم من أبنائه وأحفاده. وبعد وفاته خلفه في الحكم ابنه «عبد الله» الذي حافظ على علاقات ودية مع جاره العظيم الذي -بدوره- لم يتدخل أبداً في شؤون استقلال شبه الجزيرة العربية.

كانت الإمبراطورية العثمانية غير مبالية لخسارتها إقليم «الأحساء»، ودارت مفاوضات مع «ابن سعود» عن طريق شخصية سياسية من البصرة هو «السيد طالب النقيب» وفي تلك الأثناء كان والي البصرة «سليمان شفيق كمالي باشا» يجري حواراً مع «زامل السبهان» الذي كان حاكماً على «حائل» بالنيابة عن «سعود بن رشيد» وذلك بخصوص الترتيبات المتعلقة بطلب ابن رشيد من الأتراك تزويدهم بالمال والسلاح اللازمين لخوض المعركة المرتقبة ضد «ابن سعود». والتي نجمت عن قبول هدية الأتراك المؤلفة من اثني عشر ألف بندقية مع ذخيرتها، إضافة إلى مبلغ من المال على أن

تستعمل جميعها ضده شخصياً، فاحتج «ابن سعود» لدى «زامل» على نقضه لشروط الهدنة التي تم التوصل إليها آنذاك بين البلدين، وأجاب «زامل» بكل صراحة بأنه كان إلى جانب الأتراك كقوة لها سيادتها وسلطانها، وأنه إذا حدث تماس بين مصالحهم وبين علاقته مع الرياض فسيقف إلى جانب الأتراك ويخدم مصالحهم. وقد قبل «ابن سعود» ذلك التحدي الضمني وأصبحت الهدنة في هذا الحال في عداد المنتهية.

وعلى أي حال كان «ابن سعود» متنبهاً لفرط حساسية موقفة، لذلك توخى السلامة في محادثاته التي أجراها مع «سيد طالب» في منطقة «الصُّبيحيَّة» بالقرب من الكويت والتي انتهت بإعطائه تعهداً شفوياً بالاعتراف بسيادة السلطان التركي على منطقته مقابل أن يقدم الأتراك له المال والسلاح الكافي الذي يمكنه من تحقيق أمن الإقليم الساحلي التابع لسلطته. ولم يتم تنفيذ أي جزء من هذا التفاهم المبدئي كما أن اندلاع الحرب بين الأتراك والبريطانيين في شهر تشرين الأول من عام ١٩١٤م وضع نهاية قطعية لآمال الأتراك في استرداد إقليم «الأحساء». والجدير بالذكر أن الخيرات الزراعية في هذا الإقليم إضافة إلى عائدات الجمارك فيه كانت تمثل -وبلا منازع- أغنى جوهرة في تاجه.

وفي ضوء هذه التطورات يبدو جلياً أن «ابن سعود» تصرف في الوقت المناسب ليعزز وجوده في إقليم «الأحساء» الذي كان من الممكن أن يسقط في أيدي قوات الحملة البريطانية المحتشدة في البحرين. فقد عمل «ابن سعود» كل جهده في تلك الفترة ليضمن تعاطف البريطانيين معه وليضمن دعمهم لموقفه في إقليم «الأحساء» واستغل بذلك التزام الأتراك الحقيقي

وتقاربهم بشكل مسبق من موقف الألمان، لكن البريطانيين كانوا منشغلين على الصعيد الدبلوماسي يحاولون درء مثل ذلك التطور عندما قام الممثل البريطاني في البحرين في زيارة مجاملة لـ «ابن سعود» الذي كان في «العقير» بعد سقوط إقليم «الأحساء»، ولم تكن لديه أية تطمينات ملموسة يمكن أن يقدمها للأمير السعودي. وعند نهاية ذلك العام لم يكن بإمكان الكابتن شكسبير - الوكيل السياسي البريطاني في الكويت - أن يناقش مع «ابن سعود» سوى الأمور الضمنية العامة المتعلقة بالوضع الجديد، كما أنه لم يكن بمقدوره أن يطلعه على معلومات معينة كانت بحوزته. والجدير بالذكر أن هذا اللقاء مع «ابن سعود» تم أثناء مرور «شكسبير» عبر الرياض في سياق رحلته الكبيرة عبر أراضي الجزيرة العربية (وذلك من الكويت إلى السويس)، علماً بأن «شكسبير» هذا سبق له أن اجتمع مع «ابن سعود» في أحد معسكراته في الصحراء.

وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن الحكومة البريطانية كانت قد حجبت -عن قصد- تلك المعلومات عن «ابن سعود» ولم تطلعه عليها مدة سبعة عشر عاماً، إلى أن حان عام ١٩٣٠م إذ وجدت نفسها مضطرة أن تقدم وثائق تثبت أنها الوارث الشرعي للتركة العثمانية، خاصة فيما يتعلق بمناطق لم يسبق لها أن احتلتها ولم يسبق أيضاً لأي قوة تركية أن تجرأت في الدخول إليها. وقد افتضح أمر سخافة ومهزلة هذا الادعاء لكل الناس إلا أن البريطانيين استمروا لعدة سنوات جاهدين لتحقيقه ومتابعته، وما زالت أصداؤه تنذر بالشؤم في بعض أجزاء جنوب الجزيرة العربية.

فالمعلومات التي لم يكن بإمكان «شكسبير» أن يفصح عنها لمضيفه «ابن سعود» كانت هي أنه في أقل من شهرين على استيلاء «ابن سعود» على إقليم

«الأحساء» تم توقيع اتفاقية في التاسع والعشرين من شهر حزيران بين الأتراك والبريطانيين. وقع الاتفاقية عن الجانب التركي «إبراهيم حقي باشا» ووقعها عن الجانب البريطاني وزير الخارجية البريطانية السير «إدوارد غريه»، ووضحت تلك الاتفاقية مصالح كلا البلدين في مناطق الجزيرة العربية، وبالتحديد في الكويت والبحرين ودول الساحل الخليجي. وكان لهذه المناطق -بطريقة أو بأخرى- مساس بإقليم «الأحساء» الذي لم يرد ذكره في الاتفاقية والذي كان يفترض ضمنياً بأنه لا يزال جزءاً من الإمبراطورية العثمانية. وتم الإعداد للتصديق على هذه الاتفاقية خلال ثلاثة شهور، ولكن لسبب ما تم تحديد موعد التصديق عليها حتى تاريخ الواحد والثلاثين من شهر تشرين الأول عام ١٩١٤م، وصادف ذلك نفس اليوم الذي أعلنت فيه بريطانيا الحرب على الإمبراطورية العثمانية. ولم يكن ذلك أسوأ ما في الأمر، بل حدث ما هو أكثر سوءاً، إذ كانت المفاوضات بذلك الخصوص جارية في الوقت الذي كان فيه «شكسبير» يجري زيارته الودية لـ«ابن سعود» في الرياض.

على أي حال كان «شكسبير» على وشك الوصول إلى السويس عندما وقع في المفاوضات في التاسع من شهر آذار عام ١٩١٤م اتفاقية أخرى في لندن صادق عليها الطرفان في الثالث من شهر حزيران من العام نفسه. ولم يكن معلوماً حتى هذه المرحلة من تطور الأحداث فيما إذا كان هناك أمل في استرداد إقليم «الأحساء» بمساعدة البريطانيين وموافقتهم، أو إذا كانت لديهم دوافع لإغاظة «ابن سعود»، أو أن المبعوث التركي كان قد تصرف بدوافع دنيئة، لكن شروط الاتفاقية نصت على تقسيم كافة أرجاء الجزيرة العربية بين

الحكومتين، وذلك برسم خط مستقيم يمتد من أسفل مناطق «قطر» في شبه الجزيرة العربية عبر الصحراء ليلتقي بالطرف الشرقي للحدود المرسومة عام ١٩٠٢م بين محمية «عدن» و«اليمن»، وكانت الغاية من ذلك جعل كل المناطق الواقعة شمال ذلك الخط تابعة للحكم التركي بما في ذلك إقليم «الأحساء» إضافة إلى كافة مناطق «نجد»، علاوة على ذلك تقرر أن تكون كافة المناطق الواقعة جنوب ذلك الخط تابعة للحكم البريطاني. ولا عجب إذن من أن الحكومة البريطانية كانت حذرة، بل وضنينة بالسماح لـ «ابن سعود» بمعرفة أسرار المكائد التي كانت ترتبها مع أقوى أعدائه، والأقل عجباً من ذلك أن الإفشاء عن هذه الخطة الذي جاء في وقت متأخر ولّد الانطباع من أن الحكومة البريطانية أخذت الدور التركي التقليدي المعروف كونه العدو الرئيس للحكم السعودي. والجدير بالذكر أن ذلك الانطباع أصبح الانطباع السائد منذ ذلك الحين. ويمكن القول في سياق هذا الحديث إن ثمة عوامل أخرى ظهرت خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها تؤكد صحة هذا الانطباع، ولم يكن بإمكان الأحداث الأخيرة التي وقعت في منطقة «البريمي» أن تزيل ذلك الانطباع.

وعند اندلاع الحرب في شهر تشرين الأول عام ١٩١٤م قام السير «بيرسي كوكس» الذي كان وقتها المسؤول السياسي للحملة البريطانية العسكرية في بلاد الرافدين باستدعاء «شكسبير» من إجازته وأرسله في مهمة لتمثيل المصالح البريطانية في «الرياض». وكان «شكسبير» الشخصية المثالية لتلك المهمة لما له من خبرة عسكرية وتجربة سياسية في التعامل مع العرب، علاوة على أنه كان شخصية محبوبة ومرغوبة لدى «ابن سعود».

ولعل الخطأ الوحيد الذي ارتكبه شكسبير ودلت التجربة على أنه كان خطأً قاتلاً وجسيماً، هو أنه لم يقبل أن يلبس اللباس العربي أثناء وجوده على الأرض العربية. وفي الوقت الذي وصل فيه «شكسبير» إلى الرياض كانت الأعمال العدائية بين «حائل» والرياض قد بدأت بمبادرة من قبل «ابن رشيد». ومما لا شك فيه أن الأتراك حثوا حليفهم «ابن رشيد» على القيام بأعمال تستهدف القضاء على قوة الملك عبدالعزيز. وفعلاً حدث في أواخر شهر كانون الأول أو بداية شهر كانون الثاني أن «ابن رشيد» تقدم بقواته إلى داخل الحدود السعودية، وكان «ابن سعود» في تلك الفترة قد أعد ترتيباته لمجابهة نشاطات «ابن رشيد» والتصدي لها.

رافق «شكسبير» «ابن سعود» في حملته، في معركة «جراب» التي دارت بينه وبين قوات «ابن رشيد» على مسافة قريبة من «الزلفي»، حيث حالف الحظ القوات السعودية المترجلة في أحد مواقع المعركة، كما حالف الحظ فرسان «جبل شمر» في مواقع أخرى. وقتل في حمأة المعركة «شكسبير» الذي كان يوجه نيران مدافع السعوديين، وتوقف القتال وادعى كل من الطرفين النصر لنفسه. والحقيقة أن المعركة انتهت دون غالب أو مغلوب. ولم يكن موت «شكسبير» في شهر كانون الثاني (يناير) من عام ١٩١٥م مجرد كارثة لبلاده فحسب، بل كان كارثة أيضاً بالنسبة لـ «ابن سعود» الذي جلس في خيمته إثر ذلك الحدث عابساً متجهماً. وقد تطورت الأحداث في مناطق أخرى من الجزيرة العربية، وحولت مع تطورها موقف «ابن سعود» ليصبح موقفاً غير مؤثر -نسبياً- في مجريات سياسة الجزيرة العربية. وزادت تلك الظروف أيضاً من عدد أعدائه كما قوّت من شوكتهم، وكان

من بين أولئك الأعداء «ابن رشيد» الذي حظي بدعم الأتراك له، لكن كان خطره بسيطاً إذا ما قورن بخطر «الشريف حسين» حاكم مناطق الحجاز وخطر زعماء آخرين متحالفين مع الحكومة البريطانية.

ولهذا السبب يمكن القول فيما يخص السير «بيرسي كوكس» إن «كوكس» لم يكن مستعداً أن يغامر بحياة الرسميين البريطانيين وسط المخاطر التي كانت الجزيرة العربية تعج بها. والحقيقة تقال أن الجزيرة العربية في ذلك الوقت كانت من أكثر مناطق العالم أمناً، لكن السير «كوكس» لم يفقد الرغبة في التعامل مع «ابن سعود» وأبقى على اتصالاته التي كانت تتم عبر «عبداللطيف بن منديل» ممثل «ابن سعود» في البصرة. وفي تلك الأثناء خولت الحكومة البريطانية السير «كوكس» صلاحية الاستمرار في الخطى التي اقترحها «شكسبير» والتي جاءت نتيجة للمناقشات التي كان قد أجراها مع «ابن سعود». وعليه تم إرسال مسودة معاهدة صداقة إلى «ابن سعود» ليدرسها ويوقع عليها، وفعلاً وقع «ابن سعود» عليها وأعادها إلى الحكومة البريطانية بعد أن أجرى عليها بعض التعديلات. وقد تطلبت تلك التعديلات إجراء المزيد من المداولات والاعتبارات.

لم يتمكن السير «كوكس» من الاجتماع بـ«ابن سعود» إلا في نهاية عام ١٩١٥م في منطقة «القطيف»، وهناك تم توقيع الاتفاقية حسب الأصول التي بموجبها اعترفت الحكومة البريطانية باستقلال «ابن سعود» وضمنت الوقوف إلى جانبه ضد أي تدخل أجنبي يطرأ على حدوده التي سيتم تعيينها وتحديدها بعد انتهاء الحرب. أما من جهة «ابن سعود» فتعهد بأن لا يهاجم المحميات البريطانية في منطقة الخليج. وقد تضمنت تلك الاتفاقية عبارات اعتيادية مثل منع منح ملكية الأراضي إلى أي دولة أجنبية أخرى أو ممارسة علاقات

دبلوماسية مع أي قوى أجنبية مماثلة. وتكشفت حسن النوايا المعرب عنها في بنود الاتفاقية بشكل مسبق عندما أقدمت الحكومة البريطانية في صيف العام المنصرم وقدمت لـ «ابن سعود» هدية شملت ألف بندقية إضافة إلى عشرين ألف جنيه إسترليني، كما قدمت له تسهيلات تمكن بموجبها من استيراد الذخيرة عبر جهوده الخاصة من البحرين. وقد جاءت هذه المساعدات والهدايا لتسد احتياجات الحملة العسكرية التي كان «ابن سعود» يعد لها لضرب قبيلة «العجمان» المتمردة. وفي شهر أيلول من ذلك العام هجم «ابن سعود» بقواته على قبيلة «العجمان» وألحق بها هزيمة نكراء وأجبرهم على الهرب واللجوء إلى مناطق الكويت. ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أن السير «كوكس» كان خلال هذه المفاوضات متكتماً على موضوع كان من الممكن أن يثير جل فضول واهتمام «ابن سعود» إن لم نقل قلقه. فلم يكن بمقدوره - لأسباب واضحة- أن يشير إلى المفاوضات التي تمت بين السير «هنري ماكماهون» و «الشريف حسين» أمير مكة والتي أسفرت عن الثورة العربية في حزيران عام ١٩١٦م، إذ لم تتضمن الاتفاقية أي إشارة إلى الحدود الغربية لمملكة «ابن سعود»، هذه نقطة سببت الكثير من المتاعب لاحقاً.

وعندما علم «ابن سعود» بخبر الثورة العربية اتخذ منها موقفاً سلبياً وتبناه، لكنه لم يخف مخاوفه من أن طموحات «الشريف حسين» ستتضارب في يوم من الأيام مع مصالحه الشخصية.

ولكن الحكومة البريطانية التي قررت في هذه المرحلة دعم الثورة العربية مهما بلغت التكاليف، ومن أجل ذلك فوضت السير «كوكس» أن يؤدي دور الوسيط في تقريب وجهات النظر بين الأطراف المختلفة في المنطقة. كما فوضته بأن يقدم ضمانات لكنها لم تفد كثيراً في تهدئة غضب «ابن سعود»

أو تخفيف قلقه وتوتره. وفي تلك الأثناء كان الشيخ «مبارك» أمير الكويت قد فارق الحياة، مع نهاية عام ١٩١٥م، لكنه قبل موته كان غيوراً وشديد الانتقاد لشخص يمكن أن ينظر إليه على أنه تلميذه في الأمور السياسية. كان ابنه الأكبر ووريثه في الحكم المدعو «جابراً» على صداقة طيبة مع «ابن سعود»، إلا أن فترة حكمه كانت قصيرة جداً ولم يكن بالإمكان أن تصدر عنها أي نتائج ملموسة خصوصاً فيما يتعلق بالخطر المحدق بأمن «ابن سعود» المتأصل في وجود لاجئين من قبيلة «العجمان» في المناطق الخاضعة لحكمه.

كان «سالم» الذي تولى حكم الكويت بعد وفاة شقيقه «جابر» على عداء واضح مع «ابن سعود»، ولم يحاول أن يخفي ذلك العداء، كما لم يعد «ابن سعود» في موقف يحسد عليه بسبب الصراع الدائر بينه وبين «جبل شمر»، والحجاز، والكويت، إضافة إلى موقف الحكومة البريطانية المتزايد في الفتور تجاهه. ولهذا عمل «ابن سعود» جاهداً لعقد لقاء آخر بينه وبين السير «كوكس»، وفعلاً تم ذلك اللقاء في «العقير» وكان المراد منه على الصعيد الظاهر مناقشة الطرق والأساليب التي تمكن «ابن سعود» من مباشرة حملته التي طال انتظارها ضد جماعة «ابن رشيد»، لكن في حقيقة الأمر كان الهدف من ذلك اللقاء من وجهة نظر «ابن سعود» هو أن يحظى بالمزيد من الشروحات الخاصة بالترتيبات التي تم التوصل إليها مع «الشريف حسين» الذي بدأ يعلن أنه تلقى اعترافاً رسمياً بلقب «ملك العرب».

لم يكن باستطاعة السير «بيرسي كوكس» إلا أن يؤكد لابن سعود بأن استقلاله لم يكن عرضة لأي خطر، ووجه إليه الدعوة للمشاركة في حفل رسمي خاص للزعماء العرب تقرر عقده في العشرين من شهر تشرين الثاني

عام ١٩١٦م بمناسبة تقليد «ابن سعود» وتقليد «جابر» الأوسمة الرسمية. وفي ذلك الحفل تم تبادل العبارات الحسية المنمقة، وتحدث السير «كوكس» وهنأ كافة الحضور على بوادر الوحدة العربية التي برزت في ذلك الوقت حيال الأزمة الدولية. ولم يكتب لـ «جابر» أن يعيش العمر الطويل بعد تسلمه ذلك الوسام.

قبل «ابن سعود» دعوة السير «كوكس» لزيارة البصرة باعتباره ضيفاً خاصاً له وبالتالي ضيفاً على القائد العام للقوات البريطانية. وكانت تلك الزيارة أول تجربة لـ «ابن سعود» في سفره خارج الجزيرة العربية، حيث اندهش «ابن سعود» كثيراً لمشاهدة آليات ومكننة الحرب الحديثة في ذلك العصر. وربما اندهش أكثر من ذلك لأن أكثر مستضيفيه ذكاءً كانت امرأة تدعى «جيرترود بل».

جاءت النتيجة العملية لهذه الاتصالات التي تمت على مدى شهر من الزمن وعلى مستوى عال أن تم عقد اتفاق يحصل «ابن سعود» بموجبه على مساعدة مالية تقدر بخمسة آلاف جنيه إسترليني شهرياً إضافة إلى أربعة مدافع وثلاثة آلاف بندقية وكميات كبيرة من الذخائر، مقابل أن يبقي قوة تقدر بأربعة آلاف رجل مستعدة بشكل دائم لمواجهة «ابن رشيد»، وأن يتقدم بها لمهاجمة عاصمته «حائل». لكن من المؤسف أن تفاؤل الرسميين البريطانيين بخصوص مدى دعم الوحدة العربية لموضوع التحالف الذي تم التوصل إليه خلال هذه الإجراءات لم يكن في محله. فخلال اثني عشر شهراً عادت الخلافات وتضارب المصالح الأولية تجتاح كافة الجوانب السياسية بين العرب، وأطلقت أولى رصاصات الحرب التي لم تنته إلا بسقوط «الشريف حسين» وضم الحجاز والمناطق المقدسة فيه إلى الحكم السعودي.

ومنذ بداية عام ١٩١٧م فصاعداً كان هم السير «بيرسي كوكس» بالدرجة الأولى القضاء على المواقع التركية ومنع تقدمها إلى ما وراء بلاد الشام - ناهيك عن ضرورة صرف انتباه «ابن سعود» عن نشاطات الحلفاء في مناطق الحجاز؛ وذلك بتشجيعه في أن يتخذ إجراءً معيناً ضد «ابن رشيد»- . شجع غلاء الأسعار وندرة المواد التموينية في سوريا على وجود سوق مثالية للتهريب والمهربين، فقد كان المهربون العرب يجلبون البضائع المهربة إلى دمشق من العراق ومن موانئ الخليج العربي مروراً بالجزيرة العربية. وكان الشيخ «سالم» أمير الكويت يتغاضى عن عمليات التهريب التي كانت تمر بأراضيه، وكان يأخذ مقابل ذلك ضريبة تدفع مقدماً، وفي الوقت نفسه كان تجار «القصيم» وتجار مناطق أخرى خاضعة لحكم «ابن سعود» يحملون بضائعهم قاصدين «حائل» ومنها كانوا يرسلونها إلى الأتراك. وكان المتوقع من «ابن سعود» أن يمنع ذلك التهريب كجزء متكامل من حملته ضد «ابن رشيد»، لكن مما لا شك فيه أنه كان بمقدور بعض القوافل أن تفلت من مراقبته الشديدة لحركات التهريب.

سببت العلاقات غير الودية القائمة بين الكويت والرياض قلقاً بالنسبة للمفوض البريطاني المكلف بالأمور المدنية في بغداد. وجاء ذلك القلق لأن العلاقات غير الودية أوجدت من ناحية معينة حالة عدم استقرار في المناطق الداخلية من بلاد الشام، كما أنها من ناحية أخرى يمكن أن تكون أكثر أهمية لأنها أسهمت وسهلت حركة التهريب بين تلك المناطق. كما كان المفوض التركي قد وعد «ابن سعود» بأن يتخذ إجراءات ضد وجود قبيلة «العجمان» في الأراضي الكويتية، حيث كان بإمكانها الانقضاض من تلك المواقع على قبائل «نجد» والإفلات من العقوبة.

وكان هناك أيضاً قضايا أخرى بسيطة مثل تعديل ضريبة الجمارك التي تتقاضاها الكويت وبغداد على البضاعة المتوجهة إلى «نجد»، وإمكانية ترتيب عملة معدنية بقيمة بسيطة للاستعمال اليومي من قبل أهالي البلاد. وقد تأزمت كافة هذه الأمور في خريف عام ١٩١٧م عندما بدأ المفوض السامي في مصر السير «ريجنالد ونجت» بالضغط على «حائل» وكان ذلك في وقت كانت فيه الثورة العربية قد استنزفت بعضاً من قوة الزخم لديها وأصبحت مهددة بالتردي إلى حالة ركود. وحيال هذا الوضع تم إرسال الكولونيل «لورنس» إلى جدة ليعيد تنشيط حركة الحياة، في حين تم إرسال ممثل آخر عن السير «ريجنالد ونجت» إلى بغداد ويدعى السيد «رونالد ستورز» الذي حظي بلقب «السير» فيما بعد. توجه هذا الأخير إلى بغداد لمناقشة الوضع العام مع «بيرسي كوكس» وهناك اقترح «كوكس» أن يقوم «ستورز» -بناء على خبرته الكبيرة في الجانب الآخر من القضية- بالتوجه إلى «ابن سعود» بصفته ممثلاً عنه ويعرض عليه موضوع تطبيق العديد من المقترحات التي تهدف (عندما يحين الوقت المناسب) إلى إزالة أسباب الخلافات بين الحليفين العربيين الرئيسين للحكومة البريطانية.

ولسوء الحظ لم تؤت تلك الخطة العبقرية ثمارها لأن «ستورز» سقط ضحية ضربة شمس واضطر إلى الرحيل عن الصحراء الكبرى على عجل. وأصيب «كوكس» ببعض الإحباط بسبب تجربة مبعوثه الثاني إلى «ابن سعود»، لكنه لم يفقد الأمل في حل تلك المشكلة المعقدة. وبعد مشاورات طويلة عن طريق الرسائل البرقية بين بغداد والقاهرة، تقرر أن يرسل «كوكس» بعثة صغيرة إلى الرياض وأن ينضم إليها «ستورز» وهي في طريقها إلى الحجاز. لكن «الملك

حسين» من البداية حال دون انضمام «ستورز» إلى البعثة ورفض تحمل أي مسؤولية تتعلق بسلامته بسبب الأوضاع المضطربة في الصحراء.

وفي شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٩١٧م وصل ممثلو «كوكس» إلى «العقير» وتابعوا المسير باتجاه الرياض، وخلال مرورهم بواحة «الأحساء» مكثوا في ضيافة «عبد الله بن جلوي» بضعة أيام، ووصلوا إلى الرياض في نهاية الشهر لمناقشة كافة جوانب الوضع مع «ابن سعود». وبعد أن تناقشوا معه وأرسلوا تقريراً عما دار بينهم إلى بغداد، توجهوا بموافقة «ابن سعود» باتجاه الحجاز ووصلوا إلى «الطائف» دون أي مشكلات. وكان وصولهم مفاجئاً لـ «الملك حسين» وقد سبب له الكثير من السخط والانزعاج، ووجد نفسه مجبراً على إعداد ترتيبات تتعلق باستمرار رحلتهم إلى جدة. وعقدت الآمال على أن ينضم «ستورز» إلى هذه البعثة في «جدة» إلا أن الجنرال «اللنبي» كان قد استولى على القدس وعين «ستورز» أول حاكم عليها بعد سقوطها في أيدي الجيش البريطاني. وبدلاً من وصول «ستورز» إلى «جدة» وصلها القائد العسكري «هوغارث»، وبعد ذلك بوقت قصير وصل إلى هناك أيضاً «الملك حسين» قادماً من مكة ليكون في استقبال ضيوفه القادمين من الشرق والغرب. ودارت المباحثات ولكنها فشلت فشلاً ذريعاً بسبب رفض «الملك حسين» المطلق أن يتعامل مع «ابن سعود» على محمل الجد، وخاصة في القضية التي تتعلق بملكية «الخرمة» التي سبق أن تعرضت في شهر كانون الأول (ديسمبر) لغزو إحدى الحملات من مكة والتي على إثرها ناشدت الخرمة «ابن سعود» أن يقوم بواجبه في الدفاع عن الأهالي هناك.

عادت البعثة إلى البصرة ومن ثم توجهت إلى «ابن سعود»، وفي تلك الفترة كان السير «بيرسي كوكس» قد أصبح دبلوماسياً بمنصب الوزير البريطاني في طهران، وخلفه في منصبه في بغداد «آرنولد ولسون»، وعلى ما يبدو لم يكن «ابن سعود» في أي مزاج يمكنه من تحمل المزيد من استفزازات «الملك حسين» بخصوص «الخرمة» التي أصبحت حجر الزاوية في موقف الحكومة البريطانية. والحقيقة أن «ابن سعود» لم يبد أي ردة فعل حيال الهجومين اللذين تعرضت لهما «الخرمة» من جهة مكة خلال صيف عام ١٩١٨م باستثناء أنه أعلن رسمياً بأنه يمكن أن يقود حملة عسكرية ضد «الشريف حسين» في حال إذا تعرضت «الخرمة» لأي اعتداء آخر. وفي تلك الأثناء تكرست كافة جهود الحملة للتأثير على «ابن سعود» للقيام بإجراء ضد «حائل»، وهو ما حدث بالفعل، ففي شهر آب توغل «ابن سعود» بقواته في قلب «جبل شمر» ملحقاً خسائر مادية في المناطق الأمامية الخاضعة لسيطرة «ابن رشيد»، وتابعت قواته المسير إلى أن وصلت إلى أعتاب «حائل»، وكانت «حائل» محصنة بشكل منيع، ولم يكن بالإمكان مهاجمتها من دون قصفها بنيران المدافع، ولذلك عاد «ابن سعود» إلى «بريدة» وهناك أبلغته البعثة البريطانية بأن الحكومة البريطانية لم تعد تكترث لمصير «ابن رشيد»؛ لأن الأتراك أنفسهم كانوا قد خرجوا من دائرة الحرب. ولم تكن تلك الأخبار مفرحة بالنسبة للأمير السعودي الذي تركه البريطانيون مرة أخرى ليتصرف وفق ما يراه.

وفي تلك الأثناء كان الحلفاء المنتصرون مشغولين بتوزيع مراكز الانتداب، إضافة إلى معالجة مكاسب أخرى كانوا يتداولون أمرها في مؤتمر السلام الذي بحثوا فيه أيضاً الحالة النفسية المتأزمة في العالم العربي. لكن كان لا بد لـ «ابن سعود»

أن يجعل الحلفاء أو على الأقل الحكومة البريطانية مدركة للأحوال العربية، ومرت بضعة أشهر شهدت فيها المناطق الداخلية بعض المآسي التي ألمت بـ «ابن سعود» شخصياً: فانتشرت حمى الأنفلونزا الإسبانية خلال شتاء عام ١٩١٨م/ ١٩١٩م[١] وراح ضحيتها ابنه الكبير «تركي» واثنان من أبنائه، إضافة إلى زوجته الأولى «الجوهرة»[٢].

حدث في شهر أيار (مايو) من عام ١٩١٩م أن تبختر «الملك حسين» بخيلاء أمام السعوديين الحانقين، إذ أرسل ابنه الثاني «عبد الله» على رأس حملة قوية وأمره بالاستيلاء على «الخرمة» مهما بلغ الثمن. وقد وصل «عبدالله» إلى «تربة» وأقام فيها معسكراً محصناً جلس فيه بعض الوقت، كما نظر خلال تلك الفترة في أوضاع أهالي تلك البلدة غير المهتمين بولائهم لوالده. وبعدها سار بقوته نحو غايته المنشودة. وقد أرسل «ابن سعود» قوة قوية إليه. التزاماً منه بالوعد الذي قطعه على نفسه بالدفاع عن أهالي «الخرمة» في حال تعرضهم لأي اعتداء، وفي تلك الأثناء سارع بعض الأشخاص الساخطين في «تربة» وأبلغوا «خالد بن لؤي» أمير «الخرمة» عن حقيقة الأوضاع في معسكر «عبد الله». وفي سديم الليل قام الإخوان الملتزمون بمهاجمة معسكر «عبد الله» من كافة الاتجاهات في وقت واحد، وشرعوا في قتل المدافعين عن المعسكر، وتمكن «عبد الله» ومن معه من القادة من الهرب على ظهور الخيل عند سماعهم أول دلائل تلك الغارة. كما فر أيضاً بعض المحاربين من البدو الذين كانوا قد رافقوا حملة «عبد الله» وتمركزوا على طول تحصينات المعسكر. وعليه أصيبت قوات «عبد الله» بانهيار تام واستولت القوات السعودية على كافة

(١) تعرف في نجد باسم «سنة الرحمة» لكثرة من مات فيها وكانت عام ١٣٣٧هـ. (المراجعون)

(٢) هي الجوهرة بنت مساعد بن جلوي. (المراجعون).

المدافع والبنادق والذخائر التي كانت بحوزة قوات «عبد الله». وبعد يوم أو يومين وصل «ابن سعود» إلى مسرح أحداث المعركة وتوج ذلك الانتصار بأن ضم تلك البلدة إلى حدود مملكته.

ويذكر لـ «الملك حسين» أنه في بداية ذلك العام كان قد أطلع الحكومة البريطانية على نيته في احتلال «الخرمة» وطلب منها أن تبارك حملته تلك. وفي منتصف شهر آذار عقد اللورد «كرزون» مؤتمراً لقادة المناطق لمناقشة تلك المسألة، وقرر المؤتمرون بالإجماع أنه نظراً لأن جيش «الشريف» كان مدرباً تدريباً جيداً ومعه أفضل المعدات، فيمكن أن يكون بإمكانه وبسهولة إلحاق الهزيمة بالقوات السعودية بغض النظر عن مدى التزامهم الديني.

علاوة على ذلك رأوا أنه إذا تم إنجاز ذلك النصر دون المخاطرة في تورط الحكومة البريطانية بمناوشات عسكرية في الجزيرة العربية، ستقرر أن تكون «الخرمة» جزءًا من مملكة الحجاز، فإن السياسة البريطانية المستقرة الداعمة لقضية الشريف حسين ستسمح له باتخاذ الخطوات الضرورية ليؤكد على حقه في ضم «الخرمة» وحكمها. كما تقرر إبلاغ «ابن سعود» بالقرار الذي تم التوصل إليه وتحذيره من ضرورة عدم التدخل في تلك المسألة حتى لا يعرض نفسه لخسارة المعونة البريطانية المالية الشهرية التي تقدر بخمسة آلاف جنيه إسترليني. وكما شاهدنا، تجاهل «ابن سعود» ذلك التهديد، وحشد قوات جيشه من الإخوان وانطلق بها لنجدة أهالي «الخرمة». وفي الوقت الذي وصل فيه «ابن سعود» إلى آبار «السخا» كان الطابور المتقدم من قوات جيش ابن سعود قد سحق تماماً كامل جيش «عبد الله».

أما وقد وقعت الفأس في الرأس وإن ما حدث سيسفر عن متاعب جسيمة، فقد استدعى اللورد «كرزون» -مجدداً- أعضاء لجنته المشرفة على

الأمـور الإدارية لمناقـشـة نتـيـجة القـرار السـابق. وفي تلك الأثناء قـام أحـد الضباط المتحمسين بإبراق الأوامر المتعلقة بقرار الحكومة البريطانية إيقاف المساعدات المالية عن «ابن سعود» وإيصالها إلى السير «آرنولد ولسون». وقد نقل تلك البرقية إليه ساعي البريد الذي كان خارجاً للتجول بسيارته، وألقى «آرنولد» نظرة على فحوى البرقية ودسها في جيبه ولم يكترث لمحتواها. أما بخصوص لجنة اللورد «كرزون» فقد خيم على اجتماعها شعور بالراحة والاطمئنان لأن شيئاً ما قد تم إجراؤه ليصون شرف السيادة البريطانية وليبين لـ «ابن سعود» أنه لا يمكن له أن يتجاهل أو يهمل رغبات وتحذيرات حكومة صاحبة الجلالة. لكن تلك اللجنة اجتمعت لمناقشة قضايا أكثر أهمية من تلك، إذ إن السلطات البريطانية في «جدة» كانت قد أرسلت تقارير مفادها أن الذعر دب في منطقتي «مكة» و«جدة» بسبب أخبار وصول قوات «ابن سعود»، وأن آلاف الحجاج قد لجأوا إلى الميناء.

والجدير بالذكر أن حوالي أحد عشر ألف حاج من هؤلاء الحجاج هم أصلاً من مناطق خاضعة للحكم البريطاني، وأنه لا يمكن تجاهل مصيرهم دون إلحاق الإساءة بشرف الحكومة البريطانية، وعليه كانت هناك حاجة إلى إحدى عشرة سفينة لنقلهم إلى بر الأمان، ولكن نظراً لندرة السفن في تلك الأوقات أرسلت تعليمات مشددة إلى الأدميرالية البحرية بضرورة تقيد كافة السفن بتلك الغاية. وذكر مسؤول مكتب الحربية البريطانية أنه لم تكن هناك قوات بريطانية لتدافع عن اللاجئين. ولقي الاقتراح القائل بأن «ابن سعود» لن يتقدم باتجاه «جدة» أو باتجاه مكة استهجاناً، ونظر إليه بازدراء، كما أن التقارير الواردة من مكان الحدث لم تدعم صحة تلك المقولة، وبدا الوضع

وكأنه معقد للغاية ولا مجال إلى حله، لكن البريطانيين أرسلوا مبعوثاً إلى «ابن سعود» جواً ليهدئ من غضبه وليحول تفكيره - إذا أمكن - عن نيته في احتلال الحجاز، وفي الوقت نفسه تم إرسال ست طائرات مجهزة لقصف القوات السعودية إذا استدعت الحاجة، لكن تلك الطائرات لم تستخدم قذائفها وتم إبلاغ المبعوث الذي وصل إلى مقر قيادة الجنرال «اللنبي» (الذي كان وقتها القائد العام للقوات البريطانية) بأن «ابن سعود» قد سحب قوات جيشه المنتصر من «تربة» وعاد بها إلى الرياض، وأن ما فعله «ابن سعود» كان مجرد ضم «تربة» إلى مملكته.

وجهت اللجنة الدعوة إلى «ابن سعود» بأن يرسل ممثلاً عنه إلى «لندن» لمناقشة كافة جوانب الوضع الراهن. وفي شتاء عام ١٩١٩م أرسل بعثة تمثله إلى هناك برئاسة الأمير «فيصل بن عبد العزيز» الذي كان في ذلك الوقت ابن أربعة عشر عاماً، وقد أحدثت تلك الزيارة (في لندن وفي أماكن أخرى) ردود فعل قوية، وأوقعت في الأوساط الحكومية البريطانية تأثيراً قوياً، وتم الافتراض ضمنياً بأن قضية «الخرمة» قد سويت بسبب ضم «تربة» إلى مملكة ابن سعود إضافة إلى حقائق أخرى. كما افترضت الحكومة البريطانية أيضاً بأن المساعدات المالية البريطانية لـ «ابن سعود» أصبحت معلقة أو معطلة منذ شهر أيار الماضي، وأنه لا مجال لإعادتها دون تعويض أو مقابل. لكن ظهرت أمام اللجنة الإدارية مفاجأة غير سارة، إذ تم الاعتراض والارتباك في البيان المتعلق بتوقيف المساعدة المالية، لكن السلطات الرسمية البريطانية أكدت ذلك البيان رسمياً وبشكل غير مقيد أو مشروط. وقد سبب ذلك الموقف إحساساً مثيراً بعض الشيء لكن لم يعد الآن شك بخصوص توقف المساعدات

المالية، وتم أيضاً مناقشة قضايا أخرى ذات اهتمام متبادل وعاد الوفد في الوقت المناسب إلى الجزيرة العربية (الرياض).

كان الوضع في العراق يزداد حساسية لأن الشريف فيصل الذي كان في ذلك الوقت ملكاً على سوريا، كان يعمل بسرية وبشكل حثيث على تقويض الترتيبات الإمبريالية البريطانية والتي كان «آرنولد ولسون» بدوره يذكي نارها في مناطق بلاد الشام على نطاق واسع وملحوظ. ففي أوائل عام ١٩٢٠م اندلعت شرارة التمرد وأصبحت السياسة البريطانية في كافة أنحاء المنطقة قيد نقد ومساءلة. وأخيراً قررت الحكومة البريطانية استدعاء السيد «بيرسي كوكس» من «طهران» لمناقشة احتمال تطبيق سياسة ليبرالية في «العراق»، وبصفته المندوب السامي البريطاني فقد أوكلت إليه مهمة تطبيق هذه السياسة. وسمحت الرحلة البحرية إلى «البصرة» للسيد «كوكس» بأن يجدد اتصالاته مع «ابن سعود» الذي قدم بدوره للقائه في منطقة «العقير».

كانت النقطة الرئيسة التي شغلت تفكير «ابن سعود» هي الإشاعة التي أفادت عن نية الحكومة البريطانية عرض تاج حكومة العراق على «الشريف فيصل» الذي خسر - في تلك المرحلة من تطور الأحداث - حكمه على سوريا بسبب الصعاب التي واجهها مع الفرنسيين والتي نجمت عن معركة العرب ضد الفرنسيين في موقعة «ميسلون» في شهر تموز (يوليو) عام ١٩٢٠م. وكان بإمكان «كوكس» أن يقلل من قلق «ابن سعود» بخصوص تلك المسألة مادام قد تقرر بشكل قاطع أنه لم يتم اتخاذ إجراء نهائي بخصوص الوضع في العراق إلا بعد أن يتمكن من دراسة الوضع وإرسال تقرير عن وجهات نظره وتوصياته بذلك الخصوص. وتصادف أن «كوكس»

في تلك الفترة لم يؤيد فكرة أن يتولى الشخص الذي رشحه «لورنس» مهمة إدارة البلاد، والذي كان إلى حد ما مسؤولاً عن حركة التمرد. وتمت أيضاً مناقشة البنود العامة لموضوع «ابن رشيد» لكن كان من الواضح أن السير «كوكس» كان ينظر إلى «ابن رشيد» على أنه عامل مفيد في حفظ توازن القوى في الجزيرة العربية، ومما لا شك فيه أن «ابن سعود» خلص إلى نتيجة مفادها أن منافسه القديم حاكم منطقة «جبل شمر» يمكن أن يتحدى مكانته الشخصية بتشجيع من الحكومة البريطانية. والجدير بالذكر هنا أن المبعوث الخاص لـ «ابن رشيد» كان في تلك الفترة موجوداً في بغداد ليجري مفاوضات مع «جيرترود بل».

لذا؛ قرر «ابن سعود» أنه يتوجب عليه أن يحمي نفسه من أعدائه الحقيقيين الذين شكلوا طوقاً حول حدود مملكته الشمالية، وعلى أي حال بادر بإرسال الأمير الشاب «فيصل» على رأس قوة كبيرة ليضم مرتفعات عسير والواحات التي في أطراف ذلك الإقليم باتجاه الصحراء. وكان غايته من ذلك الإجراء هو تعزيز المكاسب التي حققها من السيطرة على «الخرمة» و«تربة» واللتين امتد خط دفاعهما ضد أي اعتداء محتمل من الغرب عبر «رنية» و«بيشة» باتجاه «خميس مشيط» و «أبها». ومن هناك كان «ابن سعود» في موقف يمكنه من السيطرة على كافة القبائل التي تعيش على امتداد المرتفعات حتى حدود إقليم «الطائف».

قدم هذا التحرك لـ «ابن سعود» حجر ارتكاز لا غنى عنه لتحقيق طموحاته التي بدأ فعلاً في بلورتها في ذهنه. فقد حدث خلال عام ١٩٢٠م أن قام «عبد الله بن طلال» (أحد أبناء عمومة «ابن رشيد») بأن أطلق النار على «سعود بن رشيد» خلال إحدى النزهات، وقام عبيد على الفور

بالانتقام من القاتل وقتله، كما تمكن «عبد الله بن متعب» أخو القتيل من الظفر بالسلطة بعد أن تمكن من إيداع «محمد بن طلال» السجن. والجدير بالذكر هنا أن «عبد الله بن متعب» هو حفيد «عبد العزيز بن متعب بن رشيد» وهو العدو القديم لـ «بن سعود»، وها هو قد اعتلى سدة الحكم بعد اغتيال «سعود بن رشيد». وقد ظهر ضعف شخصيته كحاكم وانعكس ذلك على الضعف العام الذي ألم بمنطقته، وبدأت عناصر من جماعة الشريف تتقرب منه بشكل ملحوظ، وازداد توددها له عندما بدأ القدر يلوح باحتمال أن يتولى الشريف «فيصل» منصب ملك العراق. ولم يكن بإمكان «ابن سعود» أن يتوانى أو يضيع الوقت سدى فيما يتعلق بالوضع في «حائل»، إذ إن سيطرته على «حائل» يمكن أن تجعل منه سيداً على كافة مناطق الجزيرة العربية، كما أن سيطرة أي فرد من جماعة الشريف يمكن أن تعرض موقفه للخطر إلى أبعد الحدود.

ففي ربيع عام ١٩٢١م أرسل «ابن سعود» أخاه «محمداً» على رأس قوة عسكرية باتجاه الشمال، وفي الوقت نفسه أرسل «فيصل الدويش» على رأس قوة محاربة من الإخوان لدعمه من جهة الشرق، وساعد «نوري الشعلان» من قبيلة «الرولة» في سوريا بأن مارس الضغط على مناطق واحات «الجوف». وقد اتسمت هذه العمليات بسمة جس النبض، وجاءت في وقت كان فيه «ونستون تشرشل» يعقد مؤتمره الشهير في القاهرة ليقرر مستقبل شكل الشرق الأوسط. وكان القرار الرئيس لذلك المؤتمر هو وجوب أن يعين «فيصل» ملكاً على العراق. وفي تلك الأثناء وصل الشريف «عبدالله» من مكة إلى عمّان على رأس قوة كبيرة ليفسد جو المؤتمرين وليعلن عن نواياه في مهاجمة الفرنسيين في سوريا.

وقد افتُدي الشريف «عبد الله» من مغامرته غير المناسبة تلك بأن عرضت عليه إمارة عبر شرق الأردن. ولم تترك تلك الحقيقة -التي تضافرت مع الخبر المؤكد بأن أخا الشريف «عبد الله» سيعين حاكماً على بغداد- مجالاً أمام «ابن سعود» أن يعيد النظر في الأمور، فأخذ ينظر بجدية بالغة إلى حملته الموجهة ضد «حائل»، لذا ترأس الحملة بنفسه وقادها باتجاه «حائل» التي وصلها في فصل الخريف أي بعد فترة وجيزة من تتويج «فيصل» ملكاً على بغداد. كما رفض وفد من «حائل» كان قد توجه إلى معسكر «ابن سعود» النزول عند مطلب «ابن سعود» وإصراره القاضي بأن تتنازل عائلة «آل رشيد» الحاكمة عن الحكم، وعندما أبلغ «عبد الله بن متعب» بمطلب «ابن سعود» رفضه أيضاً وأصبحت يدا «ابن رشيد» مكبلتين. وقد توجب عليه أن يطلق سراح «محمد بن طلال» من السجن ليقود قوة عسكرية لتخفيف الضغط على «الجوف». وذلك حتى يتعامل مع الوضع الملح في الشمال -حيث كانت منطقة «الجوف» على حافة خطر السقوط في يد «نوري الشعلان»-. وعند عودة «محمد بن طلال» إلى «حائل» قام بانتفاضة ضد ابن عمه الضعيف والمتأرجح الذي لاذ (في لحظة لم يتمكن فيها من ضبط نفسه) إلى حماية «ابن سعود» وبقي ضيف شرف على «ابن سعود» في الرياض إلى أن وافته المنية عام ١٩٤٧م.

يبدو أن «ابن سعود» كان قد عاد إلى الرياض قبل تطور هذه الأحداث، إلا أن التصرف العنيف العدواني الصادر عن الأمير الجديد «محمد بن طلال» والذي كان قد بدأ في اعتداءاته على القوات السعودية التي كانت تطوق «حائل» على بعد مسافة ملحوظة أجبره على استئناف المبادرة التي بدأ

بها. وعليه وصل «ابن سعود» في الثامن من شهر أيلول إلى «بقعاء» الواقعة إلى الشرق من «حائل»، وصادف وصوله بعد أن كان «فيصل الدويش» وفرقته من الإخوان قد دحروا هجوماً قام به «محمد» الذي كانت قواته الرئيسة تتمركز في تلك المنطقة. واعتمد «محمد» على أسوار حائل وتحصيناتها ليصد أي عدو يحاول الهجوم عليه ويبقيه على بعد مسافة منه. أعد «ابن سعود» هجوماً على مواقع «محمد» في «بقعاء» وعززه بقوة ضاربة، وسقطت القلاع واحدة تلو الأخرى وهرب «محمد» إلى «حائل» عن طريق جبل «أجا»، وعندما أدرك أن الأمور لم تكن تسير لصالحه، عرض على «ابن سعود» أن يستسلم شريطة أن يبقى أميراً على «جبل شمر» تحت مظلة سيادة «ابن سعود». لكن «ابن سعود» لم يقبل هذا الشرط وأعد ترتيباته لفرض الحصار عليه، وجلب كل مدافعه لقصف المدينة، وقد وافق «ابن سعود» على إيقاف القصف لفترة معقولة من الوقت، بناءً على طلب بعض الموسرين والوجهاء من الأهالي وذلك ليتمكنوا من ترتيب استسلام المدينة سلمياً.

وأثناء تلك الفترة أرسل «محمد بن طلال» مناشدة بالشفقة يطلب مساعدة كل من السلطات البريطانية في العراق والملك «فيصل» الشريف، وبعد مرور بضعة أسابيع من الصبر أرسل «ابن سعود» إنذاراً أخيراً إلى أصدقائه في المدينة أعلن فيه عن نيته معاودة القصف إذا لم تستسلم المدينة خلال ثلاثة أيام. وكانت تلك الفترة كافية للجميع باستثناء «محمد» الذي أغلق أبواب القلعة ليقاتل حتى آخر رمق، وفتحت أبواب المدينة أمام قوات «ابن سعود» في الثاني من شهر تشرين الثاني عام ١٩٢١م.

وسرعان ما مال «محمد» إلى الاستسلام مقابل ضمان سلامته الشخصية، ومن ثم توجه إلى الرياض وعاش هناك معززاً مكرماً، ومع مرور الأيام زوج ابنته للملك العظيم الذي سبق أن أطفأ نور أسرته الحاكمة بعد ولاية دامت تسعين سنة تقريباً بدأت من عام ١٨٣٤م حين ارتقى جده سدة الحكم على إمارة «حائل». وقد قام أحد عبيد «محمد بن طلال» وبالتحديد في الرياض خلال شهر شباط عام ١٩٥٤م باغتيال «محمد بن طلال» نفسه.

كان «ابن سعود» قبل الشروع في حملة «حائل» هذه قد عقد مؤتمراً لرؤساء القبائل ووجهاء علماء الدين في الرياض لمناقشة الحالة التي كانت تعاني منها البلاد، وقد وافق المؤتمرون على اقتراح «ابن سعود» القائل بأنه من أجل إعطاء «نجد» وضعية دولية مساوية لوضعية ومكانة جيرانها، يجب أن يحظى «ابن سعود» بلقب سلطان «نجد» وتوابعها. وقد وصل هذا القرار عبر القنوات الرسمية إلى المفوض السامي في بغداد، وعندما حان الوقت المناسب اعترفت الحكومة البريطانية به. وعزز الوضع الجديد لـ «ابن سعود» الذي بدأ يتمتع به التخلص من «حائل»، كما أزال عنه كل إحساس بالتوتر المتعلق بأي تدخل محتمل من قبل الأشراف على أمور «نجد» الداخلية. ذلك التدخل الذي يمكن أن يقوم به هؤلاء الأشراف في المناطق المحيطة بنجد، سواءً بتشجيع أو بعدم تشجيع من الحكومة البريطانية، وأصبح «ابن سعود» الآن في موقف يمكنه من تنفيذ الخطوة التالية في برنامجه والتي تصور من خلالها توسيع سيادته بشكل فعال لتشمل حدود معقولة من الجزيرة العربية.

وعليه قام «ابن سعود» في عام ١٩٢٢م بدفع قواته باتجاه «الجوف»

ومناطق وادي السرحان، التي كانت تشكل حتى أواخر عام ١٩٢٠م جزءاً مكملاً لإمارة «جبل شمر»، علماً بأن مقتل «سعود بن رشيد» وانهيار سلطة «آل رشيد» بسبب ذلك الاغتيال؛ كانا قد أغريا «نوري الشعلان» زعيم قبيلة «الرولة» على احتلال هذه المناطق بتشجيع من الشريف «عبد الله» حاكم مناطق الأردن، مع إذعان وموافقة السلطات البريطانية على ذلك.

والجدير بالذكر أن السلطات البريطانية كانت في تلك الفترة مهتمة بفكرة إنشاء خط سكة حديد استراتيجي يربط بين العقبة وبغداد، وبتشجيع ودعم فعال من قبل «أحمد بن مويشر» وبعض الوجهاء المحليين الذين كانوا قد تبنوا الدعوة السلفية، وتمكنت قوات «ابن سعود» من تثبيت أقدامها في جزء من إقليم «سكاكا»، وعليه أرسلت خلال شهر آب فرقة عبر الأراضي الأردنية لجس النبض وتوغلت حتى وصلت إلى منطقة سكة الحديد وقتلت سكان قرية «زيزة» القريبة من هناك، إلا أن قوات سلاح الجو الملكي المدرعة إضافة إلى بعض الطائرات التي قدمت من عمّان تمكنت من طرد هذه الفرقة خارج حدود الأردن وأنزلت بها خلال هربها المضطرب خسائر فادحة. وفي فصل الخريف من ذلك العام هاجم الإخوان قبيلة «الرولة» في «منوة» الواقعة في مقاطعة قرى «السلط» والمتمركزة حول قرية «كاف»، ولم يكن بإمكان قبيلة «الرولة» من دون مساعدة أحد أن يصمدوا أمام قوة «ابن سعود» العاتية. وعندما وصلت القوة الرئيسة لجيش «ابن سعود» إلى «الجوف» سارع الأهالي هناك إلى الاستسلام دون أية مقاومة وتخلوا عن ولائهم لـ «نوري الشعلان». وعليه قبلت البلدان الواقعة في وادي السرحان الحكم الجديد بوصفه نتيجة طبيعية للأحداث.

في تلك الأثناء كانت القوات السعودية المقاتلة قد ضمت أيضاً واحات «خيبر» و«تيماء» القريبة من حدود الحجاز والخاضعة لسلطة «حائل» منذ أيام «محمد بن رشيد». وفي نهاية عام ١٩٢٢م كان «ابن سعود» قد احتل كافة واحات صحراء شبه الجزيرة العربية، وذلك من الحدود المتاخمة للهلال الخصيب حتى الربع الخالي، إضافة إلى طوق من المناطق الخاضعة لحكم الأشراف حول الحد الشمالي من مملكته. وقد تضافرت ظواهر عدة مثل عداء الملك «حسين» المكشوف وعداء أبنائه المبطن والمتحفظ في العراق ومناطق الأردن (والتي كانت آنذاك تحت الوصاية البريطانية) علاوة على طموحات «ابن سعود»، تضافرت جميعها لتفجر الوضع على نحو لم يعد بإمكان الحكومة البريطانية أن تتجاهله.

ومع حلول نهاية عام ١٩٢١م تمكن السير «بيرسي كوكس» من إغراء السلطان عبدالعزيز بإرسال بعثة إلى بغداد لمناقشة مشكلات الحدود. والجدير بالذكر أنه لا يمكن اتهام «كوكس» بأن لديه مشاعر عدائية تجاه «ابن سعود»، علماً بأنه كان مهتماً بالدرجة الأولى بأمن ورخاء العراق.

لقد تم تسوية مشكلة الكويت بسهولة، كما تم ترتيب وتحديد حدودها مع سلطنة نجد إضافة إلى إقرار منطقة محايدة لتقف في وجه أية مشكلات قد تحدث بشكل عرضي. وبعد محاولة عنيفة تم إقناع البعثة السعودية على توقيع «معاهدة المحمرة» التي تحددت بموجبها الحدود بين «نجد» و«العراق»، رفض «ابن سعود» الاعتراف بتوقيع ممثله على تلك المعاهدة بحجة أنه تجاوز التعليمات الصادرة إليه، وقال بأنه لا يوافق على الحدود المقترحة بدعوى أنها لا تشتمل على فقرة تخول قبائل نجد في المناطق التي أعطيت للعراق في

ممارسة حقهم الموغل في القدم في الرعي هناك. وعليه اقترح «ابن سعود» إعادة النظر في كافة المسألة عن طريق إجراء محادثات شخصية بينه وبين السير «بيرسي كوكس»، ووجه إليه الدعوة ليقابله في «العقير» خلال فصل شتاء عام ١٩٢٢م/ ١٩٢٣م وقبل «كوكس» الدعوة، وفي الوقت الذي تمت فيه المقابلة كان «ابن سعود» قد بلغ ذروة سلطانه وملأت سمعته أرجاء الجزيرة العربية كحاكم على كافة مناطقها. وكان «ابن سعود» على كل حال معجباً بتصور «كوكس» عن حدود ثابتة نظراً للوضع البدوي التقليدي في المنطقة المعنية. وقد تمكن «كوكس» في نهاية المطاف من تمرير مراده عن طريق تقديم تنازلات جوهرية بخصوص هذه المسألة، وتم الاتفاق بموجب بروتوكول «العقير» على أن يفهم مع اتفاقية «المحمرة» بأنه من أجل التمكن من الوصول إلى آبار ومراعي المنطقة المعتبرة ملكاً لكلا الطرفين، لا يحق لأي طرف أن يقوم ببناء قلاع أو أبنية دائمة ضمن مسافة معينة بعيدة عن الحدود أو داخل منطقة محايدة متفق عليها.

إن ما جاء بمثابة انتصار لمهارة «بيرسي كوكس» الدبلوماسية هو الخط الحدودي المحدد الذي يحمي العراق والكويت من أي اعتداء يمكن أن تقوم به القوات السعودية، ذلك إضافة إلى انتصاره في تأمين الحماية لدول خليجية أخرى من تدخل «ابن سعود» في شؤونها، وتم ذلك عن طريق توقيع معاهدة خاصة بذلك الغرض. لكن كان لـ «ابن سعود» الحق أن يشعر بعدم الرضى؛ لأنه لم يتم النظر في اهتماماته ومصالحه في المناطق الغربية والشمالية حيث كانت له مطالب وأوضاع مهمة بخصوص مناطق لا بد من تثبيت حقه فيها أو التوصل إلى تسوية بخصوصها. غير أن تغير الظروف

والأحوال كان محققاً لدرجة كافية لطموحاته في المناطق الشرقية كما كان له دور في تحويل اهتماماته نحو توجهات أخرى.

وفي عام ١٩٢٣م وجدت الحكومة البريطانية نفسها مضطرة إلى تدارك الاحتمالات الخطرة لمثل ذلك الظرف، وبالتحديد فيما يتعلق بمناطق عبر الأردن حيث تكرر وقوع الأحداث بسبب غياب النقاط الحدودية الواضحة هناك. وكانت الحجاز أيضاً بمثابة مسؤولية أدبية بالنسبة لحكومة جلالة الملك، علماً بأن اهتمامها بالملك «حسين» وبطموحاته التي لا حدود لها كانت قد بدأت تذبل وتتلاشى منذ تاريخ ١٩٢١م عندما لم يلق أذناً صاغية لجهود «لورنس» المقنعة والرامية في ذلك الوقت إلى حمله على التصديق على السياسة البريطانية في فلسطين. وقد كانت الحكومة البريطانية نادراً ما ترحب بطموحات إقليمية متعلقة بأماكن المسلمين المقدسة في الحجاز، ومما كان مشكوك فيه هو إمكانية إقامة بريطانيا لتأثير سياسي فاعل في وجه سلوك الملك «حسين» الذي أصبح في تلك الفترة متعنتاً ومتصلباً، لكن الحكومة البريطانية في تلك الفترة كانت قد حصلت (من أبناء الملك «حسين») على ما أرادته من منطقة الهلال الخصيب، وأصبح من الممكن النظر إلى المساعدات السنوية التي تقدمها الحكومة البريطانية إلى الدول العربية على أنها أمور ردع لأي عمل عدائي يمكن أن تقوم به أي دولة من هذه الدول. على أي حال لم يكن بالإمكان التوقع لهذه المساعدات المالية أن تستمر إلى الأبد، وكان من المهم تأمين تسوية سياسية شاملة لكافة المشكلات العربية بالسرعة الممكنة.

وحيال هذه الظروف اقترحت الحكومة البريطانية إمكانية عقد مؤتمر في الكويت خلال شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٩٢٣م على أن يترأسه

مسؤول بريطاني رفيع المستوى ذو خبرة طويلة في الأمور القانونية وكان المسؤول الذي تم اختياره هو الكولونيل «إس جي نوكس» الذي سبق له أن خدم في الكويت، ومسقط، والعراق. ويمكن أن تمثل وفود معتمدة كافة الجهات المهتمة بهذا المؤتمر. وقد وافق العراق و «ابن سعود» على الفكرة دون تردد أو شروط مسبقة، ومما تجدر الإشارة إليه بشكل عابر هنا أنه في بداية هذا العام كان «ابن سعود» يدرس اقتراحاً تقدم به «كوكس» مفاده تقديم امتيازات نفطية تشمل كل مناطق شرقي الجزيرة العربية لشركة «إيسترن جنرال سنديكيت» البريطانية مقابل أجرة سنوية رمزية تصل إلى ألفي جنيه إسترليني.

اعترض الملك «حسين» على المؤتمر المقترح لكونه غير ضروري من حيث المبدأ، ولأن جدوى القضايا التي ستناقش في المؤتمر كانت بديهية لأي عاقل. كما رفض الأمير «عبد الله» أن يرسل أي وفد إلى المؤتمر ما لم يرسل والده أولاً وفداً من قبله. وبعد جدال طويل أخذ المؤتمر - من قريب أو من بعيد - شكلاً تمثيلياً، وكانت الحكومة البريطانية قد أعلنت بشكل مسبق أنها ستوقف كافة المساعدات المالية التي تقدمها للدول العربية ابتداءً من الحادي والثلاثين من شهر آذار عام ١٩٢٤م، كما أعلنت أنها ستدفع مقدماً كافة المبالغ المستحقة عليها لحين ذلك التاريخ.

وفعلاً كان ذلك ما فعلته الحكومة البريطانية، واجتمعت الوفود العربية وسط جو مريح وشعرت بأنها لن تخسر شيئاً بسبب عنادها وتصلب موقفها، لكن الحكومة البريطانية هي الجهة التي أفسدت برنامج المؤتمر قبل البدء في اللعبة، حيث كان كبار المسؤولين قد أطلعوا رئيس المؤتمر البريطاني عن النتائج المتوقعة للمؤتمر، والتي استشفوها نتيجة المداولات التي أجروها

مع الوفود، وكانت إحدى هذه التوقعات كافية في حد ذاتها لتؤكد أن المؤتمر لن يسفر عن أية نتائج. وفي حقيقة الأمر طلبت الحكومة البريطانية بإصرار من «ابن سعود» أن يتخلى عن «الخرمة» و «تربة» ويقدمهما للملك «حسين» مقابل تنازل «حسين» عن وادي «السرحان» وقرى «السلط» التي كان «ابن سعود» قد سيطر عليهما منذ أن احتل «الجوف»، إذ كان بإمكان قواته أن تدخلهما وتحتلهما في أي وقت يشاء. تلاشت وقائع ذلك المؤتمر على امتداد فترة ستة أشهر. لذا؛ قرر الملك «حسين» أن يظهر مدى سلطته على أبنائه فحدث في شهر كانون الثاني (يناير) عام ١٩٢٤م أن قدم بنفسه إلى مناطق عبر الأردن متظاهراً بأنه استعاد أمر تسيير الأمور، وحضر إلى هناك أولاده الثلاثة صاغرين. لكن ذلك الحدث أذهل «هيربرت صاموئيل» المفوض السامي البريطاني على فلسطين ومناطق عبر الأردن وأدخل الرهبة في قلبه، وفي الوقت نفسه تضايق من ذلك الإجراء بحد ذاته.

وعليه عين الملك «حسين» أكبر أبنائه الشريف «علي» مشرفاً على خط سكة حديد الحجاز، وزوده بتعليمات طلب منه فيها أن يعيد كامل الاتصالات مع «المدينة»، وكان ينظر بشكل جدي أيضاً إلى تعيين ابنه «علي» مكان ابنه «عبد الله» كأمير على مناطق عبر الأردن، وفي الوقت الذي كان فيه الملك «حسين» يدرس هذا الموضوع حدثت حادثة غيرت مجرى تاريخ الجزيرة العربية حيث كان الدكتاتور التركي «مصطفى كمال باشا- أتاتورك» قد رأى أن الوقت مناسب لإلغاء المنصب التاريخي للخلافة الإسلامية، وعليه أطاح بآخر الخلفاء العثمانيين المدعو «عبد المجيد». والجدير بالذكر أنه بعد أن تم القضاء على الحكم السلطاني العثماني سمح للخليفة «عبد المجيد»

بأن يحتفظ بمكانته الدينية. بينما أقام الحسين احتفالاً مهيباً توج نفسه فيه على أنه خليفة المسلمين، وبعد ذلك عندما كان في انتظار أن يبايعه أهالي العراق ومناطق عبر الأردن ومناطق أخرى من الهلال الخصيب على الخلافة أعد الملك «حسين» ترتيبات طارئة للعودة إلى مكة، وعليه تم مؤقتاً تخليص مناطق عبر الأردن وكذلك الأمير «عبد الله» من شر وبلاء كانا على وشك أن يحيقا بهما. وقد وضعت الحكومة البريطانية نهاية لترتيبات وإجراءات مؤتمر الكويت التي كانت أصلاً في حالة سبات واحتضار.

أصبحت الحالة مهيأة لمأساة قادمة ارتفع عنها الستار بعد أقل من ستة أشهر إثر انهيار محادثات الكويت، وبالتحديد في الثالث من شهر أيلول عندما حدثت معركة «الطائف»: كان «ابن سعود» قد أمضى فصل الصيف في الإعداد لتسوية نهائية مع ملك الحجاز الذي أسفر اغتصابه للخلافة عن وجود مبرر لإعلان الجهاد، وعليه استدعى «ابن سعود» كافة القوات التي كانت تحت تصرفه. حيث أمر أن تنتشر قوة على طول الحدود المتاخمة للعراق، وكان القصد من ذلك جس النبض واستعراض القوة لردع أي عمل يمكن أن يفكر الملك «فيصل» في القيام به. ولم تقع أية حادثة تذكر، كما أن القوات السعودية لم تعبر الحدود إلى داخل العراق. وأرسل «ابن سعود» قوة أخرى من الإخوان باتجاه الشمال تقدر بألف رجل، وتوغلت تلك القوة داخل مناطق عبر الأردن وأقدمت على مهاجمة سكان إحدى القرى القريبة من خط سكة الحديد، لكن سلاح الجو الملكي البريطاني أحبط تلك القوة وأجبرها على التراجع. وما إن بدأ العالم ينظر في مضاعفات تلك النشاطات حتى وصلته تقارير عن سقوط «الطائف».

قاد زعيم قبيلة «الغطغط» المدعو «سلطان بن بجاد» قواته المشكلة من الإخوان فقط وعبر بها مناطق الصحراء، وخلال مسيرته وصل إلى عاصمة الحجاز الصيفية وهناك كان الشريف «علي» معسكراً على رأس قوات حجازية. وفي الواقع لم يبد الشريف «علي» أي مقاومة أو تصد لقوات الإخوان، إذ هرب بجيشه باتجاه «الهدا» وهو جرف يطل على سهول المرتفعات المكية. وهربت مع قوات الشريف «علي» أيضاً آلاف من أهالي منطقة «الطائف» ومن الناس المصطافين هناك الذين خافوا من مجابهة القوات السعودية. وقد قامت بعض القوات السعودية بمطاردة القوات المنسحبة ومطاردة اللاجئين معهم، وهاجموا كافة الشاردين واستمروا في الضغط على قوات الشريف «علي»، ودارت بينهم معركة في مناطق «الهدا» ومن هناك هربت قوات الشريف مجدداً وهي في حالة فوضى وأخذت تتراكض فوق منحدرات الجبال باضطراب ملحوظ. وقلّب الشريف «علي» الأمر في تعقل وحذر محاولاً الاستفادة مما تبقى من شجاعته، وقرر التوجه إلى «جدة» عن طريق مكة ليتجنب مواجهة أبيه الذي كان يتطاير غضباً.

واصل «سلطان بن بجاد» مع ما تبقى معه من قوة الضغط على أهالي الطائف، حيث قتل من قاوم وفي واقع الأمر لم يزد عدد الذين قتلوا على ثلاثمائة رجل بمن فيهم أولئك الذين ماتوا أو سقطوا خلال هروبهم من «الهدا»، لكن ذلك العدد كان كافياً لإحداث الذعر في كافة أرجاء مكة وجدة، إلا أن أوامر «ابن سعود» العاجلة التي وصلت إلى هذا القائد المندفع أبقت على حياة ما تبقى من الناس، كما طلب منه أن يتجنب القيام بأي نشاطات عسكرية في المناطق المذكورة، وأمره بأن ينتظر حتى يصل

«ابن سعود» إلى هناك وأن لا يباشر في التقدم لاحتلال مكة . وفي مكة كان الملك «حسين» قد أعلن عن نيته في البقاء فيها بغض النظر عن المخاطرة التي يمكن أن تلحق بحياته شخصياً ، لكنه فقد السيطرة على الوضع هناك وقام أهالي جدة الذين أصبحوا أمام خطر جسيم أكبر من الخطر الناجم عن غضب الملك العجوز ، وطالبوا الملك بالتنازل عن العرش ليحل محله ابنه «علي» الذي كانت أمامه على الأقل فرصة أفضل من الفرصة المتوافرة أمام والده للتوصل إلى اتفاق وشروط معينة مع القوات السعودية ، وبالتحديد مع «ابن سعود» .

وهكذا غادر الملك «حسين» مكة إلى الأبد بعد فترة حكم دامت ستة عشر عاماً أمضى نصفها ملكاً مستقلاً ، وتوجه إلى جدة ليرحل منها إلى العقبة آخذاً معه نساءه وكنوز ثروته . لكن لم يمض على وجوده في جدة فترة طويلة حتى أجبرته السلطات البريطانية على التوجه من هناك إلى «قبرص» خشية أن يشجع وجوده هناك القوات السعودية على التحرك شمالاً لاحتلال العقبة ، في وقت لم يكن فيه البريطانيون مستعدين ، ومع ذلك فقد احتلوها في صيف عام ١٩٢٥م .

خلف الشريف «علي» والده كملك على الحجاز ، ولم يدَّعِ لنفسه الحق في حكم مملكة على نطاق أوسع من ذلك كما تصورها والده ، كما أنه لم يدَّعِ حقه في أن يكون خليفة على المسلمين ، فقد تعطل هذا الموضوع مجدداً وانتقل إلى حيز النسيان إلى الأبد . ولم يكن «ابن سعود» في عجلة من أمره ليصعد الأمور ، ولم يصل إلى مكة إلا في بداية شهر كانون الأول حيث دخلها وهو مرتدياً لباس الإحرام كما فعل «سعود الثاني» الذي كان آخر

أعضاء أسرة «آل سعود» والممثل الوحيد لتلك الأسرة الحاكمة الذي زار مكة للمرة التاسعة، حيث كانت المرة الأخيرة عام ١٨١٢م. وبعد هروب الملك «حسين» كان «سلطان بن بجاد» قد دخل مكة المكرمة من دون أية مقاومة، كما تمكن من تهدئة مخاوف أهلها على أرواحهم وممتلكاتهم، علماً بأنه ترك قصور الأشراف هناك عرضة للسلب والنهب، وهدم كافة قباب قبور من يعتقد أنهم رجال صالحون والمدفونين في مقبرة «المعلاة» وفي أماكن أخرى، كما حدث سابقاً عند دخول مكة المكرمة.

أصبح الآن «ابن سعود» مشغولاً في إعداد الترتيبات لضم بقية مناطق «الحجاز»، إذ كان من الضروري تلقين القبائل الشرسة العنيدة هناك درساً يجعلهم يقتنعون بأنه لا توجد علاقة مشتركة بين السلام في عهد عبدالعزيز وبين حالات الفوضى التي شهدتها أيام الأشراف. وبالطبع كانت هناك مشكلتا «جدة» و «المدينة» غير المبتوت فيهما والتي توجب عليه معالجتهما. فقد تطلب حل هاتين المشكلتين مزيجاً من البراعة والإصرار إلى جانب إظهار القوة، وإلا فإنه من المحتمل أن تؤدي أعمال عنف جامحة مصحوبة بأعمال وحشية إلى حدوث مشكلات مع بعض القوى الأجنبية، أو تؤدي إلى جرح أحاسيس ومشاعر جماعات إسلامية معينة. ومن جانب آخر قام الشريف «علي»، وبعض مستشاريه في تلك الأثناء بتطويق «جدة» بسياج ضعيف من الأسلاك الشائكة، ووضعوا على بعد مسافات معينة منه ألغاماً يشك في مدى فعاليتها، وحشد «ابن سعود» قواته مقابل هذه المواقع ووضع مدافعه في أماكن منخفضة بين التلال على الشريط الساحلي والتي كانت تبعد حوالي عشرة أميال عن المدينة.

وفي اليوم الثالث من شهر كانون الثاني عام ١٩٢٥م بدأ القصف السعودي واستمر على نحو غير منهجي بشكل متقطع حتى نهاية شهر آذار حيث سحب «ابن سعود» جيشه باتجاه «مكة» لقضاء استراحة المحارب خلال فصل الصيف وبالتحديد في شهر نيسان الذي تزامن معه حلول شهر رمضان. وجاء موسم الحج في بداية شهر تموز وكان ذلك أول حج يتم الاحتفال به تحت رعاية الملك عبدالعزيز «آل سعود» بعد فترة زادت على قرن من الزمن. وقد قدم إلى موسم ذلك الحج أعداد كبيرة من أهالي «نجد» إضافة إلى جنسيات أخرى تمكنت من الوصول إلى هناك عن طريق موانئ «الليث» و«رابغ» التي كان «ابن سعود» قد ضمها وسخر خدماتها لخدمة هؤلاء الحجاج. وحدث أيضاً أن قدم إلى موسم حج ذلك «الدون ريتير» البريطاني المسلم الذي كتب فيما بعد كتاباً ممتعاً عن تجربته في مناطق الحجاز خلال السنة الأولى من احتلال القوات السعودية لها.

وبالطبع خلال فصل الصيف تم إعداد الترتيبات لاستئناف الأعمال الهجومية في فصل الخريف، وعليه قدم إلى الحجاز الأمير «فيصل» على رأس قوة كبيرة مجهزة بشكل جيد، وكان جزء من تلك القوة قد توجه وجهة «المدينة» بقيادة «محمد» وهو ابن آخر من أبناء عبدالعزيز سلطان «نجد». وبدا الوضع في كلتا المدينتين باعث على اليأس، وفي الحقيقة غير مبشر بالأمل، فقد تبين أن المياه والأطعمة المتوفرة لهم لم تكن كافية لمدينتين زاد تدفق اللاجئين عليهما من المناطق المجاورة من تعداد البشر فيهما. وعليه أصدر «ابن سعود» أمراً منع بموجبه القيام بأي عمل يتسم بالاغتصاب والاعتداء على الضعفاء. وأمضى «ابن سعود» جزءاً من فصل الخريف

يتفاوض مع السير «جيلبرت كلايتون» في وادي «فاطمة» بخصوص الاتفاقيات المتعلقة بـ «الهدا» و «بحرة»، وذلك ليتوصل إلى تسوية كافة القضايا المعلقة بين السلطنة السعودية والمناطق العراقية ومناطق عبر الأردن الواقعة تحت الانتداب البريطاني بما فيها حدود مناطق عبر الأردن التي لم يكن من الممكن التوصل بخصوصها إلى اتفاق بسبب رفض «ابن سعود» المطلق الاعتراف بالاحتلال البريطاني لميناء ومنطقة العقبة الذي احتلته بريطانيا باستخدام القوة خلال فصل الصيف.

وبقيت عقدة هذه المشكلة دون حل إلى يومنا هذا[١]. بالرغم من أن كلا الجانبين احترما الخط الحدودي الموجود بشكل غير رسمي. واستمر حصار مدينتي «جدة» و «المدينة» بشكل متقطع جنباً إلى جنب مع هذه المفاوضات، وتم حصار «المدينة» تحت قيادة «إبراهيم النشمي» يدعمه في ذلك «فيصل الدويش» ذو السمعة المروعة والذي كان يقود قوة ضاربة من الإخوان. والجدير بالذكر أن أهالي مدينة الرسول ﷺ رفضوا وضع أنفسهم تحت رحمة الإخوان السريعة الغضب وذلك بغض النظر عن نوعية الشروط. ووجهوا الدعوة إلى «ابن سعود» ليرسل ممثلاً عنه ليشهد استسلامهم له. وما إن وصل «الأمير محمد بن عبد العزيز» بقواته عند حدود «المدينة» حتى سارع الأهالي في الخامس من كانون الثاني بالاستسلام، وتمت إعادة انتشار قوات «فيصل الدويش» للقيام بعمليات تطهير في مناطق شمالي الحجاز، وباعتبار أنه لم يتبق للملك «علي» سوى الحد الخارجي من مدينة «جدة» فما كان منه إلا أن استسلم (بناءً على نصيحة كبار المسؤولين لديه) لأنه ليس له مفر منه،

(١) أي زمن تأليف الكتاب. (المراجعون).

وطلب من الوكالة البريطانية أن تسخر مساعيها الحميدة لتؤمن رحيله بسلام ولتعد الترتيبات الخاصة باحتلال المدينة. وفعلاً تمت تلك الترتيبات وبعد أن غادر الملك «علي» إلى العراق عن طريق البحر، دخل «ابن سعود» إلى «جدة» في الثالث والعشرين من شهر كانون الأول ليجد نفسه وللمرة الأولى على اتصال دبلوماسي مع عدد من الدول الكبيرة والصغيرة، وليواجه مجموعة من المشكلات العويصة بصفته فاتحاً للأماكن المقدسة التي ورثها عن النظام السابق نظام الاستسلام. وكانت هذه الأمور قد صممت في العهود السابقة لحماية الكفار المقيمين على تراب المسلمين، لكنها تحولت لتأخذ شكل مبررات لتدخل الكفار في شؤون الحكومات الإسلامية. ومن البداية أوضح «ابن سعود» أنه لن يتساهل مع أي انتقادات أو تدخل في شريعة الإسلام، وكان عليه أيضاً أن يتعامل مع الرأي العام في العديد من الدول الإسلامية بخصوص الكيفية التي يجب أن تدار بها الأماكن المقدسة. لم يجد «ابن سعود» صعوبة في التخلص من البعثات التي انبثقت عن الوضع ونصبت نفسها هناك، وذلك بأن وعدها بأن موسم الحج القادم سيكون فرصة مناسبة لمناقشة كافة القضايا التي تهم الشعوب الإسلامية، وأن على الممثلين المعتمدين لهذه البعثات الاجتماع به في مؤتمر الحج القادم.

وهكذا بعد أن أوضح مبادئه بأنه سيضع سلامة ورفاهية الأماكن المقدسة في مقدمة عمله السياسي، أعرب عن استعداده لتقبل ودراسة أي نصيحة تعرض عليه بخصوص تلك الغاية. وشرع «ابن سعود» في تولي شؤون الدولة، وسبب تصرفه ذلك إرباكاً في أوساط الغرب كما أسفر عن انطباع

غير مستساغ في بعض الدول الإسلامية التي اعتادت لفترة طويلة على حكم الدول الأجنبية وبالتالي تصاهرت كلياً مع الثقافات الأجنبية، لكنها احتفظت بولائها للإسلام وفق الطريقة التي فسرها المسلمون.

وفي يوم الجمعة الذي صادف الثامن من شهر كانون الثاني (يناير) من عام ١٩٢٦م وبعد صلاة الظهر في المسجد الحرام بمكة أعلن تتويج «ابن سعود» ملكاً على الحجاز وسط احتفالات وتقاليد تتمشى مع الشريعة الإسلامية. وكانت تلك الاحتفالات بمثابة تعبير عن الإيمان وتحد لكافة دول العالم، كان مقدراً لتلك الدولة أن تتحسن مع مرور الأيام دون أن تبتعد عن المبادئ التي ارتكزت عليها، وعن توحيد وعبادة الله الذي لم ينس «ابن سعود» فضله عليه في كافة الأحوال المتقلبة بين الخير والشر. ولإيمانه بالله وبفضله قاد شعبه على مدى السنوات الطوال القادمة من غياهب الضياع إلى أرض تكثر فيها الخيرات.

انتهت المعركة التي دامت أربعة وعشرين عاماً، وبقيت أمامه فترة أربع سنوات لجني ثمار النصر الذي حققه، وليطور ذلك النصر ليخدم مصالح الأجيال القادمة التي لم تعرف كما أنها لم تعد تسمع صرخة الحرب التي كانت تنبعث من حناجر الإخوان السعوديين.

الفصل الحادي عشر

عهد الرخاء

عهد الرخاء

وضعت الحرب أوزارها، ومع انتهائها كان «ابن سعود» قد بلغ ذروة عمله السياسي والعسكري، وأصبحت المملكة العربية السعودية التي قدر له أن يحكمها لأكثر من ثلاثة عقود تقريباً موحدة بشكل لم يسبق لها أن توحدت على شاكلته، بمعنى أن ذلك التوحيد جاء وسط أصعب الظروف العملية في الأوضاع الدولية لذلك العصر. حيث تفوق «ابن سعود» بتصرفاته على كل ما كان بمقدور أسلافه تحقيقه. وبعد ذلك ضمن أطر هذه الحدود كان من غير المحتمل أن يواجه «ابن سعود» أي تحد، وأن الحكم الذي صنعه لنفسه بالإيمان القوي والجهاد بالسيف سيصل إلى من سيرث الحكم من بعده بصورته النقية، إذ كانت سمعته في العدل والثبات هي العامل الحيوي المميز لتلك الفترة التي نادراً ما كانت توضع موضع الاختبار. كانت سمعته تلك تثبت جدارتها عندما تستدعي الضرورة ذلك، وأصبح للجزيرة العربية - وللمرة الأولى - حاكم واحد يمكن للجميع أن يحترموه، وبالفعل كانوا يحترمونه.

وفي سن الخامسة والأربعين كان «ابن سعود» في ريعان الشباب، وكان قد حقق منجزات العمر، إلا أن نشوة الانتصار نبهته وجعلت منه عملاقاً سائراً على الدرب من جديد، فقد وجد نفسه - كما كان في السابق - مضطراً للقيام بأعبائه بمفرده لكن وسط مزيد من أعداد المتربصين والناقدين. وكونه من عائلة مالكة حتى الصميم، ولديه إيمان راسخ بحق الملك في الحكم شرعاً، وإيماناً بواجبه في إدارة الشعوب، كان «ابن سعود» ديمقراطياً

من حيث النزعة الفردية وملماً بقدر كاف بأمور التشاور في الحكم، وهي صفة كانت بمثابة جزء متكامل في حياة العرب. ولعل شخصيته التي اشتملت على هاتين الخصلتين سهلت عليه مهمة الاستمرار في الحكم، حيث إن سلوك شخصيته اللائق التي كان «ابن سعود» بنفسه ميالاً إلى أن يفسرها بموجب الآية القرآنية التي تقول: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩].

خدمت هذه القناعة «ابن سعود» كثيراً وخاصة في الحالات التي كانت تتطلب ممارسة تلك المهارات الشخصية المتمرسة، لكن مكانته الجديدة بصفته شخصية عالمية وضعته أمام مشكلات من نوع غير مألوف لم توفر له خبراته السابقة أي مؤشر على كيفية التعامل معها، وفي الوقت نفسه كانت الأعباء الجسام الملقاة على عاتقه كبيرة جداً لا يمكن لأي شخص أن يتعامل معها دون مساعدة من الآخرين، وخاصة فيما يتعلق بأمور فنية مثل الأمور المالية والاقتصادية.

كان «ابن سعود» على علم بجوانب القصور في إدارته، لكنه لم يتهرب أبداً من مسؤولياته، وكانت عظمته المتميزة واعتماده على نفسه بحد ذاتها لم تكن عقبة أمام تشكيل فرق من الأكفاء لمعالجة قضايا الدولة الإدارية والسياسية. لقد تمكنت الجزيرة العربية (التي أطلق عليها بعد بضع سنوات اسم مملكة نجد والحجاز تحت إدارة ستة رجال تميزوا بقدرات وفضائل متقاربة) من أن تصبح مثالاً فريداً من نوعه ونبراساً لفن السياسة الإنسانية في إدارة البلاد. واشتملت تلك المجموعة على صفات روحانية وصفات حكم دنيوي مرتكزة على أرضية صلبة من الإيمان والعدل. ومما لا شك فيه أن

«ابن سعود» كان عازماً على توطيد وترسيخ هذه السمات بأي ثمن كان، ومن أجل تحقيق هذا الهدف كان لا بد من النظر إلى إرادة الشعب على أنها جوهرية وضرورية مثلها مثل إرادة الحاكم نفسه. ولكن لسوء الحظ أن هاتين النزعتين نادراً ما كانتا متوفرتين في الأشخاص الذين كان من المفروض بهم أن يساعدوه في تلك المهمة التي تفوق قدرة البشر. وكانت الفضيلة في ذلك الوقت موجودة بشكل ملحوظ ويتحلى بها أهالي نجد الذين جازفوا بحياتهم لتحقيق المثل الروحانية الفاضلة، كما عملوا جادين على تطبيقها في ديار الفتن والجهل التي فتحوها، لكن لم يكن لدى القليل منهم دراية في الشؤون الإدارية وإلمام بالخبرة الضرورية لتطوير الأوضاع الجديدة التي فرضتها عليهم الانتصارات التي حققوها.

ولم يكن هناك أي تقصير على صعيد القدرة على العمل، وخاصة بين رعايا الملك الجدد في مناطق الحجاز، إلا أن الفضيلة كانت عندهم أقل مما يجب بسبب تلوث أجوائهم الاجتماعية الناجم عن السنوات الطوال لحكم الأتراك (العثمانيين) لتلك المناطق. ومن خلال خدمتهم للأتراك (العثمانيين) أصبح العديد منهم خبراء متفننون في ممارسة الإدارة. لكن «ابن سعود» كان حريصاً عند تعيين هؤلاء الناس في الوظائف الاجتماعية الشاغرة والذين أصبح ولاؤهم للحكم الجديد قائماً بشكل سلمي.

وفي ظل هذه الظروف وجد «ابن سعود» نفسه مضطراً لتعيين موظفين من ذلك المصدر الوحيد الذي كان متوافراً له، علماً بأنه بدأ في ذلك على نطاق ضيق لكن فيما بعد تدفق التعيين في الوظائف على نحو لم يعد بالإمكان تحديده.

كرس «ابن سعود» جهده منذ البداية بشكل سليم تماماً على أن لا يوظف غير المسلمين في أي وظيفة رسمية خشية أن تتكرر تجربة البلدان الإسلامية مع غير المسلمين في المناطق الخاضعة لحكمه، ومن ناحية أخرى أعلن «ابن سعود» بوضوح أن مناطق الحجاز «على الأقل» يجب أن تعد مناطق في عهدة لكافة المسلمين، وأنه يرحب بأي مسلم في القدوم إليها سواء للحج أو للعمل من أجل كسب الرزق، شريطة أن يحترموا الشريعة الإسلامية ويقبلوا بها على أنها النظام الوحيد الذي يضبط مجيئهم ومغادرتهم في كافة المناسبات الدينية. ومن خلال هذا التصنيف للعرب الأجانب وللجنسيات المسلمة الأخرى، وجد «ابن سعود» نفسه مضطراً للبحث عن موظفين رسميين لتسيير الشؤون الإدارية في البلاد، والتي كانت في البداية مقسمة إلى إدارتين منفصلتين تقريباً هما «نجد و الحجاز»، ومرتبطتين مباشرة بسلطته العليا التي من خلالها يمكنه فرض إرادته في كلتا المنطقتين بشكل فعال.

تلك هي حالة الأوضاع التي وجد «ابن سعود» نفسه في خضمها عند مستهل فترة حكمه لمناطق الحجاز، ولعل من أفضل الطرق لتبيان الأسلوب الذي تمكن «ابن سعود» من خلاله من معالجة مشكلة إيجاد كوادر أساسية هي الإشارة إلى حقيقة أن كافة الشخصيات التي جمعها حوله استمرت ليس فقط في خدمته، بل بقيت تشغل وظائفها في الدوائر الرسمية نفسها تقريباً إلى أن وافته المنية (كان «ابن سعود» قد حشد تلك الشخصيات خلال السنتين أو السنوات الثلاث الأولى إثر دخوله الحجاز لتقوم بتولي أمور ونشاطات مختلف أجهزة الدولة نيابة عنه). وإذا كان هذا الإجراء لا يثبت بالضرورة صدق الحس الغريزي عند «ابن سعود» في اختيار الرجال المناسبين

لشغل مختلف وظائف الدولة، فإنه ليدل بالتأكيد على وجود ميزة مهمة أخرى في شخصيته التي ربما تكون نوعاً من الإحساس الطفيف بالحذر من كل ما هو أجنبي. وقد تجلت أعراض هذا الحس بانعدام تحمسه للتجمعات الغريبة رغم ما كان يبديه من كرم الضيافة المقرونة بانعدام مشاعر الود. في وقت كان فيه مهتماً في أن يجتمع حوله ودائماً الوجوه نفسها، سواء من أفراد العائلة، أو من الرسميين (وفي كافة الأوقات، ويوماً بعد يوم، وسنة بعد سنة) الأشخاص أنفسهم.

كان يشعر براحة أعصابه وسط هؤلاء الناس، وكان يتصرف بينهم على سجيته، وكان يكشف عن روح الدعابة لديه وعن ظرافته التي كانت تشد أزره حيال وطأة أعباء الحكم على عاتقه، وكان بإمكانه أن يثق بهؤلاء الناس لأن معرفته بهم كانت وثيقة كما كانت معرفته بفضائلهم وبأخطائهم. وقد قرّب «ابن سعود» هؤلاء الناس منه ومَنَّ عليهم بكرم وسخاء لا حدود لهما لقاء خدماتهم له، واستمر هذا الكرم في الازدياد مع تعاظم ثروته.

وكاستثناء للقاعدة العامة الخاصة بطول فترة الخدمة، كان هناك حالة تستدعي الانتباه وتتعلق بشخص خدم «ابن سعود» لفترة أطول من خدمة أي شخص آخر له ويدعى ذلك الشخص «عبد الله الدملوجي» وهو أصلاً من منطقة الموصل في العراق. فقد التحق «الدملوجي» بخدمة «ابن سعود» في عام ١٩١٥م بصفته المستشار الطبي له، وبسبب معرفته باللغة الفرنسية أوكلت إليه المسؤوليات السياسية المتعلقة بالزوار الأجانب القادمين إلى قصر الحكم في الرياض. وبعد أن ضم «ابن سعود» مناطق الحجاز تم تعيينه في منصب الممثل الشخصي للملك في «جدة» إلى أن تدرج في ذروة نشاطه وأصبح وكيل الوزارة للشؤون الخارجية.

ووصل «فؤاد حمزة» كلاجئ من فلسطين ليخلف «عبد الله الدملوجي» في منصبه، وأثبت جدارته في وزارة الخارجية السعودية، وبقي في ذلك المنصب إلى أن توفي وهو على رأس عمله في عام ١٩٥١م، وكانت وفاته خسارة كبيرة للسعودية - البلد الذي تبناه.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه حدث خلال الحرب أن مثل «فؤاد حمزة» المملكة العربية السعودية في «فيشى» ومثلها في وقت لاحق في «أنقرة» التي توجه إليها بصفته وزيراً وتبعه إلى هناك أخوه «توفيق». وكان العضو البارز في ذلك الفريق الرسمي السعودي «عبد الله السليمان» الذي أصبح في عام ١٩٢٩م وزيراً للمالية إثر تجربة مارسها في المنصب نفسه شخص يدعى «شرف رضا».

والجدير بالذكر أن «رضا» هو واحد من الأشراف الذين لم يكن لديهم أي سبب يحملهم على أن يكونوا مخلصين لأسرة الأشراف التي انقضى عهدها.

وقد تميز «عبد الله» عن زملائه بأنه كان نجدي المولد ومحاسباً عن طريق الممارسة العملية، كما أن أخاه الأكبر كان قد عمل عدة سنوات سكرتيراً خاصاً لجلالة «ابن سعود». وسبق لـ «عبد الله» نفسه أن رافق «ابن سعود» سكرتيراً خاصاً خلال حملة الحجاز إلى أن وقع عليه الاختيار ليشغل وظيفة مهمة. وكان -من حيث الشكل- ذا بنية جسدية مألوفة وكان ذا خيال واسع، كما أنه لم يتوان أو يتقاعس في تأدية المهام التي تتطلب البراعة والعناية الفائقة مثل التعامل مع وعاء من الخيرات وجعله يلبي متطلبات مفروضة على محتواه الذي لا ينضب. وكانت شجاعته لا تعرف الكلل في

معالجته لمخططات متشعبة الجوانب التي تهدف إلى إعادة البناء والتطور، وبالطبع أسفر العديد منها عن نتائج كان لها فائدة كبيرة للبلاد. وقد تمكن من إدارة الخيرات المتنامية لذلك البلد بذكاء باهر، وذلك من خلال المناصب الإدارية الحساسة التي كان هو وأعضاء من أسرته يشغلونها. وبينما كان يبدو متمتعاً بثقة الملك التامة في كافة الأوقات، كان أيضاً هو العضو الوحيد في الحكومة الذي بمقدوره أن يتصرف بشكل اعتيادي بمبادرة وصلاحيات شخصية لقناعة مبررة بأن تصرفاته ستلقى موافقة واستحسان سيده صاحب الجلالة.

ومن بين الشخصيات الأخرى البارزة في حكومة «ابن سعود» التي بقيت في مناصبها منذ تلك الأيام حتى يومنا هذا هم «حافظ وهبة»، و«يوسف ياسين»، وكان «حافظ وهبة» مصري الجنسية وسبق له أن سجن في «مالطة» لعلاقته بأعمال الشغب التي حدثت في الإسكندرية على أيام «زغلول باشا» عام ١٩١٩م. وقد خدم «حافظ وهبة» لفترة قصيرة في وظيفة مدير المعارف، وبعدها ذهب ليشغل منصب ممثل «ابن سعود» في لندن. وتعين في البداية وبالتحديد عام ١٩٣٠م في منصب الوزير، ومؤخراً اعتمد سفيراً لحكومة «ابن سعود» واستمر في ذلك المنصب ومضى على عمله فيه حوالي ربع قرن، وفي نهاية المطاف أصبح من أكثر العاملين بجدية بين ممثلي «ابن سعود» من الدبلوماسيين. وغالباً ما كان يتم استدعاؤه بين الحين والآخر للتشاور مع الملك ومع «يوسف ياسين» السكرتير السياسي لصاحب الجلالة، والذي تم تعيينه مؤخراً في منصب وزير الدولة. وكان «يوسف ياسين» طيلة كل هذه السنوات بمثابة حلقة الوصل بين سيده وبين شبكة

المناصب الدبلوماسية الواسعة التي تنتشر من «الصين» تقريباً حتى «البيرو».
ومن حيث الأصل فهو سوري من مدينة اللاذقية تورط في بداية حياته في المشكلات الناجمة عن الوصاية الأجنبية المفروضة على بلاده، وقدم إلى المملكة العربية السعودية عام ١٩٢٣م وانتظم في صفوف الدعوة آنذاك، وبعدها تمكن من الفوز بثقة «ابن سعود» ورافقه في حملته التي قام بها إلى مناطق الحجاز. وهناك عين رئيساً لتحرير مجلة مكة الأسبوعية «أم القرى»، وكان إشرافه على محتواها جزءاً من أعماله التي كان يقوم بها بصفته سكرتيراً سياسياً لـ «ابن سعود». وكان «يوسف ياسين» من أبرز الرجال في حكومة «ابن سعود» وفي أكثر من مرحلة من مراحل نشاطها؛ ساعده في عمله الذي كان غالباً ما يتطلب السفر إلى الخارج لغرض أو لآخر مساعده القدير «رشدي ملحس» وهو لاجئ من فلسطين. ولم تترك المهام الرسمية لـ «ملحس» الوقت الكافي لتطوير حسه الأدبي، وعلى وجه اليقين يمكن القول: لو أن الظروف كانت طبيعية لفضل «رشدي ملحس» أن يكرس كل حياته للأدب والدراسة.

ومن بين الآخرين الذين أسهموا إلى حد كبير في خدمة حكومة «ابن سعود» كان «خالد القرقني» الذي هجر موطنه «ليبيا» وبالتحديد بيته في «طرابلس» وتركها للمحتلين الطليان وأتى إلى «جدة» مع أوائل أيام الحكم الجديد في الحجاز وفي ذهنه فكرة الشروع في عمل تجاري ما، لكن سرعان ما انجذب إلى الخدمة في ديوان الملك وعمل هناك بصفته مستشاراً. وخلال السنوات الأخيرة مكنته قدرته وإمكاناته التي أينعت وصقلت مع مرور السنين من أن يحظى بمركز متميز بالقيادة والثقة.

نكتفي بهذا القدر من السرد حول أمور الشخصيات الإدارية، وسيلاحظ القارئ أن «ابن سعود» -خلال المراحل الأولى من حكمه- أحجم عن تعيين أبنائه وأعضاء آخرين من الأسرة الحاكمة في مناصب لها اتصال مباشر بالأعمال الإدارية، إلا أنه عين ابنيه الكبيرين «سعوداً» و «فيصلاً» نائبين رسميين عنه في «نجد» وفي «الحجاز» على التوالي، كما عين «فيصلاً» وزيراً للخارجية بسبب خبرته البالغة في الترحال والسفر والاتصال مع العديد من حكومات الدول الأوروبية، لكن مثل تلك التعيينات كانت طبيعية ومناسبة جداً نظراً للمسؤوليات الجسام التي ستلقى على عاتقيهما عندما يحين الوقت ضمن سياق المجرى الطبيعي للأمور. وكان الانطباع العام بأنهما كانا يزاولان أعمالهما بإشراف مباشر من قبل الملك، وخاصة في القضايا ذات الأهمية البالغة، وبالتحديد عندما يتصادف وجود الملك في أي من المناطق المعينين بها.

كان «ابن سعود» عاقلاً في تصرفاته تجاه بقية أفراد العائلة، فلم يغامر بتعريض الأسرة الحاكمة للنقد من جراء تعيين أفراد تلك الأسرة في مناصب هم ليسوا مؤهلين لإدارتها أو ليست لديهم الخبرة أو التدريب اللازم لشغلها وكانت من خاصياته أنه كان دائماً يوصي الناس في مجالسه كما كان يوصي نفسه بشكل ضمني بالإشارة إلى الآية الكريمة في كتاب الله ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[التغابن: ٦٤]، وكان يكرر ذلك في حين كانت السنوات قد زادت من ثروات البلاد كما زادت من ذريته. وكان «ابن سعود» يتصرف بناءً على تجربته العملية في الحياة لقناعته بأن المغريات التي تحمل الشخص

على إفساد الأبناء والثروة شيء خطر للغاية وأن على الإنسان أن يحترس من ذلك الخطر.

وأخذاً بمبدأ التدرج والتطور الإداري بحكمة، فقد تم تشكيل مجلس الوزراء ليتولى مسؤولياته ويتيح لنفسه مهام الإشراف والتوجيه، وجاء دور الأمراء بحيث دخلوا المجلس وأخذوا نصيبهم من المراكز الحكومية التي كانت سابقاتها في أي مناخ سياسي منذ نشوء العالم أقل منها. وبالمناسبة يجدر القول إن السمة المثيرة واللافتة للنظر في أسرة آل سعود الحاكمة هي نظام أسبقية أعضائها داخل مجال معين. ولم يكن ذلك النظام محدداً بدقة في أي قانون محلي إلا أنه كان مفهوماً تماماً من قبل كافة أبناء الأسرة مرعياً بشكل تام من قبلهم جميعاً. ويعد موضوع السن عاملاً حاسماً أو فاصلاً في اتخاذ القرارات: الأبناء، والأحفاد، حتى أحفاد الجيل الأول من مرتبة متقدمة عن أعمامهم وأبناء عمومتهم من الرعيل الأول، ذلك إذا صادف أن كانت ولادتهم قبل ولادة هؤلاء. ويبدو أنه ليس هناك استثناء لهذه القاعدة، حتى إن الأمير «سعوداً» بعد تنصيبه ولياً للعهد عام ١٩٣٣م شرع بتطبيق مبدأ الأسبقية على أساس السن.

كانت الميزة الوحيدة التي يتمتع بها الأمير «سعود» (بصفته أميراً أو ولياً للعهد) هو حقه في حرية التصرف في كافة الأوقات ويحظى بحماية عسكرية، إضافة إلى خدم مسلحين يسيرون على جانبي سيارته. ومع مرور السنين انتقلت إليه الأحقية الملكية المحصورة في شخصه في أن يترأس الجلسات الرسمية للدولة والمناسبات الرسمية الأخرى. وكانت تلك من

أحد الواجبات التي مارسها الملك بالشيء الكثير من الحرص على الشكليات لكن دون أن يذعن لها ودون أن يستسيغها . والجدير بالذكر هنا أن الملك كان لا يجيد التطفل على مثل هذه المناسبات ، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن الأطعمة الشهية والترتيب البسيط للطعام على الموائد المتبعة في النظام القديم قد حل محلها بشكل تدريجي مع مرور السنين ذوق ولائم العصر الجديد وفن الطبخ الحديث .

وعند الإشادة بالماضي الذي ترعرعت ثقافته في أرض مولد «ابن سعود» وعبر حالات العسر والضيق التي مرت بها البلاد على مدى مئات السنين إلى أن وصلت إلى عصرنا الحالي ، لا بد للواحد منا أن يعطي للجيل المعاصر حقه ويقر بنصيبه ، ذلك الجيل الذي لم «يجرب» العناء والمخاطر التي رافقت تطوره ، والذي له كامل الحق في تبني أسهل الطرق وأوفر مسببات الراحة المتوافرة من نظام مختلف تمام الاختلاف ، وذلك ينطبق على الجيل الجديد بحد ذاته كما ينطبق على الأجيال العديدة القادمة . وقد فرغ ذلك الجيل من أمر الخيار ، لأن صاحب الفضل العظيم لتلك الأيام الخوالي قد رقد في مثواه الأخير واستراح من عناء التعب .

لنعد إلى موضوع تنصيب «ابن سعود» ملكاً على الحجاز : كانت ردة فعل العالم لهذا الحدث الذي لم يكن في الحسبان أقل إطراء في الدول الإسلامية عما كانت عليه في دول الغرب التي لم تكن بالتأكيد متحمسة له . لكن سياسة الاتحاد السوفيتي رفعت من حدة نغم هذا الإعلان وسارعت بالاعتراف الشرعي بالحكم الجديد على مناطق المسلمين المقدسة ، تبعتها بريطانيا ،

وفرنسا، وهولندا بإصدار اعتراف مماثل صدر عن كل واحدة منها بشكل متلاحق ومتسارع. وجاء بعد هذه الدول دور تركيا، وبلجيكا، وسويسرا لتعترف بحكم «ابن سعود». وفي عام ١٩٢٩م انضمت ألمانيا إلى قائمة هذه الدول المعترفة بالحكم الجديد لـ «ابن سعود» على مناطق الحجاز.

حدث في السنوات الأخيرة أن قامت حكومة «إيران» بأن فتحت باب المفاوضات التي أدت في النهاية إلى اعترافها بسيادته.

والجدير بالذكر أن «إيران» كانت قد نأت بنفسها بسبب استياء الجماهير الإيرانية من هدم قبور الأولياء والصالحين في مكة والمدينة. أما الحكومة المصرية فامتنعت عن الاعتراف بحكومة «ابن سعود» بسبب بعض المشكلات الجادة التي حدثت بين الحجاج المصريين والقوات السعودية خلال موسم حج عام ١٩٢٦م، علاوة على رجوع حملة الحجاج المصريين من «جدة» في العام التالي ١٩٢٧م والذي حدث بسبب رفض «ابن سعود» توجهها إلى «مكة» و«منى» خشية أن تكون سبباً في تجدد الشقاق والنزاع. ولم تعد العلاقات الدبلوماسية بين البلدين إلا في عام ١٩٣٦م، وذلك استجابة لاقتراح صدر عن السيد «مصطفى النحاس» الذي كان في ذلك الوقت يشغل منصب (رئيس وزراء مصر) إثر وفاة الملك فؤاد. وقد وضع ذلك الاقتراح بشكل فعال نهاية لمزاعم الملك فؤاد في حقه بمنصب الخلافة على المسلمين (التي لا أساس لها من الصحة). ومنذ ذلك التاريخ أصبحت العلاقة بين البلدين حميمة وودية. حيث جاءت تلك العلاقة لصالح السعودية التي استفادت من مساعدة جارتها الأكثر تقدماً في المجالات التكنولوجية.

لم تكن الولايات المتحدة الأمريكية في تلك المرحلة مهتمة بالجزيرة العربية. وإن ما يفسر غياب «إيطاليا» الواضح عن صفوف الدول التي اعترفت بحكم «ابن سعود» هو اهتمامها باليمن. وجاء ذلك الاهتمام على نحو أكثر من كونه مجرد اهتمام عادي. فقد سبق لحكومة «سينغور موسوليني» أن صنفت اليمن على أنها منطقة مرغوب فيها لإقامة مستعمرة إيطالية. ومما دفع بالإمام «يحيى» أن يلقي بنفسه في أحضان «الطليان» هو فشل السير «جيلبرت كلايتون» في متابعة مفاوضاته المرضية والمتعلقة بمعاهدتي «الهدا» و«بحرة» اللتين تم التوصل إليهما مع «ابن سعود» في عام ١٩٢٦م، وكذلك فشل «كلايتون» عندما زار صنعاء في ربيع ذلك العام في تسوية العديد من القضايا غير المبتوت فيها بين بريطانيا والإمام «يحيى».

وعند نهاية عام ١٩٢٦م توصل «السنيور كاسباريني» الحاكم الإيطالي العام في «أريتريا» إلى توقيع اتفاقية صداقة وتعاون تجاري بين إيطاليا واليمن والتي بموجبها اعترفت إيطاليا بالإمام «يحيى» ملكاً على «دولة اليمن المستقلة ضمن حدود أراضيها القائمة». وعلى ما يبدو ألزمت العبارة التي بين قوسين الحكومة الإيطالية بالاعتراف بمطالب اليمن الإقليمية والتي كانت في واقع الأمر موضع خلاف بين الإمام يحيى من طرف وحكومتي بريطانيا والسعودية من طرف آخر.

شهدت الأشهر التي سبقت سقوط «جدة» زيارة ما لا يقل عن ثلاثة وفود أجنبية كانت عازمة على مناقشة «ابن سعود» في عدة موضوعات ذات اهتمام بالغ لحكومات تلك الدول. وكان أولها زيارة وفد «جيلبرت

كلايتون» الذي سبق أن استعرضنا نتائجها. وسمح أيضاً لبعثة رسمية من بلاد «إيران» في أن تجتاز خط الدفاع - الذي كان الأشراف السابقون قد أقاموه - وتتقدم نحو «مكة» حيث وضع «ابن سعود» تحت تصرفها كل التسهيلات الضرورية لتتحقق من الأضرار التي زعم أنها ألحقت بقبور الأولياء الصالحين في «مكة». وفي نهاية الجولة قدمت مع جيش الأمير «محمد» إلى المدينة لتقوم بالغرض نفسه، ومن ثم تسوية القبور بحسب العقيدة الإسلامية، وقد سبق لنا أن أشرنا إلى النتيجة السياسية التي حققتها تلك الزيارة.

وأمام تلك المواقف أعلن الملك عبدالعزيز بأنه: أولاً: ليس بإمكانه أن يعفي نفسه من مسؤولية إقرار الأمن والسلام في الأماكن المقدسة التي تحدى سكانها (ومعظمهم من القبائل المسلحة) كلاً من الأتراك (العثمانيين) وحكومة الأشراف بسبب الأذى والضرر الكبيرين اللذين لحقا بالحجاج، وثانياً: اقترح أن يوجه الدعوة لكافة الأطراف المهتمة بمستقبل الحجاز للاجتماع به في مؤتمر يعقد في مكة بعد موسم حج العام التالي والذي يصادف صيف عام ١٩٢٦م. ومما كان كافياً في حد ذاته على أن هناك ثقة عامة بأن الأمن والسلام قد عادا إلى الأماكن المقدسة تحت إشراف ورعاية «ابن سعود» هو أعداد الحجاج الذين قدموا من خارج المملكة. وقد سمح ذلك المؤتمر عند انعقاده على أوسع نطاق في حرية مناقشة كل القضايا سواء التي لها صلة أو التي ليس لها صلة بالموضوع. وتجلت تلك الحرية في تمرير قرارات دينية رشيدة وقويمة غير استثنائية.

أما بخصوص الموضوع السياسي الرئيس الذي لم يكن بعيداً أبداً عن

سطحية المداولات، فلم يكن له سوى جواب واضح واحد، وهو أن «ابن سعود» كان عازماً على المضي في حكم مناطق الحجاز لما فيه خير وصالح الإسلام ككل، وكان مستعداً لتحمل كامل المسؤولية لإتمام تلك المهمة على أكمل وجه. وانتهى المؤتمر بذلك المفهوم الواضح، وانفض الاجتماع، لكن لم يكن لدى الحجاج في ذلك العام أي سبب أو مبرر يجعلهم يشتكون من المخاطر أو من عدم الإحساس بالأمان خلال فترة الحج. مثل ما كان عليه ذلك الإحساس خلال السنوات القلائل التي سبقت التردي الاقتصادي الذي حدث في بداية الثلاثينات. ومنذ ذلك الوقت لم يحدث ما يستدعي الشعور بعدم الأمان خلال أداء فريضة الحج.

علاوة على ذلك لا بد من الإشادة بالإجراءات التي تمت بموجب توجيهات «ابن سعود» الشخصية لتأمين الرعاية الصحية للحجاج، ومرد هذه الإشادة هي حقيقة أنه على مدى سبعة وعشرين موسم حج تلت ذلك المؤتمر لم تحدث ولو إصابة واحدة بمرض وبائي. وإضافة إلى ذلك، فإن قرار «ابن سعود» القاضي بتوفير كل أسباب الراحة التي كان الحجاج حتى ذلك التاريخ محرومين منها. مثل تشجيع «ابن سعود» لفكرة إدخال وسائل نقل حديثة قد أحدث ثورة تحديث في الظروف التي كان الآلاف من الحجاج يتممون فيها حجهم. واليوم ومع رحلات النقل الجوي التي أضيفت إلى التسهيلات الأخرى المتوافرة للحجاج بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، لم تعد رحلة الحج مشروعاً شاقاً أو مجهداً.

ويمكن لهذا التحول المذهل أن يشكل كامل مفخرة وفضل الحكومة السعودية في رعايتها لراحة ورفاهية الحجاج على الرغم من أن الحجاج في

السابق تذمروا من الرسوم المرتفعة التي كانت الحكومة تفرضها عليهم دون أن يسمحوا لأنفسهم بأن يفكروا في حقيقة أن الترتيبات التي تقام لراحتهم ولتأمين سلامتهم وصحتهم كانت تكلف الكثير من المال. ولم يكن ذلك الرسم في حقيقة الأمر أكثر من خمسة جنيهات إسترلينية، لكن جاءت تلك الرسوم في الوقت الذي كان فيه سعر الجنيه الإسترليني يعادل سعر الجنيه الذهبي. ولا يمكن بأي حال من الأحوال توجيه اللوم للحكومة السعودية لأن سعرهما لم يعد متقارباً.

استمر الوضع في دفع الرسوم بالذهب أو بما يعادله من عملات السوق، لكن ذلك الأمر الاقتصادي حدث على نطاق عالمي. وليكن الأمر مهما يكن فإنه لم يعد لدى الحجاج أي مظالم وشكاوى لينفسوا عنها، إذ ألغت الحكومة السعودية - بموجب أوامر صدرت عن الملك - الرسوم المفروضة على الحجاج، وجاء ذلك الإلغاء بعد أن أصبحت عائدات الدولة من النفط ومن مصادر أخرى تسمح بمثل ذلك التنازل. بحيث أصبحت عائدات الدولة تمكنها من تحمل كافة تكاليف أسباب الراحة المقدمة إلى الحجاج والتي كانت تتزايد بشكل لا ينقطع، مثل طرق معبدة أو مسفلتة مع عدة قنوات مرورية مثل الطريق من مكة إلى عرفات.

وبعد الانقضاء من أمر المؤتمر الإسلامي المشار إليه سابقاً أرسل الملك عبدالعزيز ابنه «فيصلاً» على رأس وفد صغير لينقل شكره للحكومة البريطانية والحكومة الفرنسية والهولندية لاعترافهم بوضعيته الجديدة. وهناك ناقش الوفد الأمور ذات الاهتمام المشترك مع الرسميين في هذه البلدان الثلاث، ولم يكن له هدف سياسي محدد ليعمل على تحقيقه. ولدى

عودة الوفد إلى السعودية تم تفويض القنصل البريطاني في «جدة» «إس آر جوردن» بفتح مفاوضات مع «ابن سعود» تهدف إلى استعراض شامل لكافة القضايا غير المبتوت فيها والتوصل إلى تسويتها بشكل يخدم المصلحة المشتركة. والجدير بالذكر أن «ابن سعود» كان تلك الفترة في المدينة.

كان واضحاً لكل المعنيين أن اتفاقية «القطيف» التي تم التوصل إليها عام ١٩١٥م لم تعد تمثل العلاقات الحقيقية القائمة آنذاك بين البلدين، وأصبحت هناك حاجة إلى اتفاقية جديدة تعترف بموجبها الحكومة البريطانية باستقلال حكم «ابن سعود» التام إضافة إلى كل ما هو متضمن فيها. ويجب أن تكون لـ «ابن سعود» حرية إقامة علاقات مع دول أخرى، كما يجب أن يكون له الحق في أن يحصل على السلاح والذخائر من أي مصدر دون أية قيود. وفي الوقت نفسه ليس هناك مجال أو إمكانية لاعتراف «ابن سعود» بالنظام الاستسلامي القديم الذي ولد في ظل الاحتلال التركي (العثماني) واستمر مع بعض التعديلات التي أدخلت عليه خلال الفترة القصيرة التي خلا منها الحكم من الأشراف. إلا أن الحكومة البريطانية تمسكت بعناد بمطلبها القديم. ولم يقبل «ابن سعود» أن يلزم نفسه باعتراف شكلي بالانتداب البريطاني على العراق وفلسطين ومناطق عبر الأردن ما لم تُعِدْ بريطانيا إليه إقليم «معان - العقبة». وكان كلا الطرفين مهتمين بمسألة إعادة خط سكة حديد الحجاز إلى وضعيته العملية.

والجدير بالذكر أن الحكومة البريطانية بذلت الكثير من الجهود لتدمير ذلك الخط الحديدي خلال الحرب، وبقيت تلك المسألة منذ ذلك الحين وإلى هذا التاريخ قيد دراسة متقطعة دون بصيص أمل في أية مرحلة من مراحل

الدراسة للوصول إلى حل، وخاصة فيما يتعلق بالقسم المنسي والمهجور والواقع ضمن نطاق الأراضي السعودية. لقد امتنعت في البداية قوى الانتداب عن إعادة توزيع القاطرات وحافلات السكك الحديدية المتوافرة. ولم توافق على أساس الكيلومترات ولا على أي أساس آخر معقول. ولم يكن في تلك الفترة بمقدور الحكومة الجديدة في سوريا ومناطق عبر الأردن - ناهيك عن فلسطين - وحكومة المملكة العربية السعودية التوصل إلى اتفاق مرض بخصوص تلك المسألة التي أصبحت قيد الدرس من جديد.

لم تتمخض المحادثات التي دارت بين «ابن سعود» وبين المبعوث البريطاني عن أي نتيجة، وتوقف «ابن سعود» عن التدخل في المزيد من المحادثات حول هذه الأمور استعداداً للعودة إلى «الرياض» التي زاد غيابه عنها أكثر من عامين. وربما بلغت الأمور ذروتها وحان الوقت بالنسبة لـ «ابن سعود» ليجدد اتصالاته مع شعبه في العربية السعودية، وخاصة شيوخ القبائل والعلماء على وجه التحديد، خاصة أنهم كانوا يسمعون عما كان يجري في الحجاز عن طريق الأخبار. نظراً لأنهم كانوا في قرارة أنفسهم غير مرتاحين لاحتمال قيام الحجازيين المهزومين بأسر قادة المنتصرين، وكان هناك مبرر لشكوكهم إلى حدٍّ ما. والواقع أن هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كلفت من اللحظة الأولى في الحجاز. وبالفعل تم القضاء على المنكرات والممارسات العشائرية. وكان شرب المسكرات وتدخين السجائر إثماً كبيراً يغامر به المدمنون بتعاطيها بعيداً عن عيون هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتي كانت بالطبع مهتمة بأن ترى كل مسلم يؤدي الصلوات الخمس في المساجد وفي أوقاتها المحددة بدقة بحرص شديد.

كما كان على «ابن سعود» أن يواجه بعض أصحاب الفكر الرافض للجديد من المخترعات والتقنيات مثل السيارات والطائرات. ومع مرور الأيام تغيرت تلك الأفكار وعلم أصحابها أنها نعم من الله يسرها للبشرية وأصبح المعارضون لها لا يريدون بها بديلاً في ترحالهم داخل وخارج المملكة العربية السعودية.

كما كان «الهاتف» من أبرز الأشياء الأخرى التي شغلت وأقلقت فكر هؤلاء المتعصبين الذين هرعوا للترحاب بملكهم لدى وصوله من «المدينة»، إذ كانوا قد سمعوا يقيناً قصصاً عنه من أشخاص سبق أن زاروا «مكة» بعد دخوله. وقد تم التغلب على معارضتهم لاستعمال الهاتف بأن دعوا إلى استعماله بأنفسهم وتركوا ليستمعوا إلى قراءة من القرآن بصوت مألوف لصديق ليس موجوداً أمام أعينهم، لكن ما يدعو للاستغراب أن هؤلاء القوم الذين اعتادوا طيلة سنوات عمرهم على استعمال المنظار لرؤية الأشياء البعيدة يستهجنون الآن فكرة استعمال الهاتف، وهو جهاز إذا ما قورن بالمنظار يقرب الصوت البعيد إليهم!

وبالطبع بقيت أجهزة اللاسلكي شيئاً محظوراً. لكن الزمان خفف من حدة العديد من مثل هذه التيارات المعارضة للتطور، وتزايد عدد آلات العرض وأجهزة اللاسلكي الموجودة في البيوت وأصبحت على شكل جموع غفيرة. ومما يستدعي الفضول أن أجهزة الاتصالات اللاسلكية ظهرت لأول مرة في المملكة السعودية العربية ضد جبهات دفاعية تم اختراقها بمستجدات ومستحدثات صناعية جديدة. و«ابن سعود» الذي كان دائماً تواقاً لسماع آخر الأخبار القادمة من أقاصي العالم، كان نصيراً قوياً لذلك الجهاز الجديد (الهاتف). وفي عام ١٩٣١م أنشأ «ابن سعود» شبكة

كاملة من المحطات اللاسلكية الداخلية لتنقل إليه الأخبار الفورية عن كل الأحداث. . . بغض النظر عن نوعها، إذ يمكن أن تكون أخبار هطول أمطار في مكان ما، أو أخبار جريمة في مكان آخر، أو خبر وفاة المشاهير، أو حتى ولادة حفيد من الأحفاد.

لم تكن المحنة التي واجهها «ابن سعود» في الرياض محنة قاسية، حتى لو أنه سمع بالفعل نقداً صريحاً بسبب الابتكارات التي جلبها من الحجاز. إن مهارته في التعامل مع أهالي «نجد» وكذلك بلاغته في التعبير لم تترك مجالاً للشك بأن محدثيه ومحاوريه المتلهفون والتواقون سيقرون في النهاية ويصادقون على سياسته. والجدير بالذكر هنا أنه إذا استدعى حدث ما الخطابة، فكان «ابن سعود» يرتقي إلى أعلى مستويات الخطابة.

كانت النتيجة الرئيسة من زيارته إلى الرياض أن طلب منه أن يلقب نفسه بلقب ملك «نجد» من أجل أن يرقى بموطنه «نجد» إلى نفس مستوى الحجاز التي أخضعها لحكمه، علماً بأن والده تصدر الدعوة لتلك الفكرة وعليه قبلها «ابن سعود» برحابة صدر، وها هو الآن قد عاد إليها مبتهجاً ليعلن نفسه ملكاً على «الحجاز ونجد وملحقاتها».

قامت الحكومة البريطانية في هذه المرحلة بمحاولة أخرى لتسوية المشكلات غير المبتوت فيها مع «ابن سعود». ومرة أخرى رشحت السير «جيلبرت كلايتون» ليجري تلك المفاوضات، وسارت تلك المحادثات بيسر وسلاسة وتم في العشرين من شهر أيار عام ١٩٢٧م توقيع معاهدة «جدة» حسب الأصول، وتم تبادل وثائق التصديق على المعاهدة في السابع عشر من أيلول. وهذه المعاهدة التي كان مقرراً لها في الوهلة الأولى أن تدوم مدة

سبع سنوات ألغت اتفاقية عام ١٩١٥م جملة وتفصيلاً، واعترفت بالاستقلال المطلق والتام لمملكة الملك الذي تعهد على نفسه أن يسهل رحلات حج المسلمين البريطانيين، وأن يحترم كل المعاهدات البريطانية المبرمة مع إمارات الخليج العربي، كما تعهد أن يتعاون من أجل إنهاء تجارة الرق.

حظيت هذه التطورات على رضى كافة الأطراف المعنية، ولكن لم يمض وقت طويل على تبادل وثائق التصديق على المعاهدة حتى حصلت حادثة على الحدود العراقية عكرت صفو العلاقات بين البلدين عدة سنوات قادمة. كان من المفروض أن يقرن التأثير العام لمعاهدة «المحمرة» الموقعة في عام ١٩٢١م والتي أولت في العام التالي وفق بروتوكول «العقير» مع موضوع خط حدودي محدد بين العراق والدولة السعودية، ذلك على أن يتفهم الطرفان أنه لا يحق لأي منهما إنشاء قلاع أو أي منشآت عسكرية أخرى في المناطق المجاورة لذلك الخط الحدودي. ومع ذلك وعند حلول وقت المفاوضات بخصوص اتفاقية «جدة»، كان السير «هنري دوبس» المندوب السامي البريطاني في العراق قد أقر خطة لبناء سلسلة من القلاع على طول الحدود العراقية السعودية وصادق عليها. وفي تلك الفترة أيضاً كان فريق عمل قد غادر باتجاه آبار «البصية» للبدء في إنشاء قلعة في ذلك الجوار، وهناك قامت مجموعة من بدو «مطير» بمهاجمة الموقع وقتلت كل المشاركين في المشروع. كان «ابن سعود» قد أكد للقبائل المقيمة على الجانب السعودي من الحدود - وقت توقيع المعاهدة المعنية - بأن حقوق الرعي الخاصة بهم في المناطق الواقعة على كلا جانبي الحدود محمية ومصونة باتفاق متبادل يقضي

بمنع إنشاء أي أبنية في المناطق الحدودية أو بالقرب من الآبار هناك، لكنهم أخطأوا عندما استخدموا القوة لاسترداد حقوقهم بتلك الطريقة المسلحة. والآن قام سلاح الجو الملكي وتجاوز في عملياته الانتقامية حقوق البدو عبر مناطق الحدود وقصف تجمعاتهم ومعسكراتهم أينما وجدت. واشتعلت مناطق الحدود بألسنة اللهب واستمرت الحرب هناك حوالي شهرين بشكل فعلي وليس بالاسم فقط بين الدولتين اللتين صادقتا منذ فترة وجيزة على اتفاقية صداقة من المفترض أن تدوم سبع سنوات. وقد ردت قبائل «نجد» على القصف البريطاني بأن شنت غارات على الأراضي العراقية والكويتية، وكانت تقتل وتدمر كل ما كان في طريقها. وعندما طرحت أسئلة في مجلس العموم البريطاني بخصوص القصف البريطاني غير المبرر للأراضي السعودية، أدلى وزير المستعمرات البريطانية بجواب غير حقيقي وقال بأن السعودية قد تجاوزت الحد في اعتداءاتها عبر حدودها، لكن ما كان «ابن سعود» قد قاله هو أنه إذا استمرت القوات البريطانية في اعتدائها على أراضيه فلن يكون مسؤولاً عن النتائج المترتبة على تلك الاعتداءات.

في هذه الفترة كان «ابن سعود» قد عاد إلى الرياض ليكون على علاقة وثيقة بتطورات الوضع. وكان «ابن سعود» هو الشخص الذي اقترح على البريطانيين إيقاف كافة النشاطات العسكرية على كلا الجانبين، واقترح أيضاً أن يحول الخلاف إلى الهيئة القضائية، وتمت الموافقة على هذا الاقتراح وقام مرة أخرى السير «جيلبرت كلايتون» بزيارة «جدة» ليجتمع مع «ابن سعود»، وتصادف وصوله إلى هناك مع انتهاك الهدنة إذ قامت بعض الطائرات البريطانية بهجوم جوي على تجمعات البدو قرب آبار «الحزول». وهناك

اضطرت إحدى الطائرات البريطانية إلى الهبوط اضطرارياً، وتم حرقها بعد أن قامت طائرات أخرى بانتشال طاقمها. وكان برفقة «كلايتون» لدى وصوله إلى «جدة» كل من الكولونيل «ك. كورنواليس» والميجر «جي بي جلوب» والسيد «جورج أنطونيوس». وقد كان «كلايتون» هذه المرة مفوضاً بأن يتناول بشكل مباشر كافة القضايا التي تؤثر على العلاقات السعودية مع جيرانها العراق ومناطق عبر الأردن، إلا أن اقتراب موسم الحج (والذي تصادف مع نهاية شهر أيار من عام ١٩٢٨م) لم يترك إلا القليل من الوقت أمام «كلايتون» ليتم مهمته. وسرعان ما أصبح واضحاً أنه في الوقت الذي لم يعد فيه من الصعب التوصل إلى اتفاق حول العديد من القضايا البسيطة المتنوعة، فإن التوصل إلى تسوية بخصوص الخلاف المتعلق بقلعة «البصية» ومع «ابن سعود»، كان بمثابة شرط لا بد منه لعقد أي اتفاق على الإطلاق.

وكونه لم يتم تحقيق أي تقدم حول هذه النقطة خلال المدة الزمنية المتاحة، فقد تم الاتفاق على فض المحادثات وإرجائها إلى ما بعد موسم الحج لكي يتمكن «كلايتون» من العودة إلى لندن لإجراء مشاورات مع حكومة بلاده. وفعلاً عاد «كلايتون» إلى «جدة» في شهر آب وأجرى لقاءً قصيراً غير مجد مع الملك الذي رد على عدم قدرة الحكومة البريطانية في الموافقة على إزالة القلاع الهجومية بأن رفض بدوره أن يوافق على أي شيء على الإطلاق. وعاد «كلايتون» إلى لندن ليقدم تقريره عن فشل مهمته، وعاد «ابن سعود» مسرعاً إلى «نجد» ليتعامل بشكل جدي مع وضع منطو على القوة.

شجب «ابن سعود» تصرف الحكومة البريطانية هذا، وأبدى رعاياه أيضاً استعداداً للقتال حتى الموت من أجل ملكهم. والجدير بالذكر أن إهانات

الكفار والأذى الذي ألحقوه بالمسلمين جميعها أذكت نيران الغيرة الدينية عند هؤلاء الرعايا، لكن «ابن سعود» كان مدركاً أكثر منهم لحقيقة أنه في ظروف تلك المرحلة ستأتي الكارثة من الحرب مع العراق، وعليه اتخذ موقفاً وقرر عدم السماح لمثل تلك الحرب أن تحدث مهما بلغ الثمن. وكان مدركاً أيضاً أن الجزيرة كانت في حالة اهتياج بلغت لدرجة تحدي سياسة التكيف التي ينهجها مع البريطانيين، وأن عرب الصحراء كانوا عازمين على تأكيد حقوقهم في الدفاع عن عقيدتهم ضد أعدائهم. وقد تزعم هذه الحركة من جماعة الإخوان كل من «فيصل الدويش» من قبيلة «مطير»، و«سلطان بن بجاد» من قبيلة «عتيبة». وكان «فيصل» رئيس هجرة «الأرطاوية» وكان «سلطان» رئيس هجرة «الغطغط»، وكان بإمكانهما تحصيل الدعم من قبيلة «العجمان» تحت زعامة «ضيدان بن حثلين» وكذلك من الإخوان من قبيلة «الرولة» بزعامة «فرحان بن مشهور».

ولمعالجة هذه المسألة بطريقة التشاور التقليدية عقد «ابن سعود» مؤتمراً في الرياض، لكن لم يحضره العديد من قادة وزعماء التمرد، بل أرسلوا أبناءهم أو أشخاصاً من أقاربهم ليمثلوهم في المؤتمر. وقد نظر الإخوان نظرات شزراً إلى العديد من الأمور المبتكرة الحديثة، لكن كبار العلماء الذين كانوا مدركين لمسؤولياتهم تجاه الله وتجاه ملكهم، قدموا كامل دعمهم لموقف الملك بخصوص كافة القضايا التي أثيرت خلال وقائع ذلك المؤتمر. وبالتحديد فقد حظيت سياسة الملك الرامية إلى السلم مع كافة جيرانه بتأييد ودعم المؤتمرين. وأصبح الآن بإمكان الملك أن يمضي قدماً بضمير مرتاح استناداً إلى القرارات التي تم التوصل إليها عن طريق الشورى المتبعة في حكمه.

اتخذ الآن قادة الإخوان موقفاً متمرداً علنياً من الملك، فما كان من الملك إلا أن حشد قواته ليجابه انتفاضتهم، وجاءت العمليات العسكرية على غرار الحرب المتقطعة التي قام بها البدو والتي تخللتها عدة مفاوضات للاستسلام، لكنها استمرت على ذلك النحو حوالي أربعة أشهر أي إلى ربيع عام ١٩٢٩م. وقد كلفت تلك المعارك خزينة الدولة نفقات بلغت حوالي أربعين ألف جنيه إسترليني.

ورفض قادة الإخوان إصرار الملك على أن يستسلموا بشكل غير مشروط ويقدموا للمحاكمة أمام قضاة شرعيين متوقع منهم أن يحكموا بإدانتهم بالخيانة العظمى، وبالتالي لا يمكنهم إلا أن يصدروا أمراً بإعدامهم، علماً بأنه كان بإمكانهم أن يناشدوا الملك الرحمة بهم وإن كان من المؤكد تقريباً أن الملك سيرأف بهم. لكن ربما كان لديهم إحساس بأنهم قد تمادوا في الخوض بتلك المخاطرة، وأن الاقتتال قد ذهب إلى حد بعيد مفرط. وعليه تجمعت قوات المتمردين في مواقع محصنة بالخنادق في سهل «السبلة» الواقع بين «الزلفي» و«الأرطاوية»، وتوزع جيش الملك إلى عدة فرق قاد كل فرقة إما أحد أبناء الملك أو أحد إخوته. وبدأت هذه الفرق تطوق مواقع المتمردين ببطء لكن بتشكيلات منظمة، وبعد أن رفض المتمردون آخر نداء وجه إليهم للاستسلام، أصدر «ابن سعود» أوامره في البدء بالهجوم، ولم ترد قوات الملك على نيران المتمردين إلا بعد أن أصبحت القوات على بعد مسافة تمكنهم من الانقضاض عليهم، وانتهت تلك المعركة بسرعة وبشكل حاسم.

ففي المعارك التي دارت بالسلاح الأبيض تفوقت قوات الملك على قوات المتمردين من حيث العدد، وتمكنت من قتل المئات منهم. وكان «بندر» (ابن

فيصل الدويش) من بين القتلى، علاوة على أن «فيصل» نفسه أصيب بجرح خطير ونقل إلى «الأرطاوية». أما «سلطان بن بجاد» فقد هرب من ساحة القتال، لكنه - فيما بعد- استسلم لينزوي في سراديب السجون بالرياض إلى أن وافته المنية بعد فترة قصيرة. بعد ذلك توجه الملك بقواته نحو «الأرطاوية» ليجبر «فيصل الدويش» على الاستسلام. وقد توسل حريم «فيصل الدويش» اللاتي طلبن منه أن يترك «فيصلاً» يموت بسلام، لكن تم إحضار «فيصل الدويش» أمام الملك على نقالة وهناك عفا عنه. وكان «الدويش» قد أمضى في خدمة الملك زمناً طويلاً قاتل خلاله ببسالة في خدمة دين الله، لكنه في نهاية المشوار نكث العهد، وكان بإمكانه الآن -على الأقل- أن يموت بسلام بين أهله وذويه.

وقعت معركة «السبلة» في شهر آذار عام ١٩٢٩م، وبعدها سارع «ابن سعود» في العودة إلى مناطق «الحجاز» ليؤدي فريضة حج ذلك العام. وبعد أن يفرغ من الحج كان لا بد أن يكرس انتباهه لحل العديد من القضايا الإدارية، لكنه اضطر إلى إنهاء فترة استراحته في مكة بسبب حدث غير متوقع، وهو أن «فيصل الدويش» لم يمت وكتبت له الحياة من جديد، وما إن تشافى من جراحه حتى بدأ يخطط لهجوم آخر على الحدود العراقية، حيث مشكلة القلاع كانت لا تزال قائمة، ولم يتم التوصل إلى تسويتها علماً بأن «ابن سعود» كان قد اقترح إحالتها إلى لجنة تحكيم.

استدعت الأخبار المتعلقة بنشاطات «فيصل الدويش» أن يعود «ابن سعود» إلى «نجد» بالسرعة الممكنة. وفي شهر «تموز» وصل الملك «ابن سعود» إلى الرياض في مقدمة أسطول من العربات بلغ تعدادها مائتي

سيارة. وبالمناسبة تجدر الإشارة هنا إلى أنه خلال إقامته في «الحجاز» كان قد رتب لشراء أربع طائرات من طراز «دي إتش ٩»، كما أعد ترتيبات خاصة بعدد من الطيارين البريطانيين ليقوموا على قيادة تلك الطائرات. وخلال تلك الفترة أيضاً تم تحقيق تقدم ملحوظ بخصوص خطة تتعلق بإنشاء محطات للاتصالات اللاسلكية تربط المراكز الرئيسة في مملكته المترامية الأطراف ذات الكثافة السكانية البسيطة مع باقي مقرات قياداته في مناطق المملكة. ولم تتبلور الفكرة الماضية بهذا المشروع إلا عند نهاية عام ١٩٣٠م تقريباً، حيث عهد بذلك المشروع إلى شركة «ماركوني». لكن الطائرات وصلت كما ينبغي إلى شاطئ «الأحساء» في نهاية عام ١٩٢٩م، علماً بأنها لم تكن متوافرة، كما أنه لم يكن هناك حاجة إليها لقمع تمرد رجال القبائل الذي سبق أن أشرنا إليه.

في الوقت الذي وصل فيه الملك إلى عاصمته «الرياض» كان مركز ثقل حركة التمرد قد انتقل إلى «الأحساء» البلدة التي كانت قبائل «العجمان» تسبب فيها للحاكم الإقليمي «عبد الله بن جلوي» بعض المتاعب. كما أن «فيصل الدويش» كان يحشد رجال القبائل الموالية له للهجوم على مناطق الحدود العراقية.

قام «فهد بن عبد الله بن جلوي» بمراقبة نشاطات قبائل «العجمان»، ووضعت تحت إمرته قوة صغيرة ليتصدى بها لأي هجوم أو غزو يمكن أن يحدث ضد المناطق في الكويت أو في العراق. وكان «ضيدان بن حثلين» زعيم قبيلة «العجمان» قد قام بزيارة لـ «فهد» ليؤكد له على حسن نواياه. وأقدم «فهد» على احتجازه كإجراء احتياطي مؤقت وأرسل في الوقت نفسه

رسولاً إلى أتباعه ليخبرهم بأن أمور «ضيدان» كانت على ما يرام. ولسوء الحظ ضل الرسول الطريق ولم يصل إلى أتباع «ضيدان»، فما كان من رجال قبيلته الذين استهجنوا سبب تأخره إلا أن ساروا باتجاه معسكر «فهد» ليتحققوا من الموضوع. وقد سبب ظهورهم بتلك القوة الذعر لدى «فهد» وعلى الفور أقدم على ذبح ضيفه «ضيدان». وأثار هذ التصرف المتسرع غيظ المخلصين لـ «ضيدان» من رجال قبيلة «العجمان» الذين كانوا في تلك المرحلة يخدمون في صفوف «فهد» وفروا بشكل جماعي وانضموا إلى صفوف رجال قبيلتهم. وعلى الفور بدأ رجال قبيلة «العجمان» بفتح النار على معسكر «فهد». وقد أودت طلقة طائشة بحياة «فهد»، وبهذا تم الأخذ بالثأر لحادثة القتل.

يمكن في الأحوال الطبيعية أن يفضي هذا الحدث إلى إنهاء القضية، لكن المزاج العام كان قد تأثر سلباً بواقعة «السبلة» لدرجة أن «نايف بن حثلين» ابن «ضيدان» وخليفته في زعامة القبيلة لم يجد أي صعوبة في إقناع رجال قبيلته في معاضدة «فيصل الدويش» في المرحلة الثانية من تمرده. وكان «عبد الله بن جلوي» في تلك الأثناء قد تأثر كثيراً بسبب موت ابنه الأكبر لدرجة أن «ابن سعود» كان مضطراً لأن يرسل ابنه وولي العهد الأمير «سعوداً» ليشرف بشكل مؤقت على ذلك الإقليم، وذلك تحت لقب اسمي كقائد لحملة تأديبية مرسلة لقبيلة «العجمان».

تبنى المتحالفون المتمردون استراتيجية شن غزوات عشوائية على مناطق في العراق والكويت. وفي كلتا المنطقتين كان المتمردون يتلقون مساعدات وتشجيع من عناصر معادية لـ «ابن سعود»، كما كانوا تواقين ليسببوا لـ «ابن

سعود» أي إحراج ممكن في ظل تلك الظروف. ولم يسبق لـ «ابن سعود» في تلك المرحلة أن واجه أي شيء مماثل للتمرد المنظم الذي توجب عليه في بداية ذلك العام أن يتعامل معه، إضافة إلى أن المواقع المستهدفة من عمليات المتمردين لم تكن خاصة بالمناطق الواقعة تحت سيادته أو بالرعايا التابعين لحكمه، لكنه كان مضطراً للالتزام بمراقبة هجماتهم على جيرانه (والذين هم في الواقع أعداؤه) وبالتالي استدراكها وإحباطها. وعلى أي حال كان «ابن سعود» نداً لتلك الظروف فكانت تضيق حلقات حصاره على مناطق الجزيرة، كما كان يتعامل بشكل صحيح مع أي قوة تصل إليها يده. ومن بين أكبر العمليات التي حدثت في سلسلة الأحداث تلك كانت عملية جابه فيها «عبد العزيز» وهو أكبر أبناء «فيصل الدويش».

رجعت قواته من تلك المعركة التي بلغ تعداد رجالها سبعمائة رجل وهي تحمل الغنائم التي استولت عليها من معسكر البدو القريب من منطقة آبار «الحزول». وفي تلك المعركة وبفعل كمين ناجح نصبته قوات «ابن سعود» تم القضاء على «عبد العزيز الدويش» وعلى كافة عناصر قواته. وقد تأثر «فيصل الدويش» كثيراً بسبب مقتل اثنين من أبنائه، لكنه لم يتعثر أبداً في جهوده الهادفة إلى تعزيز تحديه الميؤوس منه. وبعد تلك الواقعة بزمن قصير دار اشتباك آخر عنيف في منطقة آبار «الوفراء»، ومرة ثانية مني «فيصل» وجيشه المؤلف من قوات قبيلتي «مطير» و «العجمان» بهزيمة ساحقة، واضطر للهرب إلى منطقة حدودية مجاورة مفضلاً اللجوء إلى الكفار على أن يستسلم لابن سعود.

وهنا أشرف «ابن سعود» شخصياً على مسرح الأحداث ليحول دون أن يسفر ذلك الوضع المعقد عن نتيجة غير مرغوب فيها. وعليه ناشد السلطات

البريطانية وطلب منها أن لا تقدم لـ «فيصل الدويش» وللمتمردين معه حق اللجوء السياسي، علماً بأن المتمردين كانوا يتلقون مساعدات ومواد غذائية من الكويت ليتمكنوا من الاستمرار في حركة تمردهم. وبدت الضمانات التي رغبها «ابن سعود» وكأنها وشيكة المنال أو في متناول اليد، وأصبح موقف «الدويش» وجماعته أمراً ميؤوساً منه. وقد هاجم «ابن سعود» آخر تجمع لهم في منطقة «شعيب العوجة» بالقرب من «الرقعي» في حفر الباطن، وهي النقطة التي تلتقي فيها حدود نجد والعراق والكويت. ومرة ثانية ألحق «ابن سعود» بهم هزيمة ساحقة، لكن الضمانات البريطانية التي سبق أن أشرنا إليها كانت قد انهارت وتمكن قادة التمرد الأربعة: فيصل الدويش، ونايف بن حثلين، وابن لامي زعيم قبيلة «مطير»، وابن مشهور زعيم قبيلة «الرولة» من الهروب إلى العراق وهناك قامت القوات البريطانية بتجريدهم من السلاح واحتجازهم في انتظار نتيجة المحادثات المتعلقة بمصيرهم والتي جاءت نتيجة الاحتجاج الشديد الذي أعرب عنه «ابن سعود» ونتيجة مطالبته بضرورة ترحيلهم وعودتهم إلى «نجد».

لم يكن الملك فيصل بن الحسين ملك العراق ميالاً لتسليم القادة الأربعة الذين لجأوا إليه والذين حقت عليه حمايتهم وفقاً لأعراف الضيافة والعادات العربية، لكن السلطات البريطانية وجدت نفسها في وضع محرج لفشلها في تنفيذ ضمانات ملزمة أدبياً. وعلى مدى بضعة أسابيع بدا الوضع في منتهى الجدية، لكن في النهاية تم التوصل إلى بعض الترتيبات التي اقتضت أن يسلم قادة التمرد الأربعة أنفسهم دون شروط مقابل أن لا ينفذ «ابن سعود» بحقهم العقوبة القصوى بسبب خيانتهم، وعليه تم نقل «فيصل الدويش» وجماعته

بالطائرة إلى «الدبدبة» وهو مكان متفق عليه في الصحراء يتم فيه تسليمهم إلى ملكهم. وفي الوقت المناسب وجدوا أنفسهم في سراديب أحد سجون الرياض التي لفظ «فيصل» فيها آخر أنفاسه بعد بضعة أشهر.

انتهت المشكلات مع نهاية شهر كانون الثاني من عام ١٩٣٠م، وتم الاحتفال بشكل لائق بهذه المناسبة بلقاء الملكين اللذين أوشكا أن يكونا على وشك حرب تقع بينهما. وتقابل الملك «ابن سعود» والملك «فيصل» للمرة الأولى في حياتهما على متن مركب شراعي بريطاني في مياه الخليج بصفتهما ضيفين على السير «فرانسيس همفري» المفوض السامي البريطاني على العراق. والجدير بالذكر هنا أن «همفري» كان قبل فترة قصيرة قد خلف السير «جيلبرت كلايتون» في ذلك المنصب إثر وفاة الأخير المفاجئة والتي حدثت له بعد أن تسلم ذلك المنصب من السير «هنري دوبس». وعلى أي حال فمن حيث الشكل إن لم تكن من حيث الحقيقة فقد خدمت حركة التمرد التي قام بها «الدويش» بشكل غير مباشر في تقريب وجهات النظر بين السلالات الحاكمة المتنافسة في الجزيرة العربية، والتي -على الأقل- بدأت تحترم - ومنذ ذلك الوقت - حدود بعضها البعض، كما أنها أسهمت في تسوية كافة المشكلات والوقائع الحدودية عن طريق الحوار بدلاً من اللجوء إلى القوة والاقتتال.

لكن من العبث أن نفترض أن القادة الأشراف حكام ذلك الجيل كانوا مذعنين للخسارة التي لحقت بهم في موطنهم «مكة». وعندما مات الملك فيصل ملك العراق عام ١٩٣٣م خلفه ابنه الأكبر «عبد الله» الذي كان وقتها أميراً على مناطق عبر الأردن (وبعدها أصبح ملكاً عليها) وحمل زمام الانتقام على أنه بطل قضية تلك السلالة الحاكمة. ومع حادثة اغتيال

«عبدالله» التي أودت بحياته عام ١٩٥١م أزيلت آخر عقبة أمام إقامة علاقات طبيعية بين الدول الثلاث المعنية. وفي الحجاز ظهر جيل جديد لم يعرف الشريف «حسين»، بل كان يمضي جل وقته يستجم في دفء حرارة النعيم السعودي ويفكر في السنوات العجاف التي مر بها آباؤه.

هيأت المحادثات الودية - ولو أنها كانت محادثات شكلية - بين الملكين العربيين -والتي تمت على متن سفينة صاحب الجلالة «لوبن»- أرضية لعقد اتفاقية صداقة وحسن جوار بين بلديهما. وفي العاشر من آذار عام ١٩٣٠م وبالتحديد في بغداد وقع ممثلاً الملكين بالأحرف الأولى. وكان ذلك هو الوقت الذي عاد فيه «ابن سعود» إلى «نجد» بعد رحلة الحج التي قام بها إلى الأماكن المقدسة في الحجاز. وبعد ذلك وجد «ابن سعود» لنفسه متسعاً من الوقت ليكرس اهتمامه للعديد من القضايا المحلية والدولية والتي كان مضطراً لأن يضعها جانباً أثناء معالجته قضية الأمن الداخلي التي كانت أكثر إلحاحاً.

إن الطريقة التي عالج بها «ابن سعود» المهمة الشاقة عززت من سمعته الجيدة في إدارة فنون الصحراء وفي فن الحكم بشكل عام. وقد قضى «ابن سعود» حوالي ثلاثين عاماً في ساحات المعارك -بشكل مستمر- يقاتل أعداءه الذين تمكن من إخضاعهم واحداً تلو الآخر على شكل سلسلة من الانتصارات المتصاعدة، ولكن من متناقضات الأمور أنه وجد نفسه مضطراً أن يخوض آخر معاركه ضد أصدقائه، وكان ذلك من أجل غاية محددة وواحدة فقط وهي ليريهم وليري العالم أجمع بأنه كان سيد منطقته وأنه كان عازماً على الحفاظ على تلك الوحدة. وبعدها لم ينزل بنفسه إلى أرض المعركة، وذلك ليس لأنه لم تعد هناك معارك ليخوضها، بل لأن

الانتصارات التي تحققت عن طريق السلام أصبحت تبرز بشكل مهيب من أماكن غير مألوفة من العالم الجديد. ويمكن الآن لتلك المعارك أن تترك للجيل الصاعد الذي أصبح متمرساً في العمليات العسكرية التي حدثت في العقد الماضي.

سجلت معركة «السبلة» نهاية حقبة من الزمن، كما إن الجزيرة العربية التي لم يطلق عليها اسم المملكة العربية السعودية إلا في عام ١٩٣٤م(١) وقد اكتسبت شكلها النهائي نتيجة للحروب المستمرة والمتواصلة ضد الأعداء. ومن ذلك الحين فصاعداً أصبح العالم حلفاء لهم وزنهم في قضية التقدم المشتركة.

لكن «فيصل الدويش» كان قد تعلم درساً في معركة «السبلة» وهو أنه لا يجب ممارسة تلك الفضيلة دون الحصول على إذن مسبق من السلطات العليا، ومنذ ذلك الحين فصاعداً أصبحت ممارستها أمراً محظوراً للغاية. لقد تم نزع شوكة حركة الإخوان - وهي الحركة التي سبق أن أدت دوراً بارزاً للغاية في تكوين وإيجاد النظام الجديد - ولم يعد بإمكانها الآن أن تخدم أي هدف آخر مفيد. وفي البداية وببطء أيضاً تلاشت حركة الإخوان إلى عالم النسيان، ولكن ذلك التلاشي كان يتم في زخم متواتر صهرت كافة العناصر المتغايرة في الديار السعودية ضمن بوتقة اجتماعية مرتكزة كحقيقة واقعة على عقيدة وثقافة الإسلام. لكن تلك البيئة الاجتماعية كانت أقل تيقظاً مما كانت عليه سابقاً بخصوص موضوع مراقبة الخالق المستمرة لأعمال الناس في حياتهم اليومية.

---

(١) الصواب أنه تم إطلاق اسم المملكة العربية السعودية على البلاد، في ٢٢ سبتمبر ١٩٣٢م الموافق ٢١ جمادى الأولى ١٣٥١هـ. (المراجعون).

جاءت محاولة «ابن سعود» في تكوين حركة الإخوان عام ١٩١٢م والتي تطابقت تماماً مع تصوراته بمثابة «ضربة معلم» دالة على نبوغ وعبقرية فردية لا يعادلها ذكاء سوى إقدامه الشجاع على تصفية المتمردين بعد مضي ثمانية عشر عاماً على إنشائها. إذ لم تعد تلك الحركة في حينها سوى عقبة أمام تعزيز موقف ومكانة عمل «ابن سعود» الذي عمل على بنائها بالكثير من الصبر والجهد. وكان من المؤكد لهذا الإبداع المهلك (حركة الإخوان التي يمكن أن يطلق عليها اسم فرانكشتاين) أن يسهم في تدمير وحدة الكيان للصحراء نفسها لو أنه لم يبادر في تدمير ذلك الإبداع والقضاء عليه.

ظهرت الحكومة السوفيتية مجدداً على الساحة وكانت أولى الدول التي رفعت مستوى تمثيلها الدبلوماسي في «جدة» من قنصلية عامة إلى بعثة دبلوماسية، وعينت رئيساً على تلك البعثة السيد «كريم خان حاكيموف» صاحب الخبرة السابقة الجيدة.

وبعد فترة قصيرة حذت الحكومة البريطانية حذو الحكومة السوفيتية وعينت السير «أندرو ريان» بمنصب الوزير الأول على تلك البعثة بالرغم من التوتر القائم في تلك الأثناء على الحدود العراقية. وفعلاً وصل السيد «ريان» إلى «جدة» ليتسلم مهام منصبه في بداية شهر أيار. وهكذا لم يكن لدى «ابن سعود» سبب يجعله غير مسرور بالشكل الذي يجسده لنفسه على الساحة الدولية، ذلك لأن البعثات في السلك الدبلوماسي قد تعاظم عددها في «جدة» وتعاظمت أهميتها بالرغم من وضعية وسائل الراحة المتوافرة آنذاك في المنطقة التي انحصرت فيها كافة بعثات الدول الأجنبية.

إلا إن ما جعل موقف وعمل البعثات الدبلوماسية الأجنبية صعباً بعض الشيء هو أن الملك كان يتحمل شخصياً مسؤولية سير علاقته مع الدول الأجنبية، وترافق مع ذلك الإحساس ميله الفطري لعدم قضاء أي وقت في «جدة» زيادة عما كان ضرورياً. وبالطبع تم - من وقت لآخر - إعداد ترتيبات تتعلق بذلك الغرض بالذات وبالتالي تجعل الملك على اتصال مع الدبلوماسيين الأجانب عند وجود قضايا ذات اهتمام مشترك يتوجب مناقشتها. ولكن بعد مضي وقت طويل تم إنشاء شيء شبيه بمكتب العلاقات الخارجية في «جدة» وعين فيه موظف رسمي كبير تابع مباشرة للملك ليتعامل مع قضايا الروتين الدبلوماسي. وكان الأمير «فيصل» بصفته وزيراً للخارجية يزور «جدة» على فترات متقطعة لينظر - نيابة عن والده - في القضايا الدبلوماسية الأكثر أهمية، وكان الملك يتواجد أيضاً بنفسه حين يكون في زيارة إلى ميناء «جدة» على فترات متقطعة محدودة. وهكذا وقعت مهمة المحافظة على الاتصالات الدبلوماسية في بداية تلك الفترة على عاتق السيد «عبد الله الدملوجي» والسيد «فؤاد حمزة» العاملين في المكتب المشار إليه.

ربما كان من المؤسف لدى «ابن سعود» أن تزامن إتمام الترتيبات البديلة المؤقتة والخاصة بنظام حكمه الجديد مع بداية سنوات صعبة نجمت عن انحسار اقتصادي عالمي أصاب كافة دول العالم، وقد انعكست آثاره على المملكة العربية السعودية على شكل هبوط جذري في عدد الحجاج القادمين إلى مكة من الدول الأخرى. وكان ذلك الهبوط بمثابة أزمة اقتصادية على المملكة. حيث ظلت العناية التي تقدمها حكومة «ابن سعود» إلى الحجاج - منذ ضم الحجاز إلى مملكته- مرضية حتى أنها في مناسبة من المناسبات بلغ

عدد الحجاج رقماً قياسياً، وحظيت الحكومة السعودية بالمكاسب نتيجة لذلك. وفي الوقت الراهن ضمرت العائدات التي كانت تحصل عليها الحكومة السعودية في الماضي بشكل زهيد ووصلت الآن إلى بضعة ملايين، ولكن تلك الملايين لم تكن بالشيء الكثير جداً مقارنة مع ما هو مطلوب من الدولة. والآن قد توقف تدفق سيل الذهب على المملكة بشكل مفاجئ وأصبحت تلوح في الأفق سنوات جفاف طوال، علاوة على أنه لم يكن لدى الدولة السعودية احتياطات مالية جمعتها من سنوات الطفرة لتوازن بها كفة الميزان مع النفقات، إذ تجاوزت بكثير الاحتياطات الضرورية للبلاد، والتي أصبح الآن من الصعب تقليلها دون معاناة.

تم ذلك الإجراء بشكل تدريجي لكنه كان تصاعدياً، والآن وقد أصبح «عبد الله بن سليمان» وزيراً للمالية (وبقي في ذلك المنصب على مدى ربع القرن التالي)، وجد نفسه مضطراً لممارسة كل مهاراته وعبقريته في الحفاظ على المستوى المرتفع من النفقات التي أقرت بناءً على مصادر دخل الدولة التي تقلصت إلى حد كبير. إن ما يعد سراً غامضاً هو الكيفية التي تمكن بها من تدبير الأمور، وهذا أمر يمكن أن يكون في القصص الخيالية أكثر من أن يكون في سجلات الأحداث التاريخية الجادة.

ومما كان يتعذر اجتنابه هو أنه كان لا بد لموظفي الحكومة من أصحاب الرواتب المتدنية أن يتحملوا جزءاً من الأعباء الجديدة. حيث شكلت إسهاماتهم المالية - والتي كانت في الواقع بمثابة قرض جبري - مبلغاً شهرياً مرتفعاً، وقد وصلت رواتبهم في أحد الأوقات مبلغ ستة أو ثمانية دفعات متراكمة من ديون استحقت على الدولة ولم تدفعها، تجلى ذلك وبشكل

خاص في الأقاليم والمناطق النائية حيث أجبر المسؤلون على أن يقاسموا مصيبتهم مع أصحاب المحلات التجارية ومع التجار من حولهم، وذلك بأن يشتروا متطلبات معيشتهم بالدَّيْن مقابل وعد بدفع ثمنها عندما يحصلون على رواتبهم.

وهكذا انتشرت حلقات ترقرق موجة العسر الاقتصادي وتعاظمت مساحتها حتى شملت كافة أرجاء البلاد. وبالتأكيد لم تكن الضغوط الاقتصادية التي عانى منها الفقراء السمة البارزة للإدارة المالية للدولة التي لم تنس دور الأغنياء بصفتهم مساهمين فاعلين في دعم اقتصاد البلاد. وعلاوة على كل هذه الأمور فقد شكلت بالمبالغ التي كانت مستحقة لهم من الدولة بموجب عقود معينة أو مشتريات أخرى، فائدة مرموقة ذلك على صعيد المبلغ المطلوب منهم إنفاقه، ولذلك تأخر سداد دفعات الديون إلى أن استوفوا الحد الأقصى من الديون المستحقة لهم، وحيال ذلك الوضع لم يكن هناك بديل عن إصدار قرار رسمي بتأجيل دفع الديون المستحقة على كافة الالتزامات، وذلك على أمل أن تتوافر لدى الدولة بعض الاعتمادات المالية لشراء الاحتياجات الأكثر ضرورة وإلحاحاً. جاء ذلك لتجنب اللجوء إلى الحد من معدل نفقات الدولة باعتبار أنه إجراء بغيض غير مرغوب فيه. ويمكن أن نضيف هنا أنه تم الالتزام -وبدقة- بكافة الترتيبات الخاصة بالمرسوم الصادر بخصوص تأجيل دفع الديون، وهدفت تلك الترتيبات إلى تقدير القيمة الصحيحة للديون القائمة وفرض فائدة بنسبة خمسة بالمئة على مدى عدد محدد من السنوات.

إن التطورات التي تمت الإشارة إليها في الفقرة السابقة بشكل مختصر تناولت عدة سنوات بدءاً من عام ١٩٣٠م فصاعداً. وفي تلك الأثناء قام «ابن سعود» بعد أن انتهى من فريضة الحج في شهر أيار بتحويل مقر قيادته

من «مكة» إلى «الطائف» وذلك لقضاء أشهر الصيف هناك. وهكذا كان باستطاعته وللمرة الأولى منذ أن توج ملكا على الحجاز أن يكرس نفسه للنظر في وقت فراغه في حل العديد من القضايا والأمور المحلية والأخرى المتعلقة بالسياسة الخارجية التي تراكمت خلال فترة غيابه، وعلى مراحل أصبح بمقدوره أن يريح أعصابه خلال الرحلات التي كان يقوم بها إلى صحراء «ركبة» الشاسعة، وهي المنطقة التي كان يقيم معسكره فيها لعدة أيام. وكان يعد معسكره ذلك بمثابة قاعدة ينطلق منها لصيد الغزلان التي بدأ عددها يتناقص يوماً بعد يوم نتيجة الصيد غير المنظم هناك على مدى ربع القرن الماضي، إضافة إلى أنه لا يوجد قوانين تنظم الصيد(١)، كما لا يوجد أي مرسوم ملكي يتعلق بالحفاظ على الأماكن الأثرية العديدة والمهمة المنتشرة على طول وعرض أرض هذه البلاد الموغلة في القدم.

وباستثناء المكرمة المتعلقة بالإذن الصادر عن الملك عام ١٩٥١م لقيام البروفيسور «جي ريكمانز» من مدينة «لوفان» وفريقه من الخبراء البلجيكيين بدراسة الأقاليم الجنوبية(٢)، يبدو أنه كان ينظر لفكرة القيام بدراسة جادة للماضي القديم الذي أدى إلى ولادة المملكة العربية السعودية على أنه أمر جدير بشعب عملي له نظرة مستقبلية. كانت مثل هذه الإسهامات التي تثري

---

(١) الواقع أن حكومة الملك عبدالعزيز تنبهت إلى أهمية تنظيم رياضة الصيد في وقت مبكر، فقد صدر «نظام سلاح الصيد وجلبه وصيده»، ونشر بجريدة أم القرى بتاريخ ٢٧/ ١٢/ ١٣٤٩هـ العدد ٣٣٥. كما صدر «نظام الاتجار بسلاح الصيد» ونشر بالجريدة الرسمية نفسها بتاريخ ١٠/ ٤/ ١٣٧٠هـ العدد ١٣٤٦. (المراجعون).

(٢) صدر كتاب باللغة الفرنسية يتضمن أحداث ونتائج رحلة ريكمانز والفريق العلمي المرافق له، وقد ترجم حديثاً باسم «رحلة استكشافية وسط الجزيرة العربية» تأليف: فيليب ليبنز -أحد أعضاء الرحلة- وصدر عن دارة الملك عبدالعزيز، ويلاحظ أن فيلبي كان أحد أعضاء هذا الفريق. (المراجعون).

معرفتنا بالماضي القديم للجزيرة العربية تأتي مصادفة نتيجة مغامرة أجنبية صادرة عن قطاع خاص وموجهة بالدرجة الأولى إلى أغراض أخرى وأهداف علمية .

إن استراحة الملك القصيرة تلك التي قضاها في «الطائف» والتي تكررت بعد مضي أربع سنوات، وبالتحديد إثر موسم حج عام ١٩٣٤م، أسهمت في جوانب عدة بوضع الأسس التي شيدت صرح المملكة العربية السعودية . ومن بين الأمور التي شغلت بال الملك آنذاك كانت فكرة تحسين وسائل الاتصالات في المملكة، وما أن انتهى ذلك العام حتى تم التوقيع على عقد مع شركة «ماركوني» لتوريد المعدات اللازمة لإنشاء محطتين لاسلكيتين كبيرتين في مكة والرياض تعملان بقوة خمسة كيلو واط، إضافة إلى تركيب اثني عشر جهازاً بقوة نصف كيلو واط في عدد من عواصم الأقاليم بالمملكة، وأخيراً وليس آخراً تم التعاقد على تركيب أربعة أجهزة متحركة بقوة نصف كيلو واط ليتم أخذها مع الملك وكبار الشخصيات من مرافقيه أثناء ترحالهم .

وعند حلول موسم ربيع عام ١٩٣٢م تم بالفعل إنشاء هذه الشبكة العظيمة من الاتصالات اللاسلكية . وليس هناك مجال للتساؤل عن الدور المهم الذي أدته هذه الشبكة منذ ذلك الوقت تحت إشراف الملك وتوجيهه لسياسة وشؤون البلاد . وبالطبع تم توسيع تلك الشبكة بشكل كبير وتم تطويرها عن الشكل الذي كانت عليه في ذلك الوقت، واليوم يمكن مقارنة المملكة العربية السعودية في مجال التطور اللاسلكي بأي دولة من الدول المجاورة لها في منطقة الشرق الأوسط، ناهيك عن مقارنتها بالعديد من الدول الأوروبية .

كان الملك يصبو منذ زمن طويل ليتمتع بفوائد ومكاسب الاتصالات اللاسلكية البعيدة المدى، وخاصة الهاتف، وعليه تم توقيع عقد مع شركة ألمانية بإنشاء شبكة فخمة تحتوي على خدمات عديدة وتربط كافة المراكز المهمة بالنواحي البعيدة المترامية من الكرة الأرضية. وكانت محطة الإذاعة في «جدة» تعمل منذ عدة سنوات، كما كانت تربطها مع «مكة» ومع المناطق الرئيسة من مناطق الحج محطات إرسال معينة، وفي تلك الفترة أيضاً كان يتم إجراء دراسة تتعلق بتنفيذ خطة أشمل تهدف إلى توسيع نطاق البث ليصل كافة البلدان الإسلامية. وربما تجدر الإشارة إلى أن قضايا مثل التطور الحاصل على مجالات البرق وخطوط الهاتف، علاوة على موضوع إدخال الخدمة الهاتفية الآلية في بعض المناطق، ما هي إلا مجرد إسهامات تقديرية للأهمية الي توليها الحكومة اليوم لوسائل الاتصالات الحديثة وما تقدمه من وسائل الراحة إلى الناس. إن هذا التطور هو تذكار بعهد قريب حيث كان الناس ينظرون إلى صوت الإنسان المسموع على أنه وسيلة من وسائل الشيطان تهدف إلى زعزعة إيمانه وإسلامه.

أما على صعيد المجال الطبي والذي سبق أن أشرنا إلى تأثيره على صحة الحجاج العامة، فتجدر الإشارة هنا إلى أن الاهتمام الشخصي للملك وتشجيعه في هذا المجال أسفر -بشكل متصاعد- عن نتائج كان من الصعب التخيل بأنها يمكن أن تحدث ضمن حيز الواقع، ذلك لأن السعوديين كانوا قد ورثوا عن الأتراك نظاماً هزيلاً عبر قرون من الجهاد العقيم ضد الأمراض وسوء التغذية. وكان «ابن سعود» دائماً يفتخر بأنه ملم بالطب. حيث كانت له معرفة كبيرة في أمراض العرب وفي معالجتها، وإن معظم هذه المعرفة مشتقة من القصص المروية عن براعة جده «تركي بن عبدالله» في هذا المجال.

ولم تكن تلك المعرفة في الطب الشعبي سبباً في يوم من الأيام في جعل «ابن سعود» متحيزاً ضد الأساليب الطبية الأوروبية، علماً بأنه أمضى فترة طويلة حتى أدرك أن ما كان يفيد الأوروبيين كان ليفيد مرضى العرب أيضاً. وبالتدريج البطيء سقطت الحواجز القائمة بفعل عزل النساء وأصبح بإمكان الذكور من الأطباء العمل في مجال العناية الطبية لفئات المرضى التي استفادت من تشخيص ومعالجة الأخصائيين لهم.

إن المرضى الذين لم يحصلوا على تلك الاستفادة من أطباء أبناء عرقهم استفادوا من الأخصائيين الأوروبيين بمن فيهم طبيبات من عدة دول. وتنامى عدد الكادر الطبي الدائم عما كان عليه منذ الأيام الأولى لفترة حكم «ابن سعود»، وكان معظم العاملين فيه من سوريا ومصر، علماً بأن التوجهات الأخيرة كانت باتجاه توظيف كادر طبي من ألمانيا، الأمر الذي حقق نتائج مرضية للغاية، كما تم تحديث المستشفيات القديمة المحدودة التي كانت متوافرة في ذلك الوقت والتي كانت تقدم المعالجة البسيطة للمرضى بأسلوب تقليدي.

وقد جاء ذلك التحديث بسبب الدعم الذي وفرته حكومة «ابن سعود» لها، وتم تعزيز إمكانيات هذه المستشفيات أيضاً عن طريق المبادرات التي قام بها العديد من المعاهد الخاصة والتي كانت تحتوي على معدات جيدة وعلى كادر طبي جيد أيضاً. وكان بعضها متخصصاً وكان البعض الآخر متمكناً لدرجة أنه يمكن مقارنته مع المعاهد الأوروبية التي صممت أصلاً على غرارها. وقبل بضع سنوات كان بإمكان الرياض أن تفاخر بأن لديها واحدة من أفضل منشآت التصوير السيني في منطقة الشرق الأوسط.

كانت المملكة العربية السعودية -وما زالت- بمثابة منجم ذهب حقيقي بالنسبة للعاملين في مجال الطب. والنقطة الوحيدة التي يأسف لها المرء هي أن التقدم الذي تحقق في المجال الطبي لم يكن بحجم الآمال العريضة للملك عبدالعزيز، ذلك بالرغم من نية الملك التي أعلن عنها مراراً والرامية إلى توسيع مجال الخدمات الطبية لتشمل كافة أرجاء المملكة بما فيها مخيمات البدو، والسبب في ذلك الإحباط الذي ربما يعود إلى الميل الطبيعي عند الكادر الطبي وتفضيله العمل في المراكز الكبيرة بالمدن، حيث توجد الفرص الثمينة لممارسة الطب في القطاع الخاص، إضافة إلى وجود وسائل ترفيه اجتماعية لهم ولأسرهم. جاء التوسع الكبير في حركة السير وفق أوضاع وشروط معقولة، كما أدت الأوضاع التي أشرنا إليها سابقاً إلى تزايد ضغط الزوار القادمين من الأقاليم على المراكز الطبية في المدن حتى أصبح الحمل ثقيلاً بشكل متزايد، في حين أن ما كان متوافراً من المساعدات الطبية شجع البدو وعناصر أخرى على إنشاء تجمعات بديلة في أطراف المناطق القريبة من المدن.

إن التزايد الضخم في عدد السكان في المدن خلال الثلاثين سنة الماضية كان واحداً من أبرز ملامح فترة حكم «ابن سعود»، ويعود السبب في ذلك إلى توافر الإحساس بالأمن وتوافر الرخاء والخيرات. وقد ازداد عدد السكان في المدن مثل الرياض وجدة بنسبة أربعة أضعاف إذ أصبح تعداد سكان الرياض حوالي مئة ألف نسمة، وبلغ تعداد سكان جدة حوالي مئة وخمسين ألف نسمة، كما تضاعف عدد السكان الأصليين في الطائف البالغ عددهم

خمسة آلاف إلى أن بلغ عددهم خمسين ألف نسمة أي بمعدل عشرة أضعاف، أما المدينة المنورة التي كان معدل سكانها في العهد العثماني ثمانين ألف نسمة والتي انخفض سكانها إلى حوالي عشرين ألف نسمة نتيجة تأثرها بأوضاع الحرب العالمية الأولى، فقد تمكن الأهالي فيها من تحسين العجز المالي في وضعهم التجاري دون الاستعانة بالعائدات التي كانوا يحصلون عليها قديماً من سكة الحديد. أما بالنسبة للهفوف فقد تضاعف عدد سكانها الأصلي والبالغ ثلاثين ألف نسمة، في حين تنامت قرى الصيد الصغيرة مثل «الخبر» و «الدمام»، وتطورت لتصبح مدناً مهمة مثل مدينة «الظهران» الصناعية المجاورة التي لم يسبق أن سكنها إنسان قبل عشرين عاماً.

ومدينة مكة التي وصل تعداد سكانها في الأيام الأوائل إلى مئة ألف نسمة لا بد وأنها شهدت زيادة في تعداد السكان بنسبة لا تقل عن خمسين بالمئة. وهنا لا بد أن نتذكر أن جزءاً كبيراً من هذه الزيادات التي طرأت على تعداد السكان جاء من دول مجاورة للمملكة العربية السعودية، وبالتحديد من «مصر» ومن بلاد المشرق ومن «حضرموت» و «اليمن». وبالمناسبة يمكن القول إنه لم تقم الحكومة بأي محاولة لإحصاء تعداد السكان في المملكة، ولكن العدد التقريبي المعقول هو بحدود ستة ملايين نسمة.

والمشكلة الأخرى الجادة الناجمة عن تزايد تعداد السكان في المناطق المدنية كانت مشكلة تأمين المياه، فمثلاً مدينة «جدة» التي يعيش فيها قرابة ثلاثين ألف نسمة كانت تعتمد على محطات تحلية مياه البحر ذات القدرة المحدودة، كما أن مياه الشرب التي كانت تنتجها هذه المحطات كانت باهظة التكلفة. وكانت «جدة» تعتمد على سلسلة من الأحواض الخرسانية

المصممة لتجميع وتخزين مياه الأمطار التي كانت تنساب من أطراف التلال وعبر السهول الساحلية، إضافة إلى مياه الآبار المالحة بعض الشيء والتي كان يعتمد عليها أبناء الطبقات الفقيرة. لقد اعتمد سكان مكة والمدينة لفترة طويلة على قنوات المياه المتدفقة من «عين زبيدة» وعين «الزرقا» إضافة إلى اعتمادهم على مياه العديد من الآبار لتغطية حاجاتهم وحاجات الحجاج والزائرين.

وكان من المتوقع لمصادر المياه هذه أن لا تؤمن كافة احتياجات السكان في الأحوال الطبيعية، ناهيك عن الأحوال التي يبلغ فيها تعداد الحجاج فوق المعدل المعتاد، ولذلك كان الشغل الشاغل للملك في تلك الفترة تأمين موارد مياه أفضل مادام عمل ذلك الشيء كان ممكناً في تلك الظروف. وعلى الفور تم توقيع عقد لإنشاء محطة تحلية كبيرة في «جدة» كما تم شق قناة «عين زبيدة» باتجاه النبع من أسفل المرتفعات الجبلية، وتم تنظيفها وتهيئتها للاستعمالات المستقبلية. وتم أيضاً اتخاذ إجراءات مماثلة في المدينة فتم توسيع المضخات الميكانيكية التي كانت مستعملة هناك لاستخدامها في أغراض زراعية، وقد أدى ما قام به الملك من هذه الإنجازات إلى أن تشجع الأمراء بمن فيهم الأمير «سعود» في الرياض بأن أدخلوا مضخات ري، كما شقوا قنوات زراعية كبيرة مماثلة.

وبعد أن تمت معالجة أهداب هذه المشكلة بطريقة مؤقتة، أصبحت الظروف مهيأة للتطورات الأكثر أهمية التي ستشهدها السنوات القادمة، فقد ربطت «مكة» بخط أنابيب حديدي متصل بعين «الجديدة» عند منبع وادي فاطمة، وكان الغرض من ذلك الربط هو مضاعفة مقدار المياه التي تصل إلى المدينة. وقد عكف المسؤولون على دراسة خطط مماثلة لتأمين الاحتياجات

المتنامية للسكان وللحجاج هناك. وبعد السيل الكبير الذي حدث عام ١٩٥٠م وهو عام اليوبيل الذهبي للملك[1]، تم اتخاذ بعض الإجراءات لبناء سد وادي إبراهيم الذي كان يعد ضرورياً لدرء خطر مثل تلك السيول، كما تم اتخاذ إجراءات لبناء سد وادي الزهير الذي هددت سيوله مناطق الشهداء والطريق الرئيس المؤدي إلى «جدة».

والجدير بالذكر أن مياه سيول ذلك العام تدفقت باتجاه «الحرم» ووصل ارتفاع المياه حول الكعبة إلى سبعة أقدام. وقد تم تنفيذ هذه الأعمال على الوجه الأمثل قبل نهاية عام ١٩٥٢م، بدليل أن العاصفة التي هبت في شهر تشرين الثاني في العام التالي أحدثت ضرراً طفيفاً أو حتى لا يذكر في مناطق تلك المدن.

حدث أيضاً في عام ١٩٥٧م أن تم ربط مجموعة من الينابيع في منطقتي «الجموم» و «أبو عروة» الواقعتين ضمن مدى السهل المنبسط لوادي فاطمة، وذلك بخط أنابيب ذات قطر واسع وممتد على مسافة أربعين ميلاً لتنقل كميات كبيرة من مياه الشرب إلى مكة. لكن التوسع المطرد للمدينة واستخدام الناس للمياه في ري الحدائق التي لا يمكن تصورها، جعل المسؤولين يدركون أنه لا بد من زيادة مقدار تدفق المياه التي كانوا يعتقدون أنها كانت أكثر من كافية لتلبية كافة الاحتياجات التي ستنجم على مدى فترة طويلة قادمة. وعليه تم في وقت لاحق مضاعفة قدرة مياه خط الأنابيب. وفي الرياض تفاقمت مشكلة المياه التي لم تكن في يوم من الأيام حادة باستثناء حالات الجفاف التي كانت تضرب المنطقة لفترات طوال وعلى مدى سنوات متتالية.

---

(١) الموافق عام ١٣٦٩هـ، وهي السنة التي توافق مرور خمسين عاماً على دخول الملك عبدالعزيز إلى الرياض عام ١٣١٩هـ. (المراجعون).

إن الاستعمال الوافر والكثير لمضخات المياه الميكانيكية كان له دور في تفاقم مشكلة المياه تلك، إذ كانت كافة مضخات المياه الكهربائية تعمل بشكل متواصل وعلى مدى أربع وعشرين ساعة يومياً، وأدى ذلك السحب من المياه الجوفية التي أسهمت في جعل الواحات في ظل الظروف القديمة خيرة ومثمرة للغاية إلى تناقص منسوب المياه فيها، الأمر الذي اضطر معه المسؤولون إلى مد المزيد من أنابيب المياه إلى المدينة من مصادر أخرى مثل مصادر وادي حنيفة في شمال وجنوب العاصمة، كما كان العديد من الصهاريج والتي يتسع كل منها إلى خمسة آلاف جالون من الماء تجلب باستمرار المياه إلى المدينة من آبار في مواقع قريبة وبعيدة عن المدينة لتلبي احتياجات الناس وتوفر مياه الري لحدائقهم.

والواقع أن في المملكة كميات من الماء لكن ما زال ذلك موضوع نقاش يتم البت فيه في ضوء التجربة التي ستبين فيما إذا كانت المصادر المائية المتوافرة ستتحمل الجهد المفروض عليها حالياً مع احتمال قليل بالتناقص المتوقع أن يطرأ عليها.

ومن بين القضايا التي أرقت مضجع «ابن سعود» خلال أيام السلام الحقيقية في «الطائف» كانت أمور الاتصالات والخدمات الطبية وتأمين المياه، لكن ما كان واضحاً من البداية أن كافة هذه المشكلات شكلت عاملاً مشتركاً بالغ الأهمية لحكومة «ابن سعود» التي كانت راغبة -فعلاً- في تأمين سعادة الوطن وراحة زواره الذين يأتون إليه من كل حدب وصوب. وقد تكلف مثل هذه المخططات الدولة مبالغ طائلة في وقت كانت مؤثرات تعداد حجاج موسم عام ١٩٣١م (وخاصة الذين قدموا من المناطق الزراعية المنكوبة في الشرق مثل: جاوه والملايو والهند) تبشر بأن الدولة ستؤمن الاعتمادات

المالية الكافية. وربما كان الوضع خيّراً بظاهره لكنه كان بمثابة تحد لرجل معتاد على تقلبات الأيام. ولم تكن تلك هي المرة الأولى التي يجد «ابن سعود» نفسه فيها بحاجة إلى المال بالرغم من أن الفترة التي كان ينفق فيها كل ثروته على أمل كبير في تعويضها.

كانت «اليمن» البلد الوحيد المستقل في شبه الجزيرة العربية، ذلك بالرغم من المطامع الإيطالية بمصيره وبالاحتمالات المرتبطة باقتصادياته، إضافة إلى القلق البريطاني المبهم من احتمال أن تقوم محمية «عدن» بتقاسم مناطق الحدود مع الدولة السعودية العتيدة.

أما المناطق الأخرى الواقعة خلف حدود المملكة السعودية فكانت محمية باستحكامات تتخطى حدود الوصاية البريطانية، ولم تكن الحدود بين اليمن ومملكة «ابن سعود» واضحة، ولم يكن «ابن سعود» الشخص الذي سعى لترسيم الحدود في المناطق المحايدة التي لا تخضع لسلطة أي طرف، بل كان راضياً بأن يترك هذه المناطق على وضعها المستقل غير الخاضع لأي قانون كما كانت في الواقع حالة «تيماء»[1] في المناطق الشمالية. حيث كانت «تيماء» بدون أي شك واقعة ضمن حدود مملكته لكنها مع ذلك تركت على استقلاليتها الشاذة وغير السوية وتابعة لسيادة «ابن رمان» إلى أن تم اغتيال آخر أثريائها، عندها اضطر «ابن سعود» لممارسة كامل صلاحياته القانونية عليها عام ١٩٥٠م.

---

(١) كانت تيماء ضمن أراضي الدولة السعودية وعيّن الملك عبدالعزيز عليها ابن رمان الذي كان خاضعاً لحكم الملك عبدالعزيز. (المراجعون).

وكما كان الوضع السابق عند الخلاف على ملكية بلدة «الخرمة» حين بادر الملك «حسين» بإجراء عسكري وفي ذهنه فكرة تثبيت الأمر الواقع، فقد قام الإمام «يحيى» بمحاولة شبيهة كان الهدف منها التوصل إلى تسوية قضايا النزاع مع الملك عبدالعزيز عن طريق دفع قواته إلى مناطق يطالب «ابن سعود» بحقه في حكمها. وقد قام «يحيى» بذلك مستعيناً بدعم من عناصر معينة تعيش فيها وتفضل أن تكون تحت حكم زيدي ضعيف، على أن تكون مقربة من «ابن سعود» صاحب القبضة القوية. وفي بداية عام ١٩٣١م حدث الاشتباك الذي تعذر تجنبه بين حرس حدود الطرفين في قرية «عروة»، وبسبب انعدام الخرائط في ذلك الزمان لم يكن من السهل تحديد الجهة التي بادرت بالاعتداء.

كما وقع في شتاء عام ١٩٣١م/ ١٩٣٢م حادث أكثر خطورة، إذ قامت قوة يمنية باحتلال «نجران» ودمرت ممتلكات كافة الأشخاص غير الموالين لها، فاضطر «ابن سعود» حيال الشكاوى التي تقدم بها هؤلاء الأشخاص أن يرد على تصرف القوات اليمنية بقوة، وعليه قاد «خالد بن لؤي» زعيم «الخرمة» في ربيع عام ١٩٣٢م قوة كبيرة من الجيش السعودي باتجاه ذلك الموقع، وتمكن بقليل من الجهد من مطاردة فلول الحامية اليمنية واستعاد نجران باسم «ابن سعود». وهكذا تمت تسوية مشكلة «نجران» بشكل نهائي، إلا أن المناطق الجبلية من «عسير» أصبحت الآن مسرح اشتباكات متقطعة تتطلب جهداً أكبر من الجهد الذي بذلته القوات السعودية لطرد الحامية اليمنية من «نجران». وعليه أرسل «ابن سعود» وفداً إلى «صنعاء» لمناقشة المشكلة على أمل التوصل إلى حل ودي لكافة القضايا غير المبتوت فيها بين الطرفين، لكن الإمام

«يحيى» لم يكن في مزاج يمكنه من الإقرار بالمطالب السعودية، وأسفرت سلسلة من المؤتمرات التي كانت تعقد أحياناً في السعودية وأحياناً في اليمن إلى أن طالت المفاوضات وامتدت حتى ربيع عام ١٩٣٤م. وبعد أن نفد صبر «ابن سعود» مع جاره العنيد، وجد نفسه مضطراً لأن يصدر إنذاراً عززه بأن نشر قوات جيشه استعداداً لغزو اليمن، وحدد «ابن سعود» الخامس من نيسان عام ١٩٣٤م أن يكون موعداً أخيراً لقبول الإمام وإذعانه لشروطه، كما أمر الفيلقين السعوديين بعبور الحدود اليمنية عند حلول ذلك التاريخ ما لم تصلهم أوامر خلاف ذلك. لكن تسببت عاصفة رملية قوية دامت لمدة ثلاثة أيام في قطع الاتصالات اللاسلكية بين القائدين، وبدأت القوات السعودية غزوها لليمن في الموعد المحدد.

كان مقرراً للأمير «سعود» الذي كان يقود قوة تتكون من رجال البادية وكانت تعسكر في «أبها» و «نجران» أن يشن الهجوم عبر الممرات الجبلية في أعالي جبال اليمن، إلا أن تقدمه تعثر بسبب طبيعة تلك المنطقة وبسبب ضرورة مواكبة تقدمه ومسيره مع فرق التموين التي اضطرت في أكثر من مناسبة إلى إنزال عربات التموين بالحبال من أعالي الصخور الشاهقة.

لم تكن مقاومة القوات المعادية سوى مقاومة متقطعة وكانت متقطعة حتى عند «البوابة الحديدية» الحامية لمدخل قرية «باقم» والواقعة على الطريق الرئيسة المؤدية إلى «صنعاء». وقد واجه الجيش السعودي الذي كان تحت قيادة الأمير «فيصل» مقاومة قوية عند خط الوادي الذي يربط ميناء «ميدي» بمعقل «حرض» الجبلي المنيع، لكن زخم الهجوم الذي قامت به القوات السعودية أسفر عن دحر قوات العدو باتجاه الشاطئ وباتجاه الجبال.

وبعد تلك الحادثة كان سهلاً على القوات السعودية إنجاز ما تبقى عليها من أعمال، واستمرت هذه القوات في إنجاز مهامها بشكل سريع إلى أن تمكنت في النهاية من احتلال «اللحية» وبعدها احتلت «الحديدة». كما تمكنت القوات السعودية من الوصول حتى أطراف ساحل الطيف في جنوب الحديدة، وأصبح الأمير «فيصل» الآن في موقف قوي فكان له إما أن يستمر في تقدمه مروراً بمناطق «تهامة» حتى يصل إلى حدود «عدن» أو أن يشق طريقه عبر الجبال ويهاجم «صنعاء» بالذات. كما كان بإمكانه -فعلاً- القيام بهذين الأمرين لأنه كان هناك احتمال ضعيف في أن تقوم قوات الإمام التي انهارت معنوياتها بمقاومة قواته مع استثناء واحد هو أن تبدي مقاومة أخيرة للدفاع عن العاصمة.

لم يستغرق احتلال «الحديدة» ومناطق «تهامة» الواقعة إلى الشمال منها سوى ثلاثة أسابيع، ومن المؤكد أن مدة مماثلة يمكن أن تضمن للقوات السعودية ضم «اليمن» إلى مملكة «ابن سعود»، لكن «ابن سعود» في تلك المرحلة كان قد اكتسب عادات تتميز بالحيطة الناجمة عن متابعة بقية أعماله، وعليه تلقى الأمير «فيصل» بشيء من القنوط أوامر من والده تمنعه من التقدم وتجاوز حدود «الحديدة» مهما كانت الأسباب، وفي الوقت نفسه وجهت أوامر إلى «سعود» تستوجب بقاءه في المواقع التي وصل إليها والتي سرعان ما اتفق الطرفان على أن تكون مناطق حدودية بين الطرفين. وفي تلك الأثناء كانت السفن الحربية البريطانية والإيطالية والفرنسية قد توجهت إلى ميناء «الحديدة» متذرعة بالعديد من الحجج، ولم تأت لأن لديها نية تقديم التهنئة

للقائد السعودي المنتصر على البسالة التي أبداها في تلك المعارك، كما أنها لم تكن تنوي تسهيل مهمته كسلطة فاتحة منتصرة، بل المرجح عدم إظهار القوى العظمى لاهتمامها المفاجئ باليمن هو إشعار الملك من الاستمرار في سياسته، لكن كان بإمكانه أن يصر على بقاء قواته في المناطق التي فتحها إلى أن تتكشف نتيجة المحادثات التي كان مقرراً لها أن تعقد في «الطائف» تحت رعايته، ولتحقيق حدوث مثل هذه المحادثات تم الإعلان عن هدنة، كما أن الإمام «يحيى» رشح السيد «عبد الله بن الوزير» أحد المسؤولين البارزين في السلطة اليمنية ليمثله في تلك المحادثات.

وعقد المؤتمر في الوقت المحدد له، وفي تلك الأثناء قامت لجنة مصالحة تمثل مختلف الدول العربية يرأسها «هاشم باشا الأتاسي» من سوريا، و«محمد علي علوبة باشا» من مصر بزيارة «الطائف» للإشراف على سير أمور المؤتمر. وبالرغم من العقبة التي حدثت في اللحظة الأخيرة والتي كان سببها رفض الإمام إقرار الاتفاق الذي تم التوصل إليه عن طريق الأطراف المتفاوضة، فقد تم التوصل إلى اتفاقية الطائف حسب ما جاء في أصول موادها، وتمت الإشارة بإجلاء القوات عن كافة الأراضي التي احتلتها، ويفترض أنه تم الاتفاق على ذلك الانسحاب مقابل دفع تعويضات عن الخسائر والأضرار التي قيل بأنها وصلت إلى مئة ألف قطعة ذهبية كان المفروض أن يتسلمها «ابن سعود» لقاء خسائره عن تكاليف تلك الحملة.

وتم إعداد ترتيبات لاجتماع «الهيئة المشتركة للحدود» والتي كان من المفروض أن تعين الخط الفاصل للحدود، وفي العام التالي تم إنجاز هذه

المهمة كما ينبغي، كما تم في عام ١٩٣٦م رسم خريطة للخط الحدودي الفاصل ومنذ ذلك الحين لم تقع أية أحداث حدودية تعجز السلطات عن تسويتها على أرض الواقع.

وهكذا تم التخلص من مسببات التوتر والخلاف بين البلدين والتزم الطرفان على مدى السنوات التالية بمضمون مسمى تلك الاتفاقية التي عرفت رسمياً باسم «اتفاقية الطائف» عام ١٩٣٦م. ولم يعكر الحادث المؤسف الذي حدث خلال موسم حج العام التالي صفو تلك الاتفاقية. وكان الحادث أن قام ثلاثة حجاج يمنيين - بسابق تخطيط وإصرار - بمحاولة طعن «ابن سعود» عندما كان يقوم بالطواف حول الكعبة. ويمكن القول هنا إن فعلتهم تلك جاءت إما بسبب تعصب ديني أعمى أو بشكل مأجور نيابة عن شخص مجهول. ولم يصب الملك بجراح خطيرة لكن الأمير «سعود» حماه من الطعنات بجسده وأصيب بجراح عدة في ظهره وكتفيه عانى منها لوقت طويل، وقام حراس الملك على الفور بإطلاق النار على هؤلاء الثلاثة وأردوهم قتلى، وبعد ذلك الحادث تم توخي الحيطة لحماية أفراد السلطة من مثل تلك المخاطر المأجورة.

وقبل أن نعود إلى الوضع الذي وجد الملك نفسه حياله عام ١٩٣٠م، لعله من الأنسب هنا أن نشير إلى أن الأمير «سعوداً» كان قد عين رسمياً عام ١٩٣٣م ولياً للعهد، وكان الناس قد بايعوه رسمياً ولياً للعهد وملكا على البلاد في المستقبل. وقد وضع ذلك الإعلان حداً لكافة التوقعات الخاصة بأمر من سيتولى الحكم لاحقاً. وأصدر الملك في العام التالي مرسوماً ملكياً غير بموجبه اسم البلاد وأصبحت تعرف منذ ذلك الحين باسم «المملكة العربية

السعودية»[1]. ولم يكن هذا التطور مجرد شيء اسمي، بل عكس إرادة الملك في أن يضع كافة أرجاء المملكة تحت نظام إداري متجانس، خاصة في النواحي التي تتعلق بالأمور المالية وأمور الإشراف على عائدات الدولة، والتي كانت حتى ذلك التاريخ تتم بطريقة تقليدية. وقد حدد من الصلاحيات والنشاطات التي كان يقوم بها المسؤولون الحكوميون بشكل مستقل الأمر الذي جعل بعضهم يستاء من ذلك. والأمر الآخر الذي استاءوا منه أكثر من ذلك كان موضوع تدقيق دفاتر حساباتهم، وهكذا كان النظام القديم يخضع تدريجياً وبشكل ثابت للنظام الجديد إلا أن «ابن سعود» كان على قدر من الذكاء والدراية في مراعاة شعور الآخرين، والتغاضي عن بعض الأمور.

وعلى العموم فقد اتسم النظام القديم بالبساطة وكان من محاسنه العمل بشكل مكشوف لا يتيح مجالاً للمخالفات، وكان الشخص بصفته حاكماً على إقليم ما مسؤولاً عن جمع عائدات ذلك الإقليم وتحويل نسبة محددة منها إلى الخزينة المركزية، وما تبقى منها كان يغطي راتبه والنفقات الأخرى المستحقة له والتي كان يصرفها على تكاليف الأمور الأخرى المتعلقة بإدارته لذلك الإقليم.

ومن ناحية أخرى كان النظام الإداري التركي مشهوراً برداءته وعدم فعاليته وبكونه فاسداً حتى الصميم، ولا يمكن القول إن العرب تخلصوا من كل عيوب ذلك النظام. وبالرغم من ذلك كان لا بد أن تعدل آلية العمل الإداري لتتوافق مع احتياجات العالم الحديث. وذلك نظراً للدور الجديد

(١) الصحيح أن ذلك المرسوم صدر في عام ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م. (المراجعون).

الذي كان من الممكن للمملكة العربية السعودية أن تقوم به في المجالات الاقتصادية والدولية.

علاوة على ذلك كان من الواضح أنه من أجل تأمين الكادر الوظيفي الذي يمكن أن يدير شؤون هذه الآلية الجديدة، كان لا بد من إحداث بعض التعديلات على النظام التعليمي الذي أصبح حتى يومنا هذا قادراً على تأمين احتياجات البلاد. وكان لا بد من خوض معركة التضارب بين النظام الجديد والنظام القديم على أرضية حساسة وتجمع بين الدين والحضارة، فحسب المفهوم القديم كان المفروض بالتعليم أن يعتني حصراً بالدراسات الإنسانية وبالتحديد الدراسات الثقافية الإنسانية الخاصة بالعرب والتي يحتل الدين فيها مركز الصدارة والذي تتشعب منه مجالات أخرى خاصة بالفكر الإنساني وفق ما هو وارد في القرآن الكريم وفي السنة النبوية، ووفق كل ما تمكن المفسرون من الاجتهاد على الصعيد الأدبي وما طوره المؤرخون والجغرافيون والفلاسفة والعلماء. . . إلخ.

كما تضمن دراسة مضامين الشعر الجاهلي الذي صدر عن شعراء عصر ازدهار الأدب العربي. ومما لا يقبل الشك حتى ولو للحظة واحدة هو أن الشخص المتبحر في هذا الكم الكبير من الأدب العربي والمتفهم لمضامينه، لجدير بأن ينظر إليه على أنه رجل على قدر كبير من الثقافة حتى لو أنه لا يعرف كلمة واحدة من أي لغة أجنبية ولم يسبق له أن درس أعمالاً أجنبية مترجمة. فإن مثل هذا الشخص هو خبير في مجال تخصصه وينظر إليه العرب على أنه «عالم» حتى وإن لم يكن لديه معرفة تقنية من أي نوع. وقد كان تاريخ «نجد» على مدى خمسة القرون الماضية مرصعاً بأسماء المئات من

هؤلاء الرجال الذين كرسوا حياتهم للعلم والتعليم وتأليف الكتب. ومن ناحية أخرى يمكن القول إنه من الواضح أن كادر الخدمات المدنية يشتمل على مثل هؤلاء الرجال وإن تعبير «التمدن» في الجزيرة العربية ليدل على نطاق واسع على مفهوم الثقافة المادية الدنيوية للعالم العربي والتي تهدف إلى إعداد النشء الجديد ليأخذ مكانته في الحياة المعاصرة القاسية والمتقلبة.

إن ما هو مؤكد هو أن العرب في الجزيرة العربية لم يشعروا بضرورة التعليم المعاصر إلا بعد فتح مناطق الحجاز، كما أنهم تساءلوا بشكل جاد عن مدى شرعية الثقافة الحديثة من منطلق إنها تسعى إلى تحويل الناس إلى الهدف الرئيس في الحياة، بل إنها تمثل امتداداً للقيم العليا للفكر الإسلامي الذي يتجلى في إعداد المرء لنفسه لملاقاة ربه بعد الموت. أبرز الحاجة الماسة إلى تعلم الأمور الدنيوية التي سرعان ما تم الاعتراف بها على أنها نتيجة متممة لا بد منها لإيجاد أرضية متكاملة في استيعاب الدراسات التقليدية، ولكن من سوء الحظ كان لا بد من تحصيل هذه العلوم الدنيوية من البلاد الأجنبية نظراً لعدم توافر الإمكانات المناسبة في مناطق الجزيرة العربية. وقد شجعت الدولة هذا التوجه عن طريق توفير المنح الدراسية وتقديم المنح المالية للمبتعثين ليتمكنوا من مواصلة التحصيل العلمي في المدارس السورية والمصرية في المقام الأول، وبعدها الالتحاق بالمعاهد التربوية في بريطانيا وفرنسا وألمانيا وبلدان أخرى بما فيها أمريكا. وقد استمر العمل على ذلك المنهج منذ أيام الحرب العالمية الثانية.

كان «حافظ وهبة» أول شخص يعينه الملك في وظيفة مدير التعليم الذي شرع في تحقيق بدايات سليمة في هذا المجال، كما أنه بذل جهوداً لإدخال

النظام التعليمي الحديث في مدارس المناطق الرئيسة في المملكة العربية السعودية، وذلك عن طريق تأمين الأبنية المدرسية وجلب المدرسين الأكفاء من مختلف بلدان الشرق الأوسط. وقد كانت هناك مدرسة قائمة في قصر الملك بالرياض للتدريس وكانت تشرف - ومنذ سنوات طوال - على تدريس الأمراء الشباب، وقد قام الأمير «سعود» الذي أصبح في تلك المرحلة ملكاً بخطوة يحتذى بها، إذ بنى مدرسة بالقرب من قصره بالرياض وكانت نموذجاً مطابقاً إلى حد ما للمدارس العامة البريطانية. وجلب لتدريسهم أساتذة اختارهم من مصر. كذلك قام أخو الملك الأمير «عبد الله» ببناء مدرسة مماثلة في الرياض ليدرس فيها أبناء أسرته، كما قام الأمير «فيصل» ببناء مدرسة في «الطائف» ليدرس فيها أبناؤه وأقران أبنائه من أبناء تلك البلدة. ومما لا شك فيه أن تعليم العلوم الحديثة آخذ في الازدياد في المملكة، كما أن عدد المنح الدراسية التي تؤمنها الحكومة تتراوح بين ٢٥٠ و٣٠٠ منحة سنوية، وبلغ عدد المنح الدراسية في عام ١٩٣٥م حوالي ٧٠٥ منح اشتملت على ٣٨٨ منحة إلى مصر، و٢٥٩ منحة إلى سوريا، و ٤٦ منحة إلى أمريكا وبلدان أخرى بما فيها بريطانيا.

وعندما طلب من «حافظ وهبة» أن يشغل منصب السفير في البعثة السعودية في لندن عام ١٩٣٠م، خلفه في منصبه كمدير للتعليم الشيخ «طاهر الدباغ» الذي بقي في ذلك المنصب لبضع سنوات وانتقل ذلك المنصب من بعده إلى الشيخ «محمد بن مانع» وهو شخصية بارزة ذات عقلية متنورة من بين مشايخ مكة، علماً بأنه أصلاً من مناطق «نجد». ويمكن أن حكم على الوضع التعليمي في المملكة وفقاً لإحصائية عام

١٩٥٢م/١٩٥٣م التي تشـيـر إلى أن عـدد المدارس في القـرى بلغ ١٥٩ مدرسة يعمل فيها ٢٢١ مدرساً وتخدم عشرة آلاف وثلاثمائة وتلميذاً واحداً (١٠٣٠١) أي بمعـدل ٦٥ طالبـاً في المدرسـة الواحـدة وبمعـدل ٤٦ طالبـاً في الفصل الواحد، وبلغ عدد المدارس الابتدائية مئة وسبعين مدرسة يعمل فيها ألف ومئتان وأربعون مدرساً ويدرس فيهـا ٣٠٨٤٦ طالباً أي بنسبة ١٨١ طالباً في المدرسـة الواحدة وبمعدل ٢٥ طالباً في الفصل الواحد، كما كان يوجد أحد عشر مدرسة خاصة يدرس فيها ٣٥٦٨ طالباً ويعمل بها ١٤٩ مدرساً بمعدل ٣٢٥ طالباً في المدرسة الواحدة و٢٤ طالباً في الفصل الواحد. وبلغ عـدد المدارس الحكومية الثانوية أحد عشر مـدرسـة يعمل بهـا مئة وخمسون مدرساً ويدرس فيها ١١٠٥٠ بمعدل ما يزيد على ألف طالب في المدرسة الواحدة، وبمعدل ٣٧ طالباً في الفصل الواحد.

وبهذا الصدد نشير إلى أنه كانت هناك ثلاث مدارس ثانوية خاصة يدرس فيها ٤٣٨ طالباً ويعمل بها ٢٦ مدرساً، بمعدل ١٤٦ طالباً للمدرسة الواحدة وبمعدل سبعة عشر طالبا في الفصل الواحد، وكان هناك تصنيفات متعددة من المعـاهد الدينيـة بلغ تعـدادها ثلاثة عـشر مـعهـداً يعـمل بها مئة مـدرس ويدرس فيها قرابة ألف ومئة طالب، وكان هناك أيضاً ثمانية معاهد بها خمسة عشر مدرساً يشرفون على إعداد ٢٦٣ طالباً سيتخرجون ليعملوا في حقل التعليم، كما كانت هناك ستة معاهد مسائية يدرس فيها أربعون مدرساً أصول تدريس اللغة الإنجليزية، علاوة على هذا كانت هناك مجموعة من المدارس المختلفة التابعة لشركة «أرامكو» في الظهران تقدم دروساً في التدريبات التقنية لعدد كبير من موظفيها، إضافة إلى أنها تقدم مواد عامة في

المحاسبة والأعمال الإدارية بمعدل بلغ ١٣٧٤ طالباً في الشهر. فمن وجهة النظر التعليمية، فإن الوضع الذي وصلت إليه المملكة الآن يبين جانباً مغايراً ومتميزاً بالمقارنة مع الوضع قبل عشرين عاماً.

لكن هذه الإنجازات كلفت الكثير من المال، ويجب علينا الآن أن نرجع إلى المرحلة التي تركنا فيها «ابن سعود» يتساءل في «الطائف» عن الكيفية التي يمكن للأموال الزهيدة المتوافرة لديه أن تسد الاحتياجات الملحة الراهنة، ناهيك عن خطط التطوير وإعادة البناء التي كان «ابن سعود» أدبياً ملتزماً بها خاصة في الأماكن المقدسة.

وكما شاهدنا سابقاً، كان عليه أن ينتظر مدة أربع سنوات ليحصل على التعويضات المتواضعة التي جاءته بسبب حرب اليمن وهي الحرب التي عمل كل جهده لتفاديها. لكن في ذلك الوقت كان «ابن سعود» قد تلقى تقريراً غير متوقع، فقد حدث ذلك أثناء مراجعته لميزانيته في الطائف. حيث كان الوضع المالي وضعاً ميؤوساً منه. وبالرغم من حملات الصيد التي كان يقوم بها، وبالرغم من العديد من المشاغل الأخرى، إلا أن الكآبة كانت واضحة على محيا الملك.

وفي الوقت نفسه كانت تدور أحاديث بين الناس عامة حتى في الإدارة المسؤولة، عن وجود كميات هائلة من الثروة المعدنية في البلاد مدفونة في الأرض قيد الاستكشاف، أو على الأقل لم يتم استخراجها. وكان الاعتراض الرئيس على هذا الاستخراج هو أن أي نشاط من هذا النوع يفترض التعاون مع الأجانب الذين هم وحدهم يمتلكون الخبرة الضرورية ورأس المال اللازم لتحقيق ذلك الغرض، وقد سبق لـ«ابن سعود» نفسه أن

مر بتجربة من هذا النوع، لكن قلما يثنيه الفشل الذريع الذي لحقه من جرائها عن محاولة القيام بواحدة أخرى.

منح «ابن سعود» عام ١٩٢٣م وبتشجيع من قبل السير «بيرسي كوكس» امتيازاً للنقابة العامة الشرقية في لندن Eastern General Syndicate of London مع شروط سهلة للتنقيب عن النفط في كافة مناطق المنطقة الشرقية، وكان الشرط الوحيد الذي فرضه على تلك النقابة هو أنه أصر على أن تدفع الشركة وبشكل مقدم أجرة سنوية مقدارها ألفا جنيه إسترليني، وأن تستمر في جهودها الحثيثة إما للتوصل إلى استخراج النفط أو التأكد من عدم وجوده. وتجدر الإشارة هنا إلى أن السير «بيرسي كوكس» كان يتمنى لو أن شركة النفط البريطانية -الفارسية Anglo-Persian Oil Company تكون صاحبة ذلك الامتياز، لكن «ابن سعود» كان غير راغب أن يعطي ذلك الامتياز إلى شركة حكومية خشية احتمال حدوث مضاعفات سياسية لذلك الأمر.

وقد حصلت تلك النقابة البريطانية التي كان الميجر «فرانك هولمز» ممثلاً لها على امتياز مماثل للتنقيب عن النفط في الجزر البحرينية لكنها حولت ذلك الامتياز إلى شركة مكسيكية والتي حولتها بدورها لأسباب فنية إلى شركة نفط من ولاية كاليفورنيا الأمريكية "Standard Oil Company"، ويبدو أن الشركة الأمريكية حصلت على هذا الامتياز بعد أن عرضته الشركة المكسيكية على الشركة البريطانية - الفارسية، والتي بدورها رفضته. وعند هذا القدر من تطور الأحداث كان كل ما يعني «ابن سعود» أنه حصل على أربعة آلاف جنيه إسترليني كأجرة مقدمة عن سنتين. وبعد مضي فصلين من عمل ناجح قام به خبراء نفط جيولوجيون بلجيكيون قررت النقابة البريطانية

عدم القيام بالمزيد من أعمال التنقيب، وعليه قام «ابن سعود» عام ١٩٢٨م بإلغاء ذلك الامتياز بعد أن وجه إشعاراً حسب الأصول إلى الشركة صاحبة الامتياز.

على أي حال ففي وسط ظروف عام ١٩٣٠م التي تغيرت إلى حد كبير، بدا من الممكن أن تكون بعض شركات النفط مستعدة لدفع مبالغ كبيرة مقابل حصولها على الحق في معاودة التنقيب عن النفط في مناطق شرقي الجزيرة العربية، خاصة وأنه تم العثور على النفط في أحد الجزر البحرينية. وكانت حاجة الملك الملحة في ذلك الوقت هي الحصول على أموال يستطيع من خلالها مجابهة العاصفة الاقتصادية ومواجهتها إلى أن يتمكن من إعادة ترتيبات الحج على شكل يعود عليه بالكسب المادي الأكبر. وبالتأكيد لم يكن يصبو في تلك المرحلة إلى أكثر من ذلك، كما أنه لم يكن متفائلاً بخصوص عائدات مثل ذلك المشروع. وقد نظر وزير ماليته ذو الخيال الواسع إلى مؤشرات المستقبل على أنها وردية زاهرة، وعليه وافق الملك (وهو في ارتياح أكثر من الأحوال العادية) على أن يقوم بالخطوة الأولى باتجاه الغاية المنشودة. ومن غرائب الصدف أن السيد «تشارلز كرين» المليونير الأمريكي كان في «القاهرة» في ذلك الوقت. وكان السيد «كرين» قد أبدى قبل عقد من الزمن تعاطفه مع العرب بخصوص خطة الحلفاء الرامية إلى وضع «سوريا» رغماً عن إرادتها تحت الانتداب الفرنسي. وقد كان السيد «كرين» أيضاً قد قام مؤخراً بزيارة إلى «اليمن» وقدم إلى حكومة الإمام «يحيى» مساعدات سخية تتعلق ببناء الطرق وإدخال التحسينات على الموانئ هناك، كما سبق له في عام ١٩٢٦م أن قام بزيارة إلى «جدة» للتعرف على «ابن سعود» الذي كان في ذلك الوقت في المدينة ولم يتمكن من مقابلته.

إن ما كان شبه مؤكد هو أن السيد «كرين» كان بإمكانه أن يعود إلى «جدة» إذا حصل على تأكيدات من أن الملك سيكون في استقباله هناك، وقد وافق الملك على أن يتم إطلاع السيد «كرين» بأن «ابن سعود» سيكون في «جدة» لمدة أربعة عشر يوماً ابتداءً من بدء موسم حج عام ١٩٣١م، والذي تصادف حدوثه في ذلك العام في آخر يوم من شهر نيسان.

وحسب الأصول تم اللقاء بين الاثنين في جو ودي للغاية، وتمت على مدى سلسلة من اللقاءات مناقشة الاحتمالات الاقتصادية للمملكة العربية السعودية، ونتيجة لتلك المحادثات عرض السيد «كرين» على الملك أن يستفيد من خدمات السيد «كارل إس توتشيل» ولمدة ستة أشهر دون أن يدفع أجراً له. والجدير بالذكر أن «توتشيل» كان مهندساً كفئًا متخصصاً في مناجم الثروات الطبيعية، وسبق له أن عمل مع السيد «كرين» في اليمن وأثيوبيا.

وصل السيد «توتشيل» إلى «جدة» خلال صيف عام ١٩٣١م، وفي ربيع عام ١٩٣٢م توصل إلى نتائج أوردها في تقريره الذي قال فيه وبثقة تامة بأن منطقة الظهران تحتوي على النفط وأن الكميات الموجودة جديرة بالاستخراج، وقال أيضاً إن الأوائل استنفدوا كافة ثروات منجم «مهد الذهب» القديم المهجور والذي يقع في منتصف الطريق بين «جدة» و«المدينة». وقد تناول تقريره أيضاً مناطق أخرى تحدث عنها بنفس صيغة التفاؤل، وعاد السيد «توتشيل» إلى أمريكا على أمل أن يثير اهتمام مختلف الشركات الأمريكية في التنقيب عن الثروات المعدنية والطبيعية الموجودة في الجزيرة العربية. وبعد ذلك عاد السيد «توتشيل» إلى السعودية وبقي فيها عدة سنوات عمل خلالها في عدة مشروعات عائدة للدولة، وبقي منذ ذلك الحين يتردد على المملكة في زيارات متكررة.

حظي تقرير السيد «توتشيل» باهتمام الشركة الأمريكية للنفط في ولاية كاليفورنيا وهي شركة Standard Oil Company (S.O.C) ، وبعد أن أجرت استفسارات أولية تعلقت بمدى الاستعداد المبدئي للحكومة السعودية في منحها امتيازاً للتنقيب عن النفط، أرسلت تلك الشركة ممثلها السيد «لويد هاملتون» إلى السعودية، ورافقه في تلك الزيارة السيد «توتشيل» بصفته مستشاراً فنياً، وكلفت الشركة السيد «هاملتون» بإجراء مفاوضات مع الحكومة السعودية.

تم الإعلان عن نية الحكومة السعودية (لكن مع شيء من التحفظ) في مناقشة أمر إعطاء امتياز ما للتنقيب عن أماكن الثروات المعدنية في المملكة، وسافر السيد «هاملتون» إلى «جدة» وتبعه إلى هناك السيد «لونغ ريك» بصفته ممثلاً عن شركة الزيت العراقية Iraq Petroleum Company كما توجه إلى هناك الميجر «فرانك هولمز» مندوباً عن شركة "Eastern General Syndicate" التي كما سبق أن أشرنا كانت تنظر إلى الامتياز الخاص بالتنقيب عن النفط على أنه مجرد أمر بسيط، وكان الشرط الرئيس الذي فرضته الحكومة السعودية بخصوص المفاوضات الجديدة هو أنه يتوجب على الجهة التي تفوز بذلك التنافس أن تدفع بالذهب - عند توقيع الاتفاق - مبلغاً وقدره مئة ألف جنيه إسترليني، كما اشترطت أيضاً أن يتم تقديم نشرات أولية وبشكل مستمر عن حالة تلك المشروعات. وتركزت القضية برمتها على موضوع المبلغ المتوجب دفعه كدفعة أولية وعلى انسحاب شركة "Eastern General Syndicate" ، وكذلك رفض شركة الزيت العراقية (IPC) أن ترفع قيمة المناقصة التي تقدمت بها لتصل إلى مئة ألف جنيه

إسترليني. وقد تركت هذه الأمور المجال مفتوحاً أمام الشركة الأمريكية (S.O.C) لتنفرد بالعرض وأن تدفع بالذهب مبلغ خمسين ألف جنيه إسترليني، وتبع ذلك الكثير من المحادثات المتعلقة بتفاصيل الموضوع وبالمفاضلة بين الأسعار، إلى أن تم في الثالث من أيار عام ١٩٣٣م التوقيع على «الامتياز» ووقع السيد «عبد الله السليمان» وزير المالية عن الجانب السعودي، ووقع عن الجانب الأمريكي السيد «لويد هاملتون»(١)، ولم يمض وقت طويل على هذا الاتفاق حتى قام السيد «توتشيل» نيابة عن شركة أمريكية بريطانية بإجراء محادثات مع الحكومة السعودية للحصول على امتياز للتنقيب عن مناجم الذهب في الجزيرة العربية.

قللت احتمالات وجود الذهب من مدى جدوى استخراج الذهب في منجم «مهد الذهب» القديم والذي سبق أن استنفدت طاقته الإنتاجية عام ١٩٥٣م. وتجدر الإشارة هنا إلى أن ذلك المنجم أسهم وبشكل متواضع في إثراء عائدات الدولة السعودية التي في النهاية تقاسمت مع الشركة الأجنبية الربح الصافي الذي وصل إلى عشرة ملايين دولار. وبعد بضع سنوات كانت التقارير المتعلقة بمنجم «ظلم» بالقرب من «المويه» تقارير إيجابية، ولذلك أنفقت الحكومة مبالغ طائلة لتطويره، لكن ذهبت تلك المبالغ سدى إذ بلغ إجمالي إنتاج المشروع ما يعادل ٩٠٠ جنيه إسترليني ذهبي (أي ١٨٠ أونصة ذهبية أو ما يعادل ألف ريال) ذلك مقابل النفقات الفعلية التي وصلت إلى حوالي ثلاثين مليون ريال. وقد كانت السلسلة الجبلية في

---

(١) دون فيلبي المراحل الأولى لتجربة المملكة في إعطاء امتيازات التنقيب عن المعادن والنفط، بشكل أكثر توسعاً في كتابه «مغامرات النفط العربي»، قامت مكتبة العبيكان بنشر ترجمة له بالعربية. (المراجعون).

مناطق الحجاز إضافة إلى سفوحها على كلا الجانبين مغطاة بالمناجم المحفورة منذ زمن قديم، لكن يبدو أن عمال المناجم في زمن النبي سليمان -عليه السلام- وكذلك في زمن الخلفاء العباسيين قد أخذوا كل قطعة معدنية نفيسة ولم يتركوا أي شيء للأجيال اللاحقة. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الذهب الذي تم استخراجه من منجم «مهد الذهب» كان من البقايا التي تم الوصول إليها بفعل الوسائل الحديثة التي استخرجتها من مناطق عميقة لم يكن بمقدور عمال المناجم الأوائل أن يصلوا إليها.

أما قصة النفط فكانت مختلفة تماماً، وهي قصة خيالية حقيقية، وذلك من حيث تطور أحداثها المذهلة بدءاً من خطوات العمل الأولى التي قام بها الخبراء الجيولوجيون الأمريكيون في مناطق الصحراء حتى تم اكتشاف واستخراج النفط من أعماق سحيقة في باطن الأرض. ولسرد كامل القصة نحتاج إلى العديد من المجلدات، لكن يمكن تلخيص القصة من هذه النقطة فصاعداً على الشكل التالي:

طلب «ابن سعود» ماء فمنت عليه السماء بالحليب وجاءته الخيرات متتالية على طبق فخم مهيب. كان الملك قنوعاً بذلك الكسب المفاجئ ولم يكن ليبالغ بأفكاره المتعلقة بتطلعاته نحو المستقبل، إلا أن الشركة الأجنبية كانت تصبو إلى مكاسب أكبر واستمرت في أعمالها للبحث عن الكنز المدفون. وفي عام ١٩٣٥م تقرر وجود النفط في منطقة الظهران بكميات تجارية، كما أن أحد الآبار تكشف عن تدفق كميات ملحوظة الأمر الذي رفع من معنويات وتفاؤل الناس عامة. وبدأ إنتاج النفط الفعلي عام ١٩٣٨م، وفي العام التالي وصل حجم الإنتاج السنوي إلى حوالي مليون طن سنوياً، الأمر

الذي يعني تحقيق عائدات مالية للدولة تصل إلى مئتي ألف من العملة الذهبية (لنقل ما يزيد أو ما يقل قليلاً عن مليون جنيه إسترليني حسب معدل السعر في السوق الحرة)، لكن تلك الثروة التي كانت خيرة جداً لم تدم طويلاً. فمع اندلاع الحرب تطلبت سياسة الحلفاء تجميد إنتاج النفط عند المستوى الذي كان قد وصل إليه، كما أن ثمة ضرراً آخر ألحق بالمصالح السعودية بسبب توقف قدوم الحجاج إلى المملكة ونجم ذلك عن دخول إيطاليا الحرب إلى جانب الأعداء، والحقيقة أن أمريكا وبريطانيا قدمتا مساعدات سخية إلى حكومة «ابن سعود» لتعدل خسارة الميزان التجاري الناجمة عن الاستراتيجية التي نهجها الحلفاء، ناهيك عن المساعدات الفنية التي حصلت عليها حكومة «ابن سعود» لتطوير المشروعات المختلفة ذات الفائدة والمردود الدائمين للمملكة، إضافة إلى أن رفاهية مستوى المعيشة السعودية زمن الحرب كانت أفضل مما هي عليه في أي بلد آخر من العالم باستثناء الولايات المتحدة الأمريكية.

على أي حال استاءت المملكة العربية السعودية من تقليص مصادرها الطبيعية من طرف واحد -هو أمر طبيعي-، لكن انسحاب إيطاليا من الحرب واحتواء العالم الغربي ألمانيا بشكل مؤثر في عام ١٩٤٤م أسهمت جميعها في إعادة تدفق الحجاج وأزالت الحظر المفروض على إنتاج النفط. وجاءت عاقبة الأمور على نحو رائع، فازداد إنتاج النفط بسرعة فائقة إلى أن وصل في عام ١٩٥٢م إلى أربعين مليون طن، في حين بلغ إنتاجه خلال سنوات الحرب مليون طن فقط. وعلى أساس الامتياز الممنوح فيعني هذا القدر من الإنتاج تحقيق دخل يقدر بأربعين مليون جنيه إسترليني، إلا أن

إدخال بند الضريبة على الدخل إضافة إلى الاتفاق الذي تمت مناقشته مؤخراً والقاضي بتقسيم عائدات النفط بين الحكومة والشركة المنتجة على مبدأ خمسين بالمئة لكل فريق، جميعها ضاعفت المبلغ الذي يمكن للحكومة أن تحصل عليه. ومن المحتمل أن يتم إنتاج النفط على مثل هذا المعدل في المستقبل المنظور، لكن مع أخذ موقف العديد من الدول الأخرى بعين الحسبان[1].

والنقطة المهمة الواجب إدراكها هي معرفة قدرة استيعاب السوق العالمية للنفط، ومعرفة الوضع المالي المتشابك والمعقد في دول العالم. وقد جرد ذلك الوضع نفط المملكة من ميزة كونه سلعة تتم المتاجرة فيها بالدولار الأمريكي. علاوة على ذلك تواكبت التطورات التي حدثت في الكويت والعراق مع التطورات التي حدث في المملكة العربية السعردية. والجدير بالذكر أن الكويت تعد منتجاً رائعاً بالمقارنة مع حجمها، وكانت إيران في تلك الفترة خارج نطاق السوق النفطية، لكن سرعان ما أصبحت بلداً مصدراً للنفط على نطاق واسع، ودخلت أيضاً مجال التنافس على الأسواق العالمية. وظهرت قطر كمصدر للنفط في حين حافظت البحرين على مكانتها كمنتج ومكرر للنفط.

امتد العمر بـ «ابن سعود» العظيم وعاش ليرى المبلغ الزهيد الذي دخل إلى خزينته خلال عامه الأول في الرياض (١٩٠٢م - ١٣١٩هـ) وهو يتضاعف. ووصل المبلغ في ذلك العام إلى خمسين ألف جنيه لكن تضاعف

(١) تشير الإحصاءات المنشورة لعام ١٩٥٣م إلى إنتاج ٤١ مليون طن من الزيت الخام. وتشير النتائج لثلاثة الأشهر الأولى لعام ١٩٥٤م إلى معدل سنوي نحو ٤٥ مليون طن. (المؤلف).

ليصل إلى مئة ألف جنيه بعد أن ضم «ابن سعود» إقليم «الأحساء»، وذلك على مدى الفترة بين ١٩١٣م و١٩٢٥م. واستمر ذلك المبلغ في الازدياد بشكل ثابت إلى أن وصل إلى معدل أربعة إلى خمسة ملايين جنيه إثر ضمه لمناطق الحجاز على مدى الفترة ما بين ١٩٢٦م - ١٩٣٧م. وازداد هذا المبلغ أيضاً بحوالي مليون جنيه مع بدايات العائدات النفطية على مدى الفترة ما بين ١٩٣٨م - ١٩٤٤م، ولا يشمل ذلك الرقم المعونات المالية التي قدمتها أمريكا وبريطانيا إلى المملكة أثناء الحرب العالمية الأولى. ومنذ ذلك الحين فصاعداً تسارع تزايد الدخل بشكل منقطع النظير، وكانت نتيجة ذلك التسارع أن استمتع «ابن سعود» في السنة الأخيرة من عهده بمشاهدة العائدات التي بدأ بها حياته كحاكم مطلق على الجزيرة العربية قد تضاعفت بمقدار ألفي ضعف إذ وصلت إلى مبلغ مرموق بلغ مئة مليون جنيه إسترليني في العام الواحد[1]. لم يكن دخل «ابن سعود» على أي صعيد كاف ليؤمن احتياجاته والتزاماته كحاكم على البلاد، لكنه كان دائماً ينظر إلى العقد الأول من حكمه على أنه أفضل سنوات عمره.

وفي السنوات الأخيرة من عمره تضافر وهن جسده مع حرصه على خيرات البلاد ليثقلا كاهله الذي طالما حمل عبء المسؤولية بهمة ونشاط عبر مسيرة سنوات العسر والضيق. وكان التحول السياسي والاقتصادي الذي شهدته الجزيرة العربية على مدى نصف قرن بمثابة إنجاز حري بأي شخص أن

(١) أشارت أول ميزانية منشورة للبلاد إلى دخل قدره ٢١,٥ مليون جنيه إسترليني لعام ١٩٤٧ - ١٩٤٨م بما في ذلك ١٤ مليون جنيه إسترليني من عائدات الزيت. وكانت توقعات الميزانية لعام ١٩٥١م ٤٩ مليون جنيه إسترليني بما في ذلك ١٨ مليون جنيه من عائدات الزيت و١٦ مليون جنيه من الزكاة والدخل. وارتفع ذلك إلى ١٠٠ مليون جنيه لعام ١٩٥٢م منذ أن لم يتم نشر أرقام الميزانية. (المؤلف).

يفتخر به، لكن «ابن سعود» لم يكن ليحب الأبهة والخيلاء وضروب الرسميات الفارغة. فقد جعلت تلك الميزات منه إنساناً كامل الصفات واستثنته من بين أقرانه ورجال عصره. ولم يكن ليحب الأساليب الجديدة التي توجب عليه أن يستسلم لها باعتبارها ثمناً للنجاح الذي حققه.

كان العالم يتجه ببطء وبإصرار نحو حرب عالمية ثانية. وشهدت مدينة الطائف محادثات تتعلق بإبرام اتفاقية صداقة مع «ألمانيا»، وكلف السفير الألماني في بغداد ليكون سفيراً لدى ديوان «ابن سعود»، وكانت مسودة المعاهدات الأخرى مع إيطاليا وفرنسا قد وصلت إلى مراحل شبه نهائية على أمل أن يتم التوقيع النهائي عليهما في روما وباريس خلال الجولة التي كان من المقرر أن يقوم بها الأمير «فيصل» إلى أوروبا عام ١٩٣١م. وكانت تلك هي الزيارة الثالثة التي يقوم بها الأمير «فيصل» إلى دول العالم الغربي. شملت تلك الزيارة كلاً من بولونيا، والاتحاد السوفيتي، وتركيا، وقد سبق لبعثة بولونية برئاسة الكونت «رازنبسكي» وعضوية مفتي تلك الديار المسلمة أن زارت «جدة» قبل زيارة الأمير «فيصل» إليها.

وفي شهر أيلول توجه «ابن سعود» بنفسه من الطائف إلى جدة ليتفقد باخرة بولونية على متنها حمولة من الأسلحة كانت قد أرسلت إليه من قبل حكومة بولونيا، وكان ذلك واحداً من الإجراءات التي تأثرت بقرار حكومة «ابن سعود» الخاص بتأجيل دفع الديون المستحقة على الدولة. وأسفرت الحرب والتغييرات المترتبة عليها في الوضع البولوني عن توقف الدفعات المالية، وبقي القسم الأعظم من الديون غير مستوف. وبذلت روسيا نشاطاً ملحوظاً خلال بداية الثلاثينات استهدفت منه تحقيق بعض الأمور التجارية مع الدول العربية وبالتحديد مع السعودية واليمن. وعليه بادرت الحكومة

السوفيتية بإنقاذ الوضع المالي المتدني لحكومة «ابن سعود» بأن أرسلت شحنة من الوقود والبضائع الأخرى، وقد عرضت تلك البضائع في السوق بأسعار مغرية، ورغم ذلك وجدت الحكومة السعودية نفسها مضطرة لاتخاذ إجراءات مستقبلية تهدف إلى عدم تشجيع مثل تلك المغامرات.

كانت السلطات السوفيتية عند حلول عام ١٩٣٨م قد أدركت بأن آمالها قد باءت بالفشل فيما يخص إنشاء قاعدة لنشر أفكارها السياسية عن طريق نشاطات تجارية لا تسعى من ورائها لأي كسب مادي. ومع حلول ذلك العام قامت الحكومة السوفيتية باستدعاء كافة عناصر بعثتها الدبلوماسية العاملة في الجزيرة العربية لمحاسبتهم على فشلهم. كما قامت الحكومة السوفيتية بتصفية كافة أعضاء البعثة بمن فيهم «حاكيموف» والشخص الذي خلفه في منصب رئيس البعثة في «جدة» والمدعو «تويمتوف»، إضافة إلى عدد من السيدات اللاتي كن يعملن في البعثتين، ونجا من القتل طبيب البعثة الوحيد الذي رفض أمر الاستدعاء إلى «موسكو» واعتنق الإسلام ليلتحق بالكادر الطبي السعودي.

وفي تلك الفترة كانت تركيا على علاقات دبلوماسية مع المملكة العربية السعودية بالرغم من الإجحاف والتحامل الذي سببه تصرف تركيا تجاه الدين الإسلامي. وجاءت زيارة «فيصل» إلى تركيا من باب الكياسة والمجاملة، علماً بأن العلاقات بين البلدين لم تعد إلى حالتها الطبيعية إلا بعد وفاة «كمال أتاتورك» عام ١٩٣٨م.

حملت الحرب التي دارت عام ١٩٣٥م/ ١٩٣٦م بين إيطاليا وأثيوبيا «ابن سعود» على الاعتقاد بأن سياسة الدولة البريطانية العظمى تميل للتضييق على

الدول الأخرى. وظل «ابن سعود» إلى أن سقطت «أديس أبابا» وحدثت كارثة ضم أثيوبيا، ويرفض أن يؤيد مقولة بعض الأشخاص من أن بريطانيا يمكن أن تتنحى جانباً وتسمح لتلك المأساة أن تحدث بأشنع صورها.

أما بخصوص عصبة الأمم، والتي لم تكن المملكة العربية السعودية عضواً فيها علماً بأنها اعتادت على أن يصلها من عصبة الأمم منشورات تتعلق بالحقوق والدول والإنسان، فيمكن القول إنه لم تراود «ابن سعود» أوهام بأن العصبة كانت قادرة على حماية حقوق الدول الصغيرة أو أن بمقدورها منع حدوث الحروب التي كان يعدها حالة طبيعية مصاحبة لوجود الإنسان على الأرض وأن يتكرر حدوثها على فترات. وقد تعلم العرب من التجربة التي مروا بها في الحرب العالمية الأولى أنه يمكن للضعيف أن يجعل من الصراعات التي يخوضها القوي شيئاً طيباً يخدم مصالحه. ولم يسفر عن الحرب العالمية الثانية أي شيء يمكن أن يقوض هذا المبدأ، بل جاءت عاقبة تلك الحرب لتقنع «ابن سعود» بأن حرباً عالمية ثالثة محتومة كانت على وشك الحدوث. وقد انتقد «ابن سعود» الحلفاء لتأخرهم في التحرك الذي جاء بعد أن أصبح العدو في موقف قوي جداً يصعب مهاجمته دون مخاطر تذكر.

ولم تكن لدى «ابن سعود» شخصياً أية شكوك حول المنهج السياسي الصائب الذي كان يتوجب عليه اتباعه لخدمة مصالحه وخدمة مصالح شعبه في الساحة الدولية، علماً بأن العديد من مستشاريه لم يعربوا عن آرائهم تلك لكونهم كانوا يراقبون القوة المتنامية لدول المحور. فبالنسبة له لم تعد بريطانيا كما كانت لفترة طويلة في تلك المرحلة القوة العظمى الوحيدة في العالم فحسب، بل كانت أيضاً القوة الوحيدة التي تلاقت مصالحها مع مصالح «ابن سعود» في موضوعات شتى، ولذلك كانت الصداقة مع بريطانيا بمثابة

حجر الزاوية الرئيس في سياسته الخارجية. ولم يعد هناك أي مجال لتهتز قناعاته بآراء الآخرين. ولم تكن أمريكا بالطبع قد ظهرت على الساحة السياسية للمملكة العربية السعودية، ولم يسفر موضوع سحب أفراد البعثة الدبلوماسية الروسية من «جدة» عن أي ندم أو أسف، بل في الواقع توازن رفض «ابن سعود» في إعطاء إذن أو تقديم تسهيلات لأي جهة تجاهر علناً بأي دين سوى الدين الإسلامي على الأرض السعودية، مع امتعاضه الظاهر لإقامة أي تعاون مع أي دولة تجاهر بعدائها للدين الإسلامي.

كانت تركيا تحت حكم نظام «أتاتورك» عرضة لأن ينظر إليها شزراً وبارتياب للأسباب التي أشرنا إليها سابقاً. ولم يكن «ابن سعود» ليسمح لبريطانيا رغم علاقته المميزة بها أن تؤثر في حريته التامة بالحفاظ على علاقات ودية وحميمة مع دول غربية أخرى مثل فرنسا، وإيطاليا، وألمانيا، وهولندا، ولم تكن هولندا تقل أهمية عن سابقاتها الأخرى بسبب سيطرتها على مناطق «شرقي الإنديز» التي كان يأتي منها القسم الأعظم من الحجاج قبل حدوث فترة التدهور الاقتصادي.

أما في العالم العربي، فقد عادت العلاقات بين السعودية ومصر منذ عام ١٩٣٦م إلى طبيعتها الودية، وكان موضوع عدم التدخل في شؤون العديد من المناطق الواقعة تحت الانتداب البريطاني عاملاً أساسياً في علاقاته وتعامله مع دول الانتداب. علماً بأن «ابن سعود» إلى جانب عدد آخر من قادة العرب كانوا قد أعربوا عن تعاطفهم مع قضية العرب في فلسطين. وربما كانت لدى «ابن سعود» بعض المخاوف والشكوك المتعلقة بقيادة الثورة التي حدثت في منتصف الثلاثينات وبالأساليب التي كانت تلك القيادة تتبعها. وعليه رفض «ابن سعود» بالاشتراك مع القادة العرب الاقتراح

الصادر عن هيئة مفوضية «بيل» عام ١٩٣٧م والرامي إلى تقسيم فلسطين، كما رفضوا «الورقة البيضاء» التي صدرت عام ١٩٣٩م. كما ظل فاتحاً الباب على مصراعيه للتدخل في تسوية القضية الفلسطينية في حالة رغبة دولة الانتداب المشاركة بذلك. ولم يصدر عن الحكومة البريطانية أي دعوة من هذا القبيل موجهة إلى الرجل الذي كان من المحتمل لسمعته ومكانته فقط أن تسفرا عن تسوية لمشكلة شائكة للغاية. وأخيراً وبعد عقد من الزمن تم حسم تلك المشكلة عن طريق اللجوء إلى السلاح بعد أن تخلت بريطانيا عن انتدابها على فلسطين مؤيدة فكرة التقسيم.

احتار «ابن سعود» بهذا الخصوص وبخصوص موضوعات أخرى وبالتحديد حيال التصرف الذي كانت تنتهجه الحكومة البريطانية نحوه شخصياً ونحو حكومته بشكل عام. وكان أحياناً يعرب عن ذلك الاستياء بصوت مسموع، وخاصة لانعدام ظاهرة التعامل بالمثل التي طالب بها بناءً على تفضيله لبريطانيا على كافة الدول الأجنبية الأخرى. فقد سبق له أن أبرم العديد من الاتفاقيات حيال الأمور التي كان من الممكن أن تتحسس منها الحكومة البريطانية. ومن دون أن يعلن رسمياً عن تخيله عن مطالبته المشروعة بمنطقة «معان - العقبة»، فقد وافق على احترام الخط الحدودي القائم هناك بفعل الأمر الواقع. وكان «ابن سعود» أيضاً قد وافق على حدود واضحة لا لبس فيها بين السعودية والعراق، والتي كان فيها بعض الضرر لرعاياه، كما أنه لم يطالب بأي حقوق في مناطق الخليج التي عدتها بريطانيا مناطق خاصة تابعة لسيادتها وسيطرتها المباشرة. وكان «ابن سعود» قد وافق بموجب اتفاقية تم التوصل إليها على أنه سيتعاون مع الحكومة البريطانية في القضاء على تجارة الرقيق، كما أنه لم يؤكد أو يلح على انتصار بلاده على

اليمن . . . إلى آخر ذلك من الأمور التي كانت بريطانيا تقابلها بجفاء. ولم يكن بمقدوره إيجاد سبب لتلك المواقف أو تفسيرها، ويبدو أيضاً أن الحقيقة التي لا تقبل الجدل أن استقلاله المطلق على الصعيدين المحلي والخارجي كان سبباً في تلك المواقف البريطانية بحيث لم يكن بمقدور التعاطف البريطاني معه أن يتجاوز ذلك الحاجز.

على أي حال عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية لم يتردد «ابن سعود» ولو للحظة واحدة (بالرغم من إعلانه عن موقفه الحيادي في ذلك الصراع) من أن يظهر الاتجاه الذي كانت تسير به عواطفه. فقد كان موقفه المحايد موقفاً سليماً إلا أنه منع السفير الألماني الذي لم يكن موجوداً في «جدة» عند اندلاع الحرب من العودة إلى السعودية خشية أن تتعقد الأمور مع الدول المتحالفة والتي لها تمثيل دبلوماسي في «جدة». وعندما دخلت إيطاليا الحرب سارع «ابن سعود» إلى نقل الدبلوماسيين الإيطاليين والمقيمين الآخرين إلى أماكن مريحة في إحدى الجزر، لكنه عاملها بكل الاعتبارات المرعية. وعندما لجأت المدمرات الإيطالية إلى سواحل المملكة هرباً من الضربات البريطانية، قام «ابن سعود» على الفور باعتقال كل أطقمها في مدينة «الطائف»[1]، لكنه لم يسلمهم إلى الأعداء. وبعد الحرب قدم «رشيد عالي الكيلاني» كلاجئ سياسي إلى السعودية، وقد استقبله «ابن سعود» كضيف شرف بالرغم من المحاولات البريطانية الرامية إلى استسلامه لها كأسير حرب، وكانت المحكمة العسكرية في العراق قد حكمت عليه بالموت لتزعمه حركة تمرد عام ١٩٤١م. لقد كان لـ «ابن سعود» في القضايا المشابهة لهذه الحالات إحساس غريزي يدفعه لاتخاذ

(١) خصص الملك عبدالعزيز للاجئين الإيطاليين وبعض الألمان مكاناً لإقامتهم في بعض الجزر القريبة من جدة ووفر لهم كافة الخدمات. (المراجعون).

الموقف الصحيح، وكان يفعل الأمور الصحيحة دون خوف أو محاباة لأحد حتى لو كان ذلك التصرف يسبب له شخصياً بعض الإحراج، ومع ذلك لم يكن هناك أدنى شك في أن «ابن سعود»، وعلى مدى سنوات الحرب، كان يأمل أن يحقق الحلفاء النصر، وكان حقاً منزعجاً بسبب كوارث الحلفاء التي حدثت عام ١٩٤٠م والعام الذي تلاه.

في ذلك العام أصبحت أمريكا مهتمة - وبشكل جدي - بالجزيرة العربية، وبدأت تعمل على تأسيس بعثة لها في «جدة»، كما قام عدد من الشخصيات الممثلة للرئيس الأمريكي «روزفلت» بزيارة «ابن سعود» في الرياض لمناقشة بعض القضايا معه ولدراسة احتياجات المملكة. وقد سبق أن أشرنا إلى المساعدات المالية والنوعية التي قدمتها أمريكا وبريطانيا إلى حكومة «ابن سعود»، إلا أن موضوع تقوية أواصر العلاقة السياسية بين أمريكا والسعودية كان بمثابة التطور البارز الذي ظهر خلال سنوات الحرب والذي أسفر عن نتائج بعيدة المدى كان لها دور في تطور الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في المملكة خلال عقد واحد من الزمن.

كان الجميع يحترم موقف «ابن سعود» الحيادي كما كان واضحاً أيضاً أن قضية الحلفاء لم يكن لها أن تحقق أي مكسب عملي من أي تغيير رسمي يمكن أن يطرأ على موقفه حتى ولو كان «ابن سعود» على استعداد لتبني مثل ذلك المنحنى. لقد كان الرئيس الأمريكي «روزفلت» مدركاً تماماً للدور المهم الذي يمكن للمملكة العربية السعودية أن تؤديه في مرحلة ما بعد الحرب العالمية تلك. وحيال ترجيح كفة ميزان دول التحالف التي بدأت في الظهور، لم تعد هناك حاجة لأن يستمر «ابن سعود» في إخفاء حقيقة موقفه حيال ذلك الصراع.

كان الملك «فاروق» ملك مصر قد قام بزيارة لـ «ابن سعود» مع نهاية أيام تلك الحرب، وتم اللقاء بينهما في جوار «المدينة»[1] ووجه له الدعوة لزيارة «مصر» في أول فرصة ملائمة، لكن قدر اللّه خبّأ لـ «ابن سعود» الملك العظيم الذي ذهب إلى مصر في ربيع عام ١٩٤٥م بعض الأمور والترتيبات: حيث عاد «ابن سعود» ليقابل مهندس الانتصار المؤكد. ففي البحيرات المرة في قناة السويس اجتمع «ابن سعود» بالرئيس الأمريكي «روزفلت» على متن طراد أمريكي، ومن هناك توجه براً إلى الفيوم لزيارة «ونستون تشرشل» الذي رحب به «كصديق عند الضيق»، حيث سبق له أن وقف إلى جانب البريطانيين في أحلك أيام الحرب. وقد شكلت تلك الأحداث مرحلة مهمة من عمله السياسي، إذ كانت تلك الرحلة أول رحلة ممتعة يقوم بها «ابن سعود» منذ رحلته إلى البصرة التي قام بها قبل ثلاثين عاماً، وكانت تلك هي أول لقاءات يجريها مع شخصيات مهمة بالفعل، وكانت تلك أول تجربة له بالعالم الحديث وبأساليبه.

كان «ابن سعود» قد بلغ من العمر في تلك الفترة خمسة وستين عاماً، وبدأ يشعر بوقع ألم الروماتيزم في ركبته التي أصيبت بجرح في إحدى المعارك الماضية، لكنه عاد إلى الرياض ومعه هدية من الرئيس روز فلت، فقد كانت تلك الهدية الكرسي الخاص والمميز المشابه للكرسي الذي يستعمله الرئيس للتغلب على إعاقته، وتمسك «ابن سعود» منذ ذلك اليوم حتى نهاية حياته بذلك الكرسي الذي خفف عنه ألم وضعف ركبته.

وخلال هذين اللقاءين اللذين أجراهما مع زعماء الحرب العظام، تباحث

(١) كان اللقاء بين الملكين في منطقة رضوى بالقرب من ينبع ميناء المدينة المنورة على البحر الأحمر. (المراجعون).

«ابن سعود» معهما بكافة القضايا المتعلقة بمستقبل المملكة، كما تبادل معهما الآراء حول تصرفاتهم حيال دول العالم بشكل عام. وبعد عودته إلى الجزيرة العربية طلب منه أن يمعن النظر في مسألة مهمة للغاية وأن يتخذ قراراً بخصوصها، إذ رغبت بريطانيا وأمريكا من «ابن سعود» أن يؤدي دوراً في عالم جديد بدلته الحرب على نحو جذري. طلبتا منه أن ينضم إلى منظمة شكلت بهدف استمرارية السلام بشكل دائم بين الدول. وكانت الدول العربية الأخرى المستقلة قد دعيت أيضاً إلى الانضمام لهذه المنظمة الدولية. لكن بريطانيا وأمريكا اشترطتا على «ابن سعود» ليصبح عضواً مؤسساً في هيئة الأمم المتحدة أن ينتسب إلى عضوية التحالف الكبير الذي يضم الدول التي كانت في تلك الفترة منهمكة في إعداد المرحلة النهائية لإخضاع العدو. وكل ما كان مطلوب من «ابن سعود» لينضم إلى ذلك التحالف هو أن يعلن الحرب رسمياً على ألمانيا واليابان، وهما الدولتان اللتان بقيتا تقاتلان من بين دول المحور لكن «ابن سعود» امتنع عن فعل ما كان غير ملائم أو بالأحرى سخيفاً مثل أن يعلن الحرب على دولتين أصبحت الهزيمة من نصيبهما، علاوة على أن بلاده لم تكن على عداء مع هاتين الدولتين.

وانضمت المملكة العربية السعودية إلى صفوف الحلفاء اسمياً إن لم تكن فعلياً. وعندما حان الوقت المناسب توجه «ابن سعود» إلى «سان فرانسيسكو» لحضور المؤتمر بصفته عضواً مؤسساً في الأمم المتحدة التي كان الأمير «فيصل» يحضر اجتماعاتها السنوية بصفته وزيراً للخارجية. وفي مناسبات قليلة كان الشيخ «أسعد الفقيه» يقوم بمهمة تمثيل السعودية في تلك الاجتماعات. وكان «أسعد الفقيه» قد بدأ حياته كوزير في الحكومة

السعودية، وبعده كلف بمنصب سفير السعودية في واشنطن، كما سبق له أن شغل منصب سفير السعودية في «بغداد».

ربما لا يمكن لنا أن ندعي بأن المملكة العربية السعودية أو جيرانها من الدول العربية التي أدت دوراً فاعلاً في مناقشة أو تسوية المشكلات الرئيسة التي كانت تتأجج في عالم ما بعد الحرب، لكن تشكيل جامعة الدول العربية على نمط جسد واحد كبير وضع الدول العربية الأعضاء - بما فيها السعودية بالطبع- في موقف يمكنها جميعاً من التأثير على الرأي العام العالمي، وخاصة في قضايا تؤثر أولاً على مصالح شعوب منطقة الشرق الأوسط وبالتالي على مصالح العالم الإسلامي. ولا نشير هنا إلى مجموعة الدول العربية والآسيوية الأكبر حجماً من جامعة الدول العربية والتي سبق أن تعاونت في مؤتمر نيويورك لحماية مصالح العديد من الدول التي كانت سابقاً - والتي لا يزال البعض منها - تحت سيطرة الدول الغربية.

هناك مجال للشك بأن الأمم المتحدة (حتى ولو قدر لها أن تثبت عدم قدرتها على تحقيق الأهداف الرئيسة التي أوجدت من أجلها بسبب الصدع الظاهر بين الدول القيادية الكبرى فيها)، هيأت مناخاً للدول الآسيوية والأفريقية لتتقارع وتتناحر مع عمالقة دول الغرب. وربما هيأت الأمم المتحدة تلك الساحة بشكل غير متعمد أو غيز مقصود وبشيء من الإحراج الذي لحق ببعض الأعضاء المنتسبين إليها. وعلى أي حال، فإن تلك المشكلة لم تسبب في ذلك الوقت قلقاً مباشراً للمملكة العربية السعودية. وكانت جامعة الدول العربية بحد ذاتها منذ ولادتها منشقة إلى كتلتين بسبب التنافس الإقليمي بين أعضائها. لكن الأحداث ومرور الوقت لطفا من حدة

الخلافات التي كانت تفرق بين الأعضاء لدرجة كبيرة ومن دواعي سرور «ابن سعود» أنه عرف - قبل حلول أجله - أن الدول العربية كانت قد حققت قدراً من الانسجام فيما بينها، لذلك تشجع على تقديم مبلغ ضخم للدفاع عن الأردن ضد الاعتداء الإسرائيلي.

على أي حال يمكن القول بشكل عام إن «ابن سعود» لم يطمع في يوم من الأيام بمركز قيادة الجامعة العربية، كما أنه لم يتطلع ليكون ممثلاً عن العرب في منظمة الأمم المتحدة أو أن يحظى بمقعد في مجلس الأمن، فلم تساعده طبيعته الشخصية على التصرف في أمر تلوح بوادر فشله في الأفق، خاصة إذا كان لذلك الأمر علاقة بشرفه أو باحترامه لنفسه. وبكل الصدق يمكن القول هنا إنه كان يكلف أشخاصاً آخرين لمعالجة مثل تلك المشكلات، وخاصة إذا كان هؤلاء الأشخاص متمرسين في الأساليب الغربية المتبعة في ذلك العالم الجديد الذي أصبح ينظر إلى «ابن سعود» من منظور طموحاته التي حققها بجهده دون أي رغبة في المزيد من الفتوحات.

كان لدى «ابن سعود» أمور أخرى ليفكر فيها، وكانت تلك الأمور على درجة بالغة من الأهمية بالنسبة للمملكة التي أرسى أسسها والتي استمر في حكمها بدون مساعدة أحد ووسط تطورات غريبة جداً عن تجربته وخبراته. لا بد أن يكون موضوع التقدم في السن (ناهيك عن موضوع وهن الجسد الذي بدأ يحد من حركته) قد نبهه إلى حقيقة أن الوقت كان قصيراً لإنجاز ما تبقى عليه من الأعمال، وبالتالي العمل على وضع إدارة الحكم في المملكة على أسس راسخة وقوية لتقاوم عواصف ومحن المستقبل في عالم تمكن بالكاد من أن ينجو من جائحة عنيفة لم يسبق لها مثيل. لكنه وجد نفسه

حيال هاوية سحيقة لا تبشر بالخير. لم يكن «ابن سعود» الرجل الذي لا يهاب الصعاب والتي سبق له فعلاً أن تصدى لها بهدوء تميز به في كافة المعارك التي خاضها في الماضي، لكنه الآن أصبح مسناً ومتعباً ومعتلاً جسدياً، إلا أن شعوره بالمسؤولية وبالواجب المتأصل والمترسخ في شخصيته كان يدفعه إلى الاستمرار لدرجة أنه لم يكن متحمساً للعون المتوافر له والمتمثل في أبنائه الذين أصبحوا في تلك الفترة رجالاً متمرسين في شؤون هذا العالم، وبالعون الذي كان من الممكن أن يحصل عليه من العديد من المسؤولين الذي عملوا على خدمته بأمانة وإخلاص لزمن طويل.

في الحقيقة أن الأمير «سعوداً» الذي شغل منصب ولي العهد لمدة تزيد على عقد من الزمن، كان الساعد الأيمن لـ «ابن سعود» في إدارة حكم منطقة «نجد»، والحقيقة الأخرى أن الأمير «فيصلاً» كان ساعده الأيمن في إدارة أمور «الحجاز»، إضافة إلى تحمله مسؤولية أمور وزارة الخارجية. وفي الحقيقة أيضاً أن «عبد الله السليمان» الذي كان يشغل منصب وزير المالية كان المسؤول الحكومي الوحيد الذي يمكن أن يقال عنه بأنه كان يتمتع بسلطة مستقلة لكن خاضعة بالطبع إلى رضى صاحب الجلالة «ابن سعود»، وكانت سلطته المستقلة تلك محصورة في إدارة الأمور المالية للبلاد وفي الإشراف على نفقات وميزانيات معظم الجهات الحكومية.

كما كان كبار موظفي الدولة كافة يعملون بشكل حميم مع الملك كمستشارين له، في حين كانت الجهة الحكومية الوحيدة التي تعمل خارج هذه الدائرة التنفيذية من الديوان الملكي هي «مجلس الشورى» الذي كان يتخذ من مكة مقراً لعمله ويتألف من أشخاص مرشحين من قبل الملك

يمثلون المدن والمناطق الرئيسة في «الحجاز» وكانت تلك الهيئة كما يدل اسمها عليها هيئة استشارية لكنها عملت بالكثير من الكدح والعمل الجاد على فحص العديد من الخطط والمقترحات الصادرة عن وزير المالية وعن جهات حكومية أخرى، وأبدت الرأي فيها.

عمل الفريق العملي في الحكومة بشكل حسن في ظل ظروف بسيطة نسبياً عاشتها الجزيرة العربية في فترة ما بعد الحرب، وكان الملك يشرف شخصياً على كل مشكلة لا تستطيع الجهات المعنية في الدولة البت فيها. ومما يزيد من مآثر «ابن سعود» الخالدة أنه مهما بلغت به درجة العناء، فإنه كان دائماً متواجداً لسماع مشكلات وهموم رعاياه من مختلف الطبقات الاجتماعية الأغنياء منهم والفقراء، وكان يساعدهم في التغلب على مشكلاتهم، فكانت إحدى سجاياه. ومما كان لافتاً للنظر أنه كان باستطاعة «ابن سعود» وسط مشاغله الصعبة المرهقة أن يجد الوقت ليفكر وينجز الآلاف من أعمال الخير التي جعلت من ذكراه أمراً مبجلاً في أذهان آلاف البشر.

كان مقدراً لظروف المملكة العربية السعودية أن تتغير بشكل سريع، كما أن النظم الإدارية التي تم ترتيبها في النظام القديم لحماية الناس لم تعد كافية لتتعامل مع تدفق الثروات التي هلت فجأة على البلاد واستمرت تضغط بكامل ثقلها على كافة جوانب الحياة في العربية السعودية.

على أي حال كانت الفترة التي تلت الحرب فترة مختلفة تماماً، إذ إنها قريبة جداً من زمننا هذا على نحونستطيع أن نقدم معه تفصيلات للطريقة التي لمع فيها اسم المملكة العربية السعودية عالياً.

وبخصوص الوضع في المملكة العربية السعودية فلعله من الممكن الاعتراف بشكل مبرر جزئياً بأن الثروة أصابت بثرائها بلاداً نامية في أجهزتها الإدارية ولذلك ظلت حتى ذلك التاريخ محصورة في إيجاد توازن بين موارد الدولة المالية البسيطة وبين احتياجات المملكة المتزايدة بشكل متسارع. لقد تمكنت حكومة المملكة بفعل الفتوحات والتوسع أن تأخذ مكانتها بين بقية دول العالم، فكانت مستويات المعيشة فيها والخدمات العامة التي تقدمها الدولة مختلفة تماماً عن أي شيء مرت به الجزيرة العربية قبل ذلك التاريخ، ويعود الفضل في ذلك حقاً إلى التنظيم الإداري الذي نهجه «ابن سعود» والذي كان له الفضل في رفع مستوى تقدم البلاد ومستوى إمكانياتها لكن على حساب حدوث عجز بسيط في ميزانيتها. وقد جاء ذلك العجز على شكل ديون عامة، كان بالإمكان تصفيتها عن طريق ترشيد النفقات المخصصة من عائدات الدولة لفترة محدودة.

نتوقف هنا عن الحديث عن الوضع الإداري العام على مدى القرن الماضي من حياة «ابن سعود»، ولنعد إلى بداية فترة ما بعد الحرب إذ كان الشغل الشاغل للملك بعد أن وضعت الحرب أوزارها في كافة أنحاء العالم هو تنفيذ الوعد الذي قطعه على نفسه بزيارة مصر استجابة لدعوة الملك «فاروق» أثناء زيارته «للمدينة» و «ينبع» والتي حدثت في شهر كانون الثاني عام ١٩٤٦م وسط تظاهرات من الحماس والود التي حركت مشاعر أسد الصحراء.

عادت علاقات الصداقة التي أقامها «ابن سعود» مع الملك «فاروق» بالنفع الكثير على المملكة العربية السعودية التي اعتمدت منذ وقت طويل على

المساعدات المادية والفنية المصرية لتطوير مرافق الحياة في الحجاز لخدمة الحجاج ولصيانة الأماكن المقدسة. نظر «ابن سعود» إلى حادثة اغتيال «محمود فهمي النقراشي باشا» الذي كان في ذلك الوقت يشغل منصب رئيس الوزراء في مصر، على أنها خسارة شخصية له، وفي شهر تموز من عام ١٩٥٢م وفي عام ١٩٥٣م قامت في مصر ثورة سقط على أثرها الملك فاروق (ولأسباب شخصية أكثر من كونها متعلقة بسمات تلك المرحلة) شعر ابن سعود بالأسف. وفي عام ١٩٥٣م قدم «محمد نجيب» (الذي كان في ذلك الوقت رئيساً لجمهورية مصر) ليؤدي فريضة الحج، وتم استقباله وفق المراسم المرعية، وكان على رأس المستقبلين الملك «ابن سعود» وولي عهده.

علاوة على المساعدة العملية التي كانت السعودية تتلقاها من الحكومة المصرية، فقد تركت الحقول الخضراء والأبنية الضخمة في القاهرة انطباعاً مؤثراً في نفسية ملك الصحراء الذي لم يسبق له أن شاهد مثيلاً لها في حياته، علاوة على ذلك كان الأمير «فيصل» والعديد من إخوانه ومن الأمراء الآخرين قد عادوا من حفل تدشين الأمم المتحدة في مدينة «سان فرانسيسكو» وكلهم إعجاب ودهشة لكل ما شاهدوه في العالم الجديد. وسرعان ما جاء دور الأمير «سعود» ليقوم بجولة موسعة للولايات الأمريكية والتي عاد منها وهو يحمل تصوراً بعيد المدى عما يمكن أن يتم إنجازه في بلاده من أعمال في مجال الزراعة والكهرباء والنقل وأمور مشابهة أخرى.

تركت هذه التطورات أثرها في العربية السعودية، وسرعان ما بدت تتكشف مع تدفق جداول النفط بشكلها السريع، فانتشرت في مدينة الرياض الفلل والأبنية الفخمة والحدائق مع كافة وسائل الراحة المرفقة بها.

وتم بعث الحياة في كافة الشتلات والبذور التي تم جلبها من العالم الجديد إلى قلب الجزيرة العربية. إضافة إلى ذلك فقد تم جلب مضخات المياه الكهربية والأخرى التي تعمل على الديزل على نطاق واسع لتأمين المياه للأعمال الزراعية المتزايدة والتي تتجسد في مزارع الخرج الحديثة التي أشرف على تنظيمها وإدارتها خبراء أمريكيون. وكان مشروع الري والزراعة الحديث في تهامة عسير في مراحله الأولى من التطور، وأصبحت الطائف والخرج مركزين عظيمين للتدريب العسكري الذي أشرف عليه مدربون أمريكيون حلوا محل مدربين بريطانيين. وتم أيضاً إنشاء مصنع للذخائر والمعدات الحربية في منطقة الخرج بإشراف شركة فرنسية، وفي نهاية عام ١٩٥١م تم تحقيق حلم الملك عبد العزيز في إنشاء خط حديدي يربط الخليج بمدينة الرياض. وأصدر الملك تعليماته إلى المهندسين الأمريكيين ليشرفوا على مد ذلك الخط الحديدي ليمر في منطقة القصيم، والمدينة المنورة، وجدة، ومنها إلى مكة. والجدير بالذكر هنا أن مدينتي مكة وجدة مرتبطتان بطريق مسفلت منذ حوالي خمسة عشر عاماً، كما قامت شركة بريطانية بإتمام المئة كيلومتر من الطريق الذي يربط ما بين جدة والمدينة بتصميم من الطراز الأول ليخدم الحجاج وليسهل حركة المرور المزدحمة بين هاتين المدينتين.

وباختصار يمكن القول إنه في العقد الأخير من فترة حكم ابن سعود كانت قد تضافرت أواصر الاتصالات مع العالم المتحضر مع معجزة اكتشاف الوسائل الضرورية للتقدم، فأحدث في الجزيرة العربية نهضة اقتصادية واجتماعية تجاوزت حدودها مدى أحلام أولئك الذين شاهدوا القوات السعودية وهي تسير باتجاه جدة قبل ما يزيد على ربع قرن من الزمن. لكن

الرأي العام والرأي الرسمي بدءا يميلان لفكرة إنشاء جيش نظامي يتدرب على الطريقة الأوروبية ويرتدي زيّاً موحداً على غرار الزي الأوروبي، وذلك ليحل محل القوات التقليدية التي سبق لها أن رفعت راية «ابن سعود» من نصر إلى نصر حتى وصلت إلى أقاصي البلاد، لكن لم يتم فعلياً حل تلك القوات علماً بأن أفرادها استمروا في التقاعد إلى أن بعثت فيها الحياة من جديد وأعيد تشكيلها على هيئة فيالق عسكرية تركب الجمال وأطلق عليها اسم «المجاهدين». وضمت جنوداً من المقاتلين التحقوا بها من مدن وقرى «نجد» وكانت تلك المدن والقرى تشعر بالتزام أدبي بتقديم العون إلى حكومة «آل سعود» كلما اقتضت الحاجة. وأصبحت معسكراتها موزعة في أماكن مناسبة حيث يتوافر الماء والكلأ للجمال التي ألحق بها عدد لا بأس به من العربات والسيارات لحمل المؤن والمعدات.

عهد «ابن سعود» أمر حماية الحدود إلى الكتائب النظامية المحمولة على العربات والمجهزة بالسيارات المصفحة والمدافع، علماً بأنه لم يكن لديهم الكثير من الأعمال ليقوموا بها سوى المناورات وضبط طرق المهربين. أما في المدن الكبيرة ومناطق الحضر، فقد كانت الحاميات العسكرية هناك تكرس وقتها للتدريبات العسكرية والقيام بالاحتفالات، في حين دخلت نغمات المعزوفات الموسيقية – التي كانت تعزفها فرق موسيقية مؤهلة نوعاً ما – إلى مناطق كانت تعد في وقت ما مناطق يحظر عزف الموسيقى فيها. وقد جاء ذلك العزف ليخفف من عناء التدريبات والاستعراضات العسكرية، وبالتالي لتجلب المزيد من المتطوعين إلى صفوف الجيش والترفيه عن الجماهير.

ويذكر أن المناسبة الوحيدة التي استخدمت فيها وحدة من تلك الوحدات العسكرية التي اشتهرت القوة الواحدة فيها بقوة تعادل قوة اثني عشر وحدة عسكرية، كانت خلال عام ١٩٤٨م العام الذي شهد حرب فلسطين. حيث تقرر في ذلك العام إرسال كتيبة من هذه القوة لتشارك ضمن القوات المصرية في عمليات الجيش العربي ضد اليهود. ويعزو المدافعون عن القضية العربية فشل الجيوش العربية في إنقاذ فلسطين من براثن اليهود إلى تآمر الحكومة البريطانية التي كانت في الواقع قد تنصلت من مسؤوليات انتدابها على فلسطين قبل بدء الصراع بين العرب واليهود، وتركت للحرب مجالاً رحباً لتفصل في النزاع بين الطرفين.

إن السبب الحقيقي في هزيمة العرب في جهاد كان من الممكن أن يكون فيه نصرهم النهائي نتيجة حتمية، هو الحقيقة المؤسفة بأن الدول العربية المعنية كانت منقسمة وغير مجتمعة على الرأي.

أما الطرف الآخر من شبه الجزيرة العربية، فإن علاقة «ابن سعود» مع اليمن ومع حاكمها استمرت على حالة من الود والتعاون منذ توقيع معاهدة الطائف عام ١٩٣٤م.

وعلى أي حال تم في السابع عشر من شباط من العام نفسه نصب كمين للإمام «يحيى» الذي كان يقوم بجولة في السيارة برفقة رئيس وزرائه «عبدالله العمري» وتم القضاء عليهما، وفي غضون ساعة من الزمن وصلت أخبار تلك الجريمة إلى «ابن سعود» في الرياض واستمرت بعد ذلك وكالات الأنباء في العالم بنشر الخبر على مدى ذلك اليوم. وقد جاءت ردة فعل «ابن سعود» لتلك الكارثة على نحو متميز، إذ أمعن النظر وبصمت تام في البرقية التي

وصلته في اليوم التالي من «عبد الله بن الوزير» الذي أعلن فيها عن موت الإمام كما أعلن أن انتخابه كإمام وملك على اليمن قد تم بصفة دستورية ليحكم البلاد من خلال مجلس وزراء ومن خلال ممثلين منتخبين عن سكان البلاد. كما أرسلت البرقية نفسها إلى كافة الدول العربية الأخرى وتضمنت أيضاً مناشدة العرب في إرسال أي عدد من الطائرات المتوافرة للمساعدة على حفظ النظام والأمن في البلاد. وقد سارعت جامعة الدول العربية إلى تشكيل لجنة للتحقيق في أسباب ونتائج المشكلة على أرض الواقع، وقطعت تلك اللجنة سفرها جواً إلى اليمن وتوقفت في «جدة» لتزور «ابن سعود» في الرياض. وجاءت زيارتها للرياض في نفس الوقت الذي كان هناك وفد قد أرسله حاكم اليمن الجديد يزور الرياض أيضاً، وكان ذلك الوفد مشكلاً من «عبدالله بن علي» وهو ابن أخي «عبدالله بن الوزير» والشيخ «الفضيل الورتلاني» وهو من أصل مغربي، إضافة إلى شخصيات أخرى.

في تلك الأثناء كان الوريث الشرعي لعرش اليمن قد وصل إلى «حجة» قادماً من مقره الرسمي في «تعز» وأحرز تقدماً جيداً في حشد القبائل وأهل المدن لدعم قضيته، وبدأ موقف الغاصب للسلطة يتدهور بدليل المناشدة المذكورة التي وجهها إلى عدن، والرياض، وجامعة الدول العربية، وبريطانيا، وأمريكا، بل حتى إلى روسيا، لتقديم العون له. وفي الواقع لم يحظ «عبد الله بن الوزير» سوى بالدعم المعنوي المحدد من وفد جماعة الإخوان المسلمين في مصر والذي كان قد وصل إلى صنعاء. وفي تلك الأثناء كانت طائرات مصرية قد هبطت لإجلاء أعضاء البعثة التعليمية المصرية من اليمن.

لم تلق مناشدات «عبد الله بن الوزير» وكبار قادته العسكريين وهما (الأمير إبراهيم، ومحمد القبسي) آذاناً صاغية، لكن في الحادي والعشرين من شهر آذار انتهت تلك المشكلة عندما دخل الأمير «عباس» شقيق الملك الشرعي الإمام «أحمد بن يحيى» بقواته «صنعاء» وأجبر «عبد الله بن الوزير» وأصدقاءه على الاستسلام.

غادر الوفد اليمني الرياض محبطاً، لكنه لم يرجع إلى اليمن ولم تعد الآن هناك ضرورة لذهاب ممثلي جامعة الدول العربية إلى «صنعاء»، لذا غادروا السعودية إلى مصر. وفي اليوم الحادي والعشرين من شهر آذار تم نقل «عبدالله بن الوزير» وأتباعه من المتآمرين وهم مكبلون بالأصفاد إلى «حجة» وهي مقر حكومة الملك الجديد، وهناك وضعوا في سجون مختلفة ليحاكموا أمام محكمة شرعية. وفي يوم الثامن من نيسان عام ١٩٤٨م صدر في حقهم الحكم بالإعدام، وبصدور ذلك الحكم انتهت أزمة اليمن المأساوية.

كان «ابن سعود» مقتنعاً تماماً بأن الدول العظمى كانت تعد نفسها بشكل حثيث لحرب عالمية ثالثة، ونظر إلى ذلك الوضع على أنه النتيجة الحتمية الممكنة لعداء الدول الغربية للدول الشيوعية ذلك العداء المستتر وراء حجاب شفاف.

نظر «ابن سعود» إلى ظهور الشيوعية واختراع أدوات ووسائل التدمير الشامل، على أنها ليست مجرد نذير بنهاية الحضارة الإنسانية فحسب، بل هي تحذير إلهي باقتراب يوم القيامة في حد ذاتها. هذا وقد وجد «ابن سعود» نفسه مهتماً ومشغولاً بمشكلات جيرانه.

ظهرت خلال الأشهر الأولى من عام ١٩٤٨م أوضاع لافتة للنظر في العراق، إذ أسفرت التظاهرات التي قام بها الطلاب والعمال احتجاجاً على الاتفاقية الجديدة المقترح إبرامها مع بريطانيا عن إصابات خطيرة في صفوف المتظاهرين، كما أسفرت عن سقوط رئيس الوزراء العراقي السيد «صالح الجبر» وهروبه من البلاد، كما اختفى «نوري باشا» أيضاً عن الأنظار. لكن بعد مضي بضعة أشهر وبعد أن هدأت العاصفة عاد «نوري باشا» إلى العراق وترك الأمر للأمير «عبد الإله» الوصي على العرش المجال ليهدئ من حماسة الناس. فأعلن بأنه لن يصادق على الاتفاقية التي كانت قد وقعت في السادس عشر من كانون الثاني على متن سفينة صاحب الجلالة «فيكتوري» في ميناء «بورت سموث». وكان العراقيون رافضين لها مادامت بنود تلك الاتفاقية تقر استمرار الترتيبات السابقة والخاصة باحتلال القوات البريطانية لقواعد جوية مختلفة في العراق.

سبق أن ناقشنا بإسهاب موضوع المشكلات في فلسطين، والتي تزامنت مع الأحداث الأخيرة في العراق، لكن لا بد أن نشير هنا إلى أنه نزولاً عند مبدأ التضامن العربي في مثل هذه القضايا سمح «ابن سعود» بجمع تبرعات لصالح القضية الفلسطينية وعين ابنه «محمداً» رئيساً للجنة المكلفة بتلك المهمة. إضافة إلى هذه المساعدة المالية المقدمة إلى قضية فلسطين، صدرت عن الملك في شهر كانون أول عام ١٩٤٧م التفاتة كريمة بتجنيد المتطوعين للخدمة العسكرية. وتجلت تلك البادرة في التوجيهات التي صدرت لكافة حكام مناطق «نجد» لفتح مراكز تسجيل للمتطوعين الذين تتراوح أعمارهم ما بين عشرين إلى خمسين عاماً، وتجلت أيضاً في دعوته لاثنين من زعماء كل قبيلة لزيارة الرياض لتنسيق الجهود.

كان متوقعاً أن يتم من خلال هذا الإجراء حشد قوة تقدر بثلاثمائة ألف رجل، لكن كما أشرنا سالفاً لم يشاهد فلسطين من العرب السعوديين سوى الكتيبة النظامية التي انضوت تحت لواء القوات المصرية[1].

تم في قصر الحكم بالرياض مناقشة موقف كل من أمريكا وبريطانيا حيال المشكلة برمتها، كما تمت مناقشة الحوار بين أطراف النزاع الذي تميزت به وقائع الأمم المتحدة، وكذلك تمت مناقشة إصرار الملك «عبد الله» (حاكم مناطق عبر الأردن والذي سرعان ما أصبح ملكاً على الأردن) في أن يتزعم القضية العربية وأن يحتل ما يمكنه احتلاله من فلسطين لصالحه الشخصي. تمت مناقشة كافة هذه القضايا بحرية، وبدا تصرف الملك بأن البريطانيين لن يتركوا فلسطين في نهاية المطاف بسبب مصالحهم الاستراتيجية في المنطقة، وبين مخاوفه من أن البريطانيين سيسلمون الجزء العربي من فلسطين للملك «عبد الله»، أو أن ينقلوا حاميتهم العسكرية من فلسطين إلى مناطق عبر الأردن لمنع أي هجوم يقوم به العرب ضد اليهود. لكن «ابن سعود» التزم بموقف واحد على الدوام.

وحيال هذه الخلفية الدولية غير المرضية احتفل «ابن سعود» في الثامن عشر من شهر تموز عام ١٩٥٠م باليوبيل الذهبي لفترة عهده كملك عظيم في الجزيرة العربية.

(١) الواقع أن المشاركة السعودية في التطوع في حروب فلسطين بخلاف ما أشار إليه المؤلف، وقد رصدت جريدة أم القرى بعض الجوانب الرسمية والشعبية من أجل الدفاع عن فلسطين، كما صدر أيضاً كتاب: «سجل الشرف؛ ذكرى الخالدين» لفهد المارك وهو كتاب يرصد أسماء بعض المتطوعين والمتبرعين السعوديين في حروب فلسطين نقلاً عن سجلات جامعة الدول العربية. (المراجعون).

احتفلت دول العالم التي كان لها علاقة دبلوماسية مع المملكة العربية السعودية بهذه المناسبة وأقيمت حفلات الاستقبال وأذيعت الكلمات الخطابية التي عددت مآثر المملكة. وقد عكست تلك الاحتفالات إعجاب دول العالم وحبها المستلهم من إنجازات وشخصية الرجل الذي قاد شعبه من قفار الصحراء إلى إقامة العلاقات الطيبة مع الدول الأخرى. وقد كانت الاحتفالات في المملكة تتم بشكل متقن لتظهر ولاء وعرفان شعب المملكة للملك الذي دامت فترة حكمه مدة خمسين عاماً.

ومع حلول ذلك التاريخ كان قد مضى على بداية الحرب الكورية حوالي ثمانية عشر شهراً، كما أن الوضع في منطقة القناة المصرية كان يزداد صعوبة وتعقيداً، علماً بأنه في تلك الفترة لم يكن انقلاب الثالث والعشرين من شهر تموز الذي أطاح بالملك «فاروق» قد حصل، كما أنه لم يحدث إلا بعد ستة أشهر من هذا التاريخ على أي حال لم تتأثر المملكة العربية السعودية بشكل مباشر بهذه التطورات.

وقفت المملكة العربية السعودية مع الدول العربية الأخرى وقفة رجل واحد في دعم موقف مصر المطالب بجلاء القوات الأجنبية عن قناة السويس. ولقيت الأعمال الوحشية والفظائع التي ارتكبت في السادس والعشرين من شهر كانون الثاني، كما لقيت بعض تصرفات حكومة «الوفد» في تلك الفترة بعض الانتقادات والاستنكار. أما بخصوص كوريا فكان ينظر إلى الحرب فيها على أنها بداية صراع أكثر شمولاً ولا يتوقع له أن يتفجر خلال حياة «ابن سعود»، لذا لم تُبد المملكة اهتماماً كبيراً بالوضع هناك، خاصة بعد أن تم التوصل إلى الوضع الحرج المتعلق بخط الثمانية والثلاثين الذي نجم عن توغل القوات الشيوعية ورد القوات الأمريكية عليه،

ولم تشارك الدول العربية في مبادرة الأمم المتحدة الرامية إلى التعاون مع القوات الأمريكية المتورطة في القتال الذي كان ينظر إليه على أنه مجرد اختبار تحمل وثبات بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي.

أدى الاتفاق الألماني الإسرائيلي الخاص بإصلاح الأوضاع فيما بينهما إلى ظهور قضية على درجة من الأهمية محلياً. فقد لاحظ المراقبون خلال فترة سبقت ذلك الاتفاق، تحولاً ملحوظاً في السياسة السعودية الخاصة بالمجال الاقتصادي المتعلق بمصالح الحكومة الألمانية، وجاء ذلك فقط لإيجاد توازن مع الاحتكارات الفعلية الأمريكية. وكان لموضوع الأسعار -ولاعتبارات سياسية أخرى، إضافة إلى مشروعات غير ناجحة عهد بها إلى شركات بريطانية- دور في إخراج بريطانيا من دائرة ذلك التعاون. كما كانت وزارة المالية التي سيطرت تماماً على مسرح الأحداث بموجب مبادرات نشطة قام بها «عبد الله السليمان»، قد قطعت شوطاً على طريق التفاهم مع العديد من الشركات الألمانية بما فيها شركة «فيليب هولزمان» المشرفة على خط سكة الحديد المشهور الذي يربط بغداد ببرلين.

كانت شركة «فيليب هولزمان» في تلك الفترة قد أعدت خططاً لتطوير وتحسين ميناء «الدمام». وفي الوقت الذي كانت فيه تلك الشركة تدرس عدداً من المشروعات المتعلقة بالطرقات الحديدية، جاء قرار جامعة الدول العربية القاضي بمقاطعة كافة الشركات التجارية والصناعية الألمانية، وسارت المملكة في خط هذه السياسة.

على أي حال صادقت الحكومة الألمانية على اتفاقيتها مع إسرائيل بصرف النظر عن غضب وفود الدول العربية المحتجة على تلك الاتفاقية.

والآن قد جاءت وفاة الملك لتوقف نشاطات المملكة بذلك الخصوص، وجاءت تلك الوقفة لتمكن السلطات الجديدة من تولي العديد من الأمور التي خلفها لها العهد الماضي، ولتعد خططها للمستقبل بثقة تتعلق بمرحلة طويلة قادمة من السلام والرخاء. ولم يكن هناك كما لم يكن في السابق أي ميول للتوصل إلى تسوية مع اليهود بالذات حول أي موضوع سياسياً كان أم تجارياً. فوصل عدد الشركات اليهودية من كافة دول العالم المدرجة على قائمة المقاطعة إلى رقم كبير، وكان التعامل معها في المملكة العربية السعودية أمراً محظوراً للغاية. وكان من غير المحتمل أبداً أن تخفف معزوفة «البجع» للسيد «ابن غوريون» من حرارة العداء الذي يعزل الدولة الإسرائيلية عن بقية جيرانها من الدول العربية. إضافة إلى حقيقة أن «ابن سعود» كان قد وضع لبلاده وبشكل عام سياسة تعاون ودي مع جامعة الدول العربية في كافة القضايا ذات الأهمية العامة أو الأهمية الدولية الخاصة للدول العربية مجتمعة أو كل دولة على حدة.

إنه من الصعب تقدير إلى أي مدى اعتنى «ابن سعود» شخصياً بهذه القضايا خلال السنوات الأخيرة من عمره، وبالتحديد في الفترة التي كان اهتمامه فيها يتزايد بشكل مضطرد بالأمور الداخلية لمملكته، مثل حفظ النظام والقانون، والأمور الشخصية الأخرى المتعلقة بالخطأ والصواب في مشروعات كانت تستهويه شخصياً مثل مشروع إنشاء سكة حديد الرياض - الدمام الذي أصر على إنشائها منذ البداية بالرغم من كل الآراء التي طرحها الاقتصاديون المدققون والتي عارضت تلك الفكرة. كما يمكن الإقرار الآن وبدون الدخول في التفاصيل أن الانتعاش الاقتصادي الذي تتمتع به المدن والمناطق العديدة في

المملكة بسبب سكة الحديد تلك، لأكبر دليل وشاهد على صحة قرار الملك بإنشاء ذلك الخط الحديدي.

والجدير بالذكر هنا أن «ابن سعود» لم يتوقف في يوم من الأيام عن ممارسة إشرافه الحاسم على الأمور الإدارية المتعلقة بشؤون الدولة. وعلى صعيد مصالح البلاد المتعددة الأشكال تزايدت رغبة «ابن سعود» في ترك مجرى القضايا المهمة لولي العهد، وخاصة بعد عودته من زيارة طويلة قضاها في الولايات المتحدة الأمريكية. وقد أخذت مكانة ولي العهد تتزايد وتقوى إلى أن تحول خلال السنوات الأخيرة ليصبح الشخصية السائدة في إدارة حكم المملكة. وظل والده بعيداً عن الأضواء يقدم له النصح والمشورة في أمور تعينه على التغلب على الصعاب. وقد اتضح قبل بضع سنوات من دنو الأجل بأن عقارب ساعة الأجل كانت تتسارع لتعلن نهاية رجل قضى حياته في مقارعة المحن والانتصارات، ولم يعد بإمكانه الآن إلا أن يراقب السحب المتراكمة فوق عالم مليء بالمشكلات وفي صدره الكثير من المخاوف والقلق على وطنه الحبيب الذي سيعتمد مستقبله على رجال لهم خبرة كخبرته على مستوى مهارته في إدارة شؤون البلاد. . .

ليس إلا لأنهم تدربوا على مهنة الحكم على يديه وهي مهارة ورثها بدوره من أجداده وأسلافه، ومارسها بتفوق متميز. وعاش في خلوة فعلية في الرياض منذ أن عاد من رحلة الحج التي قام بها في شهر أيلول من عام ١٩٥٢م، حيث كانت حرارة ذلك الصيف في مكة على أشدها. وبدا عليه الكبر ووهنت صحته وأصبح الآن مضطراً بسبب العلة في ركبته أن يستخدم كرسيه المتحرك في كافة تحركاته، ومع ذلك أصر على أن يحافظ - قدر

الإمكان - على العادة التي مارسها طيلة حياته والخاصة بأمور تتعلق بحق رعاياه في الدخول إلى مجلسه في أوقات محددة، لكنه نادراً ما كان يغادر فناء قصره الكبير في منطقة «المربع» علماً بأنه قضى جزءاً من صيف عام ١٩٥٢م في قصر ولي العهد بمنطقة «البديعة» الواقعة في وادي «حنيفة». وكان ظهوره شخصياً ليرأس الافتتاح الرسمي لسكة الحديد في مدينة الرياض عام ١٩٥١م آخر عمل مهم يقوم به وسط احتفال جماهيري.

أما في أواخر صيف عام ١٩٥٣م فقد حضر «ابن سعود» بعض الاحتفالات الشعبية في «الطائف» التي وصل إليها بطائرته الخاصة «سكاي ماستر» ليقضي فيها آخر أشهر عمره.

وفي منتصف شهر تشرين الأول تعرض «ابن سعود» إلى نوبة قلبية حادة سببت قلقاً بالغاً وأرقت مضاجع كافة أبناء المملكة وأبناء المناطق الأخرى، وبدأت برقيات التعاطف والأمنيات له بالشفاء العاجل تهل على المملكة، وكان من بين البرقيات التي وصلت برقية من ملكة بريطانيا. وعند شفائه من تلك الأزمة أصر مجدداً على عادته في استقبال المواطنين، لكن تحددت تلك الاستقبالات بمرة واحدة في عصر كل يوم، وذلك ليرى شعبه ولتتاح الفرصة لشعبه في أن يراه، إلا أنه مع معاودة حدوث المرض عند نهاية ذلك الشهر اضطر إلى الاعتكاف في غرفته، وهناك وفي تمام الساعة العاشرة والنصف من صباح يوم التاسع من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٥٣م، وبحضور العديد من أبناء أسرته الكبيرة لفظ الملك العظيم أنفاسه الأخيرة. وفي عصر اليوم نفسه أقيمت على جثمانه صلاة الميت في الجامع الكبير في «الطائف» وحضر صلاة الجنازة تلك حشد غفير من أبناء شعبه،

وبعدها نقل جثمانه جواً إلى الرياض برفقة الأمير «فيصل» وأبنائه الآخرين. وفي مساء اليوم نفسه وبعد أن صلى أبناء عاصمته صلاة الميت عليه ووري جثمانه ثرى الرياض ليرقد إلى جانب قبر والده. وهكذا انتهى عهد حكم وملك عظيم، ومع انتهائه تنتهي سلسلة عرض الأحداث والمنجزات التي قامت بها الأسرة الحاكمة التي حكمت الجزيرة العربية لخمسة قرون، والتي يبدو من المؤكد أنها ستحكمها على مدى أجيال عديدة قادمة. لقد مات الملك إلا أن اسمه سيبقى خالداً.

الكشاف

كشاف بأسماء الأعلام والأشخاص والقبائل وغيرها

(أ)

(ت)

(ح)

(خ)

(د)

(ز)

(س)

(ن)

كشاف بأسماء الأماكن والمواضع والجبال والأودية وغيرها

(ب)

(ز)

(س)

(ص)

(ض)

(ط)

(غ)

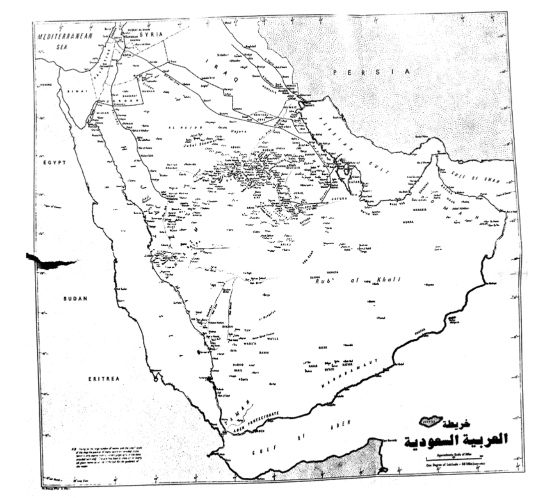
(ف)

(ق)

(ك)

(ن)

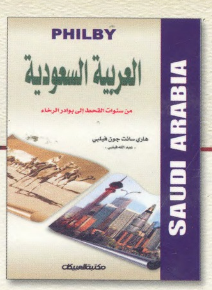
(ي)



MEDITERRANEAN SEA
SYRIA
IRAQ
PERSIA
JORDAN
SINAI
EGYPT
KUWAIT
PERSIAN GULF
QATAR
GULF OF OMAN
OMAN
SUDAN
ERITREA
Rub' al Khali
HADHRAMAUT
YAMAN
ADEN PROTECTORATE
GULF OF ADEN
ADEN
خريطة
العربية السعودية

قائمة كتب فيلبي
التي تحت الطبع

١ - حاج في الجزيرة العربية. / طُبع /
A Pilgrim in Arabia
٢ - مغامرات النفط العربي. / طُبع /
Arabian Oil Ventures
٣- الربع الخالي. / طُبع /
The Empty Quarter
٤- بنات سبأ. / طُبع /
Sheba's Daughters
٥- أيام عربية. / طُبع /
Arabian Days
٦- العربية السعودية. / طُبع /
Saudi Arabia
٧- نجود الجزيرة العربية.
Arabian Highlands
٨- الذكرى الذهبية
للمملكة العربية السعودية.
Arabian Jubilee
٩- أربعون عاماً في البرية.
Forty Years in The
Wilderness
١٠ - قلب الجزيرة العربية.
The Heart of Arabia
١١ - أرض مدين.
The Land of Midian
١٢ - جزيرة العرب الوهابية.
Arabia of The Wahhabis



تعد كتب فيلبي أول موسوعة معربة مختصرة لتاريخ المملكة العربية السعودية، حيث غطت حقبة زمنية مهمة، وقد تناول فيها فيلبي تاريخ المملكة وجغرافيتها وأعلامها وآثارها واقتصادها وقبائلها بأسلوبه الرصين، وتحليله العلمي الدقيق، وقد دعم ذلك كله بالكثير من الصور الشمسية التي تعين القارئ على تصور الأشياء وحسن فهمها.

وقد جاء عمل فيلبي هذا ثمرة للمدة الطويلة التي أقامها في المملكة واتصاله بالملك عبدالعزيز -يرحمه الله- مما أتاح له فرصة التنقل في مختلف أرجاء الجزيرة العربية، والاطلاع على المواقع الأثرية والنقوش القديمة. وقد تم انتقاء مجموعة من هذه الكتب لنشرها في سلسلة تاريخية؛ لتكون رافداً ثقافياً لأبناء هذا الجيل، ومن هذه الكتب كتاب (**العربية السعودية**) الذي تناول فيه المؤلف بشكل شامل وأسلوب منطقي الإنجازات التي قام بها آل سعود منذ ما يزيد على مئتي عام وحتى الوقت الذي كان يعيشه، على أن حديثه عن النظام القديم وما جرى فيه من أحداث جاء موجزاً وسريعاً ليفسح المجال للحديث عن الإدارة الجديدة للدولة السعودية الحديثة ممثلة في شخص الملك عبدالعزيز -يرحمه الله- الذي جسدت شخصيته سمات آبائه وأجداده.

لقد أنشأ -يرحمه الله- دولة كبيرة أسست على الشريعة الإسلامية. على أن سجل منجزاته سيبقى خالداً وسمعته محفوظة مدى العصور.

ومكتبة العبيكان يسرها أن تقدم للقارئ الكريم هذه الكتب لأول مرة باللغة العربية منها لأهمية الدور الثقافي الذي تقوم به خدمة للوطن، وأداءً لواجبها في إبراز المضيئة من تاريخها لأبناء هذا الوطن الغالي، راجية الفلاح للجميع.

هذا والله من وراء القصد.



ردمك: ١ - ٠٤٤ - ٤٠ - ٩٩٦٠

